المملكة العربية السعودية .
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

عام
١٣١٩هـ ١٤١٩هـ
المملكة العربية السعودية
K.S.A. 100 YEARS
توحيد وبناء

الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي

المجلد الأول

انتشار الإسلام

طبع على نفقة

الشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي

نشرت بمناسبة مرور مائة عام على تاسيس المملكة العربية السعودية

شوال ١٤١٩هـ

الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي

انتشار الإسلام

المحتوى

هيئة الإشراف

مدير الجامعة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي	رئيسًا
وكيل الجامعة للشؤون التعليمية الدكتور صالح بن سعود آل علي	عضوًا
الأمين العام للجامعة الدكتور محمد بن سعد السالم	عضوًا
عميد البحث العلمي الدكتور فهد بن عبد الله السماري	عضوًا
المشرف العلمي على الموسوعة الدكتور عبد الفتاح محمد وهيبة	عضوًا

هيئة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

التقـــديـــم

بقلم : معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى
مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين وخاتمهم ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان .

إن الإسلام دين عالمي .

ومن خصائص عالميته :

* أن الأرض كلها هي ساحة عمله ودعوته .

* وأن الناس جميعا هم « موضوع » رسالته ، وهدف بلاغه .

ووفـق هـاتين الخاصيتين : اتصل الإسلام بالناس كافة ، ومشى في بقاع الأرض كلها .

وتنتظم هاتان الخاصيتان مجالي الجغرافيا ، وهما :

* الجغرافيا الطبيعية .

* والجغرافيا البشرية .

ولقد استغرقت مسيرة الإسلام في الأرض ، وبين الناس أكثر من أربعة عشر قرنا حتى الآن .

وتكونت للإسلام من خلال هذه المسيرة « جغرافيا بشرية » في قارات الأرض جميعا .

وما الجغرافيا البشرية ؟

إنها « العلم » الذي يتناول – بالوصف والتحليل – :

أ – حجم السكان وخريطة توزيعهم .

ب – الهجرات .

جـ – المقومات المعنوية (الدين والثقافة والأعراف) .

د – بيئة الاستقرار وإمكاناتها الطبيعية .

هـ – العمران والنشاط البشري (العمل أو الإنجاز الحضاري) .

إلى غير ذلك من العناصر التي ينتظمها هذا العلم .

إذن . فعلم الجغرافيا – بشقيه : الأرض وعمارها – جد مهم ، وجد نافع ، ولذا أولى المسلمون – في وقت مبكر – هذا العلم ما هو خليق به من الدراسة والإضافة والتطوير .

لقد تألق في هذا المجال أعلام نذكر منهم : البتاني ، والبلخي ، والمسعودي ، وابن حوقل ، والاصطخري ، والمقدسي ، واليعقوبي ، والبيروني ، والإدريسي ، والقزويني ، وياقوت الحموي ، وابن خلدون ، والصفاقسي .

ومن هؤلاء من عرض لهذا العلم ودرسه بوجه عام ، ومنهم من أضاف إلى ذلك جهدا خاصا في العناية بالجغرافيا البشرية مثل : الإدريسي في « نزهة المشتاق » ، والحموي في « معجم البلدان » ، واليعقوبي في « البلدان » ، وابن خلدون في فصول « العمران البشري » من مقدمته .

وفي العصر الحديث اكتسبت الجغرافيا أهمية أجدى ، وقيمة أعلى حيث دخلت في صميم « التخطيط الاستراتيجي » .

فهناك « استراتيجية » الموقع .

وهناك « استراتيجية » الاقتصاد .

وهناك « استراتيجية » الطاقة البشرية .

وهذه القضايا هي خلاصة مركزة للجغرافيا الطبيعية ، والجغرافيا البشرية .

واستهداء بعالمية الإسلام التي انتظمت الأرض كلها ، والناس أجمعين .
ووصلا لجهود السابقين من المسلمين في علم الجغرافيا .
ورغبة في إضافة الجديد النافع إلى تلك الجهود .
وتقديرا للأهمية المتزايدة للجغرافيا فى العصر الحديث .

لأجل ذلك كله ، تصدر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الجزء الأول من « الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي » وهذا الجزء هو باكورة لسلسلة تنتظم سبعة عشر مجلدًا تصدر متتابعة بعون الله وتوفيقه .

ويختص هذا المجلد بتقديم وصف علمي دقيق لخريطة انتشار الإسلام ، وامتداد حضارته في قارات العالم القديم وهي : آسيا ، وإفريقيا ، وأوروبا .

وستشمل الأجزاء التالية من الموسوعة – وبالتفصيل الموثق – جغرافية العالم الإسلامي جميعها .

إن العالم الإسلامي عالم ضخم الحجم ، واسع المساحة ، كثيف السكان ، طويل التاريخ ، وافر الإمكانات والخبرات ، حيوي المواقع ، متعدد الأعراق ، مفعم بالإنجازات الحضارية ، والأعمال الجليلة .

وهو – في الوقت نفسه – عالم يدين بالإسلام ، ويتآخى في ظلاله .

لا جرم أن جغرافية هذا العالم – بما فيها من معلومات أساسية ، وحقائق موضوعية – تعد مصدرا ضروريا وثرا للباحثين في كل مجال تقريبا :

فهي مصدر للباحثين في الاقتصاد والتنمية .
وهي مصدر للباحثين في شؤون البيئة .
وهي مصدر للباحثين في العلاقات الدولية والسياسية .
وهي مصدر للباحثين في مجال الدعوة .
وهي مصدر للباحثين في الميدان الاستراتيجي .
وهي مصدر للباحثين في حقل التراث .
وهي مصدر للباحثين في مجال الفن المعماري .

وهي مصدر للباحثين في مجال الوحدة والتنسيق والتكامل .

ولم يكن العالم الإسلامي ليقوم ويمتد لولا وجود الأصل والمنبع .

إن التفسير الحقيقي لهذا الانداياح السريع والواسع النطاق إنما ينبثق من طبيعة الرسالة الإسلامية .

فرسالة الإسلام لم تكن للعرب وحدهم ، وإنما كانت للناس جميعا ، أيًّا كانوا وحيثما وجدوا :

* قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف آية : ١٥٨] .

* قال رسول الله ﷺ : « بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا » .

وفي ضوء هذا المفهوم الجلي الكبير ، وبموجب الشعور العميق بالمسئولية العظيمة ، وبعد أن استمكن الإسلام من جزيرة العرب ، ودان له قلبها وأطرافها ، نشط المسلمون ، وانطلقوا في العالم يبشرون بالدين الحق .

ألا إنه النور الذي انبثق في مكة المكرمة ، فامتد ضياؤه إلى كل أفق : ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى] .

ولئن وفق الله تعالى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لإنجاز هذا العمل العلمي وتيسيره للناس ، فإن لذلك سببا .

فجامعة الإمام جزء من نهضة شاملة تحياها المملكة العربية السعودية ولقد قيض الله لهذه النهضة رجالا يغرسون غرسها ، ويتعهدونه بالرى ، والمخصبات ، ويسهرون على رعايته وحمايته ، وعلى رأس هؤلاء الرجال وفي

مقدمتهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله .

والحمد لله الذي إذا أراد شيئا يسر له الأسباب، وقيض له الرجال العاملين .

وإني لأشكر كل من أسهم في إخراج هذا العمل وإصداره ، سائلا الله للجميع المثوبة ، والحمد لله من قبل ومن بعد .

مدير الجامعة

الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

كلمَة عمادة البَحث العلميّ

تولي عمادة البحث العلمي اهتماما متزايدا بشؤون البحث العلمي والتأليف والترجمة فيما يخدم أهداف الجامعة ورسالتها السامية . وخطت خطوات متميزة في إصدار كثير من البحوث والكتب العلمية .

ولدَى عمادة البحث مشروعات علمية طموحة بدأت في إصدار بعضها منذ سنوات وها هي اليوم تصدر مشروعا جديدا من مشروعاتها وهي هذه الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي وهي من أجلّ المشروعات العلمية التي تقوم بها .

ومنذ كلفت العمادة بتنفيذ هذا المشروع اتخذت الإجراءات الخاصة بحسن إخراجه تمهيدا لإصداره . فعين له مشرف ومن بعد هيئة تحرير وهيئة إشراف عليا . وقد قام المشرف العلمي بالاشتراك مع العمادة بوضع مخطط علمي تنظيمي حددت فيه أهداف الموسوعة والغاية من وراء إصدارها وعدد أجزائها وما يضمه كل جزء من أبحاث . وتطلّب الأمر كذلك وضع خطة منهجية محددة يسترشد بها الباحثون الجغرافيون حفاظا على المستوى العلمي وتجنبًا للاختلافات الفردية في المحتوى والمنهج ، مما قد يصرف بعض المشاركين عن الهدف المرجو من إصدار هذا العمل .

وقد حرصت العمادة على أن يكون المشاركون في كتابة البحوث من جغرافيين ومؤرخين من بلدَان العالم الإسلامي ، كلما كان ذلك ممكنا ، لما في هذا من تعبير عن وحدة الأمة الإسلامية وتضامنها في سبيل هدف مشترك .

وحرصا من العمادة على الدّقة والأمانة العلمية ، فقد أخذت بمبدأ التحكيم

بعد فترة من بداية المشروع وكان لذلك أثره الكبير في تعميق البحوث وصقل لغتها وسلامة توثيقها .

وبعد فإن إخراج هذه الموسوعة لم يكن سهلًا ميسّرًا فقد اعترضته عقبات لعل أهمها : اعتذار بعض الباحثين بعد تكليفهم بالكتابة في موضوعات معينة ، وطول المدة التي استغرقتها كتابة بعض البحوث ، وصعوبة الاتصال ببعض الباحثين . ولا نقلّل كذلك من دور تقويم البحوث في تباطؤ العمل حرصا على الإتقان .

والآن وقد بدأ الإصدار فإن العمادة تقدم شكرها للجامعة على دعمها المستمر وعلى رأسها معالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ولهيئة الإشراف على توجيهاتها السديدة ولأعضاء هيئة التحرير لما بذلوا من جهد مشكور .

وعلى الله قصد السبيل ...

عميد البحث العلمى
دكتور / فهد بن عبد الله السمارى

كلمة هيئة التحرير

كانت التوصية بإصدار موسوعة جغرافية للعالم الإسلامي من أهم التوصيات التي اعتمدها المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول الذي عقد في رحاب هذه الجامعة فيما بين ٢٢ - ٢٨/ ١٣٩٩/٢هـ/ ٢٠ - ١٩٧٩/١/٢٦م . ومنذ أن وافق معالي مدير الجامعة على تنفيذ هذا المشروع العلمي الرائد والجهود تبذل من أجل إخراج عمل يكون على مستوى الآمال التي عقدت عليه .

لاشك أن هذه الموسوعة الجغرافية هي امتداد لجهود المسلمين العلمية خلال تاريخهم الطويل الحافل بالمآثر ، فقد ألفوا الموسوعات الجليلة التي حوت مادة جغرافية قيمة وصنفوا المعاجم الجغرافية . وكانت الجغرافية التراثية تنقسم إلى ثلاثة أنواع هى: الجغرافية الرياضية والجغرافية الوصفية (العامّة) والجغرافية الإقليمية . ومع ذلك لم يكن الفصل بينها صارما فقد تختلط الجغرافية الرياضية بالإقليمية وقد يجمع الكاتب بين الجغرافيتين الوصفية والإقليمية . ويكمن تفسير ذلك في سيادة العلم الموسوعي الذي لم يكن يعترف بالتخصص وليس أدل على ذلك من أن اللغويين اشتغلوا بالجغرافية الوصفية بقدر ما اشتغل بها غير اللغويين فقد أخضعوها لمطالبهم وصاغوا منها ما عرف بكتب الأنواء التي احتوت صنوف الملاحظات عن الطقس ، وظواهر الطبيعة الأخرى مصحوبة بتعليقات لغوية . ولعل أشهر كتب الأنواء هو كتاب لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) فقد كان أكمل كتب الأنواء وأتمها في فنه .

وإذا كان الاهتمام اللغوي قد طغى على المنهج الواقعي في جميع الأحوال فإن المادة الجغرافية التي احتوتها مصنفات الأنواء أصبحت من الضخامة بعد سنين بحيث كشفت عن نواح أخرى للجغرافية . ففي منتصف القرن الثاني للهجرة

(الثامن الميلادي) وضع النضر بن شميل وهو من أصحاب كتب الأنواء موسوعة شاملة – لم تصلنا – عن الحياة البدوية أسماها « كتاب الصفات » للجغرافية الوصفية فيها نصيب كبير وإن كانت تختلط – كما هو متوقع – بمعارف عن الإنسان والحيوان والنبات والأخبية وصفات الجود والكرم عند البادية .

وقد انصرفت الجغرافية الإقليمية التي عالجها اللغويون أول الأمر انصرافا تاما إلى جزيرة العرب ، لكن هؤلاء اللغويين قصروا اهتمامهم كما يقول ياقوت على ذكر البوادى والقفار وما بها من منازل العرب الواردة في أخبارهم وأشعارهم . أما وصف المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة فقد كانت من اهتمام آخرين من غير اللغويين .

ولعل أشهر من ترك تراثا جغرافيا لغويا في ذكر أسماء الأماكن هو هشام الكلبي (ت ٢٠٦ هـ/ ٨٢٠ م) الذي ألف عشرة كتب في الجغرافية اللغوية والتاريخية تكون في مجموعها موسوعة جغرافية تحتوي على معلومات وفيرة عن جزيرة العرب وبعض البلدان القريبة منها . ومن بين من سلك نفس الاتجاه عرام ابن الأصبغ (ت ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م) الذي أملى في شيخوخته كتاب «أسماء جبال التهامّة ومكانها » معتمدا في ذلك على ذاكرته ومعرفته الجيدة بمواضع جزيرة العرب . وإذا كان هذا النمط المتشابه من المصنفات الجغرافية اللغوية الذي كرس لجزيرة العرب بدأ يتوارى منذ منتصف القرن الثالث للهجرة / الستينات من القرن التاسع الميلادي ، فقد قدر الله أن يحييه من جديد أبو عبيد الله عبد الله البكري (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م) أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة في مصنفه « معجم ما استعجم » . ويصف البكري ما يحتويه معجمه والقصد من تصنيفه . ومن بين ما يذكره في المحتوى « جملة ما ورد في الحديث والأخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة ومحددة على حروف المعجم » . وقد قصد من تصنيفه أن يفصح عن أسماء الأماكن حتى لا يدرك فيها لبس ولا تحريف .

وإذا كان كتاب البكري هذا هو أول ما وصلنا في سلسلة من هذه المعاجم ، فإن هذا لا يعني أنه أول من سبق في هذا المضمار ، إذ من العسير اعتباره أول من ولج باب هذا الفن الجغرافي . ولكن الأرجح أن يكون أول من استخدم الطريقة الهجائية في هذا الباب . وإذا كانت هذه الطريقة بالنسبة لنا اليوم سهلة ومطروقة فإنه ينبغي أن نتذكر أن أول معجم جغرافي في أوربا وهو معجم أورتلي Orteli كان في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر الميلادي . وقبل أن يصبح معجم ياقوت في متناول أيدي الدارسين (بعد ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣م) نال معجم البكري هذا تقديرا كبيرا على الرغم من أنه يعتمد في الغالب على المادة المدونة ويركز على الجزيرة العربية بصفة خاصة . لكنه فقد شيئا كثيرا من قيمته لأن معجم ياقوت يفوقه بشكل ملحوظ سواء في اتساع ملاحظاته المباشرة أو في اهتمامه بجميع البلدان على قدم المساواة أو في ضخامة المادة التي ينقلها عن المؤلفين الآخرين كما سنشير لاحقا .

وسار على نهج البكري بالمشرق أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ – ٥٣٨ هـ / ١٠٧٥ – ١١٤٤ م) الذي صنف معجما جغرافيا من طراز معجم البكري وعلى نسق معاجم اللغويين في القرن الثالث للهجرة / التاسع الميلادي . وإذا كان ثمة فرق بين معجم البكري ومعجم الزمخشري « كتاب الجبال والأماكن والمياه » فهو في أن الأول كان يستهدف في الغالب الناحية الأدبية اللغوية ، بينما وجه الثاني اهتمامه إلى التفسير فاجتهد قبل كل شيء في ضبط الأعلام الجغرافية الواردة في القرآن والحديث والسيرة النبوية ، لذا فإن أكثر مادة الزمخشري هي المرتبطة بجبال الحجاز وأوديته ومياهه .

وقد عاصر الزمخشري أبو سعد عبد الكريم السمعاني (٥٠٦ – ٥٦٢ هـ/ ١١١٣ – ١١٦٧ م) وشهرته الأساسية بالنسبة للجغرافيين هي

أنه مؤرخ جغرافي . فلمعجمه الكبير « كتاب الأنساب » علاقة مباشرة بالأدب الجغرافي إذ ترد فيه الأنساب مزودة بالشرح الكافي مع ضبط الأعلام الجغرافية والتعريف بها تعريفا دقيقا . ونظرا لضخامة هذا الكتاب فقد اختصره ابن الأثير تحت عنوان « اللباب » ثم اختصره للمرة الثانية السيوطي وأسماه « لب اللباب ».

وربما كان أفضل معجم جغرافي موسوعي ظهر في تاريخ الإسلام هو معجم ياقوت الحموي (٥٧٥ – ٦٢٦ هـ/ ١١٧٩ – ١٢٢٩ م) الذي أحس إحساسا صادقا بالحاجة إلى مرجع يجمع شتات المادة الجغرافية المعروفة على أيامه فأقبل بهمة كبيرة على إنجاز هذا المعجم الكبير . وقد أحسن ياقوت صنعا بتصنيفه، فقد حفظ بين دفتيه مادة جغرافية قيمة كان يمكن أن تهلك خلال الغزو المغولي لبلاد الرافدين والشام . هذا المعجم هو موسوعة كاملة إذ يضم المتن المطبوع ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعا وتسعين صفحة تعرض للجغرافية في صورها الفلكية والوصفية والإقليمية واللغوية فضلا عن مقتبسات من الرحلات وشواهد من الشعر تختلط بالأدب الشعبي ونظرات في الحضارة والسلالات البشرية . وربما كان أهم ما يميز معجم ياقوت عن معجم البكري ومعاجم اللغويين هو أنه لا يقصر اهتمامه على جزيرة العرب وإنما يوزع اهتمامه بالسوية على العالم الإسلامي والشرق الأقصى وأوربا الشرقية والشمالية .

وإذا ما انتقلنا إلى القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد ، نلحظ ظهور موسوعات في مصر تضم علوم العصر أفرد للجغرافية بينها مكانة مرموقة . وأكبر هذه الموسوعات وأهمها موسوعتا النويري والعمري . ويمكننا تقصي أصل هذه الموسوعات في المرجع الموسوعي الذي كتبه محمد بن إبراهيم الوطواط (ت ٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م) تحت عنوان « مباهج الفكر ومناهج العبر » . وهو يمثل موسوعة في العلوم الطبيعية والجغرافية كتبت بأسلوب المصنفات الأدبية إذ تحفل بشواهد من الشعر والنثر . والكتاب مقسم إلى فنون وينقسم كل فن

إلى أبواب ويكرس الفن الثاني للجغرافية .

وموسوعة « نهاية الأرب في فنون الأدب » لشهاب الدين البكري النويري (٦٧٧ - ٧٣٢ هـ/ ١٢٧٩ - ١٣٣٢ م) هي امتداد لموسوعة الوطواط ، فقد تأثرت في بعض مادتها وفي تبويبها كذلك بالأخيرة وإن كانت تفوقها في عدد فنونها . وقد جعل النويري هدف موسوعته تلخيص جميع العلوم الاجتماعية بأسلوب أدبي مما يحتاج إليه كبار الكتاب،وتشغل الجغرافية منها القسمين الرابع والخامس من الفن الأول وفيه تطالعنا معلومات عن خلق العالم والظواهر الجوية والفصول والأرض وأبعادها والأقاليم السبعة والجبال والبحار والجزر والأنهار والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها وآثار المنازل والمحال . لذلك فهذه الموسوعة مصدر من الدرجة الأولى للجغرافية التاريخية القريبة العهد منه . وحجم الموسوعة إلى ذلك كبير ، إذ يبلغ عدد أجزائها ٣١ جزءا استغرق تصنيفها نحو عشرين عاما .

وتظفر موسوعة « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » (٣٢ جزءا) لشهاب الدين بن فضل الله العمري (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩ م) بأهمية أكبر بالنسبة لنا نحن الجغرافيين ، ذلك لأنها عبارة عن موسوعة جغرافية تاريخية فضلا عن أنها معين لا ينضب فيما يتعلق بجغرافية مختلف الأقطار شرقا وغربا . ويعتمد العمري في تصنيفه على النقل وأقوال الرحالة والتجار والدعاة .

وفي عام ٨٦٦ هـ/ ١٤٦١ م ألف أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري معجمًا يكاد يكون الأخير في سلسلة المعاجم الجغرافية التي بلغت القمة في معجم ياقوت ، ذلك هو معجم «الروض المعطار في خبر الأقطار». ويشبه هذا الكتاب معجم ياقوت في أنه يمثل مجموعة من التعليقات التي تتفاوت طولا وقصرا ، يتحدث فيها عن المدن والمواضع والجبال والأنهار والأقطار مرتبة وفق حروف المعجم . وهو يمثل في نفس الوقت رسالة في الجغرافية الوصفية وخزينة

أدبية تحوي مجموعة كبيرة من النثر والشعر . وقد نال هذا المصنف حظوة كبيرة لدى المؤلفين المغاربة المتأخرين ونقلوا عنه .

إلى جانب هذه المعاجم حفلت المكتبة الجغرافية الإسلامية بالكثير من التصانيف القيمة كموسوعة « أخبار الزمان وعجائب البلدان » (لم يصلنا) وكتاب « مروج الذهب » للمسعودي (ت ٣٨٨ هـ/ ٩٥٨ م) وكتب المدرسة المنهجية في الجغرافية التي أرسى قواعدها أبو زيد البلخي (ولد عام ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م) ، واشتهر من بينها كتاب « أحسن التقاسيم » للمقدسي (ت ٣٩٠ هـ/ ١٠٠٠ م) . وفي القرن ذاته (الرابع الهجري) ظهرت مراجع عامة قيمة ككتاب « الخراج وصنعة الكتابة » لقدامة بن جعفر و « صفة جزيرة العرب » للهمداني (ت ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م) ويعد من أهم ما أنتجه المسلمون في الجغرافية ثم كتاب « الهند » وكتاب « الآثار الباقية » للبيروني (ولد عام ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م) ولهما منزلة خاصة لدى الجغرافيين التاريخيين . ويتميز القرنان الخامس والسادس الهجريان (الحادي عشر والثاني عشر م) بظهور كتب تصف العواصم وتسرد تاريخها لعل أشهرها « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م) وتاريخ دمشق (١٨ جزءا) لابن عساكر (ت ٥٧١/ ١١٧٦ م) وفي المغرب ظهر الإدريسي (ولد ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م) الذي اشتهر بكتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وعن طريقه عرف الشرقيون بلاد أوربا معرفة أكثر دقة وتفصيلا . وينتمي إلى هذه الفترة في المغرب الرحالة الأندلسي ابن جبير (ولد عام ٤٥٠ هـ/ ١١٣٥ م) الذي أسهم في زيادة معرفتنا بصقلية وغيرها من البلاد التي زارها في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج . وإذا ما عدنا إلى الشرق في فترة لاحقة (النصف الأول من القرن السابع للهجرة حتى النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة = النصف الأول من القرن ١٣ م حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر للميلاد) نجد أن هذه الفترة التي أعقبت الغزو المغولي

لديار الإسلام ، تميزت بظهور عدد من الآثار الكبرى في محيط الأدب الجغرافي تحتل مكانة لا تقل كثيرا عن المكانة التي يحتلها معجم ياقوت . نذكر منها « آثار البلاد وأخبار العباد » للقزويني (ولد عام ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م) « ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر » للدمشقي (ولد عام ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م) « وتقويم البلدان » لأبي الفدا (ولد عام ٧٦٢ هـ/ ١٢٧٣ م). وفي هذه الفترة ظهرت أيضًا الموسوعات في مصر وقد سبقت الإشارة إليها . وفي المغرب العربي يمكن أن نلحظ ظهور آثار بارزة في القرون السابع والثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر للميلاد) في محيط الرحلات والجغرافية الاجتماعية والإقليمية ، نذكر منها « رحلة ابن بطوطة » (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) و « مقدمة ابن خلدون » (ولد عام ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م) و « وصف إفريقية » لابن الوزان (ليون الإفريقي) (ولد عام ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ م) وهو آخر المؤلفين الكبار في محيط الجغرافية العربية ببلاد المغرب ، وكتابه هذا هو الكتاب الذي لفت أنظار الأوربيين إلى كنوز إفريقية فطمع فيها المستعمرون .

ومن الثابت أن الأوربيين اعتمدوا فيما كتبوه من مصنفات جغرافية في عصر نهضتهم على تآليف المسلمين التي ترجمت ، وكانت طليطلة وقرطبة وإشبيلية مراكز ترجمة وعلم وحضارة يفد إليها الأوربيون لينهلوا من بحور علومها وآدابها . ولما حدثت الكشوف الجغرافية اتسعت المعرفة بالعالم ثم حدثت تطورات علمية أرست قواعد علم الجغرافية في الجامعات الأوربية ثم الأمريكية لعل أهمها : تقدم وسائل النقل والمواصلات وتطور أجهزة الرصد المناخي والمساحي وتقدم صناعة الخرائط . وقد أفادت الجغرافية الحديثة من كل هذه المستحدثات إفادة كبيرة فظهرت الأطالس بأنواعها المختلفة والكتب الأصولية . ويتميز القرن العشرون بأنه القرن الذي خطت فيه الجغرافية خطوات واسعة خاصة في أعقاب الحربين العالميتين فظهر فيض من الموسوعات

والمعاجم والأطالس والمراجع العامة بكل اللغات الحية . ويحاول عالمنا الإسلامي أن يلحق بهذه التطورات ولكن بخطوات لا تزال بطيئة . ومن أسف أن جغرافية هذا العالم لا تزال تفتقد الأهتمام الكافي ، فما نشر يمثل دراسات فردية قليلة ، وستكون هذه الموسوعة بإذن الله محاولة لسد النقص في المكتبة الجغرافية للعالم الإسلامي .

الاختلافات بين هذه الموسوعة والأعمال التراثية :

ولا يخفى أن هذه الموسوعة بحجمها ومحتواها تفوق بكثير كل ما سبقت الإشارة إليه من موسوعات ومعاجم جغرافية عرفها المسلمون خلال القرون . أما عن الحجم فهى تقع في سبعة عشر مجلدًا منها أربعة عشر مجلدًا تعالج الأقاليم الجغرافية للعالم الإسلامي وما تضمه من دول يوضح حقائقها أطلس كبير يمثل المجلد السادس عشر منها .

ويتصدرها مجلد تاريخي ضخم يعرض لانتشار الإسلام في قارات العالم القديم وتختم الموسوعة بمجلد يأتي ترتيبه السابع عشر يضم الفهارس والكشافات المختلفة . والمحتوي من ناحية ثانية ثري يتبع خطا منهجيا لم يعرفه السلف كما أنه يضم جغرافية كل بلاد العالم الإسلامي بتوسع وتفصيل مع دراسات للمعالم الجغرافية لهذا العالم وبحوث في الأقليات الإسلامية في القارات المختلفة موضحة بالخرائط والجداول الإحصائية . وإذا استثنينا البحوث التاريخية فإن البحوث الجغرافية يبلغ عددها ٨٥ بحثا تعالج الأقاليم الجغرافية والدول الإسلامية مع الاهتمام بجغرافية المملكة العربية السعودية التى سيخصص لها القسم الثاني من المجلد الثاني .

ويختلف المنهج الإقليمي الذي اتبعه السلف عن المنهج الإقليمي الحديث الذي اتبعه الجغرافيون في هذه الموسوعة ، من ذلك أنه بينما تتخذ الدولة كوحدة سياسية وإقليمية في هذه الموسوعة اعتمد المنهج القديم أقاليم غير واضحة المعالم بنيت على أسس متباينة قد تكون طبيعية أو بشرية وأحيانا إدارية . لذا انقسمت دار الإسلام إلى أقاليم عديدة تختلف أسسها من جهة إلى أخرى ويظهر ذلك

واضحا في كتاب « أحسن التقاسيم » للمقدسي (ولد عام ٣٣٥ هـ/ ٩٤٧ م) . ميزة أخرى تميز البحوث الجغرافية في الموسوعة عن الكتابات السابقة في مجال الجغرافية الإقليمية هي أن هذه البحوث تتبع منهجا إقليميا صارما يفرق في محتواه بين ما هو جغرافي وما هو غير ذلك ، لا يغلب جانبا من جوانب الجغرافية على الآخر وإنما ثمة توازن واتساق ومنطق جغرافي . يضاف إلى ذلك أن توضيح الحقائق يعتمد على الخرائط والإحصاءات ، وهذا ما لم تعرفه الجغرافية التراثية بصفة عامة فقد افتقدت الإحصاءات كما كانت الخرائط بسيطة تستعين بالكلمات والخطوط المستقيمة والدوائر في التعبير عن الظاهرات الجغرافية المختلفة . الحق أن الكتابات الجغرافية التراثية كانت أمشاجا من مختلف المعلومات المتواترة أو المستقاة من الرحالة وجوّابي الآفاق تتخللها شواهد من الشعر وذكر للعجائب ولا تستعين بالمصورات البسيطة إلا نادرًا .

حول تعريف العالم الإسلامي :

كان وضع مخطط للموسوعة يستلزم الإجابة على سؤال صعب هو : ما العالم الإسلامي ؟ لاريب أن الإجابة شغلت بال هيئة تحرير الموسوعة في مرحلتها التكوينية ، وبعد بحث واستقصاء تم التوصل إلى ما يلي :

تختلف الآراء في تعريف العالم الإسلامي ، فثمة من يرى أن هذا العالم يشمل كل بقاع الأرض التى يقطنها مسلمون بغض النظر عن أعدادهم أو نسبهم المئوية إلى بقية السكان . ويعتمد هذا المفهوم كما هو واضح على تفسير لغوي مؤداه أن العالم هو الأرض وما عليها من مخلوقات . ولأننا لا نجد اليوم بلدًا من بلاد الله لا يخلو من إسلام فإن العالم الإسلامي وفق هذا المفهوم عالم شاسع ينتظم كل المعمورة . ومن الواضح أنه إزاء ذلك لا نستطيع أن نطبق منهجا علميا يكشف عن حجم المسلمين وما هيتهم في هذا العالم غير المحدود لسبب بسيط هو أن المنهج العلمي أساسه التحديد والتخصيص ، وعليه فالأصوب أن نصرف النظر عن هذا التعريف .

ويُضيِّق التعريف الحديث من مساحة العالم الإسلامي إذ يخص الإسلام بمناطق يتركز فيها المسلمون بأحجام كبيرة نسبيا فيطبعون الحياة بطابع إسلامي سلوكا وعبادة . هذه المناطق هي في الواقع وحدات سياسية متميزة ، هى الدول الحديثة ، أكثر الوحدات السياسية تنظيما وشيوعا . وليس بخاف أنه في إطار دولة معروفة الحدود والمساحة ، يمكن تقدير أو إحصاء عدد السكان فيها ونسبة من يدينون بالإسلام بينهم ونسبة غير المسلمين . لا جدال في أن لهذا المفهوم منطقه وحكمته ، فضلا عن أنه من الصعب تحديد العالم الإسلامي متجاهلين التقسيم السياسي للعالم في العصر الحديث .

وحرصا من هيئة التحرير على الدقة في حصر دول العالم الإسلامي التي يمكن دراستها جغرافيا اتفق أعضاؤها على تطبيق قاعدتين وهما :

أولا : النسبة المئوية للمسلمين في الدولة إلى جملة عدد سكانها . ويمكن أن نصنف هذه الدولة بأنها إسلامية إذا زادت نسبة المسلمين فيها على ٥٠٪ من جملة سكانها .

ثانيا : النسبة المئوية للمسلمين مقارنة بالنسب المئوية للطوائف الدينية الأخرى التي تقطن الدولة . وتكون الدولة إسلامية إذا كان المسلمون يشكلون أكبر الطوائف الدينية فيها . وتطبق هذه القاعدة عادة على الدول ذات الطوائف الدينية المتعددة ، التي لا يكون لطائفة منها غلبة عددية مطلقة على الطوائف الأخرى .

وفي ضوء ما سبق يمكن تقسيم دول العالم الإسلامي إلى فئتين :

الفئة الأولى :

تشمل الدول التي يمثل المسلمون فيها الأغلبية العظمى من السكان ، وذلك من واقع إحصاءات موثوقة وهذه تنقسم بدورها إلى ثلاثة مجموعات هي :

ا- الدول التي لا تقل نسبة المسلمين فيها عن ٩٨٪ من جملة السكان وهذه تشمل أغلب الدول العربية وبعض دول غير عربية مثل جمهوريات تركيا وإيران وأفغانستان وباكستان .

ب – الدول التي تقل نسبة المسلمين فيها عن ٩٨٪ ولا تزيد على ٨٠٪ من مجموع السكان ، وهذه تشمل بقية الدول العربية ما عدا لبنان وفلسطين التي لا يسهل اليوم تحديد نسبة المسلمين فيها .

جـ – الدول غير العربية التي تتراوح نسبة المسلمين فيها بين ٧٠٪ وأقل من ٨٠٪ من جملة السكان مثل غينيا بيساو وماليزيا وألبانيا .

الفئة الثانية :

هذه الدول تنقسم إلى مجموعتين :

ا – دول تتراوح نسبة المسلمين فيها بين ٥١ – ٧٩٪ من جملة السكان ويمثلها دول مثل الكمرون وغمبيا في إفريقية .

ب – دول تتعدد فيها الطوائف الدينية لكن المسلمين يمثلون أكبر الطوائف مثل أوغندة في إفريقية .

وينبغي الإشارة في هذا المقام إلى أن دول العالم الإسلامي التي خضعت للدراسة الجغرافية هي دول مستقلة ذات سيادة ، لذا فإن الجمهوريات الإسلامية الست في الاتحاد السوفيتي لم تدخل ضمن هذه الدول على الرغم من أنها تضم نحو ٧٠ مليون مسلم وذلك لأنها لا تزال وحدات سياسية حديثة عهد بالاستقلال والأمل أن تجد لها مكانا في الطبعة الثانية من هذه الموسوعة بإذن الله .

ويرتبط بتحديد دول العالم الإسلامي تلك الأقليات الإسلامية المنتشرة في بقية دول العالم والتي تتفاوت في أعدادها وبالتالي في نسبها المئوية إلى مجموع السكان . فقد ينخفض عددها إلى بضع عشرات من الأفراد بنسبة مئوية لا تزيد على ٠٠١, من جملة السكان كما في المجر (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) وقد يرتفع العدد إلى عشرات الملايين كما في الصين الشعبية بنسبة تقدر بنحو ٥٪ من جملة

السكان (١٤٠٨ هـ /١٩٨٨ م) . وتعيش أكثر الأقليات الإسلامية عددا في قارتي آسيا وجزر المحيط الهادي ، أما أقلها عددًا فإنها تعيش في أمريكا الجنوبية وأستراليا . وتقدر جملة عدد المسلمين الذين يشكلون الأقليات الإسلامية في العالم بنحو ٢٩٧ مليون مسلم (١٤٠٨ هـ /١٩٨٨ م) . لكن هذا العدد ينخفض بنسبة تبلغ ٢٢٪ (في نفس العام) في مصادر أخرى . ولا سبيل إلى الحصول على إحصاءات أو تقديرات مقبولة عن هذه الأقليات إلا إذا قام قادتها باتخاذ الإجراءات لعمل مثل هذا الإحصاء أو التقدير . وقد أولت الموسوعة أهمية خاصة لهذه الأقليات فخصصت المجلد الرابع عشر لدراسة أحوالها من وجهة النظر الجغرافية .

وبناء على الأسس التي وضعت لتحديد دول العالم الإسلامي ، فإن مخطط الموسوعة الأصلي كان يضم ٤٨ دولة من بينها اليمنين (قبل الوحدة) . لكن هذا العدد لم يتغير بعد ضم اليمنين في دولة واحدة هي « الجمهورية اليمنية » وإضافة جمهورية ألبانيا . وإذا نظرنا في توزيع الدول الإسلامية على قارات العالم القديم نجدها موزعة كالآتي :

في آسيا	٢١ دولة
في إفريقية	٢٦ دولة
في أوربا	دولة واحدة
الجملة	٤٨ دولة

وفيما يلي جملة عدد سكان الدول الإسلامية مرتبة كما جاءت في الموسوعة والنسبة المئوية للمسلمين فيها .

الدول	تقدير عدد السكان ١٤١٠/١٩٩٠	نسبة المسلمين ٪	ملحوظـــــــات
في آسيا			
المملكة العربية السعودية	١٤,١٤٣,٠٠٠	٪١٠٠	
دولة الكويت	٢,٠٣٩,٠٠٠	٪٩٣	
دولة قطر	٣٦٨,٠٠٠	٪٩٦	
دولة البحرين	٥١٦,٠٠٠	٪١٠٠	
دولة الإمارات العربية المتحدة	١,٥٨٩,٠٠٠	٪٩٧	
سلطنة عمان	١,٥٠٢,٠٠٠	٪١٠٠	
الجمهورية اليمنية	١١,٦٨٧,٠٠٠	٪٩٩	
الجمهورية العربية السورية	١٢,٥٣٠,٠٠٠	٪٩٠	
الجمهورية اللبنانية	٢,٧٠١,٠٠٠	٪٧٥	
الجمهورية العراقية	١٨,٩٢٠,٠٠٠	٪٩٧	
المملكة الأردنية الهاشمية	٤,٠٠٩,٠٠٠	٪٩٥	
فلسطين	٤,٦٠٠,٠٠٠	—	
جمهورية تركيا	٥٥,٨٦٨,٠٠٠	٪٩٩	
جمهورية إيران الإسلامية	٥٤,٦٠٧,٠٠٠	٪٩٨,٥	
جمهورية أفغانستان	١٦,٥٥٧,٠٠٠	٪٩٩	
في أوربا			
جمهورية ألبانيا	٣,٢٤٥,٠٠٠	٪٧٠	هى الدولة الإسلامية الوحيدة في أوربا
جمهورية باكستان	١٢٢,٦٢٦,٠٠٠	٪٩٨	
جمهورية بنجلاديش	١١٥,٥٩٣,٠٠٠	٪٨٨	
جمهورية الملديف	٢١٥,٠٠٠	٪١٠٠	
ماليزيا	١٧,٨٩١,٠٠٠	٪٧٢	

سلطنة بروناى	٢٦٦,٠٠٠	٧٠٪	
جمهورية أندونيسيا	١٨٤,٢٨٣,٠٠٠	٨٩٪	
بابوا (غينيا الجديدة)	٣,٨٧٤,٠٠٠	٦٥٪	هناك اقتراح بإضافتها إلى دول آسيا الإسلامية بعد أن استقلت عن أستراليا
في إفريقية			
جمهورية مصر	٥٢,٤٢٦,٠٠٠	٩٥٪	
جمهورية السودان	٢٥,٢٠٣,٠٠٠	٧٦٪	
جمهورية أثيوبيا	٤٩,٢٤٠,٠٠٠	٥٥٪	
جمهورية أوغندة	١٨,٧٩٤,٠٠٠	٤٥٪	
الجماهيرية العربية الليبية	٤,٥٤٠,٠٠٠	٩٨٪	
جمهورية تونس	٨,١٨٠,٠٠٠	٩٩٪	
جمهورية الجزائر	٢٤,٥٩٧,٠٠٠	٩٩٪	
المملكة المغربية	٢٥,٠٦١,٠٠٠	٩٩٪	
جمهورية جيبوتى	٤٥٩,٠٠٠	٩٩٪	
جمهورية الصومال	٧,٤٩٧,٠٠٠	٩٩٪	
جمهورية تنزانيا	٢٧,٣١٨,٠٠٠	٦٥٪	
جمهورية جزر القمر الإسلامية	٤٠٩,٠٠٠	١٠٠٪	
جمهورية تشاد	٢,٢٧١,٠٠٠	٧٩٪	
جمهورية النيجر	٧,٧٣١,٠٠٠	٩٢٪	
جمهورية مالي	٩,٢١٤,٠٠٠	٩٠٪	
جمهورية موريتانيا	٢,٠٢٤,٠٠٠	١٠٠٪	
جمهورية السنغال	٧,٣٢٧,٠٠٠	٩٣٪	
جمهورية غامبيا	٨٦١,٠٠٠	٩٠٪	
جمهورية غينيا بيساو	٩٦٤,٠٠٠	٦٣٪	

جمهورية غينيا	٥,٧٥٥,٠٠٠	٩٥٪	
جمهورية سيراليون	٤,١٥١,٠٠٠	٧٠٪	
جمهورية بنين	٤,٦٣٠,٠٠٠	٤٢٪	
جمهورية نيجيريا	١٠٨,٥٤٢,٠٠٠	٥٧٪	
جمهورية الكمرون	١١,٨٣٣,٠٠٠	٥٥٪	
جمهورية بوركينا فاسو	٨,٩٩٦,٠٠٠	٦٠٪	
جمهورية الجابون	١,١٧٢,٠٠٠	٤٥٪	

وفيما يلي عرض للمخطط العام لهذه الموسوعة

المجلد	المحتوى
الأول	التقديم : لمعالي مدير الجامعة كلمة عمادة البحث العلمي كلمة هيئة التحرير انتشار الإسلام انتشار الإسلام في آسيا انتشار الإسلام في إفريقية انتشار الإسلام في أوربا
الثاني	١ – إقليم شبه الجزيرة العربية القسم الأول ١ – المملكة العربية السعودية ٢ – دولة الكويت ٣ – دولة قطر

	٤ – دولة البحرين القسم الثانى المملكة العربية السعودية
الثالث	(تابع) إقليم شبه الجزيرة العربية ٦ – دولة الإمارات العربية المتحدة ٧ – سلطنة عمان ٨ – الجمهورية اليمنية
الرابع	١ – إقليم الهلال الخصيب ٢ – الجمهورية العربية السورية ٣ – الجمهورية اللبنانية ٤ – الجمهورية العراقية ٥ – المملكة الأردنية الهاشمية ٦ – فلسطين
الخامس	١ – إقليم النطاق الجبلي في غربي آسيا ٢ – جمهورية تركيا ٣ – جمهورية إيران الإسلامية ٤ – جمهورية أفغانستان
أوربا	جمهورية ألبانيا
السادس	١ – إقليم شبه القارة الهندية ٢ – جمهورية باكستان الإسلامية ٣ – جمهورية بنجلاديش ٤ – جمهورية المالديف
السابع	١ – إقليم جنوب شرقي آسيا ٢ – ماليزيا

	٣ – سلطنة بروناي ٤ – جمهورية أندونيسيا
الثامن	١ – إقليم حوض النيل ٢ – جمهورية مصر العربية ٣ – جمهورية السودان ٤ – جمهورية أثيوبيا ٥ – جمهورية أوغندة
التاسع	١ – إقليم شمالي إفريقية ٢ – الجماهيرية العربية الليبية ٣ – جمهورية تونس ٤ – جمهورية الجزائر ٥ – المملكة المغربية
العاشر	١ – إقليم شرقي إفريقية ٢ – جمهورية جيبوتي ٣ – جمهورية الصومال ٤ – جمهورية تنزانيا ٥ – جمهورية جزر القمر الإسلامية
الحادى عشـــر	١ – إقليم الصحراء الكبرى ٢ – جمهورية تشاد ٣ – جمهورية النيجر

	٥ – جمهورية مالي ٦ – جمهورية موريتانيا الإسلامية
الثاني عشر	١ – إقليم غربي إفريقية ٢ – جمهورية السنغال ٣ – جمهورية غامبيا ٤ – جمهورية غينيا بيساو ٥ – جمهورية غينيا ٦ – جمهورية سيراليون
الثالث عشر	(تابع) إقليم غربي إفريقية ٧ – جمهورية بنين ٨ – جمهورية نيجيريا الاتحادية ٩ – جمهورية الكمرون المتحدة ١٠ – جمهورية بوركينا فاسو ١١ – جمهورية توجو ١٢ – جمهورية الجابون
الرابع عشر	الأقليات الإسلامية ١ – الأقليات الإسلامية في قارة آسيا ٢ – الأقليات الإسلامية في قارة إفريقية ٣ – الأقليات الإسلامية في قارة أوربا ٤ – الأقليات الإسلامية في قارة أمريكا الشمالية ٥ – الأقليات الإسلامية في قارة أمريكا الجنوبية ٦ – الأقليات الإسلامية في قارة أستراليا وجزر المحيط الهادي

الخامس عشر	ملامح جغرافية العالم الإسلامي المعاصر ١ - المظاهر العامة لجغرافيته الطبيعية والبشرية ٢ - سكانه ٣ - مقومات التكامل الاقتصادي بين دوله ٤ - العلاقات السياسية والحضارية بين دوله ٥ - مركز المملكة العربية السعودية في العالم الإسلامي ودورها في توحيده
السادس عشر	أطلس العالم الإسلامي
السابع عشر	فهارس وكشافات ١ - فهرس هجائي بالموضوعات ٢ - كشاف الأماكن ٣ - كشاف الأعلام

وقد أشرف على تحرير الموسوعة في مراحلها المبكرة كل من الأستاذ الدكتور محمد متولي (يرحمه الله) والأستاذ الدكتور عبد العزيز طريح شرف .

وتولى بعد ذلك الأستاذ الدكتور عبد الفتاح محمد وهيبة مسؤولية الإشراف العلمي على الموسوعة ، وقد أسهم في إنجاز هذا العمل كل من د . محمود توفيق ، د . عبد الله بن ناصر الوليعي ، د . عبد الله بن حمد الخلف ، د . محمد أحمد الرويثي ، د . الأصم عبد الحافظ ، أ . محمد الهدلق .

ونذكر بالعرفان في هذا المقام ما أولاه معالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي من اهتمام ورعاية لمشروع الموسوعة .

ونذكر بالامتنان جهود كل من أمين عام الجامعة الدكتور محمد بن سعد السالم والدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيع عميد البحث العلمي السابق . فلقد أثمرت هذه الجهود المتواصلة والمخلصة في اعداد هذه الموسوعة وتيسير نشرها كما نشكر إدارة الثقافة والنشر على جهودها لإخراج هذا العمل فى صورته النهائية .

وفقنا الله لما فيه الخير وسدد على طريق الحق خطانا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

هيئة التحرير

انتشار الإسلام في قارة آسيا

ظهور الإسلام وانتشاره
في الجزيرة العربية

للأستاذ الدكتور
إبراهيم علي طرخان

مدخل إلى الدراسة

الجزيرة العربية وسكانها :

لدراسة الجزيرة العربية أهمية خاصة في تاريخ العرب والمسلمين . ففيها بُعث الرسول ﷺ ودعا إلى الإسلام وأسس الدولة الإسلامية . واعتمد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون على أبنائها في فتح البلاد وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية ومن بين أبنائها أيضا ، برز الخلفاء والقادة ، الذين سيروا دفة الدولة الإسلامية ووضعوا الأسس الأولى لنظامها .

ونظرا لأهمية الجزيرة العربية في حياة العرب والمسلمين ، لذا نراها قد شغلت جانبا كبيرا من اهتمامات الجغرافيين . وكان موضوع حدود الجزيرة العربية ، من أبرز الموضوعات التي تناولها هؤلاء الجغرافيون بالدراسة والتحليل .

وأولى ما يلفت الانتباه في هذا الموضوع ، هو تباين الحدود التي رسمها الجغرافيون العرب والمسلمون لهذه المنطقة ، والتي على أساسها اختلفت التسمية ما بين الجزيرة العربية وشبه الجزيرة العربية ، فالهمداني تناول هذه المنطقة على أنها جزيرة تحيط بها المياه من كل جانب . فعلاوة على النطاق البحري الذي يحف بها من الشرق والجنوب والغرب ، والذي يتمثل اليوم على التوالي في الخليج العربي وبحر العرب والبحر الأحمر ، فقد اعتبر أنهار شط العرب والفرات بأرض العراق وسوريا ، والنيل بأرض مصر ، والأردن في فلسطين ، نطاقًا مائيًا آخر يطوق الجزيرة العربية من ناحية الشمال . وبناء على هذه النظرة فقد امتدت الجزيرة العربية شمالا إلى جبال طوروس حتى شملت الشام والسهل الساحلي لفلسطين ، وامتدت غربا حتى شملت شبه جزيرة سيناء .

وقد التزم الهمداني التزاما تاما بهذا التحديد[1] . بينما اتجه آخرون ومنهم الإصطخري وابن حوقل والجيهاني والمقدسي إلى التحديد الذي يتوافق مع المفهوم السائد في العصر الحاضر ، والذي يخرج من الجزيرة العربية بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء ، ويجعل

حدودها تمتد من رأس خليج العقبة حتى رأس الخليج العربي ، مما يتفق مع المدلول الجغرافي لمسمى شبه الجزيرة العربية . ودراستنا للجزيرة العربية هنا سوف تكون على أساس المفهوم الواسع للتحديد والذي قال به الهمداني .

وليست الجزيرة العربية وحدها مسكن العرب ، فقد كانت للعرب مساكن فيما حولها ، ولكنها مسكن أكثر العرب ، بل هي أهم مساكنهم ، ومن ثم أضيفت إليهم[1] .

ولقد قسم المؤرخون سكان الجزيرة العربية إلى ثلاث فئات :

١ – العرب البائدة : وهم الذين بادوا وانقطعت أخبارهم و لم يبق سوى ذكراهم ، مثل العمالقة (الهكسوس) وقبيلة عاد في أرض الأحقاف ، وثمود في مدائن صالح شمالي الحجاز ، وطسم وجديس باليمامة وسط الجزيرة ، والأنباط شمالي الجزيرة في شرقي الأردن إلى حدود العراق .

٢ – العرب العاربة أو العرباء : ويعرفون باسم القحطانية ، وكانوا ينزلون اليمن ، وهم فرعان : حمير – وكهلان ، فمن حمير : قبائل اشتهرت في التاريخ الإسلامي ، مثل قضاعة شمالي الحجاز ، وكلب في بادية الشام ، وتنوخ شمالي الشام ، وبهراء وبلّي وعذرة وجهينة في وادي إضم بالحجاز ، وحضرموت .

ومن كهلان : طيىء والأشعر (منها أبو موسى الأشعرى) وبجيلة وجذام وعاملة وكندة ولخم ومذحج وهمدان .

وأهم قبائل كهلان : الأزد الذين حكموا عمان ، ومن الأزد مازن وغسّان والأوس والخزرج وخزاعة[2] .

٣ – العرب العدنانية أو المستعربة : ولهؤلاء أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي ، وتاريخهم الحقيقي في العصر الإسلامي وهم حديثو عهد بالجزيرة .

وقبيلة جرهم اليمنية سكنت الحجاز ، فصاهرها سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، وذرية إسماعيل من هذا الزواج هم العرب المستعربة .

انتشرت العرب المستعربة في الحجاز وفي وسط الجزيرة وشمالها . وإسماعيل عليه

السلام يرجع إلى أصل عبراني ، إذ أبوه إبراهيم عليهما السلام كان قد جاء من العراق ، فأصبحت ذريته هم المستعربة ، أي الذين داخلوا العرب واكتسبوا العروبة .

وفروع العرب المستعربة : مضر وربيعة ، وتنقسم ربيعة إلى بكر وتغلب ، ومن مضر قيس بفروعها الكثيرة .

وترجع أهمية العرب العدنانية إلى أن الإسلام ظهر فيها وكذلك الخلافة .

الحياة الاجتماعية في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام :

ينقسم سكان الجزيرة العربية اجتماعيا إلى قسمين : بدو وهم سكان البادية ، وحضر وهم سكان الحواضر في أطراف الجزيرة ، في اليمن والحجاز والأطراف الشمالية . ولقد كان البدو يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والفلاحة ، ويعيشون على ما تنتجه ماشيتهم وكذلك على الغارة والسلب .

والصفات الغالبة على البدو الشجاعة والكرم . والمرأة عندهم تشارك الرجل في شئون الحياة ، فهي تخيط الثياب وتنسج المساكن وتحتطب وتنقل الماء ، وكان في بعض القبائل مثل أسد وتميم وأد البنات ، ومركز المرأة عموما في الجاهلية ضعيف لأنها لا تغني غناء الرجل في الحروب . ووحدة النظام السياسي عند البدو هي القبيلة ولها رئيس وهو شيخ القبيلة ، يرشحه لهذا المنصب صفات متنوعة مثل الكرم والشجاعة وكثرة الأولاد وكبر السن وما أداه من خدمات للقبيلة وما يمتلكه من مواهب خطابية ، وليس له حق التوريث ، وله النصيب الأوفى من الغنائم للوفاء بما عليه من التزامات بحكم منصبه . وقد جمع أحد الشعراء حقوق شيخ القبيلة في بيت من الشعر فقال :

لك المِرْبـاع منها والصفايـا وحُكْمُك والنَّشِيْطَةُ والفُضُول[٣]

وأعضاء القبيلة متضامنون أشد ما يكون التضامن ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما ، وهم يد واحدة على من سواهم أيّا كانت الخلافات فيما بين أفرادهم وهذا هو مضمون العصبية القبلية .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وكان الصراع بين قبائل البدو دائرا لا يكاد ينقطع ، وأهم أسبابه : النزاع على الكلأ

ومساقط الأمطار ، فضلا عن أن الغارة والسلب كانا من بين الأسباب ، وكثرت الوقائع الحربية بين القبائل وهي التي عرفت بأيام العرب ، مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء وغيرهما .

أما الحضر فهم يقيمون في الحواضر أو المدن ، مثل مدن اليمن ومدن الحجاز (صنعاء ، مكة ، المدينة ، الطائف) ، أو مدن الأطراف الشمالية للجزيرة مثل الحيرة في بادية العراق وبصرى في بادية الشام ، وهؤلاء يعيشون على التجارة أو الزراعة . وقد أسسوا لهم ممالك قبل الإسلام مثل ممالك اليمن ، أقدم مواطن الحضارة في الجزيرة العربية ، ففيها قامت ممالك متعاقبة تتمثل في معين (ظهرت بين سنتي ١٢٠٠ - ٦٥٠ ق.م) ، وسبأ (ظهرت حوالي ٩٥٠ ق.م وامتدت إلى حوالي ١١٥ ق.م) وحمير (ظهرت بعد حوالي عام ١١٥ ق.م) .

وفي الحجاز كانت السيادة لقريش في مكة ، وكان كبراء القبيلة من التجار ، كذلك قامت في الحيرة مملكة المناذرة ، وفي بصرى مملكة الغساسنة .

الحياة الدينية في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام :

يمكن القول إن الجزيرة العربية قد اشتملت قبل الإسلام بنحو قرن ونصف على جميع الديانات المعروفة في العالم القديم . وفي القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٦٢] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ... ﴾ [الحج : ١٧] .

هذه الديانات جميعها التي أشارت إليها هاتان الآيتان الكريمتان وجدت في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام . وأكثر الديانات انتشارا فيها في ذلك الوقت هي الوثنية وقد سادت الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أسماء بعض الأوثان في سورة نوح (الآية : ٢٣)، نسبتها روايات لقبائل بذاتها فقيل إن « يغوث » هو صنم لقبيلة مذحج ، و « سواع » لهذيل ، و « يعوق » لخيوان ، و « نسر » صنما لحمير

ظلت تعبده حتى نقلهم ذو نواس إلى اليهودية .

ومن الأصنام التي كان لها منزلة عند قبائل العرب جميعا اللات والعزّى ومناة ، وآخرها أقدم أوثان العرب ، وكانت مناة على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة ، وكان الأوس والخزرج سكان يثرب أكثر الناس إعظاما لها . ولقد سمى العرب عبد مناة وزيد مناة . وأعظم أوثان العرب هبل في جوف الكعبة وهو من عقيق أحمر .

وأول من أتى بالأصنام عمرو بن لحيّ الخزاعي من رؤساء الحجاز ، أحضر هبل من البلقاء بالشام ، وروى أن ٣٦٠ صنما كانت قائمة حول الكعبة . وعمرو هذا كان ينكر البعث والحشر ويقول :

حيـاةٌ ثم بـــعثٌ ثم حشرٌ حديثُ خرافةٍ يا أم عمـرو

وللصنم سادن ،أى قائم بخدمته ، وتركزت عبادة الصنم في تقديم القرابين له ، وكان لكل قبيلة تلبية خاصة عند صنمها(٤) .

وقد دخلت اليهودية الجزيرة العربية خلال القرون الثلاثة الأولى من الميلاد . وكان اليهود قد تفرقوا بعد فتح الرومان لفلسطين ، وانتشروا في يثرب ، كما انتشروا في شمالي الحجاز في تيماء وفدك وخيبر ووادي القرى . وقد اعتنق اليهودية بعض العرب لكن انتشارها بوجه عام كان محدودا .

ودخلت النصرانية الجزيرة العربية في القرن الرابع الميلادي ، على أيدي الأباطرة البيزنطيين الذين قصدوا الاستفادة من نشرها خدمة لمصالحهم هناك وإن زعموا أنهم حماة النصرانية ، وأشهر مواطن النصرانية في جزيرة العرب منطقة نجران . ومن القبائل التي انتشرت فيها النصرانية تغلب وقضاعة وغسان ، ولكنها لم تنتشر كثيرا ، تحسبا لمخاطر التدخل من جانب الدولة البيزنطية وممثلتها الحبشة ، ولعل مما زهدهم فيها انقسامها إلى مذاهب يكفر بعضها بعضا ، إذ كانت هناك الملكانية والنسطورية واليعقوبية(٥) .

وجاءت المجوسية إلى جزيرة العرب من فارس ، ومعبودها النار باعتبارها رمزا للنور ، وقد قامت على تعاليم زرادشت وهو من أذربيجان (ت حوالي ٥٨٣ ق.م) ، وقد غلبت ديانته على فارس كلها ، وله كتاب « الأفستا » ويتكون من ٢١ موضوعا ، فيها

الخبر عن بداية العالم ونهايته[٦] . وانتشرت المجوسية في البحرين وفي هجر بصفة خاصة .

والشائع أن الصابئة كانوا يعبدون الأجرام السماوية ، وهى ديانة قديمة ترجع إلى البابليين والأشوريين ، ومركزها حرّان على شاطىء الفرات الأعلى ومنها انتقلت إلى اليمن ، وكانت كنانة تعبد القمر ، وعبد قوم من لخم وخزاعة وقريش نجم الشّعرى .

وهناك فريق من العرب شك في جميع الأديان القائمة بالجزيرة وحكّموا عقولهم وفكّروا في أنه لابد من وجود قوة عليا تسير هذا الكون ، وفطنوا إلى فساد المعتقدات السائدة وعادات الجاهلية ، وربما اختلطوا باليهود والنصارى ، فأخذوا يدعون إلى دين قائم على توحيد الإله ونبذ عادات الجاهلية السيئة كوأد البنات وشرب الخمور ولعب الميسر ، واعتقدوا بالبعث والحساب الإلهي ، ودعي هؤلاء الحنفاء أو « التائبون » ، وكانت الحنيفية ديانة إبراهيم عليه السلام . ومن أولئك الحنفاء كان الشاعر أمية بن أبي الصلت الذي كان يتطلع أن يكون النبي المنتظر ، فلما بعث محمد ﷺ حقد عليه .

ويروى أن الرسول ﷺ كان قبل مبعثه يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام .

الحياة الاقتصادية في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام :

كان للجزيرة العربية أهميتها في التجارة العالمية لوقوعها بين الشرق القديم والشرق الأقصى من ناحية ، وأوربا من ناحية أخرى . فهي طريق هام للتجارة منذ القدم ، بجانب غلاتها من البخور الذي يكثر في الجنوب ولا سيما في ظفار . وقد كان هناك طريقان هامان داخل الجزيرة العربية : يتجه أحدهما شمالا من حضرموت إلى البحرين ثم إلى بلاد الشام ، بينما يتجه الثاني محاذيا البحر الأحمر إلى الشام ، وعلى هذا الطريق تقع مكة . هذا إلى جانب الطرق البحرية حول الجزيرة وتشتمل على اثنين ، طريق الخليج العربي وطريق البحر الأحمر .

وقد استفاد العرب من العمل في التجارة ، ولاسيما منهم سكان الحضر في اليمن والحجاز ، وقد عملوا في تجارة السلع الأجنبية ولاسيما الشرقية ، هذا إلى جانب أعمال النقل والحراسة . وكانت التجارة قديما في أيدي اليمنيين ، فلما تدهورت بلادهم حل

محلهم عرب الحجاز ، منذ حوالي القرن السادس الميلادي . وكانت أسواق الشام ومصر تستقبل السلع القادمة من شبه الجزيرة العربية ، وكذلك كانت الحبشة متجرا لقريش . وقامت بمكة بيوت تجارية رومانية ، استخدمها الرومان للشئون التجارية ، كما استخدموها للتجسس على أحوال العرب .

وكانت قوافل التجارة ضخمة ، بلغ بعضها ٥٠٠ بعير أو ألف بعير ، وقد سار الرسول ﷺ قبل بعثته في هذه القوافل إلى الشام ، مرة وعمره ١٢ عاما ، ومرة أخرى حين كان في الخامسة والعشرين من العمر .

ولاشك أن العمل في التجارة أدى إلى تبادل ثقافي . وهكذا استفادت قريش اقتصاديا وثقافيا من التعامل مع العالم الخارجي .

ظهور الإسلام وانتشاره في حياة الرسول ﷺ

مولد الرسول ﷺ وحياته الأولى إلى بعثته :-

ولد النبي محمد ﷺ على الراجح من الروايات صبيحة يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل ٥٧١ م . وقد نشأ في كفالة جده عبد المطلب ، إذ كان أبوه عبد الله قد توفي قبل أن يولد ، ثم انتقل إلى كفالة عمه أبي طالب بعد وفاة جده عبد المطلب ، وكانت حليمة قد تولت إرضاعه – كما جرت عادة أشراف قريش – فنشأ في جو بدوي يتكلم الفصحى ، وتوفيت أمه آمنة بنت وهب وهو في السادسة من عمره(٧) .

اشتغل محمد ﷺ بالرعى والتجارة وسافر في التجارة إلى الشام ، وذهب به عمه أبو طالب إلى بصرى وهو في الثانية عشرة من عمره .

ويروى أنه حين كان ببصرى لمح فيه بحيرا الراهب علامات النبوة بعد أن سأله عن أمور في نومه ويقظته ، كما رأى في بدنه علامات معينة .

كذلك سافر إلى الشام وهو في الخامسة والعشرين من عمره في تجارة السيدة خديجة ومعه ميسرة غلامها ، فربحت التجارة . وفي هذه الرحلة أيضا ، روى أن راهبا يدعى نسطورا قد رأى علامات النبوة فيه .

وكانت السيدة خديجة بنت خويلد الأسدي في ذلك الوقت ، أرملة تبلغ الأربعين

من عمرها ، وهي يومئذ «أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا» كما يقول «ابن سعد»[٨] وقد رغبت السيدة خديجة في الزواج من محمد ﷺ لأمانته وكريم أخلاقه ، ومما قالته له : « يابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك » . وقد وافق محمد ﷺ على هذا الزواج وأبلغ أعمامه بذلك ، فقام معه عمه حمزة وخطبها من أبيها خويلد ، وقد دفع عمه أبو طالب الصداق . وجاء في الخطبة التي خطبها أبو طالب : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلّا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا ، وإن كان في المال قلّ فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصّداق فعلي »[٩] .

وكان عمر محمد ﷺ يوم تزوج من السيدة خديجة ٢٥ عاما وقد أنجب منها أولاده كلهم إلّا إبراهيم[١٠] .

وعندما بلغ محمد عليه الصلاة والسلام الخامسة والثلاثين من عمره ، حدث أن جدّدت قريش بناء الكعبة ، فعمل مع قريش في نقل الأحجار والبناء . ووقع خلاف بين زعماء قريش حول من يضع الحجر الأسود في مكانه ، ثم اتفق على أن يكون الفصل في ذلك لأول قادم عليهم فكان محمدا، قالوا هذا الأمين قد رضينا بما قضى بيننا ، فبسط محمد ﷺ رداءه على الأرض ووضع عليه الحجر وجعل كل زعيم يأخذ بطرف من الرداء ، فرفعوه جميعًا[١١] .

وكان محمد قبل بعثته ﷺ يحب العزلة ، فيخرج إلى غار حراء – على جبل في أعلى مكة يبعد عنها بنحو ثلاثة أميال – حيث يتعبد ويمضي في ذلك شهر رمضان من كل عام .

وحين بلغ الأربعين من عمره ، نزل عليه الوحي بواسطة جبريل عليه السلام ، وذلك في يوم الاثنين ١٧ أو ١٨ أو ٢٤ رمضان[١٢] خلال تعبّده في غار حراء ، وأقرأه أول ما نزل من القرآن الكريم وكان قوله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ

﴿ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق] .

أسرع الرسول ﷺ بالعودة إلى منزله فأنبأ السيدة خديجة بما شهد وسمع ، ومما قاله لها : « يا خديجة ، إني أرى ضوءا وأسمع صوتا ، لقد خشيت أن أكون كاهنا » ، لكنها هدأت من روعه وطمأنته بقولها : والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتعين الكلّ[١٣] . ثم ذهبت بالرسول ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان نصرانيا ، فأخبرته بما حدث فقال ورقة : « قدوس قدوس – أي طاهر طاهر – والذي نفس ورقة بيده ، لئن صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له ، فليثبت » . وحدث أن الرسول ﷺ كان بالكعبة ، فلقيه ورقة وسمع منه ما قد رآه وسمعه فطمأنه وقال له : « لئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه » ، ثم أدنى رأسه عليه صلوات الله وسلامه فقبل يافوخه ، أي وسط رأسه »[١٤] .

دعوة الإسلام في مكة :–

هكذا كانت بعثة الرسول ﷺ وكان ابتداء نزول الفرقان . واستهلّ الرسول ﷺ الدعوة إلى الإسلام بعرضه على أهل بيته وخاصته الأقربين ، فدعاهم سرًّا إلى الإيمان بالله وحده ونبذ عبادة الأوثان ، وكان يدعو كلا من هؤلاء على انفراد ، ولذا عرفت هذه المرحلة من الدعوة بالدعوة السرية واستمرت هذه المرحلة ثلاث سنوات منذ البعثة . وكان أول من استجاب لدعوة الإسلام السيدة خديجة زوجة رسول الله ﷺ ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، ومولاه زيد بن حارثة[١٥] . كما كان بين طلائع المؤمنين أبو بكر الصديق وكان صديقا للرسول ﷺ قبل مبعثه ، فلما كان المبعث دعا الرسول أبا بكر إلى الإسلام فبادر إلى الاستجابة فسرّ بذلك رسول الله ﷺ سرورا كبيرا .

ثم شرع أبو بكر بدوره يدعو إلى الإسلام ، وقد أسلم بدعوته خمسة من أجلاء الصحابة هم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام بن خويلد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله[١٦] . وتتابع المؤمنون الأولون فأسلم بعد

ذلك أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة والأرقم بن أبي الأرقم ، وكانت داره على جبل الصفا مركزا للدعوة . وقد شهدت تلك الدار أحداثًا هامة في تاريخ الدعوة الإسلامية بمكة حيث أقبل على اعتناق الإسلام والاجتماع برسول الله ﷺ فيها كثير من المسلمين الأولين .

وممن أسلم في هذه الفترة عن طريق دعوة الأفراد : عثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر ، وأسماء بنت أبي بكر وأختها عائشة وهي يومئذ صغيرة ، وخبّاب بن الأرث ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان الذي أسلم مع عمار بن ياسر في يوم واحد ، إلى غير أولئك من المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام(١٧) .

وبرزت خلال فترة الدعوة السرية جهود المسلمين الأولين التي آزرت جهود الرسول ﷺ في نشر الإسلام ، وكان في مقدمة الدعاة إلى الإسلام أبو بكر ، وكان يشترى العبيد المسلمين ويعتقهم لوجه الله ، ويقال إنه أعتق وهو في مكة قبل الهجرة إلى المدينة ست رقاب ، منهم بلال « سابق الحبشة » إلى الإسلام كما وصفه الرسول ﷺ ، ومنهم عامر ابن فهيرةالذي شهد بدرا وأحدا وغيرهما من الغزوات ، ومنهم زنّيرة التي روى أنه أصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلّا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا والله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان . فرد الله بصرها(١٨) .

كذلك نشط في الدعوة الإسلامية خلال تلك الفترة سعيد بن زيد وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح(١٩) .

وكان المسلمون إذا صلوا خلال تلك الفترة ذهبوا في الشعاب مستخفين بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب الرسول ﷺ في شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى – اللّحى هو العظم الذي على الفخذ – بعير فشجّه – أى جرحه – . فكان

ذلك أول دم أهريق في الإسلام[٢٠] .

الجهر بالدعوة :

في السنة الرابعة من البعثة النبوية ولما تزايد الداخلون في الإسلام من الرجال والنساء ، أمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة ، فقال تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤ – ٢١٦] كما قال تعالى ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤ – ٩٥] .

حينئذ صعد الرسول ﷺ على الصفا ، ونادى : « يا معشر قريش » ، قالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه وقالوا : مالك يا محمد ؟ قال : « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقونني ؟ » . قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متّهم وما جربنا عليك كذبا قط . قال : « فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة – وعدّد بطون قريش – إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا ، إلّا أن تقولوا : لا إله إلّا الله » . قال أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلخ . السورة[٢١] .

كذلك جهر بالقرآن الكريم بين الناس عبد الله بن مسعود ، فقد اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ يوما وقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ قال عبد الله بن مسعود : أنا ، قالوا : إنّا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . قال : دعوني فإن الله يمنعني . وفي الغد توجه ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها ، وأخذ يقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم » – رافعا بها صوته – ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ... ﴾ وتساءلت قريش : ماذا قال ابن أم عبد ؟ إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ، ثم اتجهوا إليه وجعلوا يضربونه في وجهه ، بينما هو مستمر في التلاوة حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ . ولما عاد إلى أصحابه ورأوا أثر الضرب في وجهه قالوا له : هذا الذي خشينا عليك . فما

كان جوابه إلّا أن قال : ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا . قالوا : لا ، حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون(٢٢) .

موقف قريش والمشركين عامة :

كان موقف قريش والمشركين عامة من الإسلام ونبي الإسلام والمسلمين هو العداء المطلق . وقد أورد صاحب الطبقات نحو عشرين اسما من زعماء المشركين وأهل العداوة والخصومة والجدل ، وفي مقدمتهم : أبو لهب عم الرسول ﷺ وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وعقبة بن أبي مُعَيْط وأبو سفيان بن حرب ، وانتهت عداوة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط ، وكان هؤلاء جميعا من جيران الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد روى عنه قوله ﷺ : « كنت بين شر جارين : بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، إن كانا ليأتيان بالروث – القاذورات – فيطرحانها على بابي . وكان الرسول ﷺ يخرج ويقول : يا بني عبد مناف ، أى جوار هذا . ويلقى الروث بعيدا »(٢٣) .

وكان رسول الله ﷺ إذا مرّ على قريش في مجالسها أشاروا إليه : إن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء(٢٤) . فإذا طاف بالكعبة تغامزوا عليه ، وقد أخذ بعضهم يوما بمجمع ردائه حتى قام أبو بكر يحاول أن يرد عنه ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربّي الله(٢٥) .

وكان المشركون يسخرون من المسلمين ومن صلاتهم ، حتى إذا كثر عدد المسلمين جدّت قريش في صد الناس عن الإسلام وتحقير شأن المسلمين . فرمى المشركون النبي عليه الصلاة والسلام بالسحر بمشورة الوليد بن المغيرة ، وكان قد نصح المشركين قبل موسم الحج أن يجمعوا على أمر في تحذير القادمين للحج من الاستماع إلى النبي ﷺ حتى لا يسحرهم بكلامه وانتهى معهم إلى رمي محمد ﷺ بالسحر . وفيه أنزل الله تعالى قوله ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾ [المدثر](٢٦) .

ولم ينل من عزيمة الرسول ﷺ ومضيه في دعوته عناد المعاندين وإيذاء المشركين

وتصدى عمه أبو لهب له ، بل واصل دعوته لا يصرفه عن ذلك صارف ، يدعو من يلقاه من حر وعبد وقوي وضعيف وغني وفقير كما ذكر بحق المؤرخ ابن كثير .

وكان يخرج في مواسم الحج ويؤم الحجاج في منازلهم وخيامهم وفي منى وفي الأسواق : عكاظ ومجنة وذي المجاز عارضا دعوة الإسلام وعقيدة التوحيد . ومن ذلك قوله في سوق ذي المجاز مثلا : « أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، ويذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة » . كما كان أبو لهب يمضي وراءه ويسفي عليه التراب قائلا : « لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب » ، وأحيانا كان يقول : « إنما يدعوكم لتسلخوا اللات والعزى من أعناقكم »[٢٧] . وهكذا كان يستثير المشركين فيردون على النبي ﷺ أقبح رد : ويقولون له : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك .

ومن القبائل التي عرض الرسول ﷺ نفسه عليها : بنو عامر بن صعصعة ومحارب وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبنو نضر البكاة وكندة وكلب والحارث بن كعب وعذرة والحضارمة ، لكن أحدا لم يستجب منهم[٢٨] .

وقد وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة .

من ذلك مثلا آل ياسر فقد تعرض عامر وأبوه وأمه سميّة لتعذيب قريش ، فكان يلقى بهم في الرمضاء ، وكان الرسول ﷺ يمر بهم ويقول : « صبرا آل ياسر ، موعدكم الجنة » وقد مات ياسر مما أوقع عليه من العذاب ، ولما أغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل طعنها بحربته فماتت وهي أول شهيدة في الإسلام . وبالغ المشركون في تعذيب عمّار بالحر ووضع الصخر على صدره[٢٩] . كذلك تعرض بلال بن رباح للعذاب الشديد ، وكان المشركون يطرحونه على ظهره في بطحاء مكة إذا حمت الظهيرة ويضعون الصخر على صدره ، وبلال صابر ثابت محتسب يردد « أحد أحد » . وقد اشتراه أبو بكر وأعتقه[٣٠] . وحتى كبار الصحابة أمثال أبي بكر لم يسلموا من الإيذاء .

ولما رأى المشركون أن الإسلام في ازدياد وأن الرسول عليه الصلاة والسلام ماض في دعوته ، سار فريق من أشراف قريش منهم أبو سفيان بن حرب وأبو جهل والوليد ابن المغيرة في نحو تسعة ، فلقوا أبا طالب وقالوا له : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل أباءنا ، فإمّا أن تكفّه عنا وإمّا أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه . لكن أبا طالب ردهم ردا جميلا . ولما جاءوا إليه مرة أخرى وشدّدوا عليه القول تطلع أبو طالب إلى ابن أخيه لعله يميل إلى الملاينة ، لكن الرسول ﷺ قال : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته ، ثم استعبر رسول الله عليه الصلاة والسلام وبكى ثم قام . فلما ولّى ناداه عمّه وقال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا . وفي كرة ثالثة عرض المشركون على أبي طالب أن يعطوه فتى من قريش هو عمارة بن الوليد بن المغيرة على أن يسلمهم محمدا عليه الصلاة والسلام فرفض وقال : والله لبئس ما تسومونني ، أتعطونني ابنكم أغذوه وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدا ، تسومونني سوم الغرير الذليل(٣١)!

وبلغ الأمر حد المجابهة حتى إن أبا طالب جمع فتيان بني هاشم وبني عبد المطلب فلبسوا سلاحهم دفاعا عن الرسول ﷺ ، وذهب أبو طالب بذلك الجمع المسلح إلى أندية قريش وكان معه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال أبو طالب : يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به ؟ قالوا : لا ، فأخبرهم الخبر ، ثم طلب الفتيان فكشفوا عن سلاحهم . وقال أبو طالب : والله لو قتلتموني ما بَقَّيت منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم . فانكسر القوم وكان أشدهم انكسارا أبو جهل(٣٢) .

السنة الخامسة من البعثة النبوية (٦١٥ م) :

كان للسنة الخامسة من البعثة النبوية أهميتها الكبرى في تاريخ دعوة الإسلام ، إذ شهدت ثلاث حوادث كبرى كان لها أثرها البعيد في نشر الإسلام وازدياد أعداد المسلمين وقوتهم . وهذه الحوادث هي :

أ – إسلام حمزة بن عبد المطلب : وهو عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة .

ب – الهجرة إلى الحبشة . (أول هجرة في الإسلام) .
جـ – إسلام عمر بن الخطاب .

أ – جاء إسلام حمزة على إثر موقف شديد تعرض له رسول الله ﷺ ، إذ كان جالسا عند الصفا فمر به أبو جهل بن هشام وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره . فلم يكلمه الرسول عليه الصلاة والسلام وانصرف . وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان التيمي في مسكنها فوق الصفا قد سمعت ما حدث ، فلما رأت حمزة عائدا من قنصه أخبرته المرأة بما حدث لابن أخيه . وكان حمزة أعزّ قريش وأشدها شكيمة، فاحتمل الغضب حمزة لما أراد الله من كرامته، وأسرع نحو الكعبة دون أن يطوف بالبيت أو يسلم على قريش في مجالسها بعد عودته من القنص وقبل توجهه لمنزله ، وإنما وقف على رأس أبي جهل وسط القوم ، ورفع قوسه وضربه بها فشجّه شجة منكرة قائلا له : « أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ، فردّ عليّ ذلك إن استطعت » . فقام رجال من بني مخزوم نصرة لأبي جهل ، لكن أبا جهل قال لهم : دعوا أبا عمارة – كنبة حمزة – فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا .

وهكذا أسلم حمزة . ولما عرفت قريش بذلك أيقنت أن رسول الله ﷺ قد عزّ جانبه وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[٣٣] . فكان حمزة ممن أعز الله به هذا الدين .

ب – وكانت الهجرة إلى الحبشة أول هجرة في الإسلام ، وجاءت في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة (٦١٥ م) ، على أثر اشتداد إيذاء قريش للنبي ﷺ وأصحابه ، وقد رأى الرسول ﷺ أن عمه أبا طالب لا يستطيع أن يمنع المسلمين مما هم فيه من بلاء ، فقال الرسول ﷺ لأصحابه « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

وتذكر المصادر العربية أن هذا الملك الحبشي هو أصحمة بن الحر أو ابن أبجر وتفسر كلمة أصحمة بكلمة (عطية) وتتفق المراجع الأجنبية على هذا الاسم (Ella Saham أو Ella Saham) .

وقد أورد السيوطي (ت ٩١١ هـ) في رفع شأن الحبشان عدة أسماء متشابهة منها : صحمة وأصمحة – مصمحة – أصحبة ... إلخ[٣٤] .

والهجرة إلى الحبشة هجرتان ، كلتاهما وقعتا في السنة الخامسة من البعثة النبوية : الأولى : في شهر رجب ، والثانية بعدها بأشهر قلائل . ويمكن اعتبارهما هجرة واحدة على دفعتين أو في رحلتين ، نظرا لتقارب زمنهما .

وقد بلغ عدد المهاجرين في الرحلة الأولى : أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وارتفع العدد في المرة الثانية إلى ٨٣ رجلا وإحدى عشرة امرأة قرشية وسبع نساء غير قرشيات[٣٥] .

ومن أوائل المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ ، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس .

وقد أمن المسلمون بأرض الحبشة وحمدوا جوار النجاشي . تقول أم المؤمنين أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم : « لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار ، النجاشي أمّننا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه »[٣٦] .

ولم تقبل قريش أن ترى المسلمين قد أمنوا بأرض الحبشة ، فأتمرت بهم وبعثت برجلين هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة يحملان الهدايا للنجاشي وأساقفته ، وليوغروا صدورهم على الإسلام والمسلمين مشيرين إلى أن المسلمين لا يقولون في المسيح قول النصارى ، غير أن جعفر بن أبي طالب تحدث عن المهاجرين وأقنع النجاشي بسلامة عقيدتهم وفساد عقيدة قريش وما نال المسلمين من ظلمهم ، وقرأ عليه صدر سورة مريم ، حتى بكى النجاشي ومن حوله من الأساقفة . ورفض آخر الأمر أن يسلم المهاجرين إلى سفيرى قريش[٣٧] .

وكان لهذه الهجرة أثرها الكبير في ازدياد عدد الداخلين في الإسلام بل وفي وصول الإسلام إلى إفريقية[٣٨] . وقد حدث من بعد ، أن قدم عشرون من نصارى نجران وسألوا عن النبي ﷺ الذي انتشرت سيرته في الحبشة ، والتقوا به حول الكعبة فدعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فاستجابوا . وقد اعترضهم أبو جهل وقال

لهم : خيبكم الله من ركب ، فارقتم دينكم وصدقتموه كما قال لكم . ما نعلم ركبا أحمق منكم[٣٩] .

جـ – وكان إسلام عمر بن الخطاب الحدث الثالث الكبير الذي وقع في السنة الخامسة من البعثة وقد أعقب الهجرة إلى الحبشة ، وكان ذا أثر بعيد في تاريخ انتشار الإسلام . وقد سبق إسلامه أن ظهر عليه الحزن لخروج من خرج من المسلمين مهاجرًا إلى الحبشة.فقد أورد ابن كثير أن عمر بن الخطاب تحدث إلى أم عبد الله بنت حثمة وكانت بين المهاجرين إلى الحبشة فقال : إنه الانطلاق يا أم عبد الله ؟ فقالت : نعم والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا . قال عمر : صحبكم الله . تقول أم عبد الله : ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف ، وقد أحزنه فيما أرى خروجنا . وقد طمعت أم عبد الله في إسلام عمر ، لكن زوجها استبعد ذلك وقال لها : لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، وذلك بسبب ما كان من غلظة عمر وقسوته على المسلمين من قبل[٤٠] .

وتذكر المصادر أن إسلام عمر كان بعد أن علم بإسلام أخته فاطمة وزوجها سعيد ابن زيد ،وذلك خلال توجهه إلى حيث يوجد الرسول ﷺ مع نفر من أصحابه معتزما قتله . فلقيه نعيم بن عبد الله من بني عدي رهط عمر وكان قد أسلم سرًا وعلم منه مقصده فقال له : « والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال عمر : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما .

رجع عمر إلى أخته وزوجها ، وكان عندهما خبّاب بن الأرت يقرأ لهما القرآن ، فلما أحسوا بقدوم عمر ، اختفى خباب في أحد أركان المنزل خوفا من بطش عمر ، وأخفت أخته فاطمة الصحيفة . ودخل عمر فبطش بصهره سعيد بن زيد ، وانبرت أخته فاطمة لتدافع عن زوجها فضربها فشجّها ، وهنا قالت فاطمة : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، وطلب

الصحيفة ليقرأ ما بها فرفضت أخته لأنه نجس بشركه والقرآن لا يمسه إلّا المطهرون . فاغتسل عمر وقرأ ما بالصحيفة وكان بها صدر سورة طه فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه(٤١) .

حينئذ اطمأن خباب ، وبرز من مخبئه وقال لعمر : يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته يقول : اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم ابن هشام أو بعمر بن الخطاب : فالله الله يا عمر . قال عمر : فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، قال خباب : هو في بيت عند الصفا . أسرع عمر إلى الرسول ﷺ وضرب الباب ، ورآه أصحابه متوشحا سيفه ، فأذن له الرسول ﷺ بالدخول ولقيه وعنفه ، فأخبره عمر أنه جاء ليسلم ، فكبر الرسول ﷺ تكبيرة عرف بها الحاضرون أن عمر قد أسلم(٤٢) .

وقد جاء إسلام عمر قوة للمسلمين إلى جانب إسلام حمزة رضى الله عنه . وبإسلام حمزة وعمر ، امتنع المسلمون حتى عازّوا – أى غالبوا في العزة – قريشا ، يقول عبد الله بن مسعود : ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه . وفي رواية أخرى عن عبد الله بن مسعود أيضا : أن إسلام عمر كان فتحا ، وأن هجرته كانت نصرا ، وأن إمارته كانت رحمة(٤٣) .

ما بعد السنة الخامسة للبعثة النبوية حتى الهجرة إلى يثرب :

تتابعت الأحداث ذات الأهمية بالنسبة للدعوة الإسلامية خلال الفترة من نهاية السنة الخامسة للبعثة النبوية حتى الهجرة إلى يثرب ، فقد مضى الإسلام قدما في طريق الانتشار ، وتزايد عدد المسلمين وقوتهم على الرغم من اشتداد قريش والمشركين في عدائهم للإسلام والائتمار برسول الله ﷺ والمسلمين ، وهو ما يدل على ضيق أعداء الإسلام بتقدمه وانتشاره ، ومحاولتهم تصعيد مقاومتهمّ له وضغطهم على أتباعه . وقد حدث فيها عدة أحداث هامة :

أ – حين رأت قريش أن قوة المسلمين في نمو وازدياد ، منذ أمنوا في أرض الحبشة

في جوار النجاشي ومنذ أسلم حمزة وعمر ، وأن الإسلام أخذ يفشو في القبائل ، أرادت أن تنال من النبي ﷺ وعشيرته عن طريق المقاطعة ، فلا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم ولا يصاهرونهم وأن يحولوا بينهم وبين من يريد أن يبيعهم أو يقدم لهم ما يسدّ جوعتهم أو يحتاجونه . وقد كتبت قريش بذلك صحيفة علقوها في الكعبة ، وكان كاتبها منصور ابن عكرمة العبدري الذي أصابته دعوة رسول الله ﷺ فشلت بعض أصابعه . وانحاز بنو هاشم في شعب أبي طالب منذ ليلة هلال المحرم من السنة السابعة من البعثة[٤٤] .

ولقد اشتد البلاء والجهد على أهل الشعب نحو ثلاث سنوات ، وهدف قريش القضاء على رسول الله ﷺ ودعوته ، وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر الرسول ﷺ أن يضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد به مكرا واغتيالا له ، فإذا نام الناس أمر أبو طالب أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجعوا على فراش الرسول صلوات الله وسلامه عليه بينما يتحول الرسول حفاظا على حياته إلى بعض فرشهم فينام عليه[٤٥] .

وقد رُوى أن الأرضة أكلت جميع ما في الصحيفة إلّا اسم الله (باسمك اللهم) ، وأخبر الله تعالى نبيه ﷺ بذلك ، فأخبر به عمه أبا طالب . فقام أبو طالب وإخوته إلى المسجد ونادى في كفار قريش : إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني قط ، أن الله قد سلّط على صحيفتكم الأرضة فمحت كل ما فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله ، فإن كان ابن أخي صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذبا دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه . قالوا : قد أنصفتنا ، فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها فإذا هي كما قال الرسول ﷺ ، وحينئذ سقط في أيديهم ولكنهم نكسوا على رؤوسهم ، فقال لهم أبو طالب : علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر ؟ . ثم دخل أبو طالب وأصحابه بين أستار الكعبة فقال : اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا ، وبعد ذلك انصرفوا إلى الشّعب[٤٦] .

وقد تلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم ، منهم : مطعم بن عدي وأبو البختري بن هشام وزهير بن أبي أمية وهشام بن عمرو بن الحارث العامري إلخ ، ولبسوا

السلاح وخرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا ، فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم وعرفوا أنهم لن يسلموهم . وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة من البعثة ومزقت الصحيفة[٤٧] . وعلى الرغم مما لقى الرسول ﷺ ورهطه من عنت وجهد خلال فترة الحصار ، فإنه ﷺ كان لا يكف عن دعوته – كما ذكر ابن هشام في السيرة – « ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو ليلا ونهارا وسرا وجهارا مباديا بأمر الله لا يتقي فيه أحدا من الناس »[٤٨] .

ب – كان من شدائد تلك الفترة وأحداثها الكبرى وفاة أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة بعد الخروج من الشعب ، ووفاة السيدة خديجة بعده بثلاثة أيام أو أكثر وكانت وفاتهما قبل الهجرة بثلاث سنوات . وقد حزن الرسول ﷺ أشد الحزن لفقدهما ، فقد كانت خديجة بالنسبة له ﷺ خير عون على الحق ، وكان عمه أبو طالب عضدا له ومنعة وناصرا على قومه ، وعلى أثر هاتين المصيبتين الفادحتين لزم الرسول بيته وقلّ خروجه ، ونالت قريش منه ما لم تكن تناله ولا تطمع فيه . وقد رُوي عنه ﷺ أنه قال : « ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب » . وروى ابن سعد أن أبا لهب أراد أن يحل مكان أبي طالب في حماية النبي ﷺ وإن كان باقيا على دينه . ولكن أبا لهب عاد إلى عداوته لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه حين علم أنه يقول إن من مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب – والد أبي لهب وجد النبي ﷺ – دخل النار . وعمل على استثارة أبي لهب وتحريضه بعض كفار قريش من أمثال عقبة بن أبي معيط وأبي جهل بن هشام . بل اشتدت عداوة أبي لهب للنبي ﷺ وأعلنه بذلك فقال : والله لا برحت لك عدوا أبدا ، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار[٤٩] .

جـ – وعلى إثر تزايد العداوة والإيذاء ، فكر رسول الله ﷺ في الخروج إلى الطائف ، لعله يجد عند ثقيف استجابة للإسلام ، وجاء خروجه إلى الطائف أواخر شوال سنة ١٠ من البعثة النبوية ، واصطحب معه مولاه زيد بن حارثة . وقد اجتمع ببعض سادة ثقيف لكنهم رفضوا دعوته ، حتى قالوا له بعد أن ظل في الطائف نحو عشرة أيام يعرض دعوته : اخرج من بلدنا . وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة ، حتى

دميت رجلاه وزيد بن حارثة يقيه بنفسه[٥٠] ، وقد أصيب زيد بجروح في رأسه[٥١] .

ولجأ النبي ﷺ ومولاه زيد إلى حائط – أي بستان – وكان فيه صاحباه عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، فرجع سفهاء ثقيف بينما استظل الرسول ﷺ بشجرة عنب . وهنا رفع الرسول ﷺ رأسه ويديه إلى السماء وقال دعاءه المشهور : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلّا بك »[٥٢] .

تحركت نزعة صلة الرحم في قلبي ابني ربيعة وهما ينظران إلى النبي ﷺ ، فبعثا إليه بقطف من العنب في طبق مع غلام نصراني لهما هو عدّاس ، فأخذه الرسول ﷺ قائلا « بسم الله » وشرع يأكل من العنب ، فدهش عدّاس وقال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فسأله النبي ﷺ عن دينه وبلده ، فقال إنه نصراني ومن نينوى – مدينة قديمة بشمالي العراق – فلما أخبره الرسول ﷺ بأن هذه المدينة هي قرية يونس ابن متى عليه السلام وأنه ﷺ نبي ، أكبّ عداس على الرسول يقبل رأسه ويديه وقدميه . وقال عداس ما في الأرض شيء خير من هذا لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي . وعاد إلى صاحبي البستان وقد خشيا أن يكون قد اعتنق الإسلام[٥٣] .

د – في منصرف النبي ﷺ من الطائف ، راجعا إلى مكة بعد أن يئس من هداية ثقيف ، صلى الصبح بوادي نخلة على بعد ليلة من مكة بعد أن بات بها فاستمع إليه نفر من الجن ، وبعد أن أقام بنخلة أياما استعد للتوجه إلى مكة ، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم – أي قريش – وهم أخرجوك ؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . ثم انتهى إلى حراء ، وأرسل رجلا من خزاعة إلى المطعم بن عدي يطلب جواره قائلًا : أدخل في جوارك حتى أبلغ رسالة ربي ؟ . فقال المطعم : نعم ، بعد أن رفض اثنان قبله مثل هذا الجواب . وقد

أجاب المطعم رسول الله ﷺ قائلًا : قل لمحمد فليأت ، وقال لبنيه وقومه : تلبّسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمدا . فدخل رسول الله ومعه زيد ابن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام . وقام المطعم بن عدي على راحلته ونادى : يا معشر قريش إني قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم . وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن واستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ، والمطعم بن عدي وولده وقومه مطيفون به[٥٤] .

هـ – ظل الرسول ﷺ يدعو في المواسم والأسواق إلى الإيمان بالله وحده ونصرة دينه ، حتى أراد الله إظهار دينه ونصر نبيه وإنجازه وعده.فالتقى بنفر من الخزرج عام ١١ من البعثة النبوية في منى ، وكانوا نحو ستة نفر أو ثمانية ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فاستجابوا وأسلموا . وقال بعضهم لبعض : تعلمن والله ، إنه للنبي الذي توعّدكم به اليهود ، فلا يسبقنكم إليه . وقالوا للرسول ﷺ إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك . ثم انصرفوا راجعين إلى يثرب ، فدعوا قومهم إلى الإسلام فأسلم الكثير ، ولم يبق بيت إلّا وفيه ذكر من رسول الله ﷺ[٥٥] .

ومن هؤلاء النفر الذي أسلم من الخزرج ، أسعد بن زرارة ، وقد اتخذت داره في المدينة مركزا لبث الدعوة الإسلامية ، كما كان الشأن بالنسبة لدار الأرقم بن أبي الأرقم في مكة . ومنهم رافع بن مالك الزرقي . ويقال إن أول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة هو مسجد بني زريق . وكذلك ممن أسلموا من الخزرج عبادة بن الصامت[٥٦] . وكان إسلام هذا النفر من الخزرج مقدمة للهجرة النبوية إلى يثرب[٥٧] . وكانت بيئة المدينة عاملا كبيرا في سرعة استجابة الأنصار ، فالوثنيون فيها يجاورون اليهود ، وهم أهل كتاب نشروا الكثير عن الله الواحد وعن الآخرة والثواب والعقاب ، وتوعدوا الوثنيين من الأوس والخزرج بظهور نبي يتبعونه ويقضون عليهم ، قالت اليهود : إن نبيّا الآن مبعوث قد أظل زمانه ، نتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم[٥٨] . كما هيأ سوء العلاقة بين الأوس

والخزرج وكثرة الصراع بينهم للتطلع إلى قوة جديدة تجمع الشمل . تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « كان يوم بعاث[٥٩] يوما قدره الله لرسوله ﷺ ، قدم رسول الله إلى المدينة وقد افترق ملؤهم – أي أشرافهم ورؤساؤهم – وقتل سراتهم »[٦٠] .

وجاء إلى مكة عشرة رجال من الخزرج واثنان من الأوس وامرأة في السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية وبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام ، وعرفت هذه البيعة باسم « بيعة النساء » إمّا لوجود امرأة هي عفراء بنت عبيد بن ثعلبة ، أو لصيغة البيعة التي جاءت مماثلة لبيعة النساء الواردة في سورة الممتحنة (آية ١٢) « على أن لا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصون الرسول ﷺ في معروف » فأجابهم رسول الله ﷺ : « فإن وفيتم فلكم الجنة ، ومن يغشى من ذلك شيئا كان أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه » .

ولما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم العبدري ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، وكان ينزل في دار أسعد بن زرارة ، وكان يصلي بهم . واشتهر في المدينة باسم المقرئ ، لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعضًا ، وسميت هذه البيعة « بيعة العقبة الأولى » لوقوعها في موضع العقبة قرب منى[٦١] .

وقد نشط مسلمو الأنصار الأولون في نشر الدعوة الإسلامية بالمدينة كما نشط فقيههم مصعب بن عمير في بيان هداية الإسلام وتعليم القرآن . ودخل عدد كبير من الأنصار في الإسلام ، وبرز منهم اثنان في نشر الإسلام في المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها : هما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وكلاهما من سادات قومهما من بني عبد الأشهل . وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة . وبإسلامهما نشطت الدعوة الإسلامية في المدينة حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[٦٢] .

و – وأعقبت ذلك بيعة العقبة الثانية أو الآخرة في الموسم التالي عام ١٣ من البعثة ، وهي التي عرفت ببيعة الحرب ، لما ورد فيها من منع رسول الله ﷺ مما يمنع منه المرء نساءه وأولاده[٦٣] . وكانت تلك البيعة في شهر ذي الحجة وسط أيام التشريق والتقى

برسول الله عليه الصلاة والسلام ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، والمرأتان هما : نسيبة بنت كعب أم عمارة وأسماء بنت عمرو بن عدي ، إحدى نساء بني سلمة وهى أم منيع[٦٤] .

وقد لقي الأنصار رسول الله ﷺ في مكة ، ووعدهم بالاجتماع عند العقبة قرب منى ليلة الثاني عشر من ذي الحجة وسط أيام التشريق ، وقد سبقهم رسول الله إلى المكان ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وكان لا يزال على دين قومه[٦٥] ، وكان الوقت بعد مضي ثلث الليل ، وتكلم العباس أولا لكي يتوثق لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : « يا معشر الخزرج – وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج ، خزرجها وأوسها[٦٦] – « إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده » .

وقد أجاب الأنصار العباس : « قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت » . فتكلم الرسول ﷺ فتلا بعض القرآن ، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » . فقال أحد الأنصار : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال – يعني اليهود – جبالا وإنّا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله وطمأنه بقوله : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . ثم نهض العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري الخزرجي الذي استشهد بعد ذلك في أحد / ٣ هـ وقال مستوثقا لرسول الله ﷺ : « يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ،

وإن كنتم ترون أنكم موفون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة » . قالوا : فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا يا رسول الله إن نحن وفّينا ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « الجنة » .

وقد شهد العباس بن عبادة بن نضلة العقبتين ، وأقام مع الرسول ﷺ في مكة حتى هاجر إلى المدينة ، فكان يقال له : مهاجري أنصاري . ومن هذا الفريق من المهاجرين الأنصاريين الذين عادوا إلى مكة وهاجروا مع أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة ، وزياد بن البيد .

ثم طلب الرسول ﷺ ممن بايعوه أن يختاروا اثنى عشر نقيبا (تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس) وأوصى النقباء بقوله ﷺ : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي »[٦٧] . وكان من نقباء الخزرج عبادة بن الصامت ومن الأوس أسيد بن حضير ، وشارك في بيعة العقبة الثانية عبد الله بن عمرو ابن حرام الذي كان قد أسلم ، وقد صار هو أيضا من النقباء .

ولم تنجح قريش فيما حاولت من أن تصرف الأنصار عما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ .

الإسلام بعد قيام دولته في المدينة عقب الهجرة (١ - ١١ هـ/ ٦٦٢ - ٦٧٢ م) :-

بين بيعة العقبة الثانية والهجرة عاد أصحاب العقبة الثانية إلى المدينة وقد امتلأوا حماسا لنشر الإسلام والدفاع عن نبي الإسلام ﷺ ، وازداد انتشار الإسلام بالمدينة بحيث لم يبق إلا القليل ممن هم على الشرك ، إلى جانب اليهود الذين بقوا على دينهم .

وقد طابت نفس رسول الله ﷺ بما تم في بيعة العقبة الثانية ، فقد جعل الله له منعة في قوم هم أهل حرب وعدّة ونجدة ، ولكن أصحابه من المسلمين في مكة كان قد اشتد بهم البلاء بعد أن فشلت قريش في مقاومة دعوة الإسلام ، ونال المشركون من المسلمين في مكة ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى .

الهجرة إلى يثرب : نصح الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة ، قائلا لهم :

« إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها » ، فخرجوا أرسالا ولم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى ، أو مفتون محبوس ، أو مريض ضغيف عن الخروج ، وكان الرسول ﷺ ينتظر الإذن من الله تعالى بالهجرة .

وأول من هاجر من مكة إلى المدينة من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام أبو سلمة بن عبد الأسد من بني مخزوم . ثم قدم بعده عامر بن ربيعة ومعه زوجته ليلى بنت أبي حثمة . نزل المهاجرون على الأنصار في دورهم ، فآووهم ونصروهم وآسوهم . ومن المهاجرين إلى المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ ، كان حمزة بن عبد المطلب وعمر ابن الخطاب وزيد بن حارثة وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان وغيرهم .

وكان أبو بكر الصديق كثيرا ما يستأذن الرسول ﷺ في الهجرة إلى المدينة ، فيقول له : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا . فطمع أبو بكر أن يكون الصاحب هو رسول الله نفسه[٦٨] .

وقد أمضى الرسول ﷺ بقية ذي الحجة من عام ١٣ من البعثة وشهري المحرم وصفر في السنة الرابعة عشرة من البعثة في مكة بعد هجرة من هاجر من أصحابه إلى يثرب .

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد حملوا الذراري والأطفال إلى الأوس والخزرج ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وصارت لهم شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، وأنهم في دار منعة وسط قوم من أهل حلقة ، وبأس ، تآمرت فيما بينها للحيلولة دون خروج الرسول ﷺ نفسه إلى يثرب ، وتشاوروا في دار الندوة بمكة وهى دار قصي بن كلاب ، واستقر الرأى على اقتراح أبي جهل وهو أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا – أى شريفا في قومه – وأن يشتركوا جميعا في ضرب رسول الله ﷺ بالسيوف ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل جميعا فلا تقدر بنو عبد مناف على حربها وتقبل العقل ، أى الدية[٦٩] .

فجاء الإذن من الله تعالى لنبيه بالهجرة ، وقال جبريل عليه السلام للرسول ﷺ : « لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه » .

حينئذ أمر الرسول ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه وأن يتسجى - أي يغطي جسمه ووجهه - بالبردة النبوية الخضراء الحضرمية . وقال صلوات الله وسلامه عليه لعلي : إنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » .

خرج رسول الله ﷺ من داره ونثر على أعدائه المتربصين به التراب وهو يتلو ﴿ يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾ ، فلم يره أحد من هؤلاء ، واتجه إلى دار أبي بكر وأخبره أن الله عز وجل قد أذن له في الخروج ، فقال أبو بكر : « الصحبة يا رسول الله » . قال الرسول ﷺ : « الصحبة » فبكى أبو بكر من الفرح .

وكان أبو بكر قد أعد راحلتين ودليلا . وخرج الرسول وفي صحبته أبا بكر و لم يعلم أحد بخروجهما سوى علي بن أبي طالب وآل أبي بكر . وانتهيا إلى غار ثور - جبل ثور أسفل مكة - ودخله أبو بكر أولا لينظر أفيه سبع أو حيّة ليقي الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه .

مكث الصاحبان في الغار ثلاثة أيام وقد روى أن العنكبوت ضربت على بابه بيتها ، وكانت قريش قد جدت في طلب الرسول عليه الصلاة والسلام حتى انتهت إلى باب الغار ، فقال بعضهم : إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد . وكذلك روى أنه نبتت شجرة أمام الغار واستقرت حمامتان وحشيتان في فم الغار . وكانت هذه العلامات مما صرفت المشركين .

وبعد ثلاثة أيام غادر رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر الغار في ٤ ربيع أول حتى وصلا إلى قباء في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول حيث نزل على كلثوم بن الهدم .
(خريطة طريق الهجرة) .

وكان المهاجرون والأنصار في المدينة يخرجون إلى مشارفها في انتظار وصول رسول الله وصاحبه ، وظلوا على ذلك أياما ، حتى إذا علموا بوصوله ﷺ ، تلبّسوا السلاح واستعدوا ، ومكث علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال بعد هجرة رسول الله ﷺ حتى أدى الودائع التي كانت عنده للناس ، ثم لحق به في قباء حيث نزل معه على كلثوم بن الهدم .

وفي قباء أسس الرسول ﷺ أول مسجد في الإسلام . وكان هو أول من وضع حجرا في قبلته ، وتلاه أبو بكر ثم بقية المسلمين . ثم خرج يوم الجمعة متجها إلى المدينة وأدركته صلاة الجمعة فصلاها في بطن الوادي في بني سالم ، وهذه أول جمعة صلاها الرسول ﷺ بالمدينة . وفي يثرب سار النبي ﷺ وسط المسلمين من المهاجرين والأنصار وهم في سلاحهم ، وكلما مر بدار من دور الأنصار قال له صاحبها : « هلم يا نبي الله إلى القوة والمنعة والثروة » الكل يريد أن ينزل عنده . واستشرف أهل المدينة بالنبي ﷺ وصاروا ينظرون إليه ويقولون : جاء نبي الله ﷺ ، كما كانوا يقولون : الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد . وكانت النساء والصبية ينشدن :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

وضربت جوار من بني النجار بالدفوف قائلات :

نحن جوار من بني النجار   يا حبذا محمد من جار

وقد اختار الرسول عليه الصلاة والسلام مربدا – وهو مكان تجفيف التمر – لغلامين يتيمين ليكون موضع مسجده ، واشتراه منهما . ونزل الرسول ﷺ على بيت أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، حيث ظل سبعة أشهر حتى تحول إلى منزله ﷺ(٧٠) .

وخلال إقامته في بيت أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، بعث رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ليحضرا ابنتيه فاطمة وأم كلثوم وزوجته سودة بنت زمعة وأسامة بن زيد . وصحبهم حين غادروا مكة عبد الله بن أبي بكر ومعه عيال أبي بكر وفيهم عائشة ، فقدموا المدينة ونزلوا بيت حارثة ابن النعمان(٧١) .

وكانت الهجرة النبوية الشريفة إلى يثرب ذات أثر بعيد في تاريخ الإسلام ، دعوة ودولة .

قيام دولة الإسلام وتنظيم المجتمع في المدينة :

كان من الآثار المباشرة للهجرة النبوية إلى المدينة ، قيام الدولة الإسلامية لأول مرة

في التاريخ ، فقد أضحى الرسول ﷺ حاكما لدولة إسلامية جديدة إلى جانب كونه نبيا رسولا ، وكانت المدينة المنورة هى مركز هذه الدولة أو عاصمتها .

ومن بعد صار يؤرخ في التاريخ الإسلامي ابتداء من السنة الأولى للهجرة ، وقد تقرر ذلك في العام السابع عشر من الهجرة (٦٣٨ م) ، في زمن عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م)[٧٢] .

وكان رسول الله ﷺ قد بادر إلى تنظيم شئون المجتمع الإسلامي في يثرب منذ عين النقباء الاثنى عشر (٩ من الخزرج و ٣ من الأوس) خلال بيعة العقبة الثانية ليتولوا شؤون قومهم ، وذلك قبل هجرته ﷺ إلى المدينة . وكان مجتمع المدينة عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة يتكون من الخزرج والأوس واليهود . وحين وصل المهاجرون من مكة ، كان لابد من المضي في تنظيم هذا المجتمع بصورة أشمل وأوفى .

وقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار . قال عليه الصلاة والسلام : تآخوا في الله أخوين أخوين . ومن المؤاخاة أن يتوارث بعضهم بعضا دون ذوى الأرحام ، وكان ذلك قبل غزوة بدر . فلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال] . انقطعت المؤاخاة في الميراث ، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه . فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين ، كما كان جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زهير الخزرجي أخوين وهكذا[٧٣] .

كذلك وادع الرسول ﷺ اليهود ، وأمنهم على دينهم : « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » ، وأوضح حقوقهم وعلاقاتهم مع المسلمين .

وكانت الهجرة أكبر عامل في ازدياد انتشار الإسلام وظهور قوة المسلمين ، وواصل المهاجرون والأنصار الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] وجميع من دخل في

الإسلام وقتذاك دخله طوعا لا كرها ، وقد مكث رسول الله ﷺ في مكة بعد البعثة ١٣ عاما يدعو للإسلام بالحجة والبيان ، صابرا هو وأصحابه على إيذاء المشركين(٧٤) .

وعند استقرار رسول الله ﷺ بالمدينة ، كان الإسلام قد انتشر بين جميع الأنصار تقريبا ، يقول ابن هشام صاحب السيرة « لم يبق دار من دور الأنصار إلّا أسلم أهلها إلا ما كان من خطمة وواقف ووائل وأمية بن زيد ، وتلك أوس الله وهم من أوس بن حارثة – حي من الأوس – فإنهم أقاموا على شركهم »(٧٥) .

ومع انتشار الإسلام بين الأنصار ، فقد كان بينهم منافقون تحالفوا مع اليهود ، وظاهروهم ضد رسول الله ﷺ وضد الإسلام كعبد الله بن أبي بن سلول ، وقد بين القرآن أحوال أولئك المنافقين وأخبارهم ومصائرهم في أكثر من موضع ، ومن ذلك سور البقرة والتوبة والمنافقين وغيرها .

وكان هناك من اليهود من أقبل على اعتناق الإسلام ، منهم : عبد الله بن سلام وكان حبرا عالما ، وأسلم معه أهل بيته وعمّته خالدة بنت الحارث . كما أسلم مخيريق الحبر العالم الثري ، ودعا اليهود إلى الإسلام ، واشترك في أحد حيث استشهد ، وكان قد أوصى بأمواله للرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن هذه الأموال كانت صدقات الرسول بالمدينة(٧٦) .

على أنه كان هناك من أسلم نفاقا من اليهود ، ومنهم سعد بن حنيف وزيد بن اللصيت ورافع بن حريملة من بني قينقاع وغيرهم(٧٧) .

وسواء أكان المنافقون من الأنصار أم من اليهود ، فإنهم درجوا على أن يدخلوا المسجد النبوي ويستمعوا إلى أحاديث المسلمين فيسخروا منهم ، وقد أمر رسول الله ﷺ بإخراجهم من المسجد فأخرجوا . وكان الصحابي الجليل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ممن سارعوا إلى إنفاذ أمر رسول الله بإخراج اثنين من المنافقين هما عمرو بن قيس ورافع بن وديعة ، وكلاهما من بني النجار(٧٨) .

رسائل الرسول ﷺ إلى داخل شبه الجزيرة وخارجها :

أرسل الرسول ﷺ كتبا إلى الملوك والأمراء الذين كانوا على رأس القوى السياسية

الهامة حول الجزيرة العربية ، وإلى أمراء العرب وسادتهم في أنحاء الجزيرة يدعوهم إلى الإسلام ، وكان قد اتخذ عليه الصلاة والسلام خاتمين من فضة لختم الكتب التي يرسلها بعد رجوعه من الحديبية في ذي الحجة سنة ست من الهجرة ، ويشتمل الخاتم على اسم رسول الله ﷺ (محمد رسول الله)(٧٩) ، وممن بعث رسول الله ﷺ كتبه إليه يدعوه فيها إلى الإسلام نجاشي الحبشة في ذلك الوقت ، ويرجح أنه أسلم وإن لم يتبعه في إسلامه من جاء بعده من ملوك الحبشة . وهرقل إمبراطور الدولة البيزنطية ، وكسرى ملك فارس ، والمقوقس حاكم مصر البيزنطي وكذلك بعث إلى الأمير الغساني في بصرى الذي كان حليفًا للروم هو الحارث بن أبي شمر(٨٠) .

أما بالنسبة لأرجاء شبه الجزيرة ، فقد بعث رسول الله ﷺ كتبه التي دعا فيها إلى الإسلام أمراء العرب وسادتها في أنحاء متعددة منها وممن بعث له ، هوذة بن علي الحنفي ، وجيفر وأخويه ابنا الجلندى من الأزد بعمان وقد أسلما ، والمنذر بن ساوي العبدي بالبحرين وقد أسلم ، فضلا عن بعض من لم يسلم من أقيال اليمن . كما كتب ﷺ إلى مسيلمة الكذاب – لعنه الله – فلم يستجب وكان يدعي النبوة . والحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير ، وكانوا من اليهود فأسلموا ، وأقيال حضرموت وغيرهم .

ومن الكتب التي كتبها رسول الله ﷺ لأفراد داخل شبه الجزيرة ، ما كان يشتمل على منح من الأرض للتأليف على الإسلام . ومن ذلك كتابه إلى الحصين الأسلمي بإعطائه الفرغين وذات أعشاش ، وكتابه إلى بني قرة النبهانيين بمنحهم المظلّة كلها أرضها وماءها وسهلها وجبلها حمى يرعون فيه مواشيهم ، وكتابه لبني معن الطائيين أن لهم ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم ، وهذا إقرار على ما باليد ، ومثل ذلك لبني الجرمز ابن ربيعة وهم من جهينة بأن لهم ما أسلموا عليه .

كما كان يكتب رسول الله ﷺ في شرح تعاليم الإسلام وأحكام شريعته ، ومن ذلك ما بعث به لتوضيح الصدقة وشروطها ، فقد كتب مثلا عليه الصلاة والسلام إلى سعد هذيم من قضاعة ، وإلى جذام يعلمهم فرائض الصدقة . وكتب إلى أهل اليمن يخبرهم بشرائع الإسلام وفرائض الصدقة في المواشي والأموال ، وحمل كتابه إليهم معاذ بن جبل .

وكتب رسول الله ﷺ عهودا للأقوام القاطنة في الأطراف الشمالية لشبه الجزيرة ورءوسها لبيان الحقوق والواجبات وتأمين الحدود الشمالية ، ومن ذلك عهد اليهود من أهل مقنا على ساحل البحر الأحمر الشمالي ، ولليهود من جربا وأذرح ، وقد اشتملت هذه الكتب على تحديد مقادير الجزية الواجبة ، كذلك عاهد رسول الله ﷺ حنا بن رؤبة النصراني صاحب أيلة (العقبة) البيزنطي على دفع الجزية(٨١) .

المغازي :

تتابعت غزوات المسلمين وسراياهم(٨٢) للدفاع عن النفس وتأمين دعوة الإسلام ودولته ، ومن أجل ذلك شرع الجهاد في الإسلام وأذن للمسلمين بالقتال ، منذ نزل قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ... ﴾ [الحج : ٣٩ – ٤٠] .

يقول ابن هشام صاحب السيرة : « فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيّه ﷺ وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدّق نبيه واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ... »(٨٣) .

وانجلت تلك الغزوات والسرايا ، عن ظهور قوة الإسلام والدولة الإسلامية الجديدة وانتصار الحق على الباطل ، واعتناق قريش وغيرها الإسلام .

ومن الغزوات ذات الأثر البعيد فى مستقبل الإسلام وانتصار دعوته ، غزوة بدر الكبرى في رمضان من السنة الثانية للهجرة (فبراير ٦٢٤ م) ، حيث انتصر المسلمون على قريش وظهرت قوة الإسلام ، وقد وصفت بأنها غزوة الفرقان إذ فرقت بين الحق والباطل .

ومن الوقائع البارزة خلال الصراع بين المسلمين والمشركين ما يمكن أن يسمى بهدنة الحديبية – على بعد تسعة أميال من مكة – وتجرى تسميتها كثيرا بغزوة الحديبية كما نجد عند صاحب الطبقات وابن كثير وغيرهما(٨٤) . وكان رسول الله ﷺ قد خرج من المدينة في ذي القعدة سنة ست من الهجرة لأداء العمرة ، ومعه نحو ١٦٠٠ من المسلمين ،

وليس معهم من السلاح سوى السيوف في أغمادها ، ومعهم البدن لنحرها ، فلما اقترب من مكة حال دونه مشركو قريش ، وحين بعث رسول الله عليه الصلاة والسلام عثمان ابن عفان إلى قريش ليؤكد مقصد قدوم المسلمين للعمرة فحسب ، فإذا بها تحبسه ، وحينئذ تأهب رسول الله للقتال ، وبايعه أصحابه على الحرب ، وتلك هي بيعة الرضوان التي نوّه بها القرآن الكريم في سورة الفتح [آيتي : ١٨ - ١٩] . لكن قريشا مالت إلى مفاوضة رسول الله وبعثت سهيل بن عمرو في ذلك ، واتفق على هدنة بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات ، وأن يرد الرسول ﷺ من يأتيه مسلما من قريش بدون إذن وليّه ولا تلزم قريش برد من يأتي إليها من عند الرسول دون إذن وليه ، كما اتفق على أن يرجع رسول الله ﷺ في ذلك العام ، وأن يعود في العام القادم ، ليؤدى العمرة وليس معه سوى السيوف في قربها(٨٥) .

لم يكن اقتناع المسلمين بتلك الشروط يسيرا وإن حملت حقيقتها انتصارا للمسلمين على غير ما يبدو من ظاهرها . برهنت أحداث التاريخ على صدق نظر الرسول ﷺ إذ ازداد بعد الحديبية عدد المسلمين رغم ما كان يبدو في عهد الحديبية كأنه اشتراط جائر غير متكافئ ، مثل التزام رسول الله ﷺ برد من أتاه من قريش مسلما بغير إذن وليه إليها ، وعدم التزام قريش بمثل ذلك بالنسبة لمن يأتيها من المسلمين بغير إذن وليّه ، فإنه تمخض عن نتائج طيبة لصالح المسلمين في واقع التطبيق فقد حدث أن هرب أبو بصير عتبة بن أسيد المسلم من حبسه في مكة إلى الرسول ﷺ ، فرده إلى مكة وفاء بشروط الهدنة . قال أبو بصير للرسول ، أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فأجابه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . وهكذا خرج أبو بصير مع رسولي قريش ، لكنه غافلهما في الطريق وقتل أحدهما ، فعاد الآخر إلى النبي وأخبره بما حدث ، لكن أبا بصير توشح السيف وأجاب : يا رسول الله : وفت ذمتك وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي . وهنا كان لرسول الله كلمة لها دلالتها البليغة إذ قال : « ويلُ أمِّه مِحَشُّ حرب لو كان معه رجال »(٨٦) .

خرج أبو بصير إلى ساحل البحر عند العيص ليضيّق على قريش ، بينما تسامع المسلمون المحبوسون في مكة من أمثال أبي بصير بقصته ، وكانوا نحو ٧٠ فهربوا تباعًا وانضموا إلى أبي بصير ، لا يظفرون بقرشي مشرك يجتاز موضعهم إلّا قتلوه ، هنالك استغاثت قريش بالرسول عليه الصلاة والسلام تسأله بأرحامها إلا آوى هؤلاء المتربصين فلا حاجة لهم بهم . وهكذا عاد أولئك المستضعفون إلى المدينة أعزاء الجانب(٨٧) .

كما أنه على إثر الحديبية ، دخل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في الإسلام ، فكانا قوة للمسلمين ، إذ شاركا في الغزوات والسرايا داخل الجزيرة في حياة رسول الله ﷺ ثم في الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة العربية فيما بعد(٨٨) .

وفي جمادى الأولى من العام الثامن الهجري وجه رسول الله ﷺ نظره إلى أطراف الجزيرة العربية ، وبعث بعثا إلى مؤتة استعمل عليه زيد بن حارثة ، فإن أصيب فجعفر ابن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة . فلقيتهم جموع هرقل بالبلقاء (قرب البحر الميت) ، فقتل زيد وجعفر وابن رواحة ، وأخذ خالد بن الوليد الراية فانحاز بالمسلمين .

ثم كانت غزوة مكة عام ٨ هـ (٦٣٠ م) في شهر رمضان ، وكان معظم القبائل العربية وقتذاك قد دخلت في الإسلام ، منها أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم . وقد اشتركت هذه القبائل مع رسول الله ﷺ في مسيرته إلى مكة ، وبلغ جيش المسلمين عام الفتح عشرة آلاف . ودخل الرسول مكة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان . ومكث بها خمسة عشر يوما وكان الرسول قد نهى عن القتال ، لكن خالد بن الوليد قوتل فقاتل ، وقتل ٢٤ من قريش وأربعة من هذيل .

وقد أسلم العباس وأبو سفيان عام الفتح ، وأسلم جميع أهل مكة ، وحطم المسلمون الأصنام حول الكعبة وكانت ٣٦٠ صنما ، وعفا رسول الله ﷺ عن سالف جرائم أهل مكة في حق المسلمين(٨٩) .

وخرج الرسول في شوال سنة ٨ هـ/ يناير ٦٣٠ م من مكة لقتال هوازن وثقيف ، وكانت قد أجمعت أمرها على التوجه إلى مكة لمحاربة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد

كان جيش المسلمين يومذاك يضم اثنى عشر ألف مقاتل ، منهم عشرة آلاف من أهل المدينة وألفان من أهل مكة . واشتد القتال ، لكن لم يلبث المسلمون أن انتصروا في نهاية الأمر في وادي حنين ، وهرب المنهزمون وغنم المسلمون وأسروا ، حتى بلغ السبي ٦ آلاف ، وبلغت الغنائم ٢٤ ألف بعير وأكثر من ٤٠ ألف شاة ، فضلا عن ٤ آلاف أوقية من الفضة ، وأجزل الرسول ﷺ العطاء للمؤلفة قلوبهم حين قسم الغنائم . وجاءه وفد من هوازن المهزومين وأسلم وطلب أن يمن عليهم الرسول بسباياهم ، فوافق بعد التشاور مع أصحابه . وحدث أن تكلم الأنصار فيما بينهم في شأن ما أعطاه الرسول من الغنائم للمؤلفة قلوبهم من قريش وغيرها ، فشفى رسول الله ﷺ صدورهم حين قال لهم : « أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله في رحالكم؟ » قالوا : رضينا يا رسول الله بك حظًا وقسمًا .

ثم عاد الرسول ﷺ وصحبه إلى المدينة ، بعد أن أدى العمرة في ذي القعدة من نفس العام[٩٠] .

وممن أسلموا عقب غزوتي حنين والطائف الشاعر كعب بن زهير ، فقد قدم إلى المدينة بعد عودة الرسول ﷺ ودخل عليه المسجد واستأمنه فأمّنه وأسلم ، وقال قصيدته المشهورة من ٥٤ بيتا ومطلعها : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » . وعلى الرغم من موادعة اليهود وتأمينهم على دينهم وأنفسهم وأموالهم في عهد رسول الله ﷺ الذي عقده بالمدينة غداة هجرته إليهم ، فقد توالى نكثهم ، وكشفوا عن عداوتهم وحقدهم ، وتصاعدت خياناتهم عقب انكسار المسلمين في أحد سنة ٣ هـ/ ٦٢٥ م ، وتحالفوا مع قريش وغيرها من المشركين . وهكذا نقضوا العهد وكان لابد من رد كيدهم وحماية دولة الإسلام من غدرهم وعدوانهم .

وكان يهود بني قينقاع أول من أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة في أواخر سنة ٢ هـ/ (منتصف سنة ٦٢٤ م) ، بعد أن أظهروا حقدهم على المسلمين لانتصارهم في بدر – وقد كانوا صاغة ومحاربين أقوياء – فبادروا المسلمين بالإيذاء والعدوان تنفيسا عن حقدهم ، واعتدوا على حرمات النساء وقتلوا مسلمًا ، فحاصرهم رسول الله ﷺ

والمسلمون فتدخل عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي وكان من رءوس المنافقين المعروفين وقد حالفه بنو قينقاع ، وجرى الاتفاق على خروجهم سالمين بما استطاعوا أن يحملوه من ممتلكاتهم فتفرقوا في أذرعات بأطراف الشام ، ومنهم من توجه إلى قريش بعد ذلك الإجلاء .

وكذلك أجلى رسول الله ﷺ عن المدينة بني النضير سنة ٤ هـ (٦٢٥ م) بعد أن حاولوا قتله ، فلحقوا ببني قينقاع .

أما بني قريظة الذين ظاهروا القبائل المهاجمة للمدينة يوم الأحزاب سنة ٥ هـ/ ٦٢٥ م وقد عرف ذلك أيضا بغزوة الخندق ، فقد ارتضت حكم سعد بن معاذ بعد هزيمة المهاجمين وانسحابهم وظهور خيانة بني قريظة في تواطؤهم ، وصدر حكم سعد بقتل رجالهم . وكانوا نحو ستمائة أو سبعمائة إلى جانب سبي النساء والذراري .

ثم فتح رسول الله ﷺ حصون خيبر سنة ٧ هـ/ ٦٢٧ م وغنم ، ثم صالحهم على نصف ثمارها . ولما سمع يهود فدك بأمر خيبر بعثوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يطلبون الصلح على نصف ثمارها فقبل ، فكانت خيبر فيئا للمسلمين وفدك خالصة لرسول الله إذ لم يجلب المسلمون عليها بخيل ولا ركاب[٩١] .

وهكذا سلم المسلمون من مؤامرات قوم شديدي العداء والكيد ، وازدادت سرعة انتشار الإسلام داخل الجزيرة العربية .

في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة (٦٢٩ م) جدد رسول الله ﷺ اهتمامه بالأطراف الشمالية للجزيرة العربية ، فجهز جيشًا كبيرًا سار به إلى منطقة تبوك لملاقاة الروم هناك ولتبليغ دعوة الإسلام لأهل تلك البلاد ، وعرف ذلك الجيش بجيش العسرة ، كما سميت الغزوة بغزوة تبوك . ومكث الرسول ﷺ والمسلمون هناك مدة طويلة و لم يلقوا حربا ، ثم عادوا بعد أن صالحوا صاحب أيلة (على رأس خليج العقبة) ، وأهل جرباء وأذرح ، وبعد أن غزوا دومة الجندل بقيادة خالد بن الوليد الذي قدم بزعيمها أكيدر على رسول الله ﷺ في تبوك ، فحقن دمه وأعطاه الجزية ، فرده إلى قريته .

وفود القبائل العربية إلى رسول الله ﷺ :

أخذ الإسلام ينتشر سريعا في الجزيرة العربية وقد اشتهر العام التاسع من الهجرة / ٦٢٩ م بعام الوفود ، لكثرة من وفد على رسول الله ﷺ من القبائل العربية للدخول في الإسلام[٩٢] . إلّا أن قدوم الوفود على الرسول لم يكن مقصورا على ذلك العام ، وإنما بدأ قبله وتواصل حتى وفاة الرسول ﷺ في العام الحادي عشر من الهجرة ، غير أن العام التاسع من الهجرة كان أكثر الأعوام وفودا ، فقد أصبح الناس يدخلون « في دين الله أفواجا » .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يجازي هذه الوفود - أي يقدّم لها جوائز وهدايا - تأليفا على الإسلام . واتخذت بعض دور الصحابة بالمدينة أماكن لضيافة هذه الوفود خلال إقامتها بالمدينة ، حتى ترجع إلى مواطنها . وممن كانوا يتولون إنزال الوفود في بيت الضيافة وتقديم الطعام والجوائز لهم بأمر رسول الله ﷺ بلال ومعاوية بن أبي سفيان وثوبان مولى الرسول . وقد كان لأي صحابي أن يستضيف من شاء من الوفود ، وكان الرسول ﷺ يرسل لهؤلاء ما يعينهم على الضيافة مثل أحمال التمر[٩٣] . وإن كان غالب الوفود التي وفدت إلى رسول الله ﷺ قد جاءت تعلن دخولها في الإسلام ، فإن منها ما كان قد أسلم من قبل وإنما جاء لرؤية الرسول عليه الصلاة والسلام وزيادة المعرفة بتعاليم الإسلام .

وتعتبر تلك الوفود المتعاقبة ، من أكبر الشواهد التاريخية على الإقبال على الإسلام طواعية واختيارا . وإنما نسوق هنا بعض أمثلة لتلك الوفود لاستجلاء امتداد الإسلام إلى مختلف أنحاء شبه الجزيرة وسكانها . ومن الوفود التي قدمت وأسلمت ، وفد مزينة في رجب من السنة الخامسة للهجرة (ديسمبر سنة ٦٢٦ م) - وكان أول وفد - ويتكون من نحو ٤٠٠ رجل . واشترك هذا الوفد في فتح مكة ، وكان لواء مزينة مع خزاعة ، ويقود ألف رجل . ومن الوفود التي جاءت فأسلمت أيضا في نفس الشهر ، وفد بني سعد بن بكر ويمثله ضمام بن ثعلبة ، وقد أسلم وعاد إلى قومه ، فما أمسى في ذلك اليوم في حاضره - الحاضر هو الحي - رجل ولا امرأة إلا مسلما ، وبنوا المساجد وأذنوا

بالصلوات . وفي نفس العام ، قدم وفد أشجع في نحو ٧٠٠ رجل وأسلموا .

ومن وفود العام السابع من الهجرة (٦٢٧ – ٦٢٨ م) وفد خُشَين ، فقد أسلم أبو ثعلبة الخشني واشترك في غزوة خيبر ، وعلى يدي أبي ثعلبة أسلم سبعة نفر من خشين ، ووفد الأشعريين من خمسين رجلا وفيهم أبو موسى الأشعري . ووفد حضرموت وفيهم وائل بن حجر الحضرمي .

ومن وفود العام الثامن من الهجرة (٦٢٨ – ٦٢٩ م) وفد ثعلبة ، وقد أسلموا وأمر لهم الرسول ﷺ بضيافة وأجازهم ، ووفد عبد القيس من أربعة نفر أسلموا وأقاموا بدار رملة بنت الحارث ، وقد جازى أولئك الرسول عند عودتهم إلى بلادهم . ثم وفد صداء من ١٥ رجلا ، أسلموا وبايعوا على من وراءهم من قومهم .

ومن وفود العام التاسع من الهجرة (٦٢٩ – ٦٣٠ م) ، وفد فزارة الذي قدم بعد عودة الرسول ﷺ من غزوة تبوك ، وكانوا بضعة عشر رجلا أسلموا ، وطلبوا أن يدعو لهم الرسول بالسقيا لجدب بلادهم ، فدعا لهم الرسول عليه الصلاة والسلام فسقاهم الله ، ووفد بني البكاء في ثلاثة نفر ، ووفد عذرة من اثني عشر رجلا ، ثم وفد الداريين من عشرة نفر .

ومن وفود العام العاشر من الهجرة (٦٣٠ – ٦٣١ م) ، وفد محارب من عشرة نفر أسلموا وبايعوا على من وراءهم ، ووفد سلامان ، ووفد بجيلة من مائة وخمسين رجلا ، ووفد غسان من ثلاثة نفر عادوا إلى قومهم ودعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم فكتموا إسلامهم .

ومن الوفود المسلمة التي قدمت إلى المدينة لرؤية الرسول ﷺ أو التفقّه في الإسلام ، وفد خولان في عشرة نفر سنة ١٠ هـ ، ووفد بني الحارث بن كعب من نجران سنة ١٠ هـ(٩٤) .

ويمكن القول ، أنه في حياة رسول الله ﷺ وحتى وفاته عام ١١ هـ/٦٣٢ م ، كان الإسلام قد عم الجزيرة العربية كلها باستثناء بعض أجزاء يسيرة في أطرافها الشرقية والجنوبية حيث ظهر بعض المتنبئين في أواخر العهد النبوي . وكان الرسول عليه الصلاة

والسلام قد بعث إلى مختلف أنحاء الجزيرة الولاة وعمال الصدقة في « كل ما وطأ الإسلام من البلدان » وذلك على حد تعبير ابن هشام صاحب السيرة[٩٥] .

الإسلام في شبه الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول ﷺ

يمكن إجمال عناصر هذا الموضوع في ما كان من مقاومة الردة ، وجمع القرآن ، ومواصلة نشر الإسلام في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية ، ثم ما كان من أثر للإسلام على العرب .

مقاومة الردّة :

كان أبو بكر الصديق أول خلفاء رسول الله ﷺ فى قيادة الدولة الإسلامية[٩٦] . وقد واجه عهده موجة ارتداد عن الإسلام شملت أنحاء متعددة من الجزيرة ، حيث منع بعض الخارجين على الإسلام ودولته الزكاة ، إذ كانت في نظرهم أتاوة وجزية ورمزا للخضوع ، وفي نظر البعض الآخر أنها لا تدفع إلا للرسول ﷺ . بينما خشى فريق من العرب من استبداد قريش بعد تولية أبي بكر وحقدوا عليها استئثارها بالأمر ، وهكذا لم يرتض هؤلاء بما تم في السقيفة ، وارتأى آخرون أن يبقوا على اعتناق الإسلام لكنهم لا يخضعون لدولته وخليفته . وتنتهى هذه النزعات كلها إلى أن يعود العرب إلى النظام القبلي وأن يلغى الكيان السياسي للإسلام والدولة التي أقامها في شبه الجزيرة .

وفي وسط هذا الجو ، ظهر بعض المتنبئين الذين استغلوا الجو السائد عند كثير من القبائل العربية وادعوا النبوة ، ومنهم من كان قد ظهر في أواخر العهد النبوي ، مثل الأسود العنسي الذى خرج بصنعاء باليمن على عامل النبي ﷺ الذى بعثه إلى اليمن ، وهو المهاجر بن أمية بن المغيرة . واستهل إدعاء الأسود العنسي النبوة ، موجة الردة المشار إليها . وقد قضى على الأسود العنسي ، وقتل صبيحة وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعد أن امتد نفوذه ما بين مفاوز حضرموت والطائف والبحرين والأحساء[٩٧] .

كما ادعى النبوة أيضا مسيلمة الكذاب في بني حنيفة ، وقد أراد أن يشارك النبي ﷺ في نبوته ولقّبه الرسول بالكذاب . وكان مسيلمة الكذاب أشد المتنبئين وأخطرهم ، ولا سيما بعد انضمام الرّجّال بن عنفوة إليه ، وهو من بني حنيفة[٩٨] . كذلك كان من

المتنبئين ، طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد وطيىء ، ومالك بن نويرة في بني عامر ، وكان الأخير قد عينه رسول الله ﷺ من قبل على صدقات قومه فمنع الزكاة وأعلن الخروج .

وارتدت أسد وغطفان ، وقال قائلهم : نبي من الحليفين - أى أسد وغطفان - أحب إلينا من بني معد من قريش[٩٩] . وكان من المرتدين أيضا ، عمرو بن معد يكرب في بني زبيد . وقامت ردة في أهل البحرين وأهل عمان ومهرة وحضرموت ، وكان يقود المرتدين هناك الأشعث بن قيس الكندي . وجاءت رسل عمال المسلمين في أرجاء الجزيرة بأخبار هذه الموجة من حركات الخروج على دين الإسلام ودولته .

وأثبت أبو بكر الصديق ، الخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، ما كان يتمتع به حقا من مقومات القيادة ، من الإيمان والقوة والحزم ، حتى كان له أثره البارز وفضله الباهر في تاريخ الإسلام . يقول عبد الله بن مسعود : « لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاما كدنا نهلك فيه ، لولا أن من الله علينا بأبي بكر »[١٠٠] . وأصر أبو بكر على الحفاظ على الكيان الذي تركه النبي ﷺ والنظام الذي أقامه ، وأن يبقي الإسلام ودولته في منعة من كيد ، ومعنى ذلك ، أن يعبيء القوى لمواجهة الارتداد .

ووجه أبو بكر الجيوش تترا لمحاربة المتنبئين والمرتدين وما نعي الزكاة في مواطنهم بأرجاء الجزيرة . وبعث إلى كل بكتاب يدعوهم فيه للدعوة إلى الإسلام ، مؤكدا أن وفاة رسول الله ﷺ لا يمكن أن تكون حجة لترك دين الله ، إذ أن رسول الله إنما هو بشريموت كما يموت كل انسان . وجاء في هذا الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على إسلامه أورجع عنه ، سلام على من اتبع الهدى و لم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى . وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام ، وإني بعثت إليكم (فلانا) في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف ، قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى ، أمرت أن يقاتله على ذلك »[١٠١] .

وبرز اسم خالد بن الوليد في حروب الردة ، وان كان هناك قادة آخرون برزوا أيضا بجهادهم في تلك الحروب ، منهم ضرار بن الأزور وغيره .

ولنتتبع أهم معالم حركة مقاومة الارتداد التي أعلنها أبو بكر ، واضطلعت بأعبائها جيوش الإسلام التي تصدت لأعداء دولته ، وعملت على تعزيز كيانها وتثبيت قواعدها ودفع الرياح الهوج عنها .

وقد ظل طليحة بن خويلد الأسدي متخوفا يترقب ، طوال حياة رسول الله ﷺ ، فلما كانت وفاته وخلافة أبي بكر ظهرت الفرصة السانحة للخروج ، خاصة بعد أن كثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء ، وكان يعفيهم من السجود في الصلاة ويقول : إن الله لا يصنع بتعفّر وجوهكم وتقبّح أدباركم شيئا ، اذكروا الله أعفة قياما .

وأرسل أتباعه إلى أبي بكر يستعفون من أداء الزكاة ويطلبون تغيير صورة الصلاة . فقال أبو بكر قولته المدوية : « لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه » .

ووجه أبو بكر جيشا بقيادة خالد بن الوليد انتصر على طليحة وقبض عليه ، وقد عاد طليحة إلى الإسلام ورجع عن تنبئه وشارك في الفتوح الإسلامية في العراق . كذلك هزم بنو عامر ، وعادوا إلى الإسلام ، وقالوا : ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ، وبايعوا خالد بن الوليد . كما أصابت الهزيمة مالك بن نويرة في بني تميم ، الذي كان قد ولاه الرسول ﷺ بعد إسلامه صدقات قومه ، ثم أعلن الخروج .

وحدث خطأ غير مقصود ، حين أمر خالد بتدفئة الأسرى ، والتدفئة عند بني تميم معناها القتل ، فقتل الأسرى وبينهم مالك بن نويرة ، وتزوج خالد من زوجة مالك واعتذر عما حدث .

ولم يتوان أبو بكر في مواجهة مانعي الزكاة وجاهد به المتنبئين والمرتدين . وحين أرسل أبو بكر عمرو بن العاص في جيش إلى قرة بن هبيرة من بني عامر ، وكانوا قد منعوا الزكاة ، فأكرمه قرة وحاول أن يبرر منعه الزكاة بقوله : « يا هذا ، إن العرب لا تطيب لهم نفسا بالإتاوة ، فإن أعفيتموها فتسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم » فأجابه عمرو في عزم وقوة : تخوفنا بردة العرب ، فوالله لأوطئن عليك بالخيل في حِفْش أُمّك[١٠٢].

وقد كان مسيلمة في بني حنيفة قويا بأتباعه ، وكان على مقدمته الرّجّال بن عنفوة ، وكان قتال المسلمين له بقيادة خالد بن الوليد شديدًا ، وأحرز خالد انتصاره عليه في وقعة حديقة الموت ، وقتل مسيلمة وكثير من أتباعه ، وهدأ قلب الجزيرة العربية .

وفى وقعة حديقة الموت أو وقعة اليمامة كما كانت تسمى كذلك قتل عدد كبير من حفاظ القرآن ، مما عمل على توجه أبي بكر لجمع القرآن .

ومضت جيوش المسلمين تقاتل في نفس الوقت بقيادة العلاء بن الحضرمى في البحرين ، وفي جنوب الجزيرة في عمان ومهرة وحضرموت ، حيث خرج الأشعث بن قيس الكندي ، وما لبث هذا أن استسلم وعاد إلى الإسلام ، واعتذر إلى أبي بكر ، وتزوج من أخته فروة بنت أبي قحافة(١٠٣) .

وهكذا لم تمض سنة واحدة من خلافة أبي بكر ، حتى عادت الجزيرة العربية إلى الإسلام ودفع الزكاة ، أى لم يكد يأتي عام ١٢ هـ (٦٣٣ م) حتى كانت الجزيرة العربية كلها من أقصاها إلى أقصاها قد انضوت تحت لواء الإسلام ودولته ، يؤدى سكانها فرائضهم صحيحة دون تشويه .

وتعد حركة الردة هذه أخطر حركة واجهت الإسلام ودولته في فجر ظهورها ، كما يعد نجاح أبي بكر وصحبه في مقاومتها صفحة رائعة مجيدة في تاريخ الإسلام .

جمع القرآن : كان من بين نتائج يوم اليمامة ، اتجاه أبي بكر الصديق لجمع القرآن بمشورة عمر بن الخطاب ، إذ قتل عدد كبير من الحفاظ في حرب مسيلمة ، قيل نحو سبعين ،ورأى عمر أن يجمع القرآن خوفا من أى ضياع . وسرعان ما استجاب أبو بكر ، فكلف العالم الثبت زيد بن ثابت الأنصارى (ت ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م) بجمع القرآن .

والقرآن يومئذ مسجل على قطع من الأديم – وهو الجلد المدبوغ – وسعف النخيل وعظام ألواح الإبل ، وفي صدور الحفاظ .

وقد نهض زيد بن ثابت بهذا العمل ، وجمع القرآن من جميع المظان التي يوجد بها من صدور الرجال ومن الرقاع والعظام ونسخه جميعه فى قطع من الأديم وقد حفظت هذه الصحف عند الخليفة أبي بكر وانتقلت بعد ذلك إلى عمر بن الخطاب . وبعد وفاته

حفظت في بيت ابنته حفصة أم المؤمنين وظلت كذلك حتى عهد الخليفة عثمان(١٠٤) . وجاء ذلك العمل الذي وفق الله أبا بكر إليه تحقيقًا لوعد الله بحفظ كتابه ووقى المسلمين غائلة أي اختلاف في كتابهم المنزل ودستور دينهم ودنياهم .

انتشار الإسلام في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية
(العراق والشام)

لما توفى الرسول ﷺ استمر الاهتمام بالأطراف الشمالية للجزيرة العربية بل زاد . فتبين ذلك من خلال معرفة أول عمل قام به أبو بكر الصديق – خليفة رسول الله ﷺ – رضى الله عنه ، وهو إنفاذ جيش أسامة بن زيد ، الذي عقد رايته رسول الله ﷺ في أواخر أيام حياته ، وقال في مرضه الذي توفي فيه : « أنفذوا جيش أسامة » ، وكانت وجهته بلاد الشام ، وبالتحديد البلقاء في جنوبي الأردن ، والداروم في جنوبي فلسطين بالقرب من غزة . فسار أسامة في آخر شهر ربيع الأول حتى بلغ أرض الشام ثم انصرف ، فكانت غيبته أربعين يوما . وكان إنفاذ جيش أسامة في تلك الفترة ، وفي ظل الأوضاع التي كانت سائدة فيه أعظم الأمور نفعا للمسلمين ، حيث كان فيه ارتفاعا لمعنوياتهم ، وإضعافا لمعنويات المنافقين والمرتدين الذين شعروا أن لدى المسلمين قوة كبيرة ، حتى قال قائلهم : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون فعله(١٠٥) . .

وفي العام الثاني عشر الهجري ، بعث أبو بكر الصديق خالد بن الوليد إلى أرض البصرة (جنوب العراق) وكانت تسمى أرض الهند ، ليدعم المثنى بن حارثة الشيباني الذي سبقه إليها لما انتهى من حروب المرتدين في البحرين ، فسار خالد إليها فنزل الأبلة والتقى فيها بالمثني بن حارثة وجنده ، ثم فرق جنده ثلاث فرق ، على مقدمته المثنى ، وبعده عدي بن حاتم ، وجاء خالد بعدهما بيومين وواعدهما الحفير ليصادفوا عدوهم ، فلما سمع بهم هرمز سبقهم إليها ونزل بها ، فسمع به خالد فمال بالناس إلى كاظمة (شمال الكويت) فسبقه هرمز إليها ، فالتقى الفريقان بها ، ودارت بينهما موقعة عرفت بذات السلاسل ، انتصر فيها المسلمون وقتل هرمز ، فبعث خالد بالفتح وبالأخماس إلى أبي

بكر ، وسار حتى نزل بموضع الجسر الأعظم بالبصرة ، ثم سار خالد بالمسلمين لمطاردة فلول الفرس المنهزمين الذين تجمعوا بالثني وهو النهر ، فلقيهم واقتتلوا مقتلة عظيمة ، قتل فيها من الفرس نحو ثلاثين ألفا سوى من غرق . ثم جاءت الإمدادات إلى الفرس بقيادة الأندر زغر وعسكروا بالولجة ، وسمع بهم خالد فسار إليهم من الثني ، فلقيهم فقاتلهم قتالا شديدا حتى انتصر عليهم ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، ومضى الأندر زغر منهزما فمات عطشا . ثم سار خالد نحو السواد وهزم جموع نصارى العرب ومن معهم من الفرس في أليس . ثم سار منها إلى الحيرة (عاصمة دولة المناذرة العرب) فحاصرها حتى صالح أهلها وأخذ الجزية منهم ، فكانت أول جزية أخذت من الفرس في الإسلام . وكان فتحها في شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ[١٠٦] .

ثم سار خالد إلى الأنبار فصالحه أهلها ، ثم سار إلى عين التمر لملاقاة جموع العجم وجمع عظيم من العرب ، فالتقى بهم وأسر زعيم العرب فانهزم عسكره من غير قتال فأسر أكثرهم ، وهربت جموع العجم فتحصنوا ، فنازلهم خالد فطلبوا منه الأمان فأبى ، فنزلوا على حكمه فأخذهم أسرى ثم قتلهم وسبى كل من في الحصن وغنم ما فيه . ولما فرغ خالد من عين التمر توجه لنصرة عياض بن غنم بدومة الجندل ثم عاد إلى الحيرة[١٠٧] .

وواصل خالد الفتح حتى بلغ الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة ، فالتقى بجموع الروم والفرس ومن ناصرهم من العرب على الفرات ، فاقتتلوا قتالا عظيما وانهزمت الروم ومن معهم ، وأوقع فيهم خالد السيف فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكان ذلك للنصف من ذي القعدة سنة ١٢ هـ . ثم آذن بالرجوع إلى الحيرة وأمر على الجيش عاصم بن عمرو ، بينما توجه هو إلى الحج . ثم عاد والتحق بجنوده وأغار على سوق بغداد[١٠٨] .

وفى مطلع العام الثالث عشر الهجري بعث أبو بكر الصديق كلا من عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة إلى بلاد الشام ، وأمرهم أن يسلكوا على البلقاء فنزل عمرو العربة ، ونزل يزيد البلقاء ، ونزل أبو عبيدة الجابية ، ونزل شرحبيل الأردن . وكتب إلى خالد بن الوليد فسار إلى الشام ، فأغار على غسان

بمرج راهط ، ثم سار فنزل على قناة بصرى فصالحت بصرى فكانت أول مدائن الشام فتحًا ، وصالح خالد في وجهه ذلك أهل تدمر ، ومر على حوران فقتل وسبى ، ثم التقى بجموع المسلمين في اليرموك ، فلما تكامل جمعهم عينوا خالدا عليهم ، والتقوا بالروم ونشب القتال والتحم الناس وتقاتلوا ، فانهزمت الروم وانتصر المسلمون وكانت فتحا عظيما . ثم ساروا جميعا إلى فلسطين مددا لعمرو بن العاص ، واجتمعت الروم بأجنادين (غرب الخليل) ، وسار عمرو حين سمع بالمسلمين فلقيهم ونزلوا بأجنادين وعسكروا عليها ، والتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ١٣ هـ ، فظهر المسلمون وهزم المشركون وقتل زعيمهم القبقلار[١٠٩] .

وفي العام الثالث عشر الهجري أيضا بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبا عبيد الثقفي إلى العراق مددا للمثنى بن حارثة ، فسار إليها وخاض بها معارك عدة وفتح أجزاء منها حتى وقعت معركة الجسر أواخر شهر رمضان فاستشهد فيها . وتولى الأمر بعده المثنى بن حارثة فانحاز بالمسلمين . وفي مطلع العام الهجري الرابع عشر ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الجيوش من المدينة ، فنزل ماء يقال له صرار فعسكر به عازما على غزو العراق بنفسه ، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب ، ثم عقد مجلسا لاستشارة الصحابة فيما عزم عليه ، فأشار عليه عبد الرحمن بن عوف أن يبقى ويبعث سعد بن أبي وقاص مكانه ، فوافقه وعقد لسعد إمارة العراق . فسار سعد إليها ، ورجع عمر بمن معه من المسلمين إلى المدينة . ولما وصل سعد إلى العراق وجد المثنى بن حارثة قد مات متأثرا بجراحه[١١٠] . وأما الشام فلما هزم الله أهل اليرموك سار أبو عبيدة بالمسلمين صوب دمشق ، فحاصرها هو وخالد كل منهما من جهة حتى استسلمت ، فدخلها أبو عبيدة صلحا وخالد فتحا ، وذلك في رجب سنة ١٤ هـ . ثم فتحت حمص وبعلبك وبلاد الساحل (صيدا وبيروت وما جاورها) في ذي القعدة منها . وفي سنة ١٥ هـ افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن كلها عنوة ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه وذلك بأمر أبي عبيدة . كما بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد فغلب على أرض البقاع . وفي السنة الخامسة عشر للهجرة وقعت معركة القادسية بالعراق،وعلى المسلمين سعد بن أبي

وقاص وعلى الفرس رستم ، فهزم الله المشركين وقتل رستم . فالتجأ الفارون منهم إلى المدائن ، فلحقهم سعد والمسلمون حتى نزلوا المدائن (عاصمة آل ساسان) ، فحاصروها بعد أن خاض إليها المسلمون النهر ، فخرج المحاصرون على حامية معهم العيال والأثقال فساروا حتى نزلوا جلولاء (على حدود العراق الحالية مع فارس)[١١١] .

وفي العام الثاني ١٦ هـ بعث أبو عبيدة عمرو بن العاص بعد فراغه من اليرموك إلى قنسرين ، فصالح أهل حلب ومنبج وإنطاكية ، وافتتح سائر أرض قنسرين عنوة . ثم شخص أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد بن الوليد فحاصر أهل إيليا (بيت المقدس) ، فسألوه الصلح على أن يكون عمر بن الخطاب هو الذي يعطيهم ذلك ويكتب لهم أمانا ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر ، فقدم عمر فصالحهم ، فأقام أياما ثم شخص إلى المدينة . وفي سنة ١٧ هـ حصلت وقعة جلولاء بعد أن هرب يزدجرد بن كسرى إليها بعد وقعة المدائن ، وأقام سعد بالمدائن ، فكتب يزدجرد إلى الجبال فجمع المقاتلة فوجههم إلى جلولاء ، فاجتمع بها جمع كثير ، فكتب سعد إلى عمر يخبره ، فكتب عمر : أقم بمكانك ووجّه إليهم جيشا فإن الله ناصرك ومتم وعده . فعقد سعد لهاشم بن عتبة بن أبي وقاص فالتقوا ، فجال المسلمون جولة ثم هزم الله المشركين وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وحوى المسلمون عسكرهم وأصابوا أموالا عظيمة وسلاحا ودوابا وسبايا ، وسميت جلولاء فتح الفتوح ، وبها تم فتح العراق . وفي سنة ١٨ هـ استكمل فتح الشام حيث افتتح أبو موسى الأشعرى الرها وسميساط صلحا وما والاها عنوة . كما أن أبا عبيدة بن الجراح وجه عياض ابن غنم إلى الجزيرة ، فرافق أبا موسى بعد فتح هذه المدائن ، فمضيا جميعا فافتتحا حران ونصيبين وطوائف الجزيرة عنوة . كما افتتح الموصل في العراق[١١٢] .

أثر الإسلام في حياة العرب :

كان للإسلام أثره الخطير في حياة العرب وتاريخهم ، حتى ارتبطوا به وارتبط بهم في فجر ذلك التاريخ ، في وحدة عضوية تتوافر لها مختلف عناصر القوة ، مادية وبشرية ومعنوية .

فقد اجتمع العرب في الجزيرة على عقيدة الإسلام وشريعته ، وقضى تماما على الوثنية

والشرك . وقامت في التاريخ أول دولة عربية موحدة بالإسلام ، وأيضا أول دولة إسلامية هي عربية الموطن واللسان في الوقت نفسه . واستقرت في العرب مثل الإسلام العليا التي قد تخالف وتحاول أن تقتلع ما كان عليه العرب في جاهليتهم ، ومن ذلك مقاومة العصبية القبلية والعرقية وتحقيق المساواة بين جميع المسلمين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقد نظم الإسلام بأحكام شريعته المعاملات والعلاقات الاجتماعية بين المسلمين وبين غيرهم ، وحفظ الأسرة والمجتمع ، وكفل الأمن والعدل ، وحارب الجريمة والظلم ، وكان عدله شاملا إزاء كل سلطة ونفوذ ، في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وأشاعت الأمانة والصدق والوفاء والإنصاف ، فمنعت شريعته من أكل أموال الناس بالباطل والربا والاحتكار والغصب والفساد في الأرض ، ودعت تعاليمه الأخلاقية إلى العدل ودفع السيئة بالحسنة وتربية النفوس على العفو والسماحة والمبادرة إلى الخير والمعروف والبر والإيثار .

وقد رفع الإسلام من قدر المرأة وكفل لها حقوقها بنتا وأختا وزوجا وأما ، كما كفل لها حقوقها مطلقة وأرملة ، هذا إلى ضمان كرامتها الإنسانية وحقوقها الاجتماعية والاقتصادية ، وفي مقدمتها حقوقها في التربية والتعليم والعمل الملائم والتملك والنشاط الاقتصادي . وقد حفظ الإسلام للمرأة شخصيتها القانونية وذمتها المالية مستقلة ، كما ألزمها واجباتها الفردية والأسرية والعامة ليكون لها دورها الإيجابي في المجتمع الإسلامي .

وقد كانت أمهات المؤمنين المثل الأعلى والقدوة الصالحة لجميع المسلمين والمسلمات .

وعمل الإسلام على إتمام مكارم الأخلاق وصيانة الآداب العامة وتربية الذوق، والإحساس بالجمال ، وقد حث على المبادرة بالتحية وردها ، ودعا إلى أخذ التربية المشروعةوغض الطرف والتجاوز عن اللغو والحرص على الحياء . كما عنى الإسلام بالرقيق فضيّق مصادره ووسّع منافذه ، وأوجب تحرير الرقيق في حالات معينة ، ورغّب فيه في

كل حين ، وألزم المسلمين ودولتهم بالإنفاق على عتق الرقاب من مصارف الزكاة ، وأمر بإحسان معاملة الرقيق باعتبارهم « إخوانا » لمن هم تحت أيديهم – كما جاء في حديث رسول الله ﷺ . وكان الرق ظاهرة عالمية وقت ظهور الإسلام ، يوقع على كل محارب مهزوم ، ويجيز الإفادة منه لصالح المنتصر بكل سبيل ممكنة ، ولو أهدرت آدميتهم . فجاء الإسلام ليحفظ كرامة الإنسان أيًا كان ، ويرفع معاملة الرقيق إلى المستوى الإنساني الكريم ، ويؤكد المساواة في الإنسانية بين جميع البشر ، وقد وصل بعض من كانوا في الأصل رقيقا إلى أعلى المناصب ومنهم من كان من أئمة العلم .

وأقام الإسلام دولته في المدينة التي اتسعت من بعد لتشمل الجزيرة ، ثم تجاوزت الحدود لتغدو دولة عالمية بحق ، تفتح صدرها لمختلف الأعراق والثقافات والطبقات وحتى الديانات ، التي شملها جميعا عدالة دولة الإسلام وشريعته ، كما وسعتها سماحة صدور المؤمنين وأخلاقهم . وكانت الحكومة النبوية أول تطبيق عملي وأصل أصيل من أصول الإسلام وهو أنه دين ودولة .

وبالإسلام ، انتقلت الجزيرة العربية من التمزق السياسي الذي صحب النظام القبلي وما حفل به من صراع وطغيان وعصبية ، ومن التفرق الديني وضيق الأفق مما نجم عن الشرك إلى رحاب التوحيد والإيمان الصحيح والعلم والفضيلة والمثل الرفيعة التي تتضمنها تعاليم الإسلام في الفكر والسلوك .

الهوامـــــش

* الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، دار اليمامة ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ص ٥٧ – ٥٨ .

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٧٨ م ، ص ١ – ٤ .

(٢) نزح الأوس والخزرج إلى يثرب حوالي عام ٣٠٠ م بعد أن سبقهم اليهود إلى استعمارها . (أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ٢٤) .

(٣) المرباع هو ربع الغنيمة ، الصفي : ما يصطفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة . النشيطة : هى ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى القوم الدين يحاربونهم . الفضول : هو ما فضل من العنيمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما .

(٤) راجع ابن الكلبي : الأصنام ، جـ ١ ص ٦ ، وما يليها .
ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٧٨ وما بعدها .
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ ١ ص ٢٥٤ – ٢٥٧ .

(٥) الملكانية نسبة إلى كلمة « ملك » وهى المذهب الرسمي للدولة البيزنطية ، والنسطورية نسبة إلى الراهب نسطور (ت ٤٥٠ م) الذي أكد الصفة البشرية للمسيح عليه السلام ، واليعقوبية : نسبة إلى الواهب يعقوب براديوس (القرن ٦ م) ويقول بأن الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية اندمجتا في طبيعة واحدة عند المسيح عليه السلام .

(٦) انظر : أحمد أمين ، مرجع سابق ص ٩٨ وما بعدها .
ابن هشام : مصدر سابق ص ٣٢ وما بعدها .
اليعقوبي : مصدر سابق ، حـ ١ ص ٢٥٤ – ٢٥٧ .

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٠٠ ، ١١٧ – ١٢٩ .
وابن هشام : مصدر سابق ، جـ ١ ص ١ وما بعدها . ص ١٦٧ – ١٩٤ ، وص ٢٤٨ .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١ ص ٤٥٨ .
الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٩٤ وما بعدها .
حسن إبراهيم حسن : الإسلام السياسي جـ ١ ص ٧٥ وما بعدها .
اليعقوبي : مصدر سابق ، جـ ٢ ص ٧ .

(٨) ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ١٣١ وما بعدها .

(٩) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ١٩٨ وما نعدها .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٩٧ .
حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق جـ ١ ص ٧٦ .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ١٣١ .
أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي جـ ١ ص ١٨٥ – ١٨٦ .

(١٠) كان إبراهيم من مارية القبطية ، وأما بقية أبناء الرسول ﷺ فهم من زوجته خديجة رضي الله عنها ، وهم : القاسم وبه كان يكنى – الطاهر – الطيب – زينب – رقية – أم كلثوم – فاطمة .

(١١) ابن سعد : مصدر سابق حـ ١ ص ١٤٥ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٠٥ – ٢١٠ .
اليعقوبي : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٩ .

(١٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية بمناسبة ابتداء نزول القرآن في رمضان : أن صحف إبراهيم عليه السلام أنزلت في يوم من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة حلت من رمصان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان . ولهذا ذهب بعض الصحابة والتابعين أن ليلة القدر هي ليلة أربع وعشرين من رمضان . (ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ٣ ص ٤٦) .

(١٣) الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ١٩٥ .

ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٥٤ .

(١٤) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٤٩ – ٢٥٦ .

ابن سعد : مصدر سابق : حـ ١ ص ١٩٤ – ١٩٦ .

ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ٤٨ .

المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٥ – ٢٧٨ .

(١٥) راجع قصة اختيار زيد الإقامة مع الرسول ﷺ ورفض دعوة أبيه وعمه العودة معهما .

الطبري : مصدر سابق حـ ٢ ص ٢١٣ – ٢١٤ .

ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

(١٦) الطبري : مصدر سابق حـ ٢ ص ٢١٢ – ٢١٥ .

ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٦٩ .

(١٧) أورد ابن هشام في السيرة نحو ٤٦ صحابيا أسلموا في هذه الفترة سرا .

ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٦٧ – ٢٨٠ .

الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢١٣ – ٢١٦ .

ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٢٩ – ٣٠ .

(١٨) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

(١٩) ابن الأثير : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٠٠ .

(٢٠) ابن هشام : مصدر سابق حـ ١ ص ٢٨١ – ٢٨٢ .

الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢١٦ .

(٢١) ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٨ وما بعدها .

الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢١٦ – ٢١٨ .

ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٨٠ – ٢٨١ .

(٢٢) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٣٦ .

الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

(٢٣) ابن سعد : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، ابن الأثير : مصدر سابق جـ ١ ص ١٩٩ .

(٢٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٩٩ .

(٢٥) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٠٩ – ٣١٠ .

(٢٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٢٧) الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٢ .

ابن كثير : مصدر سابق حـ ٣ ص ٤٢ – ٦٠ و ١٣٨ وما بعدها .

(٢٨) الطبري : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٦ – ٢١٧ ، و ٢٣٢ .
ابن هشام : مصدر سابق حـ ١ ص ٢٨٠ – ٢٨٢ ، جـ ٢ ص ٦٣ – ٦٩ ، ابن سعد : مصدر سابق حـ ١ ص ١٩٩ – ٢٠٠ و ٢١٦ .
ابن كثير : مصدر سابق حـ ٣ ص ٣٨ – ٣٩ .
ابن الأثير : مصدر سابق جـ ١ ص ٢١٦ – ٢١٧ .
(٢٩) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٤٢ .
(٣٠) ابن هشام : المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٣٩ – ٣٤٠ .
(٣١) ابن هشام : المصدر نفسه حـ ١ ص ٢٠١ – ٢٠٢ ، و ٢٨٥ – ٢٨٦ .
(٣٢) ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٠١ – ٢٠٣ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٨٥ – ٢٨٨ .
(٣٣) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣١١ – ٣١٢ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٢٤ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٣ .
(٣٤) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٤٤ .
ابن سعد : مصدر سابق حـ ١ ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٦٦
إبراهيم علي طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ م ، ص ٢١ .
(٣٥) ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٠٤ – ٢٠٧ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٢١ – ٢٢٣ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٤٤ وما بعدها .
ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٧١٩ .
(٣٦) ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٨ – ٢٩ .
إبراهيم علي طرخان : مرجع سابق ص ٢٢ .
(٣٧) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٥٧ وما بعدها .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٧٤ – ٧٧ .
إبراهيم علي طرخان : مرجع سابق ص ٢٢ وما بعدها .
(٣٨) لما سمع المهاجرون بالحبشة بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة عاد ثلاثة وثلاثون رجلا وثماني نساء ، مات منهم رجلان بمكة وحبس سبعة رجال ، وشهد أربعة وعشرون منهم بدرا في السنة الثانية للهجرة . ولما استقر المقام بالرسول ﷺ في المدينة وظهرت قوة الإسلام بعث إلى النجاشي ليعيد من بقى عنده من المهاجرين ، وكان ذلك بعد الحديبية . وحين كان الرسول ﷺ في خيبر في السنة السابعة للهجرة واستشار أصحابه بعد فتحها في إدخال من وصل من المهاجرين في سهامهم وافقوا .
انظر ابن سعد : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٢٩ .
إبراهيم طرخان : مرجع سابق ص ٢٦ .

(٣٩) ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٨٢ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ٣٢ – ٣٣ .
اليعقوبي : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٩ .
(٤٠) ابن كثير : المصدر نفسه جـ ٣ ص ٧٩ .
(٤١) في بعض الروايات أن عمر حين قرأ الصحيفة انتهى إلى قوله تعالى ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] ، وقال : ما أطيب هذا الكلام وأحسنه . وقيل إن الصحيفة كان فيها مع سورة طه ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، وأن عمر انتهى في قراءتها إلى قوله تعالى ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : ١٤] .
انظر : ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٧٠ .
(٤٢) ابن هشام : المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٦٦ – ٣٧١ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٧٩ – ٨٢ .
ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ٨٤ .
وهناك رواية أخرى عن إسلام عمر ، أوردها ابن هشام في السيرة جـ ١ ص ٣٧١ – ٣٧٥ .
وكذلك أوردها ابن كثير جـ ٣ ص ٨١ .
(٤٣) ابن هشام : المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٦٦ – ٣٦٧ .
ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ٨٤ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٧٩ .
(٤٤) ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٠٩ .
اليعقوبي : مصدر سابق جـ ٣ ص ٣١ .
(٤٥) ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٨٤ .
(٤٦) ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٠٩ – ٢١٠ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٥٤ – ٨٥ .
(٤٧) الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٢٨ .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢١٠ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٨٤ – ٨٥ ، ٩٥ – ٩٧ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٤ وما يليها .
ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ٨٧ .
(٤٨) ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٨٠ .
(٤٩) ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ٩٠ .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢١١ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ٥٧ – ٦٠ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٢٩ .
(٥٠) ذكر ابن كثير أن أهل الطائف قعدوا صفين على طريق الرسول ﷺ ، فلمّا مرّ جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رموهما بالحجارة حتى أدموه ، فخلص منهم وهما تسيلان بالدماء .
انظر ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٣٦ .
(٥١) ابن كثير : المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٣٥ وما بعدها .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ٦٠ – ٦١ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢١٢ .

(٥٢) ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ٦١ – ٦٢ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٠ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٣٦ .
(٥٣) ابن هشام : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٦٢ – ٦٣ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٣٦ .
الطبري . مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٠ – ٢٣١ .
اليعقوبي : مصدر سابق جـ ٢ ص ٣٦ .
(٥٤) ابن هشام : المصدر نفسه حـ ٢ ص ٦٣ .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢١٢ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٣٧ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣ .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ بات عند المطعم ليلة موافقته على أن يجيره ، وأنه حين دخل المسجد الحرام والمطعم وبنوه وقومه حوله بالسلاح قال أبو جهل للمطعم : أمجير أم متابع ؟ قال : بل مجير . فقال أبو جهل قد أجرنا من أجرت .

انظر الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣١ ، ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٣٧ .
(٥٥) ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٤٨ – ١٤٩ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .
(٥٦) ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢١٨ – ٢١٩ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ٧٠ – ٧٣ .
ابن كثير : مصدر سابق حـ ٣ ص ١٤٨ – ١٤٩ .
(٥٧) كان العرب يطلقون كلمة « الخزرج » على الأنصار خزرجهم وأوسهم ، وذلك لأن الخزرج كانوا أكثر عددا من الأوس .
(٥٨) الطبري : مصدر سابق حـ ٢ ص ٢٣٤ .
(٥٩) بعاث موضع بيثرب جرت فيها موقعة عظيمة بين الأوس والخزرج قتل فيها الكثير من أشرافهم .
(٦٠) الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٣ – ٢٣٧ .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢١٨ – ٢١٩ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٤٨ – ١٥١ .
(٦١) ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ٧٣ – ٧٧ .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢١٩ – ٢٢٠ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٥ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٥٠ – ١٥١ .
ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ٩٥ .
(٦٢) ابن هشام : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٧٧ – ٨٠ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٥٢ – ١٥٣ .
(٦٣) الطبري : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٤١ .

(٦٤) الطبري : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٣٨ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ٨٣ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٨ .
(٦٥) ابن سعد : مصدر سابق حـ ١ ص ٢٢١ .
(٦٦) ابن هشام : مصدر سابق حـ ٢ ص ٨٤ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٦٠ .
الطبري : مصدر سابق ، حـ ٢ ص ٢٣٨ .
(٦٧) ابن هشام : المصدر نفسه حـ ٢ ص ٨١ – ٩٤ .
ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ٩٨ وما بعدها .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٢١ – ٢٢٦ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٥٨ – ١٦٨ .
(راجع أسماء النقباء في المصادر المذكورة وكذلك أسماء جميع من شهد بيعة العقبة الثانية من المسلمين) .
(٦٨) ابن هشام : المصدر نفسه جـ ٢ ص ١١٢ – ١٢٣ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٤١ – ٢٤٢ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٦٥ – ١٧٤ .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .
(٦٩) الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٤٢ – ٢٤٤ .
ابن كثير : مصدر سابق حـ ٣ ص ١٧٧ وما بعدها .
(٧٠) الطبري : المصدر نفسه حـ ٢ ص ٢٤٢ – ٢٥٢ .
ابن سعد : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٣ – ٢٣٨ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ١ ص ١٣٠ – ١٤٥ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ١٧٧ – ٢٠٢ .
ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٢ ص ١٠١ وما بعدها .
(٧١) ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٢٠٢ .
(٧٢) ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٥٢ – ٢٥٤ .
(٧٣) أورد ابن سعد في الطبقات أن عدد من آخى بينهم الرسول ﷺ كان ٩٠ رجلا (٤٥ من المهاجرين و ٤٥ من الأنصار) وقيل مائة (٥٠ من المهاجرين و ٥٠ من الأنصار) .
راجع ابن سعد : مصدر سابق حـ ١ ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٣ .
ابن كثير : مصدر سابق حـ ٣ ص ٢٢٤ – ٢٢٩ .
(٧٤) اختلفت المصادر في تحديد المدة التي قضاها الرسول ﷺ بمكة يدعو فيها إلى الإسلام ، بين : ٨ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٥ سنة . والمشهور الغالب أنها ١٣ سنة .
(٧٥) ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٤٦ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٧٦) ابن هشام : المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٦٣ – ١٦٥ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣٦ – ٢٣٧ .
(٧٧) كان يهود بني قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين الرسول ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد .
(٧٨) ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٧٤ – ١٧٦ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٢٤٠ – ٢٤١
(٧٩) بدأ إرسال الكتب في المحرم من السنة السابعة للهجرة .
(٨٠) راجع نصوص بعض هذه الكتب في الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٢٥٨ وما يليها .
(٨١) راجع ابن سعد . المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٥٨ – ٢٩١ .
(٨٢) بلغ عدد الغزوات التي غزاها النبي ﷺ بنفسه ٢٧ غزوة ، وبلغ عدد السرايا التي بعث بها ٤٧ سرية ، وقد شغلت معظم الدور المدني .
انظر ابن سعد : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥ – ٦ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٤ ص ٢٥٦ .
(٨٣) ابن هشام : مصدر سابق جـ ٢ ص ١١٠ .
(٨٤) ابن سعد : مصدر سابق جـ ٢ ص ٩٥ – ٩٧ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٤ ص ١٦٤ – ١٧٧ .
(٨٥) ابن هشام : مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٣١ .
(٨٦) مِحَشُّ حرب بمعنى موقد حرب .
(٨٧) ابن هشام : مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٣٧ – ٣٣٩ .
(٨٨) راجع ابن سعد : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٣١ و ١٤٥ – ١٤٧ و ١٦٩ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٤ ص ٢٣٦ – ٢٤٠ .
(٨٩) ابن سعد : المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٣٤ – ١٤٥ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٤ ص ٣١ – ٧٠ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٤ ص ٢٨٥ – ٣١٢ .
(٩٠) ابن سعد : المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٤٩ – ١٥٧ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٤ ص ٨٠ – ١٤٤ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٤ ص ٣٢٢ – ٣٦٨ .
(٩١) ابن سعد : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٨ و٥٧ و٧٤ و١٠٦ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٣ ص ٥٠ و١٩٩ و٢٤٤ و٣٤٢ .
ابن كثير : مصدر سابق جـ ٤ ص ٣ و٧٤ و١١٦ و١٨١ و٢٠٨ و٢٢١ .
الطبري : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٩٧ – ٢٩٩ .
حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق جـ ١ ص ١١٦ و١٣٢ – ١٣٨ .
إبراهيم علي طرحان : جرائم اليهود بين خبر القرآن وعلم التاريخ ، بحث نشر في ستة أقسام في مجلة رابطة العالم الإسلامي التي تصدر بمكة المكرمة ، ابتداء من العدد الثالث السنة الحادية عشرة جمادي الأولى عام ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
(٩٢) أحصى ابن سعد في الطبقات جـ ١ ص ٢٩١ – ٣٥٨ الوفود التي التقت بالرسول ﷺ بـ : ٧٢ وفدا .
(٩٣) ابن سعد : المصدر نفسه جـ ٨ ص ٤٤٦ – ٤٤٧ .
(٩٤) ابن سعد : المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٩١ – ٣٥٩ .
ابن هشام : مصدر سابق جـ ٤ ص ٢٠٥ – ٢٤٥ .

(٩٥) ابن هشام : مصدر سابق جـ ٤ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٩٦) تمت بيعة أبي بكر الصديق ليكون أول خليفة لرسول الله ﷺ في سقيفة بني ساعدة ، وكان النبي ﷺ لا يزال مسجي في بيت عائشة لم يدفن بعد . وقد تنازع المهاجرون والأنصار بشأن من يلي الأمر منهم ، ثم رأى بعض الأنصار أن يكون الأمر مشتركا بين الفريقين ، ولكن عمر بن الخطاب حسم الأمر بمبايعة أبي بكر فتبعه المهاجرون فالأنصار . ثم جاءت البيعة العامة في المسجد في اليوم التالي حيث خطب أبو بكر خطبته المشهورة التي أفتتح بها عهد خلافته .

(٩٧) الطبري : مصدر سابق جـ ٣ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٩٨) كان وفد بني جنيفة قد وفد على الرسول ﷺ بالمدينة وأسلم ، وفي الوفد مسيلمة والرجال .

ابن سعد : مصدر سابق جـ ١ ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٩٩) ابن الأثير : مرجع سابق جـ ٢ ص ١٤٢ وما بعدها .

البلاذري : فتوح البلدان ص ١٠٣ وما بعدها .

اليعقوبي : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٢٨ وما بعدها .

(١٠٠) ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٤٢ وما بعدها .

(١٠١) الطبري : مصدر سابق جـ ٣ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(١٠٢) الحفش هو بيت تنفرد فيه النفساء من النساء .

(١٠٣) ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٢ ص ٣٤٢ - ٣٧٨ .

الطبري : مصدر سابق جـ ٣ ص ٢٣٢ - ٢٧٠ .

ابن خلدون : مصدر سابق جـ ٢ ص ٨٥٩ - ٨٨٧ .

اليعقوبي : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٢٨ .

البلاذري : مصدر سابق ص ٩٧ و١٠٩ و١١٣ .

(١٠٤) في زمن عثمان بن عفان (ت ٣٥ هـ / ٦٥٦ م) اختلف البعض في قراءة القرآن ، فكان أهل حمص ودمشق والكوفة والبصرة مثلا يدعي كل منهم أن قراءته خير من غيرهم ، فأمر عثمان بتدوين مصحف « إمام » من الصحف المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب . وقام بهذا العمل زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وقد أمر عثمان أن يكتبوا ما يختلفون فيه بلسان قريش ، ونسخ عدة نسخ وأرسلها إلى الأمصار ، وأحرق ما عداها وأعاد الصحف إلى حفصة .

(١٠٥) ابن الأثير : مرجع سابق جـ ٢ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(١٠٦) المرجع نفسه جـ ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٧ .

ابن كثير : جـ ٦ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٨ .

(١٠٧) ابن الأثير : المرجع نفسه جـ ٢ ص ٢٦٩ - ٢٧١ .

ابن كثير : مرجع سابق جـ ٦ ، ص ٣٤٨ - ٣٥١ .

(١٠٨) ابن الأثير : المرجع نفسه جـ ٢ ، ص ٢٧٤ .

ابن كثير : مرجع سابق جـ ٦ ، ص ٣٥٢ .

(١٠٩) ابن الأثير : المرجع نفسه جـ ٢ ص ٣٨١ - ٣٨٧ .

(١١٠) ابن كثير : مرجع سابق جـ ٧ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(١١١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د . أكرم ضياء العمري ، طـ ٢ ، ١٩٧٧ م ، ص ١٢٥ - ١٣٣ .

(١١٢) المرجع نفسه : ص ١٣٥ - ١٣٩ .

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .
٢ – إبراهيم علي طرخان :
– الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى – القاهرة ١٩٥٩ م .
– جرائم اليهود بين خبر القرآن وعلم التاريخ – بحث نشر في ستة أقسام في مجلة رابطة العالم الإسلامي التي تصدر بمكة المكرمة – ابتداء من العدد الثالث – للسنة الحادية عشرة – جمادي الأولى ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
٣ – ابن الأثير (علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم عز الدين بن الأثير الشيباني الجزري ت ٦٣٠ هـ /١٢٣٣ م) .
الكامل في التاريخ – بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
٤ – ابن خلدون (عبد الرحمن ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) تاريخه . بيروت ١٩٨١ م .
٥ – ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) .
الطبقات الكبرى – بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
– تحقيق إحسان عباس .
٦ – ابن كثير (الحافظ بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) البداية والنهاية – بيروت ١٩٨٠ م .
٧ – ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن الكلبي ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) .
كتاب الأصنام – القاهرة ١٩٢٤ م . جـ ١ تحقيق أحمد زكي باشا .
٨ – ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) .
السيرة النبوية – القاهرة ١٩٥٥ م – تحقيق مصطفى السقا وآخرين .
٩ – أحمد أمين :
فجر الإسلام – القاهرة ١٩٧٨ م .

١٠ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي .
١١ – البلاذري (أبو الحسن البلاذري ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .
فتوح البلدان – بيروت ٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) .
١٢ – الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) .
تاريخ الأمم والملوك – بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
١٣ – المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر – بيروت ١٩٧٨ م .
١٤ – الهمذاني (الحسن بن أحمد بن يعقوب) صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد ابن علي الأكوع ، الرياض ، دار اليمامة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
١٥ – اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) .
تاريخ اليعقوبي – بيروت .
١٦ – حسن إبراهيم :
الإسلام السياسي – القاهرة ١٩٧٩ م .

انتشار الإسلام

في فارس وأفغانستان والسند وباكستان وآسيا الوسطى والصغرى وبين المغول..

للأستاذ الدكتور

رجب محمد عبد الحليم

انتشار الإسلام في فارس

من المعروف أن استهلال دخول المسلمين الأراضي الخاضعة للإمبراطورية الفارسية جاء في عهد أبي بكر الصديق واستتم الفتح في عهد ذي النورين عثمان بن عفان وأن تحقّق القضاء الحاسم على القوة الساسانية قبل ذلك . و لم يكن هذا الفتح بسبب ظروف اقتصادية سيئة عاشها العرب المسلمون ، كما قال بذلك بعض الباحثين الأوربيين المحدثين[١] ، إذ لم تكن فتوحاتهم تهدف إلى الاستحواذ على الغنائم والأموال ، ولو كان هدفهم ذلك لما ردوا عرض رستم قائد جيش فارس بإعطائهم الأموال والمتاع على أن يعودوا إلى بلادهم[٢]. وإنما كانت فتوحاتهم تهدف أساسا إلى تبليغ الدعوة الإسلامية لشعوب الأرض . ولما كان الملوك والحكام يرفضون ذلك ويحولون بقواتهم وسلطتهم دون وصول الدعوة للناس كي يختاروا بأنفسهم مايشاءون ، ولهم أن يبقوا على دياناتهم القديمة بعد انتقال السلطة في بلادهم إلى المسلمين على أن يدفعوا جزية هيّنة ترمز لاعترافهم بسلطة الحكم الإسلامي مع كفالة حريتهم في العقيدة والعبادة[٣] .

وبعد تمام فتح فارس اختار معظم الفارسيين بالتدريج الدخول في الإسلام ، و لم يكد يمر القرن الأول الهجري (السابع الميلادى) حتى أصبح الفارسيون شعبا مسلما يلتزم بالإسلام وأحكامه ويخلص لها . وقد أتى هذا التطور نتيجة لعوامل عدة ، منها سياسة العرب المسلمين في فارس ، فقد كانت تجذب الناس إلى الإسلام وتحببهم فيه إذ لم تكن اجتياحا عسكريا مخربا يهلك الحرث والنسل ويأتي على العمران كما فعلت قبائل الجرمان بأوربا قرب نهاية العصور القديمة أو كما فعلته قبائل المغول قرب نهاية العصور الوسطى وإنما كانت تلك الفتوحات أبعد ما تكون عن التدمير والتخريب . وتكفي قراءة وصايا الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والأمويين لقواد جيوشهم بألا يقلعوا زرعا ولايحرقوا نخيلا ولا يهدموا بيوتا ولايقتلوا طفلا أو شيخا أو امرأة ، أو رجالا فرغوا أنفسهم للعبادة في صوامعهم ، ولايهدموا كنيسة ولا معبدا ولا بيت نار[٤] . واجتذبت تلك السياسة

الشعوب في فارس وغيرها وجعلتهم يقدمون على اعتناق الإسلام طواعية واختيارا .

أثر ارتباط الفتح بتعاليم الإسلام وعدالته :

كما أن ارتباط الفتح الإسلامي لفارس برسالة الإسلام ومبادئها السامية في العدالة أدّى إلى حسن معاملة الفاتحين لسكان البلاد المفتوحة من غير المحاربين فلم يتعرضوا لهم بالقتل أو السبي أو مصادرة ما يملكون وإنما أبقوهم على أرضهم ، ودياناتهم مع دفع جزية محددة تتناسب مع حالة الشخص المادية ويعفى منها الأرامل والعجزة والرهبان وذوي العاهات وغير القادرين على العمل ، وذلك نظير حماية المسلمين لهم . وكان المسلمون يشترطون ذلك على أنفسهم في معاهدات الصلح التي يعقدونها مع البلاد المفتوحة . فرأى الفارسيون سياسة جديدة طابعها الرحمة والعدالة مما لم يألفوه من حكامهم أو الغزاة الأجانب لهم من قبل ، فضلا عن أن جنود كسرى أثناء تقدمهم لمقاومة الفتح الإسلامي كانوا يعتدون على الفلاحين والأهلين ويسلبونهم أموالهم ويعتدون على نسائهم وبناتهم ويعيثون في الأرض فسادا ، مما جعل كثيرا من الفارسيين يرحبون بالفاتحين العرب ويدلونهم على عورات البلاد ، ويشيرون عليهم في اقتحام القلاع والحصون ، وفتح العديد من المدن صلحا دون قتال ، ثقة في عدالة العرب المسلمين ودينهم الذي يدعو إلى العدالة والمساواة وصون الحرمات ويحرم العدوان على الحريات والأموال . وقد كان لابد وأن يساعد ذلك على انتشار الإسلام . وهكذا وردت الروايات عن إسلام دهاقين الفلاليج والنهرين وبابل وخطرونية والعال ونهر الملك وكونى وغيرهم من الدهاقين عقب موقعة جلولاء وفتح المدائن عام ١٦هـ/ ٦٣٧م . وقد شهد فتح المدائن أربعة آلاف من جند رستم من الديلم كانوا قد أسلموا وانضموا للمسلمين عقب مقتل قائدهم في موقعة القادسية عام ١٤هـ/ ٦٣٥م[٧] .

ولا غرو أن كان الفارسيون يقارنون بين الإسلام وعدالته وسماحة أبنائه من جهة وبين سياسة حكامهم السابقين ورجال ديانتهم من جهة أخرى وما كانوا يقومون به من اضطهاد من لا يعتنق الزرادشتية من يهود ونصارى وصابئة وبوذيين ، كذلك فإن الأكاسرة مافتئوا يفتحون آذانهم للوشاة من أتباع أي دين أو مذهب ضد غيرهم من أتباع الأديان أو المذاهب الأخرى مما زاد من حالات الاضطهاد . أضف إلى ذلك ما كان يتمتع

به كهنة الزرادشتية من امتيازات وما أصاب الأديان الأخرى ، وبخاصة الكنيسة النصرانية ، في فارس من فساد وتدهور وصراع مذهبي ، مما دفع الناس إلى الإسلام كي يجدوا فيه ملجأ من كل هذه المساوئ الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي كانت تحيط بهم . ولقد روى أنه بلغت بهم الكراهية لملوكهم أن تخلّوا عنهم في كثير من المعارك بل وتآمروا على يزد جرد الثالث آخر ملوكهم وقتلوه بأيديهم وقالوا له « ما أنت بأهل لولاية قرية فضلا عن الملك ، ولو علم الله فيك خيرا لما صيّرك إلى هذه الحال »[٩] .

كذلك أدت الملل والنحل المختلفة التي نجمت في البلاد إلى اضطراب حياة الناس وأنشبت بينهم العداوة والبغضاء مع زعمها أنها ماأتت إلّا للقضاء على ذلك . ففي عهد قباذ (٤٨٨ – ٥٣١م)والد كسرى أنوشروان (٥٣١ – ٥٧٩م) الذي عاصر مولد النبي ﷺ ظهر مزدك الذي دعا إلى الاشتراك في الأموال والنساء لاعتقاده أن الشر إنما يقع بسبب النساء والأموال . لذلك جعلها مباحة للناس جميعا وجعلهم شركاء فيها كاشتراكهم في موارد الماء والكلأ مما زاد من سوء الأحوال وأدى إلى فساد المجتمع وجعل الظروف مهيأة لقبول دين الإسلام الذي رعى حرمات المال والعرض . وربما رأى الفارسيون أن دعاة هذا الدين مؤيدون من الله « لأنهم يقاتلون على دين » وأنهم أفضل من حكامهم وقالوا لإخوانهم من المقاتلين « إنما يقاتلون قوما منصورين ، الله معهم » ، « فاحتسبوا ملككم »[١٠] . ومن ثم كان كثير من الجند يفرون من ميدان القتال أو ينضمون إلى المسلمين ويعلنون إسلامهم مما أجبر قادة الفرس إلى ربط جنودهم في سلاسل من حديد حتى لا يفرّوا وحتى يقاتلوا حتى الموت[١١] .

لقد كانت سياسة الدولة الإسلامية في حكم فارس تتجاوب مع آمال الناس في المساواة والحرية الدينية والتحرر من الأغلال التي ناءت بها كواهلهم خلال عهود متطاولة ، وإنما قامت تلك السياسة على مبادئ الشريعة الإسلامية وأحكامها والتزم الفاتحون بشروطهم في عهود الصلح المبرمة مع الأهلين إذ ألزمهم دينهم بالوفاء بالعهد و لم يحدث أن نقض المسلمون الفاتحون عهودهم أو مواثيقهم بحال . ولطالما أوصى الخلفاء ولاتهم وقوادهم دائما بالحفاظ على تلك العهود والمواثيق والحذر من أي إخلال بها وهكذا شعر الناس

في فارس بالسكينة والطمأنينة في ظل عدالة الحكم الإسلامي ، مما حدا بهم إلى اعتناقه ، وعدم الرضا بغيره بديلا[١٢] .

وقد كانت عهود الصلح تنص على إعطاء الفارسيين حرياتهم الدينية والمدنية كاملة وهكذا أصبحوا أحرارا في ممارسة شعائرهم الدينية دون اضطهاد أو تنكيل ، كما تمتعوا بحق الاحتفاظ بملكية أراضيهم وحرية التصرف فيها مقابل دفع خراج معين إذا كانت تلك الأرض قد فتحت صلحا ، وحتى لو كانت قد فتحت عنوة واستولى عليها المسلمون فإنهم تركوا أمر زراعتها لأهل البلاد الأصليين نظير جزء من المحصول يتفق عليه . وفي كل الحالات كان ما يدفعه الفارسيون من خراج وجزية يقل كثيرا عن الضرائب وأعمال السخرة التي كانت مفروضة عليهم من قبل حكامهم السابقين . فقد كان الخراج يقدر حسب جودة الأرض ونوع المحصول مع مراعاة الظروف الطبيعية التي تخرج عن إرادة الإنسان . فلو تعرضت المحاصيل للإصابة بالآفات أو تعرضت الأرض للغرق بالمياه – يسقط الخراج عن صاحبها مما جعل الفارسيين يشعرون بمدى العدالة التي تمتعوا بها في ظل دولة الإسلام ، وهذا مادفعهم إلى اعتناق هذا الدين حتى أحسّ عمال الخراج بتناقص حصيلة الخراج لإسلام أصحاب الأرض . وقد جرى الأمر أولا في مثل تلك الحال على ألّا يدفع صاحب الأرض الخراج بل تدفع الزكاة عن المحصول غالبا ، وأقل عند صعوبة الري وتكون أرضا عشرية[١٣] .

وتحققت الحرية الاجتماعية والاقتصادية للفارسيين فازدادت ثرواتهم وأصبحوا يقتنون القصور وقد يملكون الرقيق إلى جانب امتلاكهم الأراضي بعد أن كانوا أقنانا أو أجراء عند سادتهم الإقطاعيين من رجال الطبقة الأرستقراطية أو من رجال الديانة الزرادشتية في فارس الساسانية ، وكانت الجزية تسقط عن كل من يعتنق الإسلام[١٤] .

ولم تكن سياسة الدولة مقصورة على إعفاء من أسلم من الفارسيين من الجزية والخراج ، بل إنها كفلت لهم حقهم في العطاء مثلهم في ذلك مثل غيرهم من العرب المسلمين . فقد كتب الفاروق عمر بن الخطاب إلى أمراء جيوشه في فارس يقول لهم إن « من أعتقتم من الحمراء (يقصد الفرس) فأسلموا فألحقوهم بمواليهم ، لهم مالهم وعليهم

ما عليهم وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتهم في العطاء » . وقد نفذ القادة تلك التعليمات كما أشركوا الموالي الذين قاتلوا معهم في الغنيمة وفرضوا لهم عطاء مقداره ألفان من الدراهم كعطاء من حارب في القادسية من العرب تماما ، كما فرض الفاروق نفسه لأشراف فارس مثل ذلك وقال إنه فعل ذلك كي يتألف بهؤلاء الأشراف غيرهم من أتباعهم ووعد بالمساواة بين الناس جميعا أحمرهم وأسودهم عربيهم وعجميهم لو امتد به العمر في العام القادم . ولاشك أن هذه السياسة قد دفعت جموعا ضخمة من الفارسيين إلى اعتناق الإسلام[١٥] .

الإبقاء على النظم الإدارية السابقة :

كما تميزت سياسة الدولة الإسلامية تجاه أهل فارس بالإبقاء على التنظيمات الإدارية التي كانت موجودة قبل الفتح ، فظلت السجلات تكتب باللغة الفارسية نحوا من خمسين عاما حتى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها عام ٧٥هـ (٦٩٤م) . وفي منطقة خراسان بالذات ظلّت السجلات تكتب بالفارسية ما يقرب من مائة سنة بعد الفتح[١٦] . كما أبقى المسلمون على العملة الفارسية القديمة وظل الدرهم الفارسي أساسا للمعاملات حتى أمر عبد الملك بن مروان بضرب الدنانير الذهبية عام ٧٤هـ (٦٩٣م) والدراهم الفضية بعد ذلك بعامين[١٧] . وهكذا لم يعمد المسلمون إلى تغيير النظم القائمة طفرة ، بل أبقوا عليها حتى تم تعديلها بالتدريج ، فلم يقطعوا صلة الناس بحياتهم السابقة . وقد وفّر ذلك لهم – أيضا – قدرا كبيرا من الاستقرار السياسي والمالي والنفسي بين الفارسيين وبخاصة بعد أن أبقى المسلمون على من كانوا يشغلون الوظائف المالية والإدارية المحلية في مناصبهم لاسيما طبقة « الدهاقين » الذين عرفوا بمهارتهم في تحصيل أموال الخراج وفي شؤون الإدارة المحلية . وهذا كله رسخ الشعور بالاستقرار بين الناس هناك وحبّبهم في الإسلام[١٨] .

جهود الحكام والدعاة :

أعان على انتشار الإسلام في فارس أن ولّى الخلفاء عليها أمراء ملتزمين بأحكام الإسلام متفقهين فيها فكانوا قدوة للناس في حياتهم وسلوكهم ، كما ألزمهم الخلفاء بتعليم الناس

أمور دينهم وسنة نبيهم وأن يقيموا بهم الصلاة ويقضوا بينهم بالحق وأن يحثّوهم كبارا وصغارا على صلاة الجماعة . كما حرص الخلفاء على إيفاد كثير من المعلمين والفقهاء إلى تلك البلاد ليعاونوا في نشر العلم بالقرآن وتعاليم الإسلام وكانت منزلة هؤلاء لا تقل عن منزلة الولاة والحكام لالتزامهم بقيم الإسلام وأخلاقه وآدابه في سلوكهم وكافة جوانب حياتهم . فتأثر بهم الناس في حياتهم العامة والخاصة وأسلم على أيديهم المئات بل الألوف ، وانقطع بعضهم للعبادة وتعلم مبادئ الإسلام وحفظ القرآن . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز على سبيل المثال يشجع هؤلاء ويأمر لكل منهم بمائة دينار تدفع له كل عام تشجيعا له على السير في هذا الطريق . وهكذا تكاتفت جهود الفقهاء والمعلمين مع جهود الخلفاء والأمراء على نشر رسالة الإسلام وتعاليمه في فارس(١٩) .

ثم كان أن تواصلت الهجرات العربية إلى الأراضى الفارسية عقب الفتح ، وفي عهد بني أمية . فما قصد المسلمون التسلط العسكرى والسياسى ، وإنما استهدفوا نشر قيم الإسلام ومبادئه وعدالته بين الناس وتعليمهم حقيقة هذا الدين وأحكامه ، وأعان على ذلك بصورة قوية فعالة ماجرى من اختلاف بين العرب المسلمين القادمين وأهل البلاد الأصليين . فلم يكن هؤلاء القادمون طبقة متعالية متقوقعة معتزلة كما يحدث كثيرا من جانب القوى المحتلة في كل العهود . بل كان العرب المسلمون يتوافدون إلى البلاد المفتوحة في موجات بشرية متتابعة يصطحب المقاتلة فيها أهلهم ويستقرون فيها مع قبائلهم ليحفظوا مافتحوه من أي انتقاض أو عدوان ، ثم يتخذون من البلدان التي استقرت فيها فتوحهم وانتظمت أمورهم قواعد لانطلاق آخر إلى الأمام(٢٠) .

وقد حدثنا البلاذرى بأن قواد العرب وولاتهم على مدن فارس وأقاليمها في عهد الفاروق عمر بن الخطاب ومن أتى بعده من الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية كانوا ينزلون العرب ويختطون لهم ويبنون لهم المساجد ويحفرون لهم الترع وقنوات الري . فعلوا ذلك في مدن الجزيرة بالعراق وفي كرمان وغيرها من أقاليم فارس . وفي خراسان وحدها أنزل زياد بن أبيه عام ٥١هـ/ ٦٧١م زهاء خمسين ألفا من العرب من أهل الكوفة والبصرة بعيالاتهم فاستقروا بها وصاروا من أهلها(٢١) .

وقد دعم هذه الهجرات ما كان يرد إليها من جيوش إسلامية لفتح بلاد ماوراء النهر أو بلاد السند والهند في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) (٦٨٤ - ٧٠٥م) . وعهد ابنه الوليد (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٤م) . فقد كان عدد هذه الجيوش كبيرا وكانت تقيم بإقليم خراسان بالذات حيث اتخذت منه قاعدة تنطلق منها فتوحها في الشمال والجنوب والشرق . وتذكر لنا المصادر التاريخية الأولى أن جيش قتيبة ابن مسلم الباهلي كان لايقل عدد جنده عن سبعة وأربعين ألفا من عرب الكوفة والبصرة وحدها . وبعد مقتله عام ٩٧هـ/ ٧١٥م كان مع والي خراسان الجديد يزيد بن المهلب مائة ألف جندي من أهل الكوفة والبصرة والشام ووجوه أهل خراسان والري من العرب المسلمين(٢٢) .

ولو أضفنا لهؤلاء المقاتلين العرب المسلمين عدد أفراد أسرهم لأصبح العدد كبيرا جدا ربما يزيد على النصف مليون نسمة في خراسان وحدها . وكان هذا العدد يتضخم عند قدوم وال جديد . فكل وال كان يأتي معه أفراد قبيلته يتولون الوظائف ويساعدونه في تحمل أعباء الحكم ويكونون له عصبة تحميه ، ولاسيما فى وقت انبعثت فيه العصبية القبلية كأقوى ما تكون . ونتج عن استدعاء القبائل العربية سواء للحرب أو الإقامة أن ظهرت في كل أنحاء فارس بطون مختلفة من قبائل أزد وربيعة ومضر وقيس وغيرها . وبدأت تحيا حياتها وكأنها في شبه الجزيرة العربية ، فيتحزب عرب الشمال لقيس ومضر ويتحزب عرب الجنوب للأزد واليمنية ، ويقوم الصراع بين هذه الأحزاب مما جعل من يعيش في فارس يحس وكأنه يعيش في مواطنه الأولى من شبه جزيرة العرب(٢٣) .

وإذا كان كثير من العرب المسلمين قد هاجروا إلى خراسان ومدن فارس المختلفة وأقاموا فيها كما سبق القول ، فإن كثيرا من الفرس بدورهم قد هاجروا أيضا إلى الأمصار الإسلامية الجديدة التي أنشأها المسلمون مثل الكوفة والبصرة وبغداد وواسط ومرعش والحديثة في العراق والجزيرة ومدينة موسى في فارس ، واشتغلوا فيها بالأعمال اليدوية والحرف والمشروعات الصناعية وماتستلزمه حياة المدن ، وانضم منهم بعض من كان في جيش فارس الساساني مثل الأساورة إلى جيوش المسلمين وحاربوا معهم وأعلنوا إسلامهم

وأخذوا عطاءهم ودخلوا في ولاء مع بعض القبائل العربية وصارت لهم احياء خاصة بهم في تلك المدن الجديدة[٢٤] .

وهكذا حدثت حركات متبادلة للهجرة والاستيطان بين العرب والفرس ، فالعرب المسلمون يسكنون مدن خراسان وفارس وغيرهما من أقاليم فارس إلى جانب سكان تلك الأرجاء من الفرس ، كما كان من الفرس من سكن مدن العراق والجزيرة وكان ذلك التداخل السكاني والتلاحم والامتزاج الاجتماعي سببًا أدى إلى التزاوج بين العربية والفارسية وبلغ هذا الغاية في التقريب بينهما . فقد عاش تحت سقف البيت الواحد العربي المسلم مع زوجة أو أمة فارسية في أسرة واحدة وأنجبا ذرية تحمل ملامح الدماء المشتركة ويتسمون بأسماء عربية وتنسب لأب عربي ، وكان لذلك أثره الكبير في تزايد التقارب بين العرقين . وأخذ العرب المسلمون المهاجرون يتأثرون تدريجيا بالمجتمع الذي ولجوا فيه وبتقاليده التي لاتتعارض مع أحكام الإسلام ومن ذلك الأزياء وبعض العادات الاجتماعية والأعياد . بل تأثر اللسان العربي بلسان الفرس كما امتد تأثير اللغة العربية إلى الفرس وكان لذلك كله أثر كبير في توسع حركة انتشار الإسلام في فارس وتعمقها بحيث لم يكد ينتهي القرن الأول الهجرى إلّا وقد أصبح معظم الفارسيين يدينون بالإسلام ، في حين أن هذا التطور لم تشهده كثير من البلدان التي فتحها المسلمون إلّا في القرنين الثالث والرابع للهجرة[٢٥] .

الحريّات الدينية :

أعانت طبيعة الإسلام وأسلوب العرب فى نشره وسهولة وسائله فى انتشاره السريع والعميق بين الفرس . فالإسلام كما قلنا هو دين المساواة التي لم يعرفها هؤلاء من قبل على مختلف طبقاتهم وسلالاتهم العرقية ، ولذلك أقبلوا عليه واعتنقوه فى ضوء سهولة مبادئه حيث لاتعقيد ولا إبهام فيها ، ولا يحتكر تفسيرها طبقة كهان تستغل الناس وتبتز أموالهم فتواكب الناس على اعتناقه ودخلوا فيه أفواجا . ذلك أن العرب المسلمين لم يتبعوا في نشره أسلوب الجبر أو القهر أو العنت ، بل فتحوا البلاد وتركوا الناس يعايشون المسلمين ويتعرفون على الإسلام عن كثب ويقررون مايشاءون في حرية ، إن شاءوا تحولوإليه فلهم

ماللمسلمين وعليهم ماعليهم ، وإن شاءوا ظلّوا على دياناتهم القديمة يتمتعون بحرياتهم وحقوقهم في ظل عدالة الإسلام مع دفع الجزية . وهكذا أطمأن الناس وأحسوا بحرية الاختيار فأسلم غالبيتهم وظل الباقون يقيمون على دياناتهم ويمارسون شعائرها السابقة في حرية تامة بل ويبشرون بها داخل إيران وخارجها دون اعتراض من حكام المسلمين . فعل ذلك النساطرة الفرس ، فأرسلوا بعثاتهم إلى الهند والصين وأشاعوا الديانة النصرانية في بعض أنحاء آسيا حتى تمكنوا من جذب عدد كبير من التتار إلى النصرانية في القرن الحادي عشر للميلاد[٢٦] .

أما المجوس فقد ظل كثير منهم على ديانتهم الأولى و لم يتعرض لهم المسلمون بسوء ، وظلت معابدهم مصونة حتى أننا نقرأ أن أحد قواد المسلمين في عهد الخليفة المعتصم بالله العباسي (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢م) أمر بجلد إمام ومؤذن لأنهما اشتركا في هدم أحد معابد النار في فارس وكرمان وسجستان وخراسان وجبال أذربيجان وإيران في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادى) أى بعد فتح فارس بثلاثة قرون[٢٧]مما يدل على أن المسلمين إنما اتبعوا في نشر الإسلام تعاليم الإسلام ذاته التي تنص على أنه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[٢٨] ، فلا غرو أن يقبل الإيرانيون على اعتناق هذا الدين الذي أحيا فيهم حرية الاختيار وأمنهم على أنفسهم وأعراضهم .

على هذا النحو تضافر العديد من العوامل على نجاح حركة انتشار الإسلام في إيران وفي هدوء وفي أزمنة متعاقبة بدءا من الفتح في عهد الخلفاء الراشدين وطوال عصري بني أمية وبني العباس . ولكن المؤرخين المعاصرين لتلك الحركة لم يتركوا لنا كثيرا من المادة التاريخية التي تتعلق بتحول الإيرانيين إلى الإسلام فرادى أو جماعات وإنما نلحظ ذلك من دلالة بعض الأحداث التاريخية التي تعيننا على تبين بعض ملامح هذا التحول : من ذلك اشتراك الموالي الفرس الذين أسلموا في الجيش الإسلامي وتعيينهم نوابا لحكام بعض الولايات واشتغالهم بالوظائف في الإدارات والدواوين الحكومية واشتراكهم في حركات التمرد التي قامت ضد خلفاء بني أمية وانتهى الأمر بقيامهم مع بعض العرب الناقمين على الحكم الأموي بالقضاء على الخلافة الأموية وإلى جانب مشاركة الفرس للمسلمين في

شؤون الحكم والإدارة والجيش يبدو في جانب آخر استيعاب علمائهم للغة العربية ونبوغهم في علومها وفي العلوم الإسلامية الأخرى من تفسير وحديث وفقه وقراءات وعلم الكلام ، مما يدل دلالة واضحة على مدى امتداد حركة انتشار الإسلام في فارس .

المشاركة في الجيش :

بدأ اشتراك الموالي الفرس في الجيش الإسلامي منذ باكورة الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين . فبعد هزيمة الفرس في القادسية عام ١٤هـ / ٦٣٥م انضم أربعة آلاف من الجند الأساورة من الفرس إلى الجيش الإسلامي بعد أن أعلنوا إسلامهم . وبعد موقعة جلولاء عام ١٦هـ/ ٦٣٧م نزل القعقاع بن عمرو حلوان في جند من العرب إلى جانب أولئك الفرس ، كما تتبع آثار المنهزمين في جلولاء إلى خانقين في جند من العرب والفرس أيضا ، كما اشترك هؤلاء الفرس المسلمون مع العرب في حصار تستر وبذلوا في إسقاطها جهودا طيبة[٢٩] .

وفي عهد بني أمية اتخذ زياد بن أبيه من الفارسيين جيشا سمّاه « المحاربة » كانت عدته اثني عشر ألفا . وكان جيش الزبيريين أيضا يضم بعض الفارسيين المسلمين وقد استطاع أحدهم وهو سياه الأسواري الفارسي أن يقتل قائد جيش كان قد أرسله مروان بن الحكم قبيل وفاته عام ٦٥/ ٦٨٤م للاستيلاء على المدينة من يد الزبيريين[٣١] . وبازدياد الحركة الإسلامية في فارس ازداد عدد العاملين في الجيش الأموي من الفارسيين المسلمين وقاموا بدور مؤثر في توجيه مجرى الأحداث في بعض الأحيان . فقد اشتركوا مع الجيش الأموي في قتال قطري بن الفجاءة ومن معه من الخوارج الأزارقة عام ٧٧هـ/ ٦٩٦م في طبرستان ، كما اشتركوا في جيش المهلب بن أبي صفرة لقتال من بقي من هؤلاء الخوارج في فارس[٣٢] . أما دورهم في جيش قتيبة بن مسلم الباهلي وفي الظروف التي أدت إلى مقتله فقد كان أشد بروزا ووضوحا . وكان عددهم في هذا الجيش يتراوح بين سبعة آلاف وعشرة آلاف يترأسهم واحد منهم هو حيان النبطي مولى مصقلة ، وهو من الديلم أو من فرس خراسان ، وقيل له نبطي للكنته . وكان هؤلاء الموالي محل ثقة قتيبة وكانوا يشتركون معه في الزحف وفي حصار المدن وكان لهم دورهم الفعال في حصار سمرقند

ويتضح ذلك مما قاله حاكمها لقتيبة : « أيها الأمير أنت إنما تقاتلني بإخواني من العجم فأخرج إليّ العرب حتى تعلم كيف أحاربهم » ولما خرج قتيبة عن طاعة الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك وأهان جنده من اليمنية واستهان بهم وأظهر استخفافه بمكانتهم رأى (حيّان) قائد هؤلاء الموالي الفرس أن كفة خصوم قتيبة هي الراجحة فتآمر معهم على قتله وأعانهم على تنفيذ ذلك أحد الموالي وذلك عندما احتدم القتال بين قتيبة ووكيع التميمي الذي قاد الجبهة المعارضة لقتيبة والموالية للخليفة . وكانت مساعدة حيان للمعارضين وتخليه عن قتيبة على هذا النحو من العوامل الرئيسة التي أدت إلى هزيمة قتيبة ومقتله كما أدّت أيضا إلى ازدياد نفوذ هذا المولى الفارسي وتطلعه للزعامة والنفوذ(٣٣) .

وتزايد حجم الموالي وأهميتهم على أثر ذلك في جيش الخلافة الأموية ، فقد وصل عددهم في عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩هـ / ٧١٤ – ٧١٧م) وعمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١هـ / ٧١٧ – ٧١٩م) إلى عشرين ألف جندي اشتركوا مع يزيد بن المهلب بن أبي صفرة والي خراسان في غزو جرجان وطبرستان عام ٩٧هـ / ٧١٥م ، واشتركوا مع الجراح بن عبد الله الحكمي – والي خراسان بعد يزيد – في غزو بلاد ماوراء النهر ، وعندما أرسل الجراح وفدا إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز في دمشق كان على رأسه رجلان من العرب ورجل من الموالي يكنى أبو الصيداء واسمه صالح بن طريف(٣٤) .

وقد بلغ هذا التطور مداه في عهد بني العباس الذين كان للفرس دور هام في قيام دولتهم في رأى بعض المؤرخين ، ولذلك كانت فيهم معظم المناصب القيادية في الجيش العباسي كما كان أغلب الجند منهم ، مما يدل على مدى تعمق الإسلام بين الفارسيين وتفاعلهم معه ، حتى إننا لانغالي إذا قلنا إن أغلب الفارسيين كانوا قد تحولوا إلى الإسلام في ذلك الوقت .

المشاركة في الإدارة والحكم :

كذلك أخذ الموالي المسلمون يظهرون في المناصب الإدارية والمالية ودواوين الدولة وإداراتها ، بل ظهروا في مناصب حكام المدن والأقاليم والثغور منذ عهد الخلفاء

الراشدين . فبعد هزيمة الفارسيين في موقعة جلولاء عام ١٦هـ/ ٦٣٧م في عهد الفاروق عمر بن الخطاب ، تحول سعد بن أبي وقاص من سكنى المدائن إلى الكوفة ، لأن جو المدائن لم يتناسب مع ماألفه العرب من جو بلادهم فاعتلت صحتهم وتحول معه ولاته على ثغور الكوفة التي كانوا قد فتحوها من قبل ، وهي حلوان وماسبذان وقرقيسياء والموصل ، وأنابوا في حكمها بعض الموالي من الأساورة الفرس الذين أسلموا ، فاستعملوا على حلوان قباذ بن عبد الله الخراساني الأصل ، وعلى الموصل مسلم بن عبد الله وعلى ماسبذان رافع بن عبد الله ، وعلى قرقيسياء عشنق بن عبد الله[٣٥] .

وقد كثر استخدام الموالي الأعاجم في دواوين الدولة منذ قيام الخلافة الأموية فزياد بن أبيه (ت ٥٤هـ/ ٦٧٣م) والي الكوفة والبصرة ، ولي كتابة الرسائل للعرب والموالي ، وولي جباية الخراج لرؤساء الأعاجم العارفين بأمور الخراج . ومن يتصفح تاريخ الطبري يجد أن معظم خلفاء بني أمية قد استعانوا بالموالي في وظائف الكتابة فبرزوا في ديوان الرسائل وديوان الخاتم . وزاد نفوذ هؤلاء الموظفين لدرجة أن بعضهم استطاع التأثير في تعيين كبار الولاة العرب[٣٦] .

وقد زاد نفوذ الموالي زيادة كبيرة في عهد الخلافة العباسية حتى أنهم تولوا مناصب الوزارة وكافة دواوين الحكم واستطاعوا أن تكون لهم الصدارة بعد الخلفاء حين كان الخلفاء أقوياء ومن ذلك ماكان من نفوذ البرامكة وبني سهل أثناء خلافة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨م) وابنه المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) . وحاول هؤلاء تنحية العرب عن مكانتهم في مجال السياسة والحكم والإدارة والجيش وهكذا تساوى المسلمون غير العرب مع العرب المسلمين في كل الحقوق ، وقد تكون لهم الغلبة عليهم مما يؤكد تغلغل انتشار الإسلام بين الفارسيين وتفاعلهم معه تماما في كل جوانب حياتهم[٣٧] عقيدة ودولة وثقافة وتاريخا .

حركات الانتقاض على الدولة وحكامها :

انفعل الفارسيون بالحياة الإسلامية وشاركوا في الأحداث التاريخية ، وفي الصراع الذي حدث بين الدولة وبين المنتقضين عليها ، عمل الفارسيون المسلمون على أن يبرزوا

مدى قوتهم وتأثيرهم في الأحداث لعلهم ينالون مكاسب أكثر ومكانة أرفع ، وكانوا أثناء ذلك بطبيعة الحال يصيبون أو يخطئون ، وقد ينجحون أو يفشلون .

وكان أول تعبير لهم في هذا الصدد ، هو ثورتهم في الكوفة عام ٤٣هـ/ ٦٦٣م بقيادة أميرهم أبي علي ، مولى بني الحارث بن كعب ، مطالبين المغيرة بن شعبة والي الكوفة بمساواتهم بالعرب في الميزات الاقتصادية تطبيقا لتعاليم الإسلام ذاته ، كما انضم كثير من الموالى الفارسيين في البصرة إلى حركة عبد الله بن الزبير وقتلوا نائب الأمويين بها بعد هروب واليها عبيد الله بن زياد إلى دمشق عام ٦٤هـ/ ٦٨٣م[٣٩] .

وقد ظهر نفوذ الموالي في الكوفة أيضا أثناء ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي (٦٥ - ٦٧ / ٦٨٤ - ٦٨٦م) بها ضد بني أمية ولاسيما قتلة الحسين بن علي بن أبي طالب وقد استمال المختار موالي الكوفة إليه وأشركهم مع العرب في العطاء وألفيء واتخذ رئيس حراسه منهم ، واشترك في جيشه منهم حوالي ثلاثين ألفا تمكن بهم وبمن معهم من العرب الناقمين على بني أمية من السيطرة على كثير من المدن في العراق وفارس ومن هزيمة جيش بني أمية وقتل قائدهم عبيد الله بن زياد وكل من اشترك في قتل الحسين[٤٠] .

نقص واردات الدولة من خراج وجزية يكشف عن تزايد انتشار الإسلام :

على الرغم من فشل ثورة المختار في النهاية إلّا أن أحداثها وماترتب عليها قد أبانت مدى انتشار الإسلام بين الفارسيين وما أدى إليه ذلك من مشكلات بين الحاكمين والمحكومين . فقد تناقص مايرد إلى بيت المال من خراج الجزية من الأراضي الفارسية ، فقد تناقصت الأموال التي كانت تحصلها الدولة من الفارسيين والعراقيين غير المسلمين . فبينما كانت تلك تقدر في عهد عمر بن الخطاب بمائة مليون درهم هبطت في عهد عبد الملك ابن مروان إلى أربعين مليونا من الدراهم . وهذا يدل على أن جموعا غفيرة من الأهالي قد دانت بالإسلام ومن ثمّ انقطع ماكانوا يدفعونه[٤١] . ثم إن كثيرا من المسلمين الجدد من الفارسيين قد هاجروا إلى المدن والأمصار الإسلامية في العراق مثل الكوفة والبصرة ليستفيدوا من المزايا التي ينعم بها سكان المدن من العطاء وغيره وكي يعملوا بالحرف والمهن المختلفة التي تدر عليهم عائدا أكبر من الاشتغال بالزراعة . ونتج عن ذلك أن

أصبحت مساحات كثيرة من الأراضي الزراعية في فارس لاتجد من يفلحها فنقصت المحاصيل الزراعية ومن ثمّ نقص الخراج[٤٢] .

ظهر هذا التطور في عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وفي عهد أميره على العراق وفارس الحجاج بن يوسف الثقفي . وقد واجه الحجاج هذا التطور بأسلوبين : الأسلوب الأول هو إبقاء الجزية على من أسلم حديثا من أهل فارس[*] نظرا لما أدى إليه ذلك في واقع الأمر من تدمير لموارد بيت المال[٤٣] . كذلك أعاد الحجاج كثيرا من هؤلاء الموالى إلى قراهم وبلادهم حتى يمارسوا مهنهم الأصلية التي تخلوا عنها وقال لهم « أنتم علوج وقراكم أولى بكم » ونقش على يد كل منهم اسم البلدة التي وجّهه إليها ، حتى لايبقوا في الكوفة أو البصرة ويستغلهم أحد الطامعين أو الخارجين على سلطان الدولة ويثور بهم كما حدث أثناء ثورة المختار الثقفي ، وحتى يزرعوا أراضيهم ويدفعوا ما عليها من خراج . ويلاحظ في هذا الصدد أن الحجاج أعاد الخراج على الأرض العشرية سواء كانت في يد العرب أم في يد الموالي أي أنه سوى بين الفريقين ، مما يدل على أن سياسته لم تكن موجهة إلى الفارسيين بوصفهم فارسيين بل لمعالجة وضع طارئ أخل بأمن الدولة من الناحيتين السياسية والاقتصادية .

عاد الفارسيون إلى قراهم واستكانوا حتى وجدوا الفرصة سانحة في تمرد قام به أحد قواد الدولة وهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ضد الحجاج الذى كان قد وجهه إلى سجستان لإخضاع ملك كابل . ولما أبطأ ابن الأشعث في الفتح هدده الحجاج بالعزل فثار ابن الأشعث وانضم إليه الفارسيون وكان عددهم في جيشه لا يقل عن مائة ألف جندي زحف بهم عائدا إلى العراق واستولى على المشرق كله ، وهكذا يمكن اعتبار ثورته ضد الحجاج وبني أمية ثورة فارسية حقيقية أبرزت مابلغه التيار الإسلامي في فارس[٤٦] .

وقد فشلت ثورة ابن الأشعث كما فشل غيرها من الثورات التي قامت على الحكام أثناء قوتهم ولكنها جعلت بني أمية يعيدون النظر في سياستهم تجاه الموالي وجعلتهم يجنحون إلى اتباع سياسة المصالحة والتهدئة والترضية مع العناصر الطامحة . وهذا يفسر ما قام به الخليفة سليمان بن عبد الملك من عزل للولاة الذين كان قد عينهم الحجاج ، ومن إطلاقه

آلاف الفارسيين من سجون الكوفة والبصرة ، ومن إشراكه للفارسيين المسلمين في الجيش الإسلامي ومضاعفة العطاء لهم حتى بلغ نصيب الفرد نحوا من خمسة وعشرين درهما كل شهر ، كما عدل هذا الخليفة عن استخدام أساليب العنف التي كانت قد عمد إليها الحجاج لمقاومة تيار هجرة الفارسيين إلى الكوفة والبصرة . وبلغت هذه السياسة قمتها في عهد خلفه وابن عمه عمر بن عبد العزيز الذي أسقط الجزية عمن أسلم من الفارسيين كما أسقط عنهم الخراج مما زاد من حركة انتشار الإسلام ومن هدوء الأحوال في فارس مما مكنه من القيام بحركة نشطة لنشر الإسلام في منطقة آسيا الوسطى[٤٧] .

إسقاط دولة وإقامة أخرى :

إن الحركة الإسلامية الفارسية الصاعدة المتزايدة التي اكتمل نموها في بداية القرن الثاني للهجرة اتجهت إلى العمل على تحقيق أهدافها في ظل دولة جديدة تقوم بصفة أساسية على سواعد الفارسيين أنفسهم وكان هذا يمثل تطورا كبيرا في تاريخ حركة الإسلام في فارس ويدل دلالة مؤكدة على انتصارها النهائي . وهكذا ظاهر الفارسيون دعوة ثورية كانت تدعو للرضا من آل محمد ، أي لمن يرضاه الناس من آل البيت ، وبدأت هذه الحركة حوالي عام ١٠٠هـ / ٧١٨م على يد دعاة كان معظمهم من الموالي واستمرت حتى كتب لها النجاح عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م على يد أبي مسلم الخراساني ومن معه من الفارسيين والعرب الناقمين على بني أمية حيث تمكن بهم من القضاء على الحكم الأموي لخراسان عام ١٣٠هـ / ٧٤٧م ثم على الخلافة الأموية نفسها . وقامت الخلافة العباسية بعد ذلك بعامين . وهكذا بلغ الإسلام في نفوس الفارسيين وبلغ المسلمون الفارسيون في داخل الكيان الإسلامي الاجتماعي والسياسي ماتحقق معه إسقاط دولة وإقامة أخرى[٤٨] .

وفي تلك الفترة التي بدأت بالدعوة سرا للعباسيين والتي انتهت بقيام دولتهم كان الفارسيون لايكفون عن الاشتراك في أى ثورة يقوم بها خصوم بني أمية . فعندما أظهر زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب دعوته في الكوفة عام ١٢١هـ / ٧٣٨م انضم إليه الموالي وانتشرت دعوته في كثير من بلاد فارس والعراق . ولما فشلت ثورته وانتهى الأمر بقتله في العام التالي احتضن الفارسيون ابنه يحيى الذى كان قد فر إلى

خراسان ثم إلى الجورجان حيث داهمته جيوش نصر بن سيار أمير خراسان وقضت عليه عام ١٢٥هـ / ٧٤٢م.ثم التف الشيعة من الفارسيين حول أحد الطالبيين وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وشجعوه على الدعوة لنفسه في الكوفة عام ١٢٧هـ / ٧٤٤م . ولما لم يتمكن من الصمود أمام قوات بني أمية فر إلى خراسان طمعا في تأييد أبي مسلم الخراساني له لكن أبا مسلم كان في الحقيقة يدعو للعباسيين دون العلويين أو الطالبين وأمر والي هراة بالقبض على هذا الطالبي وقتله . ثم كان أن قام أبو مسلم بحركته التي أشرنا إليها والتي انتهت بقيام الخلافة العباسية عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م[٤٩] .

أسماء وألقاب عربية :

عمد الفارسيون الذين أسلموا إلى توثيق التحامهم بالإسلام وأهله من العرب ، وهكذا أخذوا يحملون أسماء وألقابا عربية مثل أبي عون وأبي مسلم وأبي عكرمة وأبي سلمة ، كما ألحقوا أنفسهم بالقبائل العربية التي أقامت بينهم وارتبطوا بها برابطة الولاء ، فهذا مولى بني تميم ، وذلك مولى الأزد وثالث مولى ربيعة وآخر مولى قيس ، وهكذا . كما زوجوا بناتهم من العرب فتوثق الولاء والامتزاج بينهم وبين الإسلام وأهله[٥٠] .

وقد رحل كثير من الفارسيين المسلمين إلى المدن والأمصار الإسلامية الجديدة مثل الكوفة والبصرة كما سبق القول للاشتغال بالحرف والأعمال المهنية المختلفة مما زاد من التصاق العرقين العربي والفارسي لدرجة أن بعض العرب خافوا على اللغة العربية من العجمة ، فألفوا المعاجم العربية وكتب النحو والصرف حماية لها[٥١] .

التعمق الثقافي : الوضع في علوم الإسلام والعربية :

عكف بعض الفارسيين في المدن الإسلامية فى بلادهم على التفقه في الدين وتعلم علوم العربية والعلوم الإسلامية ثم عادوا إلى بلادهم ونشروا ماتعلموه وتفرغوا لمزيد من الدراسة والبحث حتى بزّوا العرب أنفسهم في كثير من جوانب دراسة الإسلام واللغة العربية من فقه وحديث وتفسير ونحو وصرف وبلاغة ، مما دعى ابن خلدون – فيما بعد – لأن يقول أن « أكثر حملة العلم في الإسلام من العجم »[٥٢] .

وقد أدى النشاط العلمي الإسلامي في فارس إلى مزيد من انتشار الإسلام بين الفارسيين ، كما أدى إلى ظهور المزيد من علمائهم في ميادين العلوم الإسلامية المختلفة وهو مظهر هام لتعمق حركة الإسلام في فارس لابد من إجمال القول فيه . ففي ميدان الفقه والحديث ظهر من الفارسيين في عصر الأمويين نافع مولى عبد الله بن عمر ويروي عنه أكثر علمه ، وهو ديلمي الأصل . كما ظهر ربيعة الرأي وهو شيخ الإمام مالك وأبوه فروخ من الموالي ، وظهر أيضا الحسن البصري وابن سيرين وكلاهما من أبناء الموالي من سبي ميسان وكلاهما توفي عام ١١٠هـ / ٧٢٨م ثم انتهى الأمر في « الحديث » إلى البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) ومسلم (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م) وابن ماجة (ت ٢٧٣هـ / ٨٨٦م) وأبي داود (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م) والترمذي (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) والنسائي (ت ٣٣٠هـ / ٩٤١م) ، ومعظمهم من الموالي الذين نبغوا في هذا الفن في العصر العباسي وعدت كتبهم من أصح كتب الحديث[٥٣] .

وفي ميدان التفسير اشتهر من الموالي في عصر بني أمية مجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير وكلهم تلاميذ ابن عباس وهم جميعا من الموالي كما ظهر في العصر العباسي من هؤلاء إسحاق بن راهويه (ت ٣٣٨هـ / ٨٥٢م) وابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) صاحب التفسير والتاريخ الشهير[٥٤] .

وفي ميدان الفقه نبغ من الموالي أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي (ت ١٦١هـ / ٧٧٧م) . وهو فارسي الأب ، كان أبوه مملوكا لرجل من ربيعة من بني تيم الله بن ثعلبة واشتهر أبو حنيفة بمذهبه الذى نسب إليه وبقدرته الفقهية وقوة حجته وحسن منطقه ودقته في الاستنتاج ومن أجل ذلك عدّ إمام أهل الرأي[٥٥] .

وفي ميدان اللغة والنحو نبغ من الموالي في البصرة سيبويه الذي ألف في النحو ما أعجز من تقدم قبله كما امتنع على من تأخر بعده . كما نبغ في البصرة أيضا أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٤م) الفارسي الأصل اليهودي الآباء التيمي بالولاء ، وقد ترك قرابة مائة مصنف في الأدب والشعر وتاريخ العرب وقبائلهم وأنسابهم . وفي الكوفة نبغ الكسائي وهو فارسي أيضا كان رائدا في هذا المجال نافس سيبويه ، كما نبغ أيضا تلميذه

الفراء يحيى بن زياد الديلمي الأصل الأسدي بالولاء (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م) ، وكان بلاشك أعلم الكوفيين حتى لقب بأمير المؤمنين في النحو[٥٦] .

وفي ميدان السيرة النبوية والتاريخ ، نبغ من الموالي ابن إسحاق وهو محمد بن إسحاق ابن يسار (ت ١٥١هـ / ٧٦٨م) وهو صاحب كتاب « المغازي » وهو أول كتاب وصل إلينا في السيرة مختصرا في سيرة ابن هشام المتوفى عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م . كما نبغ محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) ويعد كتابه « تاريخ الأمم والملوك » العمدة في هذا المجال[٥٧] . ولاشك أن جهود هؤلاء من ذوي الأصول الفارسية في تلك الميادين العلمية قد زادت من انتشار الإسلام بين كثير من الفارسيين الذين رأوا بأعينهم مدى ماتمتع به بنو جلدتهم هؤلاء من علو مكانة وشهرة وحظوة لدى الخلفاء العباسيين حتى اتخذوا منهم معلمين ومؤدبين لأولادهم وصارت مجالسهم لاتنعقد إلّا بحضورهم وكانوا ممن يعول عليهم في القضاء والفتيا وشتى مناحي الحياة الدينية والعلمية ، الأمر الذي بلغ معه الإسلام في فارس آفاقا واسعة[٥٨] .

وهكذا تضافرت عوامل كثيرة أدّت إلى انتشار الإسلام بين الفارسيين بحيث لم يبدأ القرن الثاني للهجرة إلّا وقد أصبحت فارس قطرًا إسلاميا خالصا وأصبح معتنقو الديانات الأخرى كالمجوسية والنصرانية واليهودية أقلية دينية . وإن كانوا يمثلون خطرا كامنا داخل هذا المجتمع الإسلامي النامي ، وسوف يظهر هذا الخطر في عصر الدولة العباسية وسوف نخصه بحديث . والمهم أن الإسلام انتشر بين كافة طبقات المجتمع الفارسي وعناصره ، وكان لذلك مظاهره التي تحدثنا عنها والتي اتخذناها دليلا واضحا على عمق حركة الإسلام في فارس في القرن الأول الهجري ، ذلك لأننا لانستطيع أن نشير كثيرا إلى حالات محددة ووقائع معينة تتعلق بالتحول إلى الإسلام أو اعتناقه بين الفارسيين لأن المؤرخين لم يتركوا لنا الكثير في هذا الشأن ولم يسجلوا لنا ذلك في تفصيل ، وانشغلوا كثيرا بتدوين أخبار حركة الفتوح في عهد الراشدين والأمويين وبأحداث الصراع الداخلي بين العرب بعضهم البعض أو الخارجي بينهم وبين جيرانهم من الروم والترك والهنود وغيرهم .

وعلى الرغم من ذلك يمكننا أن نشير إلى بعض الأسماء والحالات التي تدل على التحول

إلى الإسلام مما ظفرنا به أثناء القراءة والبحث . فهناك القائد الفارسي جابان الذي كان كسرى قد وجهه لقتال أبي عبيد بن مسعود الثقفي والمثنى بن حارثة الشيباني في بداية خلافة الفاروق عمر بن الخطاب عام ١٣هـ / ٦٣٤م ، وبعد هزيمة جابان وأسره أسلم وحسن إسلامه وولاه أبو عبيد أرضه[٥٩] .

وفي أثناء معركة القادسية عام ١٤هـ / ٦٣٥م أسلم بعض الفارسيين وسموا باسم « المسالمة » واتخذ بعضهم أسماء عربية مثل مسلم ورافع وضخم وعشنق ، وساعدوا سعد بن أبي وقاص في القضاء على الفيلة التي أثارت الذعر بين خيل المسلمين في تلك المعركة ودلّوه على مقاتلها . وكان لذلك أثر كبير في انتصار المسلمين في القادسية ولما رأى جنود الديلم ورؤساء المسالح (الحصون) الذين كانوا يقاتلون مع رستم في معركة القادسية مقتله أثناء تلك المعركة الهامة ، اعتزلوا المعركة وأرسلوا إلى سعد بدخولهم في الإسلام وكانوا نحوًا من أربعة آلاف ، فأمنهم سعد وشهدوا معه المدائن وموقعة جلولاء ثم تحوّلوا بعد ذلك ونزلوا الكوفة مع المسلمين[٦٠] .

وقد أسلم عقب فتح المدائن وجلولاء في أواخر عام ١٧هـ / ٦٣٨م دهاقين الفلاليج والنهرين وبابل وخطرنية والعال ونهر الملك وكوثي وغيرهم من الدهاقين . وقد أقرهم الخليفة عمر بن الخطاب على بلادهم وأراضيهم وأسقط الجزية عنهم . كما أسلم أيضا الهرمزان ملك الأهواز في نفس العام بعد معركة رهيبة دارت بينه وبين أبي موسى الأشعري عند تستر هزم فيها وأسر وأرسل إلى المدينة حيث أعلن إسلامه وفرض له الخليفة ألفين في ديوان العطاء[٦١] .

وعقب سقوط الأهواز أسلم قائد ليزدجرد يسمى سياه الأسوارى ، كان يزدجرد قد بعثه في ثلاثمائة من الجند وسبعين من أشراف الفرس إلى البلدان ليجمعوا له الجنود . ولكن سياه بعد أن رأى سقوط الأهواز وفرار يزدجرد نفسه إلى إصطخر استقر رأيه هو ومن معه من الجنود على الدخول في الإسلام وفاوضوا أبا موسى الأشعرى في ذلك ، على أن يقاتلوا العجم معه ولا يقاتلوا المسلمين ، وإذا قاتلهم أحد من المسلمين فعلى أبي موسى حمايتهم ، كما اشترطوا أن ينزلوا حيث شاءوا ويلتحقوا بأي قبيلة يشاءونها ، ويفرض

لهم في العطاء ويضمن لهم الخليفة بنفسه هذه الشروط . وقد ضمن لهم الخليفة شروطهم فأسلموا وشهدوا مع أبي موسى حصار تستر ، واستطاع سياه أن يحتال ويفتح أحد الحصون بمفرده ظنا من حماة هذا الحصن أنه مازال من قواد يزدجرد . واستقر هؤلاء الأساورة الفرس بعد ذلك في البصرة وكان لهم ولزعيمهم سياه دور في قتال جيش مروان ابن الحكم عام ٦٥هـ / ٦٨٤م لصالح الزبيريين سبقت الإشارة إليه(٦٢) .

ولما وصل المسلمون إلى أصبهان وفتحوا بعض نواحيها وضياعها عام ٢٣هـ / ٦٤٣م أنف كثير من أشرافها من دفع الجزية وأعلنوا إسلامهم(٦٣)، ثم زحف الإسلام إلى شمالي فارس في عهد عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ففي عهد عثمان دخل العرب مدينة قزوين وكان لذلك أثره في بعض الديلم الذين كانوا يقفون بالقرب منها انتظارا لما تسفر عنه المعركة . ولما انتصر المسلمون أعلن هؤلاء الديالمة إسلامهم وصارت أرضهم أرضا عشرية وأتى بعضهم إلى الكوفة ونزلوا بها بنفس الشروط التي نزل بها الأساورة البصرة وظل بقية قبائل الديلم على وثنيتها أو مجوسيتها(٦٤) .

وقد وصل الإسلام إلى أذربيجان أيضا في عهد عثمان بن عفان على يد الأشعث بن قيس الذي فتحها للمرة الثانية وأسكنها بعض العرب من أهل العطاء والديوان وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام . ويبدو أن أهل أذربيجان استجابوا لدعوة الإسلام . فعندما تولّى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الخلافة عام ٣٥هـ / ٦٥٥م ولى الأشعث بن قيس على أذربيجان ، فلما قدم إليها وجد أن معظم سكانها قد أسلموا وقرأوا القرآن وازداد الإسلام انتشارا بقدوم كثير من قبائل العرب وعشائرهم من الكوفة والبصرة والشام إلى ذلك الإقليم فسكنوا مدنه وقراه وابتاعوا الأراضي من الناس ليزرعوها ، ولجأت إليهم كثير من القرى لحمايتها وخفارتها من هجوم الديالمة الوثنيين . واستمر توافد العرب على ذلك الإقليم في عهد بني أمية وبني العباس وبنوا فيه الحصون والأسوار والقصور والأسواق ومصّروا المدن ونزلوا معظم القرى واختلطوا بأهاليها مما أدى إلى ازدياد انتشار الإسلام في ذلك الإقليم(٦٥) .

وتصاعدت موجة التحول إلى الإسلام في عهد بني أمية حتى اشتكى عمال الخراج

إلى الحجاج بن يوسف الثقفي وقالوا له « إن الخراج قد انكسر وإن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار »[٦٦] . وقد استمرت هذه الموجة في عنفوانها وأسلم عدد كبير من الفارسيين على يد قواد المسلمين وحكام الأقاليم الفارسية وعلى يد الوعاظ والفقهاء . مثال ذلك غنوان الإسكاف الذي أسلم على يد المهلب بن أبي صفرة وتم تعيينه حاكما لمدينة « زم » وصار هو وأتباعه من جند المهلب وثقاته الذين يعتمد عليهم في مهمات الأمور[٦٧] . واستمرت تلك الموجة في تصاعدها خلال حكم الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ومن أتى بعده من خلفاء بني أمية حتى سقطت دولتهم .

وقامت الخلافة العباسية عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م ، وهناك آلاف من الفارسيين لايزالون على ديانتهم القديمة من مجوسية ونصرانية ويهودية . وقد شرع بنو العباس يبذلون الجهود لنشر الإسلام بين هؤلاء سواء عن طريق الدعوة والإقناع أو عن طريق الترغيب وتأليف القلوب بالهدايا والمنح والمناصب كذلك أقاموا المناظرات والمحاورات بين علماء المسلمين وغيرهم[٦٨] . ومن حالات التحول إلى الإسلام البارزة في القرن الثاني الهجرى ، تحول البرامكة في بداية هذا القرن وتحول بني سهل قرب نهايته .

وينسب البرامكة إلى جدهم برمك الذي كان سادنا لبيت النار في بلخ هو وأولاده وهناك شك في إسلام برمك من عدمه أما ابنه خالد فقد انخرط في سلك الدعوة للرضا من آل محمد التي بدأت عام ١٠٠هـ كما سبق القول ، وظهر إخلاصه لها حتى صار من أكبر دعاتها وزعمائها . ويبدو أن إسلام خالد كان مع بداية هذه الدعوة أو قبلها بقليل ، وقد سما به وبأسرته الإسلام حتى وصلوا إلى مناصب الوزارة والقيادة وكانت لهم الصدارة في الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨م) حتى لم يكن هذا الخليفة ينفذ أمرًا إلّا بمشورتهم بل إنه فوض لكبيرهم يحيى ابن خالد البرمكي أموره كلها وصار في يده الحل والعقد والتولية والعزل[٦٩] .

وقد سما الإسلام بأسرة أخرى هي أسرة بني سهل الذين اعتنقوا الإسلام في أواخر القرن الثاني للهجرة . فقد أسلم كبيرهم سهل بن زاد نفروخ على يد أحد موالى يحيى ابن خالد البرمكي وأسلم الفضل بن سهل على يد يحيى بن خالد البرمكي وإمام الخليفة

هارون الرشيد وابنه المأمون عام ١٩٠هـ / ٨٠٥م ، وقد تبوأت هذه الأسرة ماكان للبرامكة من مكانة وبلغت مابلغته سابقتها من نفوذ بعد أن ساعدت المأمون في التخلص من أخيه الأمين عام ١٩٨هـ / ٨٠٣م ، وصارت الدولة بأيديهم وصاهرهم المأمون وصاروا سادة الناس في بداية القرن الثالث الهجري[٧٠] .

وثمة أسرة فارسية ثالثة سما بها الإسلام وطفت بها الأحداث إلى السطح أثناء الصراع بين الأمين والمأمون كما طفت ببني سهل من قبل ، هي أسرة طاهر بن الحسين بن مصعب الذي تولى قيادة الجيوش التي زحفت من مرو واستولت على بغداد وقتلت الأمين . ولذلك صار طاهر هذا من كبار قادة الدولة في عهد المأمون حتى عقد له المأمون وولّاه على خراسان والجبال من حلوان حتى خراسان عام ٢٠٥هـ / ٨٢٠م وتوارث أبناء طاهر ولاية هذه البلاد في شبه استقلال عن الخلافة حتى عام ٢٥٩هـ / ٨٧٢م . ويبدو أن جد هذه الأسرة الطاهرية قد أسلم خلال القرن الثاني الهجري وصار حفيده طاهر من قادة المأمون في أواخر ذلك القرن[٧١] .

وفي أواخر ذلك القرن أيضا أسلم سامان أمير بلخ وكان زرادشتيا وأسس أحفاده دولة إسلامية هي الدولة السامانية التي حكمت بلاد ماوراء النهر وخراسان فترة طويلة من الزمن (٢٦١ - ٣٨٩هـ / ٨٧٤ - ٩٩٨م) ، وكان لها الفضل الأكبر في نشر الإسلام في تركستان الشرقية وصارت سمرقند وبخاري في العهد الساماني من أمهات المدن الإسلامية التي ازدهرت فيها علوم الإسلام ونبغ فيها الكثير من علماء المسلمين[٧٢] .

وفي أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي انضم إلى الإسلام شعب جديد من شعوب فارس كان قد استعصى على الخلفاء سواء في حمله على الطاعة أو في إدخاله في الإسلام ، وهو شعب الديلم . وكان هذا الشعب يسكن المناطق الجبلية التي تقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين ، ونظرا لطبيعة بلاده الجبلية الوعرة ظل محتفظا بعقيدته الوثنية والمجوسية وباستقلاله عن الخلافة فترة طويلة . وقد تصدى له خلفاء بني العباس بالغزو المتصل لحمله على الطاعة وحتى لا يأوي الخارجين على الخلافة العباسية سواء كان هؤلاء الخارجون علويين أو خوارج . ولكن الديالمة أفسحوا بلادهم للعلويين والتفوا حولهم

حتى تمكن هؤلاء العلويون من أن يقيموا لهم دولة في طبرستان وبلاد الديلم عام ٢٥٠هـ / ٨٦٤م على يد الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على ابن أبي طالب . وقد عرفت هذه الدولة بالدولة الزيدية واستمرت نحو قرن من الزمان وتمكن أمراؤها من نشر الإسلام بين الديالمة . فقد أسلم عدد كبير منهم بتأثير ثاني أمراء هذه الدولة وهو محمد بن زيد الداعي إلى الحق (٢٧٠ – ٢٧٩هـ / ٨٨٣ – ٨٩٢م) كما أسلم عدد كبير منهم أيضا بتأثير ثالث أمراء هذه الدولة وهو الحسن بن على الملقب بالأطروش في بداية القرن الرابع الهجري . وقد مكث هذا الأمير بينهم ثلاثة عشر عاما يدعوهم فيها إلى الإسلام حتى أسلم معظمهم على مذهب الشيعة الزيدية وهو مذهب هذه الدولة . وكان من بين الذين أسلموا أولاد بويه الديلمي ، على والحسن وأحمد ، وهم الذين قضوا على نفوذ الأتراك في بغداد عام ٣٣٤هـ / ٩٤٥م وأسسوا الأسرة البويهية وسيطروا على الخلافة العباسية وحكموا العراق وما يحيط به من بلاد إسلامية لأكثر من قرن من الزمان(٧٣) .

أما بالنسبة لمن أسلم من النصارى الفارسيين فقد أورد السيرتوماس أرنولد أسماء عدد منهم أسلموا على فترات متباعدة . مثال البطريق السطوري طيماثاوس الذي عقد له الخليفة الهادي (١٦٩ – ١٧٠هـ / ٧٨٥ – ٧٨٦م) مناظرة دينية مع علماء المسلمين ، ثم حثّه على قبول الإسلام وكافأه على إسلامه بهدايا ثمينة وأسند إليه منصبا من مناصب الدولة في البصرة . وعلى هذا النحو أسلم عدد آخر من رجال الدين النصارى في بداية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، مثل أحد أخوة جبريل مطران فارس وتيودور أسقف بيت جرماي النسطوري ، وفيلوكرينوس أسقف أذربيجان اليعقوبي(٧٤) .

وقد اعتنى المؤرخون بذكر هؤلاء الأشخاص بالذات نظرا لمكانتهم السامية في الكنيسة و لم يسجلوا تحول غيرهم إلى الإسلام من الأفراد العاديين ممن قد يكونون تحولوا من النصرانية إلى الإسلام ، لأنه لم يكن لهم شأن يذكر في الوظائف الكنسية . وقد هال بعض الأساقفة تحول إخوانهم النصارى العاديين في مرو ومدن خراسان وبقية أنحاء فارس ، وسجلوا ذلك في رسائل تفيض بالحزن واللوعة على مصير الكنيسة والنصرانية

في فارس مما يدل على مدى اتساع حركة انتشار الإسلام بين النصارى في تلك البلاد(٧٥) .

عقبات أمام انتشار الإسلام :

على الرغم من انتشار الإسلام في فارس على هذا النحو ، فقد كانت هناك بعض الأحداث التاريخية التي كانت تؤثر تأثيرا سلبيا دون شك على مسيرة حركة الإسلام في فارس . منها قيام الحروب الأهلية بين العرب بعضهم البعض عقب مقتل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه واستمرار هذه الحرب طوال فترة حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٥ - ٤٠هـ / ٦٥٥ - ٦٦٠م) ، ثم استئنافها من جديد عقب مقتل الحسين بن على بن أبي طالب عام ٦١هـ / ٦٨٠م ، وأثناء الصراع بين ابن الزبير والأمويين حتى مقتل الأول عام ٧٣هـ / ٦٩٢م . فضلا عما كان ينجم من صراعات قبلية بين اليمنية والقيسية في خراسان وكثير من مدن فارس(٧٦) .

ولاشك أن هذه الحروب الأهلية بين الدولة وخصومها في الداخل أو بين القبائل العربية بعضها البعض في فارس قد أوقفت حركة الفتوحات وانتشار الإسلام في أراضي جديدة وأضعفت من نشاط الدعاة وشغلت الولاة والحكام عن تيسير متطلبات الدعوة الإسلامية بشكل أفضل وبصورة أتم وأكمل . وأعطت الفرصة لأعداء الإسلام من أصحاب الأديان الأخرى كي ينظموا صفوفهم ويبثوا سمومهم وينشطوا في دعوتهم ، بل شجعت الأمراء المحليين من الفارسيين على نقض الطاعة وإعلان استقلالهم ، مما أعاق حركة انتشار الإسلام في فارس(٧٧) .

وتضافرت مع هذه العوامل المضادة سياسة بعض الولاة وبعض الخلفاء الأمويين نحو الموالي فقد أثار الحجاج بسياسته القمعية المتعسفة ماأغضب العرب والموالي المسلمين على حد سواء ، وصاروا يتمنون الخلاص منه وشجعوا كل من انتقض عليه . وقد سبقت الإشارة إلى ما لقيه ابن الأشعث من انتفاضة على الحجاج من مؤازرة العرب والموالي معا ضد الحجاج حتى أرغموه على الفرار من العراق إلى دمشق(٧٨) . ثم اتبع تلك السياسة نفسها الجراح بن عبد الله الحكمي والي خراسان حتى اشتكاه أبو الصيداء صالح بن طريق إلى

الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وقال له « يأمير المؤمنين : عشرون ألفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ... »[٧٩] .

وقد أدت هذه السياسة إلى إحساس الفارسيين بأنهم لايتمتعون بحقوقهم في المساواة التي ينادي بها الإسلام فنقموا على الدولة الأموية ، كما أدت سياسة الجراح إلى بقاء بعض الناس على دياناتهم القديمة بل ارتد البعض عن الإسلام حين ألزموا بدفع الجزية على الرغم من إسلامهم[٨٠] .

ولحسن الحظ فإن مثل هذه المعوقات كانت محدودة ، إذ سرعان مايقوم الخلفاء بتصحيح الوضع وتقويم الأمر فتعود الأمور إلى نصابها الحق وتوالي الدعوة إلى الإسلام مسيرتها .

ظهور الفرق وأثرها :

أدت الأحداث السياسية التي أشرنا إليها من حروب أهلية وتناحر قبلي وتجبّر بعض الولاة والحكام إلى نتيجة أخرى كان لها أثرها على حركة الدعوة الإسلامية في فارس . إذ ظهرت الفرق الإسلامية المختلفة من شيعة وخوارج ومرجئة ومعتزلة وقدرية وجبرية ، وكان على رأس معظمها زعماء من الموالي . وعلى الرغم مما أثارته هذه الفرق من نشاط فكري وسياسي إلّا أنها أعطت الفرصة لكثير من أعداء الإسلام كي يتستروا خلفها ويشنوا حربا خبيثة ضد الإسلام وضد العرب ودولتهم ، وأخذ البعض من الشعوبيين يؤلفون الكتب في مثالب العرب ويمجدون الفرس ويذكرون محاسنهم[٨١] .

وكان هذا الاتجاه بالذات مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام أو خلطه بتعاليم الأجداد من يهودية ونصرانية وزرادشتية ومنوية ، ومن كان يريد الخروج على دولة الإسلام تماما . واتخذ بعض الشيعة من حب أهل البيت ستارا يصنعون وراءه ماشاءت أهواؤهم في كثير من الأحيان[٨٢] . وقد استطاعت عقائد الشيعة أن تجد لها مكانا في الأراضي الفارسية وكان من أتباعها من غالى ومنهم من تطرف وانحرف حتى أنكر عليه المعتدلون تطرفه وانحرافه . وكان هذا مما أدى إلى تشويه صورة الإسلام وتعويق انتشاره

فضلا عمّا أدى إليه من تقسم المسلمين إلى أهل سنة وشيعة ، وانقسام الشيعة أنفسهم ، فإذا ما ثار صراع بين فرقة وأخرى ولابد أن يثور كان ذلك على حساب حركة الإسلام في توسعها وتعمقها[٨٣] .

وظهرت حركات فارسية هدامة كان بعضها يضرب في الإسلام ودولته علنا أوسرا مثل ماكان يرمي إلى التمكين للمزدكية أو المانوية ، أو إحياء الولاءات القديمة في صورة حركات خطيرة كالراوندية والمعنقية والبابكية الخرمية حتى عرفوا باسم الزنادقة . وقد كثّف هؤلاء جميعًا نشاطهم في أقاليم فارس منتهزين سماحة الإسلام وضمانه الحرية الدينية كاملة للناس كافة وبثّوا سمومهم وقاوموا انتشار الإسلام بقدر مايستطيعون وجذب الناس إلى مذاهبهم الهدامة التي تدعو إلى شيوعية المال والنساء وإسقاط فرائض الإسلام وغير ذلك ، ولما لم ينالوا ماكانوا يريدون رفعوا علم العداء السافر وكوّنوا الجيوش وحاربوا الدولة وأعلنوا مبادئهم وأهدافهم في التخلص من الإسلام ودولته . وقد ظل أحدهم وهو بابك الخرمي يحارب الدولة أكثر من عشرين عاما (٢٠١ - ٢٢٣هـ / ٨١٦ - ٨٣٧م) وهزم عدة جيوش للمأمون حتى تغلب عليه الأفشين قائد جيوش الخليفة المعتصم بالله العباسي .

دور النصـــارى :

كذلك عمد النصارى الفارسيون إلى تكثيف التبشير بالنصرانية بين الفارسيين وغيرهم من شعوب وسط آسيا المجاورين لفارس حتى وصلت النصرانية شرقا إلى منغوليا والصين كما عمدوا إلى المقاومة السلبية في صور متعددة داخل فارس حيث يطّرد نجاح الدعوة الإسلامية . ومن ذلك دفع بعض النصارى الفارسيين إلى الانتحار لاستثارة حمية إخوانهم ضد الإسلام وإغرائهم بالتمسك بالنصرانية ، تماما كما فعل النصارى في الأندلس الإسلامية في عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ / ٨٢١ - ٨٥٢م) . وقد ظهر هذا الاتجاه عند النساطرة الفارسيين منذ القرن الأول الهجري ، نستدل على ذلك من رسالة بعثها البطريق النسطورى يشوع ياف الثالث إلى سمعان مطران ريفارد شير ورئيس أساقفة فارس في ذلك القرن يقول له فيها : « أين أبناؤك أيها الأب الذي ثكل أبناءه ؟ أين أهل

مرو العظماء .. واحسرتاه واحسرتاه على هذه الآلاف المؤلفة التي تحمل اسم النصرانية والتي لم يتقدم حتى واحد منها ليهب نفسه ضحية للرب ويريق دماءه في سبيل الدين الحق . وهو يبدي بعد ذلك في رسالته حسرته الكبيرة على ضياع النصرانية من بلاد فارس وكرمان ومرو(٨٥) .

وقد ظهر هذا الحقد الذي أظهره النصارى الفارسيون ضد الإسلام منذ الفتح مباشرة ، إذ يحدثنا الطبري بأن أبا لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة وقاتل الفاروق عمر ابن الخطاب كان نصرانيا من أهل نهاوند على خلاف مايظن البعض من أنه كان مجوسيا . وكان يحمل في نفسه حقدا دفينا على الإسلام وأهله وكان يمسح على رءوس الأطفال الصغار الذين كانوا يؤتى بهم إلى المدينة من سبي نهاوند ويبكي ويقول : « أكل عمر كبدي » وهكذا سوّلت له نفسه وحقده قتل ذلك الخليفة العظيم الذي تحقق فتح معظم فارس في عهده(٨٦) .

وما من شك في أن ماقامت به الحركات الفارسية الهدامة من نشاط ضد الإسلام ودولته ، وما قام به النصارى في فارس من محاولات معوّقة كان له أثره على حركة الإسلام هناك، فبقي الكثير من الفارسيين على دياناتهم السابقة ، واعتنق بعض المسلمين الفارسيين مذاهب قد تميل عن الجادة على أن تيار الحركة الإسلامية المتدفق ، استطاع أن يطوي في زحفه معظم تلك المعوقات في النهاية وأصبح شعب فارس شعبا مسلما ينفعل بالإسلام وتعاليمه ويناهض أعداءه ويعمل على نشره بين الشعوب المجاورة التي لم يكن الإسلام قد دخلها بعد ، متعاونا في ذلك مع جهود الدولة الإسلامية سواء في العهد الأموي أم في العهد العباسي وماتلاهما من عهود .

الهوامش

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة د . حسن إبراهيم وآحرين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة . الطبعة الثالثة ، ١٩٧٠م ص ٦٤ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ / ١٩٧٨م ، ص ٢٥٧ .
الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت – بدون تاريخ ص ٤٩٩ ، ٥٢٣ ،
ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح ، ١ ، الطبعة الأولى بالهند عام ١٣٨٨هـ ، ص ١٩٨ .
المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، الطبعة الثالثة ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٧٨م ، ص ٣٢٣ .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، المجلد التاني دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٤٥٧ .
(٣) الطبري : مصدر سابق ، جـ٣ ، ص ٤٩٩ .
ابن أعثم الكوفي : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ١٩٩ .
(٤) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٤٤ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٣ ، ص ٢٢٦ ، جـ٤ ، ص ١٨٦ ، جـ٦ ، ص ٥٧٢ .
ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ٣ ، ص ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨، حـ٤ ، ص ١٥٥ .
(٦) البلاذري : مصدر سابق : ص ٣٩٤ – ٣٩٨ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٣ ، ص ٥٠٨ ، جـ٤ ، ص ٨٥ ، ١٥٠ .
ابن الأثير : مصدر سابق جـ٢ ، ص ٤٦٠ .
(٧) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٦٥ ، ٢٧٩ .
(٨) توماس أرنولد : مرجع سابق ص ٨٧ – ٩٠ ، ٢٣٥ – ٢٣٦ .
(٩) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣١٢ – ٣١٣ .
ابن أعثم الكوفي : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٧٥ .
(١٠) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣٧٩ .
الطبري : مصدر سابق جـ٣ ، ص ٣٨٣ ، ٥٠٨ ، جـ٤ ، ص ١٤ .
ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٤٦٠ .
(١١) الطبري : مصدر سابق، جـ٣ ص ٣٤٨ – ٣٤٩ ، جـ٤ ص ١١٦ .
(١٢) البلاذري : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٩٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٤٥ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٩٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٤٥ .
(١٣) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٦٨ ، ٤٣٤ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٥٥٩ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ .
ابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ (مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ، ص ١٨٨ .
(١٤) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٣٥٩ .
(١٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي / جـ٢ (دار صادر ، بيروت – بدون تاريخ) ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٣٥٩ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٣ ص ٥١٢ ، ٦١٤ .
ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٥٠٣ .
(١٦) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٩٨ .
(١٧) المصدر نفسه ، ص ٤٥٣ .
(١٨) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٣٧٠ .
الطبري : مصدر سابق حـ٤ ص ١٨٦ ، ٢٠٤ .
ابن أعثم الكوفي ، جـ٢ ص ٨٤ .
ابن الأثير : مصدر سابق جـ٣ ص ٤٨ .
ابن كثير : مصدر سابق ، جـ٩ ص ٢٠٧ ، أرنولد : مرجع سابق ص ٦٩ .
(٢٠) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٥٠٥ .
(٢١) البلاذري : مصدر سابق ، ص ١٨٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٨٢ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٥ ص ٢٨٦ .
ابن الأثير : جـ٣ ص ١٢٨ ، ٤٨٩ .
(٢٢) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
الطبري : مصدر سابق جـ٦ ص ٥١٢ ، ٥٣٢ .
(٢٣) الطبري : مصدر سابق جـ٥ ص ٦٢٣ ، ٦٢٦ ، جـ٦ ص ٧٧ ، ٨٠ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٩٨ – ٤١٢ ، جـ٧ ص ٣٠ – ٣٢ ، ٢٨٥ – ٣٩٣ .
(٢٤) البلاذري : مصدر سابق ، ص ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٨ ، ٣١٩ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
الطبري : مصدر سابق جـ٣ ص ٥٨٨ ، جـ٦ ص ٣٣١ ، ٤٧٦ .
حسن محمود وأحمد الشريف : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٢م ، ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٢٥) اليعقوبي : مصدر سابق ، حـ٢ ص ٣٣٥ .
الطبري مصدر سابق جـ٣ ص ٥٨٨ ، جـ٦ ص ٣٣١ ، ٤٧٦ .
أرنولد ، ص ٢٣٨ .
حسن محمود : مرجع سابق ص ٤٢ .
(٢٦) أرنولد : مرجع سابق ص ٨٧ .
(٢٧) المرجع نفسه ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .
(٢٨) سورة البقرة آية رقم ٢٥٦ .
(٢٩) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٧٩ .
الطبري : مصدر سابق جـ٤ ص ٢٨ ، ٣٤ .
(٣٠) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ٢ ص ٢٠ ، ٢١ .
(٣١) الطبري : مصدر سابق ، جـ٥ ص ٦١١ ، ٦١٢ .
(٣٢) المصدر نفسه ، جـ٦ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٥١ .
(٣٣) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣١٣ ، الطبري : مصدر سابق جـ٦ ص ٥١٠ – ٥١٥ ، ٥٤١ .
ابن أعثم الكوفي : مصدر سابق ، ص ٢٣٩ – ٢٤٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
(٣٤) الطبري : مصدر سابق ، جـ ٦ ص ٥٣٢ ، ٥٣٩ ، ٥٥٩ .
(٣٥) المصدر نفسه ، جـ٤ ص ٢٨ ، ٣٥ ، ٤٩ .
ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٥٢١ .
(٣٦) اليعقوبي : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٢٣٤ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ١٨٠ – ١٨٢ ، ٣٢٠ .
(٣٧) الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ١٨٣ ، ١٨٦ .
(٣٨) اليعقوبي : مصدر سابق جـ٢ ص ٢٢١ .
(٣٩) الطبري : مصدر سابق ، جـ٥ ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٥ .
(٤٠) المصدر نفسه ، جـ٦ ص ٣٣ ، ٤٣ – ٤٥ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٥٩ .
ابن كثير : مصدر سابق ، جـ٨ ص ٣١ ، ٢٧٦ .

(٤١) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٧٠ .
(٤٢) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٣٢ .
(٤٣) الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٢٤٣ .
أرى أن الجزية التي أبقيت على من أسلم هي جزية الأرض لا جزية الرأس وكان لفظ الجزية والخراج يستعملان أحيانا كمترادفين فيقال « جزية الأرض » و« خراج الرأس » وكانت ترد « الجزية » في عهود الصلح أحيانا شاملة لما يدفع من الأهلين في جهة ما عن أرضهم وليست مقصورة على جزية الرأس – انظر عهود الصلح التي أوردها البلاذري والطبري . وعلى العموم فإن إبقاءها كان محدودًا وعولج من قبل العمال التالين ورفعت الجزية عمن أسلم وفقًا للأصل الإسلامي بعدم اجتماع الإسلام والجزية .
(٤٤) المصدر نفسه ، جـ٦ ص ٢٥٧ .
(٤٥) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣٦١ .
(٤٦) الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٣٤٧ .
البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٣٢ .
(٤٧) الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٥٦٩ .
حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٤٨) اليعقوبي : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٣٠٨ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٥٦٢ .
(٤٩) اليعقوبي : مصدر سابق ، جـ٢ص ٣٢٦ ، ٣٣٢ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٧ ص ١٨٠ – ١٩١ ، ٣٠٢ – ٣٠٩ .
المسعودي : مصدر سابق ، جـ ٣ ص ٢١٢ ، ٢١٣ .
(٥٠) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٨ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٩٠ ، ٩١ ، جـ٦ ص ٣١ ، ٤٤ ، ٣٤٧ ، ٥٦٢ .
حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٥١) أحمد أمين : فجر الإسلام ، (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية عشرة ١٩٧٨م ص١٦٩ .
(٥٢) ابن خلدون : المقدمة ، (دار الكتاب اللبناني ، بيروت سنة ١٩٨١م) . ص ٤٧٧ .
(٥٣) الطبري : مصدر سابق ، جـ٣ ص ٥٩٦ .
أحمد أمين : فحر الإسلام (نفس الطبعة ص ١٥٣ – ١٨٥ ، ظهر الإسلام جـ٢ ص ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ .
(٥٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٤٠ ، ١٤٢ ، ٢٠٤ .
(٥٥) المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ ، ضحى الإسلام جـ٢ (الطبعة العاشرة ، بيروت) ص ١٧٦ ، ١٧٧ .
(٥٦) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ٢ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠٤ – ٣٠٨ .
(٥٧) المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٣٢٨ ، ٣٣٠ .
(٥٨) المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٢٩٧ ، ٣٠٦ – ٣٠٨ .
(٥٩) ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح ، جـ١ ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٦٠) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٧٩ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٣ ص ٥٥٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ .
(٦١) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٦٥ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٧٤ – ٧٨ ، ٨٣ – ٨٦ .
(٦٢) المصدر نفسه ، جـ٤ ص ٩٠ ، جـ٥ ص ٦١١ ، ٦١٢ .
ابن الأثير : مصدر سابق جـ٢ ص ٥٥٢ ، انظر ص ١٩ ، ٢٠ من هذا البحث .
(٦٣) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣١٠ .
(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٣٢٤ – ٣٢٦ .
(٦٦) الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٣٨١ .
(٦٧) المصدر نفسه ، جـ٦ ص ٣٥١ .
(٦٨) أرنولد : مصدر سابق ، ص ١٠٣ – ١٠٥ .
(٦٩) الطبري : مصادر سابقة ، جـ٨ ، ص ٢٣٠ ، ٢٣٣ .
ابن الأثير : جـ٥ ص ٢٤٥ .
محمد الحضري : الدولة العباسية (المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٧٠م) ص ١١١ – ١١٣ .
(٧٠) الطبري : مصدر سابق ، جـ٨ ص ٣٢٠ ، ٤٢٤ ، ٥٢٧ – ٥٢٩ ، ٥٦٦ .
الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .
(٧١) الطبري : مصدر سابق حـ٨ ص ٤٤٥ – ٤٩٥ ، ٥٧٩ .
(٧٢) المصدر نفسه ، جـ٩ ص ٥١٤ .
محمد الحصري : مرجع سابق ص ٣١٠ .
أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .
(٧٣) البلاذري: مصدر سابق، جـ٩ ص ٢٧١ – ٢٧٦، ٤٠٦، ٤٠٧، جـ١٠ ص ١٤٩، جـ١١ ص ٣٥٣ – ٣٥٥ .
محمد الخضري : مرجع سابق ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣٧٢ – ٣٧٨ .
أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(٧٤) أرنولد : المرجع نفسه ، ص ١٠٣ – ١٠٦ .
(٧٥) المرجع نفسه ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٧٦) الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٢٠٠ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ .
(٧٧) المصدر نفسه ، جـ٥ ص ٦٤ ، ١٣٧ ، ٥٤٦ .
(٧٨) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣٦١ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٣٨١ .
(٧٩) المصدر نفسه ، جـ٦ ، ص ٥٥٩ .
(٨٠) المصدر نفسه ، جـ٦ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٣١٧ .
(٨١) أحمد أمين : فجر الإسلام مرجع سابق ، ص ٢٧٧ .
(٨٢) المرجع نفسه ، ص ٢٧٧ .
(٨٣) أحمد أمين : فجر الإسلام مرجع سابق ، ص ٢٧٩ .
(٨٤) الطبري : مصدر سابق ، جـ٧ ص ٤٩٥ ، ٥٠٥ – ٥٠٨ ، حـ٨ ص ٢٩ – ٣٢ ، ٥٥٦ ، جـ٩ ص ١١ – ١٧ ، ٢٣ – ٥٥ .
المسعودي : مصدر سانق ، جـ٣ ص ٤٤٢ ، ٤٦٧ – ٤٧١ .
ابن كثير : مصدر سابق ، جـ١٠ ص ٢٨١ – ٢٨٣ .
أحمد أمين : فجر الإسلام مرجع سابق ص ١٠٥ – ١١٠ .
حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي حـ٢ (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة التاسعة سنة ١٩٨٠م) ص ١٠٤ – ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨ .
(٨٥) أرنولد : مرجع سابق ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(٨٦) الطبري : مصدر سابق ، جـ٤ ص ١٣٦ ، ١٩٠ .
ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ٣ ص ١٦ ، ٤٩ .

مراجع أخرى مختارة :

أبري . ا . ج :
تراث فارس : ترجمة د. محمد كفافي وزملائه . دار أحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٩ .
بطرشوفسكى :
الإسلام فى إيران . ترجمة د. السباعي محمد السباعي . القاهرة ١٩٨٢م .
حامد غنيم أبو سعيد :
انتشار الإسلام حول بحر قزوين . القاهرة ١٩٧٤م .

انتشار الإسلام في أفغانستان

لم يعرف القطر الذي يسمى الآن بأفغانستان بهذا الاسم إلّا منذ القرن الثاني عشر الهجري / منتصف القرن الثامن عشر للميلاد ، حينما استتبت السيادة فيه للسلالة العرقية الأفغانية ، وكان من قبل أقاليم مختلفة تحمل تسميات متمايزة ليس بينها وحدة سياسية محددة ، ولا يربطها رباط يميزها من حيث السلالة العرقية واللغة[١] . ولذلك فإننا نستهل دراستها بإلقاء بعض الضوء على هذه الأقاليم وعلى الشعوب والقبائل التي كانت تسكنها والتي تكون منها الشعب الأفغاني ، ثم نتحدث بعد ذلك عن انتشار الإسلام بين هذه القبائل وكيف وحّدها في دولة واحدة في العصور الإسلامية المبكرة أخذت على عاتقها استكمال الحركة الإسلامية في تلك البلاد ثم دفعها إلى بلاد الهند المجاورة .

الأقاليم والسكان :

فمن الناحية الجغرافية تمثل أفغانستان الجزء الشمالي الشرقي من الهضبة الفارسية الكبيرة وتقسمها جبال هندكوش إلى قسمين ، شمالي وجنوبي ، وينتهي القسم الشمالي إلى إقليم وسط آسيا ويمر به طريق الحرير الممتد من الصين إلى فارس،ولذلك كثرت فيه العناصر التركية ، وكان يسمى باسم باكتريا Bactria التي عرفت عند العرب باسم بلخ[٢] . وكان هذا القسم يمتد غربا فيشمل جزءا كبيرا مما كان يعرف بإقليم خراسان ، ولذلك ظن البعض أن خراسان هي ما يعرف اليوم بأفغانستان ، ساعدهم على هذا الظن أنه في العصور الإسلامية الأولى وقبل أن تظهر الدول الإسلامية المستقلة في أفغانستان كان القسم الشمالي لأفغانستان بما فيه من مدن وأقاليم مثل هراة وبلخ والطالقان ، والجوزجان وطخارستان يدخل تحت ولاية حاكم خراسان في عهود الخلافة الإسلامية ، وهذه الأقاليم تقع الآن ضمن دولة أفغانستان . وكان المسلمون قد فتحوها حتى يتمكنوا من تطويق بلاد ماوراء النهر من ناحية الجنوب وحتى يفصلوا بين الأتراك الغربيين والشرقيين وحتى

يفصلوا أيضا بين الأفغان جنوب جبال هندكوش وبين الأتراك والأفغان في شمالها . وحتى يحققوا هذه الأهداف ألحقوا معظم الجزء الشمالي لأفغانستان بولاية خراسان .

أما القسم الجنوبي من أفغانستان والذي يقع جنوبي جبال هندكوش ، فقد كان يشمل أقاليم كثيرة مثل سجستان وقندهار وكابل وزابلستان ونورستان وباميان ورجستان وغزنة ولم تكن هذه الأقاليم تابعة لولاية خراسان المعروفة في تاريخ الخلافة الإسلامية في يوم من الأيام(٣) ، وكانت تسمى أريانا Aryana نسبة إلى الشعب الآرى ، وبها تقع جبال سليمان التي هي أقدم موطن للسلالة العرقية الأفغانية(٤) . وقد اتجهت الثقافة الهندية والديانة البوذية إلى أريانا وأهلها وانتشرت فيها البوذية عندما اعتنقها أحد ملوكها في القرن الثالث قبل الميلاد حتى صارت معقلا للديانة البوذية إلى القرن التاسع الميلادى(٥) .

وعند منتصف القرن السابع للميلاد استطاعت أسرة تانج Tang الصينية أن تفرض نفوذها على أفغانستان التي كانت تتكون حينذاك من ست عشرة مملكة صغيرة في شمالى جبال هندكوش وجنوبها ، وظلت هذه الممالك خاضعة للصينيين حتى جاء الإسلام . وقد تمكن المسلمون من فتح هذه البلاد تدريجيا منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي تحقق في عهده فتح كابل وهراة وبلخ عام ٣٠هـ / ٦٥٠م(٦) .

هذا عن أفغانستان وتكوينها وأهم أقاليمها ولمحة من تاريخها ودياناتها قبل الإسلام ، أما كلمة الأفغان ذاتها فطبيعي أنها أقدم بكثير من كلمة أفغانستان ، وقد وردت الإشارة إلى كلمة الأفغان عند الفلكي الهندي (قرهامهرا) في أوائل القرن السادس للميلاد في كتابه (برهات – سمهيتا) ، وقد عبر عنها بكلمة أفاجانا Avagana(٧) .

وأقدم مصنف إسلامي ذكر كلمة أفغان هو كتاب « حدود العالم » وذلك في عام ٣٧٢هـ / ٩٨٢م وتلاه كتاب « تاريخ يميني » للعتبي(٨) . ثم كان كتاب البيروني الذي تحدث عن مختلف القبائل الأفغانية قائلا إنها تعيش في جبال الهند على الحدود الغربية ، مشيرا بذلك إلى جبال سليمان التي تعتبر أقدم موطن معروف للأفغان(٩) .

ومن أهم مجموعات القبائل الأفغانية مجموعة البشتو وتضم معظم العنصر الأفغاني وتعيش في الولايات الشرقية والجنوبية الشرقية من أفغانستان ، وكذلك في هراة

وسجستان ولا زالت لغة البشتو هي لغة الحديث في معظم أفغانستان حتى الآن ، وهي لغة فارسية في أصلها وتركيبها ، وإن كانت قد أخذت كثيرا من الهندية الآرية[١٠] . ومن مجموعات السكان الأخرى التاجيك الذين ينتمون إلى الجنس القوقازي ، وهم من أصل فارسي ويقطنون السهول الزراعية الخصبة في غرب أفغانستان ويتكلمون الفارسية ولذلك فهم امتداد مباشر لفرس بلاد فارس[١١] . وهناك أيضا قبائل الأوزبك والتركمان والقرغيز وهذه كلها ذات أصول تركية استقرت واستقرمعها بعض الجماعات ذات الأصول المغولية في شمالي أفغانستان ويكونون جزءا هاما من مجموع السكان[١٢] .

وعلى ذلك فقد كانت البلاد التي تسمي بأفغانستان الآن تتكون عند الفتح الإسلامي لها من أقاليم تمثل وحدات سياسية متعددة ليس بينها وحدة سياسية ومن شعوب وقبائل مختلفة من الناحية العرقية واللغوية ، كما أن طبيعتها الجغرافية تجعل من الصعب القيام بغزوها أو فتحها بسهولة وبسرعة . فكثرة الأنهار الموجودة بها وكثرة فروعها ، وجبال هندكوش وغيرها من الجبال ، واتصال القسم الشمالي من البلاد بمواطن الترك في تركستان ، واتصال القسم الجنوبي بمواطن الهنود في السند والهند ، واحتمال مساعدة هذه الشعوب للسكان في أفغانستان ضد الفتح الإسلامي ، كل ذلك جعل من فتح تلك البلاد قصة متعددة الفصول . و لم يستقر الإسلام فيها تماما ويشملها شمالا وجنوبا إلّا في منتصف القرن الرابع للهجرة في عهد الغزنويين . ففي عهدهم ظهرت دولة إسلامية في أفغانستان هي الدولة الغزنوية ، وأصبح ذلك القطر قطرا إسلاميا خالصا .

فكيف تم هذا التطور في تاريخ الإسلام في أفغانستان ؟ وما هي العوامل التي أدّت إلى ذلك ؟

مراحل الفتح الإسلامي لبلاد الأفغان :

لاشك أن احتكاك تلك البلاد بالإسلام وانتشاره بها جاء نتيجة عوامل عديدة . من هذه العوامل تتابع الفتح الإسلامي لكثير من أقاليم أفغانستان التي كانت تخضع في ذلك الوقت لما كان يسمى بخراسان . وقد سبقت الإشارة إلى أن بعض المدن الهامة

في القسم الشمالي من أفغانستان مثل بلخ وهراة كانت تخضع لوالي خراسان . ولذلك يمكن القول بأن الإسلام قد دخل إلى القسم الشمالي من أفغانستان عبر هذه المدن التي وصل إليها الإسلام منذ عهدالخلفاء الراشدين(١٣) .

أما القسم الجنوبي من أفغانستان فقد دخله الإسلام عن طريق سجستان التي يقع الجزء الأعظم منها حاليا داخل فارس . ولما كانت أفغانستان شمال جبال هندكوش صعبة التضاريس يكثر فيها البرد والجليد ، فقد ركّز المسلمون جهودهم في اقتحام أفغانستان على ناحية سجستان . وكانت زابلستان (غزنة) وكابل تتوسطان أفغانستان وتحيط بهما الجبال والأنهار ، ومن ثم صارت مملكة كابل وعلى رأسها رتبيل معقلا حصينا للمقاومة الأفغانية ضد الفتح الإسلامي ، وكان ملكها يفرض نفوذه في معظم الأحيان على القسم الأوسط والجنوبي من أفغانستان حتى سجستان . واتجهت همة ولاة سجستان المسلمين دائما لغزو كابل وإخضاع ملوكها .

ومن المعروف أن سجستان كانت قد فتحت عام ٣٠هـ / ٦٥٠م على يد عبد الله بن عامر والي البصرة في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وتقدم المسلمون داخل أفغانستان حتى وصلوا إلى بست وزابل وفتحوا مدينة زرنج . وفي عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١ – ٦٠هـ / ٦٦١ – ٦٧٩م) ، دخلت جيوش المسلمين كابل وفتحت خواش وقوزان ورزان وزابلستان (غزنة) . ولكن رتبيل ملك كابل تمكن من تجميع قواته وتغلب على تلك المناطق ثم صالح المسلمين بعد ذلك . على أنه مالبث أن انتهز فرصة الاضطرابات التي أصابت الدولة الإسلامية في عهد يزيد بن معاوية (٦٠ – ٦٤هـ/ ٦٧٩ – ٦٨٣م) وطرد حاكم سجستان . ولم يستتب الأمر للمسلمين في سجستان إلّا في عهد عبد الملك بن مروان(١٤) .

أصبحت سجستان قاعدة إسلامية أخذت جيوش المسلمين تنطلق منها لغزو وسط أفغانستان (زابلستان وكابل) . ولم يتمكن المسلمون في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ / ٦٨٤ – ٧٠٥م) من غزو كابل بسبب طبيعة الأرض الجبلية التي لم يألفوها من قبل واستطاعوا فحسب إحكام سيطرتهم على أطراف أفغانستان أو على المدن

التي تقع في شمالها وغربها وجنوبها مثل بلخ وهراة وسجستان . وكان ملوك كابل يتبعون مع المسلمين سياستهم المعهودة ، يعطون الجزية أحيانا ويمنعونها أحيانا أخرى[١٥] . وفي عهد أبي جعفر المنصور أرسلت الجيوش العباسية إلى كابل عام ١٥٢هـ / ٧٦٩م ، فاضطر ملكها (ناونز) إلى الاستسلام وأتى إلى بغداد في صحبة خمسة آلاف من جنده « فأكرمه المنصور وفرض له وقوّده » أي جعله قائدا أو حاكما لبلاده . وظل العباسيون بعد ذلك يفرضون نفوذهم على سجستان وسائر ماغلب عليه الإسلام من قبل حتى كان عصر المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) حيث تم فتح كابل واعتنق ملكها الإسلام وأعلن الطاعة ودخل عامل المأمون كابل ووصل إليها البريد[١٦] .

وعلى الرغم من ذلك فليس هناك ما يؤكد أن ملوك كابل الذين تتابعوا على حكمها بعد ذلك كانوا مسلمين ، فعندما أسس يعقوب بن الليث الصفار الدولة الصفارية في سجستان وأفغانستان وكرمان وفارس (٢٥٤ - ٢٩٠هـ / ٨٦٨ - ٩٠٣م) ومدّ فتوحاته إلى كابل عام ٢٥٨هـ / ٨٧١م ، وجد حاكم هذه المدينة وثنيا . ولكن تحت حكم الصفاريين ، أصبحت كابل وبقية أفغانستان بلدا إسلاميا خالصا لأول مرة ، وتوطد فيها الإسلام بعد ذلك في عهد الغزنويين (٣٥١ - ٥٨٢هـ / ٩٦٢ - ١١٨٦م)[١٧] .

وهكذا ظل المسلمون طوال ثلاثة قرون من الزمان يبذلون الجهود المتتابعة لفتح كابل ونشر الإسلام فيها إذ كانت تمثل عصب المقاومة ضد الفتح الإسلامي لأفغانستان ، وتمكنت من الصمود مدة أطول بكثير من سائر الولايات الإسلامية الشرقية ، حتى خضعت في النهاية وأصبحت قطرا إسلاميا ودانت سائر بلاد أفغانستان بالإسلام[١٨] .

وإذا كان ملوك كابل قد اعتنقوا الإسلام في وقت متأخر إلّا أن كثيرا من أهل كابل وسائر بلاد أفغانستان كانوا قد اعتنقوه منذ عصر الفتوحات الإسلامية الأولى . ذلك أن بعض أقاليم أفغانستان ومدنها كانت خاضعة للدولة الإسلامية منذ القرن الأول الهجري كما أشرنا من قبل . ومن أهم هذه المدن مدينة بلخ التي كانت مدخلا لأفغانستان من ناحية الشمال ، وإقليم سجستان الذي كان مدخلا لها من ناحية الجنوب ، ومدينة هراة التي كانت مدخلا لها من ناحية الشرق . وكان الإسلام يتغلغل في بطء من خلال هذه المنافذ

الثلاثة حتى انتشر بين السكان في مملكة كابل البوذية ، وسكن هناك بعض العرب الذين كانوا على صلة بملكها رتبيل وقدموا له النصح حينما فرّ إليه ابن الأشعث مهزوما من الحجاج بن يوسف الثقفي(١٩) .

واتخذ المسلمون من مدينة بلخ عاصمة لخراسان وماوراء النهر عام ١١٨هـ / ٧٣٦م عندما نقل إليها أسد بن عبد الله القسرى الدواوين والإدارات الحكومية واستقر بها وغزا منها إقليم طخارستان وفتحه ووجد في أحد قلاعه قوما من العرب من بني بزرى التغلبيين ، مما يدل على أن العرب كانوا قد انتشروا وأقاموا في أقاليم الأطراف بأفغانستان(٢٠) . كذلك كان كثير من العرب الذين كانوا محل غضب أولي الأمر في العهود الأموية أو العباسية يلوذون بتلك البلاد النائية ويتخذون منها مأوى يعتصمون به . ومن ذلك آل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذين هربوا إلى قندبيل بعد مقتل زعيمهم يزيد بالعراق عام ١٠٢هـ / ٧٢٠م . وقد واصل اثنان منهم السير إلى رتبيل فرارا من المذبحة التي أجراها لهم حاكم قندبيل من قبل الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك(٢١) .

ولاشك أن إقامة العرب في كثير من أقاليم أفغانستان المفتوحة وغير المفتوحة ، وفرار كثير من العرب إلى رتبيل وغيره خوفا من تنكيل الخلفاء بهم ، قد أدّى إلى تعريف الناس بالإسلام وإنتشاره بينهم ، حتى أننا نجد من يشير إلى أن كابل دخلها الإسلام قبل فتحها . وقبل أن تصبح مدينة إسلامية(٢٢) .

وكانت طبيعة الإسلام من عوامل انتشاره في بلاد أفغانستان ، فقد أدت سماحة الإسلام وامتناع دعاته وحكامه من حمل الناس على اعتناقه كرها أو جبرا إلى إعتناق الأفغان وغيرهم من القبائل الأخرى التي تسكن أفغانستان الإسلام نتيجة اقتناع ، حتى أن جمال الدين الأفغاني قد قرّر أنه لا يزال يوجد في أفغانستان في زمانه كثير من عبدة الأوثان ، ولهم بها معابد تسمى « درمال » ولهم خارج مدينة كابل محرقة يحرقون فيها جثث موتاهم كما تقضي بذلك ديانتهم(٢٣) .

كذلك انتشرت بين الأفغان من قبل عقيدة « الأوسطائية » التي كانت تهدف إلى تحقيق الكمال النوعي والروحي للإنسان وتربيته على أساس من الضمير والحق . وكان

أصحابها يعتقدون في النشأة الأخرى وما يرتبط بها من فكرة الصراط والميزان والحساب والجنة والنار . وسمع الأفغان بهذه الأفكار في دين الإسلام ، فأحسنوا استقباله واعتنقوه عن اقتناع في سهولة ويسر . وقد رسخت أقدامهم فيه واشتد تمسكهم بتعاليمه وما لبث أن برز بينهم أئمة في علوم الدين واللغة العربية ومنهم من كان مرجعا في التفسير والحديث وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد حتى القرن الرابع الهجري[٢٤] .

وقد خلص الإسلام الأفغان من الصراع الطويل الذي كان قائما بين العقيدة الأوسطائية وبين الديانتين البوذية والبرهمية ، كما خلصهم أيضا من تلك الثقافات التي كانت تتبع هذه المذاهب والأفكار أو ترتبط بالسلالات العرقية المتباينة والتي كانت تسيطر على أقاليم أفغانستان . فقد كانت الثقافة الهندية تسيطر على الأقاليم الجنوبية ، والثقافة التركية على الأقاليم الشمالية ، والثقافة الفارسية على الأقاليم الغربية[٢٥] . كذلك رأى سكان أفغانستان في حملة هذا الدين الجديد وفي أخلاقهم وعاداتهم ما لم يكن غريبا عليهم . فقد كانوا يشاركونهم في كثير من الصفات والسجايا الخلقية والشخصية مما دفعهم إلى الإيمان بهذا الدين وحمل رايته إلى غيرهم من الشعوب التي كانت لاتزال على الوثنية كالهنود والترك[٢٦] .

انتشار الإسلام فى العهد الأموى وبداية العهد العباسي :

كانت الدولة الإسلامية تعين على انتشار الإسلام بين سكان أفغانستان بإرسال الدعاة إلى تلك الأقاليم التي تم فتحها . وكان الولاة ملزمين ببذل كل جهد ممكن في الدعوة إلى الإسلام إلى جانب العمل على التمكين للفتح وتأمينه في البلاد المجاورة ، ومن قصرت جهوده في ذلك كان مصيره العزل . وقد رحل كثير من الأفغان إلى بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز منذ عهد الخلفاء الراشدين ليتعلموا علوم الإسلام ، وكان بعضهم يفضل الإقامة في تلك البلاد وبعضهم يعود إلى بلاده ليعلم أهله ماتعلمه وينشر بينهم الإسلام[٢٧] .

كذلك كانت الدولة الإسلامية تسقط الجزية والخراج عمن أسلم وتدفق سكان أفغانستان بالآلاف على الدعاة يعلنون اعتناق الإسلام فشكا عمال الخلافة على خراسان

والتي كان يتبعها بعض أقاليم أفغانستان مثل طخارستان وهراة وسجستان في بعض الأحيان ، من أن الخراج قد انكسر بإسلام الناس . ولكن كانت سياسة الخلافة بوجه عام – مع اعتبار سياسة الحجاج القمعية مجرد استثناء محدود من قاعدة عامة – هى التمسك بتطبيق مبادئ الإسلام ، كما أنها كانت تكتفى من ملوك أفغانستان بالصلح ودفع الجزية إذا مارفضوا الدخول في الإسلام . ونتج عن ذلك أن دخل نيزك ملك طخارستان في الإسلام أثناء غزو قتيبة بن مسلم الباهلي لتلك البلاد عام ٨٧هـ / ٧٠٥م . وقام نيزك بمساعدة قتيبة في عبور نهر جيحون وغزو بيكند(٢٨) .

على أن البلاذري يروي أن قتيبة قتل نيزك بطخارستان وصلبه(٢٩) ، ولا ندري هل كان ذلك لارتداد نيزك عن الإسلام أو لخيانته لقتيبة وانضمامه لأعدائه أو للأمرين معا ؟ ولعل السبب الأول هو الأرجح ، يؤيد ذلك أن ملك الطالقان كان قد أسلم على يد قتيبة أيضا ولكنه ارتد فقتله قتيبة وبذلك قطع الطريق على معتنقي الإسلام عن انتهازية وخداع وطمع(٣٠)وبعد ذلك بحوالي عشرين عاما أسلم ملك الفرشستان والذي يسميه ابن كثير نمروذ ملك القرقيسيان ، وهي بلاد جبلية تلي جبال الطالقان ، وذلك عام ١٠٧هـ / ٧٢٥م عند غزو أسد بن عبد الله القسرى والي خراسان لتلك البلاد(٣١) .

ويبدو أن الإسلام انتشر بين معظم سكان هذه الأقاليم الأفغانية التي أسلم ملوكها ، وانفعلت البلاد بالإسلام انفعالا قويا منذ وقت مبكر ، يتبين ذلك من احتضانها للحركات الثورية مثل ثورة الحارث بن سريج التيمي التي قام بها عام ١١٦هـ / ٧٣٤م ، واستمرت اثنى عشر عاما . وكان هذا الثائر قد انطلق إبتداء من إحدى مناطق أفغانستان الشمالية وهي منطقة الفارياب حيث انطلق منها واستولى على بقية نواحي أفغانستان الشمالية مثل بلخ والجوزجان والطالقان . وكان جنده يبلغون ستين ألفا من عرب وموال ويظاهره دهاقين الجوزجان والفارياب وسهرب ملك الطالقان(٣٢) .

وانطلقت أيضا حركة أستاذ سيس عام ١٥٠هـ / ٧٦٧م من هراة وباذغيس وسجستان . وكانت تلك الحركة تعبر عن القومية الفارسية ورفضها لحكم العرب والمسلمين وانضوى تحت لوائها من أهل تلك البلاد مائة وأربعة عشر ألف مقاتل هزم

بهم عدة قواد لأبي جعفر المنصور . كذلك كانت تلك المناطق أيضا منطلقا للخوارج الذين ناوأوا الدولة العباسية فترة طويلة ، فقد خرج حمزة الشارى بباذغيس عام ١٨٥هـ / ٨٠١م في عهد هارون الرشيد[٣٣] .

وهكذا يبدو من اعتناق ملوك أقاليم أفغانستان الشمالية والغربية الإسلام ، ومن تلك الحركات التي قامت في تلك البلاد أحيانا تعبر عن الرغبة في الاستقلال عن الخلافة مع التمسك بالإسلام تماما ، مدى الانتشار الواسع للإسلام بين سكان هذه الأقاليم . أما بقية أقاليم أفغانستان في الجنوب والشرق والوسط فإن الإسلام لم ينتشر فيها بشكل نهائي إلّا بعد قيام دول إسلامية مستقلة في تلك الأقاليم .

الدول الإسلامية المستقلة : الصفاريون :

سبقت الإشارة إلى قيام دولة الصفاريين في سجستان وسيطرتها على كابل وغزنة وبقية المناطق الموجودة جنوبي جبال هندكوش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى .

وقد أكّد الصفاريون بجهودهم الدائبة حرصهم على نشر الإسلام في كابل التي كانت تعتبر معقل البوذية في أفغانستان،على القضاء على ملوك كابل البوذيين وأرسلوا أصنام المعابد إلى الخليفة العباسي في بغداد إبرازًا لجهود الصفاريين في نشر الإسلام بين أهالي تلك البلاد الذين كان كثير منهم لايزال على الوثنية أو البوذية[٣٤] .

السامانيون :

كان عمر الدولة الصفارية قصيرا وآل حكم أفغانستان إلى السامانيين الذين قضوا على بقايا الصفاريين عام ٢٩٨هـ / ٩١٠م واستولوا على سجستان وبست والرفج في العام التالي وأرسلوا بقايا الأسرة الصفارية إلى هراة[٣٥] . امتاز السامانيون بنشاط حضارى واسع إلّا أن وجهتهم الأساسية تركّزت بصفة خاصة ناحية الشمال والشرق من دولتهم ، أى ناحية تركستان الشرقية وأواسط آسيا حيث قام السامانيون بدور كبير في نشر الإسلام في تلك البلاد وقام مقر حكمهم في بخاري ببلاد ماوراء النهر . بينما لم يبرز دورهم في نشر الإسلام في بلاد أفغانستان التي كانت بعيدة عن قاعدة دولتهم من جهة ، كما كان معظمها قد دان بالإسلام فعلا من جهة أخرى ، ولم يبق إلّا أن يتم توطيد الحكم

الإسلامي وتعميق حركة الإسلام بين السكان وصبغ البلاد بالصبغة الإسلامية النهائية والدائمة ، وإنما تحقق ذلك كله على يد الدولة الغزنوية التي قامت في غزنة في أفغانستان في منتصف القرن الرابع للهجرة[٣٦] .

الغزنـويـون :

كانت الدولة الغزنوية دولة تركية انبثقت عن الدولة السامانية قبل أن تلفظ أنفاسها في بلاد ماوراء النهر ؛ بمعنى أن الذي أقام تلك الدولة في غزنة عناصر من الموالى الأتراك الذين كان السامانيون يستعينون بهم في الإدارة والجيش وحكم الولايات النائية . وقد استعانوا ببعضهم في حكم غزنة منذ عام ٣٥١هـ / ٩٦٢م . ويعتبر سبكتكين التركي الأصل الذي تولى حكمها في الفترة من ٣٦٦ - ٣٨٨هـ / ٩٧٦م هو المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية في أفغانستان[٣٧] .

وقد تمكن سبكتكين من توسيع رقعة ولايته فاستولى على كابل وما يحيط بها من الأقاليم الجبلية ، كما تمكن ابنه محمود الغزنوي الذي خلفه في حكم أفغانستان (٣٨٨ - ٤٢١هـ / ٩٩٨ - ١٠٣٠م) من أن يخضع قسما من بلاد الغور وخراسان بما فيها من أقاليم أفغانستان الشمالية والغربية (بلخ وهراة وغيرهما) عام ٣٨٩هـ / ٩٩٨م منتهزا فرصة سقوط دولة السامانيين في ذلك العام ، واتخذ لنفسه لقب سلطان ، ولقبه الخليفة القادر بالله العباسي بلقب « يمين الدولة وأمين الملة » . وأخذ السلطان محمود بعد ذلك يوسع ملكه في بقية نواحي أفغانستان ، فاستولى على سجستان عام ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م ثم على بقية بلاد الغور عام ٤٠١هـ / ١٠١٠م ، وكان أهلها لايدينون بالإسلام كما كانوا ينقضّون من بلادهم الجبلية وعرة المسالك التي تقع بين هراة وغزنة فيقطعون الطريق ويخيفون الصادر والوارد ، فأوقع بهم محمود الغزنوي وأخضعهم لسلطانه ونشر الإسلام بينهم وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين[٣٨] .

وبذلك خضعت ماتعرف الآن بأفغانستان للسلطان محمود الغزنوي الذي لم يأل جهدا في تعميق الحركة الإسلامية في تلك البلاد واتخاذها قاعدة لفتوحات إسلامية جديدة في بلاد الهند الوثنية . وقد نجح فعلا في فتح إقليم البنجاب وكشمير ونشر الإسلام

فيهما وأحرق ما فيهما من أصنام واستخلف فيهما من يعلم الناس شرائع الإسلام وتعاليمه مما يدل دلالة مؤكدة على أن أفغانستان في عهده وعهد خلفائه من الغزنويين قد أصبحت قطرا إسلاميا خالصا[٣٩] . وتم نجاح دعوة الإسلام فيها بصفة تامة ونهائية و لم يبق من أهلها على الوثنية إلّا قلة قليلة في نورستان في شمال شرق أفغانستان استمرت على وثنيتها حتى أيام جمال الدين الأفغاني . على أنها مالبثت أن اعتنقت الإسلام في عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م ، وبذلك أصبح جميع سكان أفغانستان من المسلمين وغالبيتهم العظمى من أهل السنة[٤٠] .

وكما يعتبر قيام الدولة الغزنوية في أفغانستان نجاحا تاما لحركة الإسلام فيها فإنه يقترن أيضا بظهور «الأفغان» كسلالة عرقية متميزة لأول مرة، إذ بدأ المؤرخون الفارسيون وغيرهم يستعملون كلمة أفغان منذ عهد السلطان محمود الغزنوي[٤١]، واتسع مدلول هذا اللفظ ليشمل بالتدريج كل سكان البلاد التي تعرف الآن بأفغانستان ، فقد حكم الغزنويون تلك البلاد فترة طويلة تزيد عن قرنين من الزمان وجعلوها مقرا لدولتهم الواسعة التي امتدت من كردستان إلى كشمير ومن نهر جيحون إلى نهر الجانج[٤٢] . وهكذا كان الإسلام هو الذي أبرز هذه الإمبراطورية إلى الوجود ، كما أنه قد صهر هذا الشعب بكل فصائله وقبائله وسلالاته العرقية المتباينة في بوتقة الإسلام ليخرج منها شعبا موحدا هو شعب أفغانستان المسلم .

نجاح حركة انتشار الإسلام :

ومن المظاهر الأخرى التي تدل على نجاح حركة الإسلام في أفغانستان انفعال هذا الشعب المسلم بالتقاليد ومظاهر الحضارة انفعالا قويا ، والارتباط برباط العروبة والإسلام ربطا قويا محكما . فقد انبرى يقرر أن إسلامه يرجع إلى عهد النبي ﷺ نفسه ، فقد أورد السيد جمال الدين الأفغاني رواية تذكر أن وفدا أفغانيا وصل إلى المدينة في عهد الرسول ﷺ . وقد أسلم أعضاؤه وبعث معهم الرسول ﷺ عند عودتهم جماعة من أهل المدينة للدعوة إلى الإسلام في أفغانستان[٤٣] . وقد أورد (لونكويرت ديمز) وزميله (كب) هذه الرواية على اختلاف في بعض تفاصيلها[٤٤] ، كما أشار إليها أيضاتوماس أرنولد[٤٥] .

وعلى الرغم من أن هذه القصة تعد من الروايات القبلية التي راجت بين الأفغان وإن كانت بعيدة قطعا عن الصدق التاريخي ، فإنها تدل على حرص الأفغان على تقرير سبقهم في الإسلام وإرجاع ذلك إلى عهد النبي ﷺ نفسه والقول بأن الإسلام قد انتشر في بلادهم على يد بعض الصحابة الأجلاء ، وهو شعور لايزال موجودا في كثير من بلدان العالم الإسلامي المختلفة سواء في إفريقية أو في آسيا ، إنما يدل على مبلغ عمق حركة الإسلام في نفوس أهل هذه البلدان .

وقد ارتبط بهذه الروايات القبلية الأفغانية أيضا انتساب كثير من زعماء الأفغان وأشرافهم لأصل عربي شريف . ومن ذلك ماتدعيه قبائل شيرانى ، وكاكر ، وكراتي ، ودوائي ، وترين ، وميانة ، وبطني ، وكندابور ، وأسترانة ، من أنها تنحدر من أصل عربي شريف ، كما تدعي أيضا قبائل البنكش أنها من نسل قريش[٤٦] . كذلك نجد الألقاب التي كانت – ولاتزال – تطلق على الأشخاص الذين يتمتعون بمركز قيادي أو ديني أو سياسي كبير ترتبط أيضا بالانتساب للخلفاء الراشدين وللنبي عليه الصلاة والسلام نفسه . من ذلك أن لقب (مير أو أمير) يعني الانتساب لعلي ين أبي طالب من جهة الأم ، ولقب (حضرت) والذي يطلق على علماء الدين الكبار – يدل على الانتساب لعمر بن الخطاب ، أمام من يحمل لقب (خوجه) فهو يشير إلى انتسابه إلى أبي بكر الصديق ولقب (سيد) فيعنى الانتساب للرسول ﷺ أو علي بن أبي طالب[٤٧] .

ومن مظاهر عمق حركة الإسلام في أفغانستان تأثر لغاتها – لغة البشتو وغيرها من اللغات التي لاتزال تعيش في أفغانستان – إلى حد كبير باللغة العربية . ويكفي في هذا الصدد أن لغة البشتو ترسم بالحروف العربية منذ القرن الثالث الهجري وإن كانت حروفها تختلف عن الحروف الفارسية والعربية برسم دوائر صغيرة تتصل ببعض الحروف من أسفل وتؤثر في نطقها . وقد دخلت اللغة العربية أفغانستان مع الدين الإسلامي أي في خلال القرنين الأول والثاني للهجرة وأصبحت اللغة الرسمية للبلاد حتى القرن الرابع الهجري ، كما أنها دخلت في كيان اللغتين الوطنيتين : البشتوية والفارسية الأفغانية بنسبة كبيرة ، وظلت أفغانستان موطنا للغة العربية والأدب العربي حتى غارات التتار في القرن السابع الهجري /

الثالث عشر الميلادي . وهي تدرس الآن في جميع مدارس القرى وغيرها من المدارس ذات الصبغة الدينية(٤٨) .

وقد أدّى التحام الأفغان بالإسلام وحضارته وثقافته أن نبغ منهم عدد كبير في العلوم الإسلامية المختلفة . ففي اللغة العربية وآدابها ظهر العلامة الزمخشري وأبي يعقوب السكاكي والتفتازاني وعبد الرحمن الجاسر وبشار بن برد الطخاري وأبو عطاء السندى والصاحب بن عباد الطالقاني وأبو الفتح البستي الشاعر وأبو منصور محمد بن أحمد الأزهري صاحب التهذيب في اللغة ، وقد أسدى السجاوندي وهو أحد هؤلاء الأعلام خدمة جليلة للعربية وهي تنقيط حروف القرآن الكريم(٤٩) .

كذلك نبغ كثير من الأفغان في العلوم الإسلامية مثل الفقه والحديث والتفسير وعلم الفلسفة والكلام كما نبغوا في الطب والتاريخ والجغرافيا . وقد أورد صاحب كتاب « أفغانستان بين الأمس واليوم » قوائم غنية لعدد كبير من العلماء الأفغان الذين نبغوا في هذه العلوم . ويكفي أن الإمام أبا حنيفة النعمان (٨٠ - ١٥٠هـ / ٦٩٩ - ٧٦٧م) يعود أصله إلى إحدى ضواحي كابل ، والخطاب أبو سليمان البستي صاحب معالم السنن وغريب الحديث من بست وتدل ألقاب كثير من علماء المسلمين على أنهم كانوا من بلاد الأفغان مثل الفارابي (ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م) الفيلسوف الشهير ، والبيروني (ت ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) صاحب الكتب الشهيرة ومن بينها كتابه الفذ في تاريخ الهند ومعتقداتها وثقافتها « تحقيق ماللهند من مقولة » والجوزجاني الفيلسوف ، ونصير الدين الطوسي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) الفيلسوف ، وإبراهيم بن أدهم البلخي المتصوف (ت ١٦١هـ / ٧٧٧م) وجلال الدين البلخي المشهور بجلال الدين بن الرومي المتصوف (ت ٥٧٢هـ / ١٢٨٣م) والهروي صاحب تراجم الصوفية . وما هذه الأسماء إلّا مجرد أمثلة نكتفى بذكرها في هذا الصدد وهي تدل دلالة واضحة على قوة انفعال الأفغان بالإسلام ورسوخ أقدامهم في علومه حتى صاروا أعلاما في بعضها(٥٠) .

وقد رحل كثير من هؤلاء العلماء وغيرهم في طلب العلم إلى مواطنه الأصلية في بلاد العراق والشام والحجاز ومصر وسمعوا من كبار الصحابة والتابعين ، ولاشك أن كثيرا

منهم عادوا إلى أفغانستان ونشروا ماتعلموه ، كما رحل إلى تلك البلاد كثير من علماء المسلمين من غير الأفغان يشدهم إليها تشجيع الغزنويين وإغداقهم على العلماء والأدباء والمؤرخين . وكان وزراء الغزنويين لايقلّون عن سلاطينهم في هذه الناحية فقد شجعوا الكتابة باللغة العربية حتى أن أبا القاسم أحمد بن حسن وزير السلطان محمود الغزنوي أمر الكتاب في بلاط غزنة بأن يكتبوا رسائلهم بالعربية إلّا في حين يكون من ترسل إليهم تلك الرسائل عاجزين عن فهمها . كما أقام الغزنويون أروع المساجد وأعظمها لإقامة الصلاة واتخاذها مدارس لتعليم علوم الدين المختلفة حتى أصبحت غزنة مركزا للعلوم والآداب ونافست بغداد وأصبحت ملتقى العلماء والمفكرين من شتى أنحاء العالم الإسلامي ، مما يدل دلالة واضحة على مدى رسوخ قدم الإسلام في البلاد وتعمقه في نفوس الأفغان منذ ذلك الحين وحتى الآن[٥١] .

الهـوامـش

(١) ديمز (لونكويرث) ، كب : أفغانستان (دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٠م ، ص ١٥ .
محمد (أبو العينين فهمي) : أفغانستان بين الأمس واليوم ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٩م ، ص ٢٨ .
(٢) ديمز : المرجع نفسه ، ص ١٦ ، ١٨ .
محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ص ٢٨ ، ٣٣ ، ٨٦ .
(٣) محمد (أبو العينين) : المرجع نفسه ، ص ٨ .
(٤) ديمز : مرجع سابق ، ص ٤٥
(٥) محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ص ٣٣ .
(٦) البلاذري : فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٨م ، ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ .
محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٧) ديمز : مرجع سابق ، ص ٤٤ .
محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ، ص ٢٨ .
(٨) العتبي : تاريخ يميني جـ٢ (القاهرة ١٢٨٦هـ) ص ٨٤ .
(٩) البيروني : كتاب الهند ط (طبعة سخاو) ص ١ ، ٢٠٨ ، ٢٩٩ .
(١٠) ديمز : مرجع سابق ص ٦٢ — ٦٥ .
محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ص ١١٧ .
(١١) ديمز : المرجع نفسه ، ص ٧٢ ، ٧٣ .
محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ص ١١٧ .
(١٢) ديمز : مرجع سابق ، ص ٧٤ — ٧٩ .
محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ص ١١٧ — ١٢٠ .
(١٣) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٨٥ — ٣٩٠ .
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (دار سويداں ، بيروت — بدون تاريخ) جـ٤ ص ٢٤٤ ، جـ٥ ٢٢٩ .
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي حـ٢ (دار صادر ، بيروت . بدون تاريخ) ص ٢١٧ .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٣ (دار صادر ، بيروت ١٩٧٩) ص ١٠٠ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ .
(١٥) البلاذري : مصدر سابق ص ٣٩١ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٣٢٣ ، ٤٦٨ ، جـ٧ ص ٤٠ .
ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح ، جـ٧ (طبع الهند ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨م) .
ابن كثير : البداية والنهاية ، حـ٩ (مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨١) ص ٢٤٤ .
(١٦) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٨ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧٣ .
(١٧) الطبري : مصدر سابق ، جـ٩ ص ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٨٤ ، ٤٧٦ ، ٥٠٢ ، ٥٠٧ ، ٥٢٧ .
توماس أرنولد : تاريخ الدعوة إلى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٠م ص ٢٤٧ .
ديمز : مرجع سابق ص ٩٧ .
(١٨) ديمز ، المرجع نفسه ، ص ١٠٠ .
(١٩) الطبري : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٣٨٩ .
(٢٠) المصدر نفسه ، جـ٧ ص ١٠٩ — ١١١ .
(٢١) المصدر نفسه ، جـ٦ ص ٦٠٢ .

(٢٢) محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ، ص ٩ .
ديمز ، مرجع سابق ، جـ١ ، ص ٧٩ .
(٢٣) الأفغاني (السيد جمال الدين) : تتمة البيان في تاريخ الأفغان (دار الأنصار بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣١٨هـ / ١٩٠١م) ص ١٧٣ .
(٢٤) محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .
(٢٥) المرجع نفسه ، ص ٤٢٠ .
(٢٦) المرجع نفسه ، ص ٤٢١ .
(٢٧) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ٥ ، ص ٥١ .
محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ، ص ١٦ .
(٢٨) اليعقوبي : مصدر سابق ، ص ٤١٠ .
(٢٩)
(٣٠) اليعقوبي : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٢٨٦ .
(٣١) الطبري : مصدر سابق ، جـ٧ ص ٤٠ .
ابن كثير : مصدر سابق ، جـ٩ ص ٢٤٤ .
(٣٢) الطبري : مصدر سابق ، حـ٧ ص ٩٤ – ٩٦ .
(٣٣) المصدر نفسه ، جـ٨ ص ٢٩ – ٣١ ، ٢٧٣ .
(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ ، ٤٧٦ .
محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ، ص ٣٣ .
(٣٥) عصام الدين عبد الرءوف : الدولة الإسلامية المستقلة في الشرق ، دار الفكر العربي بالقاهرة – بدون تاريخ ص ١٢٥ .
أحمد إبراهيم الشريف وحسن محمود : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، دار الفكر العربي بالقاهرة ، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٢ ص ٤٦٦ .
(٣٦) ديمز : مرجع سابق ، ص ١٠٠ .
(٣٧) أحمد الشريف : مرجع سابق ، ص ٤٧١ .
عصام الدين عبد الرءوف ، مرجع سابق ص ١٢٣ .
ديمز : مرجع سابق ص ١٠٠ .
(٣٨) أحمد الشريف : مرجع سابق ص ٤٧٢ ، ٤٧٥ .
(٣٩) لمعرفة المزيد عن فتوحات محمود الغزنوي وخلفائه في بلاد الهند ، انظر أحمد الشريف : مرجع سابق ، ص ٤٧٢ – ٤٧٧ .
عصام الدين عبد الرءوف : مرجع سابق ص ١٢٣ – ١٤١ .
(٤٠) ديمز : مرجع سابق ، ص ٧٩ ، ٨٧ .
(٤١) محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ، ص ٤٢ .
ديمز : مرجع سابق ، ص ١٠١ .
(٤٢) محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ، ص ٤٢ .
(٤٣) الأفغاني : مرجع سابق ، ص ١٧ ، ١٨ .
(٤٤) ديمز : مرجع سابق ، ص ٥٤ .
(٤٥) توماس أرنولد : مرجع سابق ص ٢٤٧ .
(٤٦) ديمز : مرجع سابق ، ص ٦٠ .
(٤٧) محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .
(٤٨) المرجع نفسه ، ص ١٠ ، ١١ ، ٣٧٢ ، ٤٢١ .
(٤٩) نفسه ص ٤٢٣ – ٤٢٤ .
(٥٠) نفسه ص ١٣ – ٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ .
(٥١) أحمد الشريف : مرجع سابق ص ٤٨٠ .
محمد (أبو العينين) : مرجع سابق ص ١٥ – ١٧ ، ٤٢ ، ١٧١ .

انتشار الإسلام في بلاد السند وباكستان

لم يكن العرب قبل الإسلام في جهالة بالسند وشعبها ، فقد كانت بلاد العرب هي المعبر الذي تمرّ به منتجات شبه القارة الهندية بما فيها بلاد السند إلى حوض البحر المتوسط وأوربا . كما أقامت في بلاد العرب قبل الإسلام جاليات سندية كالزط والأساورة والأصاطرة والسيابجة والميد ، وهؤلاء كانوا يعيشون مع القبائل العربية في نواحي شبه الجزيرة العربية ، وخاصة في الأجزاء الشرقية والجنوبية منها . وقد كثر عددهم في البحرين وهجر والدارين وصحار والقطيف ، وكانت لهم علاقة بقبائل عبد القيس من ربيعة وبكر بن وائل ، ولذلك شاركوا المرتدين في تلك النواحي في قتال المسلمين في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه(١) .

وعلى ذلك فالعلاقات بين الشعبين السندي والعربي قديمة ، وقد تطورت هذه العلاقات بعد أن ظهر الإسلام واشترك السنديون مع الفرس في قتال المسلمين . ذلك أن بلاد السند كانت تحت سيطرة فارس الساسانية ، وكانت تمدها بالرجال والسلاح لقتال العرب ، وكان على العرب أن يسدوا هذا المنفذ الذي ينهال منه المدد على فارس ضدهم لاسيما وأنهم لم ينسوا مافعله الزط والسيابجة من أهل السند أثناء حروب الردة ، و لم ينسوا أن جيش رستم قائد جيش الفرس كان يضم عددا كبيرا من الأساورة والسيابجة والزط من أهل السند الذين كان الفرس قد أسروهم أثناء غزوهم لبلادهم من قبل . وكان بعض أهل السند يحاربون مع الفرس ، وكان زعيمهم سياه الأسوارى على مقدمة جيش يزد جرد بعد مقتل رستم في القادسية عام ١٤هـ / ٦٣٥م . وإذ لم ينس العرب ذلك كله ، فقد عزموا في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين على فتح تلك البلاد ونشر الإسلام فيها لتصبح دار إسلام(٢) .

وقد شجع العرب على فتح السند ما كانت تعانيه في أحوالها من سوء ، فمن الناحية السياسية كانت تلك البلاد تعيش قبل الفتح الإسلامي لها عهد فرقة سياسية وحروب

أهلية بين تلك الإمارات التي انقسمت إليها إمبراطورية الهند في ذلك الوقت . فالحروب كانت لاتنتهي بين إمارة قنوج وكشمير والبنغال ودهلى ومالوه والكجرات وبهار والسند وغيرها . كما كانت هذه البلاد تشهد في ذلك الوقت إلى جانب الصراع السياسي تطاحنا دينيا ومذهبيا بين البرهمية (الهندوكية) والبوذية . وقد أسفر هذا التطاحن عن انتصار البراهمة في القرن الثامن للميلاد . ولذلك لم يكن غريبا أن ينحاز البوذيون إلى جانب محمد بن القاسم الثقفي – فاتح بلاد السند – في المعركة الفاصلة انتقاما لما نالهم على يد البراهمة المتسلطين(٣) .

وكانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لا تقل سوءا عن ذلك ، فقد كان المجتمع السندي ينقسم إلى طبقات اجتماعية لاسبيل إلى اقتراب أى واحدة منها من الأخرى وكانت الطبقات الدنيا مثل طبقة المنبوذين وطبقة « التورى » و « الكمار » و « الشون » و « الجندال » في أحط درك من المجتمع الهندوكي ، لايفترقون عن الحيوانات ، وينزلون دائما منزلة العبيد وكان الصراع بين البرهمية والبوذية من العوامل التي أدت إلى زيادة الهوة بين هذه الطبقات الدنيا وبين الطبقات الغنية والأرستقراطية كطبقة البراهمة وهم رجال الدين وطبقة الشترى وهم الجند ، وطبقة البيش وهم التجار ورجال الأعمال . فبانتصار البرهمية على البوذية تدعّمت الامتيازات الاجتماعية والاقتصادية للطبقات الغنية بينما ازدادت الطبقات الدنيا بؤسا وتعاسة . وقد لاحظ هذه الحالة أحد الرحالة الصينيين الذي زار الهند والسند عام ٦٢٩م (حوالى ٨هـ) . وقد نتج عن هذا الصراع الطبقي والديني خراب المدن والحقول وافتقاد الأمن حتى هاجر كثير من أهل السند والهند إلى فارس وبلاد العرب واشتغلوا بالتجارة والزراعة كما انضموا إلى جيوش فارس والمرتدين في حربهما للإسلام والمسلمين كما سبق القول(٤) .

ولايعني تدهور أحوال السند ضعف مقاومة أهله للفتح الإسلامي وإنما لم تكن على النحو الذي كان يمكن أن تكون عليه لو كانت تلك البلاد تعيش في ظل وحدة سياسية وتآلف ديني وازدهار اجتماعي اقتصادي . ولو كانت أحوالها كذلك لربما تأخر فتح هذه البلاد إلى أمد بعيد . ولكن أحوال بلاد السند السيئة فى مختلف المجالات أعانت المسلمين

على الفتح ومكنتهم من إحراز انتصارات هامة ، وإن كانوا قد منوا بهزائم كثيرة سحقت فيها قواتهم سحقا وقتل قوادهم وفنيت فيها جيوش بأكملها ، مما يدل على أن أهل تلك البلاد لم يستسلموا بسهولة ، وأنه لولا شجاعة العرب وقوة عزائمهم وحرصهم على نشر الإسلام كلما استطاعوا ، ولو بجهد جهيد ، لما تحولت تلك البلاد إلى الإسلام ، ولما رأينا دولا إسلامية زاهرة قد قامت فيها واحتضنت الدعوة إلى الإسلام .

فتوح السند :

بدأت الفتوحات الإسلامية لبلاد السند في عهد الفاروق عمر بن الخطاب واستؤنفت في أواخر أيام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عام ٣٩هـ / ٦٥٩م . وقد استمرت غزوات المسلمين لتلك البلاد حتى أيام الوليد بن عبد الملك حينما توجه إليها محمد بن القاسم الثقفي بحملة برية تساندها البحرية الإسلامية ، وسقطت ميناء الديبل (كراتشي الآن) عام ٩٢هـ / ٧١٠م وأصبحت أول مدينة عربية في بلاد السند ، فقد اختط فيها ذلك الفاتح العظيم خططا للعرب وأنزل بها أربعة آلاف منهم ، وبنى لهم مسجدا[٥] .

ثم زحف محمد بن القاسم شمالا وعبر نهر مهران (نهر السند) وهزم داهر ملك السند وقتله وفتح راور عاصمة البلاد ، ثم استولى على برهمناباد والملتان والبيلمان وسرست والكيرج وفرض على أهلها الجزية والخراج[٦] .

وقد أدى مقتل محمد بن القاسم على يد عمال سليمان بن عبد الملك عام ٩٦هـ / ٧١٤م إلى عودة ابن ملك السند إلى العاصمة راور واستردادها . فأخذ الأمويون يقاتلون من جديد لاسترداد السند ، على أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١هـ / ٧١٧ – ٧١٩م) ، آثر سياسة الدعوة إلى الإسلام بتأليف القلوب فأرسل إلى ملوك السند يتألفهم ويدعوهم إلى الإسلام على أن يحتفظوا بسلطانهم كاملا ولهم ماللمسلمين وعليهم ما عليهم ، فاستجاب له الكثيرون منهم « وأسلم جليشه وصصه إبنا داهر ، والملوك ، وتسمّوا بأسماء العرب »[٧] . وأراد الأمويون أن يثبتوا فتوحاتهم في تلك البلاد فبنوا مدينتي المنصورة والمحفوظة لتكون حصنا لهم وملجأ لجيوشهم إذا مااشتعلت ثورة أخرى في وجههم . وقد أدت هذه المدن دورها كاملا في تلك الناحية .

حتى إذا ماجاء العباسيون بنوا بدورهم مدينة البيضاء في إقليم البوقان في عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧هـ / ٨٣٣ – ٨٤١م) ، وتوسعوا في فتوحاتهم شمالا حتى قشمير وجنوبا حتى قندهار ونارند .

واستمرت تلك البلاد على ولائها للدوالة الإسلامية في عهد بني أمية وبني العباس فكانتا ترسلان إليها الولاة والعمال ، حتى كان ضعف الخلافة العباسية واستبداد قواد الترك بها منذ عام ٢٣٤هـ / ٨٣٨م ، فانتهز هذه الفرصة بعض الأمراء العرب وأقاموا دويلات إسلامية في بلاد السند ، كان من أشهرها إمارة المنصورة في الجنوب وإمارة المولتان في الشمال ، واستمرت بلاد السند على هذا الانقسام حتى جاء محمود الغزنوى .

الدولة الغزنوية :

أعاد محمود الغزنوى (٣٨٩ – ٤٢١هـ / ٩٩٩ – ١٠٣٠م) الوحدة لتلك البلاد وضمها لمملكته الواسعة التي كانت غزنة في أفغانستان مركزا لها ، وأضاف إليها منطقة البنحاب وكشمير كاملة . وعندما ضم الغزنويون بلاد السند لدولتهم المترامية كانت تلك البلاد قد دانت بالإسلام تماما وأصبحت بلدًا إسلاميا خالصا[٨] .

حركة انتشار الإسلام :

انتشر الإسلام في بلاد السند – التي تحكمها باكستان المعروفة الآن – نتيجة عدة عوامل منها طبيعة الإسلام نفسه في يسره وسماحته حيث لاتعقيد ولا كهنوت كما هو الحال في الديانات الهندية ، وهو يدعو إلى التسامح مع العقائد الأخرى ولا يحارب إلّا من يناهضه ويعلن الحرب عليه أو يكون حاجزًا بين دعوته ووصولها إلى عامة الناس . وقد تعزز ذلك بما جرى عليه الفاتحون العرب من حسن السياسة والعدالة وتسامحهم مع معتنقي أهل البوذية والبرهمية . وقد تمثلت هذه السياسة في عقود الصلح التي كانوا يعقدونها مع أهل المدن المفتوحة سواء افتحت صلحا أم عنوة وكانت تنص على إعطاء أولئك الأهلين الحرية الدينية مقابل الجزية والخراج . بل بلغ من سماحة فاتح السند محمد بن القاسم الثقفي أن أطلق لهؤلاء حرية تعمير معابدهم وقال لهم « عمروا معابدكم واعبدوا أصنامكم

وعاملوا المسلمين في البيع والشراء واجتهدوا في إصلاحكم وتعاهدوا فقراء البراهمة وأقيموا أعيادكم ومراسمها كما كان آباؤكم يقيمونها وأدّوا تبرعات البراهمة التي تؤدونها من قديم الأيام واسمعوا وأطيعوا لأمرائكم ولكم الأمان »[٩] .

وهكذا أمن ابن القاسم أهل بلاد السند على أموالهم وعلى معابدهم و لم يقم بهدمها وقال « مالبد – وكان المعبد أو الصنم يسمى عند الهنود البد – إلا كنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس »[١٠] . وعلى ذلك اعتبر ابن القاسم البوذيين والمنبوذيين وغيرهم « أهل ذمة » لهم مالأهل الذمة من الحقوق والواجبات في نطاق معاهدات الصلح التي أبرمها معهم[١١] . و لم يقم ابن القاسم بوضع لحوم البقر على أعناق الأصنام في الملتان ليثبت أنها حقيرة لاتنفع ولاتضر كما قال بذلك الأستاذ محمد إسماعيل الندوى ، وإنما فعل ذلك محمد بن القاسم بن المنبه السامي والذي أقام دولته في الملتان عام ٢٧٩هـ / ٨٩٢م أيام خلافة المعتضد بالله العباسي[١٢] . فلم يكن من سياسة محمد بن القاسم الثقفي الاعتداء على الحريات الدينية لأهل السند ، وهو الذي كان يدعو جنده إلى حسن معاملتهم وأذاع منشورا يقول لجنده فيه : « أنصفوا الناس من أنفسكم وإذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية وراعوا في فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه ولا تختلفوا ولاتنازعوا فتشقى بكم البلاد »[١٣] .

وقد نتج عن هذه السياسة أن تعلق أهل السند بابن القاسم وأحبوه وساعدوه في الفتح وقدموا لخيوله العلوفة ، وأخلصوا له ودقوا الطبول للترحيب به ، وأسلم كثير منهم وأسفروا بينه وبين أصحاب المدن التي إستجابت إلى الصلح والأمان ، وانضموا إلى جنده حتى صار في جيشه أربعة آلاف من الزط قاتلوا معه وهذا هو السر في أن كثيرا من مدن السند ونواحيها فتحت صلحا ودون قتال مثل اللبيرون وسربيدس وسدوسان وساوندرى وبسمد والرور والبيلمان وسرست . أما المدن التي فتحت عنوة فلا تزيد عن ثلاث ، وهى مدن الديبل وبرهمناباد والملتان وهذا يدل على مدى الترحيب الذي لقيه محمد بن القاسم أثناء زحفه في بلاد السند[١٤] .

وقد أحس أهل البلاد بعد تمام الفتح بالنقلة الكبيرة التي انتقلوا إليها حيث قضى

الإسلام على الامتياز العنصري والديني والاقتصادي والطبقي مما كان موجودا في بلاد السند قبل الفتح الإسلامي لها ، فاستجاب الكثيرون على الفور لدعوة الإسلام وبخاصة طبقة المنبوذين والبوذيين بعد أن أمنوا على أنفسهم وعلى أموالهم وارتفع شأنهم اجتماعيا واقتصاديا بعد أن كان الهندوس أو البراهمة يستبدون بهم ويتخذونهم عبيدًا لهم(١٥) .

ومما أعان على انتشار الإسلام في بلاد السند وسائر باكستان سياسة العرب في الإبقاء على النظم الإدارية المحلية وفي استعانتهم بالمعاهدين من أهل السند في وظائف الدولة تماما كما فعل العرب في كل قطر دخلوه . وإذا كان الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز قد أقر ملوك السند على ممالكهم فإنه من باب أولى قد أبقى حكام المدن والقرى وسائر الموظفين محتفظين بمراكزهم ووظائفهم يؤيد ذلك أن عقود الصلح التي تمت بين المسلمين وبين أهل السند والتي أشار إليها البلاذرى ، تقر الحكام المحليين على مابيدهم من سلطات إقليمية ، مما حدا بهم في النهاية إلى الدخول في الإسلام واتخذوا ألقابا عربية بعد أن اتضح لهم ابتعاد الدولة الإسلامية عن أى تعنت في معاملتهم وحرصها على مصالحتهم وإبقائهم في أعمالهم(١٦) .

وتأكد نجاح حركة الإسلام في بلاد السند بقيام الدولة الغزنوية منذ عهد السلطان محمود الغزنوى واتباع الغزنويين نفس سياسة حكام السند من العرب . ولقد إستخدموا أهل السند والهند على نطاق واسع في وظائف الدولة وفي مناصبها العليا مثل مناصب الوزارة والكتابة والقيادة ، هذا إلى جانب الوظائف الإدارية العادية الأقل أهمية حتى أصبحت الحكومات الغزنوية تركية الرئاسة هندية فيما عدا ذلك(١٧) .

وإلى جانب ماسلف ، ثمة عامل آخر كان له أثره الكبير في نشر الإسلام في بلاد السند ، وهو ما كان من تجنيد بعض أهالي تلك البلاد في الجيش لتلك الولاية أو في جيش الدولة نفسها في بلاد الشام والعراق . وقد انخرط أهالي السند من الزط والسيابجة والأساورة في جيوش المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين . ففي عهد الفاروق عمر بن الخطاب وبعد مقتل رستم قائد جيش الفرس في موقعة القادسية عام ١٤هـ / ٦٣٥م انضم الأساورة الذين كانوا في جيشه إلى الجيش الإسلامي ودخلوا في الإسلام وحاربوا الفرس

مع المسلمين وسكنوا البصرة وأقاموا بها ثم انضم إليهم إخوانهم من الزط والسيابجة ممن كانوا في جند فارس أيضا وأقاموا مع القبائل العربية في البصرة والكوفة وأخذوا العطاء وبذلوا جهدهم في غزو فارس وخراسان وسجستان وكرمان ومكران والسند والهند مع الجيوش الإسلامية[١٨] .

ولقد أعقب فتوحات المسلمين لبلاد السند تدفق سيل من الأسرى وغيرهم إلى بلاد العرب وبلاد العراق والشام وانضم بعضهم إلى الجيش الإسلامي في تلك البلاد . فقد كان جيش هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢م) يضم عددا كبيرا من الرماة القيقانية ، أى من أهل قيقان من بلاد السند وكان يثق بهم ويعتمد عليهم.وقد ظهر أثرهم عندما تصدى والي العراق يوسف بن عمر لزيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبي طالب الذي كان قد ظهر أمره بالكوفة عام ١٢٢هـ / ٧٣٩م.وكاد زيد يلحق الهزيمة الحاسمة بقوات يوسف لولا استنجاده بالرماة من القيقانيين فأتوا إليه وجعلوا يرمون زيدا وأصحابه فأصابه سهم قضى عليه[١٩] .

وإذا كان أهل السند المقيمون في العراق قد ظهر نشاطهم وأثرهم في الجيش الإسلامي هناك على هذا النحو ، فقد قام السنديون في ولاية السند الإسلامية - أي في بلادهم ذاتها - بنفس الدور وانضموا إلى قوات تلك الولاية . ويخبرنا البلاذري أن أحد قواد محمد بن القاسم الثقفي كان قد توجه إلى سدوستان لفتحها ، فطلب أهلها الأمان والصلح ، فصالحهم وفرض عليهم الخراج وعاد إلى ابن القاسم ومعه من الزط من أهل تلك الناحية أربعة آلاف صاروا ضمن جيش ابن القاسم[٢٠] .

ومهّد انضمام هؤلاء الزط إلى جيوش ولاية السند لدخولهم في الإسلام على أثر معايشتهم زملاءهم من المقاتلين المسلمين ورغبتهم في التخلص من دفع الجزية . وقد أعانت الظروف السياسية هؤلاء الجنود السنديين على أن يبلغوا مكانة سياسية كبيرة في بلادهم في عصر ضعف الخلافة العباسية حيث ظهر عدد من المتغلبين العرب في بلاد السند فقاموا بإنشاء دويلات يحكمونها ويتوارثون حكمها،مثل الدولة الهبارية التي أنشأها عمر بن عبد العزيز الهباري في المنصورة عام ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م ، والدولة السامية التي

أنشأها محمد بن القاسم بن المنبه السامي في الملتان عام ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م ، ثم الدولة الفاطمية في الملتان عام ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م والتي كان حاكمها يخطب على منابرها للعزيز بالله الفاطمي في مصر . ومن الملاحظ هنا تأثر أهل السند في أسماء دولهم وأمرائها ونظمها بالدول الإسلامية المشهورة وخلفائها . وكذلك من الطبيعي أن يعتمد هؤلاء المتغلبون هناك على الجند من أهل البلاد لإقرار حكمهم وتثبيت أمرهم تماما كما فعل جميع المتغلبين في البلاد الإسلامية الأخرى لأجل أن يضمنوا استقرار حكمهم ووقوف أهل البلاد الأصليين معهم إذا ما حاولت الخلافة أن تستعيد سيطرتها على تلك البلاد[٢١] .

وقد نتج عن اشتراك أهل السند في الجيوش الإسلامية ، سواء في جيوش الخلافة أو في جيوش السند كولاية إسلامية أو في جيوش أقاليمها عندما تحولت هذه الأقاليم إلى دويلات مستقلة : أن تزايد إقبال أولئك الأهلين على الإسلام وازداد التحامهم وتوثق ارتباطهم بحركة الإسلام في بلادهم ، تحفزهم لذلك دوافع الدين والدنيا ، فتزايد انتشار الإسلام بين قبائل هؤلاء الجند وأسرهم إلى حد كبير .

وثمة عامل بارز في تمكن الإسلام في بلاد السند وتزايد انتشاره فيها ، هو تعاقب الهجرات العربية إلى تلك البلاد وإقامة العرب فيها واستقرارهم واختلاطهم بأهليها المقيمين بها من قبل سواء في المدن التي بناها العرب هناك كالمنصورة والمحفوظة والبيضاء ، أو في المدن القديمة كالديبل والملتان وغيرهما . وشهدت بلاد السند عرب القحطانية والعدنانية في أعقاب الفتح مباشرة ، وكان القحطانيون أكثر عددا وأوسع انتشارا ، لأن المهاجرين كان يأتي جلّهم من عمان وحضرموت لقربهما واتصالهما بحريا بإقليم السند[٢٢] .

وقد استقر العرب في البداية في مناطق الحدود في إقليم مكران وبلوخستان وبعض بلدان السند ، فقد أقطعوا فيها القطائع وبنوا فيها المنازل وعمروا الأرض وحفروا فيها القنوات وأدوا عنها العشر في عهد ذي النورين عثمان بن عفان ، وتم تمصير هذه الأقاليم في عهد معاوية بن أبي سفيان ، أي أصبحت أمصارا إسلامية ، وأخذ ولاتها يغزون بلاد السند . وقد توجت هذه الفتوحات بإتمام فتح تلك البلاد على يد محمد بن القاسم الثقفي

كما أشرنا من قبل . وهكذا توالت الزيادة في أعداد العرب المقيمين في بلاد السند منذ فتوحات ابن القاسم لتلك البلاد . فعندما تم له فتح الديبل أنزل بها أربعة آلاف من العرب منذ ذلك الوقت . وفعل ابن القاسم الشيء نفسه عندما فتح مدينة الملتان فكان يبني المساجد والمساكن وينزل بها المسلمين(٢٣) .

وقد بلغ هذا التطور مداه ، وتكاثر وجود العرب في بلاد السند في عهد هشام بن عبد الملك ، حينما أقام ولاته هناك مدينة المنصورة التي كانت تقع بالقرب من حيدرأباد الحالية لتكون عاصمة لولاية السند الإسلامية . كما اختطت مدينة المحفوظة لتكون مأوى للمسلمين وقاعدة عسكرية تؤمن وجودهم وترد عنهم أعداءهم وزاد العباسيون على ذلك ببناء مدينة البيضاء في عهد المعتصم في منطقة البوقان وسكنها الجند واتخذوا منها قاعدة ينطلقون منها لغزو الميد والزط، وللقضاء على من يسعى إلى الغلبة والتسلط من المتغلبين العرب(٢٤) .

وقد كان لهؤلاء العرب الذين أقاموا في بلاد السند سواء في المدن الجديدة أو في المدن القديمة دورهم الواضح في الحياة الإسلامية وفي نشر الإسلام في بلاد السند . ومن الطبيعي أن يختلطوا بالسكان المحليين ويتزاوجوا معهم ولا سيما الطبقات الدنيا من المنبوذين والزط والسيابجة وغيرهم . على أن المولدين من هذا التزاوج لم يكن لهم دور كبير في حياة السند كما حدث في الأقاليم الإسلامية الأخرى . فقد كانت العصبية العربية في بلاد السند قوية ومؤثرة نظرا لكثرة من وفد إليها من قبائل العرب . وظلت كذلك حتى ظهر الغزنويون الترك وسيطروا على تلك البلاد وذاب العرب بالتدريج مع الأصول السكانية الأخرى ، وهكذا خرج منها جميعا شعب السند أو شعب باكستان المسلم الآن(٢٥) .

ويدلّ على كثرة العرب في بلاد السند وعمق جذورهم فيها ظهور أسرات عربية تستقل ببعض الأقاليم وتقيم فيها دولا مستقلة عن الخلافة . وقد ظهر هذا التطور منذ وقت مبكر ، فقد غلب العلافيون العرب بزعامة معاوية بن الحارث العلافي على بلاد السند في الفترة ٦٥ — ٧٥ هـ/٦٨٤ — ٦٩٤ م ، منتهزين فرصة اضطراب أمور الخلافة الأموية في دمشق خلال تلك الفترة . وقد سبقت الإشارة إلى ظهور دويلات مستقلة

تماما عن الخلافة في عهد بني العباس كالدولة الهبارية التي قامت في الملتان عام ٢٢٧ هـ/٨٤١ م والدولة السامية التي قامت بعد ذلك في الملتان أيضا عام ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م والتي استمرت حتى عام ٣٦٠ هـ/٩٧٠ م والدولة الإسماعيلية في المنصورة عام ٤١٦ هـ/١٠٢٥ م[٢٦] .

واستمرت الدويلات العربية في بلاد السند فترة أطول بكثير من مثيلاتها في الأمصار الإسلامية الأخرى وكان ذلك من العوامل التي دفعت حركة الإسلام قدما وأدت إلى انتشار الإسلام بين معظم أهل السند .

كذلك ظهرت في بلاد السند الفرق الدينية والسياسية المختلفة من خوارج ومعتزلة وشيعة . وكان لظهور هذه الفرق أثر في نشر الإسلام في تلك البلاد ، إذ كانت كل فرقة تحاول أن تجذب أعضاء جددا من المسلمين وغير المسلمين يؤيدون مبادئها ويدافعون عن كيانها ضد خصومها من الفرق الأخرى أو ضد قوات الخلافة التي ما فتئت تطارد المخالف لها ، فاعتنق الكثير من غير المسلمين الإسلام وانضموا إلى هذه أو تلك.ولربما اجتذبتهم ما كان يعلنه البعض أحيانا من مبادئ هذه الفرق مثل الخوارج ، أو من مناصرة آل البيت مثل الشيعة الذين كانت تربطهم علاقات طيبة بأهل السند منذ أن تزوج على بن أبي طالب وبعض أولاده وأحفاده من سنديات . ومن ثم كان الشيعة المطاردون من قبل الخلافة يجدون المأوى والنصرة في تلك البلاد ، ونجح بعضهم في بذر فكرة التشيع فيها . حتى إذا جاء عصر ضعف الخلافة العباسية رأينا مدى نجاح الشيعة الإسماعيلية هناك ، حتى أنهم تمكنوا من إقامة دويلات لهم في الملتان والمنصورة كما سبق القول . وهكذا تأكد طابع المجتمع الإسلامي – عمومًا – في تلك البلاد فعبّر عن نفسه بما ارتآه من تعبير سياسي أو عقائدي خلف زعامات عربية وافدة أو عربية محلية كانت قد استقرت فيها منذ زمن الفتح مع تأكيد ولائه التام للإسلام[٢٧] .

ثم يأتي بعد هذا دور التجار الدعاة في نشر الإسلام في بلاد السند ، وكان دورا جليل الأثر . أما التجار فكان لهم نشاط كبير في نشر الإسلام في تلك البلاد ، فقد كانوا يلفتون نظر الناس بسلوكهم الحميد وأمانتهم ونظافة ملابسهم وتقواهم ، ولا يلبث الناس أن

يتأثروا بهم في صلواتهم ومعتقداتهم ، ثم يبلغون الغاية بالتحول تماما إلى الإسلام . وكان هؤلاء التجار يتحولون في غير ساعات العمل إلى دعاة ومعلمين لأطفال القرى التي يقيمون فيها. وهكذا يمتد تأثيرهم إلى هذه الأسرة أو تلك بالتدريج فإذا بها أطفال قد تعلموا شيئا من القرآن وتعاليم الإسلام وتعلموا القراءة والكتابة . فإذا شبّ هؤلاء صاروا مسلمين بطبيعة الحال وعلى هذا النحو شرع الإسلام يعم كثيرا من القرى والنواحي بهذه الوسيلة السلمية .

وكان التجار بحكم اتصالهم بالطبقات العليا من المجتمع السندى عاملا من عوامل نشر الإسلام أيضا بين هذه الطبقات ، فإلى جانب ترويج بضاعتهم في هذه الأوساط الراقية ذات القدرة الشرائية العالية ، كان هؤلاء التجار ينتهزون كل فرصة ممكنة لنشر الإسلام بين أفرادها ابتغاء مرضاة الله ومثوبته أولا ، وللاطمئنان على مشروعاتهم التجارية حين تكون قائمة بين أقوام يدينون بالإسلام ثانيا فتزدهر وتثمر أكثر فأكثر. فلا عجب أن بذلوا غاية الجهد في نشر الإسلام في كل مكان وطأته أقدامهم ، حتى أن البلاذرى يروى قصة ملك العيسفان التي تقع في بلاد السند بين كشمير والملتان وكابل وكان قد مرض ابن له وأشرف على الموت فقام الملك باستدعاء سدنة معبد فيه صنم كان يعبده أهل عيسفان ، وطلب منهم أن يدعوا الصنم ليبرئ ابنه من المرض ، فغابوا عنه ساعة ثم أتوه وأخبروه بأنهم دعوا الصنم وأنه أجابهم إلى ما سألوه ، ولكن لسوء حظهم لم يلبث الغلام أن مات . فوثب الملك على المعبد فهدمه ، وعلى الصنم فحطمه ، وعلى السدنة فقتلهم ، وانتهز الفرصة بعض التجار المسلمين الذين دعاهم الملك إليه ليعرضوا عليه الإسلام ويبينوا له تعاليمه فما كان منه إلا أن أسلم ، وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله العباسي (٢١٨ – ٢٢٧ هـ/٨٣٣ – ٨٤١ م)[٢٨] .

وقد تحولت أسرة سمه Sammas التي حكمت بلاد السند من عام ٧٥٢ هـ/١٣٥١ م إلى عام ٩٢٨ هـ/١٥٢١ م إلى الإسلام على يد طوائف من التجار المسلمين وتحول أفراد من هذه الأسرة إلى دعاة للإسلام ، مثال ذلك نندا ابن بابينيه الذي تميز عهده بكثرة دخول الناس في الإسلام[٢٩] .

كذلك نشط الدعاة والعلماء في نشر تعاليم الإسلام في تلك البلاد وكان قد توافد على بلاد السند منذ حركة الفتوحات الأولى في عهد الخلفاء الراشدين أو الثانية في عهد بني أمية ثم في عهد بني العباس أعداد من الصحابة والتابعين والعلماءوالدعاة قاموا بحركة تعليمية واسعة هدفها نشر الإسلام والتبصير بالعقيدة ونشر تعاليم الإسلام وأخلاقه وأساليب حضارته . وباستقرار هؤلاء الدعاة والعلماء والمعلمين في المدن العربية التي بناها العرب في بلاد السند مثل المحفوظة والمنصورة والبيضاء ، أو في المدن السندية القديمة ، نشأت جذور مدارس عربية قامت بدورها في نشر تعاليم الإسلام وثقافته بين أهالي السند ، الذين تأثروا بذلك فلم يكونوا مجرد معتنقين لعقيدة الإسلام فحسب بل تشربوا لغته وتعاليمه ونبغوا في علومه[٣٠] .

انتشار تعليم الإسلام ومدارسه وظهور علمائه :

ومن أشهر الصحابة الذين وفدوا إلى بلاد السند في عهد الفاروق عمر بن الخطاب لنشر الإسلام وتعليمه ، الحكم بن أبي العاص الثقفي الذي فتح تانة وبروص من بلاد السند عام ١٥ هـ/٦٣٦ م ، وحكيم بن جبلة العبدي الذي أرسله عثمان بن عفان فساح في بلاد السند وعرف أخبارها وعاد إلى عثمان وأخبره بحالها ، ثم المغيرة بن أبي الصاحب الثقفي الذي غزا الديبل[٣١] . وقد ألف القاضي أبو المعالي أطهر المباركبوري كتابا خص به من ورد بلاد السند من الصحابة والتابعين أثناء الفتوحات الإسلامية لبلاد السند وسماه « العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين » ثم ألف كتابا آخر ذكر فيه من ورد إليها من علماء العرب والولاة الذين تولّوا حكم بلاد السند والذين تغلبوا عليها من العرب في عهد بني العباس حتى عصر المعتضد بالله العباسي وسماه « الهند في عهد العباسيين » وهو تتمة للكتاب الأول . وقد أورد هذا المؤلف في كتابيه المذكورين أسماء عدد كبير من الصحابة والتابعين الذين وردوا إلى بلاذ السند كولاة أو قادة فاتحين أو جنود عاديين أو قضاة ومعلمين ودعاة ، وعمل القضاة والعلماء والدعاة على بثّ علوم الإسلام بين أهل السند حتى صارت تلك البلاد مركزا للرواة المحدثين بدءا من القرن الثاني للهجرة .

ومن أمثلة هؤلاء العلماء العرب الذين استقروا بالسند حتى نسبوا إليها عبد الرحمن السندى الذي روي عن أنس بن مالك ، وكذلك روي من التابعين ببلاد السند حارث البيلماني ومحمد بن إبراهيم البيلماني ومحمد بن عبد الرحمن البيلماني الكوفي النحوي وعبد الرحيم بن حماد الثقفي الديبلي السندي البصري ، ويزيد بن عبد الله القرشي السندي الذي روي عن الثوري وابن جريج . وروي كثيرون آخرون عن الحسن البصري وسفيان الثوري ووكيع وغيرهما[٣٢] .

وقد قام هؤلاء المحدثون والعلماء بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية وعلوم الإسلام بين أهالي السند ، فظهرت على أيديهم مدارس إسلامية كثيرة على غرار مدارس الحجاز والشام والعراق ومصر . وأقبل أهل البلاد الأصليين على تحصيل العلوم العربية الإسلامية وظهر منهم عدد وفير من المحدثين والفقهاء والأدباء والشعراء والمتكلمين والفلاسفة ، ووفد آخرون منهم إلى مراكز الثقافة الإسلامية في بلاد العراق والشام والحجاز يلتمسون الاستزادة من العلم . وسواء أكان هؤلاء الوافدون من موالي السند أم من أحرارها الخلص ، فقد نبغوا فيما أقبلوا عليه من شتى المعارف الإسلامية في الحديث والفقه والمذاهب الإسلامية وعلم الكلام واللغة والأدب والشعر . ويكفي أنه كان منهم أئمة في هذه العلوم مثل الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام الذي كان أصله من سبي السند ، ومنهم من تولى المناصب العالية في بغداد وفي بلاط الخلفاء وبلاط الحمدانيين في حلب ، ومنهم من ترك لنا مؤلفات أصولية شهيرة مثل كتاب الصحيح في الحديث لمحمد بن محمد بن رجاء السندي (ت ١٨٦ هـ/٨٠٢ م) ، والمسند الكبير في الحديث وكتاب التفسير لعبد الله بن حميد السندي (ت ٢٤٩ هـ/٨٦٣ م) ، الذي روي عنه مسلم والترمذي والذي قال فيه البخاري إنه كان من الأئمة الثقات وغيرهم كثيرون . وقد ألف الأستاذ أطهر المباركبورى أيضا كتابا قيّما خصّ به رجال السند من العلماء والمحدثين والأدباء وغيرهم ممن عاشوا فيها أو ولدوا وعاشوا في غيرها من بلاد الإسلام حتى القرن السابع للهجرة وسماه « رجال السند والهند إلى القرن السابع » وهو كتاب حافل بمئات من تراجم هؤلاء العلماء والأدباء .

ولاشك أنه كان لهؤلاء العلماء والأدباء والفقهاء السنديين أثر كبير في نشر الإسلام في بلاد السند سواء أكانوا من المقيمين فيها أم كانوا قد أقاموا في أقطار الدولة الإسلامية الأخرى ، فإن تأثيرهم كان واقعا لابد في الحالتين . ولابد أن إخوانهم من أهل السند رأوا مدى ما وصل إليه هؤلاء العلماء السنديون من مكانة بارزة في المجتمع سواء في بلاد السند ذاتها أو في حواضر الدولة الإسلامية الواسعة.ولربما غلب على من بقى على الوثنية من هؤلاء الميل إلى التحول إلى الإسلام بعد أن أصبحوا يعيشون في بيئة إسلامية وأصبحت بلادهم جزءا من الدولة الإسلامية وظلت تابعة للخلافة في دمشق أو في بغداد حتى منتصف القرن الثالث الهجري حينما ظهرت فيها دويلات عربية مستقلة مع اعترافها الإسمي بالخلافة(٣٤) .

وكان تأثير علماء السند المقيمين في بلادهم بطبيعة الحال أقوى في تعميق الحركة الإسلامية ونشر الإسلام بين غير المسلمين وهكذا كانوا خير دعاة للإسلام على مر العصور .

رسوخ الإسلام في بلاد السند :

وبفضل هذه الجهود المتعددة المتضافرة من قبل الدولة الفاتحة أو من قبل المهاجرين العرب إلى بلاد السند ومن قبل العلماء والدعاة والمعلمين والتجار العرب انتشر الإسلام في بلاد السند وتحول هذا القطر إلى الإسلام وأصبح قطرًا إسلاميا خالصا بدءا من القرن الرابع الهجرى حيث ظهر فيه ما ظهر في غيره من الأقطار الإسلامية الأخرى من مظاهر دالة على تمكن الإسلام ورسوخه سلفت الإشارة إليها من قبل . ومنها قيام الحركات الاستقلالية التي قامت على يد زعماء القبائل العربية وعلى يد بعض زعماء الفرق الدينية وهى حركات أكدت ولاءها للإسلام ثم قيام المراكز الثقافية والمدارس التي ظهرت في المدن التي بناها العرب مثل المحفوظة والمنصورة والبيضاء ، وفي المدن القديمة مثل الديبل والملتان وغيرهما . وقد زخرت هذه المدن وغيرها بكثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والشعراء والأدباء السنديين الذين كانوا يؤلفون باللغة العربية وتركوا لنا ذخيرة رائعة من التراث الإسلامي العربي في شتى نواحي العلوم والمعارف الإسلامية مما سبقت الإشارة إلى شيء منه .

ويبدو من تغلغل الإسلام في بلاد السند أن حاول بعض ملوك تلك البلاد – شأن المحاولات في بلاد أخرى إرجاع إسلامهم إلى عهد الرسول ﷺ نفسه وغلا بعضهم في اختلاق مثل هذه المزاعم التي ليس لها نصيب من الصحة،حتى قالوا إن الرسول عليه الصلاة والسلام أرسل كتابا إلى أهل السند يدعوهم إلى الإسلام حمله خمسة من الصحابة ، وأن بعض أهل السند أسلموا على أيدى هؤلاء الصحابة الذين رجع منهم اثنان وبقى الثلاثة الآخرون يعلمون أهل السند أحكام الإسلام وماتوا هناك وقبورهم موجودة بتلك البلاد . وهناك قصص أخرى من هذا القبيل تدلّ في جملتها على اعتزاز أهل السند بالإسلام ورغبتهم في تقرير سبقهم إليه وإرجاع إسلامهم إلى عهد الرسول ﷺ على أيدي بعض صحابته ، وعلى الرغم من افتقاد هذه المزاعم كلها أي أساس من الصحة ، فإنها دالة بلاشك على انفعال أهل تلك البلاد بالإسلام وعمق حركة الإسلام هناك .

كذلك بدت آثار تغلغل انتشار الإسلام في بلاد السند في مجال الحضارة الإسلامية التي رسخت قواعدها في شتي مجالات الحياة هناك،فاحتفل أهلها بأعياد المسلمين وارتدوا من الثياب ما يتفق مع تعاليم الإسلام وتقاليد المسلمين وانتشر الحجاب بين الطبقات العليا من أهل البلاد الأصليين الذين بقوا على دينهم وتداعت الحواجز الطبقية الهندوسية القديمة إلى حد كبير . وظهرت التقاليد الإسلامية في نظم الحكم والإدارة ، وطبقت السلطنات الإسلامية السندية فقه أبي حنيفة في الأموال ونظم ديوان الخراج الذى كان يسمى « مستوفي ممالك » ويشرف على نفقات الدولة والى جانبه « مستوفي ممالك آخر » يراقب الدخل والمنصرف بينما كان « المجمودار » يشرف على مستحقات الدولة ، كذلك عرفت الحكومات الإسلامية هناك منصب صاحب ديوان الجند وأمير البحر وسارت النظم العسكرية والقضائية على منوال ما عرف في تاريخ النظم الإسلامية في مختلف الدول بمختلف البلاد فظهرت وظيفة المحتسب وصاحب الشرطة ويسمى « الكتوال » وصاحب البريد(٤٠) .

وهكذا اصطبغت تلك البلاد بالصبغة الإسلامية الخالصة مثلها في ذلك مثل غيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى ، مما يؤكد نجاح حركة الإسلام بمختلف أبعادها في بلاد السند والتي تحكمها الآن دولة باكستان الإسلامية .

الهوامـش

(١) الندوى (محمد إسماعيل) : تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية (طبع ونشر دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ ، الطبعة الأولى) ص ١٨ ، ٣٣ .

المباركبورى (القاضى أبو المعالي أطهر) : العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين ، (دار الأنصار بالقاهرة ١٩٨٠م) ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ . وكلمة الزط معرب كلمة جات الهندية ، والسيابجة كلمة تطلق على علوج السند ، والميد : هم قراصنة البحر وكانوا يعيشون في سواحل بلاد السند .

البلاذري : فتوح البلدان تحقيق رضوان محمد رضوان ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٣٦٧ .

انظر الندوى ، مرجع سابق ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) البلاذري : المصدر نفسه ، ص ٣٦٦ - ٣٦٩ .

المباركبوري : مرجع سابق ص ٣٢ - ٤٣ .

(٣) حسن محمود : الإسلام في آسيا الوسطى ، (دار الفكر العربي ١٩٧٢م) ص ٢٠٠ - ٢٠٤ .

أرنولد (توماس) : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. حسن إبيراهيم حسن واخرين ، (مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٠م) . ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٤) حسن محمود : مرجع سابق ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٢٧ .

(٥) المباركبوري : مرجع سابق ، ص ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ .

(٦) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٢٠ - ٤٢٨ .

(٧) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، حـ٢ (دار صادر ، بيروت - بدون تاريخ) ص ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٦ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - بيروت - بدون تاريخ) ص ٤٤٢ ، ٤٩٢ .

(٨) البلادري : مصدر سابق ، ص ٤٣٠ - ٤٣٢ .

اليعقوبي : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٣١٦ ، ٣١٧

ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٨٤ - ٨٥ .

(٩) المباركبوري : مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

الندوي : مرجع سابق ، ص ٤٢ .

أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٠٦ .

(١٠) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٢٧ .

(١١) الندوي مرجع سابق ، ص ٥٩ .

(١٢) المباركبوري : الهند في عهد العباسيين (دار الأنصار بالقاهرة ١٩٨٠م) ص ٥٨ - ٦٠ .

(١٣) المباركبوري : العقد الثمين ، مرجع سابق ، ص١٤٢ .

(١٤) البلاذري ، مصدر سابق ، ص ١٣٧ - ١٤٩ .

الندوي : مرجع سابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(١٥) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٢٥ .

الندوي : مرجع سابق ، ص ١٥ - ٤٢ .

أرنولد : مرجع سابق ، ص ٣٢٤ .

(١٦) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٢٤ – ٤٢٩ .
(١٧) حسس محمود : مرجع سابق ، ص ٢٧١ .
(١٨) البلاذري : مصدر سابق ص ٣٦٦ – ٣٦٩ .
المباركبوري : مرجع سابق ، ص ٣٣ .
(١٩) الطبري : مصدر سابق ، جـ٧ ، ص ١٨٥ – ١٨٦ .
(٢٠) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٢٥ .
(٢١) المصدر نفسه ، ص ٤٣٢ .
الندوي : مرجع سابق ، ص ٥٩ .
المباركبوري : الهند في عهد العباسيين ، مرجع سابق ، ص ٥٥ ، ٥٨ – ٦٠ .
(٢٢) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٢٢٩ ، ٢٥٤ .
(٢٣) اليعقوبي : مصدر سابق ، جـ٢ ص ٢٧٨ .
البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٢٥ – ٤٢٧ .
المباركبوري : العقد الثمين ، مرجع سابق ، ص ٧١ ، ٧٨ ، ٩٤ .
(٢٤) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٣٠ – ٤٣٢ .
المباركبوري : العقد الثمين مصدر سابق ، ص ٩٧ ، الهند ، ص ٥٠ .
(٢٥) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٢٣١ ، ٢٥٤ – ٢٥٥ .
المباركبوري : العقد الثمين ، مصدر سابق ، ص ١١٤ – ١١٥ ، ١١٨ .
الهند ، مصدر سابق ، ص ٥٠ ، ٥٣ – ٥٥ ، ٥٨ – ٦٠ .
(٢٦) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٣٢ .
المباركبوري : العقد الثمين ، مصدر سابق، ص ١١٤ – ١١٥ ، ١١٨ .
الهند : مصدر سابق ، ص ٥٠ ، ٥٣ – ٥٥ ، ٥٨ – ٦٠ .
الندوي : مرجع سابق ، ص ٥٧ – ٦٢ .
حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .
(٢٧) البلاذري : مصدر سابق ص ٤٣١ .
الطبري : مصدر سابق ، جـ٧ ، ص ٢٧٢ ، ٣٥١ ، ٥٢٢ .
ابن خلكان : مصدر سابق ، جـ٦ ص ٢١ .
ابن كثير : مصدر سابق ، جـ١٠ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ١٠٨ ، ١٨١ .
ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ٥ ص ٢٢١ .
المباركبوري : العقد الثمين ، مصدر سابق ، ص ٨٢ ، ١٣٤ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ – ٢٢٨ .
الهند : مصدر سابق ، ص ١١ ، ١٣ – ١٩ ، ٢٥ .
الندوي : مرجع سابق ، ص ٧٢ – ٧٣ .
حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٢٣٥ .
(٢٨) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٣٣ .
(٢٩) أرنولد : مرجع سابق ، ص ٣٠٧ .
(٣٠) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .
الندوي : مرجع سابق ، ص ٦٦ .

(٣١) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٩٣ ، ٣٥٧ ، ٤٢٠ .
المباركبوري : العقد الثمين ، مصدر سابق ، ص ٤٠ ، ٥٥ – ٥٧ ، ٧٢ .
(٣٢) الندوي : مرجع سابق ، ص ٦٧ .
المباركبوري : مصدر سابق ، ص ٢١٧ – ٢٢٣ .
(٣٣) الندوي : مرجع سابق ، ص ٤٧ – ٤٩ ، ٥٢ – ٥٤ .
المباركبوري : مصدر سابق ، ٢١٩ – ٢٢٣ .
(٣٤) المصدر نفسه ، ص ١٥ ، ١٦ .
(٣٥) المباركبوري : مصدر سابق ، ص ٣١ .
(٣٦) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

مراجع أخرى مختارة :

الطرازي : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب في عهد العرب . جدة . عالم المعرفة ١٤٠٣هـ .

انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والصغرى

آسيا الوسطى هي المنطقة التي تمثل قلب قارة آسيا وتمتد من منغوليا حتى بحر الخزر (بحر قزوين) ومن جنوبي سيبيريا حتى الهضبة الإيرانية . وقد عاش في هذه المنطقة شعوب شتى أعظمها خطرًا هى الشعوب التركية والمغولية ذات الأصل المشترك[١] . أما آسيا الصغرى فهي ما تعرف اليوم سياسيا بجمهورية تركيا .

ومن الشعوب التركية التي اتصل بها الإسلام الأتراك الغربيون الذين هبطوا وسكنوا بلاد ما وراء النهر أو ما يسمى بتركستان الغربية في بداية القرن السابع للميلاد ، وكذلك الأتراك الشرقيون الذين سكنوا في المناطق التي تقع شمالي نهر سيحون وشرقيه فيما يسمى بتركستان الشرقية . ومن هاتين المنطقتين ظهرت شعوب تركية أسلمت وحسن إسلامها وأدت للإسلام خدمات جليلة وفتحت له آفاقا جديدة في وسط آسيا وغربيها[٢] .

فمنهم القرخطائيون الذين أكملوا نشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر ، والسلاجقة الذين اتجهوا غربا وسيطروا على بغداد ونشروا الإسلام في آسيا الصغرى ، والغزنويون الذين اتجهوا جنوبا ونشروا الإسلام في أفغانستان وحوض السند وفي كثير من أنحاء الهند ، والخوارزمية الذين نشروا الإسلام غربا في بلاد الخزر وحوض بحر قزوين . ويأتي بعد هؤلاء جميعا المغول الوثنيون الذين انطلقوا من منغوليا وغزوا العالم الإسلامي ودمروا كثيرا من مدنه وأزالوا الخلافة العباسية من بغداد ، ثم لم يلبثوا أن استمالهم الإسلام فاعتنقوه وقاموا بدورهم بنشره في أماكن جديدة في أواسط آسيا وفي غربي الصين وفي بلاد القفجاق[٣] . وأخيرا يأتي دور الأتراك الذين توغلوا في العالم الإسلامي باسم السلاجقة وحكموا في بلاد فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى ، وعرفوا هناك باسم سلاجقة الروم حيث تفرعت منهم عدة إمارات سلجوقية نافت على العشرين ، ونهضت من إحدى هذه الإمارات الدولة العثمانية فتوسعت حتى قضت على الدولة البيزنطية ، ونشرت الإسلام في الجزء الجنوبي الشرقي من أوربا ووصلوا حتى أسوار مدينة فينا[٤] .

وسوف نجمل كيف اعتنق كل من هذه الشعوب الإسلام وما هو الدور الذي قام به في الدعوة إلى الدين الذي اعتنقه وآمن به .

الأتراك الغربيون :

ويرد في مقدمة هذه الشعوب التي كان لها دور واضح في هذه الناحية الأتراك الغربيون الذين كانوا يعيشون في بلاد ما وراء النهر (تركستان الغربية) . وكان نجاح حركة الإسلام في فارس من العوامل المؤثرة التي تقدمت بالإسلام إلى بلاد ما وراء النهر . فقد انتهز العرب فرصة الظروف السيئة التي كان يعيشها أتراك تلك البلاد من الصغد والأشروسنة والشاش والصغانيان وفرغانة والخوارزمية وفتحوا هذه البلاد ومهدوا السبيل أمام انتشار الإسلام فيها .

أما تلك الظروف السيئة لتلك الجهات التي سبقت الإشارة إليها فيأتي على رأسها التناحر السياسي الذي كان يسود المنطقة . وقد اقترن به تنافس ديني أيضا بين أتباع كل من الزرادشتية والبوذية والنصرانية والمانوية . وكذلك من الظروف السيئة لتلك المنطقة الذي كان يضع على قمة السلطة طبقة الدهاقين من ملاك الأراضي وطبقة المشتغلين بالتجارة مع الصين عبر الطرق البرية . أما عامة الناس فقد عاشوا حياة العوز والبؤس وحياة الترحال طلبا للرزق ، ولم يأمنوا على حياتهم بسبب المغامرات العسكرية التي كانت تقوم بها الطبقات الأرستقراطية الحاكمة على خراسان ، مما كان يدفع بفارس الساسانية إلى غزو بلاد ما وراء النهر وتعريض حياة سكانها للخطر والدمار . ولما تحولت فارس إلى الإسلام ورث المسلمون مشكلة الصراع الفارسي التركي وكان عليهم أن يعملوا على إيقافه لصالح حركة الإسلام في المنطقة[٥] .

ومنذ أن تم فتح فارس عام ٣١ هـ/٦٥١ م بدأ اتصال المسلمين العرب بهؤلاء الأتراك ، وكان المسلمون العرب في هذه المرحلة يتبعون خطة الدفاع حتى جاء قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ/ ٧٠٥ – ٧١٤ م) واستطاع أن يدخل بلاد ما وراء النهر وأن يفتحها إقليما بعد إقليم في بضع سنوات (٨٧ – ٩٦ هـ/ ٧٠٥ – ٧١٤ م) . وما أن جاء عام ٩٦ هـ/٧١٤ م حتى

أصبحت تلك البلاد خاضعة لحكم المسلمين العرب مع بقاء بعض ملوكها في حكم بلادهم[٦] .

انتشار الإسلام والعوامل التي أعانت عليه :

واتبعت الدولة الإسلامية سواء في عهد بني أمية أو في عهد بني العباس سياسة أدت في النهاية إلى انتشار الإسلام بين هؤلاء الأتراك . وكانت هذه السياسة تعتمد على نفس الأسس التي طبقت في فارس وغيرها من الدول المفتوحة وأدت إلى انتشار الإسلام في تلك الدول . فقد تم استخدام الأتراك في الجيش والإدارة ، وتشير المصادر إلى أن قتيبة بن مسلم أشرك في جيشه عددا كبيرا منهم في استيلائه على بخارى عام ٨٨ هـ/ ٧٠٦ م[٧] .

ولما فتحت بخارى « صار أهلها في جيشه » وتقدم بهم وبأهل خوارزم إلى بلاد الصغد عام ٩٣ هـ/٧١١ م ، وصاروا كثرة في جيشه لدرجة أن ملك الصغد كتب إليه « إنك إنما تقاتلني بإخوتي وبأهل بيتي من العجم » . وفي العام التالي جنّد قتيبة من أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل زحف بهم إلى الصغد والشاش وفرغانة ، ففتح منها مدينتي خجندة وكاشان ، ثم زحف حتى وصل إلى كاشغر أقرب مدينة إلى بلاد الصين[٨] . وكان لابد أن يصل اشتراك هؤلاء الجند في جيش قتيبة بهم في النهاية إلى اعتناق الإسلام بعد اختلاطهم بالمسلمين وتعاونهم معهم في فتح بقية أنحاء بلاد ما وراء النهر .

وقد استمرت هذه السياسة نفسها في عهد العباسيين فاستخدم غير المسلمين ، من الأتراك في الجيش ، وقد أنشأ الفضل بن يحيى البرمكي فرقة كبيرة من الأتراك الغربيين بلغ عدد أفرادها نحو خمسين ألف مقاتل بعث منهم إلى بغداد عشرين ألفا وأطلق عليهم اسم « الفرقة العباسية » . واشترك في قوات علي بن عيسى رجال من الصغد ، وكان جيش طاهر بن الحسين يضم سبعمائة من الخوارزمية[٩] .

وقد توسع الخليفة المأمون وأخوه المعتصم في استخدام أولئك الأتراك الغربيين فصار حرس الخليفة من الترك وجلب معظم جنده من الصغد وفرغانة وأشروسنة والشاش لما كانوا يمتازون به من قوة جسمية ومظهر حسن فضلا عن أنه رأى في ذلك ما يجنب الدولة

فتن العرب واستبداد الفرس . وصار من هؤلاء الترك كبار القواد مثل أشناس وبغا وأيتاخ وغيرهم ، وعلا شأنهم حتى بنى لهم المعتصم مدينة سامرا واختصهم بالإقامة فيها وانتقل معهم إليها وحقق بهم انتصارات هائلة ضد البيزنطيين في آسيا الصغرى وضد الخارجين على الدولة مثل بابك الخرمي وغيره . وقد كان هؤلاء الترك دخلوا في الإسلام وجرت تنشئتهم عليه في بغداد ، فعلا شأنهم بالإسلام على هذا النحو الذي ذكرناه ولما رأى أتراك ما وراء النهر علو شأن إخوانهم من الترك في بغداد وسامرا تركوا التمرد والعصيان وهاجروا أفواجا لينضموا إلى جند الخليفة واعتنقوا الإسلام ، كما أتى ملوكهم إلى بغداد لإعلان الطاعة والولاء ومن ذلك قدوم كادس ملك أشروسنة إلى بغداد وإعلان إسلامه فيها ، فأعاده المأمون ملكا على بلاده بعد أن أجزل له العطاء والصلات(١١) .

وأسقط الخلفاء الجزية عمن أسلم من هؤلاء كما فرضوا للذين ينضمون منهم لجيش الدولة العطاء . مثلما فعل ذلك عبيد الله بن زياد مع أتراك بخارى في عهد معاوية ، وعمر ابن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وسار العباسيون على نفس المنوال . فكان الخليفة المأمون على سبيل المثال « يوجه رسله إلى بلاد ما وراء النهر فيفرضون لمن رغب في الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة ، فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم »(١٢) .

ولم يقتصر استخدام الأتراك على الجيش وحده ، فقد استخدموا أيضا في وظائف الإدارة العليا في بلادهم وكانت نصوص الصلح التي أبرمها قتيبة مع ملوك بلاد ما وراء النهر تبقيهم في حكم بلادهم وكان يقنع منهم بالطاعة ودفع الجزية ويترك معهم من يمثل الحكم الإسلامي الذي كان يمسك بأزمته العرب وقتذاك ، كما كان يترك بينهم حامية عسكرية تَضمن الأمن والنظام وتقف في وجه أية مؤامرة للانتقاض على الدولة . وبالتدريج صار وجود العرب أمرا مألوفا في تلك البلاد وعقدت صداقات بين العرب وبين الدهاقين ، وبلغ من الود المتبادل بين العرب وبين الأتراك في تلك الجهات أن أهل سمرقند اشتكوا للخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز أن قتيبة اغتصب منهم أرضهم بغير حق فلما قضى لهم الخليفة تنازلوا عن شكواهم وارتضوا معايشة العرب والعزوف عن

استئناف الصراع معهم لما نشأ بينهم من علاقات سلمية وقالوا « قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم فأمنونا وأمنّاهم »[١٣] .

وكان الولاة العرب الذين يوفدون لحكم بلاد ما وراء النهر من قبل الخلافة يأتون ومعهم أسرهم وعشائرهم وجموع من قبائلهم ، ولما كان هؤلاء الولاة ينتمون إلى قبائل مختلفة فقد توافد على تلك البلاد قبائل من الأزد وقيس ومضر وربيعة وسكنوا منذ عهد قتيبة جميع مدن بلاد ما وراء النهر حتى فرغانة والشاش في أقصى الشرق . وكثرت أعدادهم لدرجة أن عمر بن عبد العزيز عندما أمر بعودة العرب منها بأهليهم إلى خراسان خوفا عليهم من انتقاض الترك ومداهمة الصين ، رفضوا وقالوا إن (مرو) لم تعد تسعهم لكثرتهم . وكان وجود هؤلاء المسلمين العرب في بلاد ما وراء النهر ضروريا لأمرين : أولهما الحفاظ على ولاء هذه البلاد للخلافة ، وثانيهما وإن لم يكن أقل أهمية هو العمل على نشر الإسلام بين الناس . وقد نجح هؤلاء في ذلك نجاحا كبيرا حتى إن اللغة العربية أصبحت مألوفة عند كثير من الترك . وقد أطلقوا على بعض نواحيهم وأحيائهم أسماء القواد العرب[١٤] .

وقد أعان انتشار الإسلام واللغة العربية ما كان يتم من تزاوج بين العرب والترك فإلى جانب السبايا التركيات اللاتي كن يوزعن على الجند العرب كان كثير من القادة بل والخلفاء يتزوجون من تلك الأقاليم . فمن بين القواد مثلا تزوج عثمان بن مسعود التميمي الذي كان يحكم خراسان قبل قدوم قتيبة من تركية ، وكان الترك يسمون أولادهم على اسم عثمان ومن بين الخلفاء تزوج هارون الرشيد من تركية تدعى « ماردة » أنجب منها الخليفة المعتصم ومن ثم لم يكن غريبا أن يستكثر المعتصم من اتخاذ أخواله الترك في جيشه وحرسه حتى انتهت أمور الدولة إلى أيديهم[١٥] .

وقد عملت الخلافة على دفع الأخطار الخارجية عن بلاد ما وراء النهر سواء أجاءت من بلاد الصين أم من تركستان الشرقية وربما دفعت هذه العوامل الخارجية الأمراء الترك إلى التمرد وأدت جهود المسلمين للقضاء على الثورات المحلية المدعومة بالمساعدات الخارجية إلى إعلاء شأن الحكم الإسلامي في نظر الناس وتوفير الأمان والاستقرار لكافة السكان من ترك وعرب وهذا أعان بدوره على ازدياد إمكانات الدعوة إلى الإسلام وانتشاره وقوته . فقد واجه الأمويون ثورات الأمراء المحليين والذين كان يدعمهم الأتراك الشرقيون أو الصينيون بالحزم وخضعت بلاد ما وراء النهر للإدارة الإسلامية . وعندما انقضى

العهد الأموي كانت المشكلات الداخلية قد حلت وخضع أغلب الأمراء الترك للحكومة الإسلامية واطرد دخولهم في الإسلام(١٦) .

وحين قامت دولة بني العباس تمكن ولاتهم من القضاء على ثورات الأمراء المحليين كما تصدوا للجيش الصيني الزاحف على بلاد ما وراء النهر عام ١٣٤ هـ/٧٥١ م وأنزلوا به هزيمة ساحقة ، تم بعدها إقصاء الصين عن المعركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين منذ ذلك الحين .

ضعف الأتراك الشرقيين :

وكان الأتراك الشرقيون قد ضعفوا وتفرقت وحدتهم وقامت بينهم إمارات صغرى متناثرة مثل إمارة القرلوق التي ظهرت عام ١٤٧ هـ/٧٦٤ م شرقي نهر سيحون ، وإمارة الأوغوز التي ظهرت في الحوض الأدنى من ذلك النهر . وبذلك أصبح الأتراك الشرقيون لا يشكلون خطرا على بلاد ما وراء النهر خاصة بعد أن قام العباسيون ببناء الأسوار عند رشت وقرب بخارى وفي بلاد الشاش ضد العدوان الخارجي وإدامة الاستقرار فيه الذي سوف يساعد بدوره على تمكين الإسلام هناك(١٧) .

كذلك أعانت على انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر شأن غيرها من البلاد جهود العلماء والدعاة. وظاهرت جهود هؤلاء ظروف المنطقة وفي مقدمتها خلو ممالك الترك في ما وراء النهر من أية ديانة رسمية ، وقيام الصراع بين ما وجد من ديانات ومعتقدات . وهكذا لم يكن لمن قاموا على شؤون تلك الديانات في تلك الجهات معارضة تذكر للفاتحين المسلمين العرب أو للدعاة العاملين لنشر الإسلام ، لاسيما وقد رأوا بأعينهم مدى سماحة المسلمين أفرادًا وأمراء وخلفاء . فهم لم يجبروا أحدًا على اعتناق الإسلام ، بل تركوا لهم حرية الاختيار وفرضوا حمايتهم واحترامهم لأتباع الأديان القائمة فلا تهدم معابدهم ولا كنائسهم حسب نصوص شروط الصلح المعقودة معهم . وقد أمر أحد قواد المسلمين في عهد الخليفة المعتصم بالله العباسي بجلد إمام ومؤذن في بلاد الصغد لأنهما اشتركا في هدم أحد معابد المجوس واستخدما حجارته في بناء مسجد مكانه . ولم يقدم قتيبة بن مسلم الباهلي على حرق الأصنام في سمرقند إلا لكي يبرهن لعبّادها – الذين كانوا يعتقدون أن كل من استخف بها هلك – أن ذلك غير صحيح ونتج عن عمله ذاك إسلام عدد

كبير من الناس . وقد عمل المسلمون على استمالة الأتراك للدخول في الإسلام وكانوا يتألفونهم أحيانا بالمال ليحضروا صلاة الجمعة في المساجد،وسمحوا لهم بقراءة معاني القرآن بما يحسنون من لغة غير العربية حتى يستطيعوا جميعا فهمه في سهولة ويسر[١٨] .

وكان عمال الخلافة على بلاد ما وراء النهر دعاة للإسلام إلى جانب عملهم في السياسة والإدارة وصيانة الأمن في الداخل ورد العدوان من الخارج فنسمع عن أشرس بن عبد الله السلمي والي الخليفة هشام بن عبد الملك على خراسان . أنه أرسل الدعاة من العرب والفرس إلى بلاد ما وراء النهر كي يقوموا بالدعوة للإسلام بين الترك ، وأمر بإسقاط الجزية عمن أسلم منهم ، فتدافعوا للدخول في الإسلام . كما اتبع والي خراسان نصر بن سيار السياسة نفسها فأسلم في عهده ثمانون ألفا من الأتراك ، وبلغ من تسامحه أنه عفا عمن يكونون قد ارتدوا عن الإسلام ثم عادوا إليه مرة أخرى وأعفاهم من دفع متأخرات الجزية والخراج ، فتزايد إقبال الناس على الدخول في الإسلام[١٩] .

كذلك أسهم العاملون في الدعوة العباسية بنصيب كبير في دعوة الترك إلى الإسلام فضلا عن كسبهم لقضيتهم ودعوتهم الخاصة بنقل الخلافة من الأمويين إلى العباسيين . وقد استطاع أبو مسلم كبير الدعاة في خراسان أن يجذب الدهاقين والفلاحين إلى دعوته ، فانضم إليه على سبيل المثال أهل ستين قرية في يوم واحد ، وقاد جيشا مكونا من الخراسانية والأتراك الغربيين في زحفه الكبير لإسقاط الخلافة الأموية ، كما قام أنصاره في بخارى بالقضاء على الثورات العربية التي اشتعلت هناك عام ١٣٣ هـ/٧٥٠ م .

كذلك ما فتىء الخلفاء عاملين على دعوة الناس إلى الإسلام ، فكانوا يدأبون على إرسال الدعاة والفقهاء إليهم كما فعل عمر بن عبد العزيز ومن أعقبه من خلفاء بني أمية ثم من خلفاء بني العباس وبخاصة الخليفة المأمون الذي كان « يكاتب الأتراك للدخول في الإسلام » ويعدهم ويمنيهم . كما كان الخلفاء يكثرون من بناء المساجد التي كانت مراكز للدعوة الإسلامية ومدارس يتعلم فيها المسلمون الجدد من الأتراك مبادىء الإسلام واللغة العربية . وقد برزت في هذا المجال مدارس بخارى وسمرقند حتى قال برتولد : إن تلك المدارس التي قامت في خراسان وبلاد ماوراء النهر في القرن الرابع الهجري/ العاشر

الميلادي قد اضطلعت بالعبء الأكبر في نشر الإسلام ، وأنه إذا كانت حركة الإسلام قد أحرزت نجاحا خارج حدود ماوراء النهر فإن الفضل في ذلك يرجع إلى مدارس ماوراء النهر .

الدول المستقلة وجهودها في مجالات العلم والدعوة للإسلام :

عندما قامت الدول المستقلة في خراسان وما وراء النهر في عهد الطاهريين (٢٠٥ – ٢٥٩ هـ/ ٨٢٠ – ٨٧٢ م) وفي عهد السامانيين (٢٦١ – ٣٨٩ هـ/ ٨٧٤ – ٩٩٩ م)[٢٠] . رسخت جذور المدارس الإسلامية فيها[٢١] .

فقد أمن الطاهريون حركة انتشار الإسلام عن طريق الحكم المستقر الذي أقاموا وأتيح لهم بذلك التوجه إلى الإصلاحات الداخلية اقتصادية وثقافية ، فشجعوا الحركة العلمية لا في مدن خراسان وحدها بل في مدن بلاد ما وراء النهر . فبدأت مدارس بخارى وسمرقند يعلو كعبها في ميدان العلم والثقافة الإسلامية حتى أصبحت بلاد ما وراء النهر في عهدهم قطرا إسلاميا خالصا ينفعل أهله بالتقاليد والثقافة الإسلامية ويبذلون كل جهد لنشر الإسلام بين إخوانهم من الأتراك الشرقيين[٢٢] .

وظاهرة الدولة المستقلة في بلاد ما وراء النهر تستحق الدراسة من حيث دلالتها على مدى نجاح حركة الإسلام في تلك البلاد فلم تتخل إحداها عن الإسلام بل أكدت ولاءها وعملت على نشره فيما يحيط بها من بلاد .

وقد ظهرت في بلاد ما وراء النهر دولة السامانيين في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري وانضوت تحت لوائها خراسان وطبرستان والري وقزوين وقضت على حكم الصفاريين وورثت أملاكهم في شرقي فارس[٢٣] ، وبذلك صارت للسامانيين دولة كبرى ، وبرزت جهود الأتراك الغربيين تحت حكمهم في الحياة الإسلامية . وقد أدت تلك الجهود إلى إسلام الأتراك الشرقيين .

فقد عمل السامانيون على تحقيق ازدهار اقتصادي كبير كان له أثره البارز على النشاط التعليمي والعلمي في بلاد ما وراء النهر ، إذ تألقت مدارس بخارى وسمرقند وبرز فيها أعلام في الفلسفة والفلك والطب والهندسة فضلا عن علوم الإسلام واللغة العربية مثل الحديث والفقه والنحو وما إليها . وكان السامانيون يشجعون العلماء ويقربون الفقهاء ،

وكان لهم دور جليل في إحياء التراث الثقافي الفارسي ذي الصبغة الإسلامية وانتشر ذلك التراث لا في مدن بلاد ما وراء النهر فقط بل أيضا في تركستان الشرقية ، وأخذ الأتراك الشرقيون يتميزون في تلك البلاد بطابع فارسي واضح . وهكذا اجتمع الأتراك في فارس مع الأتراك في آسيا الوسطى في دولة واحدة ونتج عن ذلك تقدم حركة الإسلام وانتشاره بين الأتراك الشرقيين[٢٤] .

وإلى جانب تلك الاتصالات الثقافية بين السامانيين والأتراك الشرقيين التي أدت إلى نشر الإسلام بين هؤلاء الأتراك ، كانت هناك احتكاكات سياسية وعسكرية إذ لم يقنع السامانيون بمسالمة الأتراك الشرقيين في كل حال وإنما عمدوا إلى سياسة الهجوم عند وجود الدواعي التي تقتضي ذلك ، فغزوا بلادهم وقاموا بحملات عنيفة على إسفيجاب وطالاس عام ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م ، وحولوا معبدها إلى مسجد جامع كما هاجموا (بلاساغون) ووقع ابن خاقان ملك الترك أسيرا في أيديهم وفرضوا سلطانهم على بلاد الترك الشرقيين وهيأوا للدعاة مجال العمل لإقناع العقول واجتذاب القلوب إلى دعوة الإسلام في تلك البلاد[٢٥] .

وقد اضطلع بهذه الدعوة المسلمون من الأتراك الغربيين فهم أكثر فهما لأوضاع الترك وأعرف بلسانهم ، ومن أشهر هؤلاء الدعاة الفقيه أبو الحسن محمد بن سفيان الكلماتي الذي غادر نيسابور عام ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م وقضى بعض الوقت في بخارى ثم رحل إلى ديار الأتراك الشرقيين ودخل في خدمة كبير خاناتهم ومات هناك عام ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م وكذلك برزت جهود الفقيه الداعية أبي الحسن سعيد بن حاتم الذي رحل إلى ديار هؤلاء الترك وتوفي هناك . كما قام العلماء والدعاة بدور كبير في نشر الإسلام وبخاصة بين عامة الناس . وتحدث الرحالة الأوربيون عن نشاطهم في آسيا الوسطى وعن نجاحهم وتغلبهم وتغلبهم على منافسة الديانات الأخرى مثل النصرانية والبوذية[٢٦] .

وكان يعضد جهود الدعاة والفقهاء السابقة ، التجار المسلمون الذين ارتفع شأنهم محليا وكانت لهم علاقاتهم بالمناطق الأخرى نتيجة سيطرة المسلمين على الطرق التجارية التي تربط العالم الإسلامي ببلاد الصين وبتركستان الشرقية ، وتشير الوثائق الصينية إلى

أنه في القرن العاشر للميلاد (الرابع الهجري) بلغ التجار المسلمون منغوليا شرقا وكان التجار المسلمون دعاة للإسلام إلى جانب اشتغالهم بالتجارة . وقد أعجب الأتراك الشرقيون بما كان عليه هؤلاء التجار من أمانة وخلق كريم وعادات طيبة فضلا عن إعجابهم بما يحملونه من سلع وحاصلات . وأدى هذا الإعجاب إلى تطلعهم للدين الإسلامي باعتباره العامل الموجه لهؤلاء التجار في نشاطهم ومعاملتهم وانتهى الأمر بهم إلى اعتناق الإسلام(٢٧) .

كما أدى التبادل التجاري بين الأتراك الغربيين والشرقيين إلى هجرة متبادلة بين الفريقين وأدى هذا بدوره إلى انتشار الإسلام في ديار الأتراك الشرقيين . فقد هاجر كثير من تجار خوارزم والصغد إلى تركستان الشرقية وأسسوا مدنا أو مستعمرات خاصة بهم للقيام بالمبادلات التجارية . وهكذا لفتوا أنظار الترك الشرقيين إلى ما يحملون في ركابهم من علامات حضارة زاهرة ، مما أثار في نفوس هؤلاء الترك البسطاء الإعجاب وانتهى بهم إلى الدخول في الإسلام ومشاركة إخوانهم فضائله(٢٨) .

وقد سمح السامانيون لبعض قبائل الترك الشرقيين بالنزوح إلى مناطق الحدود ، والإقامة في مناطق المراعي داخل بلاد ما وراء النهر مقابل تعهد هؤلاء الأتراك بحماية أراضي تلك الحدود . ومن هؤلاء قبائل الأوغوز ، كما أذنوا لبعض قبائل التركمان بزعامة سلجوق بن دقاق بالإقامة عند الأطراف الشمالية لنهر سيحون . وقد أدى ذلك إلى اتصال هؤلاء الأتراك البدو بالإسلام وعالمه عن قرب فأسلموا في النهاية في منتصف القرن العاشر للميلاد(٢٩) .

ونتج عن هذه العوامل كلها أن تحولت تركستان الشرقية إلى إقليم إسلامي عند منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وانفعل أهلها بالإسلام انفعالا قويا فبرزت من بين الأتراك الشرقيين دولة القراخانيين التي استولت بعد ذلك على بلاد ما وراء النهر ووحدت تركستان الغربية والشرقية في دولة واحدة(٣٠) . وقد قامت تلك الدولة بنشر الإسلام بين من بقي على الوثنية في تركستان الشرقية . وتوالى عقب ذلك من بين هؤلاء الأتراك الذين أسلموا ظهور دول أخرى كان لها جهد كبير في نشر الإسلام

خارج آسيا الوسطى ، فبينما اضطلع الغزنويون « أتراك شرقيون » بنشر الإسلام جنوبا في بلاد الأفغان وبلاد السند والهند ، قام الخوارزميون « اتراكٌ غربيون » بنشر الإسلام في حوض بحر قزوين . كذلك عمل السلاجقة الأوغوز « اتراكٌ غربيون » على نشر الإسلام في آسيا الوسطى .

القراخانيون : أما القراخانيون أو الخانيون أو الأيلك خانيون ، فكلها أسماء مترادفة لنفس الشعب – فقد كانوا زعماء الترك الأوغوز في كاشغر وإقليم القرلوق . وقد أسلم أول خاناتهم « ستوق بغراخان عبد الكريم » Satuq Bohra Khan في بداية القرن الرابع الهجري غالبا ، إذ أنه توفي مسلما عام ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م . ويعني هذا أنه اعتنق الإسلام قبل ذلك بمدة نجهلها ، وكان لذلك أثر مهم في انتشار الإسلام بين شعبه قبل السنة التى توفي فيها . يؤيد ذلك أن عاصمة القراخانيين كانت مدينة إسلامية في السنة التي أسلم فيها هذا الخان وأنه غزا البلاد الواقعة بين نهر سيحون جنوبا إلى قره قورم شمالا فتحول أهلها إلى الإسلام على يده ، كما قيل إن جيوشه دخلت بلاد الصين ونشرت الإسلام حتى ترفان Turfan(٣١) .

وقد أدى إسلام هذا الخان إلى تدفق الدعاة على كاشغر ، وإلى إقبال الأتراك الشرقيين على اعتناق الإسلام . فقد أسلم منهم مائتا ألف خيمة – أو أسرة إذ كانت تعيش الأسر في الخيام – كل أسرة في خيمة – أي – بما يقدر بحوالي مليون نسمة في عام ٣٤٩ هـ/ ٩٦٠ م ، وذلك قبل وفاة الداعية أبي الحسن محمد بن سفيان الكلماتي النيسابوري الذي أشرنا إليه من قبل بعام واحد ، مما يشير إلى أثر هذا الداعية وغيره في الدعوة إلى الإسلام بين الأتراك الشرقيين. وما كاد القرن الرابع الهجري ينتصف حتى أسلم كل خانات الأتراك الشرقيين وبدأوا يشتركون في العمل على نشر الإسلام. فبعد أن أسلم القراخانيون وأنشأوا دولتهم في تركستان الشرقية وضموا إليها تركستان الغربية بدأت جهودهم كدعاة للإسلام تبدو للعيان ، ومات خان كاشغر «أرسلان خان» شهيدا في عام ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨ م وهو يبذل جهده في نشر الإسلام إلى الشرق من كاشغر تجاه الصين ، كما أن الخانيين الذين خلفوه واصلوا جهودهم في هذه السبيل واعتنق أتراك القرغيز

الإسلام في عام ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣ م ، وكانت أعدادهم تزيد على عشرة آلاف خيمة أو أسرة[٣٢] .

واستطاع القراخانيون أن ينشروا الإسلام في القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر للميلاد على جانبي جبال تيان شان وحتى حدود الصين وبلغوا بلاد البلغار شمالا ، وأضفوا على حكمهم ودولتهم المظاهر الإسلامية . فاتخذوا لقب « موالي أمير المؤمنين » ونقشوا هذا اللقب على سكتهم وضربوا العملة باسم الخليفة القادر بالله العباسي ودعوا له على منابر بلادهم ، واتخذ أيلك خان نصر لقب « ناصر الحق » واتخذ هارون بن موسى حفيد ساتوق لقب « شهاب الدولة وظهير الدعوة » ، ونقش هذا اللقب على العملة التي ضربها بإيتاق عام ٣٨٢ هـ/ ٩٩٢ م[٣٣] .

و لم تكن هذه المظاهر غاية تفاعل القراخانيين مع حركة الإسلام بل إنهم نبذوا الأبجدية الأيغورية القديمة واتخذوا الأبجدية العربية ، واتخذت ثقافتهم طابعا عربيا إسلاميا واضحا وازدهرت الثقافة العربية في مدارس ما وراء النهر ووصل تأثيرها حتى حدود بلاد الصين[٣٤] . وبذلك أدى القراخانيون دورهم كاملا بالنسبة لنشر الإسلام وتشجيع الحركة الإسلامية والثقافة الإسلامية في تركستان .

الخوارزميون وجهودهم في نشرالإسلام بين الخزر :

تنافست الشعوب التركية من شرقية وغربية في مجال الدعوة للإسلام بعد أن أسلمت وحسن إسلامها وأعطت للإسلام قوة جديدة ودما جديدًا في زمن اضطربت فيه أمور الخلافة العباسية في بغداد تحت الضربات الهائلة التي تعرضت لها على أيدي البويهيين الذين كانوا قد سيطروا عليها وعلى أملاكها في الشرق وعلى أيدي الفاطميين الذين كانوا قد سيطروا على أملاكها في الغرب . ففي تلك الظروف الحالكة برز في التاريخ شعبان تركيان فتيان هما الخوارزميون – من الأتراك الغربيين ، وقد تولوا نشر الإسلام غربي بلادهم وفي بلاد الخزر ، والسلاجقة – من الأتراك الشرقيين ، وهم الذين أنقذوا الخلافة العباسية من تسلّط البويهيين ونشروا الإسلام في آسيا الصغرى ومهدوا الطريق لإخوانهم من « الأتراك العثمانيين » نحو القضاء على دولة الروم البيزنطيين ودخول عاصمتهم القسطنطينية في عام ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م على يد السلطان محمد الفاتح .

أما الخوارزميون فقد كان لهم فضل نشر الإسلام بين شعب الخزر التركي الذي كان يسكن شمالي بحر قزوين وتمتد بلاده غربا بجنوب حتي تتصل بسلسلة الجبال التي تتصل بإقليم القوقاز الحالي عند حدود فارس الشمالية في شمالي أذربيجان ومدينة أردبيل . وقد اتصل الخزر بالدولة الإسلامية منذ وطئت أقدام المسلمين أرض أرمينية في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وكانت تلك البلاد منطقة صراع على النفوذ بين الخزر والفرس والروم قبل ظهور الإسلام وبعد تحول الفرس إلى الإسلام انتقل الصراع على أرمينية إلى المسلمين العرب من ناحية والخزر من ناحية أخرى وصار القتال بين جيوش الفريقين في تلك البلاد سجالا يأسر كل واحد منهما عشرات الألوف من جنود عدوه لكن لا يستطيع أي الفريقين إحراز نصر حاسم وإخضاع الآخر . وفي أواخر عهد هشام بن عبد الملك تمكن مروان بن محمد من التوغل داخل بلاد الخزر عن طريق أرمينية عام ١٢٣ هـ/ ٧٤٠ م وهزم الخزر هزيمة منكرة وسبى منهم عشرين ألف أسرة وأسكنهم مدينة خاضيط وأرسل رسولا إلى ملكهم يدعوه إلى الإسلام أو استئناف القتال . فأرسل الملك إلى مروان يعلن قبوله للإسلام ، وطلب منه أن يبعث إليه من يعلمه فرائض الإسلام وتعاليمه وأعلن ميله للصلح والموادعة والسلام ، فأقره مروان على مملكته[٣٥] .

ويبدو أن ملوك الخزر لم يستقيموا على الطاعة للدولة العباسية التي خلفت بني أمية في حكم العالم الإسلامي منذ عام ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م وقد حاول أبو جعفر المنصور أن يصانع ملك الخزر حتى لا يهدد أرمينية في وقت لم تكن فيه الخلافة العباسية قد استقرت قواعدها بعد ، فطلب الخليفة من واليه على أرمينية يزيد بن أسيد السلمي أن يظاهر ملك الخزر بأن يزوجه ابنته فأجاب إلى ذلك ولا يكون هذا الزواج شرعيا يحق لخليفة عباسي في مستهل الدولة أن يطلبه إلّا إذا كان ملك الخزر مسلما لأنه لا يصح زواج المسلمة من غير المسلم ، وهذا يعني أن ملك الخزر في ذلك الوقت كان مسلما[٣٦] .

وقد تقلبت العلاقة بين العباسيين والخزريين بين الصداقة والمصاهرة من ناحية ، وبين العداء والقتال من ناحية أخرى ، في إبان قوة الدولة العباسية . فهارون الرشيد أراد أن يوثق علاقته بملك الخزر فدفع الفضل بن يحيى البرمكي كي يتزوج ابنة الأخير . وكاد هذا

المشروع أن ينجح لولا وفاة العروس في مدينة برذعة بأرمينية أثناء سيرها من بلاد الخزر إلى بغداد وذكر الطراخنة الذين كانوا يرافقون الأميرة العروس لأبيها عند عودتهم أن ابنته قتلت غيلة . فغضب ملك الخزر لذلك وأغار على المسلمين في أرمينية وهزمهم هزيمة لم يسمع بمثلها من قبل وسبى عشرات الألوف من المسلمين من الرجال والنساء والأطفال وأحرق كثيرا من المدن والقرى ، ثم عاد إلى بلاده بعد أن أحس بقرب وصول قوات الخلافة العباسية لنجدة المسلمين في أرمينية(٣٧) . ولم نعد نسمع شيئا كثيرا بعد ذلك عن العلاقة بين الخزر والخلافة العباسية بعد أن دخلت تلك الخلافة في طور الضعف .

ولا شك أن هذه الاتصالات السياسية والحربية ووجود أسرى العرب والخزر عند الطرفين وعلاقات المصاهرة التي أشرنا إليها وإسلام بعض ملوك الخزر في عهد هشام بن عبد الملك وفي عهد أبي جعفر المنصور – مما خلّف آثارا واضحة على شعب الخزر ، فعلى الأقل ذاع أمر الإسلام بين الناس هناك واعتنقه عدد منهم لا يمكن تقديره . لكن لا يمكن القول أن ملوك الخزر استمروا على إسلامهم بعد ذلك أو أن خلفاءهم على العرش دانوا بالإسلام ، إلى أن أتى الخوارزميون واستطاعوا أن ينفذوا إلى شعب الخزر عن طريق علاقتهم التجارية السلمية عبر الطريق الذي يتجه من خوارزم وبلاد ما وراء النهر ثم يسير غربا ويستدير حول بحر قزوين ثم ينحدر جنوبا إلى بلاد القوقاز .

كان الخوارزميون قد اعتنقوا الإسلام أيام السامانيين في الغالب وأصبحت خوارزم بلدا إسلاميا وقامت في حكمها أسرة مسلمة في الفترة الممتدة من عام ٣٤٠ هـ/٩٥١م إلى عام ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م . واتجه الخوارزميون بنشاطهم صوب الغرب إلى حوض الفولجا والقوقاز ونشأت بينهم وبين إخوانهم من الخزر – فالجميع أتراك – صلات قوية .

وانتشر التجار الخوارزميون في إقليم القوقاز ، وكان الخزر يهتمون بالتجارة وبالطريق التجاري الذي يمرّ عبر آسيا الوسطى من الصين إلى بحر قزوين ثم إلى البحر الأسود ثم إلى القسطنطينية والذي كان يمر بشمال بلاد خوارزم . ولذلك رحبوا بالنشاط التجاري للخوارزميين كما رجوا عونهم في صد هجوم الروس الذي كان قد توالى على بلادهم منذ

عام ٣٣٢ هـ/ ٩٤٣ م . ولا شك أن هذا الوجود الخوارزمي سواء في ميدان التجارة أو في مشاركتهم الخزر في الدفاع عن بلادهم قد أدى إلى علاقات طيبة وثيقة بين الجانبين، هيأت للتجار الخوارزميين فرص الدعوة إلى الإسلام بين شعب الخزر،حتى اعتنق الإسلام معظم أفراد هذا الشعب تقريبا قرب نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي(٣٨) .

السـلاجقة :

ازداد اتجاه حركة الإسلام صوب الغرب من آسيا مع ظهور شعب تركي آخر هو شعب السلاجقة الذي تمكن من نشر الإسلام في آسيا الصغرى وينتمي السلاجقة إلى الأتراك الشرقيين الذين يعرفون باسم الأوغوز واختصرت هذه الكلمة إلى (الغز) وظهر في التاريخ اسم السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع الهجري حينما قاد سلجوق بن دقاق القبائل التركية التي سميت باسمه تجاه الجنوب وسمح لهم السامانيون بالنزول في المجرى الأدنى لنهر سيحون عام ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م نظير مساعدتهم لهم في حروبهم ضد القراخانيين (الخانيين) ، فاستقروا هناك واتخذوا مدينة جند قاعدة لهم . واعتنقوا الإسلام ودانوا بالمذهب السني نتيجة صلاتهم بالسامانيين السنة(٣٩) .

ولما قوي أمر هؤلاء السلاجقة اشتركوا مع القراخانيين والغزنويين في القضاء على السامانيين قرب نهاية القرن الرابع الهجري وتقاسموا أملاكهم ، وبينما اتجه نشاط القراخانيين الترك جنوبا إلى بلاد ما وراء النهر وشرقا نحو الصين ، اتجه نشاط السلاجقة غربا نحو مقر الخلافة العباسية للسيطرة عليها أولا ثم نحو آسيا الصغرى لنشر الإسلام بها بعد تخليصها من حكم البيزنطيين .

دخل زعيم السلاجقة طغرلبك بغداد عام ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م في عهد الخليفة القائم بأمر الله العباسي ، وقضى على سلطان البويهيين بها . ثم استدار السلاجقة بعد ذلك إلى الشرق ودخلوا بلاد ما وراء النهر وأخضعوا القراخانيين وخان كشغر لسلطانهم ، واستولوا أيضا على خوارزم . وبلغ النفوذ السلجوقي أوجه في عهد السلطان ألب أرسلان (٤٥٦ – ٤٦٥ هـ/ ١٠٦٣ – ١٠٧٢ م) وابنه السلطان ملكشاه (٤٦٥ – ٤٨٥ هـ/ ١٠٧٢ – ١٠٩٢ م) وهكذا صار الأتراك الشرقيون ممثلين في السلاجقة هم

القوة الكبرى التي تسيطر على الخلافة العباسية وتُوجه الحياة الإسلامية لأكثر من قرن من الزمان[٤٠] .

وقد أولى السلاجقة نشر الإسلام عناية كبيرة ووجهوا جهودهم لنشر الإسلام والدفاع عنه وآثروا أن يواجهوا دولة الروم البيزنطيين في أرمينية وآسيا الصغرى . وكان البيزنطيون يهاجمون أراضي الدولة الإسلامية في بلاد الجزيرة والعراق والشام منتهزين فرصة ضعف الخلافة العباسية وقد تمكنوا من مدّ حدودهم حتى نهر الفرات وأسروا عشرات الألوف من أبناء شمال الشام ودمروا العديد من مدنه وقراه . واستطاع السلاجقة أن يوقفوا هذا الزحف البيزنطي واستطاع السلطان ألب أرسلان أن يفتح جورجيا وأرمينية.وأخذ يعمل على نشر الإسلام في هذه البلاد فضلا عن استعادته لبعض المدن الإسلامية التي استولى عليها البيزنطيون فغضب من ذلك رمانوس ديوجينس Romanus Diogens إمبراطور بيزنطة وغزا الشام ثم استدار لملاقاة السلاجقة داخل أرمينية ونشبت المعركة بين السلاجقة والبيزنطيين عند ملازكرت (مانزكرت) Manzikert بالقرب من مدينة خلاط الأرمينية عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م ، وتمكن السلاجقة من دحر القوات البيزنطية وأسر الإمبراطور البيزنطي نفسه[٤١] .

كانت هذه المعركة نقطة تحول هامة في التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ آسيا الصغرى بصفة خاصة لأنها أدت إلى القضاء على نفوذ البيزنطيين في أكثر أجزاء آسيا الصغرى مما أدى في النهاية إلى القضاء على الدولة البيزنطية نفسها على أيدي الأتراك العثمانيين فيما بعد ، كما نتج عن هذه المعركة أن وضع السلاجقة أيديهم على أرمينية بصفة نهائية خضعت للحكم الإسلامي منذ ذلك الحين ، كما أدت هذه المعركة إلى انتشار الإسلام في آسيا الصغرى انتشارا كبيرا وأخذت الحضارة الإسلامية بنظمها وآدابها تحل محل الحضارة البيزنطية النصرانية فيها[٤٢] .

وقد توفي ألب أرسلان في العام التالي لمعركة ما نزكرت وخلفه ابنه ملكشاه في الحكم فعمل على توطيد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى ، وعين واحدا من أقربائه هو سليمان

ابن قتلمش بن إسرائيل واليا عليها عام ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م ، فوضع سليمان يده على ولايتي قونية وآمد ويعد هذا الوالي هو المؤسس الحقيقي لدولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى التي ظلت تحكم هذه البلاد حتى عام ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م .

وقد قتل سليمان في نزاع بينه وبين تتش بن ألب أرسلان عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م ، فأقر السلطان ملكشاه داود بن سليمان بن قتلمش حاكما على السلاجقة في بلاد الروم بآسيا الصغرى فوصل داود إليها وهزم الروم وجلس على عرشه في قونية عام ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م واستمر يحكمها مدة عشرين عاما ، ثم خلفه أخوه مسعود شاه الذي سيطر على آسيا الصغرى كلها وبسط نفوذه في أرجائها ، وتابع ذلك من أتى بعده من السلاجقة حتى وصل نفوذهم إلى البحر الأسود شمالا وبحر إيجة غربا والبحر المتوسط جنوبا . ومن ثم تراجعت حدود الإمبراطورية البيزنطية إلى القسطنطينية و لم يعد لها نفوذ في آسيا الصغرى . وبلغ سلاجقة الروم من القوة ما مكنهم من الحفاظ على دولتهم في آسيا الصغرى في حين سقطت دولة السلاجقة العظام في العراق وفارس تحت ضربات الدولة الخوارزمية في عام ٥٩٠ هـ/ ١١٩٣م(٤٣) .

وظلت دولة سلاجقة الروم تضطلع بأعباء نشر الإسلام وحضارته في آسيا الصغرى حتى هب عليها الإعصار المغولي . وحينئذ أعلن سلاجقة الروم الطاعة والولاء للمغول عام ٦٤١ هـ (١٢٤٢م) . فتركهم المغول في حكم آسيا الصغرى ، إلى أن أتى إخوانهم من الأتراك العثمانيين فتمت لهم الغلبة عليهم واستكملوا القضاء على الدولة البيزنطية بفتح القسطنطينية في عام ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م وأصبحت آسيا الصغرى في كافة أنحائها تدين بالإسلام منذ ذلك الوقت(٤٤) .

ومنذ موقعة ما نزكرت عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م وحتى نهاية دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى تدفق على مملكتهم في تلك البلاد سيل من الهجرات التركية من قلب آسيا الوسطى . وكان سلاجقة الروم يشجعون هذه الهجرات ويقدمون لها العون والمساعدة حتى تتزايد الكثافة السكانية لذوي الأصول التركية فيتم تتريك البلاد وغلبة الإسلام فيها . كذلك فتحت آسيا الصغرى أبوابها للدعاة والعلماء الذين كانوا يقومون بنشر الإسلام بين غير المسلمين من الوافدين الجدد أو من السكان المحليين وكانت المدارس

التي أنشأها وزير ألب أرسلان وملكشاه نظام الملك في بغداد ونيسابور وأصفهان وطوس وهرات وغيرها وعرفت باسم « المدارس النظامية » ، نسبة إليه ، تمد البلدان المفتوحة في أرمينية وآسيا الصغرى بما تحتاجه من الدعاة والعلماء . وقد رسم نظام الملك في واقع الأمر سياسة السلاجقة الخارجية وفي مقدمتها فتح البلاد غير الإسلامية في أرمينية وآسيا الصغرى وانتزاعها من أيدي الروم ونشر الإسلام فيها وآمن السلاجقة أن حروبهم في تلك الأنحاء هي جهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين وإعلاء لكلمة الله (٤٥) .

وقد أدت جهود هذا الوزير وجهود السلطانين السلجوقيين ألب أرسلان وملكشاه إلى ازدهار الحضارة الإسلامية في عهود السلاجقة التي تميزت بظهور كثير من علماء المسلمين البارزين . ومن أبرز هؤلاء الإمام الغزالي صاحب كتاب « إحياء علوم الدين » وقد عمل الغزالي على نشر علوم السنة ورد مزاعم خصومها من المعتزلة وغيرهم في كتابه هذا وفي مؤلفاته الأخرى . واشتغل بالتدريس في المدرسة النظامية ببغداد مدة من الزمن منذ عام ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م فراجت علوم الإسلام في بلاد العراق والمشرق الإسلامي ، كما وصلت العلوم الأخرى درجة عظيمة من التقدم فنبغ الأعلام في الطب والفلسفة والكمياء والفلك والرياضيات والجغرافيا . وكثرت المؤلفات باللغتين العربية والفارسية في تلك العلوم ، وانتشرت خزائن ودور الكتب في المساجد والمدارس وعند الأثرياء والسلاطين وكان لذلك كله آثاره على آسيا الصغرى . فقد قام سلاجقة الروم في تلك البلاد بتقليد أبناء عمومتهم من سلاجقة العراق وفارس وأخذوا على عاتقهم نشر اللغة والأدب الفارسي ، كما أنشأوا المدارس والمساجد والخانقات والربط والقناطر وأوقفوا عليها الأوقاف للصرف عليها من ريعها(٤٦) .

وعلى هذا النحو حلّت الحضارة الإسلامية محل الحضارة النصرانية اليونانية في آسيا الصغرى على يد سلاجقة الروم . وعندما أتى إخوانهم من الأتراك العثمانيين في القرن الخامس عشر للميلاد/ القرن التاسع الهجري وجدوا آسيا الصغرى قطرًا إسلاميا خالصا ، فاتخذوا منه قاعدة انطلاق إلى شرقي أوربا حيث عملوا على نشر الإسلام وحضارته هناك خلال فترة طويلة من الزمن .

الهوامش

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٤ ص ٥٧٧ ، جـ ٥ ٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ .

(٢) حسن أحمد محمود : الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي (طبع ونشر دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٧٢ م) ص ١٣٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨١ م ، جـ ٥ ق ٤ ص ٩٢٦ ، جـ ٥ ص ١٣٩ ، ١١٦٥ .

أرنولد (توماس) : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د .حسن إبراهيم حسن وآخرين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م ، الطبعة الثالثة ص ٢٦٦ – ٢٦٩ ، دائرة المعارف الإسلامية جـ ٤ ص ٥٧٦ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٥ ، ص١٦٧ .

(٥) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري (دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الخامسة ٩٨٠ م) ص ٢٠٩ .

(٦) شكري فيصل : المرجع نفسه ص ٢٠٨ – ٢١٩ .

(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، بدون تاريخ ، ٧/ ٤٢٨ ، ٤٣٧ .

(٨) ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح (طبع الهند ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٨ هـ) جـ ٧ ص ٢٢٤ .

الطبري : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٤٧٣ – ٤٧٥ ، ٤٨٣ – ٤٨٤ ، ٥٠٠ .

(٩) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(١٠) البلاذري : فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م ، ص ٦٠٦ .

الطبري : مصدر سابق ، حـ ١٠ ، ص ٣٣٥ .

المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ م ، جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(١١) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٦٠٤ – ٦٠٦ .

الطبري : مصدر سابق ،جـ ١٠ ،ص ٢٦٦ .

أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٤٤ .

(١٢) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٠١ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ .

ابن كثير : البداية والنهاية (مكتبة دار المعارف ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م) جـ ٩ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(١٣) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٢٠ .

الطبري : مصدر سابق ، جـ ٦ ص ٥٦٨ ، جـ ٨ ص ٤٦ ، ٥٩ .

(١٤) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٠ ، ٤٧٥ ، ٤٩٢ .

الطبري : مصدر سابق ، جـ ٦ ص ٤٧٨ ، ٥٦٨ ، ٦٠٥ – ٦٠٦ ، ٦٢١ .

(١٥) ابن أعثم الكوفي : مصدر سابق ، جـ ٧ ، ص ٢٢٩ .

(١٦) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ١٥١ ، ١٦١ .

(١٧) المرجع نفسه ، ص ١٥٦ – ١٥٨ .
(١٨) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٩ .
حسن محمود : مرجع سابق ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٤٢٣ .
(١٩) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ١٥٥ .
(٢٠) الطبري : مصدر سابق ، جـ ٧ ص ٣٥٥ ، ٤٥٩ .
(٢١) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٤١٠ ، ٤١٨ .
حسن محمود : مرجع سابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١
(٢٢) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٢٣) المرجع نفسه ، ص ١٦٨ .
(٢٤) المرجع نفسه ، ص ١٦٩ – ١٧١ .
(٢٥) المرجع نفسه ، ص ١٧٢ – ١٧٣ .
(٢٦) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .
(٢٧) المرجع نفسه ، ص ١٧٤ – ١٧٦ .
(٢٨) المرجع نفسه ، ص ١٧٦ .
(٢٩) المرجع نفسه ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .
(٣٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٩ م ، جـ ٩ ص ٣٥ – ٣٦ .
(٣١) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ١٧٨ – ١٨٢ .
أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .
(٣٢) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .
(٣٣) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ١٨٣ – ١٨٦ – ١٨٧ .
(٣٤) المرجع نفسه ، ص ١٨٧ .
(٣٥) البلاذري : مصدر سابق ، ص ١٩٧ – ٢٠٠ ، ٢٠٩ – ٢١٠ .
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (دار صادر ، بيروت – بدون تاريخ) جـ ٢ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .
(٣٦) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢١١
(٣٧) الطبري : مصدر سابق ، جـ ٨ ص ٢٧٠ .
اليعقوبي : مصدر سابق ، جـ ٢ ص ٤٢٧ – ٤٢٨ .
(٣٨) حسن محمود : مرجع سابق ، ص ١٨٩ – ١٩١ .
أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ص ١٧١ .
(٣٩) عبد المنعم محمد حسنين : دولة السلاجقة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ م ، ص ١٧ – ١٩ .
أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، دار البحوث العلمية – الكويت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م ، ص ٢١ .
(٤٠) عبد النعيم محمد حسنين : مرجع سابق ، ص ٢٦ – ٤٢ .
أحمد كمال الدين حلمي : مرجع سابق ، ص ٢٨ .
(٤١) عبد النعيم محمد حسنين ، مرجع سابق ، ص ٤٩ ، ٥٠ .
أحمد كمال الدين حلمي : مرجع سابق ، ص ٣٤ .

(٤٢) عبد النعيم محمد حسنين : مرجع سابق ، ص ٥١ – ٥٢ .

أحمد كمال الدين حلمي : مرجع سابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٤٣) عبد النعيم محمد حسنين : مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(٤٤) أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٤٧ .

عبد النعيم محمد حسنين : مرجع سابق ، ص ٥٨ ، ١٠٠ – ١٠١ ، ١٣٢ .

أحمد كمال الدين حلمي : مرجع سابق ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ .

(٤٥) عبد النعيم محمد حسنين : مرجع سابق ، ص ٧٠ – ٧١ .

(٤٦) المرجع نفسه ، ص ١٥٥ – ١٧٢ –١٧٣

أحمد كمال الدين حلمي : مرجع سابق ، ص ٣٦ ، ٩٣ .

مراجع أخرى مختارة

– النرشحي : تاريخ مدينة بخاري .

– بارتولد : تركستان . ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم . المجلس الوطني للثقافة والآداب . الكويت ١٩٨١ م .

– بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى . ترجمة د . أحمد السعيد سليمان . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٦٠ م .

انتشار الإسلام بين المغول

هكذا انتشر الإسلام بين أقوام جدد من أهل آسيا الوسطى وبلاد السند والهند وحوض بحر قزوين وآسيا الصغرى في القرنين الرابع والخامس للهجرة . ولكن العالم الإسلامي كان يمر في أخريات أيام الخلافة العباسية في النصف الأول من القرن السادس الهجري بمحنة الانقسام والتفكك السياسي وقيام العداء والصراع بين معظم دوله ، علاوة على الهجمة الأوربية الصليبية الشرسة التي تعرض لها منذ أواخر القرن الخامس الهجري والتي أجهدته واستنزفت قدراته الاقتصادية مدى قرنين من الزمان . وقد مهدت هذه الظروف الطريق أمام غزو مدمر طرق أبواب العالم الإسلامي هذه المرة من الشرق وحطم كثيرا من مدنه وأزال دولة واحدة إثر أخرى واختتم ذلك باستيلائه على بغداد وقضائه على الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م . والذين فعلوا ذلك بالعالم الإسلامي وعرّضوا الإسلام نفسه للخطر هم المغول الوثنيون[١] .

ولكننا نرى هؤلاء المغول الذين أذلّوا المسلمين وهددوا الإسلام مالبثوا أن تحولوا بعد حوالي نصف قرن من الزمان إلى مسلمين ، وأخضع الإسلام تلك القوى المندفعة القاهرة وحولهم من أعداء إلى أصدقاء بل إلى دعاة له ينشرون تعاليمه وعقائده بين شعوب جديدة وفي أرض لم يتيسر للمسلمين دخولها من قبل . فكيف حدث ذلك ؟.

وفي البداية نشير في إيجاز إلى أصول المغول وإلى مواطنهم الأولى التي زحفوا منها إلى العالم الإسلامي . والمغول قبائل من التتار ، والتتار أحد شعوب الترك العظمى ، وعلى ذلك فالمغول والتتار والترك ترجع كلها إلى أصل عرقي واحد ، وإن كان هناك تفاوت بين المغول والأتراك بسبب اختلاف الظروف البيئية والمكانية واللغوية التي وجد فيها كل منهما . فبينما نشأ الترك في أواسط آسيا وعلى حدود العالم الإسلامي من الشمال الشرقي واتصلوا به نتيجة للجوار وأسلموا في النهاية وأدوا دورا عظيما في نشره كما سبق البيان ، نشأ المغول فيما يلي ذلك من الأراضي أي في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء

جوبي ، وهي تمتد في أواسط آسيا جنوبي سيبريا وشمالي التبت وغربي منشوريا وشرقي التركستان بين جبال التاى غربا وجبال خنجان شرقا[٢] .

وقد استطاع أحد زعماء المغول المسمى تيموجين بن موجاى أن يوحد قبائل المغول ويفوز بزعامتها ويحظى بلقب جنكيز خان ثم يزحف بتلك الجحافل الهائلة ويستولي على شمالي الصين عام ٦١٢هـ / ١٢١٥م ثم يتابع زحفه بعد ذلك بعامين إلى آسيا الوسطى . وكانت دولة القراخطائيين تقف على الخط الأمامي بينه وبين العالم الإسلامي ، لكن هذه الدولة انتهت إلى الزوال على أيدي قبائل النايمان المغولية المسيحية وبتواطؤ من السلطان محمد خوارزم شاه . وهكذا فتح الباب على مصراعيه أمام تدفق المغول على بلاد الإسلام بعد أن استطاع جنكيز خان أن يخضع قبائل النايمان التي كانت معادية له وأن يستولي على بلادهم عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م . وأصبحت جيوشه تطل على بلاد ماوراء النهر وخوارزم[٣] .

وفي فترة قصيرة اكتسحت جيوش جنكيزخان تلك البلاد ثم استولت على خراسان وغزنة . وعاد جنكيزخان إلى منغوليا بعد هذه الانتصارات التي ساعد على تحقيقها ماثار من عداء بين الخوارزميين وبين الخلافة العباسية وبينهما معا وبين دولة الإسماعيلية في شمالى إيران . ويروى أن الأخيرين قد أرسلوا للمغول يهونون من شأن أعدائهم الخوارزميين ويستعدونهم أيضا على العباسيين . وقد قام أبناء جنكيزخان بعد وفاته عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م بتوسيع حدود الإمبراطورية الواسعة التي كان قد تركها لهم ، فاستولوا على بقية فارس وعلى العراق وأسقطوا الخلافة العباسية في بغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، كما استولوا على الجزيرة وأرمينية وآسيا الصغرى وبلاد القفجاق وعلى بلاد الشام . وإنما أوقف زحفهم سلاطين المماليك الذين حكموا مصر عندما هزموهم في موقعة عين جالوت في عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م[٤] .

وقد اقتسم أبناء جنكيزخان هذه الإمبراطورية الواسعة وكانت بلاد القفجاق من نصيب جوجي بن جنكيزخان وأبنائه من بعده . وقد أطلق عليهم اسم مغول القبيلة الذهبية نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبي ، وكان غالب سكان هذه البلاد من الأتراك والتركمان . واعتنق الإسلام واحد من سلالة تلك الأسرة آل إليه الحكم هو

بركة (بركاي) بن باطو بن جرجي في عام ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م . وصار بنو بركة يحكمون هذا الجزء من إمبراطورية المغول الذي كان يمتد من خوارزم شرقا إلى أرض البلغار غربا ومن القرم وحدود القسطنطينية جنوبا إلى الأراضي الروسية شمالا . وكانت عاصمته صراى (سيراى Serai) تقع على ضفة نهر الفولجا[٥] .

وكان من نصيب هولاكو بن طولي بن جنكيزخان وبنيه من بعده بلاد فارس والجزيرة والعراق وأرمينيا وآسيا الصغرى ، واتخذوا من تبريز عاصمة لدولتهم في تلك البلاد . أما جغطاى بن جنكيزخان وبنوه من بعده فقد كان من نصيبهم آسيا الوسطى بما فيها من بلاد خوارزم وما وراء النهر وتركستان الشرقية وبلخ وغزنة ، واتخذوا من مدينة سمرقند عاصمة لهم واقتصر أوكتاى بن جنكيزخان على منصب « الخان الأكبر » لكافة المغول وحكم بلاد الصين والخطا . وكانت مدينة قراقورم عاصمة للإمبراطورية كلها بكافة ممالكها الأربع : مملكة المغول في آسيا الوسطى ، ومملكتهم في فارس والعراق وآسيا الصغرى ، ومملكتهم في بلاد القفجاق ، ومملكتهم في بلاد الصين والخطا[٦] .

تحالف النصرانية الصليبية مع البوذية ضد انتشار الإسلام بين المغول :

وقد انتشر الإسلام بين المغول في الممالك الثلاث الأولى وتحولت إلى دول إسلامية بعد حوالي نصف قرن من الصراع بين الإسلام من ناحية ، وبين النصرانية والبوذية اللتين تحالفتا ضده من ناحية أخرى . وكان الصليبيون الأوربيون قد أرادوا أن يعوضوا مافقدوه في بلاد الشام ، وانتهزوا فرصة ظهور المغول على مسرح الأحداث واكتساحهم للعالم الإسلامي ، وحاولوا بتوسعهم أن يحولوا هؤلاء المغول إلى النصرانية وأن يتحالفوا معهم ضد سلاطين المماليك لاسترداد بيت المقدس وبلاد الشام من أيدي حكام مصر ، واستطاعوا في البداية استمالة المغول إلى جانب النصرانية وأتباعها في آسيا منذ عهد جنكيزخان . ووثقت من صلات الود مصاهرة خانات المغول للنصارى ، فزوجة جنكيزخان كانت من قبيلة كرايت النصرانية التترية ، وزوجة ابنه وخليفته على عرش الخانية أوكتاي (٦٢٦ - ٦٣٩هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤١م) كانت من نفس هذه الأسرة . وزاد تعاطف المغول مع النصرانية في عهد كيوك خان بن أوكتاي (٦٤٤ -

٦٤٧هـ / ١٢٤٦ - ١٢٤٩م) فقد كانت أمه نصرانية كما دان بالنصرانية أيضا رئيس وزرائه وأحد كتابه ، وهكذا أصبح القساوسة النسطوريون محل رعايته السامية واكتظ بهم بلاطه ، ووفد إليه رسل البابا أنوسنت الرابع في عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م ، كما وصل رسل البابا نفسه إلى تبريز يطلبون حلفا مع مغول إيران ضد الأيوبيين[٧] .

كذلك وفد رسل ملوك أوربا إلى قراقورم في عهد منجوخان (٦٤٨ - ٦٥٥هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧م) يستهدفون التحالف مع المغول ضد المسلمين . فوصلت بعثة لويس التاسع ملك فرنسا إلى ذلك الخان في عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م ، ولم تحقق هذه البعثة نجاحا يذكر لاشتراط منجوخان أن يدخل الملوك النصارى في طاعته إذا ماأرادوا التحالف معه . على أن هيثوم Hethoum ملك أرمينية النصراني استطاع أن ينجح فيما فشل فيه لويس التاسع إذ قدم إلى قراقورم في عام ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م وقدم نفسه كتابع للخان الكبير ، فأحسن الخان استقباله واقتنع بوجهة نظره في غزو بغداد ، وكلف أخاه هولاكو بالقيام بهذه المهمة . وتمّ ذلك وسقطت بغداد في يد هولاكو عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وابتهج النصارى في كل مكان بتدمير بغداد . وبرزت دلائل التعاون بين هولاكو وبين النصارى في آسيا أثناء غزوه لبلاد العراق ، فقد ضمت جيوشه وحدات عسكرية من الكرج النصارى الذين كانوا أول من اقتحم أسوار بغداد وقد كانوا يعرفون بشدتهم وعنتهم في التخريب والتدمير . واستمر هذا التعاون أثناء غزو هولاكو لبلاد الشام ، فقد دخل هيثوم Hethoum ملك أرمينية ومعه حليفه وزوج ابنته بوهيمند السادس Behemond VI ملك أنطاكية الصليبي في حلف مع هولاكو ورسموا خطة الغزو في لقاء جمع بينهما ، وانضمت جيوش هيثوم إلى هولاكو وقدم البطريق الأرمني يمنحه بركته مما أعطى الطابع الصليبي لحملة حفيد جنكيزخان المغولية الأرمنية على بلاد الشام . وانتهز هذه الفرصة البابا إسكندر الرابع Alexander IV فأرسل بعثة إلى هولاكو تستميله إلى النصرانية بعد سقوط بغداد بعامين . كذلك أرسل أربعة من البابوات هم كليمنت الرابع Clement IV وجريجوري العاشر Gregoryx ويوحنا السادس والعشرون John XXVI ونقولا الثالث Nicholas III وفودا ورسائل إلى ابنه أباقا خان الذي اعتلى عرش إيران بعد أبيه هولاكو لأجل الهدف نفسه[٨] .

وقد نتج عن هذا التقارب بين المغول والنصارى في آسيا وأوربا أن ارتفع شأن الأخيرين كثيرا في دولة مغول فارس واعتنق النصرانية بعض المغول وأمرائهم وبخاصة أولئك الذين احتلوا أرمينية وجورجيا . كما اعتنقها أيضا عدد من الوزراء والقواد المغول مما أدى إلى تعرض المسلمين لكثير من مظالم الاضطهاد من القتل إلى السخرية بعلمائهم والتنكيل بهم إذا ماانتصروا في المناظرت التي كانت تعقد بينهم وبين البوذيين والنصارى . كما منع المسلمون من ذبح الحيوانات تبعا لأحكام دينهم وأقبل على انتهاز تلك الفرصة السانحة الواشون الطامعون في الكسب من البلاء الذي يصيب الآخرين والحصول على المكافأة نظير وشايتهم بالمسلمين . وسلك أرقاء نفس السبيل لكسب حريتهم وهكذا انهال على المسلمين العديد من صنوف الأذى والاضطهاد وهلك منهم كثيرون بل تجاوزت محنة الاضطهاد كل حدّ معقول فاختلفت الأحلام والرؤى التي تحض على قتل المسلمين جميعا وتخليص البلاد منهم فذهب راهب بوذي إلى أوكتاي في قراقورم وقص عليه أنه رأى في منامه أن أباه جنكيزخان يأمر ابنه أوكتاي بضرورة العمل على هلاك المسلمين في جميع البلاد . وإذا كانت هذه الوشاية لم تنجح إلّا أنها تدل على مدى استعار العداء ضد الإسلام لا من جانب الصليبية النصرانية فقط بل من جانب البوذية أيضا(٩) .

ولكن جهود النصارى والبوذيين باءت بالفشل في النهاية ولم تحقق هاتان الديانتان انتشارا يذكر بين المغول في الممالك الثلاث سالفة الذكر ، ذلك أن التحالف الذي بين الصليبيين ومغول فارس بالذات تهاوى أثره بعد هزيمة عين جالوت في عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م وفيما تلاها من معارك نشبت بينهم وبين الظاهر بيبرس الذي تحالف مع مغول القفجاق الذين كانوا قد أسلموا ، مما دفع بمغول فارس إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة وانصرفوا إلى حد كبير عن تأييد النصرانية . وقد أساء إلى النصارى وسمعتهم كثيرًا ماقاموا به في غربي آسيا من فظائع ضد المسلمين ومن ذلك ماجرى في دمشق وغيرها من مدن الشام إبان احتلال المغول لتلك البلاد . كذلك شغل كثير من رجال الدين النساطرة بالتكالب على بيع المناصب الدينية وبدا للعيان مدى مخالفتهم في سلوكهم لتعاليم النصرانية وقد وقع بين هؤلاء وبين المبشرين الوافدين من روما وأوربا كثير من التناحر

من جرّاء اختلاف المذاهب . فتهاوى الأمل في إحراز نصر كبير للنصرانية بين المغول و لم يتمكن البوذيون كذلك من إحراز نصر إلّا في دولة المغول الرابعة في بلاد الصين والخطا حيث كانت الأغلبية من السكان هناك تدين بالوذية وغيرها من الأديان الوثنية المنتشرة في شرقي آسيا[١٠] .

وانتصر الإسلام في ممالك المغول الثلاث : في آسيا الوسطى وفي فارس وفي بلاد القفجاق ، ودان به أهلوها حكاما ومحكومين وأصبحوا جندًا له بعد أن كانوا أعداءه ومحاربيه من قبل .

عوامل انتشار الإسلام بين المغول :

وجد المغول أنفسهم بعد أن استولوا على معظم البلاد الإسلامية في آسيا أمام أناس يفوقونهم كثيرا في الحضارة والثقافة والفكر . فقد كان المغول قبائل بدوية لم تعرف الحضارة في مظاهرها المادية أو الفكرية كما عرفها المسلمون ومن ثم كان تحول هؤلاء المغول إلى الحياة المتحضرة لهذه الأغلبية المسلمة وإلى دينهم الذي كان قاعدة تلك الحياة والحضارة مسألة وقت ، لاسيما أن المغول كانوا يدينون بالشامانية وهي ديانة بدائية وثنية تقوم على عبادة الشمس والقمر وليس في وسعها أن تباري الإسلام في عقيدته وشريعته . وقد كانت ديانة الأغلبية الساحقة في معظم أنحاء الإمبراطورية المغولية . وعلى الرغم من التأثير النصراني على كثير من رجال البلاط المغولي سواء في قراقورم أم في عواصم الممالك التي إنقسمت إليها إمبراطورية المغول من الناحيـة الفعلية ، فإن كثيرا من خانات المغول وإيلخاناتهم (نوابهم في حكم تلك الممالك) أظهروا قدرا معقولا من التسامح تجاه الأديان الأخرى من إسلام ونصرانية وبوذية وسمحوا لأصحابها بإقامة المناظرات الدينية مع رجال الديانة الشامانية المغولية[١١] .

ولعل هذه السياسة المغولية تجاه الأديان إنما قامت لتهدئة الأمور في البلاد المستولى عليها بعد ذهاب فورة الغزو التي اتسمت بالتدمير والتخريب وقتل مئات الألوف من المسلمين وهدم كثير من المدن الإسلامية . فكان المغول يظهرون سياسة التسامح الديني في أحيان كثيرة من أجل توطيد نفوذهم واستقرار أمرهم داخل إمبراطوريتهم . وكانوا في الوقت

نفسه يبدون نفس الاهتمام بإظهار عطفهم على النصرانية ويتصلون بملوك أوربا وبابواتها ويتحالفون معهم ليواجهوا ماكان يتهدد دولتهم من خطر خارجي من قبل سلاطين المماليك الذين كانوا أعداء الفريقين : المغولي والأوربي .

وقد أدت سياسة التسامح الديني في الداخل إلى انتشار الإسلام وتغلبه على أعدائه من دعاة البوذية والنصرانية الذين كانوا يتجهون بنشاطهم إلى الطبقة العليا من المجتمع المغولي بينما كان يتجه دعاة الإسلام إلى هؤلاء وغيرهم من طبقات المغول ، فأخذ الإسلام ينتشر في هدوء . ومما أعان على هذا الانتشار أن المغول وجدوا أنفسهم وبخاصة في المناطق التي تقع شمالي فارس - في تركستان وماوراء النهر وخوارزم ومايليها غربا وشمالا في حوض الفولجا والقوقاز - وجدوا أنفسهم يعيشون بين قبائل تركية اعتنقت الإسلام منذ زمن . ويشترك المغول معها في الأصول العرقية ويتشابهون معها في كثير من العادات والتقاليد والميول والنزعات . وكان من الطبيعي أن يتأثر المغول بهذه القبائل التركية المسلمة ، ولاسيما بعد أن اختلطوا بها وصاهروها وتزوج كثير من خانات المغول وإيلخاناتهم وأمرائهم وقوادهم بتركيات وفارسيات مسلمات ، واتخذوا من الأسيرات المسلمات سرارى . وكان لذلك بالطبع أثره في بلاط المغول وفي الأسر المغولية بصفة عامة مما أدى في النهاية - مع العوامل الأخرى - إلى تحول المغول إلى الإسلام .

وقد ذكر ابن خلدون أن جنكيزخان بعد أن تغلب على خوارزم شاه عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، أسر أمه وبناته وتزوج ابنه جوجي واحدة منهن وتزوج زعماء آخرون من المغول ببنات البيت الخوارزمي . وينبغي ألا ننسى أن جوجي هذا هو جد « بركة » خان بلاد القفجاق الذي كان أول من أسلم من إيلخانات المغول عام ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م . وغضب لغزو هولاكو لبغداد وتوعده بالقتال جزاء ماأصاب خليفة المسلمين وعاصمة الخلافة من هوان ودمار وما أصاب أهلها من هلاك . ويخبرنا أيضا رشيد الدين الهمداني أحد وزراء إيلخانات مغول فارس أن أبا قاخان الذي خلف أباه هولاكو على عرش تلك البلاد كانت إحدى زوجاته مسلمة ، وأن أحمد تكودار بن هولاكو أول من

أسلم من إيلخانات فارس كانت زوجاته مسلمات ، كما كانت إحدى زوجات أرغون خان بن أباقاخان بن هولاكو مسلمة ، وكذلك كانت زوجات كنجاتوخان بن أبا قاخان مسلمات .

وإذا كان الزواج من مسلمات قد وقع في قمة السلطة المغولية فلاشك أن نفس الظاهرة قد تحققت أيضا بصورة أكثر بين المغول الذين سبوا آلاف المسلمات أثناء المعارك وبعدها فكما قربت سبايا الفرس بين العرب والفرس ودعمت الصلة بينهما في صدر الإسلام مما أعان على نشر الإسلام في فارس ، قربت السبايات المسلمات بين المغول وبين المسلمين ونتج عن هذا الزواج جيل جديد اعتنق الإسلام تدريجيا حتى عم جميع المغول تقريبا في أقل من قرن من الزمان .

كذلك أعان على تحوّل المغول إلى الإسلام ماكان من استعانتهم بالمسلمين في مختلف المناصب فقد كان معظم وزراء المغول وكتابهم وغيرهم من موظفيهم من المسلمين نظرا لبداوة المغول وافتقارهم لمعرفة أساليب إدارة البلدان المفتوحة . وقد أبدى كثير من زعماء المسلمين وفقهائهم ومتعلميهم الرغبة في التعاون مع الحكم المغولي في بلادهم بعد أن أصبح حقيقة واقعة . وقد يخفف تعاونهم مع هؤلاء الفاتحين من غلوائهم في معاملة المسلمين ويكبح جماحهم ، ويجنح بهم إلى المسالمة والتعايش مع هذه الأغلبية المسلمة فيستفيد الفريقان حكاما ومحكومين . وقد تحقق ذلك فعلا وانتعشت أحوال المسلمين في النهاية وصمدوا أمام تغلغل النصرانية بين بعض زعماء المغول وأمرائهم وفي بلاطهم ، وأصبح للموظفين المسلمين نفوذ كبير في دولة المغول بعد أن استخدمهم الخانات في الوظائف الهامة[١٥] .

ففي قراقورم استعان جنكيزخان بثلاثة من المسلمين كانوا من أشد الناس إخلاصا له ، وهم جعفر خوجا ، وحسن ، ودانشمند الحاجب . وبعد أن اتسعت دولة جنكيزخان اتخذ من أحد المسلمين المسمى محمود يلواج مستشارا ووزيرا له بجانب اثنين من وزرائه غير المسلمين . ولثقته في محمود يلواج عينه نائبا عنه في حكم بلاد ماوراء النهر وظل محمود يلي هذا المنصب في عهود أبناء جنكيزخان الذين خلفوه على عرش الخانية

وبذل جهودا كبيرة في تعمير ماخربه المغول وإصلاح حال الناس وتخفيف آثار الكوارث الفادحة التي أوقعها المغول بالرعايا في تلك المنطقة أثناء غزوهم لها ، فشعر الناس بالطمأنينة والأمان[١٦] .

وقد صعد نجم هذا الوزير المسلم في عهد كيوك خان خليفة جنكيزخان إذ نصبه حاكما على مملكة الخطا ، كما تم تعيينه حاكما على بلاد الصين في عهد منجوخان عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م فازداد نفوذه وعين ابنه مسعودا على تركستان وماوراء النهر وبلاد الأويغور وفرغانة وخوارزم ، وقام الأب والابن بأداء مهمتهما خير قيام ونهضا بالبلاد نهضة مباركة ، فازداد العمران . وانتشرت المدارس التي أسسها مسعود من ماله الخاص في بخارى وكاشغر وغيرهما ، وقامت هذه المدارس بدور كبير في بث روح الإسلام بين المغول الفاتحين وحافظت على تراثه والتف حولها الأئمة وعلماء الإسلام والمعلمون الذين أغدقت عليهم العطايا والمنح[١٧] .

وفي عهد قوبيلاي خان (٦٥٨ –٦٩٣هـ / ١٢٦٠ – ١٢٩٤م) ، شغل المسلمون والفارسيون منهم خاصة مكانة سامية في بلاط قراقورم فكانوا مستشارين في الشؤون العسكرية كما شغلوا منصب الوزارة بعد وفاة محمود يلواج . فقد تولاه من كان يلقب بالسيد الأجل البخاري وتولى ابنه ناصر الدين حكم ولاية قراجانك – إحدى ولايات الخطا – نائبا عن الخان ، وظل السيد الأجل يشغل منصب وزير الخان مدة خمسة وعشرين عاما (٦٥٨ – ٦٨٢هـ / ١٢٦٠ – ١٢٨٤م) . وبعد وفاته تولاها مسلم فارسي آخر هو الأمير أحمد البناكتي الذي لم يلبث أن قتل في مؤامرة دبرها له حساده[١٨] .

هذا في قراقورم ، أما في عواصم ممالك المغول الأخرى فقد كانت معظم المناصب يتولاها مسلمون أيضا ، إذ أنهم كانوا هم الحكام السابقين لشعوبهم ذات الأغلبية المسلمة وكانوا أدرى الناس بإدارة بلادهم . ففي فارس عيّن هولاكو مؤسس دولة المغول في فارس ، نصير الدين الطوسي مستشارا ووزيرا له ، كما عين معين الدين بروانة وزير السلاجقة الروم في آسيا الصغرى الذين كانوا قد دخلوا في طاعة المغول . كما فوض هولاكو إلى شمس الدين محمد الجويني منصب صاحب

الديوان للبلاد كلها ، وهو بمثابة رئيس الوزراء في مصطلحات عصرنا ، كما أطلق يده في حل الأمور وعقدها ، وعهد بحكم بغداد إلى أخيه المؤرخ الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني صاحب كتاب « تاريخ جهانكشاي » أي تاريخ فاتح العالم ، والمراد به جنكيزخان(١٩) .

استمر شمس الدين الجويني وأخوه الصاحب علاء الدين في منصبيهما في عهد أباقاخان ابن هولاكو (٦٦٣ - ٦٨٠هـ / ١٢٣٦ - ١٢٨٢م) وعيّن هذا الخان حكاما مسلمين في سائر أنحاء مملكته : في فارس وديار بكر وأصفهان ومعظم ولايات العراق الخمس وقزوين وديار ربيعة وكرجستان وأنعم على مايقرب من مائة عالم كبير من تلاميذ نصير الدين الطوسي ممن كانوا مقيمين في تبريز ، كما اتخذ قائدا مسلما يسمى عبد الله آقا ضمن قواده الآخرين(٢٠) .

استمر إيلخانات فارس في إسناد منصب الوزارة إلى المسلمين حتى بعد التخلص من الإيلخان المسلم أحمد تكودار (٦٨١ - ٦٨٣هـ / ١٢٨٢ - ١٢٨٤م) . وقد كان خلفه أرغون (٦٨٣ - ٦٩٠هـ / ١٢٨٤ - ١٢٩١ م) قد أسند الوزارة إلى اليهودي سعد الدولة الذي اضطهد المسلمين اضطهادًا كبيرا ، إلا أن هذا الاضطهاد انتهى بموت الوزير والخان . واستأنف المسلمون توليهم لمنصب الوزارة في عهد الخان الجديد كيخاتو (٦٩٠ - ٦٩٤هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٥م) ، فقد تولاها صدر الدين الزنجاني الذي خوطب بلقب (صدر جهان) ، أو صدر العالم ، وتولى أخوه قطب الدين منصب قاضي القضاة ولقب بلقب قطب جهان ، أي قطب العالم وأسند إليه حكم مدينة تبريز عاصمة الدولة وأسند إلى ابن عمه حكم العراق ولقب بلقب قوام الملك .

ومن الطبيعي أنه كان لإسناد هذه الوظائف العليا وغيرها من الوظائف إلى المسلمين أثر كبير في انتشار الإسلام بين سائر الموظفين ، بل وبين الأمراء وخانات المغول أنفسهم ، فمن الأمراء نجد أميرًا مسلما يسمى أحمد أوغول بن بوري بن جفتا ، وكان قائدا من قواد أباقاخان ، كما نجد أميرا آخر أعلن إسلامه هو الأمير حسن بن بوقو الذي كان صديقا لكيخاتو منذ الطفولة . ومن الخانات نجد الخان أحمد تكودار الذي أسلم متأثرا

بالموظفين المسلمين المتصلين به ، كما نجد الخان غازان الذي تولى حكم فارس (٦٩٤ - ٧٠٣هـ / ١٢٩٥ - ١٣٠٤م) واعتنق الإسلام عقب توليه الحكم وجعله دين الدولة الرسمي بتأثير وزيره وقائده المسلم المسمى نوروز[٢٢] .

وفي دولة المغول في آسيا الوسطى حدث نفس الشيء واتبعت نفس السياسة ، فقد اتخذ إيلخانها طغتاي « قطب الدين حبش عميد » وزيرا له ، وهو من منطقة أترار - قرب بخارى ، وكان له نفوذ ومكانة كبيرة عند المغول . واتخذ يسو بن شجاتي الإمام بهاء الدين مرغيناني وزيرا له في بلاد ماوراء النهر . وكان بيت هذا الوزير مقصدا للعلماء المبرزين المعاصرين جميعا كما جمع هذا الوزير نفسه بين العلوم الدينية والدنيوية وكان أبوه يتولى منصب شيخ الإسلام في فرغانة قبل الغزو المغولي . فلا غرو أن استعادت العلوم الإسلامية مكانتها وتحقق إحياؤها أثناء فترة حكم هذا الوزير وتأثر بنشاط هذا الوزير أيضا عدد كبير من الموظفين غير المسلمين من المغول واعتنقوا الإسلام . ومن هؤلاء هوكورجوز نائب الإيلخان في خراسان الذي كان يدين بالبوذية ولكنه اعتنق الإسلام قرب نهاية حياته[٢٣] .

ويعزى انتشار الإسلام بين المغول إلى مجهودات الجماعات الإسلامية التي ظهرت وقتئذ كرد فعل لما تعرض له العالم الإسلامي من غزو صليبي في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر للميلاد واستبداد بعض حكام المسلمين وظلمهم لرعاياهم فضلا عن سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م .

وتحت وطأة تلك الظروف القاسية لم يكن أمام الكثير من المسلمين من خيار إلّا الرجوع إلى الدين لعلهم أن يجدوا فيه مخرجا ويستمدوا منه قوة يواجهون بها ماأطبق عليهم من جلائل المحن . ثم كان أن اتجه الدعاة إلى جهد إيجابي مشكور حملوا فيه السلاح على قدر طاقتهم كما وسعوا دائرة الدعوة إلى الإسلام لتضم الغزاة الوثنيين الذين أخضعوا سائر بلاد المشرق الإسلامي لنفوذهم وحكمهم .

وحمل الدعاة عبء التدريس في المدارس والوعظ في المساجد وقادوا الناس لمقاومة الظلم والاضطهاد والاستغلال الذي ربما وقع عليهم من أصحاب السلطان ، بل اضطلعوا

بدور أساسي في مقاومة التبشير النصراني المدعوم من قبل ملوك أوربا وبابوات روما والذي كان قد لقي في بداية أمره استجابة وتعاطفا من خانات المغول حتى كلل الله سبحانه وتعالى جهدهم بانتشار الإسلام بين المغول أنفسهم،وهم الذين كانوا بالأمس ألد أعداء المسلمين . ولم يكتفوا بهذه المواقف الفذة بل تعدوها إلى الاستشهاد في ساحة الوغى وهم يدافعون عن العالم الإسلامي أمام هجمات المغول ويقاومون مدهم الطاغي . ولنا مثل في استشهاد الداعيتين نجم الدين كبرا وركن الدين إمام زاده اللذين استشهدا دفاعا عن جرجان وبخارى[٢٤] .

وكان للدعاة أثرهم البالغ في دخول كثير من المغول الإسلام في شرقي الدولة وغربيها بل إن تلاميذ الداعية نجم الدين كبرا واصلوا النضال ضد الغزاة المغول ، ثم كرسوا حياتهم بعد ذلك لإرشاد أولئك الغزاة وتعليمهم مبادئ الإسلام[٢٥]حتى أن بعض أولئك الدعاة اختار العمل في البلاط المغولي من أجل دفع الملوك وكبار المسؤولين إلى قبول الإسلام،لأنهم رؤوس القوم فإن أسلموا كان أحرى برعاياهم أن يسلموا أيضا . من هنا كان إسلام بركة إيلخان المغول القفجاق على يد الداعية شمس الدين الباخرزي تلميذ الداعية نجم الدين كبرا سببا في دخول أتباعه الإسلام . وكان الإيلخان بركة قد صادف شمس الدين الباخرزي في بخارى فأسلم على يديه وصحت صحبته له،فكان أن حثه على طاعة الخليفة العباسي في بغداد بل ومكاتبته ومبايعته والإهداء إليه . وقد استجاب بركة لنصائح أستاذه،فترددت الرسل والكتب بينه وبين الخليفة المستعصم ولما قتل هولاكو ابن عم بركة ذلك الخليفة،لم يجد بركة مناصا من إعلان الحرب على ابن عمه انتقاما منه على شنيع فعله وقبيح صنعه[٢٦] .

وقد ظهر في تركستان عشية الغزو المغولي دعاة عديدون عملوا على نشر الإسلام في تلك البقاع . ومن أشهر هؤلاء الدعاة محمد بن محمد بهاء الدين البخاري (٧١٧ – ٧٩١هـ / ١٣١٧ – ١٣٨٩م) الذي أنفق عمره في نشر الإسلام[٢٧] . واستفاد من خدمته لسلطان سمرقند في توسيع دائرة الدعوة لتعم سائر أرجاء تركستان كما أنشأ هو وتلاميذه مراكز لنشر الإسلام بين المغول والترك الوثنيين[٢٨] .

ومن الدعاة الذين كان لهم شأو عظيم في نشر الإسلام في تلك الجهات الداعية أبو فير بارسا (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) والداعية عبيد الله أهرار (ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م) والداعية كاشاني المعروف باسمَ « مخدوم أعظم » (٩٤٩هـ / ١٥٤٢م) ونتج عن جهود هؤلاء الدعاة وغيرهم من العلماء أن دخل مغول آسيا الوسطى والصغرى ، وفارس في الإسلام وأصبحوا يحافظون على أحكامه ويتمسكون بتعاليمه . وقد لاحظ ذلك عالم أوربي زار آسيآ الوسطى في منتصف القرن (الثالث عشر الهجرى) التاسع عشر للميلاد وذكر أن مسلمي تلك البلاد يتمسكون في إخلاص بمبادىء الإسلام وتعاليمه[٢٩] .

كذلك ظهر لون آخر من الدعاة المسلمين يعرفون باسم « الأخوان » وهم ليسوا أكثر من جماعات دعوية تعمل في شكل تنظيمات وكانت لهم دور ينطلقون منها لبث دعوتهم في المناطق المختلفة . ويعود ظهور هذه الجماعات إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين وكانت لهم حرف يحترفونها ويعطون كل مايكسبونه منها من مال لرئيسهم الذي كان ينفق منه على تلك الدور وما يلزمها وعلى الضيوف الذين يحلون بها . وقد حل ابن بطوطة أثناء مروره ببعض تلك الدور في قونية وغيرها من بلاد آسيا الصغرى حيث كان محل حفاوة وتكريم . وعملت جماعات الدعاة هذه على نشر الإسلام وبخاصة بين أصحاب المكانة والسلطان من المغول . ومن أبرز رؤسائهم وقتذاك « شرف الدين » الذي توفى في أنقره عام ٧٥١هـ / ١٣٥٠م ومروان الذي عرف أتباعه باسم (أمن بابا) وقد أوفدوا دعاتهم إلى بلاد القرم وغيرها لنشر الإسلام[٣٠] .

وهكذا تظاهرت عوامل عدة على مقاومة الجهود المعادية للإسلام من قبل النصارى والبوذيين ، وتحقق للمسلمين النجاح الباهر فى نشر الإسلام بين المغول ونجحوا في كسر همجيتهم ثم تغلبوا على وثنيتهم واستطاعوا أخيرا أن يدخلوهم في الإسلام سواء في فارس أو في بلاد القفجاق أو في آسيا الوسطى .

تحول المغول إلى الإسلام :

في دولة بني هولاكو في فارس وصل الإسلام إلى قلب ثالث إيلخاناتهم وهو أحمد تكودار بن هولاكو (٦٨١ - ٦٨٣هـ / ١٢٨٢ - ١٢٨٤م) . وقد كان

نصرانيا في طفولته وعمّد باسم نيقولا ، لكنه إعتنق الإسلام عند ما بلغ سن الرشد بتأثير المسلمين الذين كانوا حوله . ولما إعتلى عرش إيران لقب نفسه بالسلطان أحمد ، وأرسل إلى بغداد يعلن إسلامه ويدعو أهلها إلى السير طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية ، كما بذل قصارى جهده لتحويل كافة المغول إلى الإسلام وبذل في ذلك العطايا والمنح وألقاب الشرف حتى أن عددًا كبيرًا منهم دخل في الإسلام . وقد أراد السلطان أحمد أن يزيد في روابطه بالإسلام والمسلمين فبعث إلى سلطان في مصر المنصور رسالة يؤكد حبه للإسلام وإخلاصه لتعليمة ، ويعلن أنه قد أرسل بعض الشيوخ لدعوة المغول إلى الإسلام كما أخذ الناس بأحكام الشريعة الإسلامية وأمر برعاية أوقاف المساجد والمشاهد والمدارس والربط وتأمين سبل الحج وحماية قوافله ، كما أعلن أنه فتح بلاده لتجار مصر والتمس محالفة سلطانها حتى « تعمر البلاد وتسكن الفتنة الثائرة » وينتهي العداء بين مغول فارس وسلاطين مصر[٣١] .

ولكن هذا الإيلخان المسلم لم يستمر في الحكم مدة طويلة ، فقد ثار عليه ابن أخيه أرغون ابن أبي قاخان وقتله وأعتلى العرش مكانه . ويذكر ابن خلدون والقلقشندى أن عسكر أحمد تكودار كانوا ينقمون عليه إسلامه فثاروا عليه وقتلوه[٣٢] . ويوافقهم على ذلك مؤرخون محدثون . لكن مؤرخ المغول المسلم المعاصر لهذا الحدث وهو رشيد الدين الهمداني يعطينا رواية تفيد بأن أحمد تكودار لم يقتل بسبب إسلامه وإنما بسبب طمع ابن أخيه أرغون بن أبي قاخان في عرش أبيه الذي حرمه منه عمه أحمد تكودار بإسراعه في إعتلائه ذلك العرس دون إنتظار لحضور أرغون الذي كان غائبا من تبريز في ذلك الوقت . كما أن الجند كانوا قد ضاقوا ذرعا بالسلطان أحمد لإستبداده وتعسفه معهم . كذلك كان لدافع الثأر من هذا السلطان الذي كان قد قتل الأمير قورنقورتاى صديق أرغون ظنا منه أنهما يتآمران عليه أثره في إتحاد خصومه ضده فنجحوا أخيرا في القبض عليه وقتله[٣٣] .

وعلى ذلك فلم يأت مقتل أول سلطان مغولي مسلم في فارس نتيجه لإسلامه إذ كانت روح الإسلام تسرى بين المغول وأدى إحساس المغول بمن فيهم من وثنيين بأنهم

يعيشون بين أغلبية مسلمة إلى تحوّطهم وتدبّرهم العواقب في رسم سياستهم فعلى الرغم من انتصار أرغون الوثني على عمه أحمد تكودار واضطهاده للمسلمين على يد وزيره اليهودي وعلى الرغم من بقاء خليفتيه من بعده كيخاتو وبايدو على الوثنية ، وعلى الرغم من فرح النصارى بذلك كله ، إلا أن الإسلام كان يسير بخطى حثيثة واطّرد تزايد الداخلين فيه من المغول في فارس . ومن ثم لم يكن في وسع أرغون (٦٨٣ - ٦٩٠هـ/ ١٢٨٤ - ١٢٩١م) وكيخاتو (٦٩٠ - ٦٩٤هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٥م) وبايدو (٦٩٤هـ / ١٢٩٥) إلّا أن يداروا المسلمين ويخفوا ميولهم وعطفهم على النصارى . وقد احتفل المسلمون بعيد الفطر في الحاضرة تبريز احتفالا كبيرا في عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م وأقاموا المنابر وحضر القضاة والأئمة وعامة المسلمين وأدوا صلاة العيد في مظهر رائع ، فلم يكن من أرغون إلّا أن أنعم على القضاة والخطباء وشملهم بعطفه ورعايته . كذلك تزوج أرغون بإحدى المسلمات كما أسلم حفيده من ابنته أولجتاي وتسمى الأمير حسين . فلما آل الأمر إلى كيخاتو قرر إعفاء علماء المسلمين وأشرافهم من بني هاشم من دفع جميع الضرائب على اختلاف أنواعها وصدرت أوراق عملته تحمل نقوشا إسلامية ، فكان على وجهيها نقش الشهادتين وهي « أشهد ألا إله إلّا الله وأن محمدا رسول الله » كذلك أسند كيخاتو وزارته إلى صدر الدين الزنجاني وصار حكم تبريز والعراق في أسرة هذا الوزير ، كما قرب إليه أمراء المغول من المسلمين مثل الأمير حسن بوقو . أما بايدو وعلى الرغم لبسه الصليب في عنقه كان لايجسر على إظهار عطفه على النصارى وبلغ من محاولته ترضية المسلمين أن جعل ابنه يصلي معهم كما يصلون . وقد شجعت هذه السياسة التي اتبعها هؤلاء الخانات كثيرا من المغول على الدخول في الإسلام وأصبحوا يؤدون فرائضه ويحملون المسابح في أيديهم ويكثرون من التنسك[٣٤] .

وبلغ ذلك التطور غايته بانتصار الإسلام انتصارا حاسما نهائيا للإسلام في عهد غازان ابن أرغون بن أباقاخان بن هولاكو (٦٩٤ - ٧٠٣هـ / ١٢٩٥ - ١٣٠٤م) سابع إيلخانات فارس من المغول . فقد اعتنق غازان الإسلام وجعله الدين الرسمي للدولة في اليوم الرابع من شعبان لعام ٦٩٤هـ / ١٩ يونية لعام ١٢٩٥م . ويكاد يجمع المؤرخون

على أن غازان اعتنق الإسلام بتأثير قائده ، ووزيره نوروز الذي أبدى استعداده بمؤازرته في صراعه ضد بليدو ، الذي كان قد قتل كيخاتو طمعا في العرش ، على أن يقطع على نفسه عهدا باعتناق الإسلام . وقد أوفى غازان بوعده وأسلم على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين حمويه ، وحسن إسلامه وتسمى باسم السلطان محمود . واقتفى أثره جنده وقواده الذين قدر البعض عددهم بعشرة آلاف وقدره البعض الآخر بمائة ألف . ووزع غازان بمناسبة إسلامه كثيرا من العطايا على العلماء والشيوخ ، كما زار المقابر والمساجد ، و لم ينس أن يرسل بنبأ إسلامه إلى العراق وخراسان ، وأخذ يتعلم من نوروز بعض الآيات القرآنية كما تعلم الصلاة وصام رمضان عام ٦٩٤هـ ، وكان يتناول معه طعام الإفطار في كل مساء الكثيرون من الترك والفرس[٣٥] .

وقد أشار بعض الكتاب الغربيين إلى أن غازان اعتنق الإسلام لمآرب سياسية فحسب ، ويدفع عنه هاتين التهمتين المؤرخ المعاصر له رشيد الدين فضلا عن كتاب غربيين آخرين . ويذكر هؤلاء أنه مهما تكون البواعث والنيات وراء إسلام غازان فإن مما ينفي ذلك بالضرورة اقتناعه بالإسلام وتحمسه له في الوقت نفسه . وقد بدا إخلاصه للإسلام قويا عندما رفض أن ينقش اسم الخان الأعظم على عملة فارس لأنه كافر وغير مسلم . وألغى غازان ماجرى عليه العمل باتخاذ لقب إيلخان أى نائب الملك وتلقّب بـ« الخان » وهكذا لم يقبل أن يصبح نائبا لحاكم غير مسلم حتى ولو كان ذلك هو الخان الأعظم . كما أن في سيرة غازان وأقواله وأفعاله مايدل على تقواه وحسن إسلامه . ولربما دفعت إلى ذلك الشك في نوايا السلطان المسلم علاقته الطيبة بالبابا بونيفاس الثامن Boniface VIII وحروبه ضد سلاطين المماليك في مصر ، الذين كانوا يعتبرون في ذلك الوقت حماة الإسلام ضد صليبية العالم النصراني الأوربي[٣٦] .

أما علاقته الطيبة مع البابا بونيفاس الثامن ، فتعود لتوافق هدف كل منهما في محاربة سلاطين المماليك في مصر ، فالبابا كان يريد ذلك بعد أن نجح السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون في الاستيلاء على آخر حصن للصليبيين في عكا عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ولذلك دعا هذا البابا لحرب صليبية ضد مصر عام ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م ، وسعى إلى التحالف

مع المغول للانتقام من مصر . أما غازان فكان يريد أن يحقق حلم آبائه في السيطرة على بلاد الشام بل وعلى مصر نفسها لاسيما وأن حكام مصر والشام كانوا قد تحالفوا مع مغول القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق وقد كان هؤلاء على عداء مع غازان ومغول إيران . وكان كل من سلاطين المماليك وخانات فارس يريد التوسع كل على حساب الآخر ، وكم حرّض الأمراء الهاربون واللاجئون من البلدين الحكام الذين يلتجئون إليهم على غزو القوة التي فروا من سلطانها . وهكذا ساد العداء علاقات مصر وفارس في تلك الفترة ، لكن لم يستمر ذلك طويلا فما لبث أن ساد السلام وقامت علاقات الود والإخاء والمصاهرة والتحالف بين حكام فارس من المغول وبين حكام مصر والشام من المماليك بعد وفاة غازان[٣٧] .

وعلى الرغم من عداء غازان لسلاطين المماليك في مصر إلا أن اعتناقه الإسلام كان عاملا بالغ الأهمية بالنسبة لحركة الإسلام بين مغول فارس ، فقد أسلم معظمهم منذ ذلك الحين وانتصر الإسلام في مواجهة البوذية والنصرانية انتصارا نهائيا ، وزال الحاجز الذي كان يحول دون التفاهم بين الحكام والمحكومين في فارس . وأخذ غازان ومن جاء بعده من سلاطين المغول الذين كانوا جميعا مسلمين يعملون على رعاية مصالح رعيتهم وتحسين أحوالها ، وتزايد اتخاذ الأعوان من الوزراء والقواد من الأغلبية المسلمة مثل نوروز وصدرجهان ورشيد الدين الهمداني وسعد الدين الساوجي – وكان كل هؤلاء أعوانا للسلطان محمود غازان . وقد بذل هذا السلطان جهودا دائبة لمحاربة مختلف ضروب الفساد والظلم من شرب للخمر وبغاء وربا ونطق لألفاظ الكفر ، كما أخذ يعمل على بناء المدارس والمساجد . وسار على هذا النهج غيره من المغول فأقاموا كثيرا من المساجد في المدن والقرى وأوقفوا عليها الأوقاف . بل لقد أصدر غازان مرسوما أمر فيه جميع المغول والويغور باعتناق الإسلام والانقياد لأحكام الشريعة الإسلامية ، وكان لهذا المرسوم أثره الكبير في انتشار الإسلام بين الذين كانوا لايزالون على الوثنية من المغول ، كما انتظمت قوافل الحج من فارس وسائر المشرق الإسلامي إلى الأماكن المقدسة في بلاد الحجاز ، تحت حراسة فرقة عسكرية عينها غازان لهذا الغرض . كما أرسل غازان كسوة للكعبة

مطرزة بجميع ألقاب الإيلخانات ، وخصص لمشايخ العرب في مكة والمدينة اثنى عشر تومانا (ألفا) من الذهب[٣٨] .

وهكذا اكتملت مظاهر الإسلام وتقاليده في حياة المغول وخاناتهم في فارس حيث تم إسلامهم واندمجوا مع أتراك فارس واستبدلوا بلسانهم المغولي اللسان التركي وأصبح هؤلاء وأولئك على حدّ سواء من شعوب العالم الإسلامي منذ ذلك الحين ، وانتهى نفوذ البوذية تماما في فارس ، كما فقدت النصرانية النسطورية كل قوتها وتحول غالبية معتنقيها إلى الإسلام وانسلت البقية الباقية منهم إلى المناطق الجبلية في أعالي نهر دجلة واستقرت في أرمينية .

أما مغول القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق وحول حوض نهر الفولجا فقد نجحت حركة الإسلام بينهم قبل نجاحها في فارس بكثير ، وكان لهم موقف محمود من قضايا الإسلام منذ أن تولى حكمهم الإيلخان بركة (بركاي) بن جوجي بن جنكيزخان (٦٥٤ – ٦٦٦هـ / ١٢٥٦ – ١٢٦٧م) وقد أسلم قبل اعتلائه العرش أثناء وجوده في بلاد ماوراء النهر حيث التقى بتاجرين قادمين من بخارى ، فشرحا له تعاليم الإسلام وانتهى الأمر بإسلامه على يديهما ، وهناك رواية أخرى تقول أن إسلامه كان بتأثير مشايخ خوجند وبخارى وبخاصة الشيخ شمس الدين الباخرزي الذي أسلم بركة على يديه ، وعاهده على أن يحمل قومه جميعا على اعتناق الإسلام ونفذ بركة عهده وأسلم قومه جميعا واتخذ في جميع بلاده المساجد والمدارس وقرب العلماء والفقهاء ووصلهم وأجزل لهم العطاء[٣٩] .

ويعتبر بركة أول من أسلم من إيلخانات المغول ، وقد أخلص للإسلام الإخلاص كله واتخذ كل جيشه من المسلمين ، وجرت العادة أن يحمل كل فارس في هذا الجيش سجادة للصلاة حتى إذا ماحان وقت الصلاة أدوا الفريضة على أكمل وجه ، كما كان لكل أمير وأميرة في بلاطه إمام ومؤذن خاص . وكان الأطفال يحفظون القرآن في المدارس التي أنشأها لهم . وقد فتح هذا الإيلخان المسلم بلاده لمشاهير العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء وعلماء الكلام ، وأصبحت مجالسه تغص بهؤلاء ، وتجرى فيها المناظرات الدينية

بينه وبينهم أو بينهم وبين أصحاب الأديان الأخرى . وكان هو نفسه سنيا شديد التمسك بدينه محبا له . وقد اشتد غضبه عندما تقدم هولاكو لغزو بغداد ولم يكن يستطيع منع هذا الغزو ، لكنه توعد هولاكو بالحرب بعد أن اعتدى على حرمة الخليفة وقتله وأهل بيته ودمر بغداد عاصمة الإسلام والمسلمين . وبدأ السلطان بركة يتخذ خطوات عملية لنصرة الإسلام ، فأمر من كان في جيش هولاكو من القبيلة الذهبية بتركه والفرار منه إلى الشام فمصر حيث استقبلوا هناك بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط الظاهر بيبرس الذي أقنعهم بدين الإسلام فاعتنقوه ، وتوافد غيرهم على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينا لهم(٤١) . وأخذ بركة يوثق علاقته بمصر حتى يتمكن من مواجهة هذا الغزو الوثني المغولي لبلاد الإسلام ، فأرسل إلى الظاهر بيبرس يؤكد إسلامه ، كما أعلن عدم استمراره في ذكر اسم الخان الأعظم على صكوك العملة المتداولة في بلاده باعتبار أن هذا الخان غير مسلم ، وتوّج جهوده في خدمة الإسلام بعقده معاهدة تحالف مع الظاهر بيبرس ضد هولاكو والصليبيين الأوربيين . ودعّم هذا التحالف بأن زوج بيبرس من ابنته . وفي عام ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م أخذ بركة بشن هجمات عسكرية ضد هولاكو لاستعادة منطقة القوقاز والانتقام لما حل ببغداد والخليفة المستعصم وقد استحوذت هذه الهجمات على انتباه هولاكو وجعلت من المستحيل عليه أن يقوم بشن غارات جديدة على بلاد الشام بعد هزيمته المنكرة في موقعة عين جالوت قبل ذلك بعامين . كما أدى هذا التحالف أيضا إلى تتابع المدد البشري من الرقيق التركي على سلاطين المماليك في مصر عبر البحر الأسود ، مما مكّنهم من مواصلة مقاومة الأعداء من الصليبيين ومغول فارس الذين كانوا لايزالون وثنيين في ذلك الوقت(٤٢) .

ولكن هذا المد الإسلامي الرائع الذي تحقق في عهد بركة خان ، أصيب بانحسار مؤقت عندما توفى هذا الخان وخلفه على العرش في سيراي – عاصمة مغول القفجاق – خان غير مسلم يدعى مونجكي تيمور وكما يسميه ابن خلدون منكوتمر (٦٦٦ – ٦٨١هـ / ١٢٦٧ – ١٢٨٢م) ، تماما كما حدث في فارس عندما قتل الإيلخان المسلم أحمد تكودار في عام ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م وتوالى بعده على العرش حاكمان غير مسلمين . وفي عهد

مونجكي تيمور ، نهضت القوى النصرانية في بلاد القفجاق بتأثير قائده نوخان الذي كان يعادي الإسلام ويعتنق الشامانية ديانة المغول الأصلية ، وبتأثير الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن Michael VIII Palaeologus الذي زوجه من إحدى بناته ، وبتأثير البابا جريجورى Gregory الذي دعم نشاط التجار والمبشرين النصارى الغربيين الوافدين إلى بلاد القرم وحوض الفولجا ببناء أبرشية لاتينيه في العاصمة سيراي بجانب الأبرشية الأرثوذكسية ، على أنه إذا كان النشاط التنصيري انتهى بالإخفاق في فارس فقد انتهى أيضا بالإخفاق في بلاد القفجاق . فقد خلف مونجكي ابنه تدان (٦٨١ - ٦٨٦هـ / ١٢٨٢ - ١٢٨٧م) الذي سرعان ماأعلن إسلامه وأرسل إلى مصر عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م يطلب « تقليد الخليفة واللقب منه والراية للجهاد فيمن يليه من الكفار » ، ثم ترهب وتنازل عن الملك وانقطع إلى صحبة شيوخ الصوفية وزهادهم . ثم آل الأمر بعد حرب أهلية إلى تختو (طغطاي) (٦٩٠ - ٧١٣هـ / ١٢٩١ - ١٣١٣م) حيث انتهى نفوذ القائد نوخان ونفوذ النصرانية الغربية والشرقية وانتصر الإسلام بصورة حاسمة عندما تولى أوزبك خان عرش البلاد (٧١٣ - ٧٤٢هـ / ١٣١٣ - ١٣٤١م) ، وصار من أتى بعده من خانات المغول في بلاد القفجاق مسلمين[٤٣] .

وقد اشتهر أوزبك خان بتحمسه لنشر تعاليم الإسلام وحرصه على تحويل من بقي من شعبه على الوثنية إلى الإسلام . وقد أرسل عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م إحدى الأميرات المغوليات لتكون زوجة للناصر محمد بن قلاون سلطان المماليك في مصر والشام ، كما أرسل إليه في العام التالي يطلب المساعدة والمساندة في جهاد الأرمن النصارى . ويرجع الفضل لهذا الخان في تثبيت دعائم الإسلام في بلاد القفجاق حيث حلت أحكام الشريعة الإسلامية محل قوانين الياسة المغولية ، كما أصبح اسمه علما على القبائل الأوزبكية في أواسط آسيا والتي اشتقت اسمها من اسمه ولا يبعد أن تكون هذه القبائل قد تحولت إلى الإسلام في عهده[٤٤] .

وأتى إسلام إيلخانات مغول تركستان وأواسط آسيا في نهاية المطاف ، بعد أن أسلم إيلخانات فارس والقفجاق . وكان دعاة الإسلام في أواسط آسيا قد عنوا بنشر الإسلام

أولا بين عامة المغول وسرت دعوته في هدوء حتى وصلت في النهاية إلى الأسرة الحاكمة من بني جغطاي بن جنكيز خان ، وبلغت رأس هذه الأسرة « طرماشيرين » في عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٦م .

وكان إيلخانات المغول في آسيا الوسطى وتركستان في بداية حكمهم لتلك البلاد ، يضطهدون المسلمين ويؤذونهم ويمنعونهم من إقامة شعائر دينهم . فعل ذلك جغطاي ، لكن حفيده مباركشاه ربته أمه أورغانا خاتون زوجة قراهولاكو على الإسلام فكان أول أمير مغولي يعتنق الإسلام في أسيا الوسطى . وقد تقدم هذا الأمير في عام ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م مطالبا بعرش جده جغطاي الذى كان مثار نزاع بين أمراء المغول في ذلك الوقت . على أن ابن عمه غير المسلم براق خان بن بوري بن جغطاي تمت له الغلبة واستطاع الاستيلاء على العرش تماما كما حدث لأحمد تكودار في فارس . وكما حدث في بلاد القفجاق عقب موت بركة خان المسلم وهكذا تعاقب العرش في آسيا الوسطى بعض الإيلخانات غير المسلمين ، ودخلوا في صراع مع جيرانهم من مغول فارس طمعا في ضم إقليم خراسان لأملاكهم . ولكننا نلحظ أنه كان يوجد بين أسرة بني جغطاي من اعتنق الإسلام ، فقد كان أخو براق خان يسمى أحمد أوغول واسمه يدل على إسلامه ، كما قيل أيضا بأن براق نفسه (ت ٦٦٩هـ / ١٢٧١م) أسلم قبيل وفاته بأيام قليلة وتسمى باسم السلطان غياث الدين(٤٥) ، ولكن خلفاءه على العرش كانوا غير مسلمين .

ولم يتم انتشار الإسلام بين المغول في مملكة بني جغطاي في آسيا الوسطى إلا في القرن التالي حينما أسلم « طرماشيرين » في العام الأول من ولايته (٧٢٥ - ٧٣٣هـ / ١٣٢٦ - ١٣٣٤م) ، على يد الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغي ، وحسن إسلامه وأمر قواده وأمراءه وجنوده باعتناق الإسلام . ولم يمض على ذلك عشر سنوات حتى عم الإسلام مغول آسيا الوسطى ، وبخاصة سكان الحضر منهم ، وذلك بتأثير طرماشيرين والمسلمين الآخرين الذين التفوا حوله من علماء ووعاظ وتجار ووزراء . وقد كان يحكم تلك البلاد وزراء مسلمون منذ بداية حكم جغطاي بن جنكيزخان مثل محمود يلواج ثم ابنه مسعود وغيرهما من الوزراء المسلمين الذين سبق الحديث عنهم ، والذين مهدوا

لنجاح حركة انتشار الإسلام في هذه البلاد[٤٦] .

وقد تحقق نجاح تلك الحركة تماما على يد تغلق تيمور خان (٧٤٨ - ٧٦٥هـ / ١٣٤٧ - ١٣٦٣م) ملك كاشغر والذي كان قد أسلم على يد فقيه زاهد من بخارى هو الشيخ رشيد الدين بن جمال الدين وعلى أيدي إخوانه من التجار . وأخذ هذا الخان على عاتقه نشر الإسلام بين رعاياه من الأمراء وغيرهم كما فعل طرماشيرين من قبل ، حتى أنه دخل في الإسلام في يوم واحد مائة وستون ألف مغولي ، وأصبح الإسلام دينا لسكان الحضر جميعا في الولايات الخاضعة لبني جغطاي .

أما البدو من المغول فقد بقي كثير منهم على الوثنية . وقد لجأ محمد خان أمير مغالستان (إحدى الممالك التي انقسمت إليها مملكة بني جغطاي في القرن الخامس عشر للميلاد والتي تسمى الآن باسم تركستان الصينية) إلى القوة في عام ٨١٩هـ / ١٤١٦م لإقرار الإسلام بين البدو . وبذل قصارى جهده حتى دانت معظم القبائل المغولية في عهده بالإسلام . وتحوّل من بقي على الديانة القديمة إلى الإسلام في خلال القرن التالي على يد بعض الدعاة من أمثال الشيخ (إسحاق ولي) الذي نشط في كاشغر وباركند وختان ، كما عنى أيضا بنشر الإسلام بين القرغيز والقازان وهدم ماعندهم من هياكل الوثنية وأصنامها[٤٧] .

وهكذا لم يمض خمسون عاما على اجتياح هولاكو لبغداد وقضائه على الخلافة العباسية حتى انحازت إلى الإسلام غالبية المغول ومعهم أمراؤهم الحاكمون في ثلاث ممالك مغولية في فارس وبلاد القفجاق وآسيا الوسطى ، وصاروا جندا له بعد أن كانوا أعداءه ومهاجميه . أما مملكة المغول في بلاد الصين فقد اندمج مغولها في السكان المحليين واعتنقوا البوذية واعتنق بعضهم الإسلام وبخاصة في غربي الصين . وبذلك استطاع الإسلام الأعزل الانتصار على الوثنية المدعمة بجحافل عاتية ، وصار المغول شعبا إسلاميا يتفاعل تماما مع الإسلام وعقيدته وشعائره وأحكامه ، وجاهدوا لنشر الإسلام في سيبريا وفي روسيا وما وصلوا إليه من أقاليم ، تماما كما فعل إخوانهم وبنو عمومتهم من الترك السلاجقة من قبل ، وكما سيفعله الترك العثمانيون من بعد .

الهوامش

(١) رشيد الدين فضل الله الهمداني : جامع التواريخ ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين المجلد الثاني ، الجزء الأول طبع مصر – بدون تاريخ ص ٢١٢ .

ابن خلدون : تاريخه ، المجلد الخامس ، القسم الرابع ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨١م ، ص ٧٩٨ ، ٧٩٩ .

القلقشندى : صبح الأعشى ، طبع مصر – بدون تاريخ جـ١ ص ٣٦٦ .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٩م ، جـ ١٢ ، ص ٣٦١

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ جـ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

(٣) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ١٢ ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

فؤاد الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ص ٥٣ – ٥٧ .

(٤) ابن الأثير : مصدر سابق ، حـ١٢ ص ٣١٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ .

ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق (قسم) ٤ ص ٧٩٥ ، جـ٥ ق ٥ ص ١١١٢ ، ١١١٤ .

القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٣ ص ٤٣٠ .

فؤاد الصياد : مرجع سابق ، ص ٢٦٤ ، ٣٠٨ .

ولمعرفة تفاصيل استيلاء جنكيزخان على بلاد ماوراء النهر وخوارزم وخراسان وغزنة .

انظر : ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ١٢ ، ص ٣٥٩ – ٣٩٩ .

فؤاد الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ص ١١١ – ١٣٨ .

(٥) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٣٠٨ .

ابن خلدون : مصدر سابق جـ٥ ق ٤ ص ٩٢٤ ، حـ٥ ق ٥ ص ١٠٨١ .

(٦) القلقشدي : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٣٠٩ ، ٤٧٧ .

ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٥ ص ١٠٨١ ، ١٠٨٢ .

فؤاد الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ، ص ١٦٥ .

(٧) أرنولد (توماس) : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د . حسن إبراهيم حسن وآخرون ، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠م ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

فؤاد الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ص ١٩٨ – ٢٠١ .

(٨) مصطفى بدر : معول إيران بين المسيحية والإسلام ، دار الفكر العربي بالقاهرة بدون تاريخ ص ٧ .

أرنولد : مرجع سابق ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ .

فؤاد الصياد : مرجع سابق جـ١ ص ٢١٠ – ٢١٥ ، ٢٨١ – ٢٨٢ ، ٢٩١ – ٢٩٤ .

(٩) فؤاد الصياد : المرجع نفسه ، جـ١ ص ١٩٢ – ١٩٣ ، ٢٢٤ .

أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٦ – ٢٥٧ .

(١٠) أرنولد : المرجع نفسه ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(١١) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ١٢ ص ٣٦٠ .

القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٣١٠ – ٣١١ .

فؤاد الصياد : مرجع سابق ، ص ٣٣٥ .
أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٥١ .
(١٢) أرنولد : المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ .
(١٣) الهمداني (رشيد الدين) مصدر سابق م ٢ (مجلد) جـ١ ص ٣٣٢ .
ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٥ ص ١١٠٦ ، ١١٢٣ .
(١٤) الهمداني (رشيد الدين) مصدر سابق م ٢ حـ٢ ص ٦ ، ٩٨ ، ١٢٤ ، ١٧٠ .
(١٥) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .
(١٦) فؤاد الصياد : مرجع سابق ، ص ١٥٣ — ١٥٥ ، ١٩٨ .
(١٧) المرجع نفسه ص ٢١٠ ، ٢١١ .
(١٨) المرجع نفسه ، ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .
(١٩) الهمداني : مصدر سابق م ٢ جـ١ ص ٣٣٨ .
فؤاد الصياد : مرجع سابق ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ، ٣٢٤ .
(٢٠) الهمداني (رشيد الدين) مصدر سابق ، م ٢ جـ٢ ص ١٢ ، ٤٠ ، ٤٢ .
(٢١) المصدر نفسه ، م ٢ جـ٢ ص ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٧٩ .
(٢٢) المصدر نفسه ، م٢ ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ١٨٦ .
مصطفى بدر : مرجع سابق ، ص ١٤ — ١٨ .
أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٦٣ .

(23) Barthold : Turkestan Down to the Mongol . Invasıon , London , 1928 pp. 467, 477 .

The Cambridge History of Iran V.5 (Cambridge , 1968) pp . 337 - 338 .

(24) Ibid ; P496 .

(25) Ibid ; P 470 .

(٢٦) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٣٠٩ — ٣١٠ .
ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٥ ص ١١٢٣ — ١١٢٤ .

The Cambridge History of Iran V5. P 547 .

(27) Berge (J , K) : The Bektashi Order of Dervishes , London , 1937 P. 65 - 72 .

(٢٨) أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٧٠ .

Vambery (A.) in. P.E. Vol. 8, pp. 887 .

(29) Ibid : pp. 885 - 887 .

(٣٠) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت — بدون تاريخ ، ص ٢٨٦ .
(٣١) الهمداني (رشيد الدين) : مصدر سابق م ٢ ص ٩٦ ، ٩٧ .
القلقشندي : مصدر سابق ، جـ١ ص ٦٥ — ٦٨ .
ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٤ ص ٨٦٠ .
مصطفى بدر : مرجع سابق ، ص ١٢ .
أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٦٠ ، ٢٦٣ .
(٣٢) ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٥ ص ١١٥٧ .

القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٤ ، ص ٤٢٠ .

(٣٣) الهمداني (رشيد الدين) : مصدر سابق ، م ٢ جـ٢ ص ٩٠ – ٩٣ ، ١٠٠ – ١٠٢ ، ١١٢ ، ١١٤ – ١٢١ .

(٣٤) المصدر نفسه ، م ٢ جـ٢ ص ١٢٤ ، ١٥٧ ، ١٧٩ ، ١٨٦ .

مصطفى بدر : مرجع سابق ، ص ١٣ ، ١٤ ، ١٧ – ٢٠ .

Malcolm : The History of Persia , V.1.P. 271 .

(٣٥) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٤٢٠ .

مصطفى بدر مرجع سابق ، ص ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ .

أرنولد : مرجع ساق ، ص ٢٦٤ .

(٣٦) مصطفى بدر : مرجع سابق ، ص ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ .

Malcolm : op. cit. V.1.pp. 275 - 277 .

ولمعرفة تفاصيل حياة السلطان محمود غازان وأقواله وأعماله الدالة على حسن إسلامه ، انظر : مصطفى بدر : مرجع سابق ص ٢٥ – ٣١ .

(٣٧) ابن خلدون : مصدر سابق ، حـ٥ ق ٤ ص ٨٦٠ ، ٨٧٨ – ٨٧٩ ، ٨٨٤ ، ٨٨٧ – ٨٩١ ، ٩١٤ ، ٩٢٦ – ٩٢٧ ، ٩٣٦ . جـ٥ ق ٥ ص ١١٥٤ ، ١١٥٩ ، ١١٦١ ، ١١٦٥ – ١١٦٦ .

مصطفى بدر : مرجع سابق ، ص ٦٣ – ٦٤ ، ٧٤ – ٧٥ ، ١٨٠ .

(٣٨) مصطفى بدر : مرجع سابق ، ص ٣٦ – ٣٨ ، ٤٦ – ٤٨ .

(٣٩) ابن خلدون : مصدر سابق جـ٥ ق ٥ ص ١١٣٣ .

القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٣٠٩ .

أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .

(٤٠) ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٥ ص ١١٣٣ .

القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٤٧٤ .

أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٥٩ – ٢٦٠ .

فؤاد الصياد : مرجع سابق ، ص ٣١٨ (حاشية رقم ٢) .

(٤١) الهمداني (رشيد الدين) : مصدر سابق ، م ٢ جـ١ ص ٣٣٢ .

أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٥٩ – ٢٦٠ .

(٤٢) الهمداني (رشيد الدين) مرجع سابق ، م ٢ جـ١ ص ٣٣٣ .

ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٥ ص ١١٢٤ ، ١١٥٤ .

(٤٣) ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٤ ص ٨٦٠ ، جـ٥ ق ٥ ص ١١٣٣ – ١١٣٦ .

(٤٤) ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٤ ص ٩٢٦ ، جـ٥ ق ٥ ص ١١٣٩ ، ١١٦٥ .

أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٧١ .

(٤٥) الهمداني (رشيد الدين) : مصدر سابق ، م ٢ جـ٢ ص ١٨ ، ٢٨ – ٤٦ .

أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ .

(٤٦) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٣٧٠ – ٣٧٢ .

ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ٥ ق ٥ ص ١١٢٩ .

القلقشندي : مصدر سابق ، جـ٤ ص ٤٥٠ .

(٤٧) أرنولد : مرجع سابق ، ص ٢٦٦ – ٢٦٩ .

مراجع أخرى مختارة :

حامد غنيم أبو سعيد :

انتشار الإسلام حول بحرقزوين . القاهرة ١٩٧٤م .

رجب محمد عبد الحليم :

انتشار الإسلام بين المغول . دار النهضة العربية . القاهرة (د. ت) .

بارتولد :

تركستان . ترجمة صلاح الدين هاشم . الكويت ١٩٨١م .

انتشار الإسلام

في شمالي الهند وهضبة الدكن وجنوبي الهند، بنجلاديش، وغربي البنغال وجنوب شرقي آسيا، والصين

للأستاذ الدكتور
محمد مهر علي

انتشار الإسلام في شمالي الهند

إذا استثنينا السند والمنطقة الشمالية الغربية من شبه القارة الهندية فإن سلطان المسلمين السياسي هناك كان قد استقر قرب نهاية العصر العباسي على أيدي الغوريين الذين حلوا محل الغزنويين في أفغانستان في الربع الأخير من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).وقد استقرت سلطة الغوريين بصورة أساسية على يد الأخوين غياث الدين محمد بن سام وشهاب الدين محمد بن سام ، ففي عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ، استولى هذان الأخوان على غزنة ومولتان واتش (في السند) من الغزنويين ، وعلى بقية أملاكهم في البنجاب وإقليم بيشاو عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م وكان في وسع الغوريين أن يقنعوا بامتلاك البنجاب والسند إلا أنهم تحت ضغط شديد من جانب شاه خوارزم من الغرب رأوا من الضروري أن يوجهوا أنظارهم بعيدا نحو الشرق .

وبينما كان الغوريون يدعمون مراكزهم في البنجاب قام الحاكم الهندوسي برتفيراج Prithvira في أجمير ودهلي بالإغارة على باتندا ، وأوقع الهزيمة بشهاب الدين في عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م وفي العام التالي عاد شهاب الدين بشجاعة ، وأوقع ببرتفيراج هزيمة حاسمة على مقربة من تاراوري . وبذلك صارت منطقتا أجمير ودهلي تحت سيطرة الغوريين . وبعد ذلك بعامين حلت الهزيمة بجايشندرا Jaichandra حاكم كنوج وبنارس وتمكن من الاستيلاء على بلاده . وبسقوط أعظم حاكمين في شمال الهند وهما برتفيراج وجايشندرا ، أصبحت البلاد مفتوحة أمام المسلمين . وقد استطاع قطب الدين أيبك قائد شهاب الدين إكمال غزوه لشمالي الهند بعدد من الحملات التي نفذها بذكاء ، بينما استطاع قائد آخر هو اختيار الدين محمد ابن بختيار من الاندفاع نحو الشرق وبسط نفوذ المسلمين على بيهار وعلى أجزاء من البنغال . وفي عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م توفي غياث الدين محمد ، ثم اغتيل أخوه شهاب الدين على يد أحد الباطنيين بعد ذلك بثلاث سنوات . عندئذ أعلن قطب الدين أيبك الاستقلال ، ونصب نفسه على عرش دهلي عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م وبهذا برزت للوجود أول سلطنة إسلامية مستقلة في بلاد الهند .

ومنذ اعتلى العرش قطب الدين إلى أن بسطت بريطانيا سيادتها في النصف الأول من

القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ظل شمالي الهند بالإضافة إلى باكستان خاضعا لحكم المسلمين ، كما خضعت لهم جهات أخرى من البنغال ومعها الدكن ومعظم الجهات الجنوبية من الهند . ولكن نفوذ دهلي على هذه المناطق الأخيرة لم يستمر إلا لفترات قصيرة ، بسبب قيام أسر محلية حكمتها بعيدا عن سلطان دهلي .

وعلى الرغم من الفترة الطويلة التي امتد فيها حكم المسلمين على هذه المناطق كلها فتجدر ملاحظة أنه فيما عدا باكستان التي أشرنا إليها من قبل وعدا منطقتي كشمير وبنغال اللتين يمكن التحدث عنهما على حدة فإن الإسلام لم يصبح الدين الغالب في شمالي الهند وجنوبيها إذ لم يزد عن أقلية تصل إلى نحو ١٠٪ من المجموع الكلي للسكان . وحتى في مراكز الحكم الإسلامي مثل دهلي وأجرا وجونبور والجهات التي تحيط بها مباشرة كان المسلمون أقلية ، وهكذا يبدو بجلاء أن السلطان السياسي للمسلمين لم يستخدم للضغط على الناس ودفعهم إلى اعتناق الدين الإسلامي .

على أن المسلمين وإن كانوا أقلية بين السكان إلا أن أعدادهم في الهند كانت عظيمة بمقارنتهم بأعداد المسلمين في المناطق التي تقوم فيها حاليا دولة بنجلاديش أو دولة باكستان .

هجرات المسلمين إلى الهند :

جاء العدد الضخم من مسلمي الهند نتيجة لهجرات المسلمين من جهات خارجية إلى البلاد ، كما جاء نتيجة اعتناق السكان الهنود أنفسهم للإسلام ويمكن تبيّن مدى تلك الهجرات إلى شبه القارة الهندية من خارجها إذا ما استحضرنا في أذهاننا أن الأسر التي حكمت في دهلي وغيرها من المقاطعات على مدى القرون الخمسة ونصف القرن التي حكم خلالها المسلمون بلاد الهند كانت جميعها من أصول غير هندية وتنتمي إلى أصول فارسية وتركية ومغولية وأفغانية . وقد تدفقت جماعات كبيرة من أصحاب هذه الأصول العرقية المتباينة إلى الهند في أوقات متتابعة وكانت كل جماعة تنتزع الحكم من الجماعة السابقة لها .

وفي دهلي وحدها تعاقب على الحكم سبع أسر مختلفة ، أو سبع مجموعات من الحكام

على ستة قرون تقريبا وفيما يلي بيانها :

حكام المماليك ٦٠٣ - ٦٨٩ هـ / ١٢٠٦ - ١٢٩٠ م .

الأسرة الخلجية ٦٨٩ - ٧٢٠ هـ / ١٢٩٠ - ١٣٢٠ م .

أسرة آل طغلق ٧٢٠ - ٨١٥ هـ / ١٣٢٠ - ١٤١٢ م .

أسرة السادة ٨١٧ - ٨٥٥ هـ / ١٤١٤ - ١٤٧١ م .

الأسرة اللودية ٨٥٥ - ٩٣٢ هـ / ١٤٥١ - ١٥٢٦ م .

أسرة تسور الأفغانية وقد تخلل حكمها فترات من السيادة المغولية ٩٣٢ - ٩٦٤ هـ/ ١٥٢٦ - ١٥٥٦ م .

الموغال العظام ٩٦٤ - ١١١٩ هـ / ١٥٥٦ - ١٧٠٧ م .

الموغال المتأخرون ١١١٩-١٢٧٥هـ/١٧٠٧-١٨٥٨م.

- والأسر الثلاث الأولى : كانت مجموعات من أتراك آسيا الوسطى .

- أما الرابعة : فكانت تدعي أصلا عربيا .

- أما الخامسة : وهي « اللودية » فهي من أصل تركي ولكنها استقرت لفترة طويلة في أفغانستان ومن ثم كانت تعرف بالباتان .

- وأما السادسة : وهي « تسور » فأسرة أفغانية .

- وأخيرا فإن الموغال : هم في الحقيقة مزيج من الأتراك والمغول ، وهم من سلالة بابور الذي تجري في عروقه دماء كل من جنكيز خان وتيمور لنك . وكان مؤسسو كل أسرة من هذه الأسر يأتون ومعهم أعداد كبيرة من الأتباع ومن ذوي قرابتهم ومن الجنود لكي يستعينوا بهم على الاستيلاء على السلطة ممن سبقوهم . والواقع أن بقاء أي من هذه الأسر في السلطة كان يتوقف على تدفق موجات مستمرة من المسلمين الوافدين خارج الهند إليها عبر الحدود الشمالية الغربية وكان هؤلاء يعينون في مختلف الوظائف الإدارية والعسكرية ويشغلون معظم فرق الجيش .

ومما تجدر ملاحظته أن هجرة هذه الأسر الحاكمة هم وأتباعهم جاءت نتيجة الاجتياح المغولي الذي أدى إلى اندفاع المسلمين من آسيا الوسطى ومن فارس فرارا بأنفسهم وما ساد تلك الجهات نفسها خلال القرون التالية من اضطرابات سياسية .

وكانت الموجة الرئيسية الأولى للاجئين المسلمين الذين خرجوا من آسيا الوسطى فارس هربا من جموع جنكيزخان قد بلغت الهند في إبان حكم السلطان التومنيسن (٦٠٨ - ٦٣٧ هـ) (١٢١١ - ١٢٣٩ م) وكان هؤلاء اللاجئون يتألفون من إداريين وعلماء ودعاه وفنانين وتجار .

وأعقب ذلك هجرة أخرى بلغت ذروتها إبان حكم بلبان (٦٣٧ - ٦٨٥ هـ / ١٢٣٩ - ١٢٨٦ م) في أعقاب تخريب هولاكو لمدينة بغداد ، وقد انشقت مجموعة كبرى من المغول الذين اعتنقوا الإسلام عن ذوي قرابتهم « لشاجاتاي » في أواسط آسيا ، واستوطنوا لأول مرة في الهند على يد السلطان جلال الدين الخلجي (٦٨٩ - ٦٩٥ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٦ م) . واستمرت هجرات هذه المجموعات المختلفة طوال هذه الفترة .

ومما تجدر ملاحظته أنه عندما تسقط إحدى الأسر أسرة أخرى من السلطة وتحل محلها فإن المجموعة المنهزمة لا تغادر البلاد وإنما تلجأ إلى العزلة ، وتستقر في الأجزاء الداخلية من البلاد . بينما تستقر المجموعة المنتصرة فيما غلبت عليه من جهات . وبناء على ذلك نرى شبه القارة الهندية مرصعة بالكثير من أسر الوجهاء والعلماء المسلمين موزعين في شتى أرجائها . ويمكن الإلمام بشيء عن هذه الأسر وعن أصولهم التي انحدروا منها من الدراسات التاريخية[١] المعاصرة فضلا عن المراجع في سير العلماء والأعلام المسلمين فيها[٢] .

وانتشر الإسلام بين السكان المحليين بجهود الحكام وتشجيعهم ، وبجهود الأفراد من العلماء وغيرهم في الدعوة إليه .

جهود الحكام :

كانت جهود الحكام في كثير من الأحيان تتجه إلى نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هى أحسن ، فضلا عن إقامة العدل وتحقيق الإصلاح في مرافق البلاد وتقديم الخدمات اللازمة للأهلين ، على نحو ما كان معروفا في تاريخ الفتوح في صدر الإسلام وكان القصد من رفع شعار الجهاد من قبل بعض الفاتحين الأوائل

لبلاد الهند إلهاب الحماس والحميّة ، ولم يكن يعني فرض الإسلام بالقوة على السكان . وبعد انتهاء ثورة الفتح وما يحدث فيها من تجاوزات في بعض الأحيان من تحطيم معبد أو قتل بعض الكهنة فإن التعايش السلمي بين الفاتحين والسكان المحليين لا يلبث أن يفرض نفسه . وإذا كان قد نسب إلى الإمبراطور الموغالي أورنجزيب عالمكير (١٠٢٧ - ١١٨٨ هـ / ١٦١٨ - ١٧٠٧ م) هدم بعض المعابد في وقت السلم ، فإنه تجدر ملاحظة أن عددا كبيرا من فرماناته قد منحت هبات أراضٍ للمعابد الهندوسية وللكهنة في بينارس ، ومهيسوارناث ومولتان وأماكن أخرى .

وإنما أتى تشجيع الحكام لانتشار الإسلام عن طريق رعاية العلماء والدعاة الذين كانوا يتولون نشر الإسلام وعلومه بين الناس من جهة ، وعن طريق منح الهدايا والهبات والألقاب والنياشين على الداخلين في الإسلام حديثا ، ويتاح لهم فرص العمل في وظائف الدولة طالما كانوا أكفاء لذلك .

وفي بعض الأحيان كان بعض زعماء القبائل الخارجة عن طاعة الحكام المسلمين إذا ما أيقنوا بالهزيمة يعلنون إسلامهم لتفادي النتائج . ومن ذلك أن شيخ قبيلة الغكر التي دأبت على الشغب حيث تعيش في المناطق الجبلية من شمالي البنجاب ، عندما وقع في أسر قوات شهاب الدين محمد الغوري ، اعتنق الإسلام فأقر على وضعه كشيخ لقبيلته .

وقد كان خلفاء محمد الغوري في الهند ، وهم المماليك والخلجيون ، والطغلقيون مشغولين أساسا بمشكلة حماية أنفسهم وملكهم من الخطر المغولي العظيم الآتي من الشمال الغربي ، ومن أجل ذلك لم يتفرغوا تماما لنشر الإسلام بين السكان . ومع ذلك فقد أحرز الإسلام بعض التقدم عندما أتى الخلجيون إلى السلطة . وقد ظهر في عهدهم هندوسيان تحولا إلى الإسلام حديثا وهما مالك كافور وخسروخان ، وأصبحا قائدين عسكريين ناجحين تحت ظل الخلجيين . ولكن يبدو أنهما لم يكونا مخلصين للإسلام ولا للخلجيين أنفسهم فقد ارتد خسروخان عن الإسلام وقتل ابن علاء الدين خلجي وخليفته على العرش ، قطب الدين مبارك خلجي واعتلى العرش في (٧٢١ هـ / ١٣٢٠ م) وركز كل السلطات في أيدي الموظفين والمستشارين الهندوس ، وحرم ذبح

البقر ووضع تماثيل في المساجد[٣] . وقد أنقذ الموقف « غازي مالك » أحد حكام مناطق الحدود الشمالية وتجمع حوله النبلاء المسلمون والولاة المحليون ، وزحف إلى دهلي وأطاح بخسروخان ، ونصّب النبلاء والجنود غازي مالك حاكما على العرش وخلعوا عليه لقب السلطان « غياث الدين طغلق »[٤] .

ثم برز اسم اثنين آخرين من الهندوس اعتنقا الإسلام لكنهما اقتفيا خطوات خسروخان فارتدا وثارا ضد محمد طغلق في نهاية حكمه ، وأسسا مملكة فيجاياناحار الهندوسية في جنوبي الهند ونجد محمد بن طغلق يناشد الدعاة في دهلي وغيرها من المناطق في مملكته بأن يركّزوا اهتمامهم وطاقتهم في نشر الإسلام بين غير المسلمين بدلا من قصر جهودهم على الأتباع[٥] .

وقد اشتهر فيروزشاه طغلق (٧٥٢ – ٧٩٠ هـ / ١٣٥١ – ١٣٨٨ م) من بين كل سلاطين دهلي الأتراك الأوائل بحماسه للإسلام فقد جاء فيما كتب بنفسه : شجعت رعاياي المشركين على اعتناق الإسلام دين النبي محمد ﷺ ، وكنت أقول إن أي واحد يردد الشهادة ويصبح مسلما يعفى من الجزية ، وعندما وصلت هذه المعلومات إلى آذان كل الناس نال شرف الدخول في الإسلام أعداد كبيرة من الهندوس[٦] .

وإذا ما أخذنا هذه العبارة بمعناها الحرفي فإن تشجيع السلطان على اعتناق الإسلام لم يتجاوز الالتزام بالمبدأ الشرعي بوضع الجزية عمن أسلم ، وقد يعني ذلك بصورة غير مباشرة أن سلاطين دهلي السابقين أو الذين سبقوا فيروزشاه طغلق مباشرة في الحكم قد كانوا يتقاضون الجزية من معتنقي الإسلام ، وأن جهود فيروزشاه بالنسبة لنشر الإسلام إنما كانت مقصورة على إزالة العقبة من الطريق . وقد كان هناك بلاشك بعض معتنقي الإسلام الجدد من بين الهندوس أثناء فترتي حكم الخلجيين والطغلقيين ، مثل مالك كافور وخسروخان وخان جاهان مقبول . وغيرهم .

واشتهر بعض الحكام الموغاليين الأوائل بأنهم شجعوا على التحول السلمي للإسلام فيقال إن عددا من أسر الراجبوت تحول للإسلام أثناء العصر الموغالي المبكر أشهرهم الفرع المسلم من عشيرة باشجوتي من أوضي . ويروى أن الإمبراطور بابور (٨٨٨ –

٩٣٧ هـ / ١٤٨٣ - ١٥٣٠ م) أسر شيخهم وجدهم تيلوك شاند فاعتنق الإسلام لكي يسترد حريته ولكن رواية أخرى تقول : إن اعتناقه للإسلام حدث أثناء عصر همايون[٧] . ويقال : إن الطلخانيين الباثانيين في مقاطعة بلاندشر وقبيلة جهروار في منطقة ميرزابور (كلاهما الآن في أوتار برادش) ترجع أصولهم إلى أسر الراجبوت سالفة الذكر وقد اعتنقوا الإسلام مبكرا في العصر الموغالي[٨] .

ومن بين كل الحكام الموغاليين برزت جهود أورنجزيب في اعتناق هندوس كثيرين للإسلام على الرغم من أن مشاغله العسكرية والإدارية العديدة كانت لا تدع له إلّا القليل من الوقت لنشر الإسلام[٩] . وقد اعتنقته أسر عديدة في البنجاب الشرقية . في ضواحي دهلي وفي مقاطعة كانبور وقيل إن ذلك كان لحماية أراضيهم من مصادرة أورنجزيب على أن أورنجزيب لم يكن يعمد إلى الضغط ابتداء لفرض الإسلام و لم يكن ذلك نهجه المتبع في نشر الإسلام وربما عمد بعض من تصيبه بضرر ما إجراءاته العامة إلى الإسلام في مجالات الأمن والإدارة إلى اعتناق الإسلام لتوقي الضرر والظفر ببعض الامتيازات أو الاستثناءات ومن المحتمل أن بعض الأسر في شمالي الهند قد عزت إسلامها لمثل تلك الظروف كما أشار أرنولد[١٠] .

جهود الدعاة :

على أن النجاح الأكبر في انتشار الإسلام بين سكان شبه القارة الهندية لا يعزى إلى جهود الحكام بل إلى الأعمال الفذة التي قام بها الدعاة الذين كانوا عادة ما يستقرون في الحواضر وقد استطاعوا بعلمهم وحميد سجاياهم وورعهم وصفائهم وعطفهم أن يجتذبوا إلى الإسلام أعدادا متزايدة من سكان تلك البلاد ومع بداية الفتح الغوريّ تدفق إلى شمالي الهند عدد كبير من الدعاة المنتمين إلى مدارس دعوية مختلفة على إثر الغزو المغولي لأواسط آسيا وفارس ، واستقروا هناك .

وكان من بين هؤلاء الدعاة علماء متفقهون أجلاء ملتزمون بأحكام الشريعة وكان معظمهم يعد الدعوة إلى الإسلام هدفا أساسيا له في حياته أينما حلّ[١١] .

ومن بين الدعاة العديدين الذين وفدوا إلى شمالي الهند من آسيا الوسطى وفارس -

أثناء حكم سلطنة دهلي الإسلامية الذي امتد إلى خمسين عاما – برز خمسة من الدعاة الأفذاذ . وهؤلاء هم : الداعية معين الدين (مات سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م) الذي استقر في أجمير .

وتلميذه الداعية قطب الدين بختيار كاكي (مات سنة ٦٣١ هـ / ١٣٣٣ – ١٣٣٤ م) .

والداعية فريد الدين كنيرشكر (٥٦٩ – ٦٦٤ هـ / ١١٧٣ – ١٢٦٤ م) الذي أقام في باكنبتان (أجودان ، في مقاطعة مونتجمري في البنجاب) .

والشيخ بهاء الدين زكريا (٥٧٨ – ٦٦١ هـ / ١١٨٢ – ١٢٦٢ م) الذي استوطن مولتان .

والشيخ جلال الدين تبريزي (مات سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) ، وقد أقام قرب باندوا في البنجال .

وقد جاء معين الدين من سيجستان في فارس إلى الهند بصحبة شهاب الدين محمد الغوري الذي دخل في معركة مع بريتفيراج وهزمه في موقعة طرين ولكن الروايات التي جاءت فيما بعد تؤكد بأن معين الدين جاء إلى أجمير في وقت سابق لمعركة طرين وأنه كرس حياته ووقته لنشر الإسلام ، فكان يعلم تلاميذه الالتزام بمبادئ الشريعة وقد أشارت الكتب التي تناولت سيرته ، ومذكراته الشخصية إلى جهوده التي ترتب عليها اعتناق عددٍ كبيرٍ من الناس الإسلام على يديه ، وإن لم يرد فيها شيءٌ مفصلٌ عن تلك الجهود(١٢) .

وفي الوقت الذي كان معين الدين يقوم بعمله في أجمير كان تلميذه النابغة قطب الدين بختيار كاكي يقوم بمهمة مماثلة في دهلي وطبقا للفريشتا ، فإن السلطان التيوتمش (٦٠٧ – ٦٣٣ هـ / ١٢١٠ – ١٢٢٦ م) كان معجبا بقطب الدين بختيار كاكي واعتاد أن يدعوه إلى قصره مرتين في الأسبوع ، ويقال إن قطب منار الشهير في دهلي سمي باسمه تقديرًا لشخصه . ومن أسف فإن التاريخ لم يسجل أية تفاصيل لجهود بختيار كاكي في الدعوة إلى الإسلام وإنما عرف أنه قد تحول على يديه عدد كبير من أهل دهلي

إلى الإسلام ، ومات عن عمر يناهز الخمسين في سنة ٦٣١ هـ أو سنة ٦٣٢ هـ - أي بعد خمس سنوات فقط من موت أستاذه الشيخ معين الدين .

أما تلميذ قطب الدين والمعاصر له ، خواجا فريد الدين كنيرشكر فقد ولد في كاهينوال في البنجاب وذكر أجداده أن نسبهم يرجع إلى الخليفة عمر بن الخطاب وقد استقر خواجا فريد الدين أولا في هانس وبعد ذلك في باكنبتان . وكان معاصرا للداعية بهاء الدين زكريا الذي كان يقطن في مولتان . وإلى هذين الرجلين يرجع الفضل بعد الله تعالى في تحول سكان السهول الغربية للبنجاب وأعالي السند إلى الإسلام بوجه عام ، ومن بينها عدد من العشائر والقبائل القاطنة في المنطقة بوجه خاص .

وكان الداعية بهاء الدين زكريا أحد المريدين البارزين للشيخ شهاب الدين ، وقد اتصل به في بغداد وعهد إليه الشيخ بأمر الدعوة في الهند . وقد استقر الشيخ بهاء الدين في مولتان ، حيث عمل هناك لأكثر من نصف قرن يضطلع بالوعظ والتعليم وجمع حوله الكثير من التلاميذ وكان له نفوذ كبير على حكام دهلي ونبلائها المعاصرين له ، ويقال إنه ساعد السلطان التيوتمش في إحكام قبضته على مولتان . (وعندما حاصر المغول مولتان في سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م قدم الداعية بهاء الدين مبلغ مائة ألف دينار للغزاة ، وأقنعهم برفع الحصار ، ومات في السابع من صفر سنة ٦٦١ هـ - ديسمبر ١٢٦٢ م) .

واضطلع خوجا نظام الدين أيوليا ، (٦٣٢ - ٧٢٥ هـ / ١٢٣٨ - ١٣٢٥ م) بدور هام وحيوي في نشر الإسلام في شمالي الهند ، وكان أجداده قد نزحوا من الجزيرة العربية إلى آسيا الوسطى ومنها رحلوا إلى لاهور ثم إلى بادايون (في منطقة روح الخند في أوتار براديش بشمالي الهند) حيث استقرت أسر عديدة أخرى من إيران وخراسان أثناء السنوات الأولى من الحكم الإسلامي . وقد تلقى نظام الدين تعليمه الأوّلي على يد جده خواجا علي وعلى يد عالم آخر اسمه مولانا علاء الدين أصولي ، وكلاهما من تلاميذ الشيخ جلال الدين تبريزي[١٣] . ثم درس نظام الدين علم « الحديث » على يد الشيخ كمال الدين زاهد (مات سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) وهو محدث بارز في عصره ودرس

الفقه على يد العلامة برهان الدين مرغيناني مؤلف كتاب « الهداية » الشهير . ثم اتصل نظام الدين عن قرب بالداعية فريد الدين كنيرشكر الذي عهد إليه بأمور الدعوة في دهلي حيث نال شهرة ونفوذا أثناء العهدين الخلجي والطغلقي وتتلمذ على يديه عدد كبير من كبار النبلاء وموظفي الدولة وغيرهم .

مات نظام الدين في سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م وخلف وراءه عددا كبيرا من الأتباع والمريدين الذين واصلوا جهوده في أجزاء متفرقة من الهند ، وقد اعتنق الإسلام على يديه الكثير من غير المسلمين في شمالي الهند ، ولاسيما سكان المنطقة الممتدة من موات إلى الجنوب من دهلي .

وعاصر نظام الدين الشيخ أحمد بن يحيى الذي اشتهر باسم شرف الدين يحيى مانيري (٦٦١ – ٧٨٢ هـ / ١٢٦٣ – ١٣٨٠ م) وكان يعيش في الجزء الشرقي من شمالي الهند (بيهار) وكان جده محمد تاج الدين يذكر أنه ينحدر من أسرة الزبير بن عبد المطلب (عم النبي ﷺ) وقد هاجر من مدينة الخليل بفلسطين واستقر في مانير في بيهار في أعقاب فتوحات شهاب الدين محمد الغوري . وكان الجد تاج الدين عالما وزاهدا كرّس حياته للدعوة للإسلام في موطنه الجديد حيث اعتنق الإسلام على يديه عدد كبير من الناس .

وقد تلقى أحمد بن يحيى تعليمه المبكر في قريته التي كان فيها مولده ، ثم صحب شرف الدين أبوتواما ماندي وكان عالما واسع المعرفة نزح من دهلي وقتذاك إلى سونارجاون بالقرب من دكا حيث أسس أكاديمية للعلوم . وفي سونارجاون أكمل أحمد بن يحيى تعليمه ، وتزوج ابنة معلمه ، ونسب إليه حتى أصبح يعرف باسم شرف الدين يحيى مانيري . وعند موت أبيه في سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م عاد شرف الدين يحيى مانيري إلى بيهار ، ثم زار دهلي حيث التقى بنظام الدين أوليا ، وكذلك بالشيخ نجيب الدين . وعاد إلى مانير حيث خدم الإسلام أكثر من نصف قرن . واجتمع عليه ألوف الأتباع . وقد اعتنق كثير من البوغانيين الهندوس الإسلام نتيجة مناقشاته وكان يعقد حلقات متوالية يعرض فيها عقيدة الإسلام وأحكامه وتعاليمه على المستمعين ، كما كان يكتب لتلاميذه

رسائل إرشادية ، وصل أكثرها إلينا .

انتشار الإسلام في كشمير :

كانت كشمير أهم منطقة في شمالي الهند انتشر فيها الإسلام بسرعة كبيرة في أوائل القرن العشرين . ذكر تقرير أجري وقتذاك أن ٩٣٪ من سكانها مسلمون . ويعتقد البعض أن أول اتصال لكشمير بالإسلام حدث مع الغزو الفاشل لدلشا خان التتار « في سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م » ، بينما يعتقد البعض الآخر أن الإسماعيلية كانوا قد تغلغلوا في أجزاء من كشمير منذ القرن السابق . ولعل الاتصال الأول لكشمير بالإسلام حدث أثناء تقدم المسلمين صوب تركستان الشرقية قرب نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني من الهجرة وكان المسلمون في آسيا الوسطى وقتذاك يتعرضون للغارات المتكررة من جانب الترك الشرقيين يؤازرهم الصينيون الذين كانوا يحاولون إحكام قبضتهم على تركستان ، كما كانوا في الوقت نفسه تقريبا يضغطون على التبت يعاونهم في ذلك حكام كشمير .

وعمل المسلمون على تحويل انتباه الصينيين عن آسيا الوسطى بالاستجابة في حماس حين استنجد بهم أهل التبت . وكانت تعوزنا التفاصيل التاريخية لتلك العلاقات الدبلوماسية والعسكرية بين الفريقين حتى اكتشفت مجموعة من وثائق التبت يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي وتشتمل على أجزاء مكتوبة بالعربية[١٤] .

وعلى ذلك بدأ العداء بين أهل التبت وكشمير التي كان حكامها يظاهرون الصينيين ضدهم ، ويبدو أنه استمر طيلة قرون . ففي القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي غزا أمير بوذي من التبت يسمى « رابنشان » كشمير وتزوج ابنة آخر الحكام الهندوس ، وبذلك أصبح حاكما عليها وقد أعانه على أمره مساعدة قدمتها له مجموعة من مسلمي تركستان ، على رأسها السيد عبد الرحمن الذي كان قد وصل وقتذاك من تركستان ومعه ألف من الأتباع[١٥] . وعلى يديه اعتنق رينشان الإسلام وأصبح أول حاكم مسلم لكشمير تحت اسم رينشان شاه أو السلطان صدر الدين . وقد استمر السيد عبد الرحمن

حيا في ذاكرة أهل كشمير باسم بلبل شاه . وتذكر أسطورة واسعة الذيوع تعزو اعتناق رينشان للإسلام إلى كراهة البراهمة لذلك الغازي البوذي من التبت الذي حكم بلادهم وعدم اعترافهم به . وهكذا قرر الأمير التبتي أن يعتنق دين الشخص الأول الذي يقع عليه بصره مصادفة في صباح يوم معين : وتقول الأسطورة أن الأمير رأى من نافذة القصر الشيخ عبد الرحمن أو بلبل شاه ، يؤدي الصلاة على شاطئ النهر . فاعتنق رينشان شاه الإسلام وشرع بحماس في مساعدة بلبل شاه على نشر الإسلام بين البراهمة الذين لقي منهم الجفاء والعداء ، ويقال إن عامة الشعب اندفعوا إلى اعتناق الإسلام « بعشرات الآلاف »[١٦] . وعلى الرغم مما أشيع في ثنايا هذه الأسطورة من مكوّنات شعبية فإنها تبرز على الأقل حقيقتين راسختين هما : اعتراض البراهمة على رينشان ، واتصاله بالسيد عبد الرحمن المعروف باسم بلبل شاه وإسلامه على يديه . وقد مات رينشان شاه (السلطان صدر الدين) في سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ، وتم اكتشاف مقبرته والمسجد الذي بناه في سريناجار عاصمة كشمير في سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م[١٧] .

بعد موت رينشان جاءت الأسرة العتيقية إلى السلطة . وقد اعتنقت الإسلام أيضا في سنة(٧٢٦ هـ) ١٣٢٦ م مما يدل على استمرار ما كان يتمتع به الإسلام والمسلمون من مكانة في البلاد ، وفي أثناء الربع الأخير من ذلك القرن تلقت الدعوة للإسلام في كشمير قوة دافعة كبيرة بوصول أحد الدعاة في سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م وهو أمير سيد علي حمداني . وكان هذا الداعية قد فر هاربا من اضطهاد تيمورلنك وأتى إلى كشمير ومعه سبعمائة من تلاميذه وخلال فترة قصيرة من وصوله اعتنق عدد كبير من أهل كشمير الإسلام على يديه[١٨] . وبعد موته في سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م واصل تلاميذه العديدون الذين استقروا في البلاد[١٩] جهوده .

وتزايد انتشار الإسلام في كشمير مع مضي الوقت . ويحكى ذلك في سيرة الحاكم المسلم السادس السلطان اسكندر (٧٩٥ - ٨٢٠ هـ / ١٣٩٣ - ١٤١٧ م) وقد تحوّل وزيره الأول من الهندوسية إلى الإسلام ، وعمل الاثنان على تشجيع الدعوة للإسلام في كشمير[٢٠] . وقد اجتذبت سيرة هذا السلطان وأخلاقه عددا كبيرا من

الفقهاء من فارس والجزيرة العربية والعراق نزحوا إلى كشمير واستقروا فيها .

وإلى جانب جهود هؤلاء الحكام في نشر الإسلام في كشمير كانت هناك جهود الدعاة والوعاظ وبخاصة جهود تلاميذ السيد علي حمداني الذين انتشر الإسلام على أيديهم في كشمير على أوسع نطاق . وبجانب السيد حمداني نجد أسماء العديد من الدعاة البارزين مثل « مخدوم صاحب » (واسمه الحقيقي غير معروف) والشيخ نور الدين والشيخ يوسي آساف وغيرهم .

وكذلك دخل بعض الدعاة إلى كشمير وعملوا على نشر الإسلام في المنطقة القريبة من سرينجار . وفي سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م وفد إلى المنطقة داعٍ عراقي يدعى مير شمس الدين واعتنق الإسلامَ على يديه عددٌ كبير من سكان كشمير .

وفي نفس القرن وصل الإسلام إلى شمالي شرق لاداخ ، ويبدو أنه كان لها حينذاك حاكم مستقل وكانت منطقة نفوذ للتبت . حدث ذلك على يد السلطان آدم خان (٨٢٠ – ٨٢٣ هـ / ١٤١٧ م – ١٤٢٠ م) الذي قاد حملة إلى لاداخ ، وتقدم أيضا إلى الجزء الغربي من التبت . وقد ساعده سكان لاداخ وساروا معه إلى التبت واقتسموا معه الغنائم[٢١] ولعل ذلك يشير إلى تقبل هؤلاء للإسلام . ويجوز أن يكون تدخل آدم خان نتيجة تزايد الضيق بنفوذ التبت في تلك المقاطعة من جانب سكان لاداخ وحاكمها ومهما يكن من أمر فإن نفوذ الإسلام وصل في نفس تلك الفترة إلى الأسرة المالكة والنبلاء في لاداخ وفي المقاطعة المجاورة « ببورج » ، إذ ظهرت بينهم الأسماء الإسلامية منذ ذلك الوقت[٢٢] كاسم « علي » الذي تسمى به أحد أبناء الملوك في الإقليم الذين ربما كانوا قد أصهروا إلى أسرة الفاتح المسلم آدم خان الذي سبقت الإشارة إليه ، ومهما يكن من أمر فإن ورود اسم « علي » له دلالته على نشأة صلات بين شعب لاداخ والمسلمين . ويعضد ما ذهبنا إليه أن الحاكم البوذي لمقاطعة بيورج المجاورة للاداخ ويدعى (بهاج دار سكايابس) أطلق اسم « علي » على أكبر أبنائه فأصبح (علي دارسكايا) ويبدو أن في ورود اسم « علي » أكثر من غيره في هذه الجهات دليل على التأثير الديني الواضح للداعية علي الحمداني الذي

اكتسب حب الناس وتقديرهم في تلك البلاد حتى أن بعض الملوك – فضلا عن العامة – قد أطلقوا اسمه على أبنائهم تيمنا به .

وقد واصل سياسة آدم خان خليفتُه ،السلطان زين العابدين (٨٢٣ – ٨٧٢ هـ / ١٤٢٠ – ١٤٦٧ م) فسار على رأس حملة إلى لاداخ وغربي التبت ويكاد يكون من المؤكد أن أقدم مسجد في لاداخ وهو المسجد المسمى بمسجد الشيخ على ، على بعد ثمانية أميال من ليج قد بني إمّا في عهد آدم خان أو في عهد زين العابدين وقد شهدت فترة حكمه التي بلغت حوالي نصف قرن سلاما وازدهارا في مجالات العمارة والآداب والفنون . ونشطت ترجمة الكتب المتعددة العربية والسانسكرتية مما يسّر سبل انتشار الإسلام في البلاد . وقد مهدت حملات آدم خان وزين العابدين في لاداخ الطريق لوصول التجار والوعاظ المسلمين إلى المنطقة ، وهؤلاء كانوا يجمعون غالبا في نفس الوقت بين أعمال التجارة والوعظ(٢٣) .

وقد ازداد هذا التغلغل في شمالي كشمير حتى حدود التبت إلى درجة كبيرة جدا في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر الميلادي بعد الغزو المغولي التركي من الشمال مباشرة . ففي سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٣٠ م عبر الترك والمغول المسلمون في آسيا الوسطى ، تحت قيادة ميرزا حيدر وهو قريب للإمبراطور الموغالي همايون ، قرة قورم من الشمال وانقضوا على لاداخ متخذين ليج قاعدة لعملياتهم وواصل ميرزا حيدر القيام بحملات متعددة في المقاطعات المجاورة ومنها المنطقة الحدودية الغربية من التبت ، ثم اجتاح تقريبا كل منطقة كشمير بين عامي ١٥٤١ ، ١٥٥١ ، وأخذ كثير من الدعاة والتجار المسلمين يتدفقون من تركستان ومن أدنى كشمير على لاداخ والمقاطعة الشمالية من بالتستان . وعند منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، العاشر الهجري أصبح الإسلام وطيد الأركان في كلتي المقاطعتين بالرغم من كون الأمير حاكم لاداخ نفسه بوذيا .

وفي الفترة الأخيرة من ذلك القرن ظهر في بالتستان حاكم مسلم قوي يدعى علي مير شيرخان وقد أخضع لحكمه كل بالتستان وحولها إلى مقاطعة مسلمة على المذهب

الإسماعيلي إذ كان هو إسماعيليا كما قاد أيضا حملة إلى لاداخ وأسر حاكمها ، ثم زوجه ابنته وسمح له بالعودة لبلده وبرعاية هذه الابنة بني مسجدًا في بنرا في القطاع الغربي من لاداخ .

على أنه ما كادت تمر فترة من الزمن بعد ذلك ، حتى استطاع الإمبراطور الموغالي « أكبر » أن يحكم قبضته على كشمير في سنة ٩٠٣ هـ / ١٥٨٦ م وكان لما أعقب ذلك من سلام وأمن وازدهار خلال فترة طويلة من الزمن أثره في مسيرة الإسلام قدما ، وعزز من ذلك تدفق التجار المسلمين على كشمير بصورة متواصلة من شتى أنحاء العالم الإسلامي .

وفي أثناء عهد شاه جيهان (١٠٣٨ - ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ - ١٦٨٩ م) طلب أمير لاداخ البوذي المساعدة الموغالية ضد هجمات التبت وتم تقديم هذه المساعدة في مقابل تحقيق بعض المزايا التجارية للمسلمين ، مما أتاح لكثير منهم الاستقرار في لاداخ كما أعطوا قطعة أرض بني عليها مسجد هناك وتدل النقوش الباقية في هذا المسجد الرائع على أنه قد بني في سنة ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م .

والحق أنه كان للتجار المسلمين جهود دائبة مشكورة في نشر الإسلام في لاداخ وفي شمالي كشمير بصفة عامة ، بل حملوا معهم الإسلام حتى « لهاسا » عاصمة التبت نفسها . ولا يزال يعيش في لاداخ قسم كبير من السكان المسلمين يعرفون بالأرغونيين يذكرون أنهم أحفاد التجار المسلمين من أمهات من لاداخ والتبت تزوجهن هؤلاء التجار واعتنقن الإسلام والأرغونيون مسلمون سنيون وهم يحرصون على إقامة الصلاة في المساجد ويعرفون تعاليم الإسلام[٢٤] .

وكما نشر التجار المسلمون الإسلام فإنهم علموا الناس الحروف العربية حتى استعملوها في كتابة اللغة البالتية المحلية وهى لهجة تبتية غربية تستخدم بصفة شائعة في بالتستان ولاداخ . وكان تأثير الخط العربي كبيرا لدرجة أنه في الربع الأول من القرن العشرين اضطر مبشر نصراني ألماني عند طباعته ترجمة لمعاني إنجيل متى ويوحنا باللغة البالتية « إلى هجران الحروف التبتية واستخدام الحروف العربية »[٢٥] .

وقد استمر الإسلام يتقدم باطراد في كشمير حتى بداية القرن التاسع عشر عندما غزا السيخ بقيادة رانجيت سنغ تلك المنطقة وبدأت فترة اضطهاد للمسلمين هناك . ثم غزا الإنجليز كشمير وأخذوها من أتباع رانجيت سنغ في سنة ١٨٤٦ م ، ولكنهم سرعان ما سلموها إلى دوغرا راجا جولاب سنغ من جامو في مقابل قدر كبير من المال .

وأدّى قرن من حكم دوغرا إلى تخلف مسلمي كشمير في مجالي التعليم والوظائف الحكومية وإن نشط الكثير منهم في التجارة وعاش في رغد وقد وصل تأثير الحركة السلفية مع نهاية القرن التاسع عشر إلى كشمير ، ونهض كثير من مسلمي كشمير لإصلاح ما يسود العقول والسلوك من انحرافات والاهتداء بتعاليم الإسلام كما تتجلى في القرآن والسنة الصحيحة وما لبث أن اصطدم دعاة الحركة السلفية بقيادة رجل يسمى مير وايز في بداية القرن الرابع عشر للهجرة / القرن العشرين للميلاد بالمسلمين التقليديين الذين يعرفون عموما بحزب شاه حمداني في سريناجار(٢٦) ، وانتصرت في النهاية الحركة السلفية في العاصمة ولكن ذلك النصر لم يؤت ثماره ، إذ بادر دوغرارجا في سنة ١٩٤٧ م / ١٣٦٧ هـ إلى إعلان تبعية كشمير للهند ، ضد رغبة السكان المسلمين لذين يشكلون الأغلبية العظمى من السكان .

الهوامش

(١) توجد بعض الروايات عن النبلاء المسلمين الذين ينحدرون من أصل أجنبي .
انظر :

Abu al Fadl , Ain - i - Akbar , (tr . Blochmann and jarrett , vol 11) . Ma'athir - al Umaro and Gulam Husain Tabtabai , Siejar al Mut'akherin .

(٢) لمعرفة حياة هؤلاء العلماء ، انظر :

- Mohammed Mian , Ulama - i - Hind Ka Shandar Madi , Dehli , 1957 .

(3) Aziz Ahmed : Studies in Islamic Culture in the Indian Environment Oxford , 1969 , p. 79.

(4) I . P . H . S., Vol. V, 247 - 54. VI 55 — 65, 208 - 13, VII, 36 - 39 , 99 - 100

(5) Ishwari Prasad , Medieval India , p 258 , Aziz Ahmad , op . cit., p 82 .

(6) Elliott , + + +., 386 ?

(7) Gazetteer of the Provinve of Dudh , I., p 466 .

(8) Gazetteer of the North - Western Province 444 , pt . 11, p. 46 and XIV , pt . 11, p 119 .

(9) Ibid , VI , p . 64 , XIV , pt 111 p 47 .

(10) Arnold , the Preaching of Islam , Lahore , Reprint , 1961 , p. 264 .

(11) Tabaqat (tr. Rouerty) , Vol . 1, p 12, Firishta, Vol 11 . P 147 .

(12) Ain , Tr . Blochmann and Jorreti , vol II p, 270

(13) Abul Hassan Ali Nadwi , Saviours of Islamic Spirit , vol II , Second Edition , Lucknow, 1977 , p 167 .

(14) A. H. Francke in the Moslem World vol XIX , 1929 , p. 134 .

(15) The Moslem World , vol IV , 1914 , p . 340 .

(16) Ibid .

(17) Ibid , vol XIX , 1929 , p. 135 .

(18) M . Titus , The Religious Quest of India , London . 1908 , pp 55 - 56 .

لمعرفة ماكتب عنه من أساطير ، انظر :

(19) The Moslem World , vol IV , 1914 , pp 344 - 345 , G T. Vigue : Travels in Kashmir , vol II p 82 .

(20) Firishta , vol IV , pp 464 , 469 .

(21) A. H. Francke in the Moslem World , vol XIX , 1929 , p . 138 .

(22) Ibid .

(23) Ibid .

(24) Ibid., p 140 .

(25) Ibid .

(26) The Moslem World , vol IV , 1914 p 348 .

مـــراجع أخـــرى مختـــارة

– لوثروب ستودارد :

حاضر العالم الإسلامي . ٤ أجزاء . ترجمة عجاج نويهض . تعليق شكيب أرسلان ط ٤ . القاهرة ١٩٧٤ م .

– أحمد محمود الساداني :

تاريخ المسلمين في شبة القارة الهندية وحضارتهم . جزآن . القاهرة (د . ت) .

– عبد الله مبشر الطرازي :

موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب . جدة ١٤٠٣ هـ .

– جوستاف لوبون :

حضارات الهند . ترجمة عادل زعيتر . القاهرة . (د . ت) .

– أطهر مبارك بوري :

رجال السند والهند . بومباي . الهند ١٩٥٨ م .

– محيي الدين الألوائي :

الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية . دمشق ١٩٨٦ م .

انتشار الإسلام في الدكن وجنوبي الهند

كان انتشار الإسلام في الدكن وجنوبي الهند من عمل التجار والدعاة المسلمين بصفة أساسية . وما فتئ العرب قبل ظهور الإسلام يقومون بالتجارة مع البلدان الشرقية القصية والصين عبر عدد من الموانئ التي تقع على الساحل الغربي لبلاد الهند . وبعد الفتح الإسلامي للسند والاستيلاء على الديبل ، ازدادت تجارة المسلمين العرب مع الشرق الأقصى باطراد . وبحلول القرن الثاني الهجري خضع المحيط الهندي وجنوبي الصين في واقع الأمر للسيطرة البحرية العربية الإسلامية واستقر كثير من المسلمين العرب والفرس في المدن الساحلية من جنوبي الهند ، حيث رحب الحكام والأمراء الهندوس في تلك المناطق الساحلية بالتجار المسلمين ، وقدموا لهم كل التسهيلات للتجارة والاستقرار ، واستعانوا ببعضهم في ملاحة السفن التجارية الهندية مما أدى إلى وجود جالية إسلامية ضخمة في الجزء الجنوبي من ساحل مالبار مع بداية القرن الثاني الهجري ومن شواهد ذلك وجود مدافن إسلامية قديمة في بانتالي في قويلون تحمل نقشا يعود تاريخه إلى سنة ١٦٦ هـ / ٧٨١ م .

وقد تزاوج المسلمون المستقرون في جنوبي الهند مع السكان المحليين،الذين تحوّلوا للإسلام ، وتزايد المسلمون بتوالد أجيال جديدة من هذا الزواج المختلط ، كما ازداد عددهم باعتناق الإسلام من جانب السكان المحليين أو وفود مهاجرين مسلمين من البلدان الأخرى .

وينحدر السكان المسلمون الذين يسمون بالموبلاح ويقطنون بساحل مالابار بصفة عامة،من سلالة أولئك التجار المسلمين الذين وفدوا وأقاموا بين العرب والفرس الأوائل .

جهود دعاة الإسلام :

ثم أعقب الدعاة المسلمون أولئك التجار ، وتشيع رواية في مالابار بأن الإسلام قد

دخل تلك البلاد على يد جماعة من العرب كانوا في طريقهم إلى جزيرة سيلان ، وكان يترأسهم رجل يسمى الشيخ شرف بن مالك ويساعده شقيقه وابن أخيه ، وعندما وصلوا إلى كنانور أرسل أمير المنطقة الهندوسي في طلبهم وسألهم أن يشرحوا له الإسلام فلما فعلوا أعلن إسلامه ورافقهم عند عودتهم من سيلان إلى بلاد الحجاز للحج حيث مات هناك . وبناء على طلب أمير كنانور المحتضر عاد الشيخ شرف بن مالك ومعه أخوه وابن أخيه إلى مالابار من أجل نشر الإسلام هناك . وقد استقر الشيخ شرف بن مالك وأخوه في كنانور بينما قام ابن أخيه بالدعوة للإسلام في جولات مكثفة داعيا للإسلام في كل أرجاء مالابار[1] وأقام المساجد في قيولون وهيلي وماروراي (ماداي الحديثة) وفي سبعة أماكن أخرى على أنه ينبغي ألا يغيب عن البال أن المسلمين في شتى أنحاء شبه القارة الهندية حريصون على إثبات سبقهم إلى الإسلام والرجوع بذلك ما أمكنهم إلى زمن الرعيل الأول من العرب الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ وجاهدوا معه وحملوا رسالته من بعده والحق أن المسجد الذي يقال إن أخا الشيخ شرف قد أقامه إنما يعود تاريخ إقامته الحقيقي إلى عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م[2] .

وقد وصلت رسالة الإسلام إلى الساحل الشرقي من مدراس أيضا في نفس هذه الفترة تقريبا ، ويعزو المسلمون المتحدثون باللغة التاملية والقاطنون في مقاطعات ماديورا وتينفيللي وكويمباتوري وشمال أركوت والتلجيريسي (الذين يعرفون عامة بالرافوتانز) تحولهم للإسلام إلى عدد من الدعاة الذين لا تزال قبورهم قائمة في أماكن مختلفة من هذه المقاطعات . ومن هؤلاء الدعاة وأشهرهم سيد ناثار شاو الذي عاش بين سنتي (٣٥٨ - ٤٣١ هـ / ٩٦٩ - ١٠٩٣ م) ، ويوجد قبره في ترنيشنيوبلاي التي تسمى أيضا ناثارناجار نسبة إليه[3] .

وقد برز من بين أتباعه بابا فخر الدين الذي يقال إنه كان في الأصل حاكما على سيستان ولكنه ترك مملكته وبلاده ، وزار مكة والمدينة ، وجاء إلى جنوبي الهند حيث التقى بناثارشاه وتبعه فأرسله هذا للدعوة للإسلام مع حوالي مائتين من زملائه الفقراء . وقد حمل فخر الدين لواء الدعوة إلى الإسلام في المنطقة واستقر نهائيا في بنيوكوندا حيث اعتنق

الأمير الهندوسي المحلي في تلك البلدة الإسلام على يديه بعد أن تفوق فخر الدين على الكاهن الهندوسي للأمير في مناظرة دينية ، كما يعزو عدد كبير من مسلمي مدارس الشرقية ، الذين يعرفون بالدودكولا تحول أسلافهم للإسلام إلى وعظ بابا فخر الدين ورفاقه(٤) .

وقد اشتهر بعد ذلك بقليل داع آخر يسمى السيد إبراهيم شاهد ، وقد ظهر في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . وطبقا للرواية المنسوجة حوله ، فقد قاد السيد إبراهيم حملة ضد مملكة بانديان (جنوب شرقي مدراس) وأخضعها لسيطرته طوال قرابة اثنتي عشرة سنة ، ولكنه انهزم وقتل في النهاية علي أيدي مؤيدي أسرة بانديا الملكية . ونظرا لحكمه الصالح فإن المنتصرين لم يقتلوا ابنه بل منحوه قطعة من الأرض وواصل أحفاده الاستمتاع بتلك المزايا حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي على الأقل(٥) .

ومهما يكن نصيب هذه الحكايات والأساطير من الحقيقة فإنها لا تترك أدنى مجال للشك بأن الإسلام وصل إلى جنوبي الهند على أيدي التجار والدعاة المسلمين العرب قبل إقامة الحكم الإسلامي في شمالي الهند بكثير وليس فقط قبل فتح سلطان دهلي لجنوب الهند .

إن الفتح الإسلامي الأول للدكن وجنوبي الهند حدث – كما هو معروف – في العقد الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أثناء فترة حكم السلطان علاء الدين خلجي (٦٩٥ - ٧١٥ هـ / ١٢٩٦ – ١٣١٦ م) .

وبعد ثلاثين سنة من هذا الفتح زار الرحالة المشهور ابن بطوطة الساحلين الغربي والشرقي لبلاد الهند أثناء رحلته المعروفة ، وكان في تلك الزيارة مبعوثا خاصا للسلطان محمد بن طغلق (٧٢٥ – ٧٥٢ هـ / ١٣٢٥ – ١٣٥١ م) إلى الصين . وتلقي رواية ابن بطوطة الضوء الكثير على حالة الإسلام والمسلمين في جنوبي الهند أثناء الأعوام ٧٤٣ – ٧٤٥ هـ / ١٣٤٢ – ١٣٤٤ م وكانت قوقة أول مدينة هامة زارها على الساحل الغربي ، ولا يمكن تمييزها الآن بطريقة مؤكدة ولكن يبدو أنها كانت على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا إلى الشمال من جوا ، ووجد ابن بطوطة في قوقة مسجدا ، التقى

فيه بجماعة من الفقراء الحيدرية (يحتمل أن تكون طريقة صوفية) . ثم غادر الرحالة قوقة وسار بحرا إلى سندابور ، وهي جوا الحالية وكانت سندابور في ذلك الوقت تتكون من مدينتين متميزتين إحداهما يسكنها غير المسلمين والأخرى يسكنها المسلمون . وقد رأى ابن بطوطة في المدينة الإسلامية مسجدا كبيرا يشبه – على حد قوله – مساجد بغداد . وتمّ بناء هذا المسجد بفضل تاجر واسع الثراء من ناخودا يسمى حسن ، كان ابنه جلال الدين محمد سلطانا على هينور (هونافار الحديثة) التي تبعد حوالي ٧٥ ميلا جنوبي جوا وقد زارها ابن بطوطة بعد ذلك . وكان سكان هينور كلهم من المسلمين يتبعون مذهب الشافعي وكانوا أتقياء ومهرة في الملاحة وفنون الحرب البحرية . والتقى ابن بطوطة في هينور بشيخ صوفي يسمى محمد ناغوري ، كان يمتلك زاوية استضاف فيها ابن بطوطة . واجتذب انتباه ابن بطوطة بصورة خاصة أن كل نساء هينور يحفظن القرآن ، حيث كان هناك ١٣ مكتبا (كتاتيب أو مدارس قرآنية) لتعليم البنات و ٢٣ مكتبا لتعليم الأولاد القرآن . وذكر ابن بطوطة أنه لم يشاهد في أي مكان آخر على الساحل مثل هذه المنجزات التعليمية للأولاد وللبنات[٩] . كما ذكر أن السلطان جلال الدين محمد حاكم هينور كان نفوذه عظيما على البحار ولذلك كان حكام مالابار يقدمون له الهدايا القيمة كل سنة[١٠] .

وقد ترك ابن بطوطة هينور وقام بالترحال في منطقة ساحل مالابار . وكان كل الساحل مغطى بالأشجار الخضراء ، وعلى كل نصف ميل محطة استراحة وبيت خشبي ومحلات عديدة وبئر للشرب . وقد اعتاد الزوار والتجار المسلمون وغير المسلمين أن يمروا بهذه المحطات في ذهابهم وإيابهم . وفي كل مرحلة من هذه المراحل على الطريق الساحلي كان هناك منزل يمتلكه ويديره المسلمون ، حيث يمكث التجار والرحالة المسلمون ويتزودون منها بالطعام وما يحتاجونه في رحلاتهم . وقد توقف ابن بطوطة عند مدينة على ساحل مالابار تسمى أبو سرور (ولا يمكن الآن تحديدها بالضبط ولكن من المؤكد أنها تقع بين هانوفار وكوندابور) ، وهي مدينة صغيرة كانت تكثر فيها أشجار جوز الهند كما كانت تعيش بها جالية مسلمة تبرز فيها شخصية رجل يوقره الناس ويكثر الإنفاق على

الفقراء والمساكين يسمى الشيخ جمعة ويشتهر بأبي ستة ، وقد أنفق أمواله كلها في تلك الوجوه[11] . ثم وصل ابن بطوطة إلى مدينة ساحلية تسمى فاكنور (قد تكون توكول الحديثة أوكونابور ، على بعد ١٠٤ كم إلى الشمال من مانجالور) حيث كانت تعيش جالية مسلمة تحت قيادة حسين السلاط الذي بنى مسجدا جامعا لإقامة الجمعة[12] . وعلى الرغم من أن حاكم فاكنور كان هندوسيا يسمى باشاديو فإن أسطوله العسكري المكون من ثلاثين سفينة كان يقوده مسلم يدعى لولا .

رحل ابن بطوطة بعد ذلك إلى مدينة أخرى تسمى مانجارور (مانجالور) ، وهي مدينة بحرية كبيرة كان يقدم إليها التجار المسلمون الأغنياء من فارس واليمن ومن ثم كان بها جالية مسلمة كبيرة العدد والأثر . كما كان هناك أكثر من ٤ آلاف مسلم يعيشون في حصن منيع مجاور لهذه المدينة ، وكان لهم قاض شافعي المذهب يدعى بدر الدين المعبري[13] . وأبحر ابن بطوطة بعد ذلك لمدة يومين حتى بلغ مدينة هيلي (حاليا هيلي مداين) وكانت مدينة كبيرة ذات مبان جميلة ، وحظيت بتقدير المسلمين إذ كان فيها جامع كبيرعُدَّ مصدرا للبركة والنور . وكان لهذا المسجد مورد مالي هائل ينفق منه على الطلاب الذين كانوا يتلقون العلم فيه دون مقابل . ولقي ابن بطوطة في هذا المسجد فقيها تقيا واسع العلم من مقديشو يدعى سعيدا كان قد أقام في مكة ١٤ عاما ، وأقام مدة مثلها في المدينة ، ثم قام بأسفار عديدة في الهند والصين استقر بعدها في هيلي[14] .

ومن هيلي ذهب ابن بطوطة إلى جرفتان (كانانور حاليا) التي يقول عنها إنها تقع على بعد ثلاثة فراسخ من هيلي ، وفيها لقي فقيها عالما من بغداد ، وكان لهذا الفقيه أخ غني يقيم معه[15] . وفي الولاية ذاتها كانت هناك مدينتان أخريان هما داهفتان وبودفتان . وكان في المدينة الأولى جامع كبير يقال إن الذي أقامه هو والد الحاكم كويل أو جده الذي اعتنق الإسلام . ويروي ابن بطوطة قصة طريفة عن اعتناق هذا الحاكم للإسلام ، ولكنه لا يذكر السبب في أن خليفته كويل لم يكن مسلما . أما المدينة الثانية بودفتان فلم يكن بها مسلمون ، وإن كان بها مسجد قائم على ساحل البحر ، كان المسلمون الغرباء يقيمون فيه الصلاة[16] .

ثم وصل ابن بطوطة إلى فاندأرينا وكانت وقتئذ مدينة كبيرة تقع في وسط المسافة بين كانانور وفاليقون . وكان يوجد بها ثلاث مستوطنات إسلامية في كل منها مسجد ، بينما كان المسجد الجامع يقع على الساحل وكان قاضي المدينة وخطيبها رجلا من عُمان(١٧) . وبلغ الرحالة بعد ذلك قاليقوت (كاليكوت) وهي إحدى الموانئ الكبيرة على ساحل مالابار ، وإليها كانت تفد السفن من جميع البلدان مثل الصين وجاوة وسيلان ومالديف (مهل) واليمن وفارس . وكان يحكم كاليكوت (قاليقوت) حاكم من الهندوس يحمل لقب (ساماري أزامورين) كما كان يسميه الكتاب البرتغاليون . وقد تمتع التجار والسكان المسلمون هناك بنفوذ كبير . وكان رئيسهم إبراهيم شاه بندر يرجع أصلا إلى البحرين ، وكان رجلا مثقفا ومحسنا ، كما كان للمدينة قاض مسلم يدعى فخر الدين عثمان(١٨) .

وبعد رحلة بحرية استغرقت ثلاثة أيام وصل ابن بطوطة من قاليقوت إلى كولوم (كويكون حاليا) ، حيث كان يقيم عدد كبير من التجار المسلمين الأثرياء ، وكان أكثرهم ثراء علاء الدين العوجي وهو من أصل عراقي وعلى مذهب الخوارج وكان يرافقه عدد ممن يدينون بمذهبه . وكان زعيم الجالية المسلمة محمد شاه بندر ، بينما كان حاكم المدينة هندوسي ينظر إلى المسلمين بالتقدير وكانوا يتمتعون بنفوذ كبير ولهم مسجد رائع(١٩) . ثم ترك ابن بطوطة مدينة كويلن وساحل مالابار وقصد ساحل مدراس في الشرق (ساحل كرومندل) وبخاصة معبر (أركوت الشمالية فيما بين نيجاباتام ومدينة مدراس) ، وهناك شهد بعض الأحداث المتعلقة بإقامة سلطنة مادورا الإسلامية .

وعلى وجه العموم فإن رواية ابن بطوطة توضح بجلاء عددا من النقاط :

* أن أعدادًا كبيرة من تجار العرب والفرس ومسلمي آسيا الوسطى أقاموا لهم مستوطنات نشطة في أغلب الموانئ ، على ساحلي مالابار وكرومندل ، وأن بعض هذه المستوطنات كانت مزدهرة .

* كذلك قامت في بعض الأماكن مثل هونافار وكانانور سلطنات إسلامية مستقلة على أيدي التجار المخاطرين مثل جلال الدين محمد بن التاجر النخدة حسن . ويبدو أن هذه السلطنات والمستوطنات الساحلية لم تكن خاضعة للسلطان الخلجي أو سلاطين طغلق

بدهلي الذين بسطوا نفوذهم على الأجزاء الداخلية من الدكن وجنوبي الهند والواقع أن السلطنات الإسلامية في هوناخار وكانانور (التي عرفت فيما بعد بمملكة كيلاري في هينور وعلى راجافي كانانور) على استقلالها . وقد مارست الأولى منها إشرافا كاملا على شؤون جزر المالديف والكاديف .

* ثم إن المستوطنات الإسلامية التي لم تبلغ مرتبة السلطنة المستقلة فإنها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي ، فكان لكل مستوطنة منها زعيم يتولى الشؤون الداخلية للمدينة وأحيانا ما يتعلق بحماية المسلمين عسكريا . وكان لها قاض ينظر في قضاياهم وخطيب يؤمهم في صلاة الجمعة . وكان في كل مستوطنة مسجد جامع بالإضافة إلى مساجد أخرى .

* وقد تبع العلماء والمدرسون والدعاة التجار المسلمين على إثر قيامهم بتأسيس هذه المستوطنات . ويذكر لنا ابن بطوطة عددا من هؤلاء ، التقى بهم في أماكن مختلفة .

ومما يجدر ملاحظته أنه في الوقت الذي زار فيه ابن بطوطة الدكن وجنوبي الهند كانت هاتان المنطقتان تنسلخان من سيطرة سلطنة دهلي ، وتحولت الأراضي الواقعة إلى الجنوب من نهر تنجابهادرا (دائرة عرض ١٤ شمالا) إلى مملكة هندوكية باسم فيمايانجا وذلك في عام ٧٣٧ هـ / ١٢٣٦ م . وبعد رحيل ابن بطوطة بعامين أي في ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م تحولت الأراضي الواقعة بين نربادا في الشمال (دائرة عرض ٢٢ شمالا) وبين تنجابهادرا في الجنوب إلى بلاد مستقلة يحكمها حاكم من أصل أفغاني أو تركي يدعى حسنا ، اتخذ له لقبا بهمانيا . وقد ظلت السلطة البهمانية قائمة لمدة قرنين من الزمان ثم انقسمت إلى خمس سلطنات مستقلة (في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) هي أحمد بخار وبرار وبجابور وبيدار وجلكندا (وكانت الأخيرة من هذه السلطنات الخمس نواة لولاية نظام حيدرآباد) . وقد بقيت هذه السلطنات حتى جاء التدخل المغولي في أواسط القرن التالي ١١ هـ / ١٧ م . وبارتباط هذه السلطنات في الجنوب بسلطنة دهلي في الشمال ظهرت إلى الوجود سلطنة جوجارات القوية (٨٠٤ – ٩٨١ هـ / ١٤٠١ – ١٥٧١ م) . وكانت تضم شبه

جزيرة كاثياوار ومناطق أخرى عديدة من إقليم بمباي كما يقوم الآن .

وحينما كانت السلطنة البهمانية قائمة خضع الساحل الغربي بما فيه ميناء جوا الشهير « سندابور » لحكم المسلمين وأصبح ضمن ممتلكاتهم ووفدت أعداد أخرى من المسلمين ذات أصول عربية وفارسية واستقرت في هذه الولايات . وكان للسلاطين البهمانيين همة مشكورة في رعاية العلوم والحضارة الإسلامية واستمر ذلك في أثناء حكم نظام حيدرآباد .

وقد توافد على الدكن وجنوبي الهند منذ بداية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، العلماء والدعاة من شمالي الهند للدعوة إلى الإسلام . ففي عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م وفد إلى الدكن أحد الدعاة العرب بدعوة أهل المنطقة (بيرماهايير حمديات) حيث أسلم على يديه خلال سنوات عدد من الجيفز من بيجابور[٢٠] . كما جاء اثنان من الدعاة العرب في نفس الوقت هما السيد محمد بن السيد علي والسيد محمد عيدراس باشيبان ، واستقرا في منطقة بلجاؤن[٢١] . وفي أوائل القرن ٩ هـ / ١٥ م جاء من شمالي الهند الداعية سيد محمد جيئوداراز (المتوفى ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م) واستقر في العاصمة البهمانية جولبارجا ، وينسب إليه إسلام عدد من الهندوس في مقاطعتي بونا وبلجاؤن[٢٢] .

ومن الأحداث الهامة التي شهدها منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وصول عبد الرزاق السمرقندي الذي أرسله شاه إيران في بعثة إلى بلاط الزاحورين في قاليقوت للاتصال بالحكام والدعوة إلى الإسلام . وقد بقي عبد الرزاق في جنوبي الهند من ٨٤٥ - ٨٤٩ هـ / ١٤٤٠ - ١٤٤٤ م وزار عددا من الأماكن بينها قاليقوت ومانجالور وفجابانجار . وعلى الرغم من أن عبد الرزاق لم يستطع تحويل الزاحورين إلى الإسلام فإنه خلف وراءه تقريرا مفصلا عن بعثته مليئا بالمعلومات القيمة عن وضع الإسلام والمسلمين في جنوبي الهند في ذلك الوقت .

وفي مطلع القرن ١٠ هـ / ١٦ م قام الداعية خواجا خونهير حسين بالدعوة إلى الإسلام على نطاق واسع في منطقة ناسلك ، وأعقبه داعية آخر كان أكثر توفيقا يدعى

محمد صادق سارمست حسيني . وقد قدم من المدينة في عام ٩٧٥ - ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م . وبعد عدة أسفار في الجزء الأكبر من غربي الهند استقر في ناسك وظل أحفاده هناك حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي . وعند نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أفلح أحد الدعاة وكان يسمى هاشم بيرجوجاراتي الذي كان قد استطاع التدريس للسلطان بيجابور إبراهيم عادل شاه الثاني (٩٨٨ - ١٠٣٦ هـ / ١٥٨٠ - ١٦٢٦ م) في نشر الإسلام بين أعداد كبيرة في منطقة ضاروار[٢٣] .

وقد أثمرت جهود هؤلاء المعلمين والدعاة تقدما مطردًا في حركة انتشار الإسلام في الدكن وجنوبي الهند . وقدر عدد المسلمين في ساحل مالابار في أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، بما يعادل خمس السكان ، « إلّا أنه بمجيء البرتغاليين كان الساحل كله قد تحول للإسلام » كما يقول أرنولد « ويرجع تحول السكان للإسلام على نطاق كبير إلى النفوذ الواسع الذي كان يتمتع به التجار المسلمون القادمون من الجهات الأخرى في الهند مثل جوجرات والدكن أو من الجزيرة العربية وفارس »[٢٤] .

آثار قدوم البرتغاليين :

كان مجيء البرتغاليين بداية تدهور لأحوال المسلمين في جنوبي الهند . فقد عملوا منذ وصولهم إلى قاليقوت في عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م على زحزحة المسلمين عن المحيط الهندي ، وهزموا أول الأمر في عام ١٥٠٨ م على مقربة من بمباي على يد أسطول قوي لسطان جوجارات محمد بيجارها (٨٦٣ - ٩١٧ هـ / ١٤٥٩ - ١٥١٢ م) ، يعاونه أسطول مصري بقيادة الأمير حسين . لكن استطاع البرتغاليون في السنة التالية ١٥٠٩ م إبادة الأسطول الإسلامي وهزيمة الأسطول المصري قرب ديو في كايثاوار التي كانت في ذلك الوقت ضمن سلطنة جوجارات . وفي عام ١٥١٠ م استولى البرتغاليون على ميناء جوا من بيجابور .

ومنذ ذلك الوقت تحطمت مقاومة البحرية الإسلامية وأصبح المحيط الهندي بأكملة خاضعا للنفوذ البرتغالي . واستهدف البرتغاليون بهجماتهم المستوطنات الإسلامية في

جنوبي الهند فذبحوا كثيرا من المسلمين دون رحمة واسترقوا أسرى كثيرين منهم ، كما أجبروا عددا كبيرا آخر على اعتناق الكاثوليكية . وظل المسلمون الهنود يتعرضون للمطاردة المستمرة خلال الأزمان التالية . فلقد حدثت مذبحة كبيرة لمسلمي موبلاه على أيدي السلطات البريطانية في العشرينات من القرن الميلادي الحالي في أعقاب ثورة قام بها الموبلاه . ونتيجة لذلك هبطت أعداد المسلمين في جنوبي الهند إلى أقل مما كانت عليه في أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . وإن لم ينقطع اعتناق الإسلام من جانب بعض السكان بين وقت وآخر(٢٥) .

انتشـــار الإســـلام في سيـــلان :

ذكر أحد المصادر الأوربية أنه لولا التدخل البرتغالي لكانت جزيرة سيلان قد تحولت تماما إلى الإسلام ، لأن التجار العرب وصلوا إليها في فترة مبكرة ووجدوا في معظم موانيها ، وعندما زار ابن بطوطة هذه الجزيرة التقى فيها بعدد من المسلمين . وثمة روايات متداولة عن وصول بعض اللاجئين المسلمين إلى الجزيرة في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، واستقروا هناك . وقد عرف أحفادهم بمورسيلان تمييزا لهم عن المسلمين الآخرين الذين وفدوا من الهند أو الذين تحولوا إلى الإسلام من سكان الجزيرة الأصلاء(٢٦) وقد قدر عدد المسلمين في سيلان في أوائل القرن العشرين الميلادي بنحو ٢٦٦,٦٢٥ نسمة . وكان بالجزيرة أيضا عدد كبير من مسلمي الملايو الذين جاء بهم الهولنديون من جاوة لأغراض حربية(٢٧) .

ويلاحظ أن المسلمين موزعون في أنحاء جزيرة سيلان جميعا إلا أنهم يتكاثرون في جهات ساحلية معينة ، مما يدل على أن انتشار الإسلام في الجزيرة كان نتيجة لنشاط التجار المسلمين الذين كانوا يترددون على المناطق الساحلية . ويكثر المسلمون بصفة خاصة في مناطق تشيلا وبتلام على الساحل الجنوبي الشرقي . ويذكر المسلمون في هذه المنطقة الأخيرة أنهم ينحدرون من سلالة اثنين من دعاة الإسلام جاءا من بغداد متعاقبين أولهما في القرن ١٢ هـ / ١٨ م ، وثانيهما في القرن ١٣ هـ / ١٩ م(٢٨) .

انتشـــار الإســـلام في أرخبيل مالديف والكاديف :

ويختلف أمر انتشار الإسلام في أرخبيل مالديف والكاديف الذي يقع على بعد ٤٨٠

كم إلى الجنوب الغربي من ساحل مالابار ، إذ لم يصطدم بقوة مناوئة داخلية أو خارجية فقد جاء الإسلام إلى هذه الجزر في وقت مبكر وانتشر فيها انتشارا واسعا ، حتى أن ابن بطوطة عندما زارها في أواسط القرن ٨ هـ / ١٤ م وجد أن سكانها جميعا مسلمون[٢٩] ، ولا يزال هذا الوضع قائما حتى اليوم . وجاء انتشار الإسلام في جزر الأرخبيل نتيجة جهود في الدعوة سلمية هادئة فلم يرد في المصادر تلميحا أو تصريحا ما يشير إلى استعمال القوة أو الغزو السياسي في فرض الإسلام في تلك الجزر ، وإنما وصل التجار المسلمون هناك في بواكير القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي فأخذ الإسلام ينتشر بين السكان منذ ذلك الوقت . وهناك رواية متداولة عن تحول جماعي إلى الإسلام من قبل ملك الجزر ورعاياه جميعا على يد أحد الدعاة هو أبو البركات البربري المغربي .

ويروي قصة هذا التحول الجماعي ابن بطوطة مؤكدا سماعها من أشخاص موثوق بهم في الجزر مثل الفقيه عيسى اليمني والفقيه معلم علي والقاضي عبد الله وآخرون غيرهم[٣٠] . وقد كان سكان الجزر جميعا قبل ذلك وثنيين . وقد وقعوا قبل قدوم أبي البركات فريسة لجني شرير كان يظهر لهم في مساء يوم معين من كل شهر من جانب في البحر كما لو كان في سفينة ملأى بالشموع ، وكان السكان يقدمون استرضاء له عذراء يتركونها في المعبد على شاطئ البحر بعد أن يزينوها بالملابس والحلي . وفي الصباح كانوا يجدون الفتاة ميتة . فلما جاء أبو البركات وكان مثالا في علمه وتقواه وسمع من إحدى النساء أن ابنتها الوحيدة ستقدم للجني في المساء الموقوت ، أعلن أنه سيواجه الجني بنفسه وأقنع الناس ألا يرسلوا أية فتاة . وظل أبو البركات في المعبد يرتل القرآن بصوت عال فما كاد يظهر الجني من جانب البحر كعادته ويسمع قراءة القرآن حتى تراجع واختفى في البحر . وجاء القوم في الصباح فوجدوا لدهشتهم وفرحتهم أبا البركات لم يصب بأذى وأنه مازال يقرأ القرآن ، فأخذوه إلى ملكهم شانوراجا فأخبره أبو البركات بالقصة ودعاه إلى اعتناق الإسلام . وقد مال الملك إلى قبول الدعوة ، ولكنه طالب أبا البركات أن يعيد الكرة في ليلة أخرى من الشهر التالي وعندما فعل أبو البركات ذلك وجاء إليه الملك في

الصباح ووجده مازال حيا ويقرأ القرآن ، قام بتحطيم الأصنام والمعبد كله وأقبل على اعتناق الإسلام هو ورعاياه ، وأرسل رسله إلى كافة الجزر يدعو أهلها إلى الإسلام فأسلموا جميعا . ومهما كان المأخذ على هذه القصة فإنها لها دلالتها .

وأقام أبو البركات مسجدا في الجزيرة التي عرفت باسمه . ويذكر ابن بطوطة أنه رأى في هذا المسجد لوحة خشبية كتب عليها « اعتنق السلطان أحمد شاه شانوراجا الإسلام على يدي أبي البركات المغربي البربري »[٣١] ولا يوجد تأييد تاريخي لتلك الرواية الشائعة زمن ابن بطوطة . ولما كان الرحالة قد تزوج هناك من ابنة أحد الوزراء الذي كان حفيد السلطان داود وكان هذا بدوره حفيد السلطان شانوراجا الذي ذكرت الرواية اعتناقه الإسلام على هذا النحو ، فإن اعتناق ذلك السلطان للإسلام يكون قد حدث قبل قدوم ابن بطوطة للجزيرة بحوالي مائة وخمسين عاما على الأقل ، أي حوالي نهاية القرن ٦ هـ / ١٢ م .

وشأن كل الأساطير تعتبر هذه الرواية مزيجا من الحقيقة والخرافة . ولعلّ الحقيقة الصريحة في هذه الرواية أن داعية يسمى أبا البركات المغربي لقي نجاحا في دعوته في هذه الجزر وكان من نتيجة ذلك اعتناق الملك فيها للإسلام . ومما لاشك فيه أن ذلك الداعية المغربي لم يكن الوحيد الذي دعا للإسلام هناك ، ويوجد مثلا في (مهل) ، الجزيرة الرئيسة في الأرخبيل قبر للشيخ شمس الدين تبريزي الذي جاء إليها يدعو للإسلام . وهناك مقابر أخرى عديدة يقال إنها لأصدقاء شمس الدين جاءوا يبحثون عنه أو يواصلون رسالته[٣٢] .

وعندما زار ابن بطوطة هذه الجزر كانت تحت حكم السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنغالي . ومن الواضح أن جماعة من المسلمين المخاطرين مثل الفقيه عيسى اليمني الذي روى لابن بطوطة الأسطورة السالفة الذكر كانوا مهاجرين إلى تلك الجزر وغرباء عنها في الأصل ، ومن هؤلاء تكون جزء من السكان المسلمين في تلك الجزر[٣٣] .

وينسب دخول الإسلام إلى جزر الكاديف المجاورة بصفة عامة إلى داعية عربي عرف

هناك باسم مومبا مولاياكا ، من المحتمل أن يكون وصل إليها في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ومازال قبره معروفا في أندروث ، حيث يرجع بعض السكان بنسبهم إليه(٣٤) .

وهكذا باستثناء كشمير والجزء الشمالي القصي من شبه القارة الهندية وجزر مالديف والكاديف البعيدة ، لم ينتشر الإسلام على نحو واسع بين سكان الهند على الرغم من طول الفترة التي أمسك فيها المسلمون بزمام الحكم في أيديهم وهي تزيد عن خمسة قرون ، وعلى الرغم من كثرة الدعاة الذين حفظ التاريخ لنا أسماءهم . ويعود ذلك إلى أسباب وعوامل هامة :

* أولها شخصية الحكام المسلمين أنفسهم : فباستثناء القلة منهم كان معظمهم بعيدين عن قيم الإسلام وتعاليمه ، يعملون لصالحهم ومطامعهم الشخصية . فإذا ما فتحوا أرضا كان هدفهم امتلاكها وتحقيق مطامعهم الدنيوية فيها لا نشر الإسلام بها . وعلى الرغم من اتباعهم سياسة التسامح الديني إلّا أنها لم تنتج نفس الأثر الذي تركته هذه السياسة في أيام الإسلام الأولى ، إذ كان المسلمون الأوائل قدوة للناس في سلوكهم وإيمانهم و لم يجر حكام الهند المسلمين على هذا المثال ولذلك قل تأثيرهم في نشر الإسلام نتيجة سلوكهم المخالف لمبادئه ولم يكن التسامح الديني للحكام وحده كافيا في إقناع عامة الناس بالإسلام ، وهم يشاهدون من أعمال أولئك الحكام ما لا يرضي .

* وثانيها تفتت الخلافة العباسية والاجتياح المغولي للبلدان الإسلامية في وسط آسيا : فقد قطع الحكام المسلمين في الهند عن جذورهم وجعلهم يعتمدون إلى حد ما على ما يتوالى من موجات المسلمين المهاجرين من آسيا الوسطى وإيران من جهة وعلى تعاون السكان المحليين معهم ودعم حكمهم من جهة أخرى . كذلك كان الحكام المسلمون في معظم أنحاء الهند منقسمين على أنفسهم وكثيرا ما كانوا يحاربون بعضهم البعض . وربما سعى أحدهم لكسب تأييد ذوى النفوذ من الهندوس المحليين ضد منافسة الحاكم المسلم . و لم يكن هذا الاختلاف والصراع يترك لدى السكان المحليين انطباعا طيبا عن الإسلام وهم يشاهدون المسلمين في تلك الأحوال .

* وثالثها الخلافات المذهبية مثل صراع السنة والشيعة : فقد أوجدت جوا كريها وأدت بالتأكيد إلى تأخر تقدم الإسلام بين السكان على نطاق واسع . فقد ارتأى ارنجزيب مثلا ، على الرغم مما اشتهر به من الإسلام أن يجند القادة والجنود الهندوس للحرب ضد سلاطين الشيعة في الدكن وجنوبي الهند في حين أهمل الأمور في الشمال حوالي ربع قرن من الزمان . وكان لذلك تأثيره السيىء بطبيعة الحال على حركة انتشار الإسلام في شبه القارة بما يمكن تتبعه وتمييزه بوضوح .

* ورابعها انتشار خرافات وبدع كثيرة بين المسلمين في الهند خلال قيام الحكم الإسلامي في الشمال : وقد شوهت هذه صورة الإسلام في أعين غير المسلمين . فقد وفد إلى الهند عدد كبير من الصوفيين ينتمون لعدد مختلف من الطرق ، ووجدت الصوفية أرضا لها وافرة الخصب في الهند . لكنها ما لبثت أن تورطت في القول بوحدة الوجود وإلى نزعات منحرفة عن عقيدة الإسلام الصحيحة نتيجة امتزاجها بالزهد الهندوسي ، وكان لهذا الانحراف ضرر بالغ على الإسلام من ناحيتين : أولاهما تقديم صورة مشوهة منفرة للإسلام وصرف العامة الأبرياء عن جوهر الإسلام الحقيقي وعقائده الإيجابية التي تقرن الإيمان بالعمل ، وإيمانهم بدلا من ذلك بتهاويل ومبالغات عن الزهد والنسك والخوارق . والناحية الثانية أن هذه الصوفية مهدت الطريق لظهور حركات هندوسية تحاول أن تعمل على تحسين صورتها لدى الناس بمزجها ببعض الآراء الصوفية بينما كانت تعمل جاهدة في قطع الطريق على الإسلام والحد من انتشاره ، ومن ثم محاربته هناك فبعد قرن من قيام الحكم الإسلامي في شمالي الهند ، شرع هندوسي من مدينة الله آباد يسمى راماند في حركة مراجعة وإصلاح لديانته في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي حتى تقوى على مواجهة الإسلام . وعمد إلى تقديم عقائد الهندوسية عن طريق إحياء الفاشنافية مع خلطها بالزهد الصوفي . وعمل تلميذه المشهور كبير بتوسيع هذه الحركة وتطويرها عن طريق الترويج لديانة توحيدية غامضة والتخلي عن النظام الطبقي وعن عبادة الأصنام وهما أكثر ما يبغضه الناس من سمات الهندوسية . وقد جذبت تلك الحركة عددا كبيرا من الأتباع والمريدين . واقتفى أثر « كبير » هندوسي بنجابي وتأثر بتعاليمه يسمى

« نانك » وأقام ملة السيخ في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وقد أثار السيخ فيما بعد العداء الخطير بين الحكام الموغاليين والمسلمين في شمالي الهند .

كذلك عمل « شيطانيا » ، وهو براهمي من ناديا ، على استمالة الناس في البنغال إلى الفاشنافية وتحبيبهم فيها لجمع أمرهم ضد الإسلام .

ووصلت نزعات الغلو والانحراف إلى بعض الحكام أنفسهم فقد حاول الإمبراطور الموغالي أكبر (٩٦٢ - ١٠١٤ هـ / ١٥٥٥ - ١٦٠٥ م) أن يقيم ديانة توحيدية طبيعية أدخل في تركيبها بعض شطحات الصوفيين إلى جانب غيرها من المعتقدات . وتوالت دعوات تصحيح صورة الإسلام بين الهنود ورد الزيغ والغلو ومن ذلك جهود الشيخ أحمد سرهندي في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي وشاه ولي الله في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي لمعالجة الأمر وتنقية الإسلام في الهند من متاهات الغلو الصوفي من جهة والتعصب الناشب بين الفرق والمذاهب من جهة أخرى .

وقبل أن يأتي ثمار مثل هذه الجهود في التصحيح والإصلاح وتظهر آثارها بالنسبة لصورة الإسلام والدعوة إليه بين السكان غير المسلمين داهم الاستعمار الأوروبي شبه القارة الهندية وشغل المسلمين بالصراع ونشر بينهم الفرقة وكرس الأحقاد وزاد من حدة الفوارق بينهم حتى يقضي على أي مظهر للوحدة بينهم ومن ثم يضمن وجوده في تلك البلاد دون أي تهديد .

الهـوامـش

(1) C A. Innes , Malabar and Anjeno (Madras District Gazetteers) , Madras , 1908 (ed = F.B. Evans) , p 436, quoted in Arnold , The Preaching of Islam , Lahore 1961 , p, 221 .

(2) C.A, Innes , op. cit , p 389 , also Arnold , op. cit., p 268.

(3) Madras District Gazetteer Trichinopoly , vol . 1., p 338, Qadir Hussain Khan , South Indian Moslims , Madras , 1910 , p . 36, quoted in Arnold m op . cit., 270 .

(4) Madras District Gazetter , Anantapur , vol . 1., Madras , 1905 , pp 193 - 94 .

(5) Arnold , op . cit., p 270 .

(٦) ابن بطوطة ، رحله ابن بطوطة ، بيروت ١٩٦٤ ص ٥٥٣ ، انظر :

- W. Brice , An Historical Atalas of Islam , Leiden , 1981 Maps 44 - 53

(٧) ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص ٥٥٣ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٥٥٥

(٩) الصفحة نفسها .

(١٠) الصفحة نفسها .

(١١) المصدر نفسه ، ص ٥٥٩ ، ٥٦٠ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦٠ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٥٦١ .

(١٤) الصفحة نفسها .

(١٥) المصدر نفسه ص ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

(١٦) المصدر نفسه ص ٥٦٣ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٥٦٣ – ٥٦٤ .

(١٨) الصفحات نفسها .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٥٦٤ .

(20) THe Bombay District Gazetteers , vol 23, p. 283 , Arnold , op. cit 274 ,

(21) Ibid , vol 16, pp 75 - 76

(22) Ibid , vol 18, p 501 and vol 21 . pp 218 - 223 .

(23) The Bombay District Gazetteers , vol 22, p 242 .

(24) Arnold , op. cit. p 269 .

(٢٥) حدث في أوائل عام ١٩٨٢ م أن تحول عدد من القرى في حوض الهند إلى الإسلام وثارت حول ذلك ضجة إعلامية كبيرة في الصحافة الغربية وقد يحدث توازن لذلك ، فقد قامت ثورة عارمة في أسام في شهري فبراير ومارس سنة ١٩٨٣ م ذبح فيها عدة آلاف من المسلمين .

(26) I.E Tennent , Ceylon . vol . London , 860, pp. 631 - 633 , Arnold , op . cit 269 .

(27) The Mosleim World , vol 8 , 1918 , p 61 .

(28) Ibid

(٢٩) أطلق ابن بطوطة على جزر الأرخبيل اسم ديباتا مهل . ويبدو أن لفظ ملديف مشتق من ديباتا مهل بترتيب معكوس ، فمهل هي مال + ديباتا هي ديبا أو ديف . ومهل هي الجزيرة الرئيسة في الأرخبيل وفيها مقر الحكومة .

(٣٠) رحلة ابن بطوطة ، ص ٥٧٨ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٥٧٩ .

(32) I.A. young & W. Christopher , " Memoir on the Inhabitants of the Maldive Islamds , Transactions of the Bombay Geographical Society from 1836 to 1838 , Bombay , 1844, p 74 , Arnold . op . cit p 273 .

(٣٣) ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص ٥٨٠ .

(34) Arnold , op . cit , p 273 , qouting Innes , op . cit , pp 483 - 492 .

– توجد مراجع أخرى ملحقة بهوامش البحث السابق .

انتشـــار الإســلام في بنجلاديــش وغربي البنغــال

حدث الاتصال الإسلامي بالبنغال ، كما هو الحال مع جنوبي الهند عن طريق التجارة البحرية الشرقية للمسلمين العرب الأوائل منذ القرن الثاني الهجري فصاعدا ، ثم عن طريق تأسيس السلطة السياسية الإسلامية في البلاد ، منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . ومعلوماتنا عن اتصال التجار المسلمين الأوائل بالموانئ الساحلية للجنوب الشرقي للبنغال مستمدة من مراجع وإشارات متفرقة وغير مباشرة كتبها الجغرافيون العرب .

الصــلات المبـكرة :

عرض أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة (مات سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) بتفصيل للأماكن ذات الأهمية التجارية التي تقع بعد سرنديب (سيلان) ونهر « مودافريد » (جودافاري على ساحل كروموندال) وقد أشار خلال ذلك إلى ميناء يسمى « ساماندار » Samandar حيث يزرع الأرز بوفرة ويحمل إليها العود للتصدير من مسيرة خمسة عشرٍ يوما أو عشرين يوما من كامرون[١] "Kamrun" .

وذكر « ساماندار » أيضا ، الجغرافي العربي الشهير عبد الله الإدريسي الذي عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي (توفي سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٤ م) وقال عنها إنها « بلدة كبيرة تجارية وغنية ، حيث يمكن تحقيق فرص الربح والكسب . وهي ميناء يعتمد على كانوج ، ملك هذه البلاد . وتقع مدينة ساماندار على خليج صغير ينحدر من بلاد كشمير »[٢] كذلك ذكر الإدريسي بأن ميناء ساماناندار بني على ضفة نهر كبير يصب في نهر « مُوصَلَة » " Musala " (ميغنا) " Meghna " وأن الإنتاج الرئيسي للبلدة هو الأرز ، وأن العود كان يحمل إلى هناك من كامرون " Kamrun " على مسيرة خمسة عشر يوما عبر المياه العذبة[٣] . ومع الأسف لا يوجد أي ميناء بهذا الاسم اليوم

ولم يذكر أي مصدر محلي أي ميناء قديم بهذا الاسم . وباتباع وصف الإدريسي – فإن الميناء القديم لساماندار يمكن أن يقع تقريبا بالقرب من نقطة التقاء نهري براهما بوترا وميغنا ، أو يمكن أن يكون اسما آخر لميناء كان موجودا على الموقع الحالي من شيتا جونج Chittagong(٤) .

وتشير الدلائل الأثرية والحفريات المحلية أيضا إلى وجود علاقة تجارية بين المسلمين الأوائل والبنغال . فقد كشفت الحفريات التي تمت في ١٣٥٦ – ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٧ – ١٩٣٨ م في الموقع البوذي القديم في بهاربور بمقاطعة راج شاهي عن قطعة نقود للخليفة العباسي ذائع الصيت هارون الرشيد مؤرخة بتاريخ ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م(٥) ، كما وجدت أيضا قطعتان أخريان من النقود العباسية في آثار ميناماتي في مقاطعة كوميللا . ويمكننا أن نفترض أن هذه القطع النقدية وصلت إلى هناك على يد تاجر أو واعظ مسلم في القرن الثاني أو الثالث الهجري / القرن الثامن أو التاسع الميلادي(٦) .

بل تتحدث إحدى النقوش عن « تاجيكاس » وهو تعبير أطلقه الصينيون وغيرهم في الشرق على التجار العرب والفرس ، مما يشير إلى أن التجار العرب وغيرهم من المسلمين زاروا البنغال في ذلك الوقت في طريقهم إلى الصين(٧) .

ومن المحتمل أن بعض التجار العرب المسلمين استقر في المناطق الساحلية الخصبة من البنغال ، فقد وجدت إشارة غير مباشرة تدل على استقرار مجموعة من التجار العرب على سواحل شيتا جونج في سجل تاريخ أراكاني اكتشف في القرن التاسع ، إذ يذكر هذا السجل أن بعض العرب ، بعد أن تحطمت سفينتهم قرب ساحل أراكان ، استقروا في بعض القرى هناك بمساعدة من ملكها ما – با – توينج (١٣٦ – ١٩٤ هـ / ٧٨٠ – ٨١٠ م)(٨) .

ويلاحظ أن ولاية أراكان كانت تضم في العصور القديمة شيتا جونج والأجزاء المجاورة من تل شيتا جونج ، وبذلك يبدو أن هؤلاء العرب كانوا قد استقروا في مكان ما من المنطقة الساحلية من شيتا جونج أو أراكان وتشير بعض الدلائل إلى أن مثل هذا الاستقرار للمسلمين العرب على ساحل شيتا جونج قد تطور تدريجيا إلى قيام مستعمرة هامة

للمستقرين المسلمين[٩]. إذ يذكر سجل تاريخي أراكاني آخر أن الملك تسو- لا - تانج- تسان داريا (٣٤٠ - ٣٤٦ هـ / ٩٥١ - ٩٥٧ م) كان قد هزم شخصا يدعى ثو - را - تان Thu - ra - tan ، وأقام نصبا تذكاريا بالنصر في مكان يسمى تست - تا - جونج (شيتا جونج) ومن الثابت أن ثو - را - تان هذا كان حاكما على المكان الأخير ، وأثار لسبب ما عداء الملك الأراكاني . واستنادا على هذين السجلين الأراكانيين يمكن الافتراض أن المسلمين الذين استقروا في منطقة شيتا جونج قد زادوا بالتدريج حتى كونوا جالية مترابطة ومؤثرة ، وبمرور الزمن كونت هذه الجالية إمارة مستقلة تشتمل على الحزام الساحلي من شيتا جونج ومقاطعات نواخلي ، وقد حمل لقب « السلطان » الذي استعمله حاكم هذه الإمارة الإسلامية ، وهو ما أسيء نطقه باللغة الأراكانية فكان ثو - را - تان[١٠] .

وعلى الرغم من أن الشكوك قد ثارت حول القول بوجود إمارة إسلامية مبكرة في تلك المنطقة إلا أنه توجد دلائل مادية تؤيد هذه النظرية . فاسم شيتا جونج نفسه يبدو أنه مستمد من التعبير العربي « شاطىء الجانجا » أو ضفة نهر الجانج . ومن المحتمل جدا أن التجار العرب الذين اتصلوا بالميناء كانوا هم البادئين في تسمية الميناء الواقع على ساحل الجانج (شاطىء الجانجا) ، ثم أخذت هذه التسمية صيغة محلية في النطق حتى أصبحت في النهاية بالإنجليزية شيتا جونج . وكذلك توجد كلمات وتعبيرات وجمل عربية كثيرة مختلطة باللهجات المحلية لمقاطعتي شيتا جونج ونواخلي ، وفي أولاهما بوجه خاص . فهناك تشابه بين كثير من صور التعبير ومثيلاتها في العربية ، كما أن حوالي ٥٠٪ من مفردات اللهجة الشيتاجونجية الحديثة تتكون من كلمات عربية أو من كلمات مستمدة من أصول عربية ، وكثير من أماكن المنطقة تحمل الأسماء العربية . ويشيع هناك الكثير من الألعاب والعادات العربية ويقارب مظهر كثير من مسلمي شيتا جونج ونواخلي وسلوكهم وبخاصة القاطنين منهم في المناطق الجنوبية مظهر العرب وسلوكهم إلى حد كبير . هذا التعريب الواسع والعميق للمنطقة لا يمكن أن يكون فقط نتيجة لمجرد التواصل العرضي مع قلة من التجار العرب الزوار ، وإنما تحقق بالأحرى نتيجة اختلاط طويل المدى وبعيد الأثر

مع مجموعة كبيرة من العرب المقيمين في المنطقة . كما أنه لا يمكن الافتراض بأن هذا التعريب جاء نتيجة اتصال متأخر عندما أصبح المسلمون حكاما للبنغال ذلك لأن المنطقة التي أحكم عليها المسلمون قبضتهم السياسية وأقاموا معاهدهم التعليمية والثقافية فيها ، كانت في غربي وشمالي غربي البنغال . ومع ذلك نرى مظاهر التأثير العربية الإسلامية ضئيلة جدا في تلك المنطقة بينما نراها أكثر قوة واتساعا في مقاطعات شيتا جونج ونواخلي ، وهي مناطق وقعت في وقت متأخر تحت حكم البنغال المسلمين وسيطرتهم . والتفسير الوحيد لهذا التطور الغريب هو أن هذه المناطق الساحلية كانت قد تعرضت للتأثير العربي الإسلامي لمدة طويلة قبل الفتح الإسلامي على أيدي القواد العسكريين القادمين من الشمال . ويلاحظ أيضا أنه بالرغم من أن الجيوش الإسلامية وصلت إلى شيتا جونج في الربع الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي (أثناء عهد فخر الدين مبارك شاه من سونارجاوان / دكا) إلا أن تلك المنطقة لم تكن خاضعة تماما بكل أجزائها لتلك الجيوش حتى القرن السادس عشر للميلاد(١١) .

وعندما زار بربوزا التاجر البرتغالي تلك المنطقة في حوالي ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ م وجد الميناء قائما هناك وسماه مدينة « بنجالا » التي كانت مزدهرة ويسكنها التجار المسلمون الأغنياء من الجزيرة العربية وفارس والحبشة . وقد كانوا يمتلكون السفن الكبيرة ويصدرون الأقمشة القطنية الفاخرة والسكر والسلع القيمة الأخرى إلى أماكن مثل كروموندال ومالابار وكامباي ، وبيجو وتيناسارين وسومطرة ومالقا وسيلون(١٢) . ولا يمكن أن يكون نمو مثل هذه الجالية المسلمة قد حدث فجأة أو طفرة . ويمكن الافتراض بأن التجار المسلمين العرب وغيرهم من الأجانب قد استقروا في المدن الساحلية لجنوبي شرقي البنغال منذ فترة مبكرة . وهناك بعض الخرافات المتعلقة بالشيوخ والدعاة المسلمين تذكر أنهم قدموا بالسفن إلى تلك المنطقة في عهود مبكرة . ولا نعرف مدى اضطلاع التجار المسلمين العرب ، القاطنين في البنغال أو الزائرين له خلال تلك الصلات المبكرة بالدعوة إلى الإسلام على الساحل البنغالي شأن أمثالهم في أماكن أخرى ، وإنما بدأ الإسلام ينتشر بصورة أساسية في البلاد بعد فتحها على أيدي القادة المسلمين من الأصل التركي والقادمين من الشمال الغربي .

المملكة الإسلامية في البنغال :

كان مؤسس هذه المملكة هو اختيار الدين محمد بختيار خلجي الذي جاء في أعقاب الفتح الغوري لشمالي الهند وقام بفتح شمالي وغربي البنغال في السنوات الأولى من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . ومن ذلك الوقت وحتى تأسيس السلطة السياسية البريطانية في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي والمسلمون مستمرون في حكم البنغال على مدى أكثر من خمسة قرون ونصف متواصلة ، في معظمها كان البنغال تحت حكم سلاطين دهلي ، وفي أثنائها تحول معظم سكان البنغال إلى الإسلام بسبب هجرة المسلمين من الخارج إلى تلك البلاد وبسبب عوامل أخرى .

والأمثلة على هجرة المسلمين الأجانب إلى البنغال واستقرارهم هناك كثيرة وقد تحقق ذلك في ظروف مختلفة . فقيام الحكم الإسلامي في الهند والبنغال يعود إلى هجرة كثير من الأمراء والزعماء والمغامرين وأتباعهم نتيجة للاجتياح المغولي ، وما ترتب عليه من فوضى سياسية في بلدان آسيا الوسطى . ومن ثمّ كان كل حكام البنغال ، ماعدا جلال الدين محمد شاه وابنه أحمد شاه ، ينحدرون من أصول أجنبية . وقد فتح أبواب البلاد أمام أعداد كبيرة من المسلمين على اختلاف ألوانهم ومستوياتهم : من فارس والجزيرة العربية وتركستان وأفغانستان وغيرها . وشجع هؤلاء الحكام كل من ينتمي إلى عرقهم وبلدهم لأن يأتي ويستقر في البنغال لتقوية وضعهم ومكانتهم في تلك البلاد .

ويذكر أن اختيار الدين محمد بختيار خلجي ، مؤسس الدولة الإسلامية في البنغال ، أتى مثلا بعدد كبير من بني عرقه . وهذا أمر يمكن تصوره من الحقيقة القائلة بأن عشرة آلاف من قواته المختارة من جيشه قد اصطحبوه في حملته إلى التبت[١٣] ، بينما ترك وراءه ثلاثة من قواده كان كل واحد منهم يرأس عددا كبيرا ممن يقومون بالشؤون الإدارية والدفاعية للجنوب الغربي والشمال الشرقي والمناطق الغربية من تلك الدولة الإسلامية المؤسسة حديثا كل تلك القوى البشرية قد استقرت في البنغال ، بالإضافة إلى عدد من الحرفيين والعلماء والدعاة . وقد شجع الحكام هؤلاء على الاستقرار ، وأقام الفاتح الأول لتلك البلاد المساجد والمدارس للعلماء والدعاة .

وبعد موت اختيار الدين سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م، دخل قواده في صراع مرير للانفراد بالسلطة على البلاد ، وعمل كل منهم على تقوية جانبه باستقدام مجندين جدد من خارج منطقته ، وإذا ما غلب أحدهم على أمره لم يكن يترك البلاد وإنما يتقهقر وأتباعه إلى مكان بعيد وأمين منها . وفي عهد حسام الدين عوض الذي حكم لمدة ١٤ سنة تحت لقب غياث الدين عوض خلجي قويت الدولة الإسلامية وازداد توسعها في البنغال ، وجاء ذلك معاصرا لغزو جنكيزخان لفارس وأفغانستان الذي أدى إلى هجرة كثير من أسر الملوك والنبلاء المسلمين من الأراضي التي اجتاحها المغول إلى شمالي الهند والبنغال واتخاذها مأوى لهم فضلا عمن وفد إلى البنغال من العلماء والدعاة وتمتعوا بهبات غياث الدين المالية(١٤) .

سـلاطين دهـلي والبنغـال :

منذ موت غياث الدين في ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م حتى قيام الأسرة الخلجية الحاكمة في دهلي في ٦٩٨ هـ / ١٢٨٩ م، خضعت المنطقة لحكام إماكان يعينهم سلطان دهلي مباشرة أو كانوا قد استطاعوا التوصل للسلطة بجهودهم . وكان الحكام المعينون على البنغال غالبا ما يستقرون في البلاد مع كل أتباعهم وأسرهم وهناك الذين زحفوا إلى البنغال من شمالي الهند واستولوا على الحكم فيها تاركين وراءهم ما كان بيدهم من قبل ، مثلما فعل حاكم بيهار طغرل توغان خان على الذي استولى على الحكم في البنغال في ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م ، وكذلك استولى حاكم أودتاتارخان على الحكم في البنغال في ٦٤٢ هـ / ١٢٤٥ م كما استولى حاكم كارا (قرب الله آباد) مالك تاج الدين أرسلان خان على الحكم في البنغال في ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م . وجرى على ذلك أولاد سلاطين دهلي أيضا ، فقد استقر في البنغال وحكمها ابن السلطان التيتمش الأمير ناصر الدين . وقد توفي فيها مخلفا وراءه أنجاله وأتباعه الذين استقروا هناك ، وكذلك ابن السلطان بلبن الأمير بغراخان ٦٨٠ - ٦٩٠ هـ / ١٢٨١ - ١٢٩٠ م الذي آثر عرش (لخناواتي) على عرش دهلي ، وأسس أسرة جديدة في حكم البنغال عندما استولى الخلجيون على دهلي . وإنما تمتعت البنغال بتلك الجاذبية بسبب كثرة مصادرها الطبيعية وثرواتها ووفرة أراضيها

الصالحة لاستقرار القادمين الجدد ، فضلا عما كان يتوافر فيها من أمان واستقرار المتوفرين نتيجة بعدها عن تأثير التهديد المغولي من الشمال الغربي وعن الاضطرابات السياسية في دهلي .

وقد تسببت الثورة الخلجية في دهلي بدورها في إحداث موجة أخرى من هجرة نبلاء الترك الباري المخلوعين إلى البنغال ، حيث استمر بغراخان وأحفاده في الحكم هناك . كما نفى الحكام الخلجيون البقية المتبقية من نبلاء البلباني ومؤيديهم إلى البنغال للحفاظ على أمنهم في دهلي . وتذيع قصة عن إرسال جلال الدين فيروز خلجي عددا من المراكب المملوءة بغير المرغوب فيهم إلى البنغال ويقدر عددهم بالآلاف[١٥] . ويذهب رأى إلى القول بأن الشيوخ المهاجرين إلى البلاد أثناء تلك الفترة كانوا يقومون بدور هام في توسيع حدود البنغال الإسلامية ، إذ كان سلاطين البنغال يمتصون الهجرات الواسعة النطاق إلى البلاد بجمع هؤلاء الرجال في « اللواء الأجنبي » العسكري والاستفادة منهم في الحرب على الحدود البنغالية[١٦] . كما أدّى وجود عدد من الأمراء والنبلاء اللاجئين إلى البنغال من جهات مختلفة إلى أن يدعو السلطان كاي كاوس نفسه « سيد أمراء الترك والفرس »[١٧] .

فلما أطاح بالخلجيين في دهلي الطغلقيون عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م ، تسبب ذلك في هجرة أخرى للنبلاء إلى البنغال ، وكثيرا ما كانت تؤدى المنافسات المستعرة بين الطغلقيين أنفسهم إلى نفس النتيجة . وقد روى ابن بطوطة بأنه عندما قام جوناهان بتمرده الناجح ضد أبيه غياث الدين طغلق ، أنزل الأخير عقوبات قاسية على بعض أنصار الأول « الذين هربوا إلى السلطان شمس الدين بن السلطان ناصر الدين (بغراخان) ابن السلطان غياث الدين بلبان ، وصاروا ضمن بلاطه في البنغال »[١٨] . وأسهمت الكوارث الطبيعية أيضا في تزايد الهجرة إلى البنغال ، فعندما حل القحط والجوع مرتين في دهلي وضواحيها ، وفشلت الإجراءات التي اتخذها محمد طغلق لمكافحة ذلك ، أمر بأن تفتح أبواب المدينة على مصراعيها ، وأن يترك السكان يذهبون حيث شاءوا ، فلجأ معظمهم بأسرهم إلى البنغال[١٩] .

وقد أسفرت الهجرات المتدفقة من الجماعات الإسلامية المختلفة إلى البنغال أثناء الحكم الخلجي والطغلقي في دهلي إلى ظهور صراع جديد على السلطة في البنغال أدى في النهاية إلى تأسيس أسرة إلياس شاهي الحاكمة في ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م . وكان الحاج إلياس مؤسس تلك الأسرة التى حكمت البنغال حوالي قرن ونصف من الزمان نبيلا مهاجرا من سيجستان[٢٠] . وكان العهد الإلياسي شاهي يتسم بالسلام ، على النقيض من عهد الاضطرابات والضعف السياسي السائد في دهلي وقتذاك ، ولاسيما بعد اجتياح تيمورلنك المدمّر (٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م) الذي أدى إلى إشاعة الفوضى وعدم الاستقرار ، مما شجع الكثير على الانتقال إلى البنغال الأكثر أمنا . وبذلك شهدت البنغال خلال فترة حكم الإلياسيين تزايد عدد السكان المسلمين بها وشيوع الاستقرار فيها . وقد زار ابن بطوطة شرقي البنغال وآسام في ذلك العهد وذكر أنه رأى عددا كبيرا من الفقراء المتجولين في البلاد وكانوا بطبيعة الحال من المسلمين الذين تدفقوا على البنغال آنذاك .

تأثير العلماء والدعاة :

وقدوفد إلى البنغال أثناء تلك الفترة الداعية علاء الحق ، العالم الداعية المشهور الذي ذكر أنه ينتمي إلى سلالة البطل المسلم العربي خالد بن الوليد ، واستقر في باندوا العاصمة ، ويقال إنه اعتاد على جمع عدد كبير من أتباعه الفقراء حوله ، فكره ذلك السلطان إسكندر شاه (٧٥٩ – ٧٩٢ هـ / ١٣٥٨ – ١٣٨٩ م) ونفاه إلى سونارجاون (داكا) في شرقي البنغال .

وقد عرف عن غياث الدين أعظم شاه (٧٩٢ – ٨١٤ هـ / ١٣٨٩ – ١٤١٠ م) أنه رعى العلماء والدعاة البارزين وشجعهم على الحضور من البلدان المختلفة والعيش في بلاطه وكان من بين هؤلاء أحد الأحباش . وقد أناب أعظم شاه عنه حبشيا جليلا اسمه ياقوت في توزيع الهدايا وفي بناء المدارس في مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويشير اغتصاب راجاكانس العرش بمجرد وفاة أعظم شاه واعتناق ابنه الإسلام وتوليه العرش باسم جلال الدين محمد ، إلى أهمية جهود ابن الشيخ علاء الحق والشيخ قطب العالم الذي

خلفه ، وإنما يدل ذلك على أن المسلمين قد غدوا وقتذاك عنصرا هاما فعالا بين سكان البنغال ومؤثرا في توجيه سياستها .

تأسيس الإمارات الإسلامية :

لم يلبث الإلياسيون أن عادوا إلى الحكم واتجهوا إلى اتباع سياسة منظمة لتوطين المسلمين في البنغال ففي عهد الحاكم الإلياسي شاه ناصر الدين محمود تم تأسيس إمارة إسلامية هامة في المنطقة الجنوبية من البلاد ، كما أسس خان جاهان (توفي ٨٦٣ هـ / ١٤٥٩ م) مستوطنات إسلامية مكثفة في الجزء الجنوبي من مقاطعة خولنا الحالية (وكانت سابقا منضمة إلى مقاطعة جيسور)[٢١]، كذلك شهد عصر ركن الدين باربك إقامة المستوطنات الإسلامية في مقاطعة باريسال[٢٢] ، كما وظف عددا كبيرا من الأحباش في الجيش وفي أقسام الإدارة الأخرى . وفي عهده أيضا قدم بعض العرب واستقروا في البنغال ، إذ تتحدث بعض المصادر الأدبية والروايات عن بطل عربي قرشي يسمى شاه إسماعيل غازي ، أتى مع مائة وعشرين من رفاقه وأقاموا مستوطنة إسلامية في مناطق مدرات (هوجلي) وكانتا دوار (رانجبور)[٢٣] . وقد عثر على الوثيقة التاريخية المتعلقة بهذا الغازي المندوب المدني البريطاني د . هـ . رامانت عام ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م في قبر شاه إسماعيل في كانتا دوار ، والذي ذكر أنه من سلالة أحد خدام الشاه إسماعيل الذين أتوا معه من الجزيرة العربية[٢٤] .

وقد وفد إلى البنغال عدد كبير من الأحباش الذين تمكنوا من أن يكونوا أصحاب الأمر في البلاط وحكم أربعة منهم على التوالي من ٨٩٢ – ٨٩٦ هـ / ١٤٨٦ – ١٤٩١ م . لكن سرعان ما صارت اليد العليا للمسلمين المهاجرين العرب على الأحباش ، وقاد سيد حسين وزير آخر حاكم حبشي وزعيم الجماعة العربية ثورة ناجحة ضد هؤلاء الأحباش وأسس أسرة حاكمة جديدة تعرف بأسرة حسين أو حسين شاهي . وقد أتى هذا الرجل إلى البنغال ومعه خمسمائة من أتباعه العرب[٢٥] .

وقد عين علاء الدين حسين شاه في المناصب الكبيرة في الدولة كثيرا من السادات الموغاليين والأفغانيين ويحتمل كثيرا أن يكون هؤلاء من القادمين الجدد من دهلي بسبب

إطاحة اللوديين بأسرة « السادات » في ذلك الوقت . ويدل تشييد الكثير من المساجد في البنغال خلال العهد الحسيني وبخاصة أثناء فترة حكم علاء الدين حسين شاه على تزايد مطرد في عدد السكان المسلمين بسبب استيطان المسلمين المهاجرين ، ويتضح ذلك من أسماء مؤسسي هذه المساجد التي تشتمل عليها النقوش التي كشف عنها .

وقد حدث في عهد حسين شاه في البنغال أن تصدعت سلطنة جاونبور تحت ضغوط اللوديين حكام دهلي وتمكن سلطانها (حسين شاه شرقي) من الهرب حيث وجد المأوى المناسب له ولأتباعه في دولة البنغال فاستقروا هناك . وسرعان ما هزم اللوديون على يدي بابور في معركة بانيبات سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٦ م فأتى دورهم ليلتمسوا مأوى في البنغال ، فطلب الكثير من النبلاء الأفغان (اللوديين) وأسرهم وأتباعهم الحماية من نصرت شاه خليفة حسين شاه . وقد أقطعهم الإقطاعات والقرى تبعا لألقابهم ومكانتهم الاجتماعية وتزوج بنفسه من ابنة السلطان المتوفى التي كانت قد قدمت معهم إلى البنغال[٢٦] .

وقد استمرت عملية الهجرة والاستيطان أثناء عهود حكم الأفغان والموغال . وقد قسم شير شاه البطل الأفغاني البنغال إلى عدد من الوحدات ووطن رجاله الموثوق بهم فيها حتى تقف ضد نفوذ الموغال .

وكان لداود شاه ، آخر الحكام الأفغان في البنغال ، حاشية كبيرة جدا ، فضلا عن جيش قوامه ٤٠,٠٠٠ من الفرسان ،و١٤٠,٠٠٠ من المشاة وكان الجيش يستخدم ٣٣٠٠ من الفيلة . وقد سمح لهذا الجيش الضخم بالاستقرار في البنغال على إثر إعلان استسلامه للموغال .

ولم يكن قيام الحكم الموغالي يعني أن على المسلمين الذين سبق أن قدموا واستقروا في البلاد أن يرحلوا منها . وإنما انسحب فقط المبرزون في الحياة السياسية ومناصب الحكم والإدارة من المدن الرئيسية إلى داخل البلاد بينما حل محلهم أفراد الأسرة المالكة الجديدة وبعض الضباط،وأصبحت المدن مثل راج محل وداكار ومرشد آباد مراكز إدارية واستيطانية أساسية للموغال .

وقد وفد على البلاد عدد كبير من التجار الأرمن وتركزوا في منطقة أطلق عليها اسم ارمنيتولار ومازالت تحمل هذا الاسم إلى اليوم . وعندما تعرضت دهلي للغزو عام ١١٥٢ هـ / ١٧٣١ م . هاجر منها عدد كبير من الناس إلى البنغال ، وطلبوا الأمن والحماية من شجاع الدين محمد خان(٢٧) ، وكان عطوفا شفوقا على الغرباء والقادمين الجدد وأولئك الذين من بلاطه ، وقد عمل على معاونتهم وتيسير بقائهم واستقرارهم في البلاد(٢٨) . وكان ممن جاء إلى البنغال في أعقاب غزو نادر شاه أسرة سيد أمير علي وأقاربه ، وقد برز في حياة المسلمين الفكرية والسياسية في البنغال في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للميلاد(٢٩) .

وهكذا جرى الحكام والأمراء الموغال على منح الأراضي والمساعدات لأسر النبلاء والعلماء الذين هاجروا إلى البنغال ، كما حرصوا على رعاية المساجد والمدارس وما إليها من المرافق الخيرية حتى أنه في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي بلغ عدد الأراضي الممنوحة لهذه الأغراض ٧٠٠ قطعة في مقاطعة مرشد آباد ، ٦٩٤ قطعة في بوغرا ، ١٧٠٥ قطعة في بوردوان ، ٨٩٤ قطعة في هيجلي(٣٠) ، فضلا عن غيرها من الأراضي في المقاطعات الأخرى . ويدل ذلك على كثرة عدد أسر النبلاء والعلماء التي هاجرت إلى البنغال واستقرت فيه .

وبعد قيام الحكم البريطاني في البنغال توافد إليها كثير من المسلمين من شتى الجهات في شبه القارة الهندية ، فرارا مما كان يقوم به ماراثا من سلب ونهب أو بسبب الاضطراب السياسي الذي اجتاح شمال الهند آنذاك . وقد نقل البريطانيون أنفسهم عددا من النبلاء والأمراء المسلمين الذين نزعت أملاكهم إلى كلكتا،حيث استقروا هناك ، إذ استقر أبناء تيبو سلطان والأمراء الأوديون في كلكتا ، واضطلع أحفاد هؤلاء الأمراء إلى جانب أحفاد مسلم آخر من أصل أجنبي يدعى عبد اللطيف بتأسيس أول منظمة سياسية أدبية إسلامية في البنغال في القرن التاسع عشر الميلادي ، كذلك استقر الحاج محمد حسن الفارسي الأصل هناك في بداية العهد البريطاني . وتدفق أيضا التجار المسلمون من البلدان المختلفة على كلكتا حيث كان هناك محلة مزدهرة للتجار المصريين في المدينة عرفت

باسم – مصري – جانج ، ومازالت تحمل هذا الاسم إلى اليوم وكانت أسرة الخواجا من داكا وأسر خان باني ويوسف راني والغزناوي والأسر الزامندرية الإسلامية الأخرى : فيمنسنغ وتيبيرا ومرزا من راج شاهي والأسياد من جيسور وخولنا – كانت هذه الأسر من أصل أجنبي . ولازال يوجد في شتى أنحاء البنغال أسر إسلامية كثيرة تنحدر من سلالة أولئك المستوطنين الرواد الذين جاءوا من البلدان الإسلامية الأخرى مثل الجزيرة العربية واليمن وأفغانستان وآسيا الصغرى وإيران وآسيا الوسطى إلخ .. ولا تسمح هذه الدراسة بتعداد أسماء هذه الأسر . ويكفي القول بأنه بنظرة خاطفة على تاريخ البنغال نعرف أنها ربما كانت بوجه خاص أكثر منطقة في شبه القارة الآسيوية الجنوبية استقر فيها مسلمون كثيرون من أصول عربية وأجنبية خلال ما يربو على ستة قرون من الحكم الإسلامي المتصل هناك .

جهود الدعاة من المستوطنين :

وقد كان هناك رواد قاموا بجهود ممتازة للدعوة الإسلامية ولتوطين هؤلاء المسلمين المهاجرين إلى البنغال . وقد سبقت الإشارة إلى الدعاة المستوطنين أمثال شاه إسماعيل غازي وخان جاهان وإلى العلماء والدعاة الذين ينتمون لمدرسة الشيخ علاء الحق وابنه الشيخ نور قطب العالم . وهناك كثيرون آخرون يمكن تتبّع آثارهم في أرجاء البنغال ولاسيما من خلال المساجد التي شيدت في أو حول عصرهم . وقد صور الخيال الشعبي على مر الزمن كثيرا من هذه الشخصيات في صورة أسطورية . إلا أن النقوش العديدة والآثار التى خلفوها تثبت أنهم شخصيات تاريخية وفدت إلى البنغال لا كدعاة للإسلام فحسب ، ولكن أيضا كزعماء لجماعات من المستوطنين القادمين من خارج البلاد . وقد أكد الباحثون الذين توفروا على دراسة حياة هؤلاء الدعاة جانب الدعوة في حياتهم بينما أهملوا الجانب الآخر من نشاطهم وهو توطين أنفسهم وأبنائهم في مختلف أنحاء البلاد .

وكان من أوائل المستوطنين الدعاة الذين قدموا إلى البنغال الشيخ جلال محمد تبريزي ويرجع أصله إلى تبريز في فارس كما يبدو من اسمه ، ويقال إنه كان أحد تلاميذ الداعية

شهاب الدين ، وإنه وفد للبنغال في عهد سلطان دهلي التيتوميش (٦٠٧ – ٦٣٤ هـ / ١٢١٠ – ١٢٣٦ م) . وتدل مجموعة من المباني القديمة كمسجد الجامع في باندوا على منجزات الشيخ الهامة في عاصمة البنغال الإسلامية آنذاك[٣٢] ، كما استقر تلاميذه في ديوتالا التي تقع على بعد عشرين ميلا إلى الشمال . وبلغ من ضخامة عددهم أن نسبت المنطقة التي استوطنوها إليهم فسميت تبريز آباد (مدينة تبريز) كما أطلق عليها أيضا « مدينة الشيخ جلال محمد تبريزي » .

وقد كانت تلك المدينة هي المأوى والمستقر لعدد كبير من الدعاة[٣٣] . وهناك أربعة نقوش على الأقل تنتمي لعهود ثلاثة سلاطين تسجل تشييد أربعة مساجد في ديوتالا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد مما يبرز مكانة تبريز آباد أو ديوتالا بوصفها مستوطنة إسلامية ذات أهمية وقد اجتذبت أنظار سلاطين البنغال المتعاقبين ونالت عنايتهم .

ومن رواد الاستيطان الإسلامي أيضا شاه صفي الدين الذي أتى مع ظفر خان غازي وآخرين وهزموا زعيم المنطقة الهندوسي وأقاموا مستوطنة إسلامية في منطقة باندوا – تريبني من مقاطعة هيجلي . ويقال إن شاه صفي الدين « استمر في حروبه مع الوثنيين من الأهالي واستشهد في النهاية في إحدى المعارك وما يزال هناك مسجد يحمل اسمه في باندوا .

وقد تزايد عدد أحفاده بسرعة جعلت باندوا منطقة كبيرة آهلة بالسكان[٣٤] . وقد زارها بلوشمان عام ١٢٨٧ هـ/١٨٧٠ م . وذكر أن معظم سكانها من المسلمين ، وأنه لم يكن يسمح للهندوس بدخولها في العهود السابقة ويروى أن أغلب سكانها ينتسبون إلى شاه صفي الدين[٣٥] .

ومن العلامات المميزة البارزة في تاريخ الاستيطان الإسلامي في البنغال ارتباط شاه صفي الدين بظفر خان غازي . وقد قام ظفر خان أثناء حكمي السلطانين كاي كاوس (٦٩٠ – ٦٩٨ هـ/١٢٩١ – ١٢٩٩ م) وشمس الدين فيروز شاه (على الأقل من ٧٠١ – ٧٢٢ هـ/١٣٠١ – ١٣٢٢ م) بدور هام في توسيع السيطرة الإسلامية في

منطقة هيجلي حيث لا يزال مسجده باقيًا في تريبيني[٣٦] . ويتحدث بلوشمان عن المظاهر الإسلامية العديدة التي رآها في باندوا – تريتي مما يدل على أن هذه المنطقة كانت هدفا للاستيطان الإسلامي الواسع أثناء حياة شاه صفي الدين وظفر خان .

وفي نفس تلك الفترة أقيمت مستوطنة إسلامية هامة أخرى في سيلهت في الشرق تحت زعامة الداعية مخدوم الذي تتلمذ عليه داعية آخر هو « جلال مجرد بن محمد » . وهو غير جلال مجرد بن محمد تبريزي المشهور في ديوتالا – باندوا وإنما يرجع أصل الداعية موضع الحديث الآن إلى أتراك مقدونيا أو إلى اليمن[٣٧] . وعلى أية حال اتجه هذا الداعيه إلى سيلهت مع أكثر من ثلاثة آلاف من تلاميذه وانتصر على زعيم محلي يدعى جاور جوفنيد ثم استقر هو وأتباعه في المنطقة إبان غزو شمس الدين فيروز شاه لها في (٧٠٣ هـ/١٣٠٣ م) . وتمكن هؤلاء من الاستقرار هناك في أربعينيات ذلك القرن عندما زار الرحالة المشهور ابن بطوطة المنطقة ، وقد وجد الداعية المشار إليه وقد تقدم به السن كثيرا لكن لا يزال في أوج شهرته ونفوذه .

وأعقب الداعية جلال السيلهتي مباشرة الداعية عطاء الذي عاش في جانجارامبور في مقاطعة ديناجبور[٣٨] . وكان واسع المعرفة وعلى درجة من التقوى قل أن يرى لها نظير وكان شخصية لها مكانتها في المستوطنة الإسلامية هناك . وقد أقيم مسجد يحمل اسمه بأمر من السلطان إسكندر شاه بن السلطان إلياس شاه في ٧٦٥ هـ/١٣٦٣ م ، مما يدل على أن الداعية المذكور قد عاش في أو نحو ذلك التاريخ . وتصفه نقوش عدة بالتقوى والورع ومما جاء فيها على سبيل المثال « أنه مصباح الحق والشريعة والإيمان »[٣٩] وأنه « مربي الرجال الشيخ عطاء طيب الله ثراه وجعل مثواه الجنة »[٤٠] وأنه « إمام الدعاة الشيخ عطاء »[٤١] وتدين جانجارامبور ، بلاشك باعتبارها مركزا للاستيطان الإسلامي والنشاط الثقافي ، بالكثير لهذا الرجل . ولكم اجتذب نشاطه مدى زمن طويل أنظار الحكام المتعاقبين حتى بعد وفاته .

وهناك بطل إسلامي آخر للاستيطان يسمى (مخدوم شاه دولة شهيد) الذي تولى وواحد وعشرون من رفاقه الدعوة إلى الإسلام في شاه زادبور في مقاطعة بابنا . وتذكر

إحدى الروايات أنه وفد من اليمن مع عدد كبير من أقاربه وأتباعه واستقر في شاه زادبور . وتدل الصفة المتصلة باسمه (شهيد) على أنه كان زعيما لمجموعة من المحاربين الذين هيأوا مكانا يستقرون فيه أثناء مغامراتهم العسكرية وعلى الرغم من أن الرواية ترجع بتلك الواقعة إلى تاريخ مبكر جدا ، إلا أنه يبدو أنه قدم إلى هناك في أواخر القرن السابع أو في أوائل القرن الثامن الهجري (نهاية القرن الثالث عشر أو بداية القرن الرابع عشر الميلادي) .

وكانت هناك أيضا مستوطنة أخرى للمسلمين في رامبال في القسم المسمى مونشيجانج من مقاطعة داكا حيث يوجد مسجد يحمل اسم داعية يدعى بابا آدم شهيد وتذكر رواية لا تزال على الألسنة في المنطقة أن الرجل كان قد جاء من مكة المكرمة مع عدد كبير من الأتباع واصطدم مع شخصٍ يدعى بلال سن وقد تمكن من تحقيق غرضه في الاستيطان هناك[٤٢] . ويبدو هذا محتملا جدا ، إذ كانت الدولة الإسلامية في البنغال تتوسع وتزحف في نفس الوقت نحو منطقة دكا حيث يسمي الأهالي المحليون المسجد القديم باسم بابا آدم شهيد ويوجد هناك أيضا بقايا مسجدين قديمين في قريتين مجاورتين[٤٣] ، مما يدل على أن المنطقة كانت مستوطنة إسلامية حية بنهاية القرن التاسع الهجري .

كذلك يوجد في مولا سيملا (فرفورة) من مقاطعة هوغلي ، مسجد قديم يحمل اسم الداعية محمد كبير لكنه يعرف شعبيا باسم شاه أنور قولي حلوى . ومن المحتمل كما يلاحظ بلوشمان وهو أول من لاحظ الرواية والنقش الموجودين هناك ، أن شاه أنور قولي قدم من حلب[٤٤] . وتقول الرواية السائدة في المنطقة بأن شاه أنور قولي ورفيقه كرم الدين نجحا في الانتصار على زعيم قبيلة البغدي واستقرا هناك وتدل النقوش التي وصلت إلينا على مكانة شاه أنور قولي التاريخية .

وهناك إشارات لمستوطنات إسلامية أخرى في الأجزاء المختلفة من البلاد ، وإن كانت التفاصيل عنها غير ميسورة . ففي مهاستهان في مقاطعة بوجرا كانت هناك مستوطنة إسلامية مزدهرة . وتذكر رواية شعبية أن هذا السلطان كان أميرا على بلخ ثم أتى إلى البنغال واستقر

هناك وكرّس كل جهوده للدعوة إلى الإسلام . ومهما تكن قيمة هذه الرواية في ذاتها ومهما تكن شخصية الداعية المشار إليها ، فدلالتها قائمة على هجرة عدد من الشخصيات الملكية إلى البنغال بسبب الاضطرابات السياسية في آسيا الوسطى والبلدان المجاورة . وهناك عدد كبير من المساجد التي تحمل أسماء الدعاة الذين قدموا إلى البنغال واستقروا هناك وأقاموا مستوطنات إسلامية وصاهروا بعض الحكام وأقاموا المساجد وقاموا بنشاط تعليمي إسلامي كبير . وتنتشر هذه المساجد في بساهيساوا وبوردوان وهيتامبور وفي داكا وفي باغا(٤٥) .

ملاحظات على انتشار الإسلام في البنغال :

وهكذا كانت الأجزاء المختلفة من البنغال تكتظ بالمستوطنات الإسلامية على مر القرون المتعاقبة العديدة من الحكم الإسلامي وتبدو الشخصيات التي يدل عليها ما تدلى إلينا من آثار إسلامية في صورة غزاة أو فاتحين أو شهداء خلال الروايات الشعبية وغيرها من المصادر . ويروى عنهم أنهم قدموا مع أعداد كبيرة من التلاميذ وقد أخضع بعضهم مثل خان جاهان مناطق الغابات الجديدة للزراعة والاستيطان . وإلى جانب هذا العمل العام الذي قام به هؤلاء الدعاة من إقامة مستوطنات إسلامية في كثير من نواحي البنغال فإنهم أيضا نشطوا في الدعوة إلى الإسلام بين السكان المحليين . فكثير منهم كان يدير حلقات العلم والمدارس ، كما كانوا ينشرون مبادىء المعرفة الإسلامية في فروعها المتعددة(٤٦) .

على أننا نفتقد الدليل القوي على وجود جهود منظمة للدعوة الإسلامية وإنما اضطلع الشيوخ بهذه الدعوة خلال جهودهم الفردية وعملوا على نشر الإسلام بين السكان المحليين كل على قدر طاقته بصورة تدريجية بطيئة ، كما تدل الإشارات الضمنية إلى اعتناق الإسلام في المصادر المعاصرة . ومما هو جدير بالملاحظة أنه ليس هناك ذكر في المصادر الأدبية أو غيرها لأي تحول للإسلام واسع النطاق في أي زمن أو أي مكان . ولو كان هناك حالة من التحول الجماعي نحو الإسلام في أي الجهات لورد ذكرها بصورة خاصة في السجلات التاريخية أو السير الأدبية المعاصرة ، لاسيما وأن كتاب تلك الفترة كانوا حريصين على تدوين أي نشاط ديني لأبطال رواياتهم .

أما التحول الفردي إلى الإسلام فالأدلة عليه متوافرة فقد أتى بهوجاربرهمان الزاهد اليونجي من كامروب بآسام إلى لخناواتي أثناء عهد علي مردان خلجي ٦٠٧ – ٦١٠ هـ / ١٢١٠ – ١٢١٣ م حيث دخل في مناقشة مفتوحة هناك مع القاضي ركن الدين السمرقندي عن فضائل الإسلام ، ولما اقتنع به أسلم . واعتناق بهوجاربرهمان الإسلام على هذا النحو من الأهمية بمكان ، فهو يدل على أنه خلال فترة قصيرة من وصول المسلمين إلى البنغال أثار الإسلام اهتمام زعماء الهندوسية وإعجابهم حتى في أماكن قصية مثل كامروب التي لم تكن آنذاك قد خضعت للسيطرة الإسلامية . كما تدل تلك الواقعة على أنه حتى في الفترة المبكرة من الحكم الإسلامي في البنغال ، كان لزاهد برهامي من كامروب ، وهي المركز القديم للعلوم الهندوسية في الشرق الحرية في أن يعقد في العاصمة الإسلامية نفسها مناقشة مفتوحة في شأن الإسلام ومحاسنه ، وهذا أقوى برهان على تمكّن الحرية والتسامح خلال عهود الحكام المسلمين الأوائل في البنغال وعلى ما أتاحوا من حرية دينية للسكان المحليين كما تشير واقعة إسلام بهوجار أيضا إلى أن الإسلام قد وصل إلى الهندوس وتواصل معهم على الساحة الفكرية منذ البداية ، وقد استطاع أن يكسب إلى جانبه من خلال الإقناع أفرادا من أرفع طبقاتهم أعلنوا إسلامهم(٤٧) .

ومن المؤكد أن الفضول الفكري الذي أثاره الإسلام بين المتعلمين من الهندوس قد كان له تأثيره المستمر ، حتى لنسمع بأن بانديت الهندوس (وهم علماء الهندوسية الذين يكونون أعلى طبقاتهم وهي طبقة البراهمة) كانت لهم مساجلات دينية مع الشيخ جلال الدين تبريزي وأحد الدعاة المستوطنين الأوائل الذين أتوا إلى البنغال بعد عصر علي مردان مباشرة ، ويروى أنهم اعتنقوا الإسلام جميعا على أثر تلك المساجلات(٤٨) .

وفي الحقيقة فإن الأمثلة المعروفة المحدودة للتحول إلى الإسلام لدينا جاءت عن إسلام البراهمة بالذات وذوي المكانة الرفيعة في نظام الطبقات الهندوسي . ومن أوضح الأمثلة على ذلك إسلام جادوا ابن كانز واعتلاؤه للعرش البنغالي الإسلامي حوالي عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م تحت اسم جلال الدين محمد ، وقد أدى ذلك إلى انتشار الإسلام والنفوذ الإسلامي في البنغال ، كما أثار أيضا غليانا شديدا ليس فقط في دوائر أسرة كانز ،

ولكن في المجتمع الهندوسي بصفة عامة . ونفتقر – لسوء الحظ – إلى أية تفاصيل لهذا الحدث الهام ، إلّا ما روي من أن أحد إخوته أعلن الحرب عليه مدة من الزمن ، كما يروى أن ملكا آخر ينتمي لقبيلة كوش اعتنق الإسلام على يد شاه سلطان رومي واستقر في مدانبور في مقاطعة ميمنسنغ في بداية العصر الإسلامي(٤٩) . كما أسلم زعيم محلي لجزيرة سنديب (جنوب مقاطعة نوخالي ، وتقع الآن في مقاطعة شيتاجونج) على يد شاه سلطان ماهيساوار واستقر في النهاية في ماهستهان في مقاطعة بوجرا(٥٠) .

وتذكر المصادر أسماء عدد من البراهمة والهندوس اعتنقوا الإسلام في أوقات مختلفة وفي أماكن مختلفة من بلاد البنغال .

وإذا كان هناك أشخاص عديدون في قمة سلم طبقات المجتمع الهندوسي قد اعتنقوا الإسلام ، فلابد أن هناك آخرين من عامة ذلك المجتمع قد أسلموا أيضا وإن كانت المصادر لا تقدم معلومات محددة عن ذلك ، وإنما تمر هنا وهناك إشارات عامة خاطفة لانتشار الإسلام بين السكان دون عرض لوقائع توسعه الفعلي . ومن ذلك ما أورده ابن بطوطة عن تقبل شعب سيلهت الإسلام على يد الشيخ (شاه) جلال(٥١) . ويبدو أن عددا كبيرا من المسلمين الأجانب كانوا في صحبة هذا الشيخ فقد كانت نظرة ابن بطوطة ثاقبة حين ذكر أن الناس الذين رآهم هناك يشبهون الترك . كذلك استقر كثير من الأفغان وأتباعهم في النهاية في سيلهت أثناء عصر الموغال ، وبذلك لم يكن السكان المسلمون في تلك المقاطعة من ذرية معتنقي الإسلام من السكان المحليين فحسب . وثمة إشارة أخرى غير مباشرة لانتشار الإسلام بين السكان المحليين ، توجد في نقش كاي كاوس بمسجد ظفر خان في تربيني في مقاطعة موغلي ، ويرجع تاريخه إلى ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م ، فقد ورد فيه أن القاضي ناصر محمد أنفق ماله الخاص لإعلاء دين الله(٥٢) .

وخلّف لنا عدد من الشعراء المسلمين البنغاليين الذين عاشوا في القرون ٨ ، ٩ ، ١٠ للهجرة (القرون ١٤ ، ١٥ ، ١٦) الميلادية دراسات وأشعارًا بالبنغالية تعرض تعاليم الإسلام المختلفة ، لأولئك الذين لم يكونوا يفهمون العربية أو الفارسية . ومن الواضح أن هؤلاء الشعراء المسلمين كانوا من أصل محلي(٥٣) . ومما يدل في وضوح على اتساع انتشار الإسلام

بين السكان المحليين في أثناء عهد علاء الدين حسين شاه على الأقل (٩٠٤ – ٩٣٢ هـ / ١٤٩٨ – ١٥٢٥ م) تعبيره بنفسه في أحد نقوشه عن رضاه بما حققه الإسلام من انتشار في البلاد أثناء حكمه(٥٤) . وقد أكد ذلك أيضا التاجر البرتغالي ديوارات باربوزا الذي زار البنغال في عام ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ م وكتب أن الملك كان « مسلما » وأنه حكم دولة واسعة يسكنها « الهندوس » وكان عدد كبير من هؤلاء يعتنق الإسلام في كل يوم لينالوا رضا الملك والحكام(٥٥) .

وقد رحب كثير من البوذيين بالمسلمين كما هو معروف إذ كانوا على غير وفاق مع البراهمة باستعلائهم العرقي . واعتنق الإسلام من البوذيين عدد ليس بالقليل(٥٦) .

والحق أن الباحث يفتقر إلى معلومات أخرى محددة بالنسبة لانتشار الإسلام بين السكان المحليين قبل العصر الحديث ، وبناء على المعلومات المتاحة يمكن التوصل إلى ما يلي :

إن تكوين السكان المسلمين في البنغال يرجع بدرجة كبيرة إلى المهاجرين من البلدان الأخرى ، وإلى حد ما إلى السكان المحليين . وهؤلاء المسلمون المحليون لم يكونوا من الطبقات الدنيا من الهندوس ، ولكنهم كانوا من أعلى طبقاتهم ، كما كانوا أيضا من البوذيين وغيرهم . وكانوا أيضا ثمار عصر اضمحلال بلغ ذروته أثناء تصدع الخلافة العباسية ، وكان الكثير منهم يبدون الاهتمام بالإسلام بغرض التقرب للعلماء ، ويقيمون المساجد والمدارس لإرضاء السكان المسلمين المهاجرين إلى البنغال .

كذلك لم تكن هناك سياسة حكومية منظمة في هذا الصدد كما لم يحدث أبدا أن فرض حاكم مسلم الإسلام على أحد من رعيته . وقد كانت التحولات التي تحدث من وقت لآخرتتم على أيدي العلماء والدعاة الذين استقروا في مختلف أنحاء البلاد .

انقسم الحكام المسلمون منذ البداية على أنفسهم وكانوا مشغولين في الصراع بين بعضهم البعض على السلطة مما ينال من مكانتهم في نظر السكان المحليين . بل ربما بلغ الأمر أن يضطر الصراع أحد الزعماء إلى طلب المعونة والمساعدة من السكان المحليين غير المسلمين ضد منافسه المسلم ، ولقد قام شمس الدين إلياس شاه مؤسس أسرة إلياس شاهي

الحاكمة مثلا بتجنيد عدد كبير من المشاة الهندوس في حربه ضد حاكم دهلي ، ونتج عن ذلك أنه لم يكن هناك حافز للسكان المحليين لتغيير ما كانوا عليه من دين .

قام زعماء الهندوسية بمحاولات إصلاحية لها مثل « فايشانافيه » وعملوا على تشجيع المعتقدات المحلية المختلفة ، بينما أساء إلى الإسلام سلوك حاكميه فضلا عن انتشار الانحرافات والبدع والخرافات والغلو الزهدي والصوفي مما جلبه بعض المسلمين معهم . وكان دخيلا على الإسلام ومع ذلك تصوره الناس في صورته المبتدعة الدخيلة على نحو ما قدمه المسلمون في أقوالهم وأفعالهم .

ونعود إلى التأكيد بأن من الصعب تحديد معدل نسبة المسلمين المهاجرين إلى معدل نسبة معتنقي الإسلام من السكان المحليين ، وأن الدلائل المتيسرة تشير إلى أن عدد المهاجرين أكثر من المتحولين المحليين . ولقد استطاع المهاجرون أن يغيروا الملامح الديموغرافية للبنغال حتى أنه في عشية الانسحاب البريطاني عام ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٧ م كانت نسبة المسلمين في المقاطعة الشرقية من البنغال التي تمثل الآن بنجلاديش أكثر من ٦٠٪ من عدد السكان(٥٧) بينما يدل آخر إحصاء أنهم يمثلون أكثر من ٨٥٪ من عدد السكان(٥٨) . ولا تعود تلك الزيادة في نسبتهم المئوية إلى زيادة نسبة المواليد فيما بينهم ، ولا حتى إلى زيادة التحول للإسلام بين غير المسلمين . وإنما تعود إلى هجرة بعض الهندوس من باكستان الشرقية كما كانت تسمى من قبل وهجرة عدد كبير من المسلمين من غربي البنغال ومن أجزاء أخرى للهند نتيجة للاضطرابات الأهلية التي سبقت الانسحاب البريطاني وأعقبته ، كما حدثت تقريبا هجرة مماثلة للمسلمين من غربي البنغال إلى شرقيها أثناء غارات ماراثا في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي . وإذا أخذنا في الاعتبار هذين المثالين الحديثين مع الأمثلة الأخرى للهجرة ، فربما نتفق مع أ . أ . غزناوي الذي قال في مذكرة قدمها عام ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م للحكومة عن أصل المسلمين البنغال « ربما تكون أغلبية المسلمين الحاليين خليط ، تجري في عروقهم الدماء الأجنبية ، وأنه يمكن القول تقريبا بأن ٢٠٪ من المسلمين الحاليين ينحدرون عرقيا من المستوطنين الأجانب ، وأن ٥٠٪ منهم تختلط فيهم الدماء الأجنبية ، وأن نسبة ٣٠٪ الباقية قد يحتمل

أن يكونوا من ذرية الهندوس وغيرهم الذين اعتنقوا الإسلام[٥٩] .

ومن هنا فإن النظرية القائلة بأن معظم البنغاليين الذين اعتنقوا الإسلام كانوا من الطبقات الهندوسية الدنيا[٦٠] ، تقوم على الافتراض الخاطئ الذي يقول بالتحول الواسع للإسلام بين السكان المحليين ، مما يفتقد أي أساس من الصحة والتأييد التاريخي. وكذلك لم تلق قبولا فكرة التشابه المزعوم في الملامح الجسمية بين المسلمين البنغاليين والطبقات الهندوسية الدنيا لعدم صحتها[٦١] .

الهــوامــش

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، (إبريل سنة ١٨٨٩ م) ص ٦٣ – ٦٤ .

(2) Al - Idrisi , Nuzhat al - Mushtaq , extracted tr . in Elliot , Arab Geographers , pp 90 - 91 .

(3) Ibid .

(4) Journal of the Asiatic Society of Pakistan , vol VIII , No . 2 pp . 13 - 14 .

(5) K. N. Dikshit , Memoirs of the Archaeological Survey of India , No , 55 , Delhi , 1938 , p 87 .

(6) Khan (F. A.) , Recent Archaeological Discoveries in East Pakistan : Mainamati Pakistan Publications , Karachi , n.d. p. 11 .

(7) Journal of the Asiatic Society of Bengal 1898 , No. 67 p 116 .

(8) Ibid , 1844 , vol XIII p . 36 .

(9) Ibid .

(10) Enamul Haq (M.) , Purva Pakistan Islam , Dacca , 1948 , p 17 , also Arakan Rejshabhay Bangla Shahitya , Calcutta , 1935 , p. 3.

(11) Dani (A.H.) , " Early Muslim contact with Bengal " , The Proceedings of the Pakistan History Conference Karachi Session , 1951 .

(12) The Book of Duarte Barbosa , Hakluyt , vol II pp 144 - 145 .

(13) Minhaj al - Din Siraj , Tabaqat Nasiri , (Tr . Roverty) , vol 1 p. 551 .

(14) Ibid , Vol 1. p583 .

(15) Barani , Tarikh - i - Firuzshahi , p 141 .

(16) Stapleton in I . A . S.B., N.S., vol XVIII , 1922 , pp 414 - 415 .

(17) Lakhisarai nscription of Sultan Kai Kaus , I.A.S.B., 1873 , pp 247 - 248 , Epigraphia Indo - Moslemica , 1917 - 1918 , pp. 10 - 11.

(١٨) رحلة ابن بطوطة ، النص العربي ، طبعة بيروت ١٩٦٤ ، ص ٤٣٩ .

(19) Tabqat - i - Akbari , Quoted in Origin , op . cit p 15 .

(٢٠) السخاوي : الضوء اللامع ، القاهرة ١٣٠٣ هـ جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٢١) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٦١٥ .

- I.A.S.B ., 1873 , No . 3 , p 227 , see also Khan Jahan Inscriptions , ibid . 1867 , pp . 130 - 135 .

(22) Mirzaganj Inscription 870 / 1465 , I.A.S.B., 1860 , p 407 .

(23) Risalat al Shuhada , in I.A.S.B. 1874 , pp 215 - 239 .

(٢٤) ينسب المرجع السابق إسماعيل غازي إلى عصر علاء الدين حسين شاه وهي رواية لا تبدو أنها مطابقة للحقائق الموجودة في كتاب « رسالة الشهداء » .

(25) I.de Barros , Da Asia , quoted in I.A.S.B., 1873 . No . 3 , p. 287 .

(26) Ibid .

(27) Budayuni , Muntakhab al Tawarikh . p . 278 , Tarikh - i - Mansoori , quoted in Fuzli Rubee , op . cit , pp 19 - 20 .

(28) Siyar , vol II . pp . 323 - 324 .

(29) Memoirs of Ameer Ali , (ed . S.R. Wasti) , Lahore , 1968 , pp . 6 - 7 .

(30) Rubbee , op . cit , p . 38 .

(31) Abstract of the Proceeding of the Mohamedan Literary Society of Calcutta , Calcutta , 1871, pp 107-156. 107 - 156

(32) Memoirs , pp. 97 - 106 .

(33) Askari (H.) in B P.P., Vol LXVII S 1 , No . 138 , 1948 , pp 35 - 36 .

(34) P.A.S.B., April 1870 , PP . 124 - 125 .

(35) Ibid . 121 .

(36) I . A.S.B. 1873 , pp . 287 - 288 .

(37) Ibid , 1873 . pp 293 - 294 .

(38) Buchnan , Historical Description of Dinajbur . p 51 , quoted in I . A. S. B. 1872 , 102 .

(39) J.A.S.B., 1872 , pp 104 - 105 , E.I.M. 1929 - 1930 , pp 10 - 11 .

(40) I.A.S.B., 1904 , Part 1 , No 3 , pp . 162 - 271 , Bengal District Ge Gazetteers : Pabna , 1923 , pp 121 - 126 .

(41) I.A.S.B. 1873 , p. 285 .

(42) Basu (N. N.) in I.A.S.B, 1896 , pp 36 - 37 .

(43) I.A.S.B., 1873 , p. 284 , and 1889 , p/ 23 .

(44) Ibid - 1870 , pp. 291 - 292 .

(45) Ibid , 1878 Part 1 No . 1, PP . 92 - 93 , Enamulhaq (M) , Bange Sufi Probhavo Calcutta , 1935 , pp 132 - 133 , Hakim Habib al - Rohman , Asudgan - i - Dhokoh , Dacca , 1946 , p 32 , Abd - al Latif's Travel Account , B.P.P. XXXV , Part II , pp. 146 - 147 .

(46) Journal of the Pakistan Historical Society , vol., 1. part 1 , pp 46 - 55 .

(47) Ibid .

(48) Karim (A) : Social History of the Muslims of Bengal down to A.D. 1538 , Dacca , 1959 , p 65 .

(49) Enmul Haq (M.) : Vange Sufi prabhara (Bengali text) Calcutta , 1938 , p 138 .

(50) Ibid., pp 140 - 141 .

(٥١) رحلة ابن بطوطة .

(52) Epigraphia Indio - Moskemica , 1917 - 1918 , pp . 14 - 15 .

(53) Enamul Haq (m) : Muslim Vangla Shahitay (Bengali text) . Decca . 1955 pp 59 - 61 . 68 . 90 . 92 , 95 , 113 .

(54) Jahanabad Inscription , Dani , Bibliography , pp . 65 - 66 .

(55) Purchas His Pilgrimes , Hukluyt Soc .. vol II .. 148 .

(٥٦) هذا ينعكس بوضوح في :

- The Sunya Purana , ed.C.C. Bandppadhyaya , Calcutta , 1336 B. E. Chapter intitled " Niranjaner " .

(57) Census of India , 1941 , N Vol IV (Bengal Tables) , 6 , 44 - 45 , 48 - 49 .

— Census of Bangladesh , 1974 , National Volume Report and tables .

(58) Government of Banglahesh , Dacca , 1977 , p 23 .

(59) Mss , Eur . E . 295/ 17 Risky Collection , 18 (India Office Library London) .

(٦٠) أول من ادعى ذلك بيفرلي في كتابه :

- Report of the Census of Bengal , 1872 , Paras 352 - 354 .

وطورها . H.H. Rislay في كتابه .

Tribes and Castes of Bengal , vol . I (Calcutta , 1892) .

ثم تبناها السير توماس أرنولد في كتابه

The Preaching of Islam pp 280 - 283 , 291 .

وتبناها أيضا آخرون .

(61) Khundkar Fuzli Rubbee , The Origins of the Musalmans of Bengal . calcutta , 1895 , Chap 1 & 11 .

– توجد مراجع أخرى مختارة ملحقة بهوامش البحث السابق .

انتشار الإسلام في جنوب شرقي آسيا

انتشر الإسلام في جنوب شرقي آسيا بصفة عامة عن طريق التجارة ، فقد هيأ موقع الملايو والأرخبيل على الطريق الرئيسي للتجارة البحرية بين آسيا الغربية والشرق الأقصى المنطقة في مجموعها لتكون ملتقى للتجار من الشرق والغرب منذ الأزمنة البعيدة . وقد اعتاد العرب حتى قبل العصور الإسلامية القيام بنشاط تجاري كبير مع الشرق عن طريق سيلان وموانئ جنوب شرقي آسيا . وبعد ظهور الإسلام تلقى هذا النشاط دفعة كبرى ولاسيما بعد الفتوحات العربية الإسلامية للسند في السنوات الأخيرة من القرن الأول الهجري . ففي منتصف القرن التالي نجد هناك مستوطنة كبيرة للتجار العرب المسلمين في كانتون بالصين وأصبح العرب والفرس سادة التجارة والملاحة في الشرق والمحيط الهندي من القرن الثالث إلى التاسع الهجري (التاسع إلى الخامس عشر الميلادي) . وحتى قدوم البرتغاليين .

وفي أثناء هذه الفترة استقر كثير من العرب في الموانئ العامة في الملايو وجزر الأرخبيل وتذكر السجلات الحولية الصينية المؤرخة بتاريخ ٥٦هـ / ٦٧٤م اسم زعيم عربي يبدو أنه كان رئيسا لإمارة إسلامية على سواحل سومطرة الغربي[١] . كما يذكر الرحالة الجغرافي العربي أبو عبد الله الدمشقي أن بعض المسلمين العرب استقروا في شامبا (صنفا ، فيتنام وكمبوديا حاليا) في عصر الخليفة عثمان بن عفان[٢] . وبعد أن طرد كثير من المسلمين من الصين في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ذهبوا إلى كيرة في شمالي القسم الأوسط من الملايو (٣٠٣ – ٣٠٤هـ / ٩١٥م) . كما تدل مقبرة لسيدة مسلمة في ليران بالقرب من جرمسيك في شرقي جاوة يرجع تاريخها إلى ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م إلى وصول المسلمين تلك المنطقة مبكرا في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي على الأقل .

وتفيد مثل هذه الإشارات ، وصول التجار المسلمين من العرب والفرس إلى المدن

الساحلية لشبه جزيرة جنوبي آسيا والأرخبيل واستقرارهم هناك منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) فصاعدا . ومع ذلك فإننا لا نملك أية معلومات محددة عن انتشار الإسلام في تلك المنطقة حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي . ويمكن الافتراض بأن التجار المسلمين حملوا رسالة الإسلام أينما ذهبوا وحلوا ، وقاموا بدور التجار والدعاة معا كما كان يصاحبهم غالبا معلمون ووعاظ . على أن الإسلام قد انتشر بصورة تكاد تكون مكثفة في شبه جزيرة الملايو والأرخبيل خلال الفترة من القرنين السابع والتاسع الهجريين (الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين) والسبب في تأخر انتشار الإسلام في تلك المنطقة حتى ذلك الوقت إلى أن الجهود التي بذلت في هذه السبيل لم تجد ظروفا ملائمة حتى لو أقررنا بالجهود التي بذلها التجار الأولون في دعوتهم إلى الإسلام . كما أنه منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي اعتبرت الدول غير الإسلامية وأنظمة الحكم في تلك المنطقة الإسلام تهديدا لها ، وأخذت تقاوم تقدمه بين السكان هناك بكل الوسائل الممكنة . ولكن بعد أن سقطت بغداد ، وتسبب الاجتياح المغولي في هجرة كثير من المتعلمين والمدرسين والدعاة وغيرهم إلى شبه القارة الهندية أعطت هذه الهجرة دفعة قوية لانتشار الإسلام في تلك المناطق .

وكما تدفق المغامرون والعسكريون الأتراك من خلال الطرق البرية من الشمال الغربي إلى شمالي الهند . فقد تدفق التجار المسلمون والدعاة والمدرسون إلى جنوبي شرقي آسيا ووصلوا هناك متبعين الطرق التجارية المعروفة . وكان هؤلاء الدعاة والوعاظ بصفة عامة من العرب والفرس أو من الأصل التركي ، وليسوا من أصول السكان في الجهات الجنوبية الهندية أو البنغالية ، كما أن بعض المسلمين المضطهدين في الصين وجدوا المأوى في أرخبيل جنوب شرقي آسيا . وكان للأمراء والزعماء المسلمين دور مختلف في نشر الإسلام في جنوب شرقي آسيا عن دورهم في شمالي الهند . فبينما كان الزعماء والحكام في شمالي الهند من أصل أجنبي بصفة عامة كان نظراؤهم في جنوب شرقي آسيا الذين برزوا على مسرح الأحداث من السكان المحليين . وقد يكون ذلك أحد أسباب نجاح دعوة الإسلام وانتشاره في جنوب شرقي آسيا عند مقارنته بما حدث في الهند .

واتبعت الدعوة إلى الإسلام أساليب سلمية وقد كان التجار المسلمون المستقرون في المدن الساحلية أحيانا شركاء تجاريين وحلفاء سياسيين للزعماء المحليين ولربما وصل بعضهم إلى مراتب السياسة والحكم وكان شعار الجهاد حين يرفع يستخدم غالبا

في تقوية المواقع السياسية للذين يرفعونه ضد الحكام غير المسلمين ولا يقصد به استخدام القوة في الدعوة للإسلام . وعندما كان حاكم يعتنق الإسلام كانت رعيته تتبع خطاه ، ليس نتيجة استخدام القسر والقوة . ولكن لأن الرعية كانت تنظر إلى هؤلاء الحكام نظرة تقديس وكأنهم آلهة أو كائنات إلهية فإذا ما اعتنق هؤلاء الملوك الآلهة الإسلام احتذى الرعايا حذوهم .

وقد تحدث أرنولد عن الطبيعة السلمية لتغلغل الإسلام في جنوب شرقي آسيا عندما كتب في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد ، فذكر أن « تاريخ أرخبيل الملايو أثناء ستة القرون الماضية يمدنا بأحد الفصول الممتعة لقصة انتشار الإسلام بالجهود السلمية في الدعوة وحدها . وفي طوال كل تلك الفترة نجد الدلائل على نشاط مستمر من جانب الدعاة المسلمين لنشر الإسلام بالأسوة الحسنة في جزر الهند الشرقية . وكان عملهم يتم بدون رعاية أو عون من قبل حكام الدولة ، وإنما كان يتم فقط بقوة الإقناع . فلم يأت المسلمون مثل الأسبان في القرن السادس عشر (الميلادي) غزاة استخدموا السيف لتحويل الناس إلى الإسلام ، ولم يدعوا استعلاءً عرقيا يتخذونه ذريعة للسيطرة والإذلال واضطهاد السكان الأصليين . وإنما جاءوا ببساطة تجارا ووظفوا كل ذكائهم وحضارتهم الرفيعة في خدمة دينهم لا لزيادة جاههم ونفوذهم أو تكديس ثروة شخصية لأنفسهم(٣) . وعندما نضع الحقائق نصب أعيننا ، يمكننا أن نعرض بإيجاز للوقائع الأساسية المتعلقة بانتشار الإسلام وتقدمه في الجزر المختلفة وفي شبه جزيرة الملايو .

١ - سومطرة :

يجتاز طريق التجارة من الهند والغرب سومطرة الشمالية ، وقد يسر وصول الإسلام إليها حيث رسخت أقدامه . وقد كانت تقوم ولايات صغيرة عديدة في شمالي سومطرة حوالي نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي . ففي أقصى الشمال كانت توجد أتيشة (أتيجن أو كوتاراج الحالية) وكان يحوطها من الجنوب الغربي لامبري وآرو . وعلى بعد حوالي ١٠٠ ميل من أتيشة كانت تقع إمارة سومطرة (سامودرا - باساي) على الساحل الشرقي . وقد سميت كل الجزيرة في النهاية وعرفت باسم تلك الإمارة أي باسم سومطرة وهو تحريف ضئيل لكلمة سامودرا . وعلى بعد حوالي ١٠٠ ميل من سامودرا وعلى طول

الساحل الشرقي كانت تقع ولاية بيرلاك .

وكانت المناطق الشمالية من الجزيرة ، وبخاصة المدن الساحلية بأقاليم أتيشة - وسامودرا وبيرلاك هي أولى الجهات التي وصل إليها الإسلام .

وتتحدث الروايات الشعبية السائدة في سومطرة عن وصول الدعاة المسلمين العرب وعن دعوتهم للإسلام في الجزيرة . ولكن ليس هناك أية تفاصيل ميسرة عن هؤلاء الدعاة الأوائل وجهودهم ، ولكن السجلات التاريخية للملايو تدعم هذه الروايات . فقد ذكرت هذه أن عالما عربيا يسمى عبد الله عارف زار سومطرة في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، وأن أحد أتباعه واسمه برهان الدين قام بجولة للدعوة إلى الإسلام في الساحل الغربي وزار جنوبا برياماان (تقريبا في نقطة المنتصف من الجزيرة)[٤]. كما تذكر السجلات التاريخية للملايو أيضا أن شخصا اسمه جوهان شاه « أتى من الغرب » ليدعو للإسلام في أتيشة ، وتزوج هناك من سيدة من السكان المحليين ، وتزايد عدد أتباعه الذين تحولوا إلى الإسلام تدريجيا وهكذا أصبح أول حاكم مسلم لأتيشة في عام ٦٠٢ - ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٥ م [٥] .

وعلى الرغم من أنه ليس هناك ما يؤيد هذه الرواية بصورة مؤكدة إلا أن هناك رواية شعبية مماثلة تقول إن شريف مكة المكرمة أرسل بعثة للدعوة والوعظ إلى سومطرة برئاسة رجل يسمى الشيخ إسماعيل أتى عن طريق ساحل مالابار ، وهبط على الساحل الغربي من سومطرة في مكان يسمى باسوري (تحديده ليس معروفا) حيث اعتنق عدد من الناس الإسلام حين استمعوا إليه ثم رحلت البعثة شمالا وزارت لامبرى في الجزء الشمالي الغربي من الجزيرة . وسافر الشيخ إسماعيل وجماعته خلال الساحل الشرقي حتى وصلوا آرو حيث اعتنق أشخاص كثيرون الإسلام ثم رحل الشيخ إسماعيل إلى الشمال وركز جهوده للدعوة إلى الإسلام في كل من بيرلاك وسومطرة حيث استجاب عدد من الناس لدعوته وأسلموا . وكانت قمة النجاح الذي بلغه الشيخ في دعوته أن اعتنق ميراسيلو الإسلام . وقد أسس هذا الزعيم مدينة سومطرة ومملكتها وتلقب بالملك الصالح ودخل في تحالف مع بيرلاك عن طريق الزواج من ابنة حاكمها (الذي قد يحتمل أنه كان مسلما أيضا)[٦] . وأنجب من هذه الأميرة ولدين سماهما الملك المنصور والملك الطاهر (أو

الجاهر) . ثم أسس هذا الملك الصالح مدينة أخرى بالقرب من مدينة سومطرة اسمها باساي[٧] .

ومهما تكن الحقيقة في تفاصيل تلك الرواية التاريخية ، فان الملك الصالح نفسه شخصية تاريخية . وينظر إليه بصفة عامة على أنه أول حاكم مسلم لمنطقة سومطرة – باساي ، وتوجد مقبرته في سومطرة ، ويرجع تاريخها إلى ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م . كذلك يعزز هذه الرواية ما سجلته المصادر الصينية عن وصول بعثة دبلوماسية إلى الصين في سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م من قبل ملك سامودرا (سا – مو – تا – لا –) وكان يتزعم هذه البعثة اثنان من الدبلوماسيين المسلمين اسميهما حسين وسليمان ، مما يتضح منه أن الإسلام أصبحت له قاعدة صلبة في سامودرا قبل سنة ١٢٨٢م ، وأن أول حاكم مسلم لها وهو الملك الصالح استمر في الحكم من تلك السنة على الأقل حتى سنة ١٢٩٧ م التي تمثل تاريخ وفاته المسجل على قبره .

وقد زار الرحالة الإيطالي (البندقي) ماركوبولو جزيرة سومطرة عام ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٢ م عند عودته من رحلته للصين ، وذكر أنه زار ستا من « الممالك الثمانية » التي كانت تنقسم إليها الجزيرة حسب اعتقاده ، وأن الإسلام كان قد انتشر في مملكة فيرلاك (بيرلاك) من هذه الممالك حيث استطاع التجار المسلمون أن يقنعوا السكان المتمدنين هناك بالإسلام ، بينما بدت على الناس خارج بيرلاك مظاهر التوحش والكفر ومنها أكل لحوم البشر[٨] . وتقدم هذه الرواية دليلا هاما على أن إمارة بيرلاك قد تلقت الإسلام في نفس الوقت تقريبا الذي كانت فيه الإمارة المجاورة لها – إمارة سامودرا – مسلمة . وقد كان يحكم بيرلاك حاكم مسلم تزوج ابنة أحد الحكام السابقين ، وأرسل هو الآخر سفراء مسلمين إلى الصين عندما كان ذلك الرحالة البندقي مقيما هناك .

فإذا ما أخذت الأدلة المقدمة في الاعتبار ونعني السجل التاريخي للملايو ، والروايات الصينية (٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م) ، ورواية ماركوبولو (٦٩٣ هـ/ ١٢٩٢ م)ومقبرة الملك الصالح في سامودرا (٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م) ، فإنه من الممكن القول إنه بحلول الربع الأخير من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي كان الإسلام قد انتشر كثيرا

في الجزء الشمالي من الجزيرة بما فيها لامبري (رامني) وأتيشة وسامودرا – باساي وبيرلاك . وكانت سامودرا – باساي بالتحديد ، وأتيشة وبيرلاك على وجه الاحتمال خاضعة لأسر حاكمة مسلمة وأن هذه الحقائق إلى جانب وجود جاليات إسلامية كبيرة في لامبري وآرو ، اللتين ظهرتا على مسرح الأحداث بعد ذلك بفترة ، مما يدل على أن الروايات الخاصة بجهود الشيخ إسماعيل ورفاقه في الدعوة للإسلام لم تكن مجرد أساطير من نسج الخيال .

وقد نمت مملكة سامودرا – باساي وأصبحت رائدة للحركة الإسلامية في شمالي سومطرة ، ويتضح ذلك من زيارة ابن بطوطة الرحالة المسلم الشهير تلك الجزيرة عام ٧٤٦ هـ/ ٤٥ – ١٣٤٦ م ، حيث استقبل في ميناء سامودرا وسط كل الرسميات والأبهة الملكية من قبل السلطان الملك الظاهر ابن الملك الصالح . وقد كان هذا الملك حسبما ذكر ابن بطوطة من أتباع المذهب الشافعي ، وكان مسلما متدينا ملتزما حريصا على حضور صلاة الجمعة سيرا على الأقدام كما كان مغرما بالمناقشات الدينية مع العلماء والفقهاء الذين كانوا يتدفقون على بلاطه من خارج البلاد مثل الشريف أمير سيد الشيرازي والفقيه تاج الدين الأصفهاني . وقد عين السلطان بعضهم قضاة وسفراء وموظفين كبار في الدولة .

وقد أقامت مملكة سامودرا – باساي اتصالات بالدول الإسلامية الأخرى في الهند وغيرها من الدول التي كان الملك الظاهر يتبادل معها البعثات الدبلوماسية . وقد كان الملك نشيطا في توسيع رقعة مملكته على حساب الزعماء غير المسلمين في الجنوب وساعده في ذلك أهالي مملكته ، الذين كانوا جميعا يتبعون المذهب الشافعي . وعقد الملك الظاهر معاهدات سلام مع من انتصر عليهم من غير المسلمين ، واكتفى بأن اقتضى منهم الجزية[٩] . ولم يكن يفرض الإسلام على السكان المغلوبين بحد السيف .

وقد أدى ازدياد السيطرة السياسية لمملكة سامودرا إلى تمهيد الطريق أمام التوسع السلمي للإسلام بين السكان المحليين لشمالي سومطرة في مجموعها ، وبخاصة عندما قدم الدعاة ورجال العلم من فارس وآسيا الوسطى ومن البلدان الإسلامية الأخرى إلى سامودرا – باساي بأعداد كبيرة . وقاموا بالدعوة إلى الإسلام حتى أصبحت غالبية

السكان في الجزء الشمالي من سومطرة فوق مينانجكاباو تدين بالإسلام عند نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر للميلاد .

وأشارت بعثة صينية كانت في طريقها إلى البنغال وزارت الجزيرة عام ٨١٦ هـ/ ١٤١٣م ، إلى انتشار الإسلام في شمالي سومطرة وأيضا في جاوة ، ويقال إن ملك آرو وشعبها على الساحل الشرقي كانوا كلهم مسلمين ، بينما كان في لامبري في الشمال ألف أسرة كلها مسلمة[١٠] .

وقد استمرت مملكة سامودرا – باساي وكذلك الإمارات الإسلامية في آرو وأتيشة ولامبري في الازدهار حتى مقدم البرتغاليين في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر للميلاد . وعلى إثر فترة قصيرة من الاحتلال البرتغالي لسامودرا – باساي ظهرت سلطنة أتيشة ، كقوة إسلامية رئيسية اضطلعت بنشر الإسلام في الجزيرة .

سومطرة الوسطى :

أما بالنسبة لسومطرة الوسطى ، فقد استمرت هناك مملكة مينانجكاباو حتى بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر للميلاد على الرغم مما أصاب حدودها من انكماش مستمر . وكانت هذه المملكة ترقب بتخوف نفوذ الإسلام المتزايد في شماليها ومن ثم كانت على عداء مع الولايات الإسلامية السومطرية الشمالية بصفة عامة . وقد أرسلت في عام ٩١٧ هـ/ ١٥١١ م وفد تهنئة لإمبراطور مالقا البرتغالي الفونسودا البوكيرك . وعلى الرغم من ذلك تزايد انتشار الإسلام بين رعايا مينانجكا باو ، ويتضح هذا من نظرة سريعة إلى تاريخ الهجرة المنظمة من تلك المملكة في القرون السابقة . فمعظم المتعلمين في الملايو يرجعون في أصلهم إلي هجرات في الماضي قدمت من سومطرة ، وخاصة من مينانجكاباو ، كما استقبلت سنغافورة والجنوب الأقصى من شبه الجزيرة بالذات هؤلاء المهاجرين السومطريين في بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي . وقد قام أحفاد هؤلاء بتأسيس ملقا في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.ولم يكد ينتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي حتى أسلمت مينانجكاباو وسومطرة الوسطى[١١] .

وفي الوقت الذي كان الإسلام فيه يتغلغل في الجزء الشمالي من الجزيرة قادما من شبه

جزيرة الملايو المجاورة في الشرق وجزيرة جاوة في الجنوب ، كانت هاتان المنطقتان قد اتسع انتشار الإسلام فيهما على نطاق واسع في نفس الوقت تقريبا الذي حدث فيه ذلك في شمال سومطرة . وكان لتلكما المنطقتين تأثيرهما الثقافي والسياسي على مقاطعتي لامبونج وباليمبونج في شمالي سومطرة .

وبنهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أصبحت باليمبونج مقاطعة من مملكة ماجاباهيت في وسط جاوة وشرقيها ، وقد كان امتداد النفوذ السياسي الماجاباهيتي إلى مقاطعة من شمالي سومطرة إلى جانب وجود مملكة مينانجكا باو في قلب الجزيرة عقبة قوية أمام تقدم الإسلام في شمالي سومطرة ، لكن الموقف تغير تماما مع نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي . فقد برزت إلى الوجود سلطنة ملقا منذ بداية ذلك القرن وغدت من القوة بمكان وقام سلاطينها ولا سيما مظفر شاه (٨٤٩ – ١٤٤٥ – ١٤٥٩م) ومنصور شاه (٨٦٤ – ٨٨٢ هـ/ ١٤٥٩ – ١٤٧٧ م) بتوحيد أجزاء شبه الجزيرة تحت لواء الإسلام وبسطوا سيطرتهم على أجزاء من الساحل الشرقي لسومطرة مثل أندرا جيري ورواكن وكمبر وسبياك[١٢] . وفي الوقت ذاته ظهر في شمالي جاوة في المدن الساحلية عدد من الزعماء المسلمين ومن الدعاة والمدرسين . ونالت هذه التطورات من نفوذ كل من مملكتي مينانجكاباو وماجاباهيت ، وقامت حركة منظمة للدعوة إلى الإسلام في كل من الملايو وجاوة ، قادها في شمالي جاوة في منتصف القرن العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي راضن رحمت ، مما أدّى إلى تغلغل نفوذ الإسلام حتى في مملكة ماجاباهيت بما فيها دوائرها الملكية . واعتنق عدد من أمرائها وغيرهم من أعضاء الأسرة المالكة الإسلام ، أو تعاطفوا معه سرًّا ، وتدفق دعاة الإسلام إلى مقاطعة باليمبانج من جاوة والملايو حتى أصبح كل سكانها تقريبا مسلمين قبل نهاية القرن العاشر للهجرة/ الخامس عشر للميلاد[١٣] .

وعلى هذا النحو تحولت مقاطعات الجنوب في لامبونج إلى الإسلام خلال الربع الأخير من القرن العاشر الهجري/ الخامس عشر الميلادي على يد زعيم هذه المقاطعات الذي يسمى ميناك كما لا بومي والذي تأثر بحركة نشر الإسلام في بنانتام في شمالي غربي جاوة

وقتذاك ، إذ كان قد زار بنانتام وهناك اعتنق الإسلام ثم قام بالحج إلى مكة المكرمة ، وعند عودته عمل على نشر الإسلام بين شعبه(١٤) . وواصل دعاة آخرون هذه المهمة من بعده ، وبذلك نال الإسلام أرضا واسعة في كل من شمالي سومطرة وجنوبيها قبل ظهور البرتغاليين على مسرح الأحداث في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي .

مقاومة الاستعمار البرتغالي والعداء الصليبي لانتشار الإسلام :

أدت شراسة البرتغاليين والعداء الصليبي إلى نكسة مؤقتة لتقدم الإسلام في المنطقة ولكن لم يمتد ذلك طويلا بل عاد المدّ الإسلامي لقوته السابقة ، وبخاصة في جزيرة سومطرة وظهرت قوة جديدة في الجزيرة على أثر اتحاد الإمارتين الصغيرتين أتيشة ولامبري ، وبلغ ذلك الاتحاد أوج عظمته أثناء حكم علي مغيات شاه الذي طرد البرتغاليين من سامودرا – باساي ، واستردها في ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٤ م . وقام ابنه ووريثه السلطان علاء الدين ٩٥٥ – ٩٧٩ هـ/ ١٥٧١ م بتوسيع سلطان أتيشة إلى مدى بعيد في الجنوب وحتى آرو على الساحل الشرقي ، كما استطاع أن يكبح العدوان البرتغالي على شبه جزيرة الملايو بالاستيلاء على جوهور في جنوبها ، وأرسل سفارات للسلطان التركي واستطاع أن يحصل على أسلحة ثقيلة منه . وقد تعدّدت محاولات السلطان علاء الدين لطرد البرتغاليين من ملقة و لم تكلّل جهوده بالنجاح لكن نفوذ السلطان استمر في الازدياد . وقد سقطت تماما ولاية مينانجكاباو التي كانت تحالف البرتغاليين سرا أثناء حكم خليفته – السلطان علاء الدين خلال الربع الأخير من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، وتمت السيطرة التامة لأتيشة على سومطرة الوسطى وفي أثناء حكم السلطان سكندر مودا (١٠١٧ – ١٠٤٧ هـ/ ١٦٠٨ – ١٧٣٧ م) ، تمت السيطرة التامة لأتيشة على الساحلين الشرقي والغربي لسومطرة . وتدفق في عهده عدد كبير من الدعاة المسلمين إلى المنطقة التي عرفت باسم مينا نجكاما سابقا في سومطرة فانتشر الإسلام بين أهلها قرب نهاية (القرنين ١٠ ،١٢هـ/ القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر للميلاد) .

٢ – في شبه جزيرة الملايو :

تقع شبه جزيرة الملايو بعد سومطرة الوسطى مباشرة على طريق التجارة من الغرب

إلى الشرق ، ولذلك فقد تلقت الإسلام تقريبا في نفس الوقت الذي تلقاه شمالي سومطرة أو بعده بقليل . وقد وجد نقش بلغة الملايو لكنه مكتوب بالخط العربي ويعود تاريخه إلى عام (٧٠٣ – ٧٠٤ هـ) أو ١٣٨٧ م (٧٨٩ هـ – ١٣٠٣ م) ، في ترينجانو على الساحل الشرقي من شبه الجزيرة ويدلّ هذا النقش على وصول الإسلام إلى ذلك الساحل وعلى مدى التأثير الذي اكتسبته اللغة العربية مع بداية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي . وقد تعرضت ملقا على الساحل الشرقي لمؤثرات الإسلام قبل هذا التاريخ بكثير ، ويشير السجل التاريخي لأحداث الملايو عن ملقا إلى تحول السلطان محمد شاه ، الذي تولى عرش ملقا في سنة (٦٧٦هـ) ١٢٧٦م إلى الإسلام على يد تاجر عربي من جدة اسمه سيدي عبد العزيز ثم أدخل السلطان محمد شاه الإسلام إلى المنطقة(١٥) . وقد وضّح المؤرخ البرتغالي ج. ده باروس هذه الحادثة بعد ذلك بقرن أي سنة ١٣٨٤م فقال : إن قاضيا من الجزيرة العربية استطاع تحويل الملك للإسلام وسمّاه محمد شاه(١٦) .

وقد كشفت البحوث الحديثة أن السلطة السياسية المستقلة على مدينة ملقا قد تأسست حوالي سنة ٨٠٣ – ٨٠٤هـ / ١٤٠٠م على يد زعيم يسمى باراميسوارا ، من المحتمل أن يكون سليلا لأمير جاوى ، وقد قام بذلك فيما يبدو في محاولة للتخلص من سيطرة سيام على المنطقة . وقد ساعده في ذلك التجار المسلمون القاطنون على الساحل الغربي من شبه الجزيرة كما ساعده أمير البحر المشهور الحاج تشنج الذي كان في إحدى رحلاته البحرية عام ٨١٤هـ / ١٤١١م ، في استرداد عرش ملقا وحوله للإسلام(١٧) حسب الرواية الصينية . وهناك رواية أخرى تقول : إنه دخل في تحالف مع سامودرا – باساي بالزواج من إحدى أميراتها ، ثم اعتنق الإسلام بعد ذلك ولقب نفسه بإسكندر شاه . ويمكن أن تكون هذه العوامل كلها من دعم التجار المسلمين لذلك الزعيم ومساعده (الحاج تشنج هو) له وتحالفه مع سامودرا – باساي قد أدت مجتمعة إلى تأسيس سلطنة ملقا في السنوات المبكرة من القرن العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي(١٨) .

ويبدو أنه كان هناك رد فعل وثني لظهور سلطنة ملقا الإسلامية على يد باراميسوار المعروف بإسكندر شاه . ولكن جاء الانتصار النهائي الحاسم لجماعة المسلمين هناك في

عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥ م ، عندما قامت ثورة التجار الهنود والفارسيين القاطنين في ملقا ، ووضعت على العرش السلطان مظفر شاه (٨٤٩ – ٨٦٥هـ / ١٤٤٥ – ١٤٥٩م) . فقد ضمن الإسلام في عهد هذا السلطان قاعدة راسخة في الملايو ثم مضى إلى توسيع حدود الدولة بغزو بهانج وكمير على الساحل الشرقي من شبه الجزيرة إندراجيري على الساحل الشرقي من سومطرة واستمرت سياسة التوسع في عهد ابنه وخليفته على العرش من بعده ، منصور شاه (٨٦٥ – ٨٨٢هـ / ١٤٥٩ – ١٤٧٧م) الذي استولى على كده وكيلانتان وباتاني وترنيجانو في شمالي وشرقي الملايو وروكان وكمبروسياك على الساحل الشرقي من سومطرة . وقد أعلن النصر السياسي لهذين الحاكمين المسلمين في شبه الجزيرة طريق الدعوة إلى الإسلام بأيدي العلماء والدعاة الذين تزايد وصولهم إلى تلك الجهات من سامودرا – باساي وكيوجارات فارس ومن أجزاء أخرى من العالم الإسلامي . ومع نهاية الربع الأخير من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي كان كل من الساحلين الشرقي والغربي لشبه الجزيرة ومايليهما من أقاليم أرضا إسلامية . وكان لجهود منصور شاه في رعاية العلوم آثارها في ذلك . وقد عمل هذا السلطان على إعداد ترجمات وشروح للكتب الإسلامية بمساعدة بعض العلماء كي يتمكن شعب الملايو من فهمها واستيعابها مما أعان على نشر الإسلام في البلاد . وقد استمر النشاط في مجالي الدعوة إلى الإسلام وتعليمه قويا أثناء عهد ابن منصور شاه ووريثه السلطان علاء الدين شاه (٨٨٢ – ٨٩٤هـ / ١٤٧٧ – ١٤٨٨م) الذي بلغت سلطنة ملقا في عهده ذروة المجد والعظمة .

وقد وضع الغزو البرتغالي لملقا في عام ٩١٧هـ / ١٥١١م نهاية لدورها كمركز متقدم للإسلام ، ومن ثم أصبحت أتيشة في شمال سومطرة وجاوة في الجنوب مركزين لمقاومة الأعمال الحربية البرتغالية ضد الإسلام . وقد سبقت الإشارة لأتيشة والآن سنتناول بإيجاز انتشار الإسلام في جاوة ونضالها ضد الجيوش البرتغالية في عدوانها الغاشم .

٣ – جـــاوة :

التجار الرواد : زار التجار المسلمون العرب جاوة منذ القرن الثاني الهجري (الثامن

الميلادي) مثلما زاروا المناطق الأخرى في أرخبيل جنوب شرقي آسيا ، يشير إلى ذلك شاهد قبر في ليران بجاوة الوسطى لسيدة مسلمة تسمى فاطمة بنت ميمون يرجع إلى سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٢م أو ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م ، ويدل هذا على تغلغل الإسلام في جاوة الوسطى أيضا في القرن الخامس أو السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، كما وجدت شواهد قبور أخرى يرجع تاريخها إلى الفترة ٧٧٨ - ٨٨٠هـ / ١٣٧٦ - ١٤٧٥م في ترووليو حيث كان قصر ماجاباهيت الملكي القديم ، وتدل على انتشار الإسلام في داخل جاوة ومنطقة ماجاباهيت الملكية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين في قلب جزيرة جاوة وفي دائرة البلاط الملكي لماجاباهيت . هذا مالا يمكن التعرف عليه تاريخيا ويمكن فقط الافتراض بأن الجهود الدائبة وغير المسجلة من قبل التجار والدعاة الأفراد خلال زمن طويل قد أدت إلى ذلك .

وأول ماكتب عن وجود جالية إسلامية كبيرة في جاوة خلّفه العالم المسلم الصيني ما - هيوان الذي زار جاوة الشرقية بين السنوات ٨١٨ - ٨٣٧هـ / ١٤١٥ - ١٤٣٢م ، ولاحظ وجود ثلاثة جماعات من الناس في جاوة الشرقية : المسلمون الذين قدموا من الغرب « واستقروا هناك ، والمهاجرون الصينيون الذين أصبح الكثير منهم مسلمين ، وجماعة من الأهلين لم يكونوا يتحلّون بالنظافة وكانوا يعتقدون في الشياطين[١٩] .

وكما حدث في المناطق الأخرى فقد استقر المسلمون في المدن الساحلية على طول السواحل الشرقية والشمالية لجاوة منذ بداية وصولهم إلى تلك المنطقة . وعندما زار ما - هيوان الجزيرة كان ذلك التغلغل السلمي قد وصل إلى مرحلة هامة تميزت باعتناق عدد من الزعماء والأمراء للإسلام وأصبحوا حكام المدن الساحلية والموانئ البحرية . واعترفوا في بداية أمرهم بسلطان حاكم ماجاباهيت باعتباره ملكا في القرن التاسع الهجري / منتصف الخامس عشر الميلادي . وانقسمت جاوة في ذلك الوقت إلى عدد من الولايات المستقلة ، منها مملكة ماجاباهيت الهندوسية في وسط الجزيرة وشرقيها ، وتقع إلى الغرب منها إمارة تشيربون (تجيربون) فضلا عن ولايات صغيرة يحكمها زعماء محليون . وقد قامت في المقاطعات الغربية القصية ، أي منطقة بانتام وجاكارتا الحديثة ،

مملكة جاجاران . وقد ظهر أولئك الزعماء المسلمون مع تزايد نفوذ الإسلام في المناطق الساحلية وتصدع مملكة ماجابا هيت من الداخل وتدهورها ، فضلا عن جهود عدد من المدرسين والدعاة المسلمين البارزين الذين تعاونوا مع أولئك الزعماء وساندوهم بجموع تابعيهم وقاموا بالعمل المنظم للدعوة للإسلام بين السكان . وكان من أبرز هؤلاء العلماء المسلمين مالك إبراهيم الذي ظهر نشاطه في العقد الأخير من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، والعقدين الأولين من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، ويوجد قبره في جريسيك على الساحل الشمالي الشرقي (شمال سورابايا وفي مقابل جزيرة مادورا) ، ويرجع تاريخها إلى ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م . ويحتفل سكان المنطقة بذكراه احتفالا عظيما ، ويعتبرونه أول داعية للإسلام في البلد كللت جهوده بالنجاح .

وتقول الرواية الشعبية : إنه هبط على الساحل الشرقي مع عدد من أتباعه في الجزء الأخير من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وعاش في جريسيك ونجح خلال فترة قصيرة في تحويل عدد كبير من السكان المحليين إلى الإسلام .

ثم ظهر في منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي راضن رحمت وهو زعيم كان له دور كبير في تحويل الجزيرة إلى الإسلام . وتقول الروايات إن أباه كان عربيا وأنه تزوج من ابنة أمير تشامبا (سنف ، سيام المتاخمة للملايو) وتزوجت ابنته الأخرى من ملك ماجاباهيت . وهكذا اتصل راضن رحمت وأتباعه بالأسرة الملكية للماجاباهيت . وكان راضن رحمت فيما يبدو حلقة اتصال هامة بين سيام المتاخمة للملايو وباليمبانج في جنوبي سومطرة وجزيرة جاوة . وكان من نتيجة هذه الصلة أن نشأ أولاد حاكم ماجاباهيت في ظل الإسلام على الرغم من عدم اعتناق هذا الحاكم نفسه للإسلام .

وقد رحل راضن رحمت إلى مملكة ماجاباهيت ، ولقي معاملة طيبة في بلاطها سواء من قبل الأميرة التشامبية الأصل التي كان قد تزوجها الملك أو من الملك نفسه الذي قرر في النهاية تعيين راضن رحمت واليا على أمبيل جنوبي جريسيك حيث تمكن خلال فترة قصيرة من تحويل معظم سكانها إلى الإسلام وذاعت شهرته في طول البلاد وعرضها . وكلف عالما جليلا كان قد انضم إليه ويدعى إسحاق بمهمة نشر الإسلام في ملمبانجان في أقصى

الشرق من جاوه . وقد نجح إسحاق في ذلك وتزوج ابنة أمير تلك الجهة وأنجب منها ابنا اسمه رانت رباكو تكفل راضن رحمت بتربيته ورعايته وزوجه ابنته وأقامه حاكما في جيري ، إلى الجنوب الغربي من جريسيك ، ثم زوج راضن رحمت راضن باتاه من حفيدة له . وقد حكم هذا بنيتارا إلى الغرب من جريسيك وأقرّه ملك ماجاباهيت رسميا واليا على تلك المنطقة . وفي نفس الوقت قدم داعية آخر اسمه الشيخ خليفة حسين ، وانضم راضن رحمت الذي أرسله إلى جزيرة مادورا المجاورة حيث بنى هناك مسجدا كبيرا فخما ، وكسب للإسلام عددا كبيرا من السكان . كذلك قام ولدان لراضن رحمت ونصبا أنفسهما على رأس مدينتين ساحليتين شماليتين أخريين . وهكذا ماكاد يدنوراضن رحمت من نهاية الأجل (أي في الجزء الأخير من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي) ، حتى كان عدد كبير من الزعماء والدعاة المسلمين الذين ربطتهم بذلك الزعيم البارز علاقات الدم ، والقرابة ، والمصاهرة وعلاقات التحالف قد وطدوا أقدامهم في أماكن مختلفة من السواحل الشمالية والشرقية لجزيرة جاوة .

وبعد موت راضن رحمت ، كوّن راضن باتاه زوج ابنته اتحادا كونفدراليا للزعماء الساحليين ومنهم (راضن باكوزوج ابنة راضن رحمت الأخرى وولدا راضن رحمت) وهزم أسرة ماجاباهيت الحاكمة وأطاح بها في سنة ٨٧٣هـ / ١٤٧٨م[٢٠] . وبذلك دخلت جاوة الوسطى ومعظم أجزائها الشرقية تحت السيطرة السياسية للزعماء المسلمين في القرن التاسع الهجري في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي . وجاء انتصارهم هذا في جاوة تتويجا للجهود الدعوية للتجار والدعاة المسلمين في نشر الإسلام خلال زمن طويل .

وكان انهيار حكام ماجاباهيت إيذانا بتحول السكان إلى الإسلام على أيدي الدعاة والمعلمين . ومازال هؤلاء السكان ينظرون في إجلال إلى المسجد الفخم ذي الطوابق السبعة الذي بناه راضن باكو في جيري والمسجد الرائع الذي بناه راضن باتاه في بنتارا . وكان مسجد جيري ومدرسته مركزا تخرج منه كثير من المعلمين والدعاة الذين حملوا رسالة الإسلام إلى بورنيو وجزيرة سولو والفلبين .

قدوم البرتغاليين :

وعندما ظهر البرتغاليون في المنطقة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وجدوا المناطق الساحلية الشمالية والمناطق المجاورة لها واقعة تحت حكم الزعماء المسلمين . وقد أجمعت كتابات باروس عام ٩٠٤ - ٩٠٥هـ / ١٤٩٨م والحاكم البرتغالي على أن المسلمين الإيرانيين والعرب والجوجارتيين والبنغاليين استقروا بأعداد كبيرة في موانئ جاوة الرئيسة في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي . ولكن هؤلاء الكتاب غفلوا عن ملاحظة مدى انتشار الإسلام في الأجزاء الداخلية من الجزيرة . وكانوا يميلون إلى الافتراض بتحديد وجوده في المناطق الساحلية من الجزيرة وحدها . والحقيقة أن الإسلام قبل مقدم البرتغاليين كان الأكثر وجودا وانتشارا في داخل كل من جزيرتي سومطرة وجاوة ، وكذلك في شبه جزيرة الملايو وفي الجزر الأخرى وبخاصة بعد أن تمكن الزعماء المسلمون في شمالي جاوة من الإطاحة بحكام ماجاباهيت في وسط جاوة وشرقيها .

وفي أثناء السنوات الأولى من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي برزت إمارة بنتارا ، التي كان يحكمها راضن بتاه ، باعتبارها أكبر قوة سياسية إسلامية رئيسة في جاوة وقد مدت سيطرتها على ديماك في الغرب . وعرفت فيما بعد بالسلطنة عندما خلف يونس بن راضن باتاه أباه بعد وفاته وأصبح سلطانا لديماك[٢١] . وانضمت إليه في اتحاد كونفدرالي مقاطعة باليمبانج في جنوب سومطرة في الوقت الذي استولى فيه البرتغاليون على ملقا عام ٩١٧هـ / ١٥١١م . ولكن أدى عدوان البرتغاليين وحقدهم الصليبي على الإسلام إلى انتصار الإسلام الكامل في جزيرة جاوة كما حدث في سومطرة . فقد قاد السلطان يونس جبهة الدفاع الإسلامية ضد البرتغاليين وتحالف مع مسلمي جوهور ، ثم شن هجوما على معقل البرتغاليين عام ٩١٨هـ / ١٢ - ١٥١٣م . وإذا كان لم يفلح في اقتلاع البرتغاليين من ملقا ، فإنه قد ألزمهم مكانهم فلم يحاولوا منذ ذلك الوقت فصاعدا البطش بجاوة ، وحولوا انتباههم إلى جزر التوابل . وقد اتجه يونس وحلفاؤه إلى تعزيز مركز المسلمين فتمكنوا من إزاحة آخر ممثلي الأسرة المالكة لماجاباهيت

بين سنتي ٩٢٨ – ٩٣٥هـ / ١٥٢٠م و ١٥٢٧م ، وخضعت جاوة الوسطى والشمالية تماما لسلطنة ديماك .

وقد مات السلطان يونس عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢١م ، وتولى من بعده أخوه ترينجانو ، وكان بطلا متحمسا للإسلام مثل أخيه . وعندما فرّ كثير من زعماء المسلمين وعلمائهم من سامودرا باساى وجد هؤلاء المأوى في أتيشة وجاوة ، وكان من بين هؤلاء المهاجرين الشيخ سونان الذي اشتهر بلقب « ابن مولانا » الذي اضطلع بدور بالغ الأهمية في نشر الإسلام في جاوة . وكان قد ذهب من قبل إلى مكة المكرمة . ثم أتى إلى ديماك عام ٩٣٢هـ / ١٥٢٤م ، حيث صار المستشار الديني للسلطان ترينجانو وتزوج من أخته ، وكان خير عون للسلطان في استكمال فتح بانتام عام ٩٣٣هـ / ١٥٢٥م وعمل على نشر الإسلام فيها . ثم قام الشيخ بعد ذلك ، وهزم ملك مملكة باجاجاران الهندوسية في غربي جاوة ، واستولى على مدينتها الساحلية الرئيسية كلابا في ربيع الثاني في سنة ٩٣٣هـ / ديسمبر ١٥٢٦م ثم أعاد تسميتها باسم جايكارتا (مدينة النصر – ومنها جاكارتا) . وقرن الشيخ ابن مولانا هذه الفتوحات بجهوده المكثفة في نشر الإسلام بمعاونة أتباعه ومنهم ابنه حسن الدين ، الذي أسهم كثيرا في نشر الإسلام في كل أرجاء جاوة الغربية . وبعد ربع قرن من الدعوة للإسلام بالطرق السلمية ، اعتكف الشيخ ابن مولانا في تشيريبون (تجيريبون) حيث مات في سن متقدمة في سنة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م . ويعرف ذلك الداعية في الرواية الشعبية الجاوية أيضا باسم سونان جونينج دجاتي وينظر إليه كواحد من العلماء التسعة الذين اضطلعوا بنشر الإسلام في الجزيرة . وقد تمكن السلطان ترينجانو من وضع جزيرة لومبوك تحت لواء الإسلام وساعد بصورة إيجابية في تحول المقاطعة الجنوبية من بورنيو وباندجارماسين إلى الإسلام حوالى عام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م . وهكذا انتشر الإسلام في شتى أنحاء جزيرة جاوة في القرن العاشر الهجري / منتصف السادس عشر للميلاد ، على الرغم من أن بقايا العادات القديمة بقيت ظاهرة في عادات كثير من المسلمين الجاويين خلال فترة طويلة تالية .

٤ - في جزر البهار :

تقع جزر البهار والتوابل Muluccas في طريق التجارة المتجه شرقا نحو الصين وقد وصلها الإسلام عبر هذا الطريق . وكان يحكم هذه الجزر بعض الزعماء المستقلين . ولكنها خضعت منذ القرن العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي لسطان أربعة من الأمراء المستقلين ، وهم أمراء تيرنيت وتيدورى وجيلولووباتجان ، وكان أكبرهم سلطانا وأعظم قوة أمير تيرنيت الذي كان سلطانه يشمل تيرنيت والجزر المجاورة ، وجزءا من جزيرة حليما هيرا الكبيرة ، وجزيرتي أمبوينا وباندا ، وجزءا كبيرا من جزيرة سيليبز . وكان يليه في السلطان والنفوذ أمير تيدورى الذي يحكم إلى جانب تيدورى الجزر المجاورة وجزءا من جزيرة حليما هيرا والجزر الواقعة بينها وبين مايعرف الآن بغينيا الجديدة ، بالإضافة إلى الساحل الغربي لغينيا الجديدة وجزء من سيرام . وكان أمير جيلولو يحكم الجزء الأوسط من جزيرة حليما هيرا والجزء الشمالي من سيرام . أما أمير باتجان فكان يحكم بصفة رئيسة باتجان وجزر أوبي .

وهناك مايدل على أن التجار والدعاة المسلمين قد وصلوا إلى هذه الجزر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وتزايد نفوذهم على طبقتي الحكام والتجار . ويقال إن حاكم جزيرة تيرنيت الرابع عشر ، مولوماتيا (٧٥١ - ٧٥٩ هـ / ١٣٥٠ - ١٣٥٧م) ، كان على صداقة حميمة مع بنّاء سفن عربي ، وحمل حاكمان آخران من حكام الجزيرة اسمين عربيين في أواخر القرن الرابع عشر - ومن المحتمل جدا أن يكونا قد اعتنقا الإسلام ، وبالمثل كان حاكم الجزيرة تيدوري في نفس الفترة يعرف باسم حسن شاه .

ومع نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وصل عدد كبير من الدعاة المسلمين إلى هذه الجزر ، من أشهرهم وأهمهم مولانا حسين ، الذي جاء من جاوة وجعل تيرنيت قاعدته الرئيسة لنشر الإسلام . وقد نجح بعلمه الواسع وقدرته على عرض تعاليم الإسلام بصورة مقنعة ومؤثرة في تحويل عدد كبير من سكان الجزيرة إلى الإسلام ، وفي تعليمهم اللغة العربية وتلاوة القرآن الكريم . وقد تزايد انتشار الإسلام في جزيرة

تيرنيت والجزر المجاورة بسرعة كبيرة في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وبخاصة في عهد زين العابدين (٨٩١ - ٩٠٧هـ / ١٤٨٦ - ١٥٠٠م) ، الذي يعد بحق أول حاكم مسلم لجزيرة تيرنيت . ففي عهده تدفق التجار والدعاة المسلمون إلى المملكة . وقد بلغ من تأثيرهم في زين العابدين أنه ذهب إلى المدرسة الإسلامية في جيرى بجاوة الشمالية للتعرف على الإسلام بدقة . وقد أحضر معه عند عودته عالما مسلما كبيرا يدعى طوهو بهاءل (ربما طه بهاء الدين ؟) لاقت حلقاته العلمية في تيرنيت نجاحًا ملحوظًا .

ووصل الإسلام إلى جزيرة أمبون ، الواقعة في جنوبي الأرخبيل وكانت خاضعة لسلطان زين العابدين السياسي . وقد جاء إلى هذه الجزيرة عالم وداعية مبرز من جاوة أيضا هو القاضي إبراهيم ، الذي تولى القضاء هناك ، وقام بتعليم عدد كبير من سكان الجزيرة اضطلعوا فيما بعد بدورهم في الدعوة إلى الإسلام بين إخوانهم من أهل البلاد . وقد شُيِّدَ مسجدٌ فخم رائع من سبعة طوابق في أمبون باقتراح من ذلك القاضي ، جاء مماثلا لمسجد جيرى الشهير . كذلك ظهر عالم داعية بارز اسمه عثمان ، وروى أنه تلقى تعليمه في مكة وجريسيك (شمالي جاوة) ثم كرس نفسه للدعوة إلى الإسلام في أمبون حيث أسس هناك قرية كايلولو الشهيرة .

وعلى أثر انتشار الإسلام في تيرنيت ، انتشر في تيدور في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر للميلاد . ومن الدعاة البارزين هناك الشيخ منصور ، وهو عالم عربي أسفرت مواعظه وحججه عن اعتناق حاكم الجزيرة ، تجيرالي ليجاتو الإسلام والتسمّي بجمال الدين . وقد حكم جمال الدين في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وفي عهد ابنه السلطان منصور (الذي سماه تيمنا باسم ذلك العالم العربي) وصلت سفن ماجلان إلى سواحل تيدور عام ٩٢٩هـ / ١٥٢١م[٢٢] .

وكانت جزر تيرنيت وتيدور وأمبون قد أصبحت قاعدة للإسلام في المنطقة فلم يلبث أن انتشر منها تدريجيا في كل الجزر الأخرى من الأرخبيل . وكرس كثير من الدعاة

والتجار جهودهم لنشر الإسلام في تلك الجزر على الرغم من أن أسماءهم وتفاصيل أعمالهم لم يسجلها التاريخ . على أن رحلة ماجلان قد أثبتت نتائج جهودهم في نشر الإسلام في كل أرجاء الأرخبيل ذلك أن أتباع ماجلان حين وصلوا هناك في عام ١٥٢١م وجدوا أن كافة المناطق الأربع : تيرنيت وتيدور وجيلولو وبانجان يحكمها سلاطين مسلمون .

وقد وصل البرتغاليون أيضا في نفس السنة إلى جزيرة تيرنيت وتعاونوا مع الأسبان على خطة منظمة لتنصير سكان الجزر بالقوة ، وطرد البرتغاليون قاضي تيرنيت حين وجدوه يعلّم الناس مبادئ الإسلام . وعلى الرغم من ذلك ظلت جزر البهار وجاوة تقاوم العدوان البرتغالي الأسباني زمنا طويلا .

٥ - جزر سيليبز :

وصل الإسلام إلى المنطقة الجنوبية الغربية من سيليبز (ماكاسّار) في نفس الوقت الذي وصل فيه جزر البهار تقريبا ، وذلك عن طريق التجار المسلمين القادمين من الغرب منذ العقد الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي . وقد مهد هؤلاء التجار إلى جانب الدعاة الوافدين إلى الجزيرة من وقت لآخر الطريق للدعوة لنشر الإسلام بطريقة منظمة حتى نهاية ذلك القرن . وقد تمكن تجار الملايو من إقامة مستوطنة في تالو في بداية القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي . وظل نفوذهم قويا حتى نهاية ذلك القرن فانحاز أمير تالو إلى جانب الإسلام . على أن الانتصار النهائي للإسلام في ماكاسار يعود في المقام الأول إلى الداعية داتعورى باندانج الذي يرجع أصله إلى مبناكاباو في (سومطرة) وقد تلقى تعليمه في مدرسة جيرى الشهيرة (شمالي جاوة) . ومنذ ذلك الحين كرّس جهوده للدعوة إلى الإسلام في جزر البهار وأصاب هناك نجاحا كبيرا . وعندما مهد التجار المسلمون في ماكاسّار الطريق للدعوة إلى الإسلام بطريقة منظمة ، وصل داتعورى باندانج من جزر البهار في أوائل القرن الحادى عشر

الهجري / القرن السابع عشر الميلادي . واعتنق على يديه حاكم تالو الإسلام في ٩ جمادي الأولى سنة ١٠١٤هـ / ٢٢ سبتمبر ١٦٠٥م[٢٣] . وقامت دعوة إلى الإسلام في الجنوب الغربي لسيليبز ولم يمض وقت طويل حتى اعتنق كل سكان المنطقة الإسلام .

ولكن هذا النشاط الإسلامي الكبير تعرض لمضايقات البرتغاليين والهولنديين في شمالي الجزيرة وشرقيها . فقد فرض الهولنديون سلطانهم على مولوكا بعد ذلك بفترة قصيرة ثم بدأوا في اضطهاد المسلمين هناك وآزر مسلموا (ماكاسّار) مسلمي جزر البهار واشتبكوا مع الهولنديين في صراع مرير وفتحت ماكاسار أبوابها لعدد كبير من اللاجئين المسلمين الفارين من أمبون ومن الجزر الأخرى . وكان أحد العلماء اللاجئين إلى ماكاسار في سنة ١٠٥٧هـ / ١٦٤٧م هو مؤلف الكتاب التاريخي الأمبوني الهام « حكايات تاناهيتو » ، أثناء وجوده في ماكاسّار . واستمرت مقاومة ماكاسار الصلبة ضد الاستعمار الهولندى لفترة طويلة . وأخيرًا استطاع الهولنديون في النهاية الاستيلاء عليها في عام ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧ م فجاء ذلك نهاية لنشاطها في نشر الإسلام وفي سيطرتها على طريق التجارة في جزر البهار .

وقد حمل البرتغاليون عددا كبيرا من سكان الجزيرة بالقوة على اعتناق الكاثوليكية ثم حولهم الهولنديون بعد ذلك إلى البروتستانتية . وقد كان لهؤلاء جهود تنصيرية منظمة ، وقد أقاموا في خلالها مملكة نصرانية في شبه الجزيرة الشمالية من سيليبز .

وفي أثناء هذا الحكم الأجنبي المعادي للإسلام في تلك الجزيرة أخذ الدعاة والتجار والعلماء المسلمون وبخاصة في بوجي في شبه الجزيرة الجنوبية يقومون بأنشطتهم التجارية وبالدعوة السلمية إلى الإسلام في الوقت نفسه ، وأدت قوة عزائمهم إلى نجاح كبير لجهودهم في نشر الإسلام خلال القرنين ١١ ، ١٢ هـ / السابع عشر والثامن عشر الميلادي وفي القرن ١٣ هـ / النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، أحرز الدعاة المسلمون نجاحا مؤزرا في شبه الجزيرة الشمالية وتحول الملك النصراني إلى الإسلام . ويصف آرنولد هذا الحدث بناء على مصدر هولندي فيقول : « كان أول ملك مسيحي لبولانج – مونجودون هوجا كوبوس مانوبو (١١٠٢ – ١١٢١هـ /

١٦٨٩ – ١٧٠٩م . وقد انتشرت النصرانية في عهده بسرعة من خلال نفوذ شركة الهند الشرقية الهولندية وتبشير القساوسة الهولنديين . وكان كل خلفائه نصارى حتى عام ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م . عندما اعتنق الحاكم رجاء جاكوبوسماينول مانوبو الإسلام . وكان تحوله للإسلام محصلة سلسلة من الجهود المتتابعة للدعوة إلى الإسلام منذ بداية ذلك القرن . إذ بذل بعض التجار المسلمين جهودا جبارة لنشر الإسلام بين الكثيرين من سكان إحدى المدن الساحلية من المملكة الشمالية في ذلك الوقت وتسمى مونجوندو ومن هذه المدينة نفسها ، قام اثنان من أولئك التجار الدعاة ، وهما حكيم باجوس وإمام تويكو بنشر الإسلام في بقية أنحاء تلك المملكة . ومن مونجوندو انتشر الإسلام إلى مملكة بولانج الشمالية التي كان جميع سكانها في عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م من النصارى أو الوثنيين عدا اثنين أو ثلاثة من المسلمين . ولكن دعاة الإسلام الغيورين من البوجيين والعرب سرعان ماأنجزوا نجاحا مذهلا وشاسعا في نشر الإسلام هناك وكلما سارت الجهود قدما في نشر الإسلام تكررت زيارات هؤلاء البوجيين والعرب وتواصلت وتزايد نفوذهم في البلاد بكثرة حتى عام ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢ م تقريبا حينما تزوج أحد العرب من إحدى بنات الملك كورنيليوس مانوبو الذي كان نصرانيا ، وهجر النصرانية كثير من زعماء القبائل وأفرادها الأقوياء واعتنقوا الإسلام . وبهذه الطريقة ، أحكم الإسلام قبضته على هذه المملكة قبل أن يصبح رجاء جاكوبوس مانيول مانوبو مسلما في عام ١٨٤٤م[٢٤] .

٦ – بورنيــو :

تقع بورنيو وجزر سولو والفلبين الجنوبية (مورو أو منداناو) على نفس طريق التجارة البحرى من ملقا إلى الشرق الأقصى . وجاء دخول الإسلام إلى هذه المنطقة على أيدي التجار والدعاة وغيرهم من المسلمين الذين قدموا إليها عبر الطريق التجارى . كما تقدم الإسلام إلى بورنيو أيضا من المدن الساحلية لماليزيا وسومطرة وجاوة ، حيث أسّس المسلمون مراكزهم هناك .

وقد استطاع عدة أشخاص كانوا قد تلقوا تعليمهم في المراكز الإسلامية في ملقة وسومطرة وجاوة مواصلة القيام بالدعوة إلى الإسلام في بورنيو والفلبين . وأدّى موقع

بورنيو ذاتها إلى أن تواجه التأثير الإسلامي من كل الجوانب تقريبا ، فبينما كانت سواحلها الغربية والشمالية تقع على طريق التجار العرب والمسلمين القادمين من الغرب ، كان ساحلها الجنوبي يواجه جاوة وبالتالي تعرض لتأثيرها الثقافي والتجاري ولاسيما ديماك التي استتب فيها الإسلام منذ فترة مبكرة ، كما كان الساحل الشرقي لبورنيو يواجه سيليبز وتعرّض لتأثيرها . وهكذا تغلغل الإسلام في بورنيو من هذه المصادر الثلاثة .

وكان الشمال الغربي من بورنيو (بروناى) أول ما تعرض لتأثير الإسلام ، وقد حدث هذا تقريبا في نفس الوقت الذي حقق فيه الإسلام انتصاره النهائي الحاسم في سومطرة وجاوة خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر للميلاد . وقد تحقق هذا التطور في بروناى على يد شخص بارز هو السلطان محمد ، وقد قيل إن اسمه الأصلي كان الأكبر تاتا وأنه تلقى تعليمه في جوهور حيث اعتنق الإسلام ونشره في بروناى ، ثم خلفه أخوه أحمد في حكم بروناى وقد تلقى السلطان أحمد تعليمه الإسلامي على يد تاجر عربي من الطائف وزوجه ابنته ، وحقق الإسلام تقدما كبيرا في عهده بين سكان بروناى حتى أنه لم يكد ينتهي القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي حتى شمل الإسلام شمالي غربي بورنيو كله تقريبا .

الاستعمار البرتغالي لملقة وهجرة المسلمين إلى بروني : وفي بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي تلقت حركة الإسلام في بروناى دفعة قوية نتيجة لسقوط ملقة في أيدى البرتغاليين في سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م ، وفرار الكثيرين من العلماء والمثقفين المسلمين إلى بروناى حيث وجدوا الملجأ والمأوى ، وهناك عملوا على نشر الإسلام بين سكان الجزيرة . وبعد عشر سنوات بالضبط من سقوط ملقة في أيدي البرتغاليين وصلت سفينة ماجلان إلى ساحل بروناى . وحسبما ذكر قبطان السفينة بيجافيتا كانت بروناى آنذاك مدينة مزدهرة تسكنها حوالي ٢٥,٠٠٠ أسرة مسلمة ، وكان يحكمها في ذلك الوقت أمير يدعى بولكيا حاول بتحالفه مع الزعماء المسلمين في سومطرة وجاوة تطويق الزحف البرتغالي وقاموا بحملات عدة ضدهم .

جنوبي بورنيو : وبعد أن استتب أمر الإسلام في شمالي غربي بورنيو بدأ يشق طريقه

إلى جنوبي بورنيو حيث ولاية باند جارماسين ، التي كانت أكثر تعرضا لتأثير جاوة وبخاصة سلطنة ديماك الإسلامية . وقد زار باند جارماسين العلماء والدعاة المسلمون منذ بداية اتصال الإسلام بشمالي جاوة . وطبقا للرواية التقليدية فقد ثبتت أقدام الإسلام في باندجارماسين بناء على ماتقرره رواية مأثورة متداولة في أعقاب حرب اعتلاء العرش هناك ، فقد ادعى كل من الأميرين المتنافسين ، سامودرا وتومنيجونج حقه في اعتلاء العرش هناك ، وفي خضم هذا الصراع طلب سامودرا عون ديماك العسكرى التي لبت النداء بشرط اعتناقه الإسلام . واستجاب الأمير لذلك فاعتنق الإسلام وسمى نفسه سريان الله . عندئذ وصل حوالي ألف جندي من ديماك إلى باندجارماسين وساعدوا سريان الله في تثبيت ملكه وعرشه ، ثم عاد أولئك الجنود إلى وطنهم بعد قليل ، وكان هذا في القرن التاسع الهجري . العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي . وعلى الرغم من العون العسكري لديماك باعتباره السبب الرئيسي لانتشار الإسلام في باندجارماسين لكن ذلك الانتشار لم يحدث طفرة ، فمن الممكن أن يكون هذا ثمرة صلات إسلامية ثقافية متطاولة ، وأن يكون الصراع على العرش في حد ذاته نتيجة التأثير المتزايد للإسلام والعناصر المسلمة في باندجارماسين . وعلى كل حال ، أصبح سكان باندجارماسين كلهم مسلمين عند نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر للميلاد .

أما بورنيو الشرقية : فقد تلقت الإسلام ، عند نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر للميلاد تقريبا ، ولكنه انتشر بصفة أساسية في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بعدما قدم إليها الدعاة المسلمون من سيليبز التي تقع بالقرب منها . وقد حكى السجل التاريخي المحلي لولاية كوتي أنه وصل إليها عالمان مسلمان من ماكاسّار (جنوبي غربي سيليبز) اسمهما طوان دى – أباندانج (داتعورى باندانج ؟) وطوان توجونج بارانجانج للدعوة إلى الإسلام . وقد عاد الأول إلى ماكاسّار بعد فترة قصيرة بينما مكث الأخير واستقر في كوتي ونجح في تحويل عدد كبير من السكان المحليين تدريجيا إلى الإسلام ، وفي النهاية اعتنق الإسلام الحاكم نفسه رجاء ماكوتا ، وتبعه في ذلك الأمراء والوزراء وقادة الجيش وكبار موظفي الدولة . وقد اتخذ رجاء ماكوتا خطوات

فعالة في نشر الإسلام داخل حدود مملكته ، وأعان طوان نجوج بارانجانج في جهوده التي أدت إلى تحويل كل سكان المنطقة تقريبا إلى الإسلام .

٧ - الفلبين (سولو ومنداناو) :

واصل الإسلام انتشاره على طول الطريق التجاري فيما وراءبروناى حتى وصل إلى جزر الفلبين . وهناك كان انتشار الإسلام يرجع بصفة أساسية إلى أعمال التجار والدعاة المسلمين الذين كان معظمهم من أصل عربي . وقد قدم هؤلاء التجار والدعاة المسلمون من الغرب وزاروا الجزر منذ عصور مبكرة .

ومن أبرز هؤلاء الدعاة الذين وصلتنا أسماؤهم شريف كريم الدين (المخدوم) وكان هذا العالم العربي قد وصل إلى ملقة في بادئ الأمر ثم قدم إلى سولو عام ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م تقريبا واستقر به المقام في العاصمة القديمة بوانسا ، ونجح في نشر الإسلام بين بعض السكان هناك بما فيهم اثنان من الزعماء المحليين . وقد بنى هؤلاء المسلمون الجدد مسجدا في المدينة ومضوا في نشر الإسلام بين السكان ، وتحقق تقدم ملحوظ في ذلك بالجزيرة مع بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

ومالبثت الأسرة الحاكمة لسولو أن اعتنقت الإسلام في تاريخ غير محدد ، لكن من المؤكد أن رجاء باجندا الذي حكم الجزيرة خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي كان مسلما . وقد ظهر في عهده داعية آخر ذكر أن أصله عربي اسمه أبو بكر وقيل إنه جاء إلى سولو بعد أن قام أولا بالدعوة إلى الإسلام في كل من بالامبانج (جنوبي شرقي سومطرة) وبروناى (شمالي غربي بورنيو) . ولما قدم إلى سولو تزوج من ابنة حاكمها المسلم باجندا ، ثم خلفه على العرش في منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وتسمى بالسلطان أبي بكر . ويعتبر اعتلاء السلطان أبي بكر العرش من العلامات البارزة لانتصار الإسلام في الجزيرة . فقد حرص على أن يحكم الجزيرة على نمط الخلافة الإسلامية الأولى وأدخل اللغة العربية في البلاد وعلم الناس مزيد من فنون الحرب ورعى العلماء والدعاة المسلمين . وقد تحول كل سكان سولو إلى الإسلام مع النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

وفي نفس الوقت الذي كان يعمل فيه الدعاة والتجار المسلمون لنشر الإسلام في سولو كان إخوانهم يقمون بنفس العمل في جزيرة منداناو (جنوبي الفلبين) . وكان أكبر الدعاة شهرة في مجال الدعوة إلى الإسلام هو شريف كابونجسوان ، الذي كان أحد أبناء التجار العرب الذين استقروا في جوهور وقد تزوج من إحدى نسائها . ولما كان شريف كابونجسوان واسع المعرفة بالعلوم الإسلامية فقد دعاه شعب المنداناو ليأتي ويستقر في جزيرتهم وقد قبل شريف الدعوة بشرط أن يعتنقوا الإسلام كلهم ، ولما استجابوا لشرطه جاء إليهم واستقر في المنداناو . وتدل هذه الرواية على نشاط الدعوة إلى الإسلام في المنداناو قبل وصول شريف كابونجسوان بزمن طويل . ويمكن اعتبار وصوله ذروة انتصار الإسلام وتتويجا للجهود التي سبقت دخوله إلى تلك الجزيرة في نشر الإسلام . وقد استقر الإسلام وثبتت قواعده في كل أرجاء الجزيرة قبل أن ينصرم القرن التاسع الهجري / القرن الخامس عشر الميلادي .

الاستعمار الأسباني يشن على المسلمين حرب إبادة : كان من الممكن لبقية الفلبين أن تتحول إلى الإسلام تدريجيا ، ولكن الغزو الأسباني للبلاد في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي . وقف عقبة دون ذلك فقد آلى الأسبان على أنفسهم أن يطردوا المسلمين من الفلبين كما طردوهم من أسبانيا من قبل وقاموا بحملات منظمة من الاضطهاد والاعتقالات وشنوا على المسلمين حروب إبادة ، لكن المسلمين الأبطال صمدوا لصليبية الأسبان مدى قرنين من الزمان وكثيرا ما كانوا يقومون بهجمات فدائية برية وبحرية على المعاقل والسفن الأسبانية مما يطلق عليه الكتاب الغربيون « قرصنة » وإلى جانب الجهود الأسبانية التي استهدفت استئصال المسلمين هناك ، كان القساوسة يقومون بتنصير السكان قسرا بمعاونة القوى الاستعمارية الأسبانية .

وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية لم يتوقف انتشار الإسلام بين السكان تماما ، فإن الأساليب التي اتبعها الأسبان في التنصير استثارت اشمئزاز الذين تبينوا التناقض الشديد – كما يقول كاتب غربي – بين عنف الأسبان وظلمهم من ناحية وبين ماكان يتحلى به دعاة الإسلام من ناحية أخرى ، فقد تعرف هؤلاء الدعاة على لغة الناس واتبعوا

عاداتهم وتزاوجو معهم وامتزجوا بهم امتزاجا وثيقا ، و لم يدّعوا قط استعلاء عِرقيا و لم يحطوا من قدر السكان الأصليين .

وفي الاحتلال الأمريكي للفلبين عام ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م غدت ولاية المنداناو المسلمة ملجأ لأولئك الذين فروا هربا من طغيان السلطات الأسبانية في الجزر الأخرى . كما كانت جزيرة سولو التي احتلها الأسبان عام ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م معقلا للمقاومة الإسلامية للتنصير القسرى . وفي ظل ذلك الاحتلال الأمريكي تواصلت الجهود لاستئصال تأثير الإسلام والمسلمين في تلك الجزر وتم تحويل معظم سكانها إلى النصرانية .

الهوامش

(1) Groeneveldt (W.P.) : Notes on the Malay Archipelago and Malacca .
Compiled from Chinese Sources , 1888 , quoted in Arnold , op. cit , p 368 .

(2) Fatimi (S.Q.) : Mashriqi Ba'id me Tulu' Islam , pp 6-7 , J.P.H.S., 1981 , p. 261 .

(3) Arnold (T. W.) : The Preaching of Islam , Lahore , 1961, pp 367 , 369 - 70 .

(4) Arnold , op . cit ., p. 370 .

(5) Ibid , quoting the Malay chronicle of Acheh , ed , Dulaurier , p. 7 .

(٦) راجع التوضيح الذي ذكره ماركوبولو في ختام المتن .

(7) The Malay Chronicle Shejara Malayu) , pp. 41- 43 , also Arnold , op . cit ., 372 .

(8) Yule (Sir H.) : The Book of Ser Marco Polo , vol . 1 . London , 1929 , pp. 414 , 418 , 420 .

(٩) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

(10) Ma- Huan's account quoted in W.P.
Groenevldt M Notes on the Malay .
Archipelago and Malacca 1876 , p. 94.

(11) Moor (I = H) : Notes of the Indian Archipelago , Singapore , 1837 , P 255 , quoted in Arnold op . cit ., p 376 .

(١٢) انظر الفصل الخاص بالملايو .

(١٣) انظر الفصل الخاص بجاوة .

(14) Arnold , op. cit ., p 375 .

(15) Ibid , p. 377 quoting the Malay Chronicle of Malacca entitled Sulalat al - Salatin .

(16) De Barros , quoted in Ibid .

(17) Groeneveldt (W.R.) : op; cit ., P. VII .

(١٨) طبقا لرأى آخر أورده هانز كاهلر Hans Kahler :
The Muslim World , A Historical Survey , part IV , Leiden 1981 , p 255 .
فإن ابن باراميسوارا رجاء أحمد الذي قيل إنه اعتنق الإسلام وسمى باسم إسكندر شاه فإن هذا الرأي لا يبدو صحيحا لأن رجاء أحمد اسم إسلامي يدل على أنه ولد لأبوين مسلمين ، فليس ثمة ما يدعو لتحوله للإسلام من جديد .

(19) Groeneveldt , op . cit ., VII , p 49 - 50 .

(٢٠) يشير المؤلف إلى أنه طبقا للمصادر البرتغالية التي لايسميها فإن سقوط مملكة ماجاباهيت حدث بعد ذلك بنحو أربعين سنة ، ويقول إن ذلك ربما يكون إشارة إلى أحد أفراد أسرة ماجاباهيت الذي كان يتحمر من الزمن في أقصى شبه الجزيرة .

(٢١) راضي باتاه أو Pati هو يونس عند الكتب البرتغاليين ، وردًا على وصف هؤلاء الكتاب الأوربيين المحدثين له بأنه قرصان (راجع مثلا : Hans Kaldler . op. cit. P 260) .

يرى المؤلف إن يونس لم يكن في الحقيقة قرصانا ولكنه كان يمثل الرعب للقراصنة البرتغاليين . والسلطان يونس هو حفيد حاكم ماجاباهيت من جهة أبيه ، وراضن رحمت من جهة أمه .

(22) Rijale ,: Hikayat Tana Hitu , MSS ., Quoted in The Cambridge History of Islam , vol 2 A , p. 136 .

(23) The Combridge History of Islam , vol 2 A , p. 138 .

(24) Arnold : op . cit ., p. 402 .

مراجع أخرى مختارة :

السيد علوى طاهر الحداد : المدخل إلى تاريخ الإسلام فى الشرق الأقصى . جدة ١٩٨٥م .

قيصر أديب مخوّل : الإسلام في الشرق الأقصى . تعريب د. نبيل صبحي . القاهرة . (د.ت) .

رءوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو . القاهرة . ١٩٧٥م .

انتشار الإسلام في الصين

وصل الإسلام إلى الصين عن طريقي البر والبحر كليهما – عن طريق البر عبر بلاد ماوراء النهر وحوض تاريم ومنها إلى شمالي غربي الصين ، وعن طريق البحر عبر المدن الساحلية الشرقية خاصة ميناء كانتون (كانفو) . ومن المعروف جيدا أن العلاقات التجارية بين الجزيرة العربية والصين كانت موجودة وموطدة خلال عدة قرون قبل ظهور الإسلام . ومنذ القرن الخامس الميلادي فصاعدا كانت السفن التجارية تتردد بين الخليج العربي من جهة والساحل الشرقي للصين من جهة أخرى ، حيث كانت تمر بالبلدان والموانئ المختلفة في آسيا الجنوبية والجنوبية الشرقية . وعند ظهور الإسلام في بداية القرن السابع الميلادي كان ميناء سيراف الفارسي بمثابة ملتقى رئيسي للسفن والتجارة في رحلة الذهاب إلى ميناء الصين أو رحلة العودة منها .

الصلات المبكرة للمسلمين بالصين :

ومن المؤكد أن أخبار ظهور الإسلام والتغييرات السياسية والاجتماعية الجذرية التي أحدثها في شبه الجزيرة العربية وما جاورها قد وصلت الصين منذ وقت مبكر . فقد تناقلت الصين لزمن طويل روايات رددها بعض الكتاب المسلمين الصينيين حتى القرن الثانى عشر الهجري / القرن الثامن عشر الميلادي ، أن امبراطورًا صينيًا – من أسرة سوى الصينية سارع بإرسال رسول إلى الجزيرة العربية عندما سمع بظهور الإسلام ليتأكد من الأمر ، وأن النبي محمدا ﷺ أرسل الصحابي الجليل الشهير سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مع ثلاثة آخرين لمصاحبة المبعوث الصيني في طريق عودته إلى بلاده . وتذكر الروايات أن الإمبراطور الصيني أكرم وفادة أولئك المبعوثين وبنى مسجدا في كانتون . فلما عاد سعد بن أبي وقاص إلى الجزيرة العربية أرسل بعثة ثانية إلى الصين بعد قليل ، ولكنه مات هناك ودفن بالقرب من مسجد كانتون . وفي الواقع يوجد مسجد قديم جدا

ومهيب في كانتون ويعرف شعبيا باسم « مسجد ذكرى النبي » (هواى شينج سزو) ، توجد بجواره مقبرة قديمة يقال إنها تضم رفات الصحابي سعد بن أبي وقاص الذي توفي في الحقيقة بالعقيق ودفن بالمدينة سنة ٥٥ هـ[١] .

وليس أمامنا إلا اعتبار مثل هذه الرواية غير جديرة بالثقة والاعتبار إذ لاتوجد إشارات لمثل هذه السفارات في المصادر العربية أو في السجلات الصينية لتلك الفترة على الرغم من أنه من المؤكد أن مسجد كانتون بني في فترة مبكرة جدا من تاريخ الإسلام بعد وفاة النبي محمد ﷺ ، وأن المقبرة المجاورة هى لأحد الزائرين أو الدعاة المسلمين الأوائل[٢] . ومن الواضح أن هذه الرواية نسجت حول هذه البنايات العتيقة ، وحظيت بالقبول والاستحسان . وهناك مسجد عتيق أيضا في سيانفو في شمال غربي الصين حيث تعود نقوشه إلى عام ١٢٦ هـ / ٧٤٢ م ، ويسجل هذا النقش أن الإسلام دخل الصين في عهد الإمبراطور كغاى هوانج من أسرة سوى (٥٨١ – ٦٠١ م) ، ثم انتشر تدريجيا في كل أرجاء الإمبراطورية . وحين شيد الإمبراطور (تعيين باو) مسجده عام ١٢٦ هـ / ٧٤٢م شاء أن تسجل نقوشه ذلك الحدث الهام كى لاينسى[٣] .

ومن المؤكد أن وصول الإسلام والمسلمين إلى الصين قد تحقق قبل سنة ٩٥هـ / ٧١٢م . وأنه من المحتمل أيضا أن يكون قد شيد مسجد في سيانفو في السنة المذكورة ، ولكن النقش ذاته يبدو أنه يرجع إلى وقت لاحق . ذلك لأنه يذكر أن الإسلام كان قد دخل الصين خلال فترة أسرة سوى في عام ٦٠١م ، أى قبل هجرة النبي محمد ﷺ بإحدى وعشرين سنة تقريبا . كذلك يشتمل هذا النقش على عبارات من الجزيرة العربية وسيانفو لم تستخدم فيهما إلا في فترة متأخرة كثيرا عن ذلك التاريخ . وكما أشار ماسون ، فإن النقش قد وقع في خطأ تحديد التواريخ المتقابلة في التقاويم المختلفة ويرجح أنه لم يأخذ في الحسبان الفارق الزمني بين السنة في التقويم الصيني القديم والسنة في التقويم الهجرى وأجرى حسابه الارتجاعي في التقويمين لعدد محدود من السنين[٤] .

ومهما تكن الحقيقة عن قصة مسجد كانتون أو عن نقش مسجد سيانفو ، فليس هناك أدنى شك في أن اتصال الإسلام بالصين حدث في عهد الخلفاء الراشدين على الأقل .

فمن المعروف الآن أنه بعد الهزيمة النهائية للفرس ومقتل الملك الفارسي يزدجرد الثالث على أيدى المسلمين في سنة ٣٢ هـ / ٦٥١ م ، التمس ابنه فيروز المساعدة من إمبراطور الصين ضد المسلمين لكن الإمبراطور الصيني كاوتسونج اعتذر وقال : إن المسافة بعيدة جدا مما لا يسمح له بإرسال قوات حربية إلى فارس ، وأرسل سفيرا يمثل مؤازرة شكلية للأمير الساساني وكان عليه أن يستطلع المعلومات عن القوة الإسلامية المتزايدة .

في حكم الأمويين والعباسيين :

تحقق اتصال مباشر ومنظم بين الصين والمسلمين أثناء العصر الأموى . فقد أسفرت فتوحات سمرقند وبخارى والمناطق الأخرى من أواسط آسيا على يد قتيبة بن مسلم أثناء خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م) عن وضع المسلمين وجها لوجه مع تركستان الشرقية التي كانت آنذاك خاضعة لسلطان الإمبراطور الصيني . وتقول الروايات الصينية أنه في سنة ٩٥هـ / ٧١٣م أرسل الوليد رسله إلى البلاط الصيني حيث لقوا حفاوة وكرما ومنحوا هدايا قيمة . كما جاء سفير مسلم آخر إلى الصين اسمه سليمان عام ١٠٨هـ / ٧٢٦م أوفده الخليفة هشام بن عبد الملك إلى الصين حيث قوبل بحفاوة وترحاب من قبل الإمبراطور تسوان تسونج .

وقد أدت هذه الزيارات الدبلوماسية المتبادلة وكذلك التقدم المطرد للمسلمين تجاه تركستان الشرقية إلى إدراك السلطات الصينية لمكانة الإسلام والقوة السياسية للمسلمين في حقيقتهما . وجاءت أهم مرحلة في العلاقات المتبادلة المتزايدة بين الصين والمسلمين في القرن الثاني الهجري / منتصف القرن الثامن الميلادي عندما ثبت العباسيون سلطانهم ، إذ جرى استيلاء العباسيين على الخلافة في وقت تيسر فيه للإسلام الوصول إلى الصين . فقد حدث أن قام مغتصب بطرد الإمبراطور العجوز تسوان تسونج من عاصمتي ملكه تسيانفو وهو نانفو ، ففر ذلك الإمبراطور إلى المقاطعة الشمالية الغربية من دولته في كانسو حيث تنازل بصفة صورة عن ملكه لابنه سوتسونج عام ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م ، بينما التمس من الخليفة العباسي المنصور العون العسكري . وقد استجاب المنصور لندائه وأرسل نحوا من أربعة آلاف جندي مسلم لنجدة سوتسونج ، لعلهم تحركوا من ثكنات الحدود .

وبمساعدة هؤلاء الجنود المسلمين نجح سوتسونج في استعادة عاصمتي ملكه سيانفو وهو نانفو وفي توطيد مركزه كإمبراطور على البلاد . وكي يعبر الإمبراطور عن اعترافه بالجميل فقد سمح للجنود المسلمين بالاستقرار والإقامة في كانسو حيث أصبحوا نواة السكان المسلمين الكثيرين الذين استمر تزايدهم هناك . ولعل السماح لأولئك الجند بالإقامة في كانسو كان بقصد تأمين بقاء ذلك الإمبراطور على عرشه وتثبيت ملكه في البلاد ، وهناك دلائل تشير إلى أن أولئك الآلاف الأربعة من الجنود لم يكونوا الكتيبة العسكرية الوحيدة التي وصلت الصين واستقرت هناك ، فقد تكرر حدوث ذلك أكثر من مرة(٥) .

وطبقا لإحدى الروايات ، استقرت جماعة من هؤلاء الجنود في نفس الفترة تقريبا في كانتون على الساحل الشرقي حيث كانت لهم امتيازات خاصة ، فقد كانوا هم الذين يعينون قاضيا يحكم بينهم طبقا للشريعة الإسلامية(٦) . ومن المحتمل أيضا أن يكون مسجد سيانفو العتيق ومسجد كانتون اللذان أشرنا إليهما سابقا قد بنيا في ذلك الوقت تقريبا .

وحقيقة الأمر أنه خلال عهد أسرة تانج في الصين (٤ سنوات قبل الهجرة – ٢٩٦هـ / ٦١٨ – ٩٠٧م) وهو عهد عاصر ظهور الإسلام ومع قمة وذروة سلطانه السياسي على أيدى العباسيين دخل الإسلام والمسلمون بوجه عام الصين من الطريق البرى عبر تركستان والطريق البحرى عبر كانتون والساحل الشرقي وحققوا مكانة وفعالية في البلاد . كذلك تحقق من جراء فتح المسلمين لأواسط آسيا في النصف الأول من القرن الثاني الهجري وتقدمهم المستمر صوب تركستان الشرقية وانهزام القوات الصينية في معركة تلاس في ١٣٤ – ١٣٥هـ / ٧٥١م ، على أيدي القائد المسلم زيد بن صالح ، انفتاح الطريق التجاري البري القديم المؤدي إلى الصين أمام المسلمين ، كما أدت المساعدة العسكرية الإسلامية للإمبراطور الصيني سوتسونج الذي أتى إلى الحكم بعد ٥ سنوات فحسب من معركة تلاسي ، إلى زيادة قوة المسلمين ونفوذهم في الصين سياسيا ومعنويا .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا شرع التجار والرحالة المسلمون يتغلغلون عبر حوض تاريم إلى كانسو وشنسي في الشمال الغربي للصين بأعداد متزايدة . واضطلع هؤلاء التجار

والرحالة المسلمون شأنهم في كل مكان ذهبوا إليه بالدعوة إلى الإسلام ، وكان من آثار جهودهم في هذه السبيل أن أخذ سكان « هان » الصينيون بتلك الجهات فى اعتناق الإسلام (نهاية القرن ٣هـ وبداية القرن ٤هـ / نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلاديين) . وهكذا نشأت شيئا فشيئا مجموعة دينية عرقية كبيرة عرفت باسم (هوى هوى) تكونت من سكان هان المسلمين ومن ذرية الجنود والتجار المسلمين الذين استقروا في الشمال الغربي من الصين . واستطاع المسلمون السيطرة على طرق القوافل في شمالي الصين بمضي الزمن ، وانتشر التجار المسلمون في كل أرجاء البلاد وأقاموا مستوطنات في أقصى الشرق حتى بكين . ويشبه هؤلاء سكان هان الصينيين في الملامح واستخدام اللغة الصينية(٧) . وهم يكونون في كانسو والمنطقة المجاورة في الشمال الغربي في الصين أكبر أقلية قومية في البلاد وهى تتمتع بتاريخ طويل حافل بالأحداث(٨) .

وكما تحول الهويون إلى الإسلام فقد فعل ذلك أيضا اليوغوريون الأتراك الذين كانوا يقطنون حوض تاريم . وقد سبق الحديث عن تحول الأتراك الشرقيين إلى الإسلام . ويكتفى بالإشارة هنا إلى أن إسلام اليوغوريين تلقى دفعة قوية إلى الأمام في القرن الخامس الهجري / القرن العاشر الميلادي على إثر اعتناق أميرهم صاتوك بوغرا خان الإسلام . وقد استمر حفيده حسن بوغرا خان في القيام بنشر الإسلام حتى أتم فتح خوتان عام ٣٩٢هـ / ١٠٠٠م . وأعقب ذلك انتشار الإسلام باطراد في كل أرجاء منطقة تاريم حتى أصبح اليوغريون يمثلون الأقلية المسلمة الكبرى الثانية في الصين بعد الهويين .

وإذا كان الإسلام قد انتشر في الشمال الغربي من الصين عبر الطريق البري . فقد تكاثرت مستعمرات إسلامية على الساحل الشرقي وفي كانتون بصفة أساسية إذ تشير كل المصادر الإسلامية والصينية إلى وجود مستعمرة مزدهرة من التجار المسلمين في كانتون (كانفو) في القرن الثاني الهجري / القرن الثامن الميلادي . وبينما تركز حكام تأنج في شمالي الصين وكانوا مشغولين بآسيا الوسطى بصورة أساسية كان يسيطر على الساحل

الشرقي من الصين وعلى الطرق البحرية التجار الأجانب وبخاصة المسلمون منهم . وكانت مدينة كانتون البحرية فعلا في أيدى التجار المسلمين العرب . وتسجل الحوليات الصينية أنه مع سنة ١٤١هـ / ٧٥٨م قويت شوكة المقيمين المسلمين في كانتون لدرجة أنهم فرضوا سلطانهم على المدينة بالقوة في مواجهة أى تدخل محلي[٩] .

وتذكر رواية صينية أخرى ترجع إلى القرن السادس الهجري / القرن الحادى عشر الميلادي عند تناولها تاريخ أسرة تاأنج المبكره ، « أنه في بداية عهد أسرة تاأنج جاء إلى كانتون عدد كبير من الأجانب من ممالك أنام وكمبوديا ومن دول أخرى عديدة ، وكان هؤلاء الأجانب يعبدون السماء (إشارة إلى الله) ولم يكن لهم تمثال أو صنم أو صورة في معابدهم . ويعرفون اليوم باسم هوى هوى .. وقد طلبوا من الإمبراطور السماح لهم بالاستيطان في كانتو ووافق الإمبراطور على ذلك ، فبنوا منازل فخمة رائعة على طراز مختلف عما هو سائد في بلادنا . وكانوا على درجة كبيرة من الثراء ويطيعون زعميا اختاروه بأنفسهم »[١٠] .

ومن الواضح أن هذه الرواية تشير إلى مكانة المسلمين في منتصف القرن الثاني الهجري ، أما فرض سلطانهم على كانتون الذى تحدثت عنه الرواية الأولى ، والامتيازات الخاصة التي كانوا يتمتعون بها والتي ذكرتها الرواية الثانية ، فربما كان ذلك كله صدى لأحداث وقعت هناك أو كانت اتصلت بصورة ما بالعون العسكرى الذى قدمه الخليفة المنصور لتمكين إمبراطور تاأنج سوتسوج من قمع التمرد الذى وقع ضده (١٣٩ - ١٤٦هـ / ٧٥٦ - ٧٦٣م) . ومهما كان الأمر ، فقد استمرت الهيمنة الإسلامية في مدينة كانتون الساحلية وعلى الساحل الشرقي الصيني بصفة عامة حتى القرن الرابع الهجري / الربع الأخير من القرن التاسع الميلادي . وقد أشار الجغرافيون المسلمون ومنهم سليمان التاجر وأبو زيد حسن السيرافي عام ٢٦٤ - ٢٦٥هـ / ٨٧٧م إلى كانتون (كانفو) باعتبارها ميناء تتجه إليها « سائر سفن التجار العرب مع الصين محمّلة ببضائعهم » . كما ذكر هؤلاء أن مسلمي كانتون كانوا يتمتعون ، بفضل منحة من الإمبراطور الصيني ، بامتيازات تعيين قاض لهم يختارونه من بينهم بأنفسهم ليضطلع بأعباء الخدمات العامة لهم ويحكم بينهم طبقا للشريعة

والقرآن(١١) . على أن التجار المسلمين قد واجهوا أحيانا بعض المتاعب من قبل السلطات الصينية منذ القرن الثالث الهجري / منتصف القرن التاسع الميلادي ، أثناء تمرد (هانجشوا) الذي هوجمت فيه كانتون عام ٨٧٧م وذبح أكثر من ١٢٠,٠٠٠ مسلم وأجنبي في ذلك الوقت(١٢) .

وعلى الرغم من هذه النكسة فقد استمر الإسلام في تقدمه خلال ماتبقى من عهد أسرة تاأنج وفي أثناء حكم أسرة سونج التي تلتها وقد امتد ثلاثة قرون من عام ٣٥٨هـ / ٩٦٨م حتى عام ٦٦٠هـ / ١٢٦٠م ، ازدادت الصلات بين المسلمين والصينيين عن طريق البر والبحر أثناء تلك الفترة الطويلة . ويذكر التاريخ الرسمي لأسرة سونج أن أكثر من عشرين سفيرا مسلما زاروا الصين خلال تلك الفترة(١٣) ، بينما تذكر دراسة حديثة قام بها مسلم صيني بالرجوع إلى المصادر الصينية أن عدد تلك السفارات خلال عهد أسرة سونج لم يقل بأى حال من الأحوال عن ٤٩ سفارة(١٤) . وشهد عهد حكم أسرة سونج زيادة مطردة في تجارة المسلمين العرب مع الصين عبر البر والبحر . وقد عني حكام تلك الأسرة بوجه خاص بتجارة بلادهم الخارجية وتوالت بعثاتهم الدبلوماسية والتجارية إلى البلاط العباسي . كما قاموا بتعيين لجان خاصة لرعاية تجارة المسلمين العرب في المدن الساحلية ، ولاسيما في كانتون وزهانجزهو . وتذكر المصادر الصينية عدة أسماء لتجار عرب مسلمين استقروا في هاتين المدينتين كما تذكر أن عددهم في كل من هاتين المدينتين بلغ في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادى ١٠,٠٠٠ نسمة على الأقل ، وأنهم هم الذين أسسوا مدينة زهانجزهو يتزعمهم تاجر عربي يدعى أبو سوقي اختير رئيسا لمجلس التجارة في تلك المدينة ، وكان يرعى شؤونها التجارية والبحرية خلال أكثر من ثلاثين سنة(١٥) . وقد بنوا في تلك الفترة مسجد زهانجزهو الكبير في سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م على طراز المسجد الأموى بدمشق ويرتفع باب مدخله إلى أكثر من عشرين مترا . وجرى تجديده بعد ذلك بمعاونة مسلم من القدس كان قد وصل إلى هذه المدينة الساحلية في عام ٧١٠هـ / ١٣١٠م(١٦) .

وتوسعت التجارة أيضا خلال الطريق البري في نفس الوقت . ويذكر التاريخ الرسمي

للمغول (يوان تشا اوبي – شي) أنه حتى قبل ظهور جنكيز خان ، قام التجار المسلمون بالتجارة مع القبائل الرحل في أقصى الحدود الشرقية لمنغوليا مجتازين الشمال الغربي للصين . وقد لقي جنكيز خان في معسكره على بحيرة بالداجوانا عام ٦٠٠ – ٦٠١هـ / ١٢٠٣م تاجرا عربيا اسمه أسن (حسن) كان قد هبط إلى نهر أرجون[١٧] ، مما يشير إلى نشاط المسلمين التجاري عبر هذا الطريق .

انتشار الإسلام في الصين أثناء حكم المغول :

قضى المغول على أسرة سونج وحكموا الصين من عام ٦٦١هـ / ١٢٦١م إلى عام ٧٧١هـ / ١٣٦٨م واشتد التنافس بين الإسلام والنصرانية للاستحواذ على قلوب هؤلاء الغزاة وقد أخذوا يعتنقون الإسلام تدريجيا في كل البلاد التي انتشروا فيها عدا الصين ، فقد آثرت الأسرة المالكة المغولية الديانة البوذية كي يربطوا أنفسهم بالغالبية العظمى من سكان البلاد.ولكن الإسلام مع ذلك استطاع أن يحقق نجاحا كبيرا في الصين سواء في الانتشار أو في النفوذ السياسي خلال العهد المغولي . ويعود ذلك إلى عدة عوامل :

أولا : أنه لم يكن للمغول أنفسهم دين منظم كما أنهم لم يهتموا وإن آثروا الارتباط بالدين المهيمن على البلاد إلّا أنهم لم يهتموا بالحفاظ عليه إذ كانوا غزاة أتوا من الخارج فنزعوا إلى التسامح إزاء الديانات المختلفة وأنصارها وخاصة المسلمين .

ثانيا : ظهور المغول على مسرح التاريخ ، وكانت مسيرة نشر الإسلام بين الأتراك الشرقيين قد تمت واكتملت ، ونظرا للقرابة العرقية بين المغول والترك فقد مارس هؤلاء الأتراك نفوذا واسعا بين المغول ، ولاسيما أنهم قد صاروا جنودا في الجيش المغولي لبسالتهم وقوتهم البدنية . وهناك دليل قاطع على تجنيد الأتراك المسلمين في الجيش المغولي قبل ظهور جنكيز خان . فقد أشار التاريخ الرسمي للمغول (يوان شي) في الفصل ١٢٠ إلى مقاتل باسل اسمه جابر خواجه (جـ – با – ر – هو – جه) كان في أحد الألوية العسكرية لجنكيز خان وبرّز في حروبه ضد قبيلة كيرايت المغولية المنافسة عام ٦٠٠ – ٦٠١هـ / ١٢٠٣م . وقد توفى جابر هذا بعد أن عاش ١١٨ عاما وترك ذرية كثيرة في المملكة المغولية ، وتقلد سبعة من أحفاده مناصب مدنية هامة ومراكز عسكرية

حساسة . وتزايد تجنيد مثل هؤلاء الأتراك المسلمين والفرس في الجيش المغولي مع تقدم جنكيزخان في تركستان وفارس. ومن المعروف عنه أنه كان ينقل جماعات الأسرى من الشباب الأقوياء من البلاد الإسلامية التي استولى عليها ويجبرهم على العمل في جيشه . وإلى جانب هذا التجنيد الإجبارى ، كان من الزعماء المسلمين من يلتحقون بجيش جنكيزخان توقيا لبطشه . فيورد الفصل ١٢٣ من التاريخ المغولي الرسمي مثلا أن علاء - وردى (أ - لا - و - ر - يز) القائد على ألف جندى خراساني قد استسلم لجنكيز خان ودخل الجيش المغولي وأصبح ابنه علاء الدين ، (أ - لا - وا - دينج) قائدا في جيش قوبلاى خان في الصين ، كما أصبح خمسة من أبناء علاء الدين يشغلون مناصب رفيعة في الدولة[١٩] . كذلك يذكر الفصل ١٢٥ من التاريخ الرسمي ذاته أن عمر شمس الدين البخاري الذي عرف بسعيد الأجل استسلم مع حوالي ألف من أتباعه في بخارى عندما حاصرها جنكيزخان . وكان لهؤلاء القادة والجنود المسلمين نفوذهم الكبير على الحكام المغول ، فضلا عن كبار ضباط الجيش المغولي ، الذين اعتنق الكثير منهم الإسلام .

ثالثا : كان التجار المسلمون قد تغلغلوا في أثناء عصري أسرتي تاأنج وسونج بأعداد كبيرة في أنحاء الصين عبر الطرق البرية والبحرية حتى تحكموا تقريبا في التجارة الخارجية للبلاد وأصبحوا جزءا لايمكن فصله والاستغناء عنه بالنسبة للحياة الاقتصادية بالصين و لم تنقطع تلك الاتصالات البرية بالصين منذ اجتياح المغول للبلاد وبعد حكمهم لها ، واستمر التدفق الكبير للتجار والحرفيين المسلمين إلى الصين عبر الطريق البري بل استقدم الحكام المغول أنفسهم أعدادا كثيرة منهم من آسيا الوسطى للإقامة في الصين لتحسين الزراعة هناك ، مما أدى إلى ازدياد نفوذ المسلمين في الصين خلال العهد المغولي . ولما حاول أحد الأباطرة وهو قوبلاى خان اضطهادهم بتأثير ابن أخته وزوجته النصرانية هاجر عدد كبير منهم إلى الجزر الآسيوية الجنوبية الشرقية وهددوا بقطع الطريق على تجارة الصين الخارجية وسرعان ماأدرك قوبلاى خان خطأه ورجع عن سياسته ضد المسلمين ، وقدم لهم تيسيرات كثيرة وشجعهم على بناء مسجد كبير في عاصمته بكين نفسها لكي يجذب التجار المسلمين إلى البلاد[٢٠] .

رابعا : كانت حاجة الحكام المغول للمسلمين في مجال الإدارة أكبر . فقد كانت الجهات التي استولوا عليها شاسعة مترامية الأطراف ووجدوا أنفسهم مشغولين . بالشؤون العسكرية فاعتمدوا على الموظفين من أبناء البلاد المستولى عليها لتسيير الإدارة المدنية . فعلوا ذلك في آسيا الوسطى وإيران ، وكانت حاجتهم لذلك أشد في الصين . فقاموا بتعيين عدد كبير من الموظفين والإداريين المسلمين ، إذ كان المغول في الصين يعتبرون غزاة أجانب . فعمدوا إلى تشجيع المسلمين على الهجرة والاستيطان في البلاد وتولية كثير منهم المناصب الإدارية بقصدإقامة توازن مع أهل البلاد الأصليين . ويزخر سجل التاريخ الرسمي المغولي بأسماء كبار موظفي الدولة المسلمين الذين عملوا تحت حكم المغول في الصين . وكان هناك أيضا عدد كبير من الموظفين الآخرين الذين شغلوا وظائف أقل أهمية بلاشك ، ولم تصلنا قوائم أسمائهم .

وقد برز من كبار الموظفين شخص يدعى عبد الرحمن وكان رئيسا للمالية الإمبراطورية عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ومسؤولا عن جمع الضرائب في الصين . كذلك ظهر محمود يلواج البخاري الذي عين وزيرا للمالية وجامعا للضرائب في الصين في عهد خان أوكتاي العظيم (خليفة جنكيز خان) . وفي عام ٦٧١هـ / ١٢٧١م وصل من فارس إلى الصين علاء الدين وإسماعيل ، وهما خبيران مهندسان في صناعة المنجنيق وتشغيله ، وقد استخدمت آلاتهم في حصار يانفو ، وبقي كلاهما في العمل للمغول في الصين .

وكان ألمع هؤلاء الموظفين الكبار وأكثرهم أهمية عمر شمس الدين الذى عرف بسعيد الأجل وأولاده وأحفاده . فقد وكّل إمبراطور الصين قوبلاي خان إلى سعيد الأجل إدارة المالية الإمبراطورية ثم عينه بعد ذلك حاكما على مقاطعة يونّان الجنوبية الشرقية ، وكان هذا الرجل يتمتع بذكاء خارق وبقدرات إدارية فائقة ، فنظم اقتصاديات المقاطعة التي تسلمها في حالة سيئة ، وقضى على الفساد والظلم ، وعمل على تحسين الزراعة باستصلاح الأراضي وحفر القنوات العديدة كما شيد الطرق وشجع التجارة واتخذ خطوات هامة في سبيل نشر التعليم وعمل على إقامة المساجد للمسلمين والمعابد للكونفوشيين . وتوفى في عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م عن خمسة أولاد تقلدوا مناصب مدنية وعسكرية

رفيعة ، وتوالى تنصيبهم حكاما لمقاطعة يونان ومقاطعات أخرى طوال العهد المغولي ، كما تقلد أحفاده أيضا مناصب إدراية رفيعة في ذلك العهد أو فيما تلاه من عهود وقد اضطلع سعيد الأجل هو وذريته بدور هام في تثبيت أقدام الإسلام في الصين وبخاصة في مقاطعة يونان . واستطاع أحد أحفاده أن ينال اعترافا من الإمبراطور عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م بأن الإسلام هو « دين الحق والطهارة » كما قام باستكمال تشييد مسجد سيانفو الكبير .

وإلى جانب سعيد الأجل وذريته ، عمل كبار موظفي الدولة والمسلمين المدنيين والعسكريين جنبا إلى جنب مع التجار والدعاة المسلمين على نشر الإسلام في الصين وتقدّم مسيرته. وأقام كل هؤلاء في الصين وتزوجوا من أهل البلاد المحليين وتكوّن من ذرياتهم ومن أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا جماعة سكانية مسلمة كبيرة في الصين . وإذا كان الإسلام قد انتشر في أثناء عهدى أسرتي تاأنج وسونج بصفة أساسية في الشمال الغربي من الصين في مقاطعتي كانسو وشانسي وفي المنطقة الساحلية الشرقية للصين ، فقد تحول تقريبا كل سكان مقاطعة يونان الجنوبية الشرقية إلى الإسلام خلال العهد المغولي. وكان للمسلمين دور بالغ الأهمية في حياة الصين الثقافية والفكرية خلال تلك الفترة ، فقد أسس الخانات المغول معهدا طبيا كان على رأسه عالم مسلم عربي اسمه يوسف . وظهرت ترجمة كتب ابن سينا إلى اللغة الصينية واستخدمت في الأغراض الصيدلية الطبية[٢٢] . كما ذاعت شهرة علماء الفلك المسلمين أمثال جمال الدين وشعراء مسلمين أمثال سعد الله في المجتمع الصيني آنذاك وشاركوا في تقدم العلم والأدب .

وقرابة انتهاء عهد قوبلاى خان زار الرحالة البندقي (الإيطالي) ماركو بولو الصين ومكث هناك من سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م إلى سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٢م.وقد أشار إلى ناصر الدين بن سعيد الأجل الذي كان آنذاك حاكما على يونان ووصفه بأنه « ناسك متدين »، كما ذكر أنه كان هناك مسلمون عديدون في أجزاء متفرقة من تلك المقاطعة .

وكتب رشيد الدين ، المؤرخ الفارسي للمغول حوالي عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م أن كل سكان يونان وخاصة عاصمتها تاليفو ، من المسلمين[٢٣] .

كما زار الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة الصين عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م موفدا من قبل سلطان دهلي محمد بن طغلق إلى الإمبراطور المغولي . وقد هبط أول الأمر في مدينة زهانجزهو الساحلية المواجهة لفورموزا وسماها مدينة الزيتون ، وهناك لقي جماعة إسلامية أحوالها مزدهرة جدا ومما يدل على تأثيرها في أمور تلك الجهة أن من بين أفرادها علماء مبرزون أمثال شيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني وبرهان الدين الكاجروني وقاضي المسلمين تاج الدين الأرضوالي ، ومنهم أثرياء مثل شرف الدين التبريزي . ثم اتجه ابن بطوطة إلى كانتون (كانفو) وإلى بعض المدن الساحلية الأخرى ، وانتهى به المطاف في النهاية إلى عاصمة ملك الإمبراطور المغولي[٢٤] . وقد وجد ابن بطوطة في كل مكان ذهب إليه جماعة مسلمة قوية تأثيرها فعال في منطقتها وتتمتع باحترام الناس من حولها . وبناء على روايات ذلك الرحالة يبدو أن مسلمي الصين في وقت زيارته كانوا من العرب والفرس وأصول عرقية أخرى . وكانوا يتركزون في المدن الساحلية حيث يقيمون في أحياء منعزلة ومتميزة ، وكانوا يشتغلون بصفة أساسية في التجارة . ومن الواضح أن الرحالة الشهير لم يكن يدرك كثافة السكان المسلمين الذين كانوا يتركزون في الشمال الغربي في الصين (كانسو وشاني) وفي الجنوب الشرقي من البلاد (يونان) فضلا عن أماكن أخرى . وقد كان هؤلاء من المسلمين المهاجرين وذرياتهم المولودة في الصين إلى جانب غيرهم من السكان الهويين الذين دخلوا في الإسلام والذين أشارت إليهم المصادر الصينية والرحالة الأوروبي ماركوبولو والمؤرخ المعاصر رشيد الدين . وقد كتب هؤلاء عن الإسلام والمسلمين في الصين قبل ابن بطوطة بزمن طويل مما يدل على رسوخ قدم الإسلام هناك .

ووراء النطاق المحدد للدوائر التجارية والحضارية في المدن الساحلية التي اجتازها ابن بطوطة بصفة أساسية ، وجدت في الواقع جماعات مسلمة كبيرة في بلاد الصين . وقد تأقلم هؤلاء السكان الذين أقاموا في المناطق الداخلية نتيجة الاستيطان والمصاهرة ، وتزايدت أعداد هؤلاء باطراد نتيجة زيادة معتنقي الإسلام . ولم يكن كل هؤلاء المسلمين الصينيين الذين رآهم الرحالة ووصفتهم المصادر الصينية في القرن الثامن للهجرة / القرن الرابع عشر للميلاد مهاجرين أجانب في نهاية العهد المغولي على الأقل .

في عهد أسرة مينج :

خلفت أسرة مينج المغول في الحكم في سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م و لم يعامل حكامها السكان المسلمين على أنهم عناصر أجنبية بأية حال بل على العكس ، عامل الحكام الجدد أولئك السكان المسلمين بكل تقدير ومنحوهم امتيازات عديدة كي يكسبوا ثقتهم في الحكم الجديد . وتبرز تلك الحقيقة أن السكان المسلمين كانوا قد أصبحوا وقتذاك عنصرا هاما في المجتمع الصيني والحياة السياسة الصينية .

ومن هنا يتوافر لدينا في عهد أسرة مينج (٧٠١ – ١٠٥٤هـ / ١٣٠٠ – ١٦٤٤م) أولى الدلائل الجلّية على انتشار الإسلام في داخل البلاد نفسها،وليس نتيجة الهجرة من الخارج إليها .

فأولا : اضطلع المسلمون الصينيون المولودون في البلاد بدور بارز في مختلف جوانب الحياة الصينية اجتماعية وثقافية وتجارية وبحرية ، فضلا عن مناصبهم كحكام إداريين وضباط.ونعرف في هذا العهد اثنين على الأقل من المسلمين الصينين تركوا بصماتهم لا على تاريخ الصين فحسب وإنما على تاريخ الإسلام أجمع وهما الحاج تشنج هو وماهوان اللذان ولدا في مقاطعة يونان وبرزا كملاحيين ودبلوماسيين ورجلا دعوة للإسلام، فاستطاعا فيما بين عامي ٨٠٨ – ٨٣٧هـ / ١٤٠٥ – ١٤٣٣م (أي في نصف القرن الأول من حكم أسرة مينج) تكوين أسطول صيني وقادا نحو سبع حملات بحرية ودبلوماسية زارا خلالها ٣٥ بلدا من بينها أندونيسيا والبنغال والهند الجنوبية وجزيرة العرب. وقاما بارتياد شرقي المحيط الهادي والمحيط الهندي حتى أرض الصومال والحجاز[٢٥] .

وثانيا : أقام الحكام من أسرة مينج كسابقيهم من حكام الصين علاقات دبلوماسية وتجارية مع مختلف البلدان الإسلامية.وكانت البعثات التي قام بها تشنج هو وماهوان إلى بلاد جنوب شرقي آسيا جزءا من تلك السياسة العامة . كذلك أوفدت بعثات دبلوماسية إلى ملوك المسلمين في إيران وآسيا الوسطى . وكانت إحدى النتائج الهامة لهذا الاتصال المستمر بالعالم الإسلامي أن ظل التجار المسلمون والعلماء والدعاة يتوافدون على بلاد

الصين . وكان من آثار إحدى البعثات التي وجهت إلى بلاط سمرقند في عام ٨١٥هـ / ١٤١٢م أن شاه روخ الحاكم التيموري هناك،أرسل إلى إمبراطور الصين مبعوثه عبد الرزاق السمرقندي برسالتين كتبتا بالعربية يدعوه فيهما إلى الإسلام . ويبدو أن هذا الحاكم من أسرة مينج لم يعتنق الإسلام فعلا لكن تولدت عن الحادث قصة - كما يذكر أرنولد - تقول أن أحد أباطرة الصين اعتنق الإسلام .

ثالثا : على الرغم من أن الحكام من أسرة مينج لم يتحولوا إلى الإسلام.فإنهم نصّوا في مراسيمهم على تقديم سائر التيسيرات الممكنة لرعاياهم المسلمين وأعطوهم الحرية الكاملة في ممارسة دينهم بل قاموا ببناء المساجد لهم . وتجمع كل المصادر على أن عددا كبيرا من المساجد قد أقيم في المدن الهامة في الصين في عهد أسرة مينج . ويدل ذلك على تزايد المسلمين في الصين بصورة مطردة وشهد بذلك سيد علي أكبر التاجر الفارسي المسلم الذي زار الصين ومكث فيها عددا من السنين في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر للهجرة / نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين.فقد ذكر أن السكان المسلمين في الصين كانوا كثيري العدد وأن مدينة كانجانفو وحدها كان بها أكثر من ٣٠,٠٠٠ أسرة مسلمة ، وأنهم نعموا بمزايا خاصة كالإعفاء من الضرائب والحصول على الأرض دون مقابل وحرية أداء شعائر العبادة بل والدعوة إلى الإسلام والتي يقابلها السكان بكل تقدير . ومما لاحظه هذا التاجر كذلك أن الإمبراطور قد بنى للمسلمين على نفقته الخاصة عددا من المساجد : من ذلك أربعة مساجد كبيرة في العاصمة بكين فضلا عن تسعين مسجدا في الأقاليم[٢٧] .

رابعا : ومن أهم الدلائل الجليّة على انتشار الإسلام في الصين من داخل البلاد نفسها ورود أول إشارة إلى تلقي الصينيين للإسلام بل وتعرفهم على أمور الدين من دعاة وعلماء صينيين . فقد جاء في دراسة حديثة لأحد الصينيين المسلمين أن مسلما صيني المولد من أبناء مقاطعة يونان اسمه كونج تاسو أمضى جل حياته في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي يجمع حوله جماعة من الشباب الصيني المسلم.وقد أنشأوا مدرسة في أحد مساجد يونان للعلوم الإسلامية من فقه وتفسير وحديث وما إليها إلى جانب اللغة

العربية . و لم تكن الدراسة في هذه المدرسة لعدد معين من السنين وإنما كان نجاح الطالب يتوقف على تقدمه وقدرته . فإذا أبدى مايدل على أنه قد بلغ مستوى معينا من العلم والمعرفة المتخصصة يمنح شهادة وعلامات مميزة ويعهد إليه بالتعليم والدعوة . وقد تطورت المدرسة التي أقامها كونج تاسو حتى تحولت إلى مركز عظيم للعلوم الإسلامية وصار لهذا الصيني المسلم شهرة واسعة حتى أطلق عليه لقب « معلم المعلمين »[٢٨] . وواصل تلاميذه العديدون جهود شيخهم بعد وفاته وحذوا حذوه في إقامة مؤسسات مماثلة لتعليم الدعاة وأئمة المساجد المختلفة القائمة في المقاطعات الصينية الأخرى . وقد استمرت تلك الجهود التعليمية الإسلامية في العهود التالية دون توقف إلى وقت الثورة الثقافية التي قامت في الستينات من القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي،وذلك بعد أن صارت الصين تحت الحكم الشيوعي . ويرجع الفضل في بقاء الإسلام في الصين على الرغم مما تعرض له من محن إلى حد كبير – كما ترى الدوائر العلمية الصينية – إلى تلك المدارس التي أقيمت في المساجد .

ومن بين الذين أنجبتهم تلك المدارس من علماء أجلاء برزت أسماء أربعة في نهاية عهد أسرة مينج وفي أثناء حكم أسرة مانشو التي جاءت بعدها . في مقدمتهم الشيخ وانج داي يو (حوالي ٩٦٨ – ١٠٧١هـ / ١٥٦٠ – ١٦٦٠م) ، ويبدو أنه كان أول مسلم صيني يكتب عن الإسلام باللغة الصينية ، وتلك حقيقة تدل على مدى حاجة الصينيين المسلمين إلى التزود بالمعرفة الإسلامية . وقد كتب وانج داي يو عددا من الكتب كان من أشهرها كتاب « الأجوبة الصحيحة عن الدين الحق » وكتاب « حقيقة الإسلام » وتلا ذلك الشيخ من حيث الترتيب الزمني الشيخ ماتسو (١٠٥٠ – ١١٢٣هـ / ١٦٤٠ – ١٧١١م).وقد ألف كتابا ضخما عن الإسلام في عشرة أجزاء بعنوان « إرشاد الإسلام » طبعت منه عدة طبعات . أما ثالث العلماء فهو الشيخ لوتشية (١٠٦٦ – ١١٥٨هـ / ١٦٥٥ – ١٧٤٥م) وهو معروف من خلال مؤلفاته العديدة التي منها « حقائق الإسلام » في ستة أجزاء و « سيرة خاتم الأنبياء » في عشرين جزءا و « أحكام الإسلام » في عشرين جزءا كذلك . وآخر أولئك العلماء المبرزين من حيث

الترتيب الزمني هو الشيخ مافوتسو (١٢٠٩ - ١٢٩٠هـ / ١٧٩٤ - ١٨٧٣م) . وقد عرف بسعة علمه ومعرفته وتحرى الدقة ومن مؤلفاته المشهورة « خلاصة أصول الدين الأربعة » و « مقصد الحياة » و « التعريف بروح الإسلام » و « أحكام الدين »[٢٩] .

ولا نحتاج إلى القول إن كلا من هؤلاء إنما كان يمثل جيلا من العلماء الذين تضافرت جهودهم في نشر الإسلام وتعليمه في الصين . حتى إذا كانت نهاية حكم أسرة مينج (القرن الحادي عشر الهجري / منتصف القرن السابع عشر الميلادي) ، كان الإسلام قد انتشر انتشارا واسعا في الصين وصار فيها جماعة ضخمة من السكان المسلمين . وعلى الرغم من أن هؤلاء المسلمين كانوا موزعين في شتى أنحاء الصين فإنهم كانوا يتركزون في ثلاث مناطق هي : موانئ السواحل الشرقية والأجزاء الجنوبية الغربية من مقاطعة يونان والإقليم الشمالي الغربي من كانسو وشانسي . وإذا كان مسلمو الموانى الساحلية هم سلالة التجار المسلمين من العرب والفرس من زوجات صينيات ، فإن المسلمين في مقاطعة يونان وغيرها من المناطق الداخلية من الصين كان أغلبهم من سلالة من أسلموا من أبناء الصين أنفسهم ، مع اختلاط يسير بينهم وبين المسلمين الوافدين من الخارج . وكان مسلمو الإقليم الشمالي الغربي من كانسو وشانسي ينتمي أغلبهم إلى الأرومة المغولية والتركية مثل اليوغور والأوزبك والقازاق والتتار وكان يطلق لفظ (هوى هوى) عادة على من ولد مسلما من المسلمين الصينيين الذين أسلموا من قبل ، لكنه قد يطلق أيضا على المسلمين الصينيين بوجه عام .

سياسة الاضطهاد وثورات المسلمين في عهد أسرة مانشو :

لقد ظل الإسلام ينعم بالنمو المطرد في الصين في هدوء وسلام طوال مايقرب من ألف عام . لكن بتولي أسرة مانشو الحكم في عام ١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م أخذ المسلمون يجتازون فترة مظلمة من المتاعب والمحن .

فهناك مايدل على أنه بعد ٤ سنوات فقط من بداية حكم هذه الأسرة (أى في عام ١٦٤٨م) ، قام المسلمون في كانسو بثورة شاملة أخمدت بقسوة . وليس لدينا تفاصيل عن ذلك الحادث الهام ، وإن كان وقوعه على إثر تولي تلك الأسرة الحكم مباشرة يؤكد

دون شك حقيقة الدوافع السياسية للصدام . فقد تزايد عدد المسلمين ونفوذهم في المجالات الاجتماعية والسياسية خلال عهد الأسرة الحاكمة السابقة حتى أن إخماد ثورتهم صار واقعة تاريخية وأحد المعالم الواضحة في سياسة الحكام الجدد .

ومما زاد أحوال المسلمين الصينيين سوءا في ذلك العصر أنهم كانوا بمعزل عن مسلمي العالم نتيجة تطور الأحداث الدولية إذ ذاك . فلقد ظهر البرتغاليون والأسبان فى المحيط الهندي وشرقي المحيط الهادي وقضوا على السيادة البحرية والتجارية للمسلمين . كما أدى تولي الصفويين الحكم في فارس وفرضهم المذهب الشيعي على سكانها إلى قيام حاجز بين المسلمين الشيعة في فارس وبين المسلمين السنيين في الصين ، في حين انشغل الأتراك العثمانيون عن إخوانهم المسلمين في الصين بتثبيت سلطانهم في البلاد العربية والأوربية التي خضعت لهم . وقد أتاحت ظروف تلك العزلة التي أحاطت بمسلمي الصين أن يمارس حكام أسرة مانشو اضطهادهم للمسلمين دون أن يخشوا شيئا . وهكذا استمرت عمليات الاضطهاد من جانب الحكام وعمليات المقاومة من جانب المسلمين طوال العقود التالية . حتى إذا كان عام ١١٤٤هـ / ١٧٣١م أصدر الإمبراطور يونج تشن عرضًا لسياسته إزاء المسلمين . وقد جاء فيه « إذا دلل المسلمون بسلوكهم على أنهم رعايا أوفياء فإني أبسط عليهم رضاي كما أبسطه على أبنائي الآخرين . فمن يعمل منهم صالحا فسيجزى جزاء حسنا ومن يعمل شرا فسيلقى عذابا » . ويبدو أن هذا المرسوم كان مقدمة لسلسلة من الإجراءات المتعسفة ضد المسلمين ، فبعد ثلاثين عاما فقط أى في عام ١١٧٥هـ / ١٧٦١م ، قامت ثورة إسلامية كبيرة أخرى في المنطقة الشمالية الغربية وبخاصة في كاشغر . وقد أخمدت هذه الثورة الأخرى بيد من حديد وكافأ الإمبراطور كين نيج اثنين من الضباط الأتراك في الجيش الإمبراطورى على جهودهم البارزة في إخماد تلك الثورة وبنى لهما قصورا في بكين العاصمة ، في حين قبض الإمبراطور على عدد كبير من مسلمي كاشغر باعتبارهم أسرى ونقلهم إلى العاصمة . وكان من بين هؤلاء الأسرى فتاة جميلة اتخذها الإمبراطور زوجة له ، ومن أجلها ولحاجة المسلمين الكثيرين في العاصمة بنى الإمبراطور مسجدا

كبيرا على مقربة من القصر الإمبراطورى (١١٧٧ - ١١٧٨هـ / ١٧٦٣ - ١٧٦٤م) . وبلغ من قسوة العقاب الذي أوقع بمسلمي كاشغر أن منطقة زنجاريا كادت أن تكون خالية من السكان ، فنقل إليها الإمبراطور في عام ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م نحو عشرة آلاف من المستوطنين العسكريين من شتى أنحاء الصين ومعهم أسرهم وأقرباؤهم . ومما تجدر الإشارة إليه أن هؤلاء جميعا اعتنقوا الإسلام على مر الزمن متأثرين بجيرانهم المسلمين من حولهم(٣٢) .

وفي خضم هذا العسف والاضطهاد تابع المسلمون جهادهم في سبيل حريتهم الدينية والثقافية كما تابعوا الدعوة إلى الإسلام والاتصال بالمسلمين في المقاطعات الصينية الأخرى ، فقد روى مثلا أن حاكم كوانج سي ألقى القبض في عام ١١٩٩هـ / ١٧٨٣م على أحد دعاة الإسلام من كانسو وكان معه عدد من الكتب والنشرات عن الإسلام مما ظنه الحاكم بوادر ثورة آتية من تلك الجهة(٣٣) . والواقع أنه قد اندلعت ثورة عارمة في المنطقة الشمالية الغربية استمر أوارها بين عامي ١١٩٧ - ١٢٠١هـ / ١٧٨١ - ١٧٨٥م . وقد قام الإمبراطور تشين لونج بقمع هذه الثورة بمنتهى القسوة حتى راودته فكرة القضاء نهائيا على مسلمي المنطقة ، ومع ذلك لم تنقطع الثورات الإسلامية العنيفة طوال القرن الثالث عشر الهجري / القرن التاسع عشر الميلادي .

وفي يونَّان كانت هناك تسع ثورات ثانوية تبعتها ثورة أخرى على نطاق واسع بزعامة توون هسيو الذي كان يعرفه السكان باسم سليمان شاه . وقد ظلت هذه الثورة قائمة طوال سبعة عشر عاما لكنها أخمدت في النهاية وقتل آلاف المسلمين . وفي نفس الوقت حمل المسلمون جميعا في الشمال الغربي من الصين السلاح في وجه الاضطهاد الذي كان يمارسه حكام هذه الأسرة ضد أطول الثورات في كانسو ، وأعنفها التي امتدت من عام (١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م) حتى عام (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) . وقد تزعمها اثنان من قادة المسلمين هما ماهوالنج وماتشان سو ومعهما يعقوب بك من كاشغر . وعلى الرغم من هلاك أكثر من عشرة ملايين من السكان في تلك الثورة فإن ثورات كانسو لم تنقطع ، فقد قامت ثورة أخرى هناك قرابة نهاية القرن في عام ١٣١٣ - ١٣١٤هـ / ١٨٩٥ - ١٨٩٦م(٣٥) .

سقوط أسرة مانشو وقيام النظام الجمهوري :

رحب المسلمون بسقوط أسرة مانشو وقيام النظام الجمهوري في عام ١٣٣١هـ / ١٩١١م،وفي نفس هذا العام تألفت في بكين « حركة التقدم الإسلامي العام » وصار لها نحو من ثلاثمائة فرع في مختلف أنحاء البلاد خلال عامين فقط[٣٦] . وفي شهر يناير من سنة ١٩١٦م عقد أكثر من ٣٠٠ زعيم ديني (أهنج) من المقاطعات الشمالية مؤتمرا في بكين هدفه العمل على نشر الإسلام وتنمية روح التعاون بين المسلمين وتوحيد العادات والتقاليد والقوانين والتعريف بمحاسن الإسلام والتخطيط للأساليب والوسائل التي تجعل من المسلمين جميعا قوة دينية لها اعتبارها . وقد ألف المؤتمر منظمة سميت « مؤتمر الجماعة النقية الحقة » واتخذ أحد المساجد مقرا لها في حي تشباتو هوتنج ، خارج بوابة تشن تشيه . وتولى أعمال هذا المؤتمر تشانج تشن ووان جن لان ، وآن تشان ، ولي تسخ تشنج[٣٧] .

لكن مالبثت أن واجهت البلاد مشكلات سياسية وتعرضت أراضيها للتجزئة . فظهر بعض الزعماء العسكريين الذين كان همهم النهب والسلب،مما أدى إلى المزيد من ثورات المسلمين في كانسو في العشرينات الأخيرة التي قتل فيها مليونان من السكان[٣٨] . كذلك عانى المسلمون في أنحاء الصين الأخرى الكثير من المصاعب[٣٩] .

وعند غزو اليابانيين للصين في عام ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م ألف المسلمون في الجنوب الغربي من البلاد « الاتحاد الصينى لتحرير المسلمين » ، وكان النفوذ الشيوعي يتزايد في البلاد في نفس الوقت . وفي عام ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م وجّه ماوتسي تونج مناشدة للمسلمين وعدهم فيها بحسن المعاملة واحترام عقائدهم الدينية . وتكونت فصائل من المسلمين في الجيش الأحمر وبرزت جهود الفرقة الإسلامية « التي لا تقهر » في القتال ضد اليابانيين تحت زعامة مايني كشاى . وعلى إثر قيام جمهورية الصين الشعبية في عام ١٣٦٩هـ / ١٩٤٨م عومل المسلمون معاملة طيبة نظرا لحاجة النظام الشيوعي إلى توطيد العلاقات مع البلدان الإسلامية . وفي عام ١٣٧٣ - ١٣٧٤هـ / ١٩٥٣م تكون « الاتحاد الإسلامي » وظهرت مجموعة من المقالات والمطبوعات للتعريف بالإسلام

والمسلمين في الصين ، عن طريق أجهزة الصحافة التي كانت تخضع للدولة(٤٠) .

و لم تكن تلك المعاملة الطيبة للمسلمين من قبل حكام الصين الشيوعيين تعبيرا صادقا عن سياسة دائمة ، وإنما كان هدفها الدعاية للحكم الجديد في الصين بين بلدان العالم الإسلامي . و لم تجر أمور المسلمين في الصين وقتذاك في يسر حيث بدأت الاضطرابات المتعددة في صفوفهم مما يدل على أن المد الإسلامي قد أخذ يصطدم بعقبات قوية . وقد بدت علامات التراجع منذ عام ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م ولاسيما عندما قامت محاولات ترمي إلى تحويل كتابة « اليوغور » من العربية إلى اللاتينية.ثم أعلنت الثورة الثقافية في الستينات عداءها للإسلام وتأكدت معاناة مسلمي الصين من ممارسات الحرس الأحمر خلال تلك الفترة.وتكونت جماعة أطلقت على نفسها اسم « الجهاد الثورى للقضاء على الإسلام ».وهوجمت دراسة اللغة العربية على أساس أنها دخيلة على الصين وشعبها وتاريخها كما انتقدت عادة الختان(٤١) .

وبهذا يكون المسلمون قد أمضوا ثلاثة قرون (مابعد منتصف القرن ١١هـ حتى الثمانينات من القرن ١٤هـ / من منتصف القرن السابع عشر الميلادي حتى الستينات من القرن العشرين الميلادي) في صراع مرير في سبيل البقاء وتعرضوا في أثناء تلك الفترة المظلمة إلى سلسلة متعاقبة من المصائب والمذابح التي أسفرت عن موت الكثير منهم على مرّ الأيام فتناقصت أعدادهم باطراد . ولا نجد معلومات يمكن الاعتماد عليها عن أعدادهم في الصين في الوقت الحاضر.وقد ذكر دى تيرسانت الذي كان يعمل قنصلا عاما لفرنسا في الصين أن عدد المسلمين هناك كان نحوا من عشرين مليونا(٤٢) في عام ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م،بينما ذكر موظف صيني اسمه السيد سليمان في يونان في لقاء معه بالقاهرة في عام ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م أن عدد مسلمي الصين بلغ سبعين مليونا.وذكر طالب صيني يدرس في مصر يسمى عبد الرحمن (شوال – ذو القعدة ١٣٢٤هـ / في ديسمبر ١٩٠٦م) أن عدد المسلمين في بلاده بلغ ٣٤ مليونا ويعادل بذلك ١/ ١٢ من مجموع سكان الصين(٤٣) .

وتثور الشكوك حول دقة هذه الأرقام ، ولكن مهما تكن الحقيقة ، فإنه لايمكن إنكار أن عدد المسلمين في الصين قد ازداد بدرجة كبيرة في سني القرن الماضي التي أعقبت

توقف المذابح الجماعية المقترنة بقمع الثورات الإسلامية بالصين ١٢٧٢ - ١٢٩٠هـ / من ١٨٥٥ إلى ١٨٧٣م كما قرر توماس أرنولد . ولكن ثورات شانسي وكانسو في ١٢٨١ - ١٢٩٤هـ / ١٨٦٤ - ١٨٧٧م و ١٣١٣ - ١٣١٤هـ / ١٨٩٥ - ١٨٩٦ م ، كانت قد قللت من أعداد المسلمين بالملايين . وقد قام دعاة النصرانية خلال الربع الأول من القرن العشرين بتقديرات إحصائية لسكان الصين المسلمين جاءت تقريبية لطبيعة الحال وغير كاملة . فذكر مارشال بروومهول في عام ١٣٣١هـ / ١٩١١م أن عدد مسلمي الصين حوالي عشرة ملايين(٤٤) . وبعد ثلاث سنوات قام تشارلز أو جليفي من بعثات التنصير الأمريكية في بكين ، بمحاولة أخرى لتقدير عدد السكان المسلمين في تلك المدينة فزار كل المساجد في بكين وما حولها وذكر أن مجموعها بلغ اثنين وثلاثين مسجدا وأنه كان في بكين قرابة ستة آلاف أسرة مسلمة (وهكذا يكون إجمالي عدد المسلمين في المدينة ثلاثين ألفا تقريبا)(٤٥) وفي عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م أعد تقرير خاص بمقاطعة منشوريا جمع فيه المؤلف معلوماته من العلماء المسلمين المحليين في مويكدن وأشيهو ومن المقاطعة الشمالية ، وذكر بأنه لم يجد مسلمين في جزء كبير من مقاطعة مويكدن والأجزاء الأخرى من المقاطعة وأن عدد السكان المسلمين في المناطق التي مسحها بلغ أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة وأنه كان هناك ثلاثة مساجد في مدينة مويكدن بكل واحد منها عالم ديني من خارج المقاطعة وثلاثة علماء محليين(٤٦) .

وفي سنة ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م قامت البعثات التنصيرية بإجراء إحصاء للإسلام في الصين لأجل تنظيم العمل التنصيري في كل مركز من المراكز الهامة للسكان المسلمين(٤٧) . وتقرر نتائج هذا المسح أنه لم يمكن الحصول على معلومات من مناطق عديدة لم تدخلها البعثات التنصيرية ، وأن بعض المناطق لم يمكن دراستها بسبب الصراع السياسي وما نجم عنه من فوضى واضطراب(٤٨) . والتقدير الذي أمكن توصل تلك البعثات إليه مع تلك العراقيل أن عدد المسلمين الإجمالي يبلغ حوالي عشرة ملايين وقد نشرت خريطة جرى توزيع الملايين العشرة عليها(٤٩) . كما ذكر تقرير هذا المسح - في مذكرة خاصة - حقائق مهمة عن اثني عشر مركزا إسلاميا رئيسيا في الصين ، ألقت الضوء على حالة الإسلام في الصين في ذلك الوقت وقد جاء فيها :

١ – بكين يوجد في هذه المدينة وبالقرب منها ٣٦ مسجدا وفي أحدها (مسجد تشياوتسو – هو – تاأنج) يقوم مقر حركة التقدم التعليمي الإسلامية .. ويتراوح عدد سكان بكين المسلمين مابين ٣٥ و ٤٠ ألفا ، ويكثر عددهم في القرى المحيطة بالمدينة . ويزيد تقدير هذا المسح حوالي أربع عشرة أو خمس عشرة مرة عن التقدير الذي ذكره أوجيليفي في سنة ١٣٣٤هـ / ١٩١٤م .

٢ – تينتسين : يوجد بها وما حولها ١٣ مسجدا و ٢٠,٠٠٠ أسرة مسلمة .

٣ – نانكنج : يوجد بها حوالي ٢٧ مسجدا معظمها صغير ، وكان في هذه المقاطعة حوالي خمسة آلاف أسرة مسلمة ولكن الوضع السياسي السائد أجبرها على الهجرة .

٤ – تسينان : يوجد بها مسجدان كبيران وستة مساجد صغيرة و ٤ آلاف أسرة مسلمة .

٥ – كايفنج : عاصمة مقاطعة يونان التي يوجد بها ٣٠٠ مسجد كما اشتهرت بمراكزها التعليمية لتخريج العلماء المسلمين وبمساجدها المخصصة للنساء وبمدارسها الابتدائية الإسلامية . وعندما زار الدكتور زويمر الصين في عام ١٣٣٦ – ١٣٣٧هـ / ١٩١٧م أدرك الجذور الإسلامية العميقة في هذه المقاطعة.وصدرت مذكرة تحذر من أهمية موقعها ، وتأثيرها ، فهي المفتاح لكانسو المتحفظة البعيدة كما أنها قريبة من مقاطعة شينسي التي لم يقربها الإسلام بعد.ومن ثم توصي المذكرة بأن تلقى هذه المقاطعة اهتماما خاصا من القائمين بالتنصير . ويجب أن تبذل جهود دائبة للتأثير على عاصمتها كايفنج التي تشتمل على مساجد سبعة للرجال وثمانية للنساء وتضم ثلاثين من علماء الإسلام فيما يجرى إعداد ١٢٠ لينضموا بعد تخرجهم إلى زملائهم القائمين الآن . وتعيش في تلك العاصمة ٣٥٠٠ أسرة مسلمة وتنتشر فيها المدارس الإسلامية للأولاد والبنات .

٦ – سيان : تلقى هذه المدينة اهتماما خاصا من العاملين في مجال الدعوة الإسلامية إذ هي من بواكير المراكز الإسلامية في الصين ويوجد بها الآن ٨ مساجد ، بكل مسجد مدرسة ، ويعيش بها حوالي ٢٠,٠٠٠ مسلم .

٧ – تشنجتو : هي عاصمة سزيشوان التي عانت من الصراع الأهلي ، ولكن لايزال

المسلمون عنصرا مهما في تكوين المدينة ويوجد بها « مسجد » وينتمي إليها بعض العلماء والمؤلفين المشهورين وفيها ٢٣٠ أسرة مسلمة ، ويبدو هذا التقدير منخفضا .

٨ – يونافو : مركز الإسلام القوي التي مازالت مساجدها السبعة تعمل بنشاط وتضطلع بتخريج علماء الدين وتقوم المعاهد الخاصة بتعليم الأئمة على مسيرة يومين .

٩ – كانتون : يبلغ مجموع المسلمين فيها مابين ٢٥ و ٣٠ ألف مسلم تقريبا وفي المدينة سبعة مساجد فضلا عن مساجد أخرى قليلةليست بعيدة عنها . (فى تشنج هنج وهونج كونج وساما وغيرها) .

١٠ – كويليبي : بها ٧ مساجد .

١١ – لانشو : عاصمة كانسو وهي مقر الجمعية الإسلامية المختصة بالتعليم ويمتد نشاطها إلى كل أرجاء المقاطعة ، وتعتمد على الأموال التي يقدّمها المسلمون البارزون في المنطقة .

١٢ – كيرين مويكدن وكويهواشنج : يذكر المسح المشار إليه في تقرير خاص عن مقاطعة كانسو أن بها عدة مئات من المساجد . ففي هوتشو المركز الإسلامي الرئيسي في كانسو يجرى تعليم المسلمين ليصبحوا أئمة وعلماء وتعيش في لانشو عاصمة المقاطعة (التي تبعد بمسيرة يومين ونصف عن هوتشو) آلاف الأسر المسلمة وبها أكثر من عشرة مساجد . وفي ضاحية سننج مسلمون كثيرون وقد شيد بها حديثا عدة مساجد تكلف أحدها مبالغ طائلة . وفي منطقة ننجسيا أيضا مسلمون عديدون[٥٠] .

هذه هي التقديرات التقريبية غير الكاملة لعدد السكان المسلمين في الصين قبل نشوب ثورات الأربعينات من القرن الرابع عشر الهجري / العشرينات من هذا القرن الميلادي من اضطهادات ألمت بالمسلمين في العقود التالية .

وقد ذكرت الجمعية التقدمية الإسلامية الصينية في مقدمة النسخة المترجمة إلى الصينية من معانى القرآن الكريم المنشورة في عام ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م أن عدد المسلمين يصل إلى حوالي ثمانين مليونا[٥١] .

وأعلنت سلطات كومينتانج رسميا في عام ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م أنه يوجد ثمانية وأربعون مليون مسلم في الصين[٥٢] وفي سنة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م ذكرت الحكومة الشيوعية للصين أن عدد المسلمين بالصين يبلغ عشرة ملايين نسمة ولعل الهوة العميقة بين أرقام كومينتانج والحكومة الشيوعية إذا اعتبرناهما صحيحين كليهما قد تثير في الذهن تساؤلا حول مصير ثمانية وثلاثين مليون مسلم خلال تلك الفترة[٥٣] . وإذا أخذنا بالتقدير الشيوعي الأخير أو بالتقديرات غير المكتملة للدوائر التنصيرية في ١٣٣١هـ (١٩١١م) و ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) يمكن الافتراض بأن الرقم قد يصل إلى قرابة ستة عشر مليون مسلم صيني[٥٤] . وهو رقم ليس بالقليل إذا ماقورن بعدد السكان المسلمين في بعض الأقطار الإسلامية .

الهوامش

(١) الكاتب الصيني المسلم الشهير الذي سجل الرواية هو (ليوشياى لين) أو (ليوشيه) الذي رواها بالتفصيل في كتابه « سيرة النبى الخاتم » الذى ترجمه إلى الإنجليزية إسحاق ماسون Issac Mason تحت عنوان النبى العربي The Arabian Prophet ، طبع في شنغهاى عام ١٩٢١م . يلي ذلك في الأهمية في تسجيل الرواية الكتاب الصيني الإسلامي : Hui Hui Yohan lai الذي كتب قبل الكتاب المذكور أعلاه ، وقد ترجم جزئيا إلى الإنجليزية على يد : مارشال برومهال Morshall Bromhall في كتابه الإسلام في الصين : مشكلة مهملة « Islam in China , A Neglected Problem » طبع لندن ١٩١٠م .

(٢) ناقش هذه النقطة بإسهاب ماسون في مقالته : مسلمي الصين « The Mohomedans of China » في مجلة شمال الصين :

- The Journal of North China , Branch of Royal Asiatic Society , Vol LX, 1929 , pp 43 - 78 .

وظهر تلحيص للنقاط الموضوعية من المقال فى مجلة العالم الإسلامي ، المجلد ١٩ ، عام ١٩٢٩م ، ص ٢٤٩ – ٢٦٣ تحت عنوان « كيف دخل الإسلام الصين » .

(3) The Moslem World , vol XIX , 1929 , p 242 .

(4) Ibid , p 253 .

(5) Ibid , vol XIX , 1929 , p 257 .

(6) Arnold : The Preaching of Islam , Lahore 1964 , p. 299 .

(7) Forbes (A.D.W.) « The Muslim National Minorlties of China » .

- Journal of Religions , London , Vol VI spring , 1976 , p 72 .

(8) Andrew (G = F) : « The Crescent in North West China » , London 1921 .

(9) Yule (Sir H) « Cathay and Way Thither » , Hakluyt Socity , London , 1866 , p 89 .

(10) Arnold : op . cit , pp 297 - 298 .

(11) The Moslem World , vol XII , 1922 , pp 172 - 173 .

(12) Ibid , p. 173 Also Marchall Broomhall « Islam IN China » , London 1910 , p 50 .

(13) Bretschneider (E.) : « Chinese Medieval Notices of Islam » The Moslem World . vol XIX , 1929 / p 53 .

(14) Abd al - Rahman Najung « A short History of the Arabs in the Middle Ages » , Peking , p 131 .

(١٥) فهمي هويدى : الإسلام في الصين (الكويت ١٩٨١) ، ص ٥٣ – ٥٤ .

(١٦) المرجع نفسه ، ص ٥٤ .

(17) Breichneider : op. cit., p 57 .

(18) Ibid., pp. 60 - 61 .

(19) Ibid , P 59 .

(٢٠) فهمي هويدي : مرجع سابق ، ص ٦٢
فيصل السمر : الأصول التاريخية للحصارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى ، ص ١٢٥ .

(٢١) حياته ونشاطاته موصوفة بالتفصيل في سجل التاريخ المغولي الرسمي وكذلك في كتاب رشد الدين « جامع التواريخ » وفي رواية بعثة ألون : The Mission d'Ollone .

(٢٢) فهمي هويدي : مرجع سابق ص ٦٣ . فيصل السمر مرجع سابق ص ١٢٥ .

(23) Yule : op ; cit., vol 1, pp9, 269 .

(٢٤) رحلة ابن بطوطة ص ٥٣٠ – ٦٤٦ .

(25) See generally T. Filesi , « China and Africa in the Middle Ages », London 1972 .

(26) Arnold : op. cit, pp. 302 - 305 .

(27) Ibid .

(٢٨) فهمي هويدي : مرجع سابق ص ٨٢ – ٨٣ .

(٢٩) المرجع نفسه ، ص ٨٧ .

(30) Arnold, op. cit, p 306 .

(31) Ibid, p 307 .

(32) Ibid p 308 .

(33) Ibid, p 309 .

(34) Andrew D. W. Forbes : 0i/2 cit, 974 .

(35) Central Asiatic Journal , vol 3 no 4 , 1958. pp 309 - 16 .

(36) The Moslem World , vol XIV , 1924, p 263 .

(37) Ibid , VI , 1916, pp. 301 - 307 Also vol XIII , 1923 , pp 291 - 299 .

(38) Ibid , vol XIX , 1929, pp 291 - 298 , Forbes , op. cit. p 77 .

(٣٩) من هذه المقالات على سبيل المثال :

« How Muslims Live in China » , China Reconstructs . Maick - April 1953 pp 13 - 15 .

(40) Bush (R) : « Religion in Communist China » . Nashville , 1970 .

Yand - i - fan , « Islam in China » And « Muslim Unrest in China » , Hongkong 1958 .

(41) Forbes : op. cit., p 80 .

(42) The Moslem World , vol I, 1911, p 33 .

(43) Ibid, pp 32, 33 .

(44) Arnold : op. cit, pp 313 - 314 .

(45) The Moslem World , vol. 1, 1911, pp. 51 - 52 .

(46) Ibid , vol IV , 1914, pp 165 - 166 .

(47) Ibid , vol VI, 1916, pp 290 - 299 .

(48) Ibid , vol XI., 1921, pp 53 - 68 .

(49) Ibid , p 55 .

(50) Ibid .

(51) Ibid, pp 63 - 65 .

(52) Ibid, p 68 .

(53) Ibid, vol XXIV , 1934 , p 294 .

(54) Bush : op. cit, p 264 .

ثبت مراجع ومصادر مختارة عن
انتشار الإسلام في قارة آسيا

SELECT BIBLIOGRAPHY ON THE SPREAD OF ISLAM IN ASIA

A : General (Common to all sections)

Arnold , T.W., *The Preaching of Islam* , 2nd edition , London , 1913, reprinted Lahore , 1961 .

al-Athir , 'Izz al-Dīn Abī al-Hasan ibn 'Alī ibn Abī al-Karam Muḥammad ibn Muḥammad ibn 'Abd al-Karīm ibn 'Abd al- Wahhāb al-Shaibānī , *Al-Kāmil Fi al-Tārīkh* , 10 Vols ., Beirut print , 1399 / 1979 .

al-Balādhurī , *Futūḥ al-Buldān* , Beirut print , 1978 .

Bosworth , C.E., *The Islamic Dynasties* , Edinburgh , 1980 .

Brice , W., *An Historical Atlas of Islam* , Leiden , 1981 .

Brockelmann , Carl , *History of the Islàmic* Peoples (Tr. by Joel Carmichael and Moshe Perlmann , from the German Geschichte der Islamischen Volker und Staaten) , first English version published in England in 1949 , reprinted 1952 .

Encyclopedia of Islam (ed. T.Houtsma and others) , Leiden - Leipzig , 1913 - 1936 , 4 vols. & supplements . New Edition .

Shorter Encyclopedia of Islam , (ed. H. A. R. Gibb and J. H. Kramers , Leiden , 1953 .

Encyclopedia of Religion and Ethics (ed. Hastings) , 12 Vols ., Edinburgh , 19 .

Ezzati , Abul - Fazl , *An Introduction to the* History of the Spread *of Islam* , Second edition , London , 1978 .

Hazard , H.W., *Atlas of Islamic History* , 3rd edition , Princeton , 1954 .

Ibn Baṭṭutah , Abu 'Abd Allah Muḥammad ibn Muḥammad , Called Ibn Baṭṭutah ,Kitāb*Rihlat Ibn Baṭṭutah al-Musammah Tuḥfat al- Nazzār Fī Gharā'ib al- Amṣār Wa 'Ajā'ib al- Asfār* , 2 Vols . in Im Cairo , 932 / 1904 .

Ibn Ḥauqal , *Kitāb Ṣūrat al- 'Arḍ* , ed. J. H. Kramers , 2 Vols ., 2nd edi - tion , Leiden , 1938 - 39 .

Ibn Kathīr , Al-Hāfiz , *Al- Bidāyat wa Al- Nihāyat* , 14 parts in 7 Vols ., Third print , Beirut , 1979 .

Ibn Khallikān , Abu al - ʿAbbās Shams al- Dīn Aḥmad ibn Muḥammad ibn Abī bakr ibn Khallikān , *Wafayāt al- A'yān wa Anbā' Abnā' al- Zamān* , ed. Dr. Ihsan Abbas, 8 Vols ., Beirut , 1388 / 1978 .

Ibn Khurdadhbih , Abu al- Qāsim ʿUbaid Allah ibn ʿAbd Allah , *Kitāb al- Masālik wa al- Mamālik* , Leiden , 1889 .

al- Idrīsī , al- Sharīf , *Kitāb Nizhat al- Mushtāq Fī Ikhtirāq al- 'Afāq* , (Relevant portions translated into English with comments by S. Msqbul Ahmad under caption : *India and the Neighbouring Territories etc* ., Leiden , 1960) .

al- Isṭakhrī , Abu Isaḥāq , *Kitāb al- Masalik wa al- Mamālik* , (ed. M. J. de Goeje) , Leiden , 1927 .

al- Jauzī , Sibr ibn , *Al- Muntazam fī Tārīkh al- Mulūk wa al- 'Umam* , 7 Vols ., Hyderabad , 1357 - 59 / 1938 - 41 .

------*Mīrat al- Zamān fī Tārīkh al- Aʿyān* , 2 Vols ., Hyderabad , 1370 - 71 / 1951 - 52 .

Lane - Poole , Stanley , *The Mohammadan Dynasties* , *Chronological and Genealogical Tables* , Lonodon , 1894 .

al- Masʿūdī , Abu al- Ḥasan ʿAlī ibn al- Ḥusain ibn ʿalī , *Murūj al- Dhahab wa Maʿādin al- Jawhar* , 4 parts in 2 Vols ., Beirut print , 1978 .

Roolvink , R., *Historical Atlas of the Muslim Peoples* , Amsterdam , 1957 .

al- Sīrāfī , Abu Zaid Ḥasasn , with Sulaimān al- Tājir , *Silsilat al- Tawārikh* (extracts translated by Elliot and Dowson : Arab Geographers , reprinted Calcutta , 1956) .

al- Tabarī , *Tārikh al- Rusul wa al- Mulūk* , Beirut print , Weekes , Richard , *Muslim peoples* , *Aworld Eanagraphic survey* , London , 197 .

Yāqūt , Shihāb al- Dīn Abi ʿAbd Allah Yāqut ibn ʿAbd Allah , *Muʿjam al- Buldān* , 5 Vols ., Beirut , 1399 / 1979 .

B : *Iran (including Afghanistan) , Central Asia and Turkey*

Allworth , E. (ed.) , *Central Asia* , a Century *of Russian Rule* , New York and London , 1967 .

Barthold , V.V. *Turkestan Down to the Mongol Invasion* , 3rd edition , London , 1968 .

------*Four Studies on the History of Central Asia* , Leiden , 1956 - 63 (Translated from the Russian . Vol. I. *Ashort History of Turkestan* , Leiden , 1956 ; Vol . II. *A History of the Turkman People* , Leiden , 1962) .

Bosworth , C. E., « The Early Islamic History of Ghor » , *Central Asiatic Journal* , Vol. VI , 1961 .

------*The Ghaznavids : their Empire in Afghanistan and Eastern Iran* , 994 - 1040 , Edinburgh , 1963 .

Bobrovnikoff , Sophy , « Moslems in Russia » , *The Moslem World,* Vol . 1., 1911 , pp. 5 - 31 .

Boyle , J. A., Ed., *The Cambridge History of Iran* , Vol. V., Cambridge University press , 1968 .

------« The Journey of Het'um I,King of Little Armenia , to the Court of the Great Khan Mongke » *Central Asiatic Journal* , Vol . IX , No. 3, 1964 .

Browne , E. G., *A Literary History of Persia* , 4 Vols ., London , Cambridge , 1902 - 24 .

Bukhsh , Khuda , *Orient Under the Caliphs* , Calcutta , 1920 . (Tr. from the German of A. Von Kremer's *Geschichte der hert- chenden Ideen des Islams* , Vol. 1., Leipzig , 1868) .

Bulletin of the John Ryland Library , Vol. 12, Manchester , 1928 . pp. 137-298 . (Timothy's apology for Christianity , deli - vered before Caliph al- Mahdi in 781 A. C.) .

al- Dīn , ʿImād , *Tawārīkh al- Saljuq* , ed. M. Th. Houtsma , Leiden , 1899 .

al- Dīn , Rashīd , *Jāmiʿ al- Tawārīkh* , Vol . I., Paris , 1836 ; Vol. II , London , 1911 ; Vol . III ., Baku , 1957 .

Elias, N. and Ross, E. D., *History of the Moghls of Central Asia* , London , 1895 .

Fry , R. N., « The Samanids : a little known Dynasty » , *The Muslim World* , Vol. XXXIV , 1944 .

------« Remarks on Baluchi history » , *Central Asiatic Journal* , Vol . VI, 1961 .

Gwatkin H. M. & Whitney , J. P., *Cambridge Medieval History* , Vol. II , Cambridge , 1913 .

Gibb , H. A. R., *The Arab Conquest of Central Asia* , New York , 1970 .

------« The Arab invasion of Kashgar in A. D. 715 » , *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* , Vol. II , 1922 , pp. 467 - 474 .

Grigor of Akner , *History of the Nation of Archers* (Mongols : Armenian text with Eng . tr. and notes by P. Blake and R. N. Fry) Cambridge MSS ., 1954 .

Grousett , R., *Conqueror of the World* (Tr. from the French) , London , 1967 .

Guillume , A., « A Debate between Christian and Muslim Doctors » *Journal of the Royal Asiatic Society* , Cent. Suppl ., 1924 , pp. 233 - 244 .

------« Theodore Abu Qurra as Apologist » , *The Moslem World* , Vol . XV , 1925 , pp. 42 - 51 .

Hasan , Hadi , *A History of Persian Navigation* , London , 1928 .

Heald, Thomas B., « Moslems in the Caucasus during the war », *The Moslem World* .

Hitti , Philip Khuri , *History of the Arabs* , London , 1958 .

------*History of Syria including the Lebanon and Palestine* , London , 1951 .

------*The Origin of the Druze People and Religion,* New York , 1928 .

Holt , P. M., and others , (ed.) , *The Cambridge History of Islam,* Vols. IA & IB , Cambridge Universty Press , 1970 .

Holdsworth , M., *Turkestan in the Nineteenth* Century , London , 1959 .

Howorth , H. H., *History of Mongols* , 4 Vols ., London , 1876 - 1927 .

Hunter , G. W., « Islam in Central Asia » , *The Moslem World* , Vol. XX, 1930 , pp. 20 - 23 .

Husainī , Sadr al- Dīn ʿAlī , *Akhbār al - Daulah al- Saljuqiya* , Ed . Muhammad Iqbal , Lahore , 1933 .

Isfandiyar , Ibn., *Tarikh- i- Tabaristan* , Abridged and tr . by E. G. Browne , Leiden , 1905 .

al- Juzjānī , Abu ʿUmar Minhāj al- Dīn ʿUthman ibn Sirāj al- Dīn , *Tabaqāt - i- Nāsirī* , text ed. by Captain W. N. Lees , Maulawis Khadim Husain and Abd al- Hayy , Calcutta , 1863 - 64 . Translated from the original Persian manuscripts by H. G. Raverty , 2 Vols ., London , 1881 .

Juvainī , ʿAlā' al- Dīn ʿAṭā- Malik , *Tārīkh - i- Jahān- Gushā* . Tr . J. A, Boyle : The History of the World Conqueror , 2 Vols ., Manchester , 1958 .

Le Strange , Guy , *The Lands of the Eastern Caliphate* , Cambridge , 1905 .

------*Baghdad during the Abbasid Caliphate* , London , 1920 .

Levy , R., *A Baghdad Chronicle* , Cambridge , 1929 .

Macgovern , William Montgomery , *The Early Empires of Central Asia* , Chapel Hill , 1939 .

Mahmud , Hasan Ahmad الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي Cairo , 1972 .

Mingana , A., « A Semi- Official Defence of Islam » , *Journal of the Royal Asiatic Society* , 1920 , pp. 481 - 488 .

Minorsky , Vladimir Fedrovich , *Studies in Caucasian History* , London , 1953 .

Narshakhi , *Tārikh-i-Bukhāra* . Ed . Mudarris Ridawi , Tehran , 1938 , Tr. R. N. Fry : *The History of Bukhara* , Cambridge , Mass . 1954 .

Nazim, M., *The Life and Times of Sultan Mahmud of Ghazna* , Cambridge , 1931 .

Nicholson , R. A., *A Literary History of the Arabs* , Cambridge , 1962 .

Niẓām al- Mulk , *Siyāsat Nāma* . Ed. M. Qazvini and M. M. Chahardihi , Tehran , 1334 / 1956 ; Tr. H. Drake : *The Book of Government , or Rules of Kings* , London , 1960 .

Noldeke , Th., *Sketches from Eastern History* (tr. from the German) , London , 1892 .

Nuʿmānī , Shiblī , *Al- Farooq : Umar the Great* , Vol. I., Tr. by Zafar Ali Khan , 3rd edition , Lahore , 1947 .

Penneli, T.L., « Islam in Afghanistan » , *The Moslem World* , Vol. II., 1912, pp. 133 - 143 .

Pierce, R. A., *Russian Central Asia* , 1867 - 1917 . A Study in Colonial Rule , Berkely and los Angeles , 1960 .

Prawdin , M., *The Mongol Empire* , London , 1940 .

Sanaullah , Fadil , *The decline of the Saljuqid Empire* , Calcutta , 1938 .

Schuyler , E., *Turkistan* , London 1876 (Abridged edition , London , 1966) .

Sherwani , Nawwab Muhammad Habibur Rahman Khan , *Hadrat Abu Bakr* , Tr. by Syed Moinul Haq , Lahore , 1947 .

Skrine , F. H. B. and Ross , E. D., *The Heart of Asia* , London , 1899 .

Spector , I., *The Soviet Union and the Muslim World* , 1917 - 1958 , Seattle , 1959 .

------*The First Russian Revolution , and its impact on Asia* , Englewood Cliffs , N. J., 1962 .

Spulre , *Bertold* , *The Muslim World A Historical Survey* , Vol. I. *The Age of the Caliphs* (Tr. from the German by F. R. C. Bagley) , Leiden , 1960 .

Vol. II. *The Mongol Period* , Leiden , 1969 .

------« Central Asia Under Russian Rule » in *The Muslim World A Historical Survey , Part IV* (ed. H. Scheel and others) Leiden , 1981 .

Sykes , Sir Percy M., *A History of Persia* , 3rd edition , 2 Vols., London , 1930 .

------*A Hsitory of Afghanistan* , 2 Vols., London , 1940 .

al- Ṭabarī , ʿAlī , *Kitāb al- Dīn wa al-Daulah* , Cairo , 1923 , Tr . A. Mingana ; *The Book of Religion and Empire* , Manchester , 1922 .

Vambrey , *History of Bukhara* , London , 1873 .

Waley , A., *The Secret History of the Mongols and other Pieces* , London, 1963 .

Wellhausen , Julius, *The Arab Kingdom and its Fall* (tr. from the German by M.G. Weir) , Calcutta , 1927 .

Wheeler , G., *The Modern History of Soviet Central Asia* , London , 1964 .

C : South Asia - Pakistan , India , Ceylon , Maldive and Bangladesh

Ahmad , Aziz , *Studies in Islamic Culture in the Indian Environment* , Oxford , 1969 .

ʻAllāmī , Abu al- Fadl , *'Ain-i-Akbarī* , text ed. H. Blochmann , Calcutta , 1867 - 77. Tr. into English , H. Blochmann , Vol. I., Second revised edition , Calcutta , 1939 ; Vols . II & III , Tr. by H.S. Jarrett , further corrected and annotated by Sir J. N. Sarkar , Vol. II., Calcutta , 1949 ; Vol. III., Calcutta , 1948 .

------*Akbarnāma* , text ed. by Ahmad Ali and Abdur Rahim , Calcutta , 1873 - 86 . Tr. into English by H. Beveridge , Calcutta , 1897 - 1921 .

Ali , Syed Ameer , *Memoirs of Ameer Ali* , ed. S. R. Wasti , Lahore , 1968 .

Badāyūnī , Mulla ʻAbd al-Qādir , *Muntakhab al- Tawārīkh* , text ed. Maulavi Ahmad Ali , Calcutta , 1868. Tr. into English , Vol. I. by S. A. Ranking , Calcutta , 1898 ; Vols . II & III by W. H. Lowe , Calcutta , 1884 and 1925 .

Bagchi , P. C., « Political Relations Between Bengal and China in the Pathan Period » , *Visva Bharati Annals* , 1945 , Vol . I., pp. 95 - 135 .

Bakhshī , Niẓām al- Din Aḥmad , *Tabaqāt-i-Akbarī* , text ed. B. De, 3 Vols ., Calcutta , 1927 , 1931 and 1935 . Eng. tr. B. De, 3 Vols ., Calcutta , 1927 , 1936 and 1939 (Vol . III revised by Baini Prasad) .

Baranī , Diyā' al-Dīn , *Tārīkh -i- Fīrūz Shāhī* , text ed . Maulavi Syed Ahmad Khan Sahib , Calctta , 1862 . Eng. tr. in Elliot and Dowson , Vol. III .

Barbosa , Duarte , *The Book of Duarte Barbosa : Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their Inhabitants , written about the year 1518 A. D.*, ed. M. L. Dames , Haklut Society , London , 2 Vols., 1918 - 21 .

Bjerrum , H., « The Tamil Moslems of South India » , *The Moslem World* , Vol. X, 1920 , pp. 172 - 175 .

------« Moslem Literature in Tamil » , *Ibid .,* Vol. XV, 1925 , pp. 115 .

Bengal District Gazetteers : Pabna , Calcutta , 1923 .

Dinajpur , Calcutta , 1912 .

Bombay District Gazetteers , Vols. V, IX part II , XII , XIII , XVI , XVIII , XXII , XXIII .

Census of Bangladesh , 1974 , National Volume , Report and Tables , Report of the Census of Bengal , Calcutta , 1872 .

Census of Bengal , *Report of the* , Calcutta , 1872 .

Census of India , 1941 .

Missionary , a C. M. S., « Moslems of Ceylon » , *The Moslem World* , Vol. VIII , 1918 , pp. 60 - 66 .

Cornish , W. R., *Report on the Census of the Madras Presidency* , Madras , 1874 .

Dani , Ahmad Hasan , « Early Muslim Contact with Bengal » , *The proceedings of the Pakistan History Conference , Karachi* , 1951 .

------*Bibliography of Muslim Inscriptions in Bengal* , Dacca , 1957 .

------*Dacca* , Dacca , 1956 .

Dikshit , K. N., *Memoirs of the Archaeological Survey of India* , No. 55, Delhi , 1938 .

al- Dīn , Sahikh Zayn , *Tuhfat al- Mujāhidīn* , ed. M. J. Rowlandson , London , 1833 .

Epigraphia Indo - Moslemica , 1917 - 1918 .

Firishta , Muhammad Qasin ibn Hindu Shah , *Tārīkh-i- Firishta* , ed. by John Briggs , assisted by Mir Khairat Ali Khan , 2 Vols., Bombay , 1831 . Tr. into English by J. Briggs : *History of the Rise of the Mahomedan Power in India till the yaer 1612 A. D.,* 4 Vols., London , 1829 . Also tr. into Urdu by Muhamad Fida Ali , 4 Vols., Hyderabad , 1926 - 32 .

Francke , A. H., « Islam among the Tibetans » , *The Moslem World* , Vol. XIX , 1929 , pp. 134 - 140 .

Gazetteer of the Province of Oudh , Vol. I.

Gazetteer of the North - Western Province , Vols ., II, III, XIV.

Haq , Dr. Muhammed Enamul , *Purva Pakistane Islam* (Bengali text) , Dacca , 1948 .

------*Vange Sufi Prabhaba* (Bengali text) , Calcutta , 1935 .

------*Muslim Vangla Shahitya* (Bengali text) , Dacca , 1955 .

Innes , C. A., *Malabar and Anjengo* , ed. F. B. Evans (Madras District Gazetteers) , Madras , 1908 .

Journal Asiatique , Tome CCXXIII (Text of Hawd al- Hayat , presented to Qadi Rukn al- Din Samarqandi by Bhojer Brahman of Kamrup) .

Journal of the Asiatic Society of Bengal , 1844 , 1860 , 1870 , 1874 , 1878 , 1896 , 1904 and 1922 .

Journal of the Asiatic Society of Pakistan , Vols . I- X .

Journal of the Pakistan Historical Society , Vols., I, V, VI, VIII .

Karim , Abdul , *Social History of the Muslims of Bengal down to 1538*, *A. D.* Dacca , 1959 .

Khan , Abid Ali , *Memoirs of Gaur and Pandua* , Calcutta , 1929 .

Khan , F. A., *Recent Archaeological Discoveries in East Pakistan : Mainamati* , Pakistan Publications , n. d.

Khān , Maulayī Hamidullah , Bahadur , *Ahādith al- Khawānīn (Tārīkh-i-Ḥamīdī)* , Calcutta , 1871 .

Khan , Qadir Husain , *South Indian Muslims* , Madras , 1910 .

Khurd , Mīr , *Siyar al- Auliā* , Delhi , 1302 A. H.

Khusrau , Amir , *Tughlaq Nāma* , ed. H. Faridabadi , Aurangabad , 1943 .

Kumarakulasinghe , Mrs. K. Wood , « Islam in the Maldive Islands » , *The Moslem World* , Vol. XIII , 1923 , pp. 67 - 69 .

Latif , Abdul , « Abdul Latif's Travel Account » , ed. J. N. Sarkar , *Bengal Past and Present* , Vol. LXVII , 1948 .

Ma Huan , « Ma Huan's Account of the Kingdom of Bengal » , ed. Georg Philip , *Journal of the Royal Asiatic Society* , Vol . I, Part III , July , 1895 .

Madras District Gazetteers : Trichinopoly , Vol. I, Madras , 1907 ; *Anantapur* , Vol. I., Madras , 1905 .

Mubārakpuri , Abu al- Maʿālī Athar al-, Rijāl al- Sind wa al- Hind ila al- qarn al- Sābiʿ, Bombay , 1398 H .

Proceedings of the Asiatic Society of Bengal , 1870 .

Nadawi , Abul Hasan Ali , *Saviours of Islamic Spirit* , 2 Vols., Lucknow , 1977 .

Nathan , Mirza (ʿAlā al- Dīn al- Ispahānī , also called Shitab Khan and Ghaibi) , *Bāharistan -Ī- Ghaibi* , Mss. in Bibliotheque Nationale , Paris ; Eng. tr. by M. Islam Borah , Gauhai , 2 Vols., 1936 .

Prasad , Iswari , *History of Medieval India* , Allahabad , 1933 .

al- Rahman , Hakim Habib , *Asudgān - i- Dacca* , Dacca , 1946 .

Risley , H.H., *Tribes and Castes of Bengal* , Vol. I., Calcutta . 1892 .

------*MSS. Eur. E.* 295 / 17 (Risley Collection , Foreign and Commonwealth Relations Office Library , London) .

Rubbee , Fuzli , *Origin of the Musalmans of Bengal* , Calcutta , 1895 .

Sakhāwī , Shams al- Dīn *Al- Daw' al- Lāmiʿ Li Ahli Qarn al- Tāsiʿ*, Vol. II., Cairo , 1353 - 55. H.

al- Samarqandī , Abd al- Razzāq , *Matlaʿal- Sa dain wa Majmaʿ al- Bahrayn* , (Ar. MSS. No. 2704 in Foreign and Commonwealth Relations Office Library , London) .

Sarkar , J. N. (ed.) , *History of Bengal* , Vol. II., University of Dacca , 1948 .

Selim , Ghulām Ḥusain , *Riyāḍ al- Salātīn* , text with Eng. tr. by Abdus Salam , Calcutta , 1904 . Also tr . into Bengali by Akbaruddin , Dacca , 1974 .

Shusteri , Nur Allah , *Majālis al- Muʿminīn* (MSS. 1400 in Foreign and Commonwealth Relations Office Library , London) .

Ṭabṭabāī , Sayyid Ghulām Husain Khān , *Siyar al- Muta'kherīn* , 4 Vols ., Tr. into English by M. Raymond (later called Haji Mustafa) , Calcutta , 1786 , 1789 .

Tennant , Sir James Emerson , *Ceylon* , Vol. I., 5th edition , London , 1860 .

Varendra Ressarch Society Monograph , No. 6, Rajshahi , 1935 .

Walter , Howard Arnold , « Islam in Kashmir » , *The Moslem World* , Vol. IV , 1914 , pp. 340 - 352 .

Warren , W. Preston , « Islam in Southern India » , *The Moslem World* , Vol. XXI ., 1931 , pp. 352 - 367 .

Wheeler , R. E. M., *Five Thousand Years of Pakistan* , London , 1950 .

Young , J. A. & Christopher , W., « Memoir on the inhabitants of the Maldive Islands » , *Transactions of the Bombay Geographical Society from 1836 to 1838* , Bombay , 1844 .

D. South- East Asia (Malayasia , Indonesia , Brunei , Celebes and the Philippines

Alatas , Syed Hussein , « Reconstruction of Malayasian History » *Revue du Sud Est Asiatique* , Brixelles , 1962 , No. 3, pp. 219 - 245 .

al- Attas , Syed Naguib , *Raninri and the Wujudiyyah of the 17th Century Acheh* , Singapore , 1966 .

------*A General Theory of Islamization of the Malay Indonesian Archipilago* , Kualalampur , 1968 .

------*The Origin of the Malay Sha'ir* , Kulalampur , 1968 .

------*Preliminary Statement on general theory of the Islamization of the Malay Indonesian Archipilago* , Kualalampur , 1969.

------*The mysticism of Hamzah Fansuri* , Kualalampur , 1970 .

Barbosa , Duarte , *The Book of Duarte Barbosa* , ed. M. L. Dames , Vol. II., Hakluyt Society , 1921 .

Bastin , and Roolvink , eds ., *Malayan and Indonesian Studies* , Oxford , 1964 .

Benda , Harry J., *The Crescent and the Rising Sun* , The Hague and Bandung , 1958 .

Brown , C.C. (Tr.), *Sejarah Melayu or Malay Annals* , Kualalampur , 1970 .

Cady , J. F., *Southeast Asia : Its Historlcal Development* , New Delhi , 1967 .

Calendar of State Papers , East Indies 1513 - 166 , London , 1862 .

Coatalen , Paul , « The Coming of Islam to S. E Asia : A Critical Review of some Extant Theories » , *The Islamic Quarterly* , Vol . XXV, Nos 3 - 4, London 1401/2 (1981) , pp. 100 - 121 .

Coedes , Georges , *The Indianized State of South- East Asia* , Kualalampur , 1964 .

Colless , Brian E., « Persian Merchants and Missionaries in Medeival Malaya », *Journal of the Malay Branch of the Royal Asiatic Society* , 1969 , Part. II.

Crawford , John , *History of Indian Archipilago* , Edinburgh 1820 .

Drewes , G.W.J., « New light on the coming of Islam to Indonesia » *Bijdragen tot de taal-, land-en volkunde* Deel R 4 4e , Alflevering , 1968 .

Fatimi , S. Qudratullah , *Mashriq-i-Baid Men Tulu' Islam* (Urdutext) , Lahore , 1978 .

------*Islam Comes to Malayasia* , Malayasian Sociological Reseach Institute , Singapore , 1963 .

Groenveldt , W.P., *Notes on Malay Archipilago and Malacca compiled from Chinese Sources* , London , 1888 .

Guyon , Abbe de , *A New History of the East Indies* , Vol. I., London , 1757 .

Hall , D.G.E., *A History of South- East Asia* , New York , 1968 .

Hamid , Ismail , « A Survey of theories on the introduction of *Islam in the Malay Archipelago* », *Islamic Studies. Quarterly Journal of the Islamic Research Institute* , Islamabad University , Islamabad , Vol. XXI, Autumn , 1982 , No. 3, pp. 89 - 100 .

Hanna , A.C., « The Chams (Muslims) of French Indo - China » , *The Moslem World* , Vol . XXI , 1931 , pp. 231 .

Hill , A.H. (Tr.) , « Hikayat Raja Raja Pasai » , *Journal of the Malay Branch of the Royal Asiatic Society* ; Vol. XXXIII , June , 1960 , Part II .

Hinkhouse , Paul Mc Clure , « Islam in Siam » , *The Moslem World* , Vol. IX., 1919, pp. 142 - 148 .

Holt , P.M. and others Ed ., *The Cambridge History of Islam* , Vol. 2A, Cambridge University Press , 1970 .

Hooker , M.B., *Islam in South - East Asia* , Leiden , 1983 .

Imamuddin , S.M., « Islam in Malayasia : Impact of Bengal , The Deccan , Gujarat and Persia in the Middle Ages » , *Journal of the Pakistan Historical Society* , 1981 , pp. 259 - 278 .

Kahler , Hans , « A History of Indonesia » in *The Muslim World A Historical Survey , Part IV. Modern Times* , Fascicule I, eed. H. Scheel and others , Tr. F. R. C. Bagley , Leiden , 1981 .

L.S.R., « Islam in French Indo- China » , *The Moslem World* , Vol. VIII ., 1918 , pp. 269 - 277 .

Laubach , Frank C., « Islam in the Philippines », *The Moslem Wrold* , Vol. XIII, 1923, pp. 57 - 66 .

Majul , Caesar Adib , « Theories on the Introduction and Expansion of Islam in Malayasia », *International Association of Historians of Asia 2nd Biennial Conference Proceedings , Occtober , 1962* , Taiwan .

------*Muslims in the Philippines* , Quezon City , 1973 .

------*Al- Islam Fi al- Sharq al- Aqsa* (Tr from the Eghich into Arabic by Dr. Nabil Subhi), Beirut , 1386 H./ 1966A. C.

Mc Cutchen , Robert T., « Islam in the Philippine Islands », *The Moslem World* , Vol. IX., 1919, pp. 230-239 .

Marrison, G.E., « The Coming of Islam to the East Indies », Journal of the Malay Branch of the Royal Asiatic Society , Vol. XXIV, 1951, pp. 28 - 37 .

------« Persian influences on Malay life 1280 - 1660 », *ibid.*, Vol.XXVIII, 1955, part I.

Marsden , William, *The History of Sumatra*, Kualampur, 1966 .

Minorsky, V. (ed & Tr.), Sharaf al- Zaman Tahir Marwazi on China », in *The Turks and India* , London, 1941 .

Morley, J.A.E., « The Arabs and the Eastern Trade », *Journal of the Malay Branch of the Royal Asiatic Society*, Vol. XXII, Parr I.

Nunn, Frank L., « Islam in Fiji », *The Moslem World*, Vol. V., 1915, pp. 265 - 267.

Pelliot, P., *Notes on Marco Polo,* 2 Vols., Paris, 1959 and 1963.

Pires, Tome, *The Suma Oriental* (An account of the East from the Red Sea to Japan written in Malacca and India in 1512 - 15, 2 Vols., tr. by A Cortosa), London, 1944.

Polo, Marco, *The Book of Ser Marco Polo*, tr. & ed. by Henry Yule, 3rd edition by Henry Cordier, 2 Vols., London, 1903.

Rauws, John, « islam and Christianity in Malayasia », *The Moslem World*, Vol. I., 1911, pp. 241 - 247.

Shiblī, Ra'ūf, *Al- Islām Fī Arkhabīl al- Malāyu wa Manhaj al- Daʿwatu llaihe* (Arabic text), Cairo, 1395 / 1975.

Snouck, Hurgronje C., *The Achehnese*, Leiden, 1906.

Sweeny, Amin, « The Connection between Hikayat Raja Raja Pasai and Sejara Melayi », *Journal of the Malay Branch of the Royal Asiatic Society*, Vol. XL, 1967, part II.

Van Leur, J.C., *Indonesian Trade and Society : Essays in Asian Social and Economic History*, The Hague, 1955.

Windstedt, Sir Richard, « The Advent of Muhammadanism in the Maly Peninsula and Archipelago », Royal Asiatic Society *Straits Branch Journal*, 1917, No. 77.

------« The Hadramaut Saiyids of Peraka and Siak », *ibid*., 1918, No. 79.

------« The Early Muhammadan Missionaries », *Ibid*., 1920, No. 81.

------« The Chronicles of Pasai », *Journal of the Malayan Branch of the Royal Asiatic Society*, Vol. XVI, 1938, Part . II.

------« The Kedah Annals », *Ibid*.

------« Malay Annals », *Ibid.,* Part III.

------*A History of Classical Malay Literature*, Oxford, 1969.

E : China

Ahmed, Sayed Maqbool, « Some observations » On Islam in China », « *The Islamic leview*, Vol. 24, 1936. pp108 - 111.

Ali , Ahmed , «« Islam in China » , *Pakistan Horizon* , Vol . I., 1948 , pp. 171 - 190 .

Andrew , G. Findlay , *The Crescent in North - West China* , London , 1921 .

Bell, M., « The Dungan Rebellion » , *Imperial and Asiatic Quarterly Review* , July , 1896 , pp. 23 - 33 .

Bellew , *Kashmir and Kashgar* , London , 1875 .
------« History of Kashgar » in Forsyth's *Report of a Mission to Yarkund* , Calcutta , Calcutta , 1875 .

Botham , Mark E., « Chinese Islam as an Organism » , *The Moslem World* , Vol. XV., 1925, pp. 261 - 268 .

------« Islam in Kansu », *Ibid* ., Vol. X, 1920 , pp. 377 - 390 .

------« Modern Movements among Chinese Mohammedans » , *Ibid.,* Vol. XIII ., 1923 , pp. 291 - 299 .

Boulger , D.C., *Yakoob Beg - Atalik Ghazi and Bedaulet , Ameer of Kashgar* , London , 1878 .

Bretschneider , E., *Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources,* 2 Vols., London , 1888 .

------« Chinese Medieval Notices of Islam » , *The Moslem World* , Vol. XIX , 1929 , pp. 52 - 61 .

Broomhall , Marshall , *Islam in China - Aneglected Problem* , London , 1910 .

------« The Mohammedan Population of China » , *The Moslem World* , Vol. I., 1911 ; 32 - 53 .

Bullock , J.L., « The Great Muhammadan Rebellion in Yunnan » , *China Review* , Vol. XVI .

Bush , R., *Religion in Communist China* , Nashvilles , 1970 .

Chao Ju-Koa , His Works of the Chinese Trade in the XII and XIII Centuries , Tr. E. Hirth and W.W. Rockhill , St. Petersburg , 1912 .

China Islamic Association , *Moslems in China* , Peking , 1953 .

------*The Religious Life of Chinese Moslems* , Peking , 1956 .

------*Chinese Moslems in Progress* , Peking , 1957 .

De Thiersant , P., *Le Mahomatisme en Chine et dans le Turkestan Oriental* , 2 Vols., Paris , 1879 .

Drake , F.S., « Muhammadanism in the T'ang Dyansty » , *Monumenta Serica* , Vol. VIII , 1943, pp. 1-40 .

Filesi , T., *China and Africa in the Middle Ages* , London , 1972 .

Forbes , Andrew D. W., « The Muslim National Minorities of China » *Journal of Religion and Religions* , Vol. VI, Spring , 1976 , London , pp. 67 - 87 .

Harris , George K., « The Rebellion in Kansu » , *The Moslem World* , Vol. XIX , 1929 , pp. 291 - 298 .

Hourani , George Faldo , *Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times* , Princeton , 1957 .

Hsu , I.C., *The Ili Crisis - A Study of Sino - Russian Diplomacy* , Oxford , 1965 .

Hunter , G.W., « The Chinese Moslems of Turkestan » , *The Moslem World* , Vol. X., 1920, pp. 168 - 171 .

Hutson , James , « The Sz'chuan Molems » , *Ibid.*, pp. 251 - 261 .

Huwaidī , Fahmī , *Al- Islām Fī al- Chīn* (Arabic text) , Kuwait , 1401 / 1981 .

Huzzayin , S.A., *Arabia and the Far East - Their Commercial and Cultural Relations in Graeco - Roman and Irano - Arabian Times*،Cairo , 1942 .

Inglis , James W., « Islam in Manchuria » , *The Moslem World* , Vol. VI, 1916 , pp. 296 - 300 .

Isradi , Raphael , *Muslims in China, Astudy in Cultaral Confrontation* , London & Malmo , 1980 .

Kashgari , M.S., *Tazkira -i- Khwajagan* (The History of the Khojas of Turkestan) . Tr. B.B. Shaw , Supplement to the Journal of the Asiatic Society of Bengal , Vol. LXVI , 1887 .

Kwang - Yu , Muhammad Sulaiman Ying , « Islam in China » , *The Islamic Review* , Vol. XXIII , 1935 , pp. 229 - 238 ; 242 - 249 and 281 - 286 .

Liu zhi (Liu Chih) , *Tian Fang Zhi Sheng Shi Lu Niam Pu* (or True Biography of the Arabian Prophet) , Tr. I. Mason : *The Arabian Prophet* , Shanghai , 1921 .

Lu, D.J., *Moslems in China Today* , Hongkong , 1964 .

Ma- Chien , Muhammad , *Ku - Lan Ching* (Chinese Tr. of the Quran) , Shanghai , 1952 .

------« How Muslims Live in China » , *China Reconstructs* , March - April , 1953 , pp. 13 - 15 .

Mason , I., « Notes on Chinese Mohammedan Literature » , *Journal of the North China Branch of the Royal Asiatic Society* , Vol. LVI , 1925 , pp. 172 - 215 .

------« the Mohammedans of China » , *Ibid* ., Vol. LX., 1929, pp. 43 - 78 .

------« Chinese Moslem Chronology » , *Ibid* ., Vol. LXII , 1931 , pp. 117 - 119 .

------« How Islam Entered China » , *The Moslem World* , Vol. XIX, 1929 , pp. 249 - 263 .

Mateer , A.H., « The Present Condition of Islam in China » , *Ibid* ., Vol. IX., 1919 , pp. 77 - 81 .

Mission D'Ollone , *Researches Sur Les Musulmans Chinois* , Paris , 1911 .

Mylrea , C. Stanley , « An ancient account of India and China » , *The Moslem World* , Vol. XII, 1922, pp. 170 - 177 .

Ogilvie , Charles L., « The Mohammedan Conference at Peking , 1916 » , *The Moslem World* , Vol. VI , 1916, pp. 301 - 307 .

------« The Present Status of Mohammedanism in Peking » , *Ibid* ., Vol. IV., 1914, pp. 165 - 172 .

------& Zwemer , S.M., « A Classified biblography of books on Islam in Chinese and Chinese Arabic 2th *Chinese Recorder* , October , 1917, pp. 652 - 661 .

Pickens , C.L., *Annotated Bibliography of Literature on Islam in China* , Hankow , 1950 .

Ridley , H. French, « Moslems of China and the Republic » , *The Moslem World* , Vol. III., 1913, pp. 386 - 390 .

Rhodes , F.H., « A Survey of Islam in China » , *Ibid* ., Vol. XI., 1921, pp. 53 - 68 .

Rocher , E., *La Province Chinoise de Yun-nan* , 2 Vols., Paris , 1879 - 1880 .

Samolin , E., *East Turkestan to the Twelfth Century* , The Hague , 1964 .

Sḫou - Yi , Pa , « Historical Heritage of Chinese Muslims » , China *Reconstructs* , July , 1964 .

Snow , E., *Red Star Over China* , New York , 1938 .

The Chinese Recorder , Moslem Number for October , 1917 .

Thwang , E.W., « Islam in China Today » , *The Moslem World* , Vol. VII, 1917 , pp. 75 - 79 .

Ting , Ma Sung , « Historic Centres of Islam » , *The Chinese Recorder* , Shanghai , October , 1933 , pp. 636 - 642 .

Wen - Djang , Chu , *The Moslem Rebellion in North - West China* , The Hague , 1966 .

------« The immediate *Cause* of the Moslem Rebellion » , *Central Asiatic Journal* , Vol. III., No. 4, 1958, pp. 309 - 316 .

Wright , M.C., *The Last Stand of Chinese Conservatism - The T'ungchih Restoration* , Stanford , 1966 .

Yang-i- Fan , *Islam in China* , Hongkong , 1958 .

------(?) *Moslem Unrest in China* , Hongkong , 1958 .

Yu, P.C., « Muslims in New China » , *Peoles' China* , 1952 , Vol. XV., pp. 10 - 14 .

Yule , Sir Henry , *Cathay and the Way Thither* , Hakluyt Society , London , 1866 , revised by Cordier , 1914 .

انتشار الإسلام في قارة إفريقية

للأستاذ الدكتور
مصطفى محمد مسعد

انتشار الإسلام في مصر والسودان

جاء فتح المسلمين لمصر مرحلة من مراحل اتساع رقعة الدولة الإسلامية خارج الجزيرة العربية وامتداد الإسلام وانتشاره في مصر ، ثم فيما يليها غربا وجنوبا في القارة الإفريقية . وما ينطوي عليه هذا الفتح العربي الإسلامي من حيث : الظروف التي مهدت له ، ومن حيث بواعثه وأهدافه وموقف السكان من الفتح ، ومن هم المسلمون الذين اضطلعوا به ، ومن هم المسلمون الذين جاءوا في أعقابهم ، وأهم آثار هذا الفتح العربي الإسلامي في المجتمع المصري وتطور ذلك المجتمع وخطاه في تقبل العربية واعتناق الإسلام .

مصر قبيل الفتح الإسلامي :

كانت أحوال مصر في النصف الأول من القرن السابع الميلادي تنبىء بنجاح الفتح العربي الإسلامي . ذلك أن أهل مصر الذين اعتنقوا النصرانية تمسكوا بمذهب كنيستهم المصرية المونوفيزية[1] المخالف لمذهب كنيسة إمبراطورية الروم الملكاني وقد اتسعت الهوة بين المذهبين وانقلبت إلى حركة اضطهاد شديدة بلغت مداها في عصر الإمبراطور هرقل الذي عهد إلى قيرس Cyrus (المقوقس) بالرياسة الدينية والإدارية في مصر . وقد أخذ قيرس المصريين بأحد أمرين : إما الدخول في مذهب الإمبراطور ، وإما الاضطهاد .

وقبل أن يصل الحاكم الجديد الإسكندرية في سنة ١٠ هـ / ٦٣١ م هرب البطريق القبطي بنيامين توقعا لما سيحل به وبطائفته من الشدائد من جراء فرض المذهب المخالف . ولقد اشتد اضطهاد القبط أيام ولاية قيرس اشتدادا عظيما حتى تحول كثير ممن لم يستطيعوا الهرب إلى مذهب الإمبراطور ومنهم بعض الأساقفة ، وصمد كثيرون ضده ، ومن بينهم الأب مينا أخو البطريق بنيامين على الرغم مما ناله من تعذيب شديد من جراء ذلك[2] .

كذلك اضطربت الأحوال الاقتصادية بازدياد الضرائب الباهظة التي فرضت على أهل البلاد ، سواء من حيث تنوعها وكثرتها ، أم من حيث قسوة الجباة الروم وجشعهم في

جبايتها ، و لم يجد أغلب المصريين مخرجا من هذه الحالة السيئة سوى الفرار إلى المعابد والأديرة وهجر مزارعهم وقراهم ، فانتشرت الفوضى في البلاد ، وعم الاضطراب جميع المرافق الاقتصادية . كما حرم الشعب المصري من الاشتراك في حكم بلاده ، فكان يعامل معاملة المغلوب .

وكان للإدارة البيزنطية نقاط منعتها ، فالتنظيمات العسكرية في مصر ، لم تخضع لقيادة واحدة منظمة ، بل كانت لها خمس قيادات مفككة غير متعاونة . وتسربت طوائف من المصريين إلى جيش الروم بعد أن كان محظورا عليهم الانخراط في الجندية من قبل ، غير أن هؤلاء كانوا يسخرون للعمل في ذلك الجيش عن طريق الاقتراع أو التطوع أو الوراثة . هذا فضلا عن مساوئ أخرى كثيرة سياسية واقتصادية واجتماعية تضافرت جميعها على أن تمهد طريق النصر للعرب المسلمين وتمكينهم من وادي النيل .

أسباب الفتح ودوافعه :

لقد كان فتح مصر – شأنه شأن الفتوح الأخرى التي سبقته في الشام والعراق – تذكيه رغبة صادقة في نشر الإسلام بين الشعوب التي لم تصلها دعوته . وكان طبيعيا أن تتجه حركة الإسلام إلى مصر بعد أن مكّن لها في الشام ، وليس غريبا أن يكون أول ما فعله عمرو بن العاص – بعد القضاء على المقاومة في فلسطين باستسلام القدس – أن يتحدث إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الحديث المتطلع نحو الحدود الجنوبية عبر صحراء سيناء(٣) . وقد حتمت الضرورات الحربية أن يتقدم المسلمون نحو مصر جنوبا بعد أن بلغت حدود الدولة الإسلامية في الشمال جبال طوروس وكان من شأن هذا الاتجاه نحو مصر تأمينَ الفتوحات الإسلامية في الشام وفلسطين من ناحية ، وتأمين مركز الدولة الإسلامية في المدينة من ناحية أخرى ، إذ لا يبعد أن يعمد الروم للانتقام بالهجوم على سوريا أو المدينة نفسها من مصر . ومن ثم كان ترك مصر – في قبضة الروم – خطرا على الدولة الإسلامية الناشئة ، لا يمكن تجنبه إلّا بالمواجهة(٤) وبخاصة بعد التجاء فلول الروم المنهزمين إلى مصر وعلى رأسهم أرطيون (أريطيون) قائد حامية بيت المقدس(٥) .

والحق أن مصر – حين طرقها العرب – لم تكن جديدة عليهم ، فقد تردد عليها في أيام الجاهلية ، كثير من رجالها متاجرين ، منهم عمرو بن العاص نفسه(٦) ، وعثمان بن عفان ، والمغيرة بن شعبة(٧) رضي الله عنهم .

وعلى الرغم من تضارب الروايات حول فتح مصر ودور كل من الخليفة عمر بن الخطاب أو قائده عمرو بن العاص رضي الله عنهما في التفكير والإعداد والتنفيذ وما قيل حول تحريض عمرو بن العاص للخليفة وتحبيب الفتح إليه ، وما قيل حول تردد الخليفة واستئذانه قبل البدء في التحرك إلى مصر أو بعده(٨) ، فإن موضع الأهمية في هذه المرحلة من مراحل نمو حركة الإسلام وتقدمها صوب مصر وما وراءها أن مشروع فتح مصر عمل عسكري كبير ، تم الإعداد له ورسم خططه في مؤتمر القادة العسكريين في الجابية سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) بحضور الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما تم في هذا المؤتمر التمهيد لنجاح العمليات الحربية ومنها : إرسال حملات استطلاعية ، ومحاولة إيجاد أنصار من المصريين للتعاون مع الفاتحين المسلمين واختيار ذوي الخبرات الفنية من القادة والجند في المجالات ذات الأهمية الخاصة بالنسبة لفتح مصر مثل قتال الحصون ، واختطاط المدن ، وشئون الصناعة والزراعة ، فجاء معظم رجال الحملة من عرب الجنوب اليمنيين وبخاصة قبيلة عك وقبيلة غافق(٩) . كما اتصل المسلمون بالقبائل البدوية الضاربة على حدود مصر وفلسطين والتي تمتد بطونها في إقليم الشرقية وبخاصة قبائل لخم وراشدة ، كما استعان المسلمون ببعض الخبراء غير العرب من مسلمة الروم ومسلمة الفرس(١٠) .

وقـائع الفتـح :

أما عن وقائع الفتح الإسلامي ومسيرته ، فقد أفاض في ذكر تفاصيلها الكثير من المؤرخين ولاسيّما ابن عبد الحكم . ومنها أن عمرو بن العاص خرج من قيسارية سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) على رأس جيش بلغ أربعة أو ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل معظمهم – كما رأينا – من عرب الجنوب اليمنيين «فوصل العريش يوم عيد الأضحى من نفس السنة (ديسمبر ٦٣٩ م)(١١) ففتحها ثم مضى في الطريق التي سلكها من قبل الفاتحون والمهاجرون والتجار والحجاج وكتائب الجند وقوافل العروض ، ومن قبل شهدت مقدم

إبراهيم ويعقوب ويوسف وأسرة المسيح عليهم السلام[١٢] . ثم اتجه عمرو إلى الفرما[١٣] فحاصرها المسلمون شهرا ثم اقتحموها وتقدم عمرو بعد ذلك جنوبا ، و لم ينقص جيشه ، بل زاد بمن انضم إليه من بدو الصحراء حتى بلغ مدينة بلبيس ، فعاقتهم هذه المدينة بأسوارها شهرا آخر ، انهارت بعده مقاومة الروم ، وواصل عمرو بعدها السير إلى عين شمس فبلغها في شهر رجب سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) .

ثم تقدم نحو حصن بابليون وعسكر المسلمون في عين شمس حيث وصل المدد الذي طلبه عمرو بن العاص من الخليفة عمر بقيادة أربعة من صحابة رسول الله ﷺ ، وهم : الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم . وقيل : بل خارجة بن حذافة . وبلغت بذلك عدة الجيش اثني عشر ألفا ، استطاع أن يوقع بالروم هزيمة عند أم دنين[١٤] .

ثم تقدم الجيش فأكمل حصار الحصن ، واستمر الحصار سبعة أشهر ، أحس الروم خلالها بالعجز عن الاستمرار في المقاومة ، وجرت مفاوضات بين الجانبين – المسلمين والروم – تتضح بجلاء من خلالها قوة المسلمين في عقيدتهم التي خرجوا من أجلها دعاة إلى الإسلام لا يردهم عن غايتهم هذه شيء إلّا إحدى الحسنيين ، وليس لغيرهم إلّا واحدة من ثلاث .. فقد عرض عمرو على رسل قيرس Cyrus (المقوقس) الحاكم البيزنطي في مصر : « إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال أما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين »[١٥] .

لم تنته المفاوضات إلى اتفاق ، واستؤنف القتال وتسوّر الزبير بن العوام رضي الله عنه الحصن فيمن انتدب معه فاقتحموه وانتهى الحصار باتفاق عقده عمرو بن العاص عرف باسم صلح بابليون[١٦] أو صلح عين شمس[١٧] . وينص العقد على الجزية للقبط والخيار للروم ، فمن أراد منهم أن يقيم على مثل هذا أقام لازما له ومفترضا عليه ، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج[١٨] ، واشترط المقوقس أن يظل الأمر بالنسبة للروم معلقا ورهنا بموافقة الإمبراطور هرقل . وقد جاء رده بلوم المقوقس وتوبيخه على تخاذله .

ويفهم من هذا أن قبط مصر قد أصبح أمرهم مفروغا منه بمقتضى هذا العهد بعكس الروم[١٩] .

وبعد سقوط الحصن في أيدي المسلمين انساحوا في ريف مصر السفلى ، حيث كان يحد من سرعة تقدمهم كثرة الترع والقنوات ، وقد استعان المسلمون في هذه المرحلة من مراحل الفتح الإسلامي بالقبط سكان البلاد فاستجابوا لهم[٢٠] .

فتح الإسكندرية ومعاهدتها :

وأدت انتصارات المسلمين في مصر السفلى إلى التجاء المقاومة البيزنطية إلى الإسكندرية للاحتماء بها ، وانطلق عمرو بالمسلمين إلى الإسكندرية ، فاستولوا في طريقهم على عدد من الحصون القوية مثل : نقيوس ، وترنوط[٢١] ، وكوم شريك[٢٢] ، وسنطيس[٢٣] ، والكريون[٢٤] . وطارد المسلمون - الروم المنهزمين - إلى الإسكندرية بعد أن حاصرها المسلمون ويبدو أن مقاومة الروم في الإسكندزية كانت عنيدة بدليل استبطاء الخليفة عمر ابن الخطاب للفتح[٢٥] . وكان المسلمون مضطرين أن يطاولوا الروم في حصار الإسكندرية لأن ما لديهم من عدة الحرب لا تكفي لهدم أسوارها الضخمة ، وكان البحر من وراء الروم كفيلا بتوفير أمداداتهم المتصلة . وكان الروم يدركون أهمية الإسكندرية التجارية والحربية والبحرية ، وأنه إذا لم يتمكن المسلمون من فتحها فلا فائدة لهم مما فتحوه من مصر كلها . ومما ينسب إلى هرقل بصدد الإسكندرية قوله : « لئن ظهرت العرب على الإسكندرية كان ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم »[٢٦] . ومن ثم استعد هرقل للخروج بنفسه لمباشرة حرب الإسكندرية ، « وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم »[٢٧] . ولكنه مات في سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م . وحين استطال عمرو الحصار خلف عددا من أصحابه حول المدينة ، وعاد أدراجه إلى حصن بابليون ، ولعله كان ينفذ بعض السرايا إلى نواحي الدلتا والصعيد حتى دانت للمسلمين بالطاعة .

ولقد جاء تدهور أحوال الروم في الإسكندرية نتيجة لتنازع القواد وانقسام الرأي أثناء حصار المسلمين للمدينة[٢٨] ، كما لعبت الظروف الخارجية هنا دورا كبيرا بعد موت هرقل وتولية ابنه الحدث قسطنطين الثاني (٢٠ - ٤٨ هـ / ٦٤١ - ٦٦٨ م)

Constans وتولت الوصاية عليه أمه وطائفة من القواد ، فساعدت هذه الظروف السياسية الجديدة على تقوية جانب المقوقس وتفويضه في السعي إلى الصلح ، للحاجة إلى قوات الروم للقضاء على الثورات في بيزنطـة ، ومواجهة الاضطرابات في البلقان . ووصل المقوقس إلى الإسكندرية ، والمسلمون يحكمون الحصار من حولها ، فشق طريقه إلى بابليون لمفاوضة عمرو في الصلح حيث كان هناك يدير حركة بعوثه في أطراف مصر ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة بابليون الثانية أو معاهدة الإسكندرية ، لأنها كانت خاصة بأهل الإسكندرية وحاميتها[٢٩] . ومن أبرز بنودها : الجزية لمن يؤثر البقاء في ظلال المسلمين ، والأمن لمن يريد الالتحاق بالروم ، والهدنة أحد عشر شهرا تنتهي في (أواخر سنة ٢١ هـ)[٣٠] سبتمبر ٦٤٢ م وبذا كانت هذه المعاهدة تعبيرا واضحا عن إنهاء المقاومة البيزنطية في مصر وإعلانا لانتصار المسلمين .

مهاجمـــة تاليــة للإسكندرية من قبل الروم :

ومما ينبغي ملاحظته أن فتح مصر النهائي ، واستخلاصها من أيدي الروم وتأمينها ، لم يتم إلّا سنة ٢٥ هـ (٦٤٦ م) إذ عاود الروم الهجوم على الإسكندرية واستولوا عليها ، وزحفوا من بعدها إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى حتى نقيوس ، وتحرّج موقف المسلمين في مصر في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي السرح (٢٤ – ٣٥ هـ)/ (٦٤٥ – ٦٥٥م) والي مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد استدعى عمرو بن العاص لمحاربة الروم لخبرته بحربهم[٣١] ، وانتهى الأمر بطرد الروم ، واستنقاذ الإسكندرية وفتحها للمرة الثانية سنة ٢٥ هـ ، وفي هذه المرة لم يدع عمرو بن العاص أسوار الإسكندرية كما فعل في المرة السابقة ، وإنما سواها بالتراب حتى ييأس الروم من العودة إليها من جديد[٣٢] .

ومع ذلك فإن الروم لم توئسهـم هزيمتهم ، فقد حاولوا بعد ثلاث سنوات من هزيمتهم الثانية في الإسكندرية أن يعاودوا هجماتهم البحرية ، وأعدوا لذلك أسطولا كبيرا ، غير أن المسلمين كانوا قد ركبوا البحر ، وعرفوه وحذقوه ، وأنشأوا نواة البحرية الإسلامية ، فأوقعوا بأسطول الروم هزيمة ساحقة في موقعة عرفت بموقعة ذات الصواري

ولقيت فلوله المشتتة عاصفة هوجاء أتت عليها ، واستتب الأمر للمسلمين[٣٣] إلّا ما كان من غارات صغيرة يقوم بها بعض البحارة القرصان على مدن الساحل ثم يرتدون .

والحق أن نصر المسلمين في الإسكندرية واستعادتها من أيدى الروم سنة ٢٥ هـ ، قد عززه نصر ذات الصواري سنة ٢٨ هـ (٦٤٩ م) الذي انتزع للمسلمين السيادة البحرية وحماية شواطئها الشمالية وهكذا تحقّق بهذين النصرين اللذين نالهما المسلمون الفتح الحقيقي لمصر وتأمين واجهتها الشمالية ضد محاولات الروم العدوانية ، وافتتاح عهد جديد في تاريخ الدعوة الإسلامية وانتشارها في ربوع البلاد .

نواة المجتمع الإسلامي المستقر في مصر :

الواضح أن العرب المسلمين – حين خرجوا من الجزيرة العربية فاتحين – كانوا يحملون عقيدتهم ، يدعون الناس إليها رجاء أن يدخلوا فيها . ولقد بدأ الإسلام في الذيوع والانتشار في مصر منذ بدأ المسلمون يحطون رحالهم في البلاد ويخلصونها من سيطرة الروم ، وتمثل حملة عمرو بن العاص وإمداداتها النواة الأولى للمجتمع الإسلامي المستقر في مصر ، وتضم – كما سبق القول – كثرة من قبائل الجنوب أهل اليمن ، ومجموعات من مسلمة الروم ومسلمة الفرس ، وأعدادا ضخمة من قبائل شتى فضلا عن نفر من صحابة رسول الله ﷺ ، وبلغ مجموعهم حوالي ستة عشر ألفا أو عشرين ألفا بين فارس وراجل استقر معظمهم في مدينة الفسطاط التي اختطها عمرو بن العاص لتكون معكسرا للجند . إذ كان تخطيط المدن من أهم الظواهر التي سارت جنبا إلى جنب مع الفتوح الإسلامية ، وذلك رغبة في إنشاء مراكز إدارية وحربية تكون إلى جانب ذلك مراكز للدعوة الإسلامية في الوقت نفسه بالبلاد المفتوحة . إذ اختط المسلمون مدينة الفسطاط سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) وكان أول ما أقاموا المسجد الجامع[٣٤] ليكون آية استقرارهم في الأرض وغلبتهم عليها ، وتمثيلا لكل حركتهم في طابعها الديني وفي ظواهرها العمرانية والاجتماعية . ثم مضوا بعد ذلك في تخطيط الخطط ، وكانت كما يقول المقريزي[٣٥] ، بمثابة الحارات في عصره (القرن ٩ الهجري / الخامس عشر الميلادي) ، وعرفت كل خطة باسم القبيلة أو المجموعة التي سكنتها .

ولقد أراد الخليفة عمر بن الخطاب أن تكون الفسطاط معسكرا ، وأن يدوم للمسلمين هذا الطابع العسكري الذي يتمثل في المرابطة ، ليكونوا على أهبة تامة كلما اقتضاهم واجب الجهاد . غير أن المعسكر لم يلبث أن اتخذ صورة المدينة بكل ما فيها من مرافق الحياة المستقرة ، كما خطت حياة المسلمين فيها من الطور القبلي إلى الطور المدني ، بحكم تجاور القبائل وتلاحمها ، فكانت تتصاهر وتتزاوج وتتوارث يجمع بينها السوق والمسجد والأفنية والمرابع(٣٦) .

واختط المسلمون مصرا آخر ، هو : الجيزة مقابل الفسطاط ونزلتها قبيلة واحدة هى قبيلة همدان كما استقر فريق من المسلمين في الإسكندرية ، لكنهم لم ينزلوا في خطط خاصة بهم ، إنما نزلوا في أخاديد، غادرها الروم من قبل(٣٧) . وهكذا نرى أن العرب المسلمين الذين استقروا في مصر ، ومعظمهم من العرب اليمنية – ويمثلون النواة الأولى للمجتمع الإسلامي في مصر – كانوا يقيمون في الفسطاط ، أو الجيزة أو الإسكندرية ، وقد منعوا في خلافة عمر بن الخطاب من امتلاك الأرض والاشتغال بالزراعة ليتفرغوا في هذه المرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية للجهاد(٣٨) .

انتشار الإسلام في مصر :

لقد مضى الإسلام متدرجا في خطى بطيئة أحيانا وفي خطى سريعة في معظم الأحايين حتى غدا – عند منتصف القرن الرابع الهجري – (العاشر الميلادي تقريبا) – دين الغالبية العظمى من أهل البلاد . ولم تتوقف حركة انتشار الإسلام بين أهل مصر عند هذا التاريخ ، بل مضت في طريقها ، ولم تخل القرون التالية حتى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) من اعتناق الأقباط الإسلام . على الرغم من سكوت المصادر العربية عن التأريخ لانتشار الدعوة الإسلامية في مصر ، كما لم تعرض لها دراسات متكاملة بعد ، اللهم إلّا بعض إشارات وردت في مؤلفات بعض المؤرخين المصريين النصارى ابتداء من القرن الرابع الهجري ، عن موجات كبيرة من التحول إلى الإسلام في القرون الثاني والثالث والخامس للهجرة بصفة خاصة ، يضاف إلى ذلك استقراء بعض البيانات التي وردت في بعض المصادر العربية عن تطور مقادير الجزية المفروضة على القادرين من

غير المسلمين . فبدراسة هذه المقادير وتتبعها نجد أنها كانت تتناقص تناقصًا سريعًا مطردًا فقد انخفضت هذه المقادير من اثني عشر مليون دينار سنويا في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٤ – ٣٥ هـ)/ (٦٤٤ – ٦٥٥ م) إلى خمسة ملايين دينار في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (٤١ – ٦١ هـ)/(٦٦١ – ٦٨٠ م) إلى أربعة ملايين في خلافة الرشيد (١٧٠ – ١٩٤ هـ)/ (٧٨٦ – ٨٠٨ م) وبعد ذلك أصبح ما يجبيه الخلفاء حوالي ثلاثة ملايين دينار[٣٩] وذلك باستثناء فترات معينة .

ولا يعني سرعة انتشار الإسلام – وعلى نطاق واسع بين المصريين – أن الدولة الإسلامية كانت تكره الناس على الدخول في الإسلام ، أو تمارس أي ضغط بقصد نشر الإسلام . ويتضح ذلك من متابعة أحداث الفتح الإسلامي لمصر ، والتعرف على السياسة التي انتهجتها الدولة الإسلامية نحو سكانها . ويتضح من تتبع سياسة المسلمين في الفتح عموما أنهم لم يكونوا يستجيزون حصارا ولا يناجزون قتالا إلا بعد أن يعرضوا الدعوة ويبثوا الدعاة ويوفدوا إلى المقاتلة الوفود ، يعرضون إحدى ثلاث خصال ، « الإسلام أو الجزية وإلّا فالقتال » وقد نهج المسلمون هذا النهج في فتوح العراق والشام واتبعوه كذلك في مصر ، فقد نشطت الرسل في حصار بابليون بين – عمرو بن العاص وبين المقوقس – ونقلت إلينا أنباء الفتح ما دار في مجالس هؤلاء الرسل من أحاديث سواء كان ذلك نصوص هذه الأحاديث أم موضوعاتها[٤٠] .

والمعروف أن أهل مصر – حتى الفتح العربي الإسلامي لبلادهم – كانت قد أنهكتهم الأعباء المالية والاضطهادات الدينية تحت حكم الروم ، حتى لتتجلى لنا من ثنايا كتابات بعض المؤرخين المصريين النصارى مدى العداوة بينهم وبين الروم[٤١] . ولذا ليس غريبا أن يرحب المصريون بالعرب المسلمين باعتبارهم منقذين لهم من حكم الروم الجائر . وتشير بعض المصادر النصرانية المعاصرة إلى ما يؤيد هذا المعنى فيقول حنا النقيوسي : « إن المصريين الذين تركوا الدين المسيحي وأسلموا صحبوا جيوش العرب أثناء الفتح »[٤٢] و لم يقتصر الأمر على الترحيب بالمسلمين والفرح بلقائهم ، بل تعاونوا مع المسلمين تعاونا كان ذا أثر في تيسير عملية الفتح من غير أن يشاركوا في القتال بطبيعة

الحال ، فيسوق ابن عبد الحكم طائفة من الروايات بطرق متعددة عن مساعدة القبط للمسلمين في مراحل مختلفة من مراحل الفتح فيقول : « وخرج معه (عمرو بن العاص) جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم »[٤٣] ، وفي موضع آخر يقول : « فنزل المسلمون .. ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة »[٤٤] .

أما الروم فقد وقفوا من المسلمين موقف المقاومة بوجه عام ، وإن كانت منهم قلة مسالمة اعتصمت بالهدوء ، وطبقة طامعة أيدت المسلمين ، بيد أن القبط – وهم غالبية سكان مصر وقتذاك – فقد وقفوا – كما رأينا – موقفا مشربا بالتقدير ونظروا للمسلمين على أنهم منقذون وقد عبروا عن مشاعرهم هذه ببعض المساعدات للجيش الإسلامي المتقدم[٤٥] .

لم يجد القبط إذًا في المسلمين عدوا لهم ولا لدينهم الذي يرتضونه كما كان الروم ، بل كفل المسلمون لأهل مصر « الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم[٤٦] ..» فقد كان من بين ما حرص عليه المسلمون أن يتيحو للأقباط الحرية والأمن بعد أن حاول الروم الضغط على حرياتهم وعقائدهم ، ويدلل ابن عبد الحكم على هذا الاتجاه في الدعوة الإسلامية بما اتخذه الخليفة عمر بن الخطاب في شأن السبايا الذين سباهم المسلمون من ثلاث قرى قبطية ظاهرت الروم وفتحها المسلمون عنوة وقد وقع هذا السبي في المدينة فرده الخليفة عمر وصيّرهم إلى قراهم وطلب تخيير الأسير » فإن أسلم فهو من المسلمين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، وإن اختار دينه فخلوا بينه وبين قريته[٤٧] ، وبذلك يكون من أهل الذمة ، وقد اختار كثير منهم الإسلام .

وتتواتر الشواهد على الحرية الدينية التي كفلها المسلمون لأهل مصر في كتابات المسلمين وغير المسلمين ومن مظاهرها : ما كان من دعوة عمرو بن العاص – بعد فتح الإسكندرية – القبطي بنيامين في كتب بعث بها إلى جميع أقاليم مصر : « أن يحضر آمنا مطمئنا ويدبر حالة بيعته وسياسة طائفته[٤٨] ، ثم ما كان من عودة بنيامين – بعد

اختفائه طوال حكم قيرس ، وحفاوة عمرو بن العاص به ، ومنحه الحرية في الإشراف على الكنائس ورعاية أحوال القبط وعودة كثيرين ممن كانوا قد اختفوا هربا من اضطهادات قيرس[٤٩] . كما تتمثل الحرية الدينية التي كفلها المسلمون في مصر في السماح للقبط بإصلاح كنائسهم التى تهدمت أيام اضطهادات قيرس . وكانت أول كنيسة بنيت في الفسطاط في ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦١ هـ / ٦٦٧ - ٦٨٠ م) هذا فضلا عما بني منها في الفسطاط ، والجيزة وحلوان والإسكندرية وغيرها طوال العصرين الأموي والعباسي[٥٠] .

كذلك تدل السياسة المالية للمسلمين في مصر على حرصهم على العدل وتجنبهم أي ضغط على أهل البلاد ، والتزم المسلمون بتطبيق شروط الصلح - فيما يتعلق بالجزية ، « فكانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين على كل رجل لا يزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين ، إلّا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع .. »[٥١] وليس من شك أن الجزية التي كان يقرّها الإسلام إنما كانت مقابل كفالة الحماية والمنعة من كل ما يعرض للدماء والأموال والأرض . وبهذا حرر المسلمون سكان مصر من نظام ضرائبي ثقيل معقد فرضه الروم واكتفوا بقدر من الجزية صالحوهم عليه ، وكان قدرا يسيرا إذا هو قيس بما كان من قبل[٥٢] .

كذلك أباح المسلمون وظائف الدولة للأقباط محتفظين لأنفسهم بالمناصب العليا التي تضمن إنفاذ أحكام الدين وإقرار الأمن وتأمين سلامة الجيش ، وتحركه لمواجهة العدوان . ويبدو أن القبط قد حلوا محل الروم الذين غادروا مصر وكانوا يشغلون كثيرا من الأعمال فيها ، أما الذين اختاروا البقاء منهم في مصر ، فإنهم تولوا بعض الوظائف في المراحل الأولى من الحكم الإسلامي .

كيف انتشر الإسلام في مصـــر ؟

ما من شك في أن الإسلام قد وجد ، في مصر ، أرضا خصبة وذلك على الرغم من حرص المصريين على ما يدينون به ، فقد استجاب للإسلام كثير من القبط والروم المقيمين فيها عن رغبة وسلامة اعتقاد ولعل طلائع أولئك المسلمين المصريين كانوا من بين الأسرى

الذين أخذهم المسلمون الفاتحون ووزّعوا في المدينة ثم أعادهم الخليفة عمر بن الخطاب وقال قولته المعروفة « لا فيْءَ ولا عبيد » . لما خيّر هؤلاء – كما سبق القول – بين الإسلام وبين البقاء على دينهم مع أداء الجزية ،فاختار كثير منهم الإسلام(٥٣) .

وممن استجاب لدعوة الإسلام ، وأقبل عليه عن إيمان بمبادئه السامية ، فريق من المصريين أولي الألباب الذين كانوا يحسّون أعمق القلق في حياة النصرانية وتطاحن فرقها وتنازع مذاهبها واضطهاد بعضهم بعضا ، فاتجه أولئك إلى الإسلام يعتصمون بعروته الوثقى ويستظلون بأمنه وسماحته(٥٤) . يضاف إليهم فريق اعتنق الإسلام وانضم إلى العرب الفاتحين ، وحاربوا إلى جانبهم ، بعد إسلامهم ، وكان من هؤلاء يوحنا أحد رهبان دير سيناء(٥٥) ، كما كان والي الصعيد في عهد عبد العزيز بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ / ٦٨٤ – ٧٠٥ م) قبطيا اسمه بطرس اعتنق الإسلام(٥٦) .

علي أن هذه المرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية في مصر قد شهدت أيضا اعتناق كثير من الروم الذين استقروا في مصر الإسلام ودخلوا فيما دخل فيه القبط من الذمة بعد هزيمتهم ، ولعل هؤلاء انضموا إلى مسلمة الروم الذين عاشوا في خططهم المعروفة بالحمراوات الثلاث بالفسطاط ، أو عاشوا في الإسكندرية أو غيرها من المدن المصرية .

وثم فئة من القبط استجابت للإسلام ، بعد أن استقر الفتح الإسلامي ، ولعل هذه الفئة تمثل قطاعا واسعا من عامة القبط الذين سقطت عنهم الجزية بإسلامهم ، بعد أن عايشوا الإسلام ودعاته ونشربوا مبادئه وقيمه . ولكن كيف يأتى هذا ، وقد سبق القول أن المسلمين الفاتحين ومن لحق بهم عقب الفتح ، لم يسمح لهم بامتلاك الأرض والزرع ، وبالتالي لم يتمكنوا من الاتصال بالقبط حتى يؤثروا فيهم ويكونوا سبيلا لانتشار الإسلام بينهم .

والواقع أن العرب المسلمين الفاتحين الذين اختطوا الفسطاط وغيرها وعاشوا في معكسرات أو مدن لم يكونوا يقيمون فيها بصفة دائمة ، إذ كانو يتحركون داخل البلاد لأسباب مختلفة ، منها : الارتباع(٥٧) . فكانوا ينتقلون كل ربيع إلى القرى المصرية لإطعام خيولهم وتسمينها ، فهي عدة من عدد الجيش المجاهد الذي يحمي البلاد . وقد

وضع لحركة الارتباع نظام مرسوم لتحديد مجالاتها ، والقرى التي تذهب إليها القبائل ، وكانت تتركز في الغالب في أقاليم تشكل دائرة مركزها الفسطاط ، وتشمل قرى وسط الدلتا وشرقيها وإقليم الفيوم ومصر الوسطى(٥٨) . كما كان المرتبعون يزودون بتوجيهات الولاة التي تتضمن أسلوب التعامل وآدابه مع أهل البلاد(٥٩) . ويمكن اعتبار حركة الارتباع هذه ، هجرة داخلية موسمية تتجدّد كل عام ولمدة ثلاثة أو أربعة شهور – هى مدة فصل الربيع –. ولا نزاع في أن موسم الارتباع يتضمن فرصا متعددة للاتصال المباشر بين العرب المسلمين والمصريين يتهيأ خلالها تبادل الصلات والمؤثرات ويتم التعايش ، ويتعرف القبط – عن قرب – على الإسلام عقيدة وأسلوب حياة ، فيقبلون على اعتناقه عن رضا وحسن اعتقاد ، وتسقط الجزية بإسلامهم . ولعل هذا هو سر انخفاض متحصل الجزية في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان : إلى خمسة ملايين دينار بدلا من اثني عشر مليون دينار في عهد الخليفة عثمان بن عفان .

ولم تتوقف حركة الإسلام في العهد الأموي ، بل زاد إقبال القبط على اعتناق الإسلام ، وذلك على الرغم مما بدا من سخط الكثير من النصارى وقلقهم في هذا العهد . ولم يكن مبعث سخط الساخطين تدخل الدولة الإسلامية في الحرية الدينية للنصارى أو فرض الإسلام عليهم فرضا ، إنما كان يتعلق بالدافع إلى السخط – حين يوجد – بالسياسة المالية في الغالب . ذلك أن الدولة الأموية كانت في حاجة إلى المال لتنفيذ سياستها الداخلية والخارجية . فلجأ بعض الولاة إلى فرض جزية جديدة على الرهبان ، وتحميل جزية موتى أهل الذمة على أحيائهم(٦٠) ، فضلا عن رفع مقدار خراج الأرض ، وجاء هذا التشدد محاولة – غير مقبولة – لتعويض ما نقص من حصيلة الجزية نتيجة دخول كثير من النصارى فى الإسلام ، وسقوط الجزية عنهم بإسلامهم(٦١) . ولما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) / ٧١٧ – ٧١٩ م) أصدر قرارا يقضي بـ « وضع الجزية عمّن أسلم من أهل الذمة من أهل مصر ، وألحق في الديوان صلح من أسلم منهم في عشائر أسلموا على يديه »(٦٢) . ويبدو أنه كان لهذا القرار أثر كبير في اعتناق كثير من أهل الذمة الإسلام . مما أدى إلى نقص حصيلة الجزية حتى شكا حيان بن سريج متولي الخراج في مصر من عجز في مالية الولاية بعد إسقاط الجزية

عمّن أسلم ، فرد عليه الخليفة بقوله : « .. فضع الجزية عمّن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا و لم يبعثه جابيا ، ولعمري لعمر أحقر من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه »(٦٣) .

على أن السياسة الأموية اضطربت في هذا الصدد و لم تثبت على حال واحدة ، بل كانت تخضع لمدى حاجة الدولة إلى المال ، فيشتد عمال الخراج في جبايتها والزيادة في مقدارها ودافعيها وحصيلتها(٦٤) . ولكن لم تتوقف حركة الإسلام على أية حال ، بل سارت قدما ، حتى إذا قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) أصدر الخليفة أبو العباس السفاح (١٣٢ – ١٣٧ هـ / ٧٥٠ – ٧٥٤ م) إقرارا بإعفاء كل من يعتنق الإسلام ويقيم شعائره من الجزية ، فاعتنق كثير من القبط أغنياء كانوا أو فقراء الإسلام(٦٥) .

أما الساخطون من القبط الذين سخطوا على حكامهم سياستهم المالية أو ما إليها فقد كان منهم من ترك سبيل المقاومة السلبية ونزع إلى مقاومة الإدارة الإسلامية في مصر ، فثاروا لأول مرة سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) وتتابعت الثورات في الوجهين القبلي والبحري وظلت أكثر من قرن ، ولكن دوافع هذه الثورات لم تكن دينية بل مالية كما سبق القول فقد اشترك بعض العرب المسلمين في هذه الثورات بسبب خضوع الأراضي التي امتلكوها لجباية الخراج وزيادة الأعباء المالية عليهم(٦٦) كذلك . وانتهت هذه الثورات من جانب القبط والعرب المسلمين معا بقدوم الخليفة المأمون إلى مصر سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) لمواجهة الأمر بنفسه .

واستتبع إخماد ثورات القبط ، وإعفاء من يسلم منهم من الجزية دخول أعداد كبيرة منهم في الإسلام .

تعريب الدواوين واستعراب مصر الشامل :

وثمة تطور وثيق الاتصال والتأثير بالنسبة لحركة الإسلام واطرادها هو تعريب الدواوين سنة ٨٧ هـ / (٧٠٦ م) ، إذ تقرر أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدواوين بدلا من اللغتين اليونانية والقبطية ، وهكذا شغل العرب المسلمون مناصب كان

يشغلها أهل الذمّة وحدهم وشغلها أيضا المصريون الذين تعلموا اللغة العربية وقد اشترط الإسلام لتولي الوظائف العامة منذ عهد عمر بن عبد العزيز ، وأدى هذا الشرط إلى انتشار الإسلام بين كثير من الموظفين(٦٧) .

ويسوق الحديث عن تعريب الدواوين وما كان له من اتصال وتأثير بالنسبة لانتشار الإسلام – بصورة جزئية – إلى استعراب البلاد جميعها عرقيا ولغويا ، وعلاقة هذا الاستعراب بسرعة انتشار الإسلام في مصر بحيث غدا الإسلام منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) دين الغالبية العظمى لأهل البلاد ولقد كان جيش عمرو بن العاص بمختلف جماعاته النواة الأولى للمجتمع الإسلامي في مصر ومعظمه من قبائل الجنوب ثم أخذت القبائل العربية تفد إلى مصر بانتظام في صورة جيوش مجندة يبعث بها الخلفاء وقد بلغ عدد الجيش العربي الإسلامي في مصر زمن معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفا(٦٨) ، وبلغ في عهد مروان بن الحكم (٦٤ – ٦٥ هـ / ٧٢٣ – ٧٤٠ م) أكثر من ٨٠ ألفًا(٦٩) . ولما كان عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ / ٧٢٣ – ٧٤٢ م) حدث تطور في تاريخ القبائل العربية بمصر ، فقد نقلت في عهده إلى مصر بطون كثيرة من قيس سنة ١٠٩ هـ / (٧٢٧ م) ، بلغت ثلاثة آلاف بيت ، بيد أنهم لم ينزلوا الفسطاط ، بل نزلوا بلبيس واشتغلوا بالزراعة وتربية الخيل ورعي الإبل والتجارة بين مصر والشام والمغرب والحجاز . وهكذا وجد العرب بالقرى المصرية واشتغلوا بالزراعة واختلطوا بأهالي البلاد ، وكان لهذا الاختلاط أثره في انتشار الإسلام نتيجة للتزاوج أو الموالاة بينهم وبين أهالي البلاد . يقول المقريزي(٧٠) :

« ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلّا بعد المائة من تاريخ الهجرة » .

لم يتوقف وفود القبائل العربية المختلفة إلى مصر . وحين تعاقب الولاة على حكم مصر صحب معظمهم رجال قبائلهم الذين آثروا سكنى مصر ، ولم يبرحوها إلى الجزيرة العربية ، كما أخذت قبائل كاملة تنتشر في جهات مصر المختلفة – من الدلتا إلى أقصى الجنوب من الصعيد وتمثل هذه القبائل المجموعتين العربيتين الكبيرتين – القحطانيين

والعدنانيين – فمن القحطانيين : بنو جذام وبلى ، وجهينة ، ولخم ، ومن العدنانيين : كنانة ، وقريش ، وقيس عيلان ، وفزارة ، وبنو هلال ، وبنو سليم ، وربيعة وبنو كنز[٧١] .

وطرأ على حياة القبائل العربية في مصر ابتداء من العقد الثاني من القرن الثالث الهجري ، ما أدى إلى الاندماج الحقيقي بين العرب وأهل البلاد . فقد أصدر الخليفة المعتصم العباسي (٢١٨ – ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ – ٨٤٢ م) قرارا بإسقاط العرب من ديوان العطاء وبذا فقدت القبائل العربية في مصر ما كان لها من امتيازات عسكرية وإدارية ومالية ، وأخذت تنزح جماعات إلى ريف مصر ، وتستقر فيه ، وتشتغل بالزراعة والصناعة والتجارة ، وتختلط بأهل البلاد ، ولم يلبث أن اندمجت معهم تماما عن طريق المصاهرة . وإذا كان العرب ظلوا يحتفظون بأنسابهم العربية مدة قرنين – كما تدل على ذلك شواهد القبور في أسوان والفسطاط – فإن ذلك الحال لم يلبث أن تغير ابتداء من القرن الثالث الهجري . وتشير شواهد القبور التي عثر عليها في أقاليم مصر المختلفة أن العرب بدأوا ينسبون أنفسهم إلى مصر أو الإقليم الذي ينتسب إليه المتوفى[٧٢] . ويعني هذا التطور الجديد – ابتداء من القرن الثالث الهجري – أن الدماء العربية اختلطت بدماء المصريين الذين أسلموا وانتهى الأمر بتمصير العرب الذين وفدوا إلى مصر واستوطنوها وتعريب المصريين أنفسهم أهل البلاد الأصليين ، وظهور ذلك الإنسان المصري بيئة ، المسلم دينا ، العربي لغة[٧٣] . فقد تبع انتشار الإسلام في مصر ، انتشار اللغة العربية – لغة القرآن الكريم ، فصارت لغة الكتابة ولغة التخاطب . ولم تلبث اللغة العربية أن أصبحت لغة الأغلبية المسلمة فضلا عن الأقلية غير المسلمة ، أو بمعنى آخر أصبحت لغة المصريين جميعا ، واختفت اللغة القبطية وأخذ أهل الفكر من نصارى مصر يكتبون تاريخهم باللغة العربية بدلا من القبطية منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ومن هؤلاء : سعيد بن بطريق الذي كتب كتابا في « التاريخ » باللغة العربية في القرن الرابع الهجري ، كما أرّخ ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين للبطاركة أواخر القرن الرابع

الهجري باللغة العربية وقد ترجم إليها ما اجتمع لديه من وثائق يونانية وقبطية[٧٤] .

كذلك أخذت الثقافة العربية الإسلامية في الظهور بمصر عقب الفتح الإسلامي لمصر وكان روادها من صحابة رسول الله ﷺ الوافدين إلى مصر الذين اضطلعوا بتعليم الناس أصول الدين وعلوم القرآن والحديث والفقه ، ومن أشهرهم : عبد الله بن عمرو بن العاص[٧٥] . ونشأت في مصر – على أيدي أولئك الرواد ومن لحق بهم من التابعين وتابعيهم مدرسة مصر الإسلامية . ونمت هذه المدرسة بإطراد وقوي عودها ، وأعان على ذلك وفود عدد من التابعين وحملة لواء العلم من جهة ، وإقبال القبائل العربية النازحة إلى مصر على تلك الثقافة الإسلامية واعتناق المصريين الإسلام وإتقانهم اللغة العربية ، وتلقيهم تلك العلوم ، وهضمهم لها من جهة أخرى[٧٦] . وقد اشتهر من مدرسة مصر – بعد الصحابة – بعض الموالي مثل يزيد بن أبي حبيب – النوبي الأصل ، الذي أخذ عن الصحابة الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم . ويقال « إنه أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام ومسائل الفقه ... وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا فيهم »[٧٧] وانتهت رئاسة مدرسة مصر في أواخر العصر الأموي لطائفة من علماء مصر وفقهائها في ذلك العصر ، وفي مقدمتهم عبد الله بن لهيعة ، والليث بن سعد ، وقد كانت هذه المدرسة القاعدة الأساسية لدراسة العلوم الإسلامية والعربية التي ازدهرت في مصر من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وغدت مصر ومدرستها رافدًا لهذه الدراسات إلى جانب روافد العراق والشام وغيرهما وكلها تتضافر على خدمة الإسلام وعلومه ودعوته .

انتشــار الإسلام في الســودان :

أطلق اسم السودان – كما هو معروف – على جميع أقاليم شبه الصحراء والحشائش الإفريقية التي انتشر فيها الإسلام . وتمتد هذه الأقاليم جنوبى الصحراء الكبرى ، من المحيط الأطلنطي في الغرب إلى البحر الأحمر في الشرق وتساير حدودها الجنوبية ، نطاق الغابات الاستوائية بصفة عامة .

وتنقسم هذه الأقاليم إلى ثلاثة أقسام هى :

١ – السودان الغربي : ويشمل حوض نهر السنغال ، ونهر غمبيا ،والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر .

٢ – السودان الأوسط : ويشمل حوض تشاد .

وهذان الإقليمان يطلق عليهما معا اسم « غربي إفريقية » من الغرب إلى الشرق : ويضمان مملكة مالي ، ثم سنغي ، وإمارات الهوسا ، ومملكة الكانم وبرنو .

٣ – السودان الشرقي : ويشمل الحوض الأوسط لنهر النيل ، وهو ما يعرف بسودان وادي النيل الذي تحتويه جمهورية السودان حاليا . هذا ، وقد عرف معظم سودان وادي النيل في العصور الوسطى باسم النوبة . ومن ثم كانت بلاد النوبة أكبر مساحة مما هي عليه الآن .

فقد اشتملت النوبة وقتذاك – على أجزاء وادى النيل الممتدة من أسوان في الشمال ، إلى جنوب التقاء النيلين الأبيض والأزرق ، في الجنوب ، وذلك بالإضافة إلى مناطق من حوض النيل الأزرق وأرض البطانة ، حتى أطراف الهضبة الحبشية شرقا وأقاليم كردفان ودارفور غربا .

وبهذا المعنى كانت النوبة في العصور الوسطى هى بذاتها سودان وادى النيل ، الذي عرفه التاريخ . ولم يكن الإقليم المشهور الآن ، باسم جنوب السودان معروفا عنه كثير شيء ، قبل القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي .

بين انتشار الإسلام في غربي إفريقية وانتشاره في سودان وادي النيل :

يجد الباحث في تاريخ انتشار الدعوة الإسلامية في إفريقية تشابها كبيرا بين عوامل انتشار الإسلام ومراحله ونتائجه في غربي إفريقية وفي سودان وادي النيل . وكما ساعد اتصال غربي إفريقية ببلاد المغرب على انتشار الإسلام وارتبط بتطوره فيه ، ساعد اتصال سودان وادي النيل بمصر وبالجزيرة العربية على انتشار الإسلام وارتبط بتطوره فيه كذلك .

وكلا القطرين تأثر بالهجرات البدوية . وقد تأثر غربي إفريقية بهجرات البربر ، ولاسيما الملثمين وتأثر سودان وادي النيل ، بالهجرات العربية . ذلك أنها حملت إليه الإسلام ، وطبعته بالطابع العربي ، الذي لا يزال قويا حتى اليوم .

وتوقف امتداد الإسلام وانتشاره في غربي إفريقية ، على مدى مقاومة مملكة غانة الزنجية الوثنية للتيار الإسلامي الذي حمله الملثمون . ولما انهارت هذه المملكة ، انفتح المجال أمام الهجرات النشطة ، التي أشاعت الإسلام في غربي إفريقية كذلك وقفت ممالك النوبة النصرانية عقبة – أول الأمر – أمام الهجرات العربية المتدافعة من الشمال . فلما انهارت هذه الممالك في القرنين الثامن والتاسع للهجرة (١٣ – ١٤ م) انفتح الباب على مصراعيه أمام تدفق التيارات الإسلامية .

ومثلما يكون التشابه في مجال المقاومة لحركة الإسلام في الإقليمين لبعض الوقت ، يكون التشابه أيضا في النتائج إلى حد معين . فالهجرات هى التي حملت الإسلام والثقافة العربية الإسلامية إلى الإقليمين . وكان من شأنها أيضا أن ينتشر الإسلام بين أهل البلاد الأصليين ، وكان من شأن أهل البلاد الأصليين أن يأخذوا عن المهاجرين أساليبهم . ومن ثم انتقل الزمام إلى أيديهم ، وأقاموا دولا إسلامية محلية ، تبنت عملية نشر الإسلام وخدمة ثقافته بوسائلها .

بلاد النوبة في العصور الوسطى : دولة مروى وانهيارها :

ولكي نتعرف علي طبيعة اللقاء الذي تم بين العرب المسلمين والنوبيين أهل البلاد الأصليين في سودان وادي النيل ، ولكي نتبين مدى مقاومتهم للنفوذ العربي الإسلامي وبالتالي لوصول الإسلام ودعوته إلى الله في بلادهم ، ينبغي أن نتعرف في إيجاز على مقومات حضارة بلاد النوبة في العصور الوسطى لمعرفة ما لهذه المقومات من أثر ، في مقاومة الضغط العربي والمؤثرات الإسلامية في سودان وادي النيل لبعض الوقت .

هذا وكانت بلاد النوبة جزءا من دولة مروى القديمة ، التي امتدت من الشلال الأول جنوبا إلى جهات النيل الأزرق وكردفان . وفي حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي ، أغارت مملكة أكسوم الحبشية بقيادة الملك عيزانا ، على جهات حوض النيل الأوسط . وقد أدت هذه الغزوة إلى انهيار مملكة مروى ومن ثم انقسمت إلى إمارات صغيرة ، تحت حكم أمراء وطنيين محليين .

وقد استطاع بعض أولئك الأمراء ، أن يتوسع على حساب البعض الآخر ، فنشأت

ثلاث ممالك مستقلة استقلالا كليا . وكان من شأن هذه الممالك الثلاث ، أن تستقبل الدعوة النصرانية ، وأن تقبل التبشير رسميا في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي[1] .

الممالك النوبية النصرانية :

وهكذا أصبحت هذه الممالك النوبية نصرانية وهذه الممالك هى :

١ – مملكة نوباتيا وعاصمتها نخراش أي فرس : وتمتد من بلدة أسوان إلى قرية عكاشة جنوب الشلال الثاني .

٢ – مملكة مقرة ، وعاصمتها دنقلة العجوز : وتمتد من قرية عكاشة إلى بلدة الأبواب (كبوشية الحالية) .

٣ – مملكة علوة وعاصمتها سوبا : وتمتد جنوبي مملكة مقرة حتى بلدة القطينة على النيل الأبيض[2] .

وقد شملت هذه المملكة الأخيرة ، بعض جهات العطبرة والنيل الأزرق شرقا حتى حدود الحبشة كما شملت جهات كردفان ودارفور غربا .

وفيما بين سنتي ٥٨٠ – ٦٥٢ ميلادية ، اتحدت المملكتان الشماليتان – نوباتيا ومقرّة – في مملكة واحدة . وقد عرفت هذه المملكة في شكلها الجديد باسم مملكة مقرّة أو مملكة النوبة ، كما عرف القطاع الشمالي منها « نوباتيا » باسم مريس .

مملكتا مقرّة وعلوة وحضارتهما :

هذا وقد ورثت هاتان المملكتان – مقرة وعلوة – ما خلفته دولة مروى القديمة ، من مظاهر حضارية . وكان من شأن هذه المظاهر الحضارية أن تكوّن مزيجا من ثقافات مصرية ويونانية ورومانية ، مصدرها مصر – فضلا عن ثقافات حبشية سبئية . وقد اختلط هذا المزيج الثقافي بآثار محلية بدائية .

وعلى الرغم من استقلال هذه الممالك سياسيا عن مصر في العصور الوسطى ، فإن المؤثرات الثقافية والبشرية ، ظلت تشق طريقها إليها من مصر . ويتجلى ذلك بكل

وضوح في دولة مقرّة لقربها من مصر فالنصرانية شأنها شأن الحضارة المصرية القديمة ، دخلت السودان من الشمال . هذا فضلا عن انتشار اللغة القبطية في النوبة الشمالية « دولة مقرة » واستخدامها إلى جانب اللغة النوبية في تحرير الوثائق الرسمية ، وفي الأغراض الدينية كذلك(٣) .

ويتصف الدور النصراني من تاريخ النوبة ، بطابع حضاري خاص ، ويبدو ذلك الطابع واضحا ، في نظمها السياسية ، والإدارية ، وفي حياة أهلها الاجتماعية والدينية .

وبلاد النوبة (مقرة وعلوة) حكمت حكما ملكيا مطلقا . وقد تمتع ملوكها بنفوذ مطلق على الرعية وكان من شأن الملوك أن يملكوا الأرض ومن عليها ، ورعاياهم عبيد لهم . وجرى العرف في وراثة العرش النوبي على نظام الأمومة(٤) . كما قضي نظام الحكم بتقسيم المملكة إلى ولايات أو ممالك صغيرة . وقد عرف حكام هذه الولايات باسم الملوك ، وقد مارس هؤلاء الملوك الصغار وجميعهم من الكهنة ، سلطات إدارية ودينية في وقت واحد(٥) .

وكانت للمجتمع النوبي خصائص معينة انفرد بها . فقام فيه نوع غريب من الإقطاع . وكانت الأسرة المالكة وفروعها في الأقاليم ، تمثل الطبقة الأرستقراطية التي مارست وحدها حقوقا سياسية ودينية . أما الشعب كله فكان يمثل طبقة العبيد ، وهي طبقة كادحة تعمل في الأرض التي لا تملك منها شيئا . وهم جميعا عبيد الملك ، يباعون ويشترون ويهدى بهم ويقوّمون مقام العملة(٦) . وكانت بين هاتين الطبقتين فئة تضم الموظفين الذين تولوا معظم الوظائف الملكية في العاصمة وفي الأقاليم .

واتجهت بلاد النوبة (مقرة وعلوة) في زعامتها الروحية إلى مصر . وكانت الكنيسة المصرية تمدها بالأساقفة المصريين ولم يؤد تقلّص مكانة الكنيسة المصرية في مصر بعد الفتح الإسلامي إلى تغيير كبير في أمر النصرانية في دولتي مقرة وعلوة – أول الأمر – بل نظمت الممالك النوبية النصرانية المقاومة ضد الزحف العربي الإسلامي ، شأنها في ذلك شأن مملكة غانة الوثنية التي نظمت المقاومة ضد الزحف الإسلامي في غربي إفريقية .

الدولة الإسلامية والنوبة النصرانية :

وتكاد أن تكون البداية في مقاومة مملكة غانة ومملكتي مقرة وعلوة لانتشار الإسلام وامتداد دولته واحدة في الحالتين ، فقد كانت حملات عقبة بن نافع المتوغلة في المغرب الأقصى ، أول سبيل لاتصال الفاتحين العرب المسلمين بغربي إفريقية ، وقبل عشرين عاما كانت حملة عقبة بن نافع أيضا في ولاية عمرو بن العاص ، أول سبيل لاتصال الفاتحين العرب المسلمين بالنوبة النصرانية .

وقد اتجهت أنظار المسلمين بعد أن تم لهم فتح مصر إلى فتح بلاد النوبة ولكن هل كان موقف النوبة من المسلمين عند فتح مصر موقفا عدائيا يتطلب من المسلمين حربهم ورد عدوانهم ؟

يبدو أن المسلمين استشعروا خطر النوبة عليهم في مصر لمظاهرة النوبيين للروم ومساعدتهم ضد المسلمين . وإذا كانت المصادر العربية لا تشير صراحة إلى مساعدة النوبيين للروم ضد المسلمين ، فإن ذكر اسم النوبة في عقد الصلح الذي عقد بين عمرو ابن العاص وبين قيرس (المقوقس) الوالي البيزنطي في مصر وهو العقد المعروف باسم : صلح عين شمس يدل دلالة واضحة على اشتراك النوبيين بصورة من الصور في القتال ضد المسلمين . فقد ورد في هذا الصلح : « ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا »(٧) .

والواضح من النص الوارد في هذه المعاهدة ، أن النوبيين اشتركوا مع الروم في قتال المسلمين ، وأنه كان بمصر ، عند الفتح العربي الإسلامي لها ، جالية بيزنطية (رومية) وجالية نوبية ، خيّرهم المسلمون بين الإقامة في مصر على أن يكون لهم ما لأهل مصر من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات – أي يصبحوا أهل ذمة – وبين العودة إلى بلادهم والخروج من سلطان المسلمين .

ولقد التقت رغبة الخليفة عمر بن الخطاب برغبة قائده عمرو بن العاص في مصر بضرورة غزو النوبة ، لضمان حماية أطراف مصر من ناحية الجنوب ضد أى اعتداء من

جانب النوبيين الذين كانوا – فيما يبدو – على علاقة طيبة بالروم وذلك فضلا عن رغبة المسلمين في تأمين طريق التجارة القديم الذي يربط مصر بقلب إفريقية . وقد أرسل عمرو بن العاص فرقة من الفرسان بقيادة عقبة بن نافع لفتح النوبة سنة ٢١ هـ (٦٤١ م)[٨] . والراجح أن عدد المسلمين في هذه الحملة لم يكن كبيرا ، بينما كانت خسائرهم كبيرة لشدة المقاومة التي أبداها النوبيون ، فضلا عن مهارة هؤلاء في الرمي بالسهام ، حتى أطلق عليهم المؤرخون العرب اسم : « رماة الحدق » وهكذا لم يستطع المسلمون التوغل جنوبا . ويبدو أن هذه المحاولة على كل حال لم تكن فاشلة تماما . وقد وردت فقرة أخرى في معاهدة الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس ، تنص على أن النوبة الذين يدخلون في صلح مع المسلمين عليهم دفع كذا وكذا من الرؤوس ، وفتح بلادهم لتجارة الصادر والوارد[٩] . ويتضح من هذا النص أن الطرفين الإسلامي والنوبي اتفقا على عقد هدنة بينهما في ذلك الوقت ، على غرار ما كان بين مصر البيزنطية والنوبة النصرانية قبل الفتح العربي لمصر . بيد أن النوبيين لم يحافظوا على العهد حين علموا بعزل عمرو بـن العاص ووفاة الخليفة عمر فكان على المسلمين رد هذا الاعتداء النوبي .

استعد عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي خلف عمرو بن العاص في ولاية مصر لمواجهة العدوان النوبي . وتمكن الجيش الإسلامي من التوغل جنوبا حتى دنقلة عاصمة مملكة النوبة النصرانية الشمالية (مقرّة) سنة (٣١ هـ / ٦٥٢ م) وحاصرها حصارا شديدا واستخدم المنجنيق في ضرب المدينة فخربت كنيستهم . ويقول المقريزي نقلا عن ابن سليم الأسواني : « فبهرهم (أى النوبيين) ذلك وطلب ملكهم واسمه قليدرت الصلح . وخرج إلى عبد الله وأبدى ضعفا ومسكنة وتواضعا ، فتلقاه عبد الله ورفعه وقرّبه ... »[١٠] .

معــاهـدة البـــقط :

على الرغم من النصر الحربي الذي أحرزه المسلمون على النوبة واستيلائهم على دنقلة عاصمة مملكة مقرة فإن عبد الله بن سعد قرّر عقد معاهدة مع النوبة عرفت باسم « البقط »[١١] ووعد عبد الله بن سعد بتقديم هدية سنوية من حبوب وملابس إلى النوبة

لما شكا له ملكها قلة الطعام في بلده . وكتب عبد الله بن سعد للنوبيين عهدا يعتبر أساسا للعلاقات القائمة بين الدولة الإسلامية والنوبة النصرانية وقتذاك . ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته ، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة ، من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة : أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة ، إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي ﷺ . أن لا نحاربكم ، ولا ننصب لكم حربا ، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم ، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم ، وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين ، ولا تستولوا عليه ، ولا تمنعوا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره ، إلى أن ينصرف عنه . وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصليا ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته . وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا ، تدفعونها إلى إمام المسلمين ، من أوسط رقيق بلادكم ، غير المعيب ، يكون فيها ذكران وإناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم ، تدفعون ذلك إلى والي أسوان . وليس على المسلمين دفع عدو عرض لكم ، ولا منعه من حد أرض علوة إلى أرض أسوان . فإن أنتم آويتم عبدا لمسلم ، أو قتلتم مسلما أو معاهدا ، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئا من الثلاثمائة رأس والستين رأسا فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمة رسول الله محمد ﷺ . ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح ، وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملّتكم . الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك » .

كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين[١٢] .

يتضح من دراسة هذه المعاهدة ، أنها تنص على حدود معلومة للملكة التي عقدت الصلح مع المسلمين ، وتمتد من أسوان شمالا إلى حد أرض علوة جنوبا ، فلا يشمل الصلح دولة علوة المسيحية لعدم وصول جيوش المسلمين إليها ، فضلا عن أن العقد لم يشر إلى قبائل البجة .

وينص هذا العقد كذلك علي تأمين أهل النوبة ، والتأكيد بعدم محاربتهم ما أقاموا على الشرائط التي عليهم للمسلمين ، ومنها : إرسال ٣٦٠ رأسا من أوسط رقيق بلادهم ، وحفظ من نزل بلدهم من مسلم أو معاهد ، وحفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتهم ، ولا يلتزم المسلمون بدفع عدو أو مغير على بلادهم ومما يلفت النظر في هذا العقد أنه ينص على ما يدفعه النوبيون في حين أنه لم يلزم المسلمين دفع شيء لهم ، أما إرسال كمية من الحبوب والملابس إلى النوبيين – التي صارت عرفا متبعا من جانب حكام المسلمين المتعاقبين – فإنما جاء نتيجة اقتناع عبد الله بن سعد بحاجتهم إليها لفقر بلادهم .

ويرى بعض المؤرخين أن هذا الصلح جعل النوبيين والمسلمين على قدم المساواة ، فلا غالب ولا مغلوب ، بدليل ما يدفعه المسلمون من أشياء مساوية تقريبا لما يدفعه النوبيون وقد تزيد فالمصلحة متبادلة بين الفريقين ، ويكاد أن يكون الاتفاق أشبه بمعاهدة تجارية[١٣] . وعلى الرغم مما لهذا الرأى من وجاهة تؤيدها الوقائع التاريخية ، فإن عدم التزام المسلمين بدفع شيء رسميا قد يدل من وجهة نظر المسلمين على التمتع بنوع من السيادة في بلاد النوبة . وأنه على الرغم من النصر الحربي الذي ناله المسلمون في بلاد النوبة ووصولهم إلى عاصمتهم دنقلة ، فإن المسلمين لم يطبقوا القواعد التي طبقوها على البلاد التي فتحوها عنوة ، فلم تفرض على أهل مملكة مقرة جزية أو خراج ، ولم يصبحوا في عداد أهل الذمة ، وربما كان لفقر بلادهم وسوء حالتها الاقتصادية أثر في إقناع المسلمين بعدم ضم أراضيها وأنه لن يكون عليهم بأس من أن تكون إلى جوارهم دولة نصرانية لا يخشون خطرها ، في وقت كان لا يزال يواجه المسلمين في المراحل الأولى للتوسع الإسلامي مشاكل كثيرة داخلية وخارجية آثروا التفرغ لها وتثبيت أقدامهم في

البلاد التي فتحوها ، والتغلب على محاولات الروم لاسترداد بعض ما فتحه المسلمون .

وينقل إلينا المؤرخون المسلمون آراء بعض فقهاء المسلمين حول هذه المعاهدة ، فيقول البلاذري نقلا عن يزيد بن أبي حبيب[١٤] : « ليس بيننا وبين الأساود (النوبة) عهد ولا ميثاق ، إنما هي هدنة بيننا وبينهم ، على أن نعطيهم شيئا من قمح وعدس ، ويعطونا رقيقا ، فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم »[١٥] . ويرى الليث بن سعد : « إنما الصلح بيننا وبين النوبة على ألا نقاتلهم ولا يقاتلونا وأن يعطونا رقيقا ونعطيهم بقدر ذلك طعاما ، فإن باعوا نساءهم لم أر بذلك بأسا أن تشترى »[١٦] . ويقول الطبري[١٧] نقلا عن ابن لهيعة : « .. وأمضى ذلك الصلح عثمان (بن عفان) ومن بعده من الولاة والأمراء ، وأقره عمر بن عبد العزيز ، نظرا منه للمسلمين وإبقاء عليهم » .

ويمكن أن يفسر هذا العقد مع مملكة مقرة بأنه معاهدة حسن جوار يحقق للمسلمين الاطمئنان على سلامة حدودهم من ناحية الجنوب ، وفتح تلك البلاد للتجارة ، والحصول على سواعد أهلها القوية في خدمة الدولة الإسلامية ، مع حفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية ونشر دعوة الإسلام وثقافته في بلاد النوبة ، بالطرق السلمية .

وإذا كان النوبيون حاولوا أحيانا الامتناع عن دفع البقط والإغارة على أطراف مصر الجنوبية للتخلص من تبعاتهم نحو الدولة الإسلامية فإن ذلك حدث في حالات نادرة كانوا يستشعرون خلالها ضعف السلطة المركزية في مصر ، وتعرض البلاد للقلاقل الداخلية . فكان ولاة مصر يقابلون تلك المحاولات العدوانية من أهل النوبة بردهم وغزو بلادهم وإرغامهم على الوفاء بالتزاماتهم .

وقد أتاحت الحملات التأديبية التي وجهها ولاة مصر ضد النوبة فرصة لبعض الجماعات العربية المشتركة فيها كي يتعرفوا على خصائص البيئة النوبية وربما استقروا في بعض جهاتها واختلطوا بالنوبيين وبخاصة في منطقة النوبة السفلى (مريس) .

ويبدو أن المسلمين قد أدركوا بكل الفطنة – منذ البداية – أثر الاتصال الطبيعي بين مصر والنوبة وأثر الانفتاح البشري والثقافي في تغذية النوبة بالدم العربي ، ونشر الثقافة

الإسلامية فيها ، ومن ثم لم يهتموا كثيرا بضم أراضيها أو إخضاعها لحكمهم كما أدركوا بكل الفطنة أيضا ، أثر الدور البناء الذي يقوم به التجار المسلمون في نشر الدعوة الإسلامية ، وهي دعوة إلى الله من شأنها ألا تفرض بحد السيف بل بالحجة والبرهان ، ومن خلال السلوك الإسلامي الطيّب المتميّز .

وينبغي ملاحظة ما يعنيه بناء مسجد في وقت سابق لحملة عبد الله بن أبي السرح على النوبة بناه التجار المسلمون المترددون على النوبة الذين لم تنقطع صلتهم بوادي النيل . وهكذا عرف الإسلام طريقه إلى بلاد النوبة في عصر مبكر سابق لأى توسع حربي و لم يكن في حاجة لاستخدام القوة أو القهر .

وهكذا تحدد لنا معاهدة البقط طبيعة انتشار الإسلام . فقد تخلى المسلمون عن ضم أراضي النوبة وبات الاعتماد كليا على الجهود الشخصية البحتة للمسلمين فانتشر الإسلام سلميا في هدوء من غير عنف ، وقد فتحت معاهدة البقط الأبواب أمام تلك المؤشرات الإسلامية لتنفذ سلميا إلى بلاد النوبة في هدوء وطمأنينة .

وعلى الرغم مما نصت عليه معاهدة البقط من عدم السماح للمسلمين بالدخول إلى بلاد النوبة إلّا للتجارة ، فإن الجماعات العربية المسلمة بالصعيد الأعلى من أرض مصر ، لم تتقيد كثيرا بهذا الشرط . وقد أفلحت في أن تتسرب ببطء إلى بلاد النوبة السفلى (مريس) . كما أفلحت في امتلاك الأرض واستغلالها لصالحهم وفي توارثها جيلا بعد جيل .

وقد تأثر النوبيون من أهل مريس في النوبة السفلى ، بهذه الجماعات الإسلامية المستقرة ، وأخذوا عنهم بعض تقاليدهم وعاداتهم الاجتماعية . ومن ثم لم يعترفوا لملكهم بالرق وصاروا أحرارا غير عبيد ، واعتنق كثير منهم الإسلام وحسن إسلامهم(١٨) .

وللصحراء الشرقية ، حيث تعيش قبائل البجاة (البجة) دور خطير في تاريخ بلاد النوبة بصفة عامة ، إذ المعروف أن تنقل الجماعات المختلفة بين أوطان البجاة وأوطان النوبيين كان أمرا مألوفا في العصور الوسطى ، ومع أن ولاة المسلمين في مصر ، لم يهتموا أول الأمر بالبجة ، إلا أن بعض اعتداءات البجة على صعيد مصر ، منذ منتصف القرن

الثاني للهجرة (٨ م) أدى إلى تجريد الحملات العسكرية لتأديبهم ، وكتابة عقد جديد بين الدولة الإسلامية في خلافة المأمون ، وبين البجة وذلك سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) وكان من أهم شروطه :

١ – أن تكون بلاد البجة من حد أسوان إلى حد ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة ، وأن يكون كبير البجة وأهل بلده عبيدا لأمير المؤمنين على أن يبقى كبيرهم كنون بن عبد العزيز ملكا عليهم .

٢ – أن يؤدى ملك البجة الخراج كل عام مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار لبيت مال المسلمين .

٣ – أن يحترم البجة الإسلام ، ولا يذكروه بسوء وألا يقتلوا مسلما أو ذميا حرا أو عبدا في أرض البجة أو في مصر أو النوبة وألا يعينوا أحدا على المسلمين .

٤ – إذا دخل أحد من المسلمين في بلاد البجة للتجارة أو الإقامة ، أو مجتازا للحج ، فهو آمن لآخر حدهم .

٥ – إذا دخل البجة صعيد مصر مجتازين ، أو تجارا لا يظهرون سلاحا ، ولا يدخلون المدائن والقرى .

٦ – ألا يهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر .

٧ – وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة[١٩] .

ويختلف هذا العقد كثيرا عن عقد عبد الله بن سعد . وموضع الأهمية هنا أن بلاد البجة حتى « مصوع » أصبحت جزءا من الدولة الإسلامية ، وصار يطبق عليها شروط البلاد التي تفتح بدليل فرض الخراج ، كذلك يدلّ شرط عدم التعرض للمسلمين بأذى سواء في بلاد البجة أو النوبة ، وشرط حفظ المساجد القائمة فعلا في بلاد البجة ، وجمع صدقات من أسلم من البجة – يدل ذلك كله – على دخول الإسلام في تلك الجهات وإقامة بعض المسلمين بها .

فكيف شق الإسلام طريقه إذن إلى أرض البجة الوثنيين ؟

تشير بعض الروايات التاريخية إلى نزوح جماعات عربية إسلامية من بلي وجهينة إلى تلك الجهات للتجارة عقب الفتح العربي الإسلامي لمصر ، وليس من المستبعد أن يتمكن أفرادها من نشر الإسلام بصورة جزئية في منتصف القرن الأول الهجري (٧ م) ففي رواية لابن حوقل ، أن أفرادا من البجة أسلموا إسلام تكليف ، وضبطوا بعض شرائط الإسلام ، وظاهروا بالشهادتين ودانوا ببعض الفرائض ولهذا سامحهم عبد الله بن سعد و لم يحاربهم[٢٠].

وتتواتر الروايات حول هجرات عربية إسلامية إلى أوطان البجة ، فقد عبرت جماعات من عرب هوازن البحر الأحمر حوالى أواخر القرن الثاني الهجري (٧ م) ، واستقرت في أرض البجاة حيث عرفوا باسم « الحالنقا » كما تشير الروايات التاريخية أيضا إلى التجاء فلول الأمويين إلى باضع (جزيرة الريح) كما أثبتت الأبحاث الأثرية وجود جاليات إسلامية في منطقة خورنبت قرب سواكن ، فقد عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثاني الهجري (٧٦٠ م) ، ودل البحث الأثرى كذلك على وجود مسجد في سنكات يرجع تاريخ بنائه إلى ٢١٦ هـ (٨٣١ م) .

وأدت الحملات التأديبية التي جردتها الدولة الإسلامية على أوطان البجة إلى استقرار كثير ممن اشتركوا فيها للعمل في مناجم المعدن بإقليم العلاقي ، كما أدت إلى هجرة قبائل عربية مختلفة ، وبخاصة بعد أن فقد العرب نفوذهم القديم بقطع العطاء عنهم وضغط الأتراك عليهم في مصر .

ومن خلال الاستيطان العربي الوافد من مصر لطلب المعدن ، اختلط العرب بالنوبيين والبجاة وتزوجوا من بناتهم . وأدى اختلاط هذه الجماعات العربية من ربيعة وجهينة على وجه الخصوص بالعناصر النوبية والبجاوية ، إلى تأثر الأخيرين بالدماء العربية . وكان من شأن هذه الدماء أن تتجدد باستمرار مع توالي وصول العناصر العربية ، المتطلعة إلى الاستيطان والتعايش . ولاشك أن اضطراب الأوضاع في العالم الإسلامي ، ونشوب الفتن والثورات ، قد حفزت التحرك في هذا الاتجاه ونشطته بشكل يلفت النظر . ومن خلال الاختلاط الذي دعمته مبادئ الانفتاح الإسلامي على كافة البشر ، أفلح الاستيطان العربي الإسلامي في نشر الثقافة الإسلامية بينهم ، ودعم الإسلام على تلك الأرض .

وجاء تأسيس أول إمارة عربية – إسلامية – (أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع

الهجري) / في حوالي أواخر القرن التاسع الميلادي بزعامة ربيعة في أرض العلاقي وإقليم أسوان – دليلا مؤكدا – على ما صار للعرب المسلمين من قوة في تلك الأرض ، كما جاء اعتراف الدولة الفاطمية بتلك الإمارة . شاهدا على شرعية وجودها ومكانتها . وقد استحق زعيم هذه الإمارة – أبو المكارم هبة الله – لقب كنز الدولة .

و لم يكن غريبا أن يتعاظم شأن هذه الإمارة ، وأن يستشعر الأيوبيون في مصر قوتها . ومن ثم حسب الأيوبيون لأمراء بني كنز كل حساب وخشوا خطرهم . وحمل عليهم الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٧٠ – ٥٧١ هـ / (١١٧٤ م) ، وأوقع بهم الهزيمة . وأدت هذه الهزيمة إلى تقويض إمارتهم، ورحيلهم عن بلدة أسوان ، و لم تعد بلدة أسوان بالفعل مركز إمارتهم .

اضمحلال الممالك وانتشار الإسلام في النوبة :

وكان من شأن هذا الرحيل أن يقذف بهم إلى أرض مريس (النوبة الشمالية) ، وأدى استقرارهم هناك إلى الانفتاح على سكان النوبة بما حقّق شكلا من أشكال الاندماج التام في التركيب الهيكلي للبناء البشري . و لم يكن غريبا أن يقترن ذلك كله بتحول معظم السكان النوبيين إلى الإسلام ومن ثم انسلخ النوبيون من أهل مريس عن سلطان ملك مقرة النصراني ، وقبلوا حكم بني كنز الذين تغلغوا في صميم كيانهم البشري والاقتصادي .

ويكشف عمل النوبيين بأعداد ضخمة في جيش مصر منذ عهد ابن طولون – على الأقل – عن ظاهرة هامة كانت ذات أثر في اضمحلال ممالك النوبة النصرانية وازدياد انتشار الإسلام فيها . وقد أدى نزوح النوبيين إلى مصر تنفيذا لمعاهدة البقط إلى استنزاف قوى هذه الممالك النصرانية . كما أخرجت مصر بعض العناصر غير المرغوب من سكانها في نظر ولاتها الأتراك – فيما بعد – إلى النوبة وكانوا جميعا من العرب المسلمين الذين انسابوا إلى تلك البلاد فأثروا تأثيرا بشريا وثقافيا فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة . وقد التحقت العناصر النوبية النازحة إلى مصر بطريق البقط أو غيره ، بجيش مصر وكان ابن طولون أول من استخدم النوبيين في الجيش الطولوني ، وبلغت عدتهم ٤٠ ألف سوداني[٢١] وهو عدد لا يستهان به ، وأقطعهم إقطاعا خاصا عرف باسمهم .

وبلغ من كثرة عددهم حدا استوجب معه تعيين حاجب خاص لصرف جراياتهم(٢٢) .
وبدا أن هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر تحولت مع الزمن إلى الإسلام ، بدليل ما يتردد في بعض المصادر العربية من شكوى أهل مصر من ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بالجند السودانيين(٢٣) .

ولم تتوقف عملية جلب النوبيين للعمل في الجيش المصري بعد وفاة ابن طولون ، بل استمرت في جيش الإخشيديين وبخاصة في عهد كافور النوبي (٣٥٥ – ٣٥٧ هـ / ٩٦٦ – ٩٦٨ م)(٢٤) ثم ازدادت أعدادهم في عهد الفاطميين ولاسيما في عهد المستنصر بالله (٢٤٧ هـ / ١٠٣٥ – ١٠٩٤ م) هذا فضلا عن طوائف سودانية (نوبية) كثيرة اتخذت أسماء خاصة وسكنت حارات خاصة بها كذلك . وشارك أولئك النوبيون في أحداث الدولة الفاطمية ثم الدولة الأيوبية . هذا وكان للنوبيات دور هام في الحياة المصرية ، فكثيرات منهن تخصصن في تربية أولاد السلاطين وتنظيم الأفراح والأعياد ، وترتيب شئون الحريم السلطاني(٢٥) .

ولم يكن دور العناصر النوبية النازحة إلى مصر مقصورا على تلك النواحي وحدها في الحياة المصرية من انخراط في الجيش ، أو ممارسة أعمال حرة في أحيائهم الكثيرة المنتشرة في القاهرة ، أو العمل في بيوت السلاطين والأمراء بل قدر لبعض فئاتهم أن تشارك مشاركة إيجابية في الحياة العربية الإسلامية في مصر قبل أن ينتشر الإسلام في بلادهم فتشير المراجع العربية إلى شخصيات نوبية اشتغلت بعلوم الدين وبرزت فيها مثل يزيد بن أبي حبيب وغيره كثير .

أما يزيد ، فأبوه أبو حبيب واسمه سويد ، كان من سبي النوبة الذين أسرهم المسلمون في حملتهم الثانية على النوبة سنة ٣١ هـ (٦٥١ – ٦٥٢ م) ونشأ ابنه يزيد نشأة عربية إسلامية . وقد أفادت يزيد صلاته بعدد من صحابة رسول الله ﷺ الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم فأصبح محدثا ومؤرخا وفقيها كذلك . وتتلمذ على يديه عدد من التلاميذ عدوا من أشهر فقهاء مصر الأوائل منهم الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة(٢٦) .

وليس من المستبعد أن يكون لتلك العناصر النوبية – فضلا عما قامت به في مصر –

أثر واضح في نشر الإسلام والثقافة العربية بين أهليهم في بلاد النوبة ذاتها حين كان يعاودهم الحنين لزيارتهم كما هى عادتهم حتى الوقت الحاضر .

وفي العصر المملوكي في مصر ، بدأت مرحلة حاسمة في تاريخ النوبة الشمالية (دولة مقرّة) ، وتبدأ هذه المرحلة بإغارة ملك النوبة داود على ثغر عيذاب وأسوان في سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) . وسواء كانت أسباب تلك الغارة ترجع إلى ازدياد النفوذ المملوكي على ساحل البحر الأحمر وضغطه على ممالك النوبة النصرانية أو إلى علاقة النوبيين بالصليبيين ، أو إلى مظاهرتهم لأقباط مصر في شكواهم من بعض إجراءات السلطان بيبرس (٦٥٨ – ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩ – ١٢٧٧ م) فإن السلطان أرسل حملة تأديبية سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) إلى بلاد النوبة .

ولم تظفر تلك الحملة بداود ، لكن ما لبث أن نشب نزاع في داخل البيت الملكي النوبي على وراثة العرش ، والتجأ شكندة أحد أمراء النوبة إلى مصر ، مما شجع السلطان بيبرس على إرسال حملة مملوكية ثانية ، لغزو النوبة سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) . واستطاعت هذه الحملة – وتلك أهميتها البالغة – أن تجعل بلاد النوبة الشمالية (مقرة) جزءا من الدولة المملوكية ، وطبقت عليها لأول مرة الشروط الإسلامية الخاصة بمعاملة أهل البلاد التي تفتح عنوة ، وجبيت الجزية[٢٧] . وأصبح بيد السلطان المملوكي في مصر ، حق تولية من يشاء على عرش النوبة أو عزله . وقد تمسكت السلطنة المملوكية بهذا الحق تماما ، وتدل الحملات التي جدّ في إرسالها السلطان قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩ هـ/ ١٢٧٩ – ١٢٩٠ م) بعد ذلك ، مرة تلو أخرى ، على الرغبة في تأكيد هذا الحق ، على الرغم من مراوغة ملك النوبة سسامون ، ومحاولته التخلص من التبعية للسلطنة المملوكية[٢٨] .

ومن أهم آثار هذه الحملات القلاوونية ، أنها أقنعت ملوك النوبة الجنوبية (دولة علوة) بقوة السلطنة المركزية . فتقربوا إليها بالهدايا ، وحكّموا السلطان المملوكي فيما نشب بينهم وبين ملوك مقرة من نزاع[٢٩] .

وتكاثر الرقيق والأسرى النوبيون في القاهرة كما زاد عدد اللاجئين من بيوت الإمارة النوبية القديمة ومدعي العرش النوبي في مصر .

وثمة ظاهرة تلفت النظر هي اشتراك « عربان » الوجه البحري والقبلي في هذه الحملات المملوكية كلها . وكان من شأن كثير من هؤلاء الاستقرار في بلاد النوبة ، وعدم العودة إلى مصر ضمن الجيوش المملوكية العائدة بعد تحقيق أهدافها .

ولاشك أن اختلاف الطامعين من أفراد الأسرة المالكة النوبية ، كان كفيلا ببقاء سلطان مصر على بلاد النوبة . وقد حاول أحد ملوك النوبة ، ويدعى كرنيس الخروج على طاعة السلطان المملوكي سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) ومن ثم رأى السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ٧٤١ هـ/ ١٢٩٣ – ١٣٢٥ م) . تعيين أحد الأمراء النوبيين ، الذين تربوا في البلاط السلطاني وأسلموا وهو عبد الله برشمبو النوبي ، ملكا على بلاد النوبة ، ونائبا عنه في حكمها[٣٠] .

ملوك مسلمون في النوبة :

وجاء تعيين ملك مسلم في حكم بلاد النوبة نقطة تحول خطيرة في تاريخ تلك البلاد . وأدى ذلك بالضرورة إلى ظهور بني كنز على مسرح الحوادث في بلاد النوبة ، بعد أن أصهروا إلى البيت المالك النوبي ، وتزوجوا من بنات ملوكها ، وادعى أميرهم كنز الدولة حقه في الملك وهو فضلا عن أنه أمير مسلم فإن انتقال الملك إليه بعد خاله الملك كرنبس كان مما يقضي به نظام وراثة العرش عند النوبيين[٣١] .

وقد استعان كنز الدولة بالعرب المستوطنين فيها ، وانتزع ملك مقرة وأعلن استقلاله عن السلطنة المملوكية في سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٣ م) ويبدو أن العرب قد صاروا من القوة والكثرة العددية هناك بحيث تمكنوا من التغلب على بيوت الإمارة النوبية القديمة في مقرة ، فضلا عن تحديهم السلطان المملوكي والاستقلال عنه . وما كان يفيد كنز الدولة في كثير أو قليل حقه المشروع في ملك مقرة عن طريق الوراثة من جهة الأم ، لولا ما اجتمعت له من قوة العرب المهاجرين ، والنوبيين المتوطنين الذي تأثروا بأولئك العرب المهاجرين وامتزجت دماؤهم بدمائهم .

ولم يكن دور العرب الذين استقروا في مقرة مقصورا على القضاء على البيت الملكي بها فحسب ، بل إن اختلاطهم بالنوبيين في مريس ، منذ القرن الثالث الهجري (٩م) ،

ثم فيما يليهاجنوبا ، منذ منتصف القرن السابع الهجري (١٣م) على الأقل ، قد أدى إلى انتشار الإسلام بين النوبيين الذين يقول عنهم ابن خلدون : إن الجزية انقطعت بإسلامهم .

هذا و لم تشر المراجع إلى اسم ملك نصراني لمملكة مقرة أعقب كنز الدولة والراجح أن خلفاءه جميعا إما أنهم كانوا عربا أو نوبيين مستعربين . و لم تستقر أحوال مملكة النوبة الشمالية ، بعد سقوطها في أيدي بني كنز . ولقد أصبحت مسرحا للاضطرابات ، التي كانت من عمل بني كنز ، أو غيرهم من القبائل العربية التي استقرت في مملكة مقرة ، مثل بني جعد وبني عكرمة والهوارة وبني هلال وغيرها . واستعر التنافس على السلطة والنفوذ في بلاد النوبة .

وفي القرن التاسع الهجري (١٥م) ، تم اختلاط هؤلاء وأولئك جميعا بالنوبيين ، من أسوان حتى دنقلة . وانتشر الإسلام ، وتكونت المجموعات النوبية المستعربة . ولا تختلف هذه المجموعات النوبية في صفاتها السلالية وملامحها الثقافية عن مجموعات النوبيين الحاليين . وتتمثل هذه المجموعات الآن في الكنوز ، والفديجة والسكوت والمحس والدناقلة[٣٢] .

انتشار الإسلام في مملكة علوة :

كان من الطبيعي ، بعد أن سقطت المملكة النصرانية في الشمال ، أن تمتد آثار الأحداث التي وقعت في بلاد النوبة الشمالية ، إلى مملكة علوة أيضا ، وتتشابه العوامل التي أدت إلى سقوطها مع تلك العوامل التي أدت إلى سقوط جارتها في الشمال . وقد تعرضت علوة لغزو جيرانها من الغرب والشمال للحصول على الرقيق . كذلك انقطعت علاقة علوة بالكنيسة المصرية الأم ، وفشلت في الحصول على أساقفة من الحبشة مما أدى إلى تفككها وانحلالها[٣٣] .

وتشير الروايات الوطنية السودانية إلى أن نهاية مملكة علوة وسقوطها جاءت على أيدي جماعة من العرب والفونج في أوائل القرن العاشر الهجري (١٦م) . ويعني – هذا بكل تأكيد – أنه سبق سقوطها ، وصول جماعات عربية إلى أراضيها في أعداد وفيرة .

ولاشك أن تلك الجماعات العربية كان مصدرها مصر ، وقد نستثني بعض الأسر العربية ، أو الأفراد الذين جاءوا من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر .

لقد انتقلت الجماعات العربية من مصر جنوبا ، تطلب الاستيطان والمعروف أن كثيرا من هذه الجماعات استقرت في بلاد البجاة وفي بلاد النوبة الشمالية (مريس) . وقد رادت جموع العرب المهاجرين إلى هذه الجهات زيادة واضحة ، عقب قيام السلطنة المملوكية في مصر ، في منتصف القرن السابع الهجري (١٣م) ، وذلك بسبب الضغط المتواصل عليها في مصر وساعد على ذلك اضطراب الأحوال في بلاد النوبة الشمالية .

وأخذ كثير من هذه الجماعات المهاجرة ولاسيما جهينة ، في التقدم جنوبا ، إلى جهات كردفان ودارفور غربي النيل . واشتملت الحماعات العربية التي هاجرت إلى حوض النيل الأوسط على مجموعتين عربيتين كبيرتين هما : مجموعة العدنانيين ومجموعة القحطانيين .

ويمثل العدنانيين في الوقت الحاضر الكواهلة ، والمجموعة الجعلية ، وبعض القبائل الصغيرة الأخرى مثل الرشايدة . ويمثل القحطانيين المجموعة الجهينية بصفة عامة . وكان الكواهلة قد هاجروا من مصر عبر الصحراء الشرقية . وقد اختلطوا بالبجاة عن طريق المصاهرة ونال الكواهلة مركز الزعامة فيهم ، وبلغ تأثير الكواهلة في البجاة ، حدا جعل البشارين والأمرار والبني عامر ، ينتسبون إلى كاهل الجد الأكبر للكواهلة . ومن ثم تكّون الاعتقاد أنه كان لبني كاهل الأثر الكبير في نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم .

ومن المؤكد أن أولاد كاهل ، عاشوا زمنا في الأقاليم الساحلية الشرقية والمناطق التي تليها . وقد اشتغلوا بالتجارة وتنظيم القوافل ، بين النيل والبحر الأحمر . ثم انتشر الكواهلة انتشارا تدريجيا نحو الغرب . وانتقلت شعب منهم إلى جهات العطبرة والنيل الأزرق في القرن التاسع الهجري (١٥ م) ثم نزحت جماعات منهم أيضا ، إلى جهات النيل الأبيض وكردفان ، في أزمنة متعاقبة . وبذا أضحى للكواهلة أوطان ثلاثة[٣٤] .

أما المجموعة الجعلية فتركزت على ضفاف النيل النوبي ، من دنقلة حتى جنوب موضع الخرطوم الحالية وتمثل هذه الشقة من النهر المركز الرئيسي الذي انتشرت منه شعب وفروع نحو البطانة ، والنيل الأزرق والنيل الأبيض ونحو الغرب إلى كردفان . وفي الشمال يعيش بعضهم مثل الجوابرة والركابية في وسط النوبيين .

وقد غلبت على الإقليم الذي تحتله المجموعة الجعلية على النيل الصبغة العربية والثقافة العربية مما يدل على أن تلك الجماعات التي هاجرت إلى هذا الإقليم على مدى القرون ، كانت قوية كثيرة العدد . كما كانت حضرية لا تميل إلى حياة البداوة . ومن ثم فضلت الاستقرار على ضفاف النيل في مدنه وبلدانه . وقد فضل غيرها من الجماعات التي حافظت على بداوتها ، الانتشار غربا وشرقا وجنوبا في طلب المرعى(٣٥) .

والمجموعة العربية الثانية في حوض النيل الأوسط بعد الجعليين من حيث عدد القبائل والبطون هى : المجموعة الجهنية . ولقد توالت هجرات جهينة من مصر جنوبا ، إلى بلاد النوبة وأوطان البجاة منذ منتصف القرن الثالث الهجري (٩م) وقد احتشدت فيها لبعض الوقت ، ثم أخذت منذ منتصف القرن الثامن الهجري (١٤م) تنتشر جنوبا ، واحتلت عندئذ أقاليم موزعة بين العطبرة والنيل الأزرق شرقا إلى أقاصي كردفان ودارفور غربا .

ومنذ القرن التاسع الهجري (١٥م) ، ظهرت عدة إمارات ومشيخات إسلامية مستقلة في حوض النيل الأوسط وكان لظهورها أثر خطير في تطور الحياة الاجتماعية والسياسية بصفة عامة ، فقد زحزحت بعض القواعد التي كانت ترتكز عليها الملكية النصرانية في مملكة علوة . كما كان من شأن اختلاط أهل تلك المشيخات الإسلامية في حوض النيل الأوسط بالسكان الوطنيين ، إزالة التقاليد الاجتماعية القديمة ومن ثم اختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة . ولعل أهم أثر لقيام المشيخات الإسلامية في حوض النيل الأوسط تزايد انتشار الإسلام بين كثير من أهل هذه البلاد .

الممالك الإسلامية في السودان :

يشبه تاريخ سودان وادي النيل في هذه المرحلة إلى حد كبير تاريخ غربي إفريقية في نفس المرحلة . وقد شهد تاريخ سودان وادي النيل ، قيام ممالك إسلامية خالصة مثل مملكة الفونج وسلطنة دارفور . وقد تكون الأرستقراطية الحاكمة فيها عربية الدم أو عربية النسب ، وقد تكون شعوبها خالطتها بعض المؤثرات العربية ومع ذلك فإنها ممالك تعتمد ، إلى حد كبير ، على جماهير أهل البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام .

وقد اضطلعت هذه الممالك الإسلامية بدور ، يشبه دور ممالك السودان الغربي مثل مالي وصنغاي وبرنو وكانم . ومرت هذه الممالك بنفس التطورات وخضعت لنفس التأثيرات . ومن المفيد أن نلقى الضوء على الممالك الإسلامية في سودان وادي النيل

لكي نتبين أوضاعها ودورها في انتشار الإسلام .

(١) مملكة الفونج الإسلامية :

تذكر المراجع الوطنية أن عمارة دونقس زعيم الفونج ، جمع رجاله في جبل مويا . وقد تحالف مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وبعض أصحابه الآخرين . واتفق هذا الحلف على إخضاع ملك النوبة وملك المغرب . ودارت المعركة في أربجي سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٥ م) وانتصر الحليفان انتصارا حاسما وفر النوبة إلى جبال فازوغلي وكردفان . ومن بقي منهم و لم يفر ، اختلط بالغزاة واعتنق الإسلام[٣٦] .

وقد اختلف المؤرخون حول أصل الفونج . ورأى البعض أنهم شعبة من الشلك وهى جماعة إفريقية متزنجة . واستند هذا الرأى على ما ذكره بروس الرحال !الأسكتلندي الذي زار سنار سنة (١١٨٦ هـ) ١٧٧٢ ميلادية وارتأى آخرون أنهم قوم أتوا من الغرب ، ولعلهم كانوا فرعا من الأسرة المالكة في برنو على أن الفونج هم في رأي ثالث هجرة عربية ، دخلت السودان طلبا للاستيطان ، وكان طريقها من الحبشة مع ضفاف النيل الأزرق بينما روى الفونج أنفسهم ، أنهم من ذراري الأمويين ، وكان بعض الأمويين قد لجأ إلى الحبشة فرارا من بني العباس .

وكيفما كان الطريق الذي سلكه الفونج إلى أرض الجزيرة ، بين النيل الأزرق والأبيض ، أو كانت درجة الصدق في انتمائهم إلى العرب عامة أو إلى بني أمية خاصة ، فموضع الأهمية في الحقيقة في هذه المرحلة من تاريخ الفونج ، أن أولئك القوم ، سواء هبطوا أرض الجزيرة من الشمال أو من الجنوب أو من الشرق أو من الغرب قد قدموا أنفسهم على أنهم عرب ، ووافقهم الناس على نسبتهم هذه ولاسيما أنهم لم تكن لهم لغة سوى العربية ، و لم يكونوا يدينون بدين سوى الإسلام[٣٧] .

هذا وقد اتخذ عبد الله مدينة قرى (قرب خانق سبلوكه) مقرا له . واختط عمارة مدينة سنار لكي تصبح عاصمة مملكة الفونج ، وقد امتد نطاق أراضي هذه الدولة من سواكن شرقا ، إلى النيل الأبيض غربا ، ومن أقصى جبال فازوغلي جنوبا إلى الشلال الثالث شمالا . ومن ثم اشتملت على معظم النوبة العليا (علوة) وقسم كبير من بلاد النوبة الشمالية (مقرة) . وغدت مدينة أربجي ، قرب بلدة المسلمية الحالية ، الحد

الفاصل بين سلطان عبد الله ، الذي امتد على جميع الوحدات القبلية حتى بلدة حنك شمال دنقلة ، وسلطان عمارة الذي انبسط على ما يلي هذه الأقاليم جنوبا .

هذا ولم يكن ملوك سنار أو حلفاؤهم في قرى يمارسون سلطانهم في مملكة الفونج الواسعة بصفة مباشرة بل مارسوا هذه السلطة بواسطة نوابهم من شيوخ القبائل أو المكوك . وتمتع هؤلاء المكوك بشيء من الاستقلال ، على أن يدفعوا الضرائب المقررة ، لخزانة الملك في سنار ، واحتفظ ملوك سنار وحلفاؤهم في قرى بحق تنصيب الملك أو المانجل من بين أفراد أسرة الملك المتوفى .

وقد حاول الفونج أن يمدوا نفوذهم على بلاد النوبة الشمالية ، وأرسل ملك سنار حملة حربية لإخضاع النوبة السفلى ، وصلت هذه الحملة الحربية السنارية إلى الشلال الثالث . ولما أراد قائد الحملة التقدم شمالا ، اصطدم بقوة من الغز الأتراك ، الذين كان بعث بهم السلطان سليم العثماني بعد فتح مصر ٩٢٧ هـ / ١٥١٧ م للاستيلاء على بلاد النوبة . ونشبت معركة بين الفريقين عند بلدة حنك وقد أوقفت هذه المعركة التقدم السناري شمالا . وغدت حنك الحد الفاصل بين نفوذ الفونج جنوبا ، ونفوذ الغز الأتراك الذي شمل النوبة السفلى من حنك حتى أسوان .

وشهد القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الهجري (١٧ – ١٨ م) أقصى ما وصل إليه توسّع مملكة الفونج وقد امتد نفوذها إلى فازوغلي ، وأخضعت الشلك . كما امتد هذا النفوذ إلى كردفان ، بعد انتصار جيشها على جيش أمراء المسبعات الموالية لسلطنة دارفور . كما امتد أيضا إلى مملكة نقلى في جبال النوبة .

ومثلما شهد القرن الثاني عشر الهجري توسع الفونج الكبير ، حمل معه عوامل الفرقة والانحلال أيضا ، وقد طرأ على التحالف بين الفونج والعبداللاب ما أفسده . وتطلع شيوخ العبداللاب في قرى إلى الاستقلال ، وقد حققوا هذا الاستقلال بالفعل في أواخر هذا القرن . كما حقق الشايقية استقلالهم عن نفوذ العبد اللاب .

وظهر عندئذ نفوذ الهمج ، واستبد وزراؤهم وقوادهم بالسلطة دون ملوك سنار . وظلّت الدولة على حال من الضعف بسبب الحروب الأهلية حتى جاء الفتح المصري في

أوائل القرن الثالث عشر الهجري (١٩م) في عهد محمد علي (١٢٢٠ - ١٢٦٤ هـ / ١٨٠٥ - ١٨٤٨ م) ويعنينا التعرف على ما أسهمت به دولة الفونج الإسلامية في خدمة الإسلام في سودان وادي النيل .

ولعل أول ما قامت به هذه الدولة ، مشاركة العناصر العربية في القضاء على بقايا مملكة علوة النصرانية ، وقد شاركت في حركة أحمد القرين في الحبشة وفي محاربة الوثنيين بجبال النوبة لإغارتهم علي كردفان . وقد تألفت جماعات تولى قيادتها بدوي أبو صفية البديوي ونجحت في إدخال كثير من وتنيي جبال النوبة في الإسلام . وكان الفقيه بدوي يأتي ببعض النوباويين إلى الأبيض ، ويعلمهم القرآن ، ومبادئ الإسلام ، ثم يعيدهم إلى بلادهم ، في جنوبي كردفان ، ليقوموا بنشر الإسلام بين قبائلهم . كما قام الفونج بمحاربة الشلك لنفس الأسباب .

وعلى الصعيد الخارجي ، قضت دولة الفونج على مؤامرة للتحالف القائم بين الحبشة وفرنسا استهدفت الإطباق على مملكة الفونج الإسلامية وتقويضها . وقد أحرزت دولة الفونج نصرا مؤزرا على الحبشة . ودوّى هذا النصر الحاسم في أرجاء العالم الإسلامي إذ حمل في طياته التغلب على إحدى صور العداء الصليبي للإسلام والمسلمين .

على أن جهود مملكة الفونج الإسلامية لم تكن مقصورة على الجهاد فحسب ، بل بذلت كل الجهود في نشر الإسلام بالوسائل السلمية ، والنهوض بالدين وعلومه وتعليمه ، ويبدو ذلك من خلال معاملة ملوك الفونج للفقهاء ، واحترامهم العلماء ، وإحاطتهم بالرعاية والتكريم . وقد تميزت هذه المرحلة من تاريخ الدعوة الإسلامية زمن الفونج ، بظهور طبقة من الفقهاء تعهدت الدعوة بأساليب جديدة ، فعمدت إلى شرح تعاليم الإسلام للناس ، وتبصيرهم بما يتعارض مع تلك التعاليم من معتقداتهم ومن عاداتهم وتقاليدهم ودعوتهم إلى تجنب ذلك[٣٨] . فقد كانت مملكة الفونج عند قيامها في مطلع القرن العاشر الهجري (أواخر الخامس عشر وأوائل السادس عشر الميلادي) تشتمل على عناصر سلالية مختلفة - عربية وحامية وشبه زنجية - فضلا عن خليط منها جميعا ، وهي ذات ثقافات مختلطة ومختلفة كذلك . ويصف صاحب « كتاب الطبقات »[٣٩]

حال هؤلاء وأولئك جميعا عقب تأسيس مملكة الفونج بقوله : « اعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة ، وتغلبت عليها أول القرن العاشر ، سنة عشر بعد التسعمائة (١٥٠٤ — ١٥٠٥ م) وخطت مدينة سنار ، ولم تشتهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ، يقال : إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهاره من غير عدّة »[٤٠] .

وتصور الصورة التي وصفها صاحب « كتاب الطبقات » ، نوع الثقافة التي سادت جهات حوض النيل الأوسط في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، وهى تدل دلالة واضحة ، على اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات المحلية السائدة ، وشارك المهاجرون أهل البلاد الأصليين في الجهل بقواعد الإسلام والانحراف في أعمالهم عن هديه ولعل ذلك يرجع غالبا إلى أن الدعوة إلى الإسلام لم تكن تهتم — حتى هذا الوقت — بشرح تعاليم الإسلام بشيء من التفصيل بل عمدت إلى الإجمال ليسهل على دعاتها نشر عقيدتهم بين أهل البلاد من ناحية ، وبسط نفوذهم عليهم من ناحية أخرى . والمعروف أن معظم أولئك المهاجرين ، كانوا على حالة من البداوة ، وقد نسوا الكثير من تعاليم الدين لبعد صلتهم عن مراكز العلم والعلماء .

وتشير بعض المصادر المحلية إلى وجود نوع من النشاط الثقافي في بلاد النوبة قبل قيام مملكة الفونج الإسلامية . ومن الأمثلة على هذا ، ما تذكره إحدى الوثائق : أن غلام الله ابن عابد اليمني الأصل هبط أرض دنقلة ، أواخر القرن الثامن الهجري (١٤م) ، واستقر فيها ، لأنها كانت في غاية الضلالة والحيرة ، لافتقارها إلى العلم والعلماء ، فعمّر غلام الله المساجد ، وعلّم أبناءه وتلاميذه من أبناء المسلمين تلاوة القرآن الكريم ، وعلّمهم كذلك ، بعض العلوم الأخرى[٤١] . ثم ظهر في نواحي أبي حليمة على النيل الأزرق — قبل قيام السلطنة السنارية (مملكة الفونج) — أولاد عون السبعة ، وتولى أحدهم ويدعى الضرير منصب القضاء في زمن العنج (النوبة) ، وليس بمستبعد أن يكون من أحفاد غلام الله من انتقل من دنقلة إلى جهات النيل الأزرق ، أواسط القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حيث أنشأوا المساجد للعبادة والتدريس .

وإذا استثنينا بعض حالات قليلة اقترن فيها نشر الإسلام بين الجماعات الوثنية ،

والقضاء على العادات القديمة عندها بشيء من استعمال القوة فإن أساليب الدعوة الإسلامية في عهد الفونج ، كانت سلمية خالصة[٤٢] ، وتميزت - كما سلفت الإشارة - جهود الفقهاء والدعاة في عرض تعاليم الإسلام بشيء من التفصيل بتبصير الناس بمواضع انحرافهم عنها في معتقداتهم وسلوكهم ، وقد ذكرت بعض المراجع السودانية المختلفة أن هذه الحركة العلمية أتت من مصر والحجاز ، وبلاد المغرب والعراق . ويرجع هذا في الغالب إلى هجرة أفراد أو أسر مثقفة من هذه الدول الإسلامية إلى جهات وادي النيل الأوسط لينزلوا في كنف ملوكها طلبا لعطائهم وإكرامهم ، أو ليعيشوا في خيراتها وأراضيها الواسعة ويتخذوها مأوى لهم بعد أن ضاقت بهم بلادهم ، أو لينشروا دين الله ويعلموه للناس[٤٣] . وفضلا عن هؤلاء ، فإن كثيرا من أبناء مملكة سنار ، كانوا يرحلون إلى مصر لتلقي العلم بالأزهر ، ثم يعودون إلى بلادهم ، ومنهم من كان يحج إلى بيت الله الحرام ويأخذ العلم عن الفقهاء هناك ، وكان لهؤلاء وأولئك جميعا أثر واضح في نشر الثقافة الإسلامية في مملكة سنار .

ومن الأمثلة الدالة على هذا ، ما تذكره المراجع بصدد هجرة السناريين إلى مصر ، لتلقى العلم في الأزهر أوائل القرن العاشر الهجري (١٦ م) ، ومن هؤلاء محمود العركي ، الذي أخذ العلم عن ناصر الدين اللقاني وأخيه شمس الدين ، ثم عاد إلى وطنه فأسس سبع عشرة مدرسة ، ما بين أليس (الكوة) والحسانية (توتي) . ويعد محمود العركي أول من عمل في هذه المنطقة على تفقيه الناس في أمر دينهم وتعليمهم أحكام العدة عند زواج المطلقة أو الأرملة[٤٤] .

وامتاز النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بازدهار الثقافة الإسلامية في مملكة سنار ، إذ ارتحل عدد من السناريين إلى مصر لطلب العلم بالأزهر . ومن بين هؤلاء أولاد جابر الأربعة ، فأكبرهم إبراهيم المعروف بالبولاد تفقه على الشيخ محمد البنوفري إمام المالكية في مصر ، وأخذ عنه الفقه والأصول والنحو ، ثم عاد إلى بلدة ترنج مسقط رأسه في أرض الشايقية وكان أول من درس « مختصر خليل »

في مملكة الفونج ، وتخرج على يديه أربعون إنسانا صاروا كلهم علماء متميزين[٤٥] ومن إخوة إبراهيم ، عبد الرحمن الذي سار على نهجه ورحل إلى الأزهر وتتلمذ على الشيخ البنوفري . ومنهم من تردد على مصر بين وقت وآخر للاتصال بعلمائها ، كما فعل الأخ الثالث إسماعيل ، الذي أجازه الشيخ البنوفري كذلك . وغدت بلاد الشايقية ، مقصد الطلاب من أنحاء مختلفة في مملكة الفونج في منتصف القرن العاشر الهجري[٤٦] .

وقدم من مصر حوالي سنة ٩٥٠ هـ (١٥٤٣ م) الشيخ محمد القناوي المصري الأزهري الثقافة تلميذ الشيخين سالم السنهوري ، ويوسف بن عبد الباقي الزرقاني ، ودخل بلاد بربر وأربجي وسنار غير أنه فضّل سكنى بلدة بربر ، وبنى بها مسجدًا لتعليم الرسالة والعقائد والنحو وسائر العلوم ، وولي القضاء فعمل فيه بعفة ونزاهة ، وتخرج على يديه عدد من أبناء بربر وغيرهم ، منهم حفيده الشيخ المضوي المصري ، والشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب من أهل دنقلة[٤٧] .

ومن العلماء المصريين الذين قدموا إلى مملكة سنار في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري كذلك ، الشيخ محمد بن علي بن قرم الكيماني المصري وهو شافعي المذهب ، وتلميذ الخطيب الشربيني ، فأقام في بربر ودرّس المذهب الشافعي في بربر وأربجي . ومن تلاميذه ابنه الشيخ الشكاك ، والقاضي دشين قاضي أربجي ، وغيرهم كذلك[٤٨] .

ثم وفد إلى مملكة سنار من الحجاز الداعية تاج الدين البهاري في سنة ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م وأقام في أرض الجزيرة سبع سنين (٩٧٨ – ٩٨٥هـ/ ١٥٧٠ – ١٥٧٧م) نشر فيها العلوم الإسلامية بين سكانها وسكان المناطق المتاخمة لها . وتتلمذ عليه جمع غفير من السناريين لعل أبرزهم محمد الهميم بن عبد الصادق الركابي الذي واصل هو وزملاؤه مسيرة أستاذهم حتى بعد رحيله إلى الحجاز في سنة ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م[٤٩] .

وفي هذا الوقت أيضا – أي النصف الثاني من القرن العاشر الهجري – قدم إلى بلاد السودان الداعية التلمساني المغربي وعمل على نشر العلوم الإسلامية بين الناس وكان من أميز تلاميذه محمد بن عيسى سوار الذهب الذي تلقى عليه علم الكلام وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها . ثم قام محمد بن عيسى سوار الذهب ببث ما تلقاه من

معارف في أرجاء مملكة سنار ولا سيما علمي التجويد والتوحيد ومن تلاميذ التلمساني المشهورين أيضا عبد الله الأغبش الذي عاش في بربر[٥٠] .

وتمتع أولئك الدعاة بنفوذ واسع في مملكة سنار فأقطعوا الإقطاعات الواسعة و لم يرد لهم طلب عند الملوك والحكام ، ومن استجار بهم فهو آمن من غضب السلطان مما شجع أولئك الدعاة على الإقامة ونشر الدين والثقافة الإسلامية في هذه البلاد .

والواضح من دراسة حياة أولئك الرواد أن مصر كانت هى المصدر الأساسي للثقافة الإسلامية التي ظهرت في مملكة سنار خلال القرن العاشر الهجري وكان الأثر المصري ذا طابع علمي في معظمه فأولئك الذين أخذوا العلم عن علماء الأزهر مباشرة أو بالواسطة اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد على حين انصب الاهتمام على العلوم الإسلامية والعربية الأخرى من قبل الدعاة المحليين ممن كان لهم اتصال بتلك البلاد[٥١] .

كذلك اتجه السناريون إلى العلوم النقلية بحالتها السائدة في العالم الإسلامي منذ القرن العاشر الهجري وانصراف العلماء إلى التأليف والتحرير ، لا إلى الاجتهاد والتخريج ، ومال معظم علماء العصر إلى تأليف مختصرات كثيرا ما تحتاج عباراتها إلى الشرح والتعليق[٥٢] .

وغلب على السناريين مذهب الإمام مالك ، بسبب اتصالهم بأهل صعيد مصر حيث كان هذا المذهب سائدا وظلت الدراسة العلمية للفقه المالكي مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى ، وانتقلت دراستها إلى مملكة سنار على أيدي خريجي الأزهر – سناريين ومصريين – مثل الشيخ إبراهيم البولاد والشيخ محمد القناوي المصري وغيرهما .

وكان انتشار المذهب الشافعي محدودا ، لكن كان للقليل من علماء الشافعية الذين تخرجوا في الأزهر وتلاميذهم أثر واضح في نشر تعاليم الإسلام في تلك الجهات ، ومن هؤلاء محمد بن قرم الكيماني المصري ، وتلاميذه عبد الله العركي والقاضي دشين الشافعي قاضي أربجي وعبد الرحمن ولد حمدتو والشيخ إبراهيم الفرضي وغيرهم[٥٣] .

وانتشرت علوم القرآن في مملكة سنار في أواخر القرن العاشر الهجري ، ويقال إن الشيخ محمد سوار الذهب من دنقلة ، تلقى علوم القرآن على التلمساني المغربي كما تلقاها

من قبل على الشيخ محمد القناوي المصري في بربر . وليس من المعروف تماما أيهما كان أقوى أثرا ، غير أن انتشار قراءة ورش في دنقلة ، وأبي عمرو في معظم جهات مملكة سنار – وهما القراءتان الشائعتان في بلاد المغرب – يدل على تأثر السناريين ببلاد المغرب في علوم القرآن أكثر من تأثرهم بمصر .

ولما كانت مملكة سنار بعضا من العالم الإسلامي الكبير تتأثر به وتؤثر فيه كان طبيعيا أن تسود فيها منذ القرن العاشر الهجري الثقافة الإسلامية ذاتها التي كانت شائعة وقتئذ في الحجاز ومصر والعراق وبلاد المغرب . ومنها انتقلت إلى مملكة سنار على أيدي بعض الدعاة أو المواطنين الذين اتصلوا بمنابعها . وللسناريين صلات غير منقطعة بالحجاز ولاسيما في موسم الحج فضلا عن طلب العلم بالحرمين كذلك قدم بعض الدعاة الحجازيين والمغاربة إلى مملكة سنار حيث طاب لهم فيها المقام لترحيب السناريين بهم وتشجيع ملوك الفونج لهم ولقى الدعاة في مملكة سنار أرضا خصبة ويرجع هذا – في الغالب – إلى أن الحروب والانقسامات الداخلية – التي سبقت عصر الفونج – أورثت في نفوس السناريين في ذلك العهد رغبة شديدة في الاستقرار والفرار إلى الله الأمر الذي عجل باستجابتهم للدعاة الذين ظهروا مع قيام دولة الفونج(٥٤) .

ومن الدعاة البارزين في ذلك العهد حمد أبو دنانة ٨٥٠ هـ (١٤٤٥ م) وخوجلي ابن عبد الرحمن المتوفى سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣ م) . وقد كون كل منهما عددا كبيرا من التلاميذ الذين لم يكن يجمعهم فيما يبدو كيان منظم أو هيئة مركزية وإنما كان مصدر وحدتهم واتصالهم إحساسهم القوى بالانتماء لمدرسة دعوية واحدة أو انتسابهم إلى داعية واحد .

و لم يمض كثير وقت حتى ظهرت طبقة من الفقهاء والدعاة المحليين كعبد الله العركي علما أن أغلب دعاة ذلك العهد لم يكونوا بالضرورة على درجة عالية من العلم .

وقد ذكر عن أحدهم وهو محمد الهميم الركابي أحد أرفع الدعاة في سنار قدرا أن ما يحفظه من القرآن هو بعض من جزء عمّ بدءًا من الناس وانتهاءً بسورة الزلزلة . ولعل ذلك راجع إلى أن الناس في ذلك الوقت (القرن ١٠ هـ) كانوا لا يزالون على حظ ضئيل

من الثقافة و لم يتسنّ لهم التعرف على تعاليم الإسلام وتدبر أصول الدين بصورة كافية سليمة مما جعلهم لا يميزون بين ما هو من أصل الدين وما هو بدعة وهكذا يسهل التأثير فيهم .

على أنه كان من أثر أولئك الدعاة في ذلك العصر التقريب بين الجماعات المختلفة لأنهم عملوا على إضعاف العصبية القبلية وتعزيز الروابط الإسلامية(٥٥) .

وهكذا كان القرن العاشر الهجري عهد انتقال من النصرانية المتداعية وقتذاك في تلك الجهات إلى الإسلام على أيدي جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة أو من الوطنين الذين تلقوا العلم على أيدي أولئك العلماء الوافدين وإلى هؤلاء وأولئك جميعًا يرجع الفضل – بعد الله تعالى – في وضع الأسس التي قامت عليها النهضة العلمية التي ازدهرت في مملكة سنار منذ القرن الحادي عشر للهجرة .

سلطنة دارفور :

يمثل إقليم دارفور أقصى ولايات جمهورية السودان حاليا . ويقع في غربي كردفان وعلى الحدود السياسية مع جمهورية تشاد . ومعلوماتنا عن تاريخ دارفور القديمة قليلة ويكتنفها الغموض ويمكن القول أن شعب الفور هم سكان البلاد الأصليون . ومنذ حوالي القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) وفدت إلى الإقليم جماعات من الشمال ، عن طريق النيل من ناحية وعن طريق دروب الصحراء من ناحية أخرى .

فمن ناحية النيل جاءت جماعات نوبية ، من الميدوب والبرقد . ومن ناحية الصحراء جاءت جماعات ليبية من الزغاوة والبديات من شمالي إفريقية . وقد استهدفت تلك الجماعات الاستيطان واستطاعت تلك الجماعات النوبيةوالليبية ، أن تحصر الفور في الجبال (جبل مرة) بل واستطاعت أن تقيم ممالك صغيرة في ذلك الإقليم . وتلت ذلك الهجرات العربية إلى هذا الإقليم تطلب الاستيطان فيه والتعايش مع سكانه ويبدو أنها جاءت من مصر ، ومن شمالي إفريقية وقد عبرت البراري الواقعة بين النوبة وتشاد ، وصولا إلى دارفور . وحدث ذلك بعد أن قامت في كل من مصر وشمالي إفريقية دول إسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية .

وروايات أهل البلاد تذكر أن الداجو كانوا أول من أسس دولة في إقليم دارفور ، وقد تلاهم التنجور الذين كانت لهم دولة أيضا . وأدى اختلاط العرب بالفور إلى ظهور طبقة

الكنجارة . ومن هذه الطبقة ظهرت أسرة كبيرة ، انتزعت حكم دارفور من التنجور . وظل هذا البيت من بيوت الفور ، يحكم دافور ، من حوالي منتصف القرن الحادي عشر الهجري (١٧م) حتى نهاية حكم علي دينار في سنة (١٣٣٦ هـ / ١٩١٦ م) .

وكان دالي أول سلاطين هذا البيت العريق ، وجاء من بعده كورو ، ثم أعقبهما سليمان سولونج بن كورو . ومن بيت الملك في دارفور ظهر أمير اسمه تونسام ، حاربه سليمان سولونج وطرده منها ، وقد أسس هذا الأمير ملك المسبعات في كردفان .

ومع أن الإسلام أخذ يشق طريقه إلى هذه البلاد منذ حوالي القرن السابع الهجري (١٣م) على الأقل ، حيث أخذت تنثال عليه الهجرات العربية الإسلامية من الشمال والشرق والغرب فإن الإسلام لم يصبح الدين الرسمي للدولة إلّا حين تولى سليمان سولونج عرش سلطنة دارفور سنة (١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م) ومنذ ذلك الحين بدأ إقليم دارفور ، يدخل نطاق التاريخ العام . وقد كان ظهور سليمان سولونج مقترنا باكتمال شخصية دارفور الإسلامية .

وقد استطاع سليمان سولونج أن يخضع القبائل الخارجة على سلطانه وأن يصبغ البلاد بصبغة إسلامية ، وبدأت القبائل العربية تضطلع بدور بارز في تاريخ البلاد ومنها الهبانية والرزيقات ، والمسيرية ، والتعايشة ، وبنو هلبة ، والمعاليا ، وبنو جرار والزيادية والماهرية والمحاميد وبنو حسين .

وأولى السلطان أحمد بكر (١٠٩٤ - ١١٣٥ هـ / ١٦٨٢ - ١٧٢٢ م) عناية كبيرة لنشر الإسلام . ولم يكن يتعدى في ذلك الوقت الأسرة المالكة والأسر الكبيرة التي ارتبطت بالنسب العربي . وقد ابتنى المساجد والمدارس ، واستقدم عددا من الشيوخ من مختلف البلاد الإسلامية ومنحهم أراضي وأعفاهم من الضرائب لدعم انتشار الإسلام .

واكتمل سلطان الدولة واتسع في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد ، في أواخر القرن (١٢ هـ) الثامن عشر الميلادي ومن ثم زاد ارتباط مملكة دارفور وسلطنتها ببلاد العالم الإسلامي من الناحيتين الثقافية والدينية . وقد اتصلت دارفور بمصر اتصالا إيجابيا في النواحي التجارية والثقافية . وشجع سلاطين دارفور طلاب العلم على الرحيل إلى الأزهر . وقد أنشئ لهم رواق خاص بهم سمي رواق دارفور .

كذلك حرص السلاطين أيضا على الاتصال بالسلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين . كما حرصوا على إرسال الصرّة إلى الحرمين الشريفين صحبة المحمل المصري . وقد أثر عن سلاطين دارفور حرصهم الشديد على الالتزام بأحكام الكتاب والسنة والعدل بين رعاياهم .

ويذكر التونسي الذي عاش في دارفور نحو سبع سنوات أسماء بعض العلماء الذين اجتذبهم كرم السلطان عبد الرحمن الرشيد إلى دارفور . ومن هؤلاء والده الشيخ عمر التونسي الأزهري الثقافة والشيخ التمرو الفلاني ، والشيخ حسن العماري الأزهري والشريف مساعد من مكة(٥٦) .

مملكة تقلي : على يد رجل من الجعليين ، تأسست مملكة تقلي في جبال النوبة سنة ٩٣٧ هـ (١٥٣٠ م) . وقد نزل هذا الرجل البلاد ، واجتذب قلوب الأهلين بورعه وكريم خلقه وهكذا استطاع أن يؤسس ملكا له ولأولاده من بعده . وكان من سياسته وسياسة خلفه من بعده نشر الإسلام والتزاوج من القبائل النوباوية .

وهكذا كان القرن العاشر الهجري عهد انتقال من النصرانية المتداعية وقتذاك في تلك الجهات إلى الإسلام على أيدي جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة أو من الوطنيين الذين تلقّوا العلم على أيدي أولئك العلماء الوافدين ، وإلى هؤلاء وأولئك جميعا يرجع الفضل في وضع الأسس التي قامت عليها النهضة العلمية التي ازدهرت في مملكة سنار منذ القرن الحادي عشر الهجري .

سودان وادي النيل في القرن الثالث عشر الهجري (١٩م) : دخلت جيوش محمد علي (١٢٢٠ - ١٢٦٤ هـ / ١٨٠٥ - ١٨٤٨ م) بلاد النوبة سنة ١٢٢٦ هـ (١٨٢٠ م) . وقد قضت على حكم الكشاف الأتراك في بلاد النوبة وعلى الإمارات والمشيخات التي قامت في البلاد . وتم لها فتح سنار سنة ١٢٢٧ هـ (١٨٢١ م) وفتح كردفان سنة ١٢٣٠ هـ (١٨٢٥ م) . وقد مارس محمد علي تجاربه الإصلاحية في السودان . فاستقدم مبعوثين سودانيين إلى المدارس المصرية ، لشغل الوظائف في بلادهم ، كما أنشئت مدارس مدنية في السودان في عهد إسماعيل وقدّم العون للرقيق

المحررين وأدخل أطفالهم المدارس المصرية ، لكن طبيعة التعليم المدني ، لم تجتذب السودانيين – في ذلك الوقت – إذ كانت الصبغة الدينية هى الغالبة على مؤسسات التعليم هناك .

وشهد هذا العصر وفود عدد كبير من السودانيين للالتحاق بالأزهر ولا سيما بعد أن أنشيء لهم الرواق السناري سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) . كما شهد مجيء عدد من العلماء المصريين إلى السودان .

وأتاح الحكم المصري في السودان ، استقرارا وأمنا وتيسيرا للمواصلات فامتزجت القبائل والتحمت الأنساب . ولكن الرجل الذي فاق تأثيره في السودان من عداه كان هو السيد أحمد بن إدريس الفاسي الذي عمل على اذكاء الدعوة إلى الإسلام وتتلمذ على يديه من رجال السودان محمد المجذوب الصغير والشيخ إبراهيم الرشيد .

كذلك كان من بين مريدي الشيخ الفاسي السيد محمد عثمان الميرغني وقد فاقت أهميته سائر تلاميذ السيد أحمد بن إدريس ونجحت دعوته في بلاد النوبة وكردفان وسنار . وكرّس جهوده لنشر الإسلام بين القبائل الوثنية .

واستطاع الحكم المصري في السودان أن يكسب للإسلام إقليما جديدا ، لم يكن يتيسر للإسلام أن ينفذ إليه وهو إقليم أعالي النيل والمديرية الاستوائية . وقد أنشئت عدة محطات في تلك الأقاليم حتى أوغندة ، لكن تجارة الرقيق كانت تعرقل تقدم التيار الإسلامي فيها .

كذلك فإن سياسة فتح أبواب السودان للنفوذ الأجنبي قد تركت أسوأ الأثر في البلاد وهيأت بالفعل للمطامع الأوربية الفرصة ، للتطلع إلى السيطرة على السودان . كما أشار استخدام الأوربيين النصارى اشمئزاز أهل السودان المسلمين . وشهد السودان مظاهر الانحراف ، والمساوىء التي جاءت مع النفوذ الغربي الأوربي إلى مصر .

وكانت استجابة السودانيين السريعة للدعوة المهدية ، أبلغ دليل على تفشى السخط في البلاد على الأوضاع التي سادت وقتذاك . وقد انبعثت فكرة المهدي الإصلاحية من نفس الينابيع التي انبثقت منها حركات إصلاحية مماثلة في أقطار إسلامية أخرى وكان

لتلك الفكرة الإصلاحية أثرها في الحياة الثقافية وفي نشر الإسلام في السودان .

وكانت كثرة أسفار محمد أحمد المهدي . واختلاطه بالناس على جميع المستويات قد مكنته مِن أن يطلع على آلام الناس ، وأن يتعرف على ما يطمحون إليه وتبين أن المسئول عن تلك الآلام نظام الحكم المعروف في السودان وقتذاك بالحكم التركي . ومن ثم تبلورت في نفسه آمال الناس ومحاولة تحقيق الإصلاح وكان ذلك في مارس سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) .

بدأ المهدي أولا بمخاطبة الخاصة من الفقهاء والأعيان وشيوخ القبائل ثم أعلن دعوته على الناس كافة . ويبدو من منشوراته التي أذاعها على الناس تنديده بالنفوذ الأوربي وما صبحه من بدع وضلال ، ففي كتاب له موجه إلى الخديوي توفيق يقول : « فإن دسائس أهل الكفر التي أدخلوها على الإسلام وضلالاتهم التي مكنوها من قلوب الأنام ، قد أفضت إلى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين ، فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت محارم الإسلام » .

ووجهة منهج المهدي في الإصلاح سلفية ، فهو يعتمد على الاستنباط من الكتاب والسنة مباشرة . ولم تكن المهدية نزعة محلية ، تريد الإصلاح للسودان وحده ، وإنما كانت حركة إصلاحية عامة ، تريد أن تمد يد الإصلاح إلى العالم الإسلامي كله بعد تحرير السودان وتخليصه من علله وأدوائه .

وقد شملت دعوة المهدية ربوع السودان كله . وكان يقدر لها ، لو نجحت ، أن تمكن للإسلام والثقافة الإسلامية في ربوع البلاد ، وأن تصبغ السودان بالصبغة الإسلامية العميقة ، وتنشر الإسلام في جنوب السودان وفي آفاق إفريقية أخرى . لكن الحكم في ظل الاحتلال البريطاني في مصر ، تحالف مع الاستعمار في دعوى استرداد السودان فلما قهرت المهدية امتد النفوذ البريطاني إلى السودان ، كما امتد إلى مصر من قبل .

الهـوامـش

أولًا : هوامش انتشار الإسلام في مصر :

(١) تعرف الكنيسة النصرانية في مصر باسم : الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أو كنيسة الإسكندرية ، أو الكنيسة اليعقوبية (سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام : ١٩٤٧ م ، ص ٥) نقلا عن : Munier : L' Egypte Byzantine , p. 8..

والمونفيزية تعني الاعتقاد في الطبيعة الواحدة للمسيح أي الطبيعة الإلهية وحدها واعتبار كيانه البشري محكوما بها .

(٢) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، القاهرة ، ص ٥ – ٧ نقلا عن (ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، Pater . Orient , t . 1 . ص ٢٢٦ – ٢٢٨) .

(٣) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، طبعة ثالثة ١٩٤٧ ، ص ١١٠ – ١١١ .

(٤) المرجع نفسه ص ١١٤ – ١١٥ .

(٥) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٦٣ .

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عامر ، ١٩٦١ ، ص ٧٦ – ٧٩ ، الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٦ – ٧ .

(٧) السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٩٢ ، ٩٩ .

(٨) راجع هذه الأقوال المختلفة في (ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٨٠ – ٨٣) .

(٩) ابن عبد الحكم ، مصدر سابق ، ص ٨١ .

(١٠) شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، طبعة ثالثة – بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١١٩ – ١٣٦ ، نقلا عن (ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ، ص ٥ ، ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها ، طبع ماسيه ، ص ١٢٩) ومسلمة الروم هم من روم الشام الذين رغبوا في الإسلام قبل اليرموك ، ولعل مسلمة الفرس كانوا ممن شارك في حملة كسرى من الفرس ثم شاركوا بعد في حملة اليمن ثم أدركهم الإسلام (شكري فيصل : المرجع نفسه ، ص ١٣٥) .

(١١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، مصدر سابق ، ص ٨١ – ٨٥ .

(١٢) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، ص ١١٩ .

(١٣) ومكانها يقع شرقي مدينة بور سعيد الحالية .

(١٤) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٨٨ .

(١٥) المصدر نفسه ص ٩٧ .

(١٦) يبدو أن الروم استهدفوا في مطاولتهم للمسلمين ومفاوضتهم صرف المسلمين عن مصر عن طريق الترهيب بقوة الروم تارة أو الترغيب بصرف أموال لهم نظير انصرافهم عن مصر تارة أخرى ، راجع نصوص الحوار بين وفد المسلمين بقيادة عبادة بن الصامت وبين الجانب البيزنطي بقيادة المقوقس (ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ، ص ٩٧ – ١٠١) .

(١٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٠ هـ .

(١٨) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، ص ١٢١ ، نقلا عن (ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ، طبع المعهد الفرنسي ، ص ٥٨ ، ٦٤) .
(١٩) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ١٠٣ .
(٢٠) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .
(٢١ - ٢٤) مجموعة من الحصون البيزنطية قديمة في الطريق الحربي بين بابليون والإسكندرية ومعظمها يقع غربي النيل فيما يعرف حاليا بمحافظة البحيرة . وكوم شريك ، موضع عرف باسم أحد القواد العرب وهو شريك بن سمي الذي قاتل الروم عند موضع الكوم الدي عرف باسمه (ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٠٩) . وحواشيها .
(٢٥) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ١١٦ .
(٢٦) المصدر نفسه ، ص ١١١ - ١١٢ .
(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .
(٢٨) سيدة كاشف : مرجع سابق ، ص ١٣ ، نقلا عن (حنا النقيوسي ، تاريخ ص ٥٧٠ م) .
(٢٩) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، ص ١٢٦ .
(٣٠) سيدة كاشف ، مرجع سابق ، ص ١٤ .
(٣١) شكري فيصل : مرجع سابق ، ص ١٢٦ نقلا عن (بتلر فتح العرب لمصر) .
(٣٢) شكري فيصل : المرجع نفسه ، ص ١٢٨ .
(٣٣) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٥٥ - ٢٥٧ .
(٣٤) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .
(٣٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار بدكر الخطط والآثار .
جـ ١ ص ٢٩٦ ومن تلك الخطط : خطة فهرة وخطة تجيب ، وخطط لخم وجذام ، وخطة حضرموت وخطة يحصب وخطة مذحج ، وخطة غطيف وبني وعلان ، وخطة بلي ، وخطة خولان ، وخطة الصدف ، وخطة غنت ، وخطة سلامان ، وخطة السلف وخطة رعين ، وخطة الكلاع ، وخطة نافع ، وخطة مراء ، وخطط الحمراوات والفارسيين ذلك أنه دخل مع عمرو بن العاص قوم من غير العرب يقال لهم الحمراء والفارسيون ، فأما الحمراء فقوم من الروم فيهم بنوينة وبنو الأررق وبنو روبيل ، والفارسيون قوم من الفرس وزعموا أن فيهم قوما من الفرس الذين كانوا بصنعاء إلى غير ذلك من الخطط التي درست (ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٣٢ - ١٣٤ ، المقريزي ، خطط ، جـ ١ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ، القلقشندي ، صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٣٣٣) .
(٣٦) شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، ص ١٣٩ - ١٥١ ، نقلا عن (ابن عبد الحكم ماسيه ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ١٣٩) .
(٣٧) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ١٧٥ - ١٧٧ .
(٣٨) ابى عبد الحكم : مصدر نفسه ، ص ٢١٧ .
(٣٩) اليعقوبي : البلدان ، القاهرة ، ص ٣٣٩ .
(٤٠) راجع نصوص هده الأحاديث في (ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٩٦ - ١٠٢) .
(٤١) ومن ذلك ما يقوله حنا النقيوسي : « إن جميع الناس يذكرون أن سبب انتصار المسلمين على الروم ، هو استبداد هرقل والاضطهادات التي أنزلها بالأرثوذكس (الأقباط) والتي كان قيرس الآلة المحركة لها » (سيدة كاشف ، مصر في فجر الإسلام : ص ١٨٤ ، نقلا عن حنا النقيوسي تاريخ ص ٥٨٤) كما يذكر ساويرس : =

= « إن الله كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين بسبب عقيدتهم الفاسدة » (سيدة كاشف ، ص ١٨٤ ، نقلا عن ساويرس) .

(٤٢) سيدة كاشف ، مرجع سابق ، ص ١٨٥ نقلا عن (حنا النقيوسي ، تاريخ ص ٦٥٠) .

(٤٣) فتوح مصر والمغرب ، ص ١٠٧ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(٤٥) شكري فيصل : مرجع سابق ، ص ١٤٥ .

(٤٦) راجع نص العقد الذي عقده عمرو بن العاص لأهل مصر (الطبري - تاريخ الأمم والملوك ، حـ ٤ ، ص ٢٢٨ ، حوادث سنة ٢٠ هـ) .

(٤٧) ابن عبد الحكم ، مصدر سابق ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٤٨) سيدة كاشف : مصر مرجع سابق ، ص ١٨٧ - ١٨٨ نقلا عن (ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة ص ٢٣١) .

(٤٩) المرجع نفسه ، ص ١٨٨ .

(٥٠) المرجع نفسه ، ص ١٩٢ - ١٩٣ نقلا عن ساويرس ، ص ٦ ، ٢٤ ، ٤٢ .

سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . جـ ٢ ، ص ٤١ .

الكندي ، مصدر سابق ، ص ١٣٢ .

المقريزي : مصدر سابق ، جـ ٢ ص ٤٩٢ .

(٥١) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ١٢٤ .

(٥٢) شكري فيصل ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٥٣) راجع الطبري : مصدر سابق ، جـ ٣ حوادث سنة ٢٠ هـ ص ٢٢٧ ، حيث توجد صورة حسية تمثل عملية التخيير وما كان ينتابهم من ألم أو فرح حين يختار الأسير الإسلام أو النصرانية .

(٥٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٥٨ .

(٥٥) شكري فيصل ، المجتمعات الإسلامية ص ١٥٦ ، نقلا عن (مصر في فجر الإسلام ص ١٨٣) .

(٥٦) سيدة كاشف : مرجع سابق ، ص ١٩٢ .

(٥٧) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ١٩٢ .

(٥٨) كانت حركة الارتداد تتركز في كور بعينها هي : منف ووسيم ، ومنوف ، وعين شمس ، اثريب ، وبنا ، بسطة ، فربيط ، طرابية ، صان ، ابليل ، نتو ، تمي ، بوصير ، خربتا ، سخا ، الفيوم (ابن عبد الحكم ، المصدر نفسه ، ١٩٢ - ١٩٣) .

(٥٩) من خطبة لعمرو قوله : « يا معشر الناس ، إنه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت المخائل وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر فحي لكم على بركة الله إلى ريفكم ، فنالوا من خبزه ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأثقالكم ، واستوصوا بمن جاوزتموه من القبط خيرا .. فعفوا أيديكم وفروجكم ، وغضوا أبصاركم .. واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية (ابن عبد الحكم ، نفس المصدر ، ص ١٩٠ - ١٩١) .

(٦٠) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٦١) يذكر ابن عبد الحكم عن رواته : « وأول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ... الحجاج بن يوسف . ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة . فكلمه ابن حجيرة في ذلك فقال : أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر ، فوالله إن أهل الدمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف تضعها على من أسلم منهم » . (ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢١٠) .

(٦٢) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

(٦٣) كتب حيان بن سريج إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول : « أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار وتممت عطاء أهل الديوان فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » . (كاشف : مصر في فجر الإسلام ، ص ٢٣٠ – ٢٣١ ، نقلا عن المقريزي : خطط جـ ١ ، ص ٧٨) .

(٦٤) ففي ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر (١٢٧ – ١٢٨ هـ) أعلن إعفاء كل من يسلم من الجزية فأعتق نحو أربعة وعشرون ألفا من الأقباط الذين أسلموا (مصر في فجر الإسلام ص ٢٣٥ نقلا عن ساويرس سير الآباء البطاركة ص ١١٦ – ١١٧) .

(٦٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ، نقلا عن ساويرس ، المصدر نفسه ، ص ١٨٩ – ١٩٠ .

(٦٦) الكندي : مصدر سابق ، ص ١٩٠ – ١٩٢ ، المقريزي : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٨٠ .

(٦٧) الكندي : مصدر سابق ، ص ٥٨ – ٥٩ ، مصدر سابق جـ ١ ص ٩٨ .

(٦٨) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه (طبع توري) ، ص ١٠٢ .

(٦٩) السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٧٥ .

(٧٠) المقريزي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ .

(٧١) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى .

(٧٢) كاشف : مرجع سابق ، ص ٢٥٨ ، نقلا عن :

Vier , Precis de L'hist . D'Egypte , t . II , pp . 136 - 137 .

(٧٣) عبد الله خورشيد : القبائل العربية في مصر ، ص ٤٨ .

(٧٤) كاشف : مرجع سابق ، ص ٢٦٠ .

(٧٥) المقريزي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٣٣ .

(٧٦) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص ١٠٨ .

أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٩٠ – ١٩٢ .

(٧٧) المقريزي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٣٣ .

ثانياً : هوامش انتشار الإسلام في السودان :

(1) John of Ephesus , Ecclesiastical History, Pant II tr . by Payne Smith , (London) 1860 , p . 319 .
(2) Kirwan . L . p .: Notes on the Topography of the Christian Nubian Kingdoms . Jour . Egypt . An . XXI . 1943 , p . 57 .
(3) Criffith , F . LI .: Documents from Nubia ·, ptoc . British Academy , XIV , 1988 . pp . 17 - 18 .
(٤) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، ص ٥٦ .
(٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ ١ ص ١٩٣ ، طبع بولاق .
(٦) المقريزي ، المصدر نفسه ، ص ١٩٣ .
(٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الخامس من القسم الأول ، ص ٢٥٨٨ – ٢٥٨٩ ، طبعة أوربا .
مصطفى مسعد : المكتبة السودانية العربية ، مجموعة النصوص والوثائق الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى ، القاهرة ، منشورات جامعة القاهرة ، ص ٣٦ .
(٨) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٨٠ ، ليدن ١٨٦٦ م ، مصطفى مسعد : المكتبة السودانية العربية ، ص ٢٤ .
(٩) الطبري : مصدر سابق ، ص ٢٥٨٩ ، المكتبة السودانية ، ص ٣٦ .
(١٠) المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبع المعهد العرنسي بالقاهرة ، حـ ٢ ، ص ٢٩٠ .
(١١) البقط : ما كان يؤخذ من النوبة كل عام في قرية القصر ، على بعد خمسة أميال جنوبي مدينة أسوان . ولفظ « البقط » حسب اجتهاد بعض الباحثين لفظ مشتق من أحد أصلين الأول : لاتيني يوناني الأصل وهو "Pactum" ومعناه الاتفاق أو الموادعة . والثاني : مصري قديم وهو : « باق » ومعناه الضريبة التي تدفع عينا ويذكر :
Trimingham , L . S . Islam in the Sudan , p. 62 .
أن البقط ربما يدل على لفظ مصري قديم معناه العبد .
أما المقريزي (مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨٩) ، فيذكر أن « البقط » ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم ، ومعناه « بعض ما في أيدي النوبة » .
(١٢) المقريزي : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠ – ٢٩٢ .
المكتبة السودانية ، ص ٣٠٢ ، حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٩٣ .
(13) Becker , C. H.: Ency . Islam . I, p. 6082 . Mac Michael , H. A. A. History of the Arabs in the Sudan , Vol . I , p. 158 :
(١٤) البلاذري : فتوح البلداں ، ص ٢٨١ .
(١٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨١ .
(١٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨١ ، المكتبة السودانية ، ص ٢٦ .
(١٧) الصابري : مصدر سابق ، ص ٢٥٩٣ ، المكتبة السودانية ، ص ٣٦ .
(١٨) مصطفى مسعد : مرجع سابق ، ص ١٢٨ – ١٣٠ .
(١٩) المقريزي : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٩٥ .
(٢٠) ابن حوقل : مصدر سابق ، ص ٥٠ – ٥٦ .
(٢١) المقريزي : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٩٤ ، طبع بولاف .

(٢٢) المكتبة السودانية ، ص ٣١٣ .

(٢٣) المقريزي : مصدر سابق ، ص ٣٢٠ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

(٢٥) المصدر نفسه ، حـ ٢ ، ص ١١٦ .

(٢٦) مصطفى مسعد : مرجع سابق ، ص ١٤٠ .

(٢٧) المقريزي : مصدر سابق ، جـ ٢ ص ٢٠٢ ، مفضل ابن أبي الفضائل : النهج السويد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، حـ ٢ ، ص ٣٩٨ ، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ١٤٤ – ١٥٠ .

(٢٨) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، القسم ٣ ، ص ٧٣٧ ، ٧٥٣ .

(٢٩) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون ، (مخطوط) جـ ٢ ، ورقة ٣١٠ ، المكتبة السودانية العربية .

(٣٠) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، (مخطوط) جـ ٣٠ ، ورقة ٩٥ .

(٣١) المصدر نفسه .

(٣٢) العبر : جـ ٥ ، ص ٤٢٩ .

(٣٣) مصطفى مسعد : معاهدة البقط نمط فريد في مجال العلاقات الدولية في الإسلام مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد ٥ ، ص ٤٨٥ .

(33) Al Varez , F .: Narrative of the Portuguese Embassay to Abyssinia . p. 65 .

(٣٤) محمد عوض محمد : السودان الشمالي ، سكانه وقبائله ، ص ١٤٣ – ١٤٦ .

Mac Michael , H.: A History of the Arabs in the Sudan , Vol . I . p . 324 .

(35) Reid. I. A.: " Some Notes on the Tribes of the White Nile Provinces , Sudan , Notes and Records , XIII , part II 1930 , p. 150 .

(٣٦) أحمد كاتب الشونة ، مخطوطة كاتب الشونة ، نشر بوصيلي ، ص ٤ .

(٣٧) راجع الآراء المختلفة في بحث (مصطفى مسعد) بعض ملاحظات جديدة في تاريخ مملكة الفونج الإسلامية مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم العدد الثالث ص ٥ – ١١ ، وما بها من مراجع .

(٣٨) عبد العزيز عبد المجيد : التربية في السودان ، جـ ١ ، ص ٥٥ .

(٣٩) وعنوان الكتاب : طبقات ود ضيف الله في أولياء وصالحين وعلماء وشعراء السودان ، لمؤلفه الفقيه محمد نور الدين ود . ضيف الله بن محمد الجعلي المولود بحلفاية الملوك سنة ١١٣٩ هـ والمتوفى سنة ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) ويحتوي كتاب ود ضيف الله على تراجم نحو ٢٥٠ شخصية مرتبة ترتيبا هجائيا . ولا تقتصر قيمة الكتاب على ما يحويه من تراجم ، ولكنه يكشف – فضلا عن النواحي العلمية والثقافية والعقائدية والتقاليد الشائعة في ذلك العصر (١٥٠٠ – ١٨٨٠ م) يكشف أيضا عن بعض جوانب من حياة السودان السياسية وعلاقته بغيره من الأمم الإسلامية المجاورة . أما مصادر هذا الكتاب فهي في الغالب الروايات الشفهية التي كانت شائعة في عهده والتي تناقلها الرواة حفظا خلفا عن سلف ، وذلك فضلا عن وثائق وإجازات وكتب مؤلفة وخطابات مرسلة من شيخ إلى شيخ ، ولكن ضاعت أصولها . وقد اقتبس ماكا بكل مقتطفات مترجمة إلى الإنجليزية في كتابه وللكتاب طبعات ثلاث ، الأولى نشر صديق الخرطوم ١٩٣٠ م ، والثانية طبع منديل الخرطوم ١٩٣٠م ، والثالثة نشرها نشرا علميا محققا . الدكتور يوسف فضل الخرطوم ١٩٧١ م .

(٤٠) محمد ضيف الله : المصدر السابق ، نشر صديق ، ص ٥ .

(41) Mac Michael . H. A.: A History of the Arabs in the Sudan , Vol II . E . 3 . pp . 217 - 232 .

(42) Ibid ., p. 36 . Jacson , H. C. : Tooth of Fire , p . 21 .

(٤٣) عبد العزيز عبد المجيد : مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ٥٥ .

(٤٤) محمد ضيف الله ، ص ٥ ، ١٦٣ .

(٤٥) المصدر نفسه ، مرجع سابق ، ص ٦ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٦ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٥ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٥ .

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٥١) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٥٢) المرجع نفسه ، ص ٥٢ .

(٥٣) محمد ود ضيف الله ، مرجع سابق ، ص ١٦٩ .

(54) Trimigham , J. S. Islam in the Sudan , pp . 196 - 197 .

(٥٥) محمد عوض محمد : مرجع سابق ، ص ١٧ – ١٨ .

(٥٦) محمد بن عمر التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، تحقيق ، خليل عساكر ومصطفى مسعد

انتشار الإســلام في بلاد المغـرب

عرف الكتاب العرب الأقاليم الواقعة غربي مصر ، والتي تشتمل على شمال القارة الإفريقية الممتدة إلى المحيط الأطلنطي باسم « بلاد المغرب » ، وتضم حاليا بلاد : ليبيا بأقاليمها الثلاثة (برقة وطرابلس وفزان) ، كما تضم : تونس ، والجزائر بصحراواتها الممتدة إلى تخوم السودان ، ثم المغرب – الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش – ويمتد امتدادا طبيعيا إلى تخوم السنغال والنيجر وتمثل هذه الأقاليم مجتمعة وحدة طبيعية وسلالية وتاريخية مشتركة .

ولقد كان الفتح العربي الإسلامي لهذه الأقاليم في القرن الأول الهجري مرحلة أخرى من مراحل اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وانتشار الإسلام في ربوعها الشاسعة ، ثم فيما يليها شمالا في الأندلس وجنوبا في بلاد السودانين الغربي والأوسط . وقد واجه فتح تلك الجهات صعابا شديدة في طريقه وقابله أهلها بمقاومة صلبة لمدة ليست بالقصيرة أولا ، لكنه نجح بعد جهود دائبة قوية في تثبيت أقدامه وكان له آثاره في مجتمع المغرب وتطوره وخطاه نحو اعتناق الإسلام وتقبل العربية .

سكان المغرب وأوضاع البلاد عند الفتح الإسلامي :

المعروف أنه حين أقبل العرب المسلمون لفتح البلاد التقوا بثلاثة عناصر مختلفة من السكان :

أ – البربر[1] : « وهم سكان البلاد الأصليون والغالبية العظمى من المقيمين فيه في ذلك الوقت ، وهؤلاء وقفوا موقف المعارضة – أول الأمر – من العرب المسلمين حتى إذا تيسر لهم الاختلاط بهم وتفهم دعوة الإسلام ومعرفة مبادئه السمحة ، أقبلوا عليه وآمنوا به[2] .

ب – الأفارقة : سكان المدن وهم خليط من الشعوب التي احتلت بلاد المغرب ولا يرجع أصلهم إلى البربر كالرومان والوندال وقد انصهر هؤلاء في الحياة الجديدة في مدن المغرب وعاشوا مختلطين بمن تحضّروا من البربر[3] .

جـ - الروم (البيزنطيون) : وهم الطبقة الحاكمة للشريط الساحلي للمغرب ، فلم يتوغلوا في الداخل و لم يتيسر لهم الاختلاط بالبربر إلّا في أضيق الحدود .

ويحتوي هذا الإقليم الكبير - المغرب - على دفائن فينيقية ، وعناصر بربرية ، وبقايا رومانية بيزنطية على التعاقب ، وهي بقايا من حضارات بادت بعضها تحت بعض في درجات مختلفة من حيث المزايا والبقايا والآثار .

فقد خضعت الأقاليم الساحلية من المغرب منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، لنفوذ الفينيقيين الذين أقاموا مستعمرات ومحطات تجارية ، لم تلبث أن أصبحت مراكز على طرق التجارة البحرية التي كانت تربط موانئ البحر المتوسط بعضها ببعض . ومن أشهر هذه المراكز التجارية ، مدينة قرطاجة التي نازعت روما سلطانها في إبان القرن الثامن قبل الميلاد .

ومنذ وطئت أقدام الرومان أرض المغرب في القرن الأول قبل الميلاد ، اتجهوا إلى بناء المدن على السواحل وفي الداخل لاتخاذها قواعد للحاميات الرومانيةوحكام الولايات(٤).

غير أن أيام الوندال - ومدتها نيف وقرن (٤٢٩ م - ٥٣٣ م) - التي تلت حكم الرومان في بلاد المغرب كانت بمثابة سحابة سوداء خيمت على أرض المغرب ، و لم تخلف وراءها سوى الدمار(٥) .

ولما استرجع الروم البيزنطيون بلاد المغرب عام ٥٣٣ م ، أخذ الطابع البيزنطي في الظهور في الأساليب المعمارية ، وأنشئت الكثير من القصور والكنائس والحصون وذلك في المدن والمناطق الساحلية خاصة(٦) .

ويعني ذلك أن بلاد المغرب مارست ألوانا من الحضارات الفينيقية والرومانية والبيزنطية التي ازدهرت في فترات متصلة ، باستثناء أيام الوندال . فقد كان الرومان والبيزنطيون تمتلئ بهم المدن الساحلية والثغور الحربية ، يسيّرون الإدارة ويمتهنون التجارة ، ويستقرون في الأراضي مزارعين أو مواطنين فتزدهر حياة البلاد وتستطيع إمداد روما ثم القسطنطينية بالسفن الموسوقة بالغلال(٧) .

وعلى الرغم من البصمات الحضارية التي تركتها تلك الشعوب على حياة البربر ، فإن

السياسة التي جرى عليها الروم البيزنطيون في حكم هذه الأقاليم ، لم تختلف في جوهرها عما سبقها من حيث التعسف في فرض الضرائب المرهقة ، وفي جبايتها ، مما أدى إلى هجر المزارعين أراضيهم ، وإغلاق التجار متاجرهم ، وانحراف كثير من الناس وممارستهم أعمال السلب والنهب ، واحتراف اللصوصية وكانت هذه المظالم عاملا أساسيا فيما أصاب بلاد المغرب من اضمحلال وفي نشوب الفتن والاضطرابات في أرجائه[٨] .

أما عن الحياة الدينية عند البربر قبيل الفتح الإسلامي ، فقد فشت بينهم الوثنية كما يذكر ابن خلدون : « إن البربر كان دينهم المجوسية ، شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب ، إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم ... »[٩] كما اعتنق بعض البربر الديانة اليهودية[١٠] ، التي دخلت من وقت مبكر مع الفينيقيين ثم مع المهاجرين اليهود في العصر الروماني[١١] . أما النصرانية فقد دخلت المغرب عن طريق رهبان مصر في القرن الثاني الميلادي ، وتركزت هذه الديانة في المدن الساحلية ، فلم يقبل البربر على اعتناقها ، إذ كانت في نظرهم دين الطبقة الحاكمة المستبدة بالبلاد ، ومن ثم ظلّت النصرانية محدودة الانتشار تعيش في ظل مذاهب منشقة على نفسها ، حتى كادت أن تزول من برقة قبيل الفتح الإسلامي .

حــركة الفتــوح :

بعد أن تم للعرب المسلمين فتح مصر سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) ، كان طبيعيا أن يتجه المسلمون لفتح برقة وطرابلس ، باعتبارهما امتدادا لمصر من ناحية الغرب ، وإقليما متمما لها ، وتأمينا لحدود مصر الغربية من خطر الروم ، وقد رغب المسلمون في تطبيق سياسة الاستمرار في الفتح في ناحية الغرب ، وتحقيق الأهداف التي خرجوا من الجزيرة العربية من أجلها ، وهى حمل دعوة الإسلام إلى الشعوب التي لم تبلغها دعوته .

ولعل من الواضح أن حركة الفتح الإسلامي للمغرب قد اكتنفتها صعوبات كثيرة لا ترجع فقط إلى طول مدته وكثرة أحداثه فحسب ، وإنما يضاف إليها بالنسبة للباحث قلة المعلومات التي وصلتنا عن أعمال الفتح ، وتداخل المعلومات وتشابكها بدرجة تجعل التمييز بينها أمرا عسيرا ، يضاف إلى ذلك اختلاط الحقائق التاريخية بالخرافات والأساطير

الشعبية بشكل يجعل الوصول إلى الحقيقة في كثير من الأحيان أمرا صعب المنال .

على أنه يمكن تقسيم عمليات الفتح إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : مرحلة الكشف والاستطلاع ، وتبدأ من سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) إلى سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) . وتشمل هذه المرحلة أعمال ثلاثة من قادة الفتح هم : عمرو ابن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ومعاوية بن حديج .

المرحلة الثانية : مرحلة الاستقرار والانتشار ، وتمتد من سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) إلى سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) وتتناول أعمال اثنين من قادة الفتح هما : عقبة بن نافع في ولايتيه الأولى والثانية ، وأبو المهاجر دينار .

المرحلة الثالثة : مرحلة إتمام الفتح ، وتمتد من سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) إلى سنة ٩٠ هـ (٧٠٨ م) وتشمل أعمال ثلاثة من القادة . وهم : زهير بن قيس البلوي ، وحسان بن النعمان ، وموسى بن نصير .

المرحلة الأولى : الكشف والاستطلاع
(٢١ - ٤٩ هـ / ٦٤٢ م - ٦٦٩ م)

جهود عمرو بن العاص : ٢١ - ٢٣ هـ / ٦٤٢ - ٦٤٤ م :

بعد أن انتهى المسلمون من فتح مصر سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) ، استأذن عمرو بن العاص ، الخليفة عمر بن الخطاب في فتح برقة وطرابلس . ولقد سبق لعمرو إرسال حملة استطلاعية إلى برقة بقيادة عقبة بن نافع ، للتعرف على المنطقة وموافاته بأحوالها[١٣] . ولما اطمأن عمرو إلى استعداداته العسكرية ، خرج على رأس جيش من فرسانه حتى قدم برقة . وعلى الرغم من قوة أهل برقة من قبيلة لواتة البترية المعروفة بشدة بأسها ، فإنهم بادروا بالتسليم طائعين مختارين للمسلمين الفاتحين . فصالحهم عمرو بن العاص ، « على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية ، على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم »[١٤] .

وقد قبل عمرو بن العاص من لواتة هذا العرض ، فهو - فضلا عن ضمان التزامهم بدفع الجزية - يخدم الهدف الأساسي من الفتح ، وهو نشر الإسلام ، إذ أن تنشئة جيل

من أهل البلاد بين المسلمين ، يساعدهم على فهم العقيدة الإسلامية والنمو في مجتمع إسلامي مع تعلمهم اللغة العربية ، وتوثيق أواصر الصلة بين العرب المسلمين والبربر سكان البلاد الأصليين(١٥) .

وبعد فراغ عمرو بن العاص من فتح مدينة برقة ، شرع في فتح طرابلس تمهيدا للدخول في إفريقية (تونس) ، وتطلب الأمر إعداد جيشين : أحدهما يسير بحذاء الساحل للاستيلاء على مدينة طرابلس وما يليها من مدن ساحلية ، في حين يأخذ الثاني طريق الصحراء ويتوغل في جوفها لفتح الواحات الداخلية . وعهد عمرو إلى عقبة بن نافع بفتح هذه الواحات . فسار عقبة حتى بلغ زويلة دون أن يلقى مقاومة ، فافتتحها . ويشير بعض المؤرخين(١٦) إلى دخول بعض أهلها في الإسلام ، فينسب إلى عمرو بن العاص أنه كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه : « أن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقرّ معاهدهم بالجزية »(١٧) .

كما يشيرون إلى حسن طاعة أهل برقة ووفائهم بالتزاماتهم قبل الدولة الإسلامية . فيذكر ابن عبد الحكم أنه : « لم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج وإنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها »(١٨) . ويذكر البلاذري : « كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب ، و لم يدخلها فتنة »(١٩) . كما ينسب إلى عبد الله بن عمرو قوله : « لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة ، فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها »(٢٠) .

وعلى هذا النحو ضمن عمرو بن العاص خضوع الواحات الداخلية ، التي لا يبعد أن تكون مصدر تهديد للنفوذ الإسلامي على مدن الساحل .

واصل عمرو بن العاص السير إلى أطرابلس ، وفي طريقه إليها ، استولى على مدينة وسرت(٢١) ، ثم زحف إلى لبده(٢٢) ، فاستسلم أهلها دون مقاومة ، ثم أدرك المسلمون أطرابلس ، وكانت مدينة حصينة تحيط بها أسوارها من جميع الجهات إلا من جهة البحر ، لتظل مفتوحة أمام الميناء والمراكب وتلقي الإمدادات . وأقبل عمرو من جهة الشرق ، ورابط في موضع مرتفع يشرف منه على المدينة ، وضرب المسلمون الحصار حولها

شهرا ، امتنع خلاله أهلها عن التسليم ، متحصنين داخل الأسوار . فيذكر ابن عبد الحكم : « فنزل (عمرو) على القبة التي من الشرف من شرقيها ، فحاصرها شهرا ، لا يقدر منهم على شيء »[٢٣] . ولا خلاف بين الروايات التاريخية في أن بعض جند المسلمين فاجأوا الروم المتحصنين في المدينة من ساحل طرابلس ، حيث انحسرت عنها مياه البحر ، وأعملوا سيوفهم في رقاب الروم ، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير ، وشهدهم المسلمون خارج السور ، واقتحموا المدينة . ولم يكن للروم مفزع إلّا سفنهم فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم . وغنم عمرو ما كان في المدينة[٢٤] .

ولما ظفر عمرو بن العاص بمدينة طرابلس ، أسرع بتجريد فرقة من الخيالة لمباغتة مدينة سبرت (صبراته) ومفاجأتها في غفلة من أهلها ، بعد أن كانوا قد استكانوا واعتمدوا على حصانة مدينتهم قياسا على حصانة أطرابلس التي خيل إليهم أن المسلمين لن يتمكنوا من اقتحامها ، لكن تمكنت الخيالة العربية من اقتحام مدينة سبرت (صبراته) صباحا ، « وقد غفلوا.وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها ، فلم ينج منهم أحد ، واحتوى (جند) عمرو على ما فيها ... »[٢٥] .

وبعد إنهاء عبد الحكم لحديثه عن فتح مدينتي أطرابلس وسبرت يعود فيشير إلى حملة قادها بسر بن أبي أرطأة – أثناء حصار المسلمين لأطرابلس – لفتح مدينة ودان (فزان) ، ففتحها سنة[٢٦] ٢٣ هـ (٦٤٤ م) .

وبعد أن تم فتح إقليمي أطرابلس وفزان ، أخذ عمرو بن العاص « يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون »[٢٧] . ولعل عمرو بن العاص قصد بهذه الحملات إتمام إخضاع بقية قبائل الصحراء وإدخالها في الإسلام أو العهد مع المسلمين ، وذلك أنه بدأ يفكر في توسيع الفتح نحو ولاية إفريقية ، أي نحو بلاد المغرب الحقيقية (البلاد التونسية[٢٨] . غير أن هذه الخطوة كانت أكبر من أن ينفرد فيها برأي ، لذا كتب عمرو إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالمدينة يستأذنه في استكمال الفتح بقوله : « إن الله قد فتح علينا أطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل »[٢٩] . ولعله طلب من الخليفة مددا لمتابعة عمليات الفتح .

غير أن عمر لم يأذن له ، حتى يطمئن المسلمون على ما فتح الله عليهم ، ويثبتوا أقدامهم في البلاد المفتوحة ، وبخاصة وأن الأحوال في مصر ، كانت تنذر بعودة للروم ، فلم يستبعد الروم قط التفكير في استعادة بعض ما فقدوه في الشام ومصر . وكان على عمرو ابن العاص أن يستجيب لرغبة الخليفة عمر بن الخطاب في التريث في مواصلة الغزو في إفريقية ، فعاد إلى مصر بعد أن أقام عقبة بن نافع على هذه البلاد الصحراوية في برقة ، يدعو إلى الإسلام . وقد نجح عقبة في كسب كثير من سكان البلاد – من قبائل لواتة ونفوسة ونفراوة وهوارة وزواغة – للإسلام فدخلوا فيه(٣٠) .

وأصبحت برقة قاعدة لجيوش المسلمين في غربي مصر ، بينما عاد عمرو إلى الفسطاط مقر ولايته وظل مقيما بها حتى استشهد الخليفة عمر بن الخطاب ، فخلف عثمان بن عفان رضي الله عنهما وقلد الأخير ولاية مصر والمغرب عبد الله بن سعد بن أبي سرح(٣١) .

جهود عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٢٣ – ٣٥ هـ / ٦٤٤ – ٦٥٦ م :

نهج ابن أبي سرح سياسة سلفه عمرو في إرسال البعوث تكشف الأرض وتعجم المقاومة « يبعث المسلمين في جرائد الخيل ، كما كانوا يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية ويغتنمون »(٣٢) . وفي ضوء ما حققته هذه الحملات الاستطلاعية من التعرف على قوة العدو ، أرسل ابن أبي سرح بأخبار هذه البعوث إلى الخليفة عثمان بن عفان بالمدينة مشفوعة برغبته في الإذن له بفتح إفريقية . ولقد تردد الخليفة – أول الأمر – ثم اجتمع بوجوه الصحابة واستشارهم في أمر الفتح ، فاستقر الأمر على الإذن لابن أبي سرح بذلك . وتسامع الناس بما اعتزمه خليفة المسلمين ، فتوافدوا على المدينة من كل صوب ، وقام عثمان بن عفان فيهم خطيبا ، وحثهم على الجهاد ووزع عليهم السلاح ، وجعل القيادة أثناء الطريق من المدينة إلى مصر ، إلى الحارث بن الحكم أخي مروان بن الحكم ، إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد بن أبي سرح فيكون إليه الأمر(٣٣) .

سار ابن أبي سرح من الفسطاط سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ – ٦٤٨ م) فيمن عنده من جند ، وفيما بعث به الخليفة عثمان من مدد في جيش يبلغ عشرين ألفا ، وعند مروره

ببرقة انضم إليه عقبة بن نافع ومن معه من جند ثم مضى إلى أطرابلس ، وانصرف عنها بعد قتل الأسرى الدين وقعوا في أيدي المسلمين لنقضهم عهد عمرو بن العاص ، وخروجهم على طاعة المسلمين[٣٤] . كما انصرف عن قابس واتخذ طريق قرطاجنة العاصمة ، مؤمنا أن الغلبة عليها ستفرط مقاومة الروم جميعا ، وسوف تؤدي إلى تساقط المعاقل والحصون الأخرى ، دون حاجة إلى أن تستنزف قوى المسلمين في حصارها وإثارتها . فمضى حتى التقى بالبطريق جرجير Gregorius حاكم إفريقية قرب سبيطلة ، حيث نشبت أكبر معارك هذه الحملة بعد مفاوضات غير مجدية لم ينزل فيها جرجير على الجزية أو الإسلام . وانتهت المعركة بانتصار المسلمين ومقتل جرجير[٣٥] ، « قتله عبد الله بن الزبير »[٣٦] . ويضيف ابن عبد الحكم : « وهرب جيش جرجير ، فبعث ابن أبي سرح السرايا ، وفرقها فأصابوا غنائم كثيرة ، فلما رأى ذلك أمراء إفريقية طلبوا إلى ابن أبي سرح أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم ، فقبل ذلك منهم ورجع إلى مصر ، ولم يول عليهم أحدا ولم يتخذ قيروانا[٣٧] .

ولعل في قرار ابن أبي سرح بالانسحاب من إفريقية سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ – ٦٤٩ م) بعد التضحيات الكبيرة التي بذلها المسلمون في معارك سبيطلة وغيرها ما يبرره من احتمال عودة الروم عن طريق البحر ، وقلة عدد جند المسلمين وطول خطوط مواصلاتهم ، مما جعل من هذه الحملة ، حملة كشف وريادة ، بأمل العودة لاستئناف الجهاد في عام مقبل لكن اضطراب الأحوال في مصر واندلاع الفتنة بمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٣٠ هـ (٦٥٥ م) ، شغلت المسلمين عن شئون المغرب .

جهود عقبة بن نافع في المغرب ٤٢ هـ / ٦٦٢ م أثناء ولاية عمرو بن العاص الثانية لمصر :

ولما استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان على الخلافة بتنازل الحسن بن علي له عنها سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) استمر جهاد عقبة بن نافع في إقليم برقة خلال ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر ، فيذكر ابن الأثير : « أن عمرو بن العاص استعمل سنة ٤١ هـ ، عقبة ابن نافع بن عبد قيس ، وهو ابن خالة عمرو – على إفريقية – فانتهى إلى لواتة ومزاتة ،

فأطاعوا . ثم كفروا فغزاهم من سنته ، فقتل وسبى ، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين (٦٦٢ م) غدامس ، فقتل وسبى ، وفتح في سنة ثلاث وأربعين (٦٦٣ م) كورا من كور السودان ، وافتتح ودان ، وهى من برقة »[٣٨] .

جهود معاوية بن حديج : ٤٥ – ٤٩ هـ / ٦٦٥ – ٦٦٩ م :

لعل أبرز نشاط حربي للمسلمين في إفريقية – بعد جهاد عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح – هو نشاط معاوية بن حديج السكوني . فقد اختاره معاوية ابن أبي سفيان لقيادة حملة حدد هدفا لها بمتابعة الجهاد في إفريقية وقد أشارت بعض الروايات من التجاء أحد زعماء الروم في إفريقية إلى معاوية بن أبي سفيان في دمشق ، يعرض عليه الأوضاع المضطربة في إفريقية وينشد مساعدته[٣٩] .

خرج معاوية بن حديج – على الأرجح – سنة ٤٥ هـ (٦٦٥ م) على رأس جيش من عشرة آلاف مقاتل وبصحبته عدد من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ممن كانت لهم خبرة بإفريقية منهم عبد الله بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، وسليمان بن يسار ، وجبلة بن عمرو الأنصاري . وسار الجيش في نفس الاتجاه الذي سلكته حملة عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد من قبل ، حتى بلغ موضعا جنوبي قرطاجنة يعرف باسم : قمونية أو قونية[٤٠] . وعنده التقى جيش ابن حديج وجيش البيزنطيين بقيادة نجفور ، فانهزم البيزنطيون وفروا إلى مدينة سوسة وتحصنوا داخل أسوارها ، وعسكر المسلمون في موضع مرتفع من جبل يعرف باسم « القرن » ، حيث اتخذوا « قيروانا » ومنه بعث ابن حديج بجيشين يقود أحدهما عبد الله بن الزبير فاستولى على سوسة[٤١] ، والآخر بقيادة عبد الملك بن مروان ، احتل حصن جلولاء[٤٢] . أما ابن حديج فقد مضى شمالا وافتتح ثغر بنزرت[٤٣] ، ويقال إنه أول من غزا جزيرة صقلية[٤٤] .

وهكذا انتهت حملة معاوية بن حديج بطرد الروم من ساحل سوسة وسقوط أهم حصن في خط الدفاع الثاني في إفريقية وهو حصن جلولاء . وتبدو أهمية هذه الغزوة في أن بلاد إفريقية قد غدت أرضا مألوفة بالنسبة للعرب المسلمين ولم تعد أرضا مخوفة[٤٥] . وثم أهمية أخرى هى أن معاوية بن حديج فكر في اتخاذ القيروان ، أو بدأ باتخاذه ليكون قاعدة ارتكاز جديدة يجعل منها المسلمون منطلقهم ومتوثبهم . ومهما يكن

من أمر النجاح الذي حققه المسلمون ، فإن عملياتهم الحربية التي قاموا بها ، لم تكن حتى ذلك الحين ، أى سنة ٤٧ هـ (٦٦٧ م) وهى السنة التي عاد فيها معاوية بن حديج وجيشه إلى الفسطاط – سوى حملات استطلاعية بعيدة المدى ، هدفها الاستكشاف والدعوة إلى الإسلام .

المرحلة الثانية : الاستقرار والانتشار (٥٠ – ٦٤ هـ / ٦٧٠ – ٦٨٣ م) :

جهود عقبة بن نافع : ٥٠ – ٥٥ هـ / ٦٧٠ – ٦٧٥ م : تبدأ هذه المرحلة بتولية عقبة بن نافع قيادة حملة إفريقية سنة[٤٦] ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ولاه إيّاها معاوية بن أبي سفيان ، فقد خرج عقبة من مغمداس على رأس عشرة آلاف فارس أمده بهم معاوية ابن أبي سفيان ، فيهم خمسة وعشرون من الصحابة وسائرهم من التابعين[٤٧] . وازدادت قوات عقبة بمن انضم إليها من البربر الذين دخلوا في الإسلام[٤٨] . واخترق الصحراء في اتجاه ودان التي كانت نقضت عهدها فافتتحها ، واستولى على كثير من مدن فزان وكوار وحصونها مثل : ودان وجرمة وخاور ، ثم جانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض مزاتة ، فافتتح كل قصر بها ، ثم مضى إلى صفرة فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلا إلى غدامس ، فافتتحها ، فلما انصرفت إليه خيله ، انصرف إلى قفصة فافتتحها ، وافتتح قصطيلية ثم انصرف إلى القيروان[٤٩] .

ولقد رأى عقبة – بعد خبرة في الجهاد تزيد على خمسة وعشرين عاما في إفريقية ومعايشة لأحداثها ومعرفة بطبائع أهلها – أن خير الطرق لتثبيت الفتح الإسلامي فيها هو بناء مدينة تكون ملاذا للمسلمين ومستقرا لهم ، فلا يكون كل همهم من حروب إفريقية الانتصار عليها والارتداد عنها ، بل يكون منطلقا لأعمال الفتح القادمة ، وقد عبر عن فكرته هذه بقوله : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام ، فإذا خرج عنها ، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر . فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر »[٥٠] .

ولم يعجب عقبة بمكان القاعدةِ العسكرية التي كان معاوية بن حديج قد بناها قبله وحملت اسم القيروان ، ولذلك بحث عن مكان للقاعدة الجديدة حتى عثر على مكان

القيروان الحالية ، فذكر ابن الأثير[٥١] : « أن مكان القيروان : كان أجمة مشتبكة بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك ، فدعا الله ، وكان مستجاب الدعوة ، ثم نادى : أيتها الحيات والسباع إنّا أصحاب رسول الله ﷺ ، ارحلوا عنا ، فإنا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ، فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل أولادها وتنتقل فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا » .

وشرع عقبة في بناء مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ / (٦٧٠ م) ، وكما تتابع عليه المسلمون في بناء حواضرهم مثل الكوفة والبصرة والفسطاط ، بدأوا ببناء المسجد الجامع ، ودار الإمارة ، ثم قسمت الأرض المحيطة بها على القبائل والناس لبناء الدور والمساكن وما يرون من مساجد ملحقة بها لأهل الحي[٥٢] . وقد دعا القائد عقبة – بعد الفراغ من تخطيطها – بقوله : « اللهم املأها علما وفقها وأعمرها بالمطيعين والعابدين ، واجعلها عزا لدينك ، وذلا لمن كفر بك ، وأعز بها الإسلام وأمنها من جبابرة الأرض »[٥٣] .

وكان عقبة – أثناء عمارته للقيروان – « يغزو ويرسل السرايا » فتغير وتغنم « ودخل كثير من البربر في الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام ، فثبت الإسلام فيها »[٥٤] .

جهود أبي المهاجر دينار : ٥٥ – ٦١ هـ / ٦٧٥ – ٦٨١ م :

لكن عقبة فوجئ بتسلم أمر عزله وتولية أبي المهاجر دينار قيادة جيوش إفريقية سنة ٥٥ هـ (٦٧٥ م) .

وتختلف الروايات التاريخية حول مقدم أبي المهاجر وأعماله الحربية ، وكل ما يمكن استخلاصه منها – على كثرتها – أن أبا المهاجر كره النزول في قيروان عقبة ، « ومضى حتى خلّفه بميلين فابتنى ونزل ، وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط ، وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار ، أقام بها الشتاء والصيف ، واتخذها منزلا »[٥٥] . ويدل هذا الاتجاه من جانب أبي المهاجر على رغبة في الفتح والاستقرار الدائم ، وهى سياسة بدأت في عهد ابن حديج وأنفذها عقبة وكانت أكبر همه ، وجاء دينار ومضى في أثرهما .

ويمكن استخلاص النشاط العسكري لأبي المهاجر من الروايات المبعثرة التي وصلتنا وتتلخص في أن ذلك بدأ سنة ٥٩ هـ (٦٧٩ م) إذ أخذ أبو المهاجر يوجه السرايا نحو الأقاليم التي لم يكن قد تم فتحها من إفريقية في اتجاه قرطاجنة وفحص تونس ، وفتح الجزيرة التي عرفت باسم « جزيرة شريك » ، وكانت سياسته تخالف سياسة عقبة العسكرية الصارمة ، فعمل على اكتساب البربر باللين والمداراة[٥٦] ، وعقد حلفا معهم . وواصل أبو المهاجر زحفه في اتجاه المغرب الأوسط ، فوصل إلى موضع عرف بعيون أبي المهاجر ، وتم له فتح ميله ، ثم بلغ تلمسان حيث لقي البربر بقيادة كسيلة – وكان قد آل إليه ملك البربر – فهزمه ثم صالحه واكتسبه إلى الإسلام واتخذه حليفا[٥٧] . وبذا يكون أبو المهاجر قد نجح في فتح أراض جديدة أمام المسلمين من ناحية ، وكسب للإسلام الكثير من قبائل أوربة التي لا يبعد أن تكون تابعت كسيلة في إسلامه .

وينتهي دور أبي المهاجر ويعود عقبة بن نافع من جديد لولاية حرب إفريقية (٦١ – ٦٤ هـ / ٦٨١ – ٦٨٤ م) ، وذلك في خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ – ٦٤ هـ / ٦٨٠ – ٦٨٤ م) .

عودة عقبة بن نافع : ٦١ – ٦٤ هـ / ٦٨١ – ٦٨٤ م :

استأنف عقبة عمله من حيث توقف ، فتابع بناء القيروان ، وجدّد ما كان خرّب من عمارتها ، ورد الناس إليها . ثم بدأ منها عقبة حملة كبرى ، تختلف عن جميع الحملات السابقة إذ أنه ساح في جميع واحات المغربين الأوسط والأقصى في جيش من خمسة عشر ألفا من الجند . وتبدو حماسة عقبة للجهاد في سبيل الله والاستشهاد من قوله لأولاده حين اعتزم المسير : « إني قد بعت نفسي من الله عزّ وجل وعزمت على من كفر به حتى أقتل فيه وألحق به ، ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا ، لأن أملي الموت في سبيل الله »[٥٨] .

غادر عقبة القيروان ، وخلف عليها زهير بن قيس البلوي ، وبلغ عقبة في غزاته هذه طنجة والسوس ، بعد أن أخضع في طريقه البربر وحلفاءهم من نصارى الروم مبتدئا

بالواحات الداخلية في بغاية ووادي مسيلة وتاهرت حيث تجمعت له قبائل : لواتة وهوارة وزواغة ومطياطة وزناتة ومكناسة ، فألحق بهم هزيمة ساحقة(٥٩) . ولما بلغ عقبة طنجة هادن حاكمها يليان الذي دل المسلمين على عورات البربر والروم في هذه الأقاليم . واعتزم عقبة إخضاع قبائل البربر بالسوس الأدنى والأقصى ، وبدأ بقبائل مصمودة في بلاد « تامستا » ثم قبائل بربر الأطلس في وليلي ، ودرعة ، ثم توغل في صنهاجة ثم في بلاد هسكورة ، وأغمات وربكة ، ثم نزل وادي نفيس ، ومنه إلى إيجلي بوادي السوس(٦٠) . ودعا عقبة قبائل هذه الأقاليم إلى الدخول في الإسلام ، فأجابته قبائل جزولة ، ومضى عقبة في مسيرته حتى بلغ المحيط ، وأوطأ فرسه الماء حتى بلغ الماء صدره ، وقال قولته المشهورة : « اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك »(٦١) .

على أن عقبة — خلال هذه المعارك الشديدة — لم ينس واجبه كداعية للإسلام ، فقد بنى مسجدا في السوس ، وآخر في درعة(٦٢) ، ليكونا مركزي إشعاع ديني بين البربر ، مما يتطلب بطبيعة الأمر تعيين دعاة ومعلمين للمسلمين الجدد وكان من بين هؤلاء : واحد من أصحابه اسمه شاكر خلفه عقبة عند وادي تنسيف حيث تنزل قبائل حاجة ورجراجة وصودة الذين استجابوا لدعوة عقبة واعتنقوا الإسلام . وبقى التابعي شاكر بين هؤلاء يعلمهم أصول الإسلام(٦٣) .

وقد رأى عقبة أن مهمته قد انتهت عند هذا الحد الذي وصل إليه في جهات وادي السوس الأقصى فاتجه عقبة شمالا بغرب نحو طنجة لكي يعود إلى المغرب الأوسط عبر ممر تازا قاصدا القيروان ، ولما اقترب منها أذن لأصحابه بالإسراع إلى القيروان ليطمئنوا أهلها على جيش المسلمين ، وبقي في قلة من أصحابه . وعند سهل تهودة « عرْض له كسيلة في جمع من الروم والبربر — وكان قد بلغه افتراق الناس عن عقبة — فاقتتلوا قتالا شديدا ، استشهد فيه عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما ، واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين ، ولم يفلت من الموت إلّا من وقع أسيرا في أيدي البربر أمثال محمد ابن أوس الأنصاري ، ويزيد بن خلف العبسي ، ففداهم ابن معاذ صاحب قفصة وبعث بهم إلى زهير بن قيس(٦٤) .

وكان لنبأ استشهاد عقبة ومن معه من المسلمين وقع الصاعقة ، فقد غلب الروم والبربر على الأرض التي سقاها المسلمون بدمائهم ، ودخل كسيلة القيروان واستولى على إفريقية وأقام بها . ولكن إفريقية إذ كانت قد تملصت من قبضة جيش المسلمين لأوان موقوت ، فإنها لم تخرج تماما من سلطان الإسلام والمسلمين فقد كانت فيها جماعات من البربر تحولت إلى الإسلام . وإذا كان كسيلة قد نجح حربيا في احتلال القيروان ، فإنه لم يستطع أن يكسب إليه المسلمين من البربر ، فلم يلبث هؤلاء أن تنازعوا معه ، « فانقلبت إفريقية نارا » ، كما يقول المالكي[٦٥] .

واضطر زهير بن قيس البلوي الذي كان عقبة خلفه في القيروان لمغادرتها والعودة إلى برقة حيث رابط فيها في انتظار جولة جديدة .

المرحلة الثالثة : إتمام الفتح (٦٩ - ٩٠ هـ / ٦٨٨ - ٧٠٨ م) :

جهود زهير بن قيس البلوي : ٦٥ - ٦٩ هـ / ٦٨٥ - ٦٨٨ م :

جاءت الجولة الجديدة بداية لمرحلة ثالثة من مراحل الفتح الإسلامي للمغرب بدأها زهير بن قيس البلوي في عهد عبد الملك بن مروان الذي يعد مؤسسا ثانيا لدولة بني أمية (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) . فقد شق على عبد الملك ما آل إليه من أمر المسلمين في إفريقية وفكر في العمل على استعادة القيروان والمغرب ، واستشار من حوله ، فاستقر الرأي على اختيار زهير بن قيس لقيادة الحملة الجديدة فهو أكثر الناس معرفة بطبيعة المنطقة ، وبالأوضاع القائمة بالقيروان ، فضلا عن أنه كان مثل عقبة « دينا وعقلا »[٦٦] وكان « من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين »[٦٧] .

وأمد الخليفة الأموي زهيرا بالخيل والرجال من الشام والأموال من مصر ، وحشد إليه وجوه العرب من رجال الحرب .

خرج زهير فيمن معه من العرب وفيمن انضم إليه من البربر ، واتخذ الطريق الساحلي الذي سلكه القواد من قبله حتى انتهى إلى القيروان ، فعسكر بجوارها وخرج كسيلة من القيروان ، ودارت بينهما معركة عنيفة « نزل فيها الضر وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة ، فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل » .

وهكذا استطاع زهير أن يرد للإسلام في إفريقية شيئا مما فقده بمقتل عقبة ، وعاد زهير أدراجه إلى برقة مكتفيا بما حقق من نصر . وهناك استشهد في معركة مع الروم الذين كانوا نزلوا برقة سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) منتهزين فرصة غيابه عنها لقتال كسيلة[٦٨] .

حزن المسلمون لمقتل زهير بن قيس في برقة « وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه »[٦٩] واستثار ذلك المسلمين ، كما استثارهم استشهاد عقبة من قبل .

جهود حسان بن النعمان : ٧٤ - ٨٦ هـ / ٦٩٣ - ٧٠٥ م :

لم يتخذ عبد الملك بن مروان موقفا حاسما سريعا إزاء الكارثة التي حلّت بالمسلمين في إفريقية عقب استشهاد زهير والكثير من أصحابه ، إذ كان مشغولا - وقتذاك - بأمور المشرق ، حتى إذا انتهى منها ، شرع في الإعداد لمعالجة أمور المغرب ووقع الاختيار على أحد مشاهير قواد الشام هو حسان بن النعمان الغساني ، وهيئت له عوامل النصر بإعداد حملة ضخمة من جند الشام جرى تمويلها وإمدادها من مصر[٧٠] .

خرج حسان من مصر عام ٧٤ هـ (٦٩٣ م) على رأس جيش بلغت عدّته أربعين ألف رجل ، وهو جيش « لم يدخل إفريقية قط جيش مثله »[٧١] . ونزل أطرابلس وزاد عدده بمن انضم إليه من البربر المسلمين يقودهم هلال بن ثروان اللواتي . وقد فطن حسان إلى حقيقة هامة هي خطورة الروم على جميع مشروعات المراحل السابقة من الفتح : فهم الذين أرغموا عبد الله بن سعد على العودة إلى مصر دون استكمال أعمال الفتح ثم اشتركوا مع كسيلة في الإيقاع بعقبة وقتله ومن معه ، فضلا عن هجومهم على برقة وتخريبها وقتل زهير بن قيس والكثير من جند المسلمين . ورأى حسان ضرورة اجتثاث جذورهم من أرض المغرب ، والقضاء على قواعدهم ، حتى تثبت أقدام العرب ، وتأخذ الدعوة الإسلامية طريقها بين البربر[٧٢] .

وتحقيقا لهذه الغاية اتبع حسان خطة عسكرية جديدة أساسها مداهمة أعدائه من الروم والبربر كل على حدة ، حتى يسهل عليه القضاء على كل منهم على انفراد[٧٣] . ولما وصل إلى القيروان ، سأل أهلها عن أماكن تجمع الروم واحتشادهم ، فأخبروه بأنها :

قرطاجنة ، « دار ملك إفريقية » . وبدأ حسان بتوجيه ضربته الأولى إلى قرطاجنة وضرب الحصار حولها – وكان بها عدد كبير من الروم – ودارت معارك طاحنة بين الفريقين ، ونجح حسان في إيقاع الهزيمة بأعدائه وتمكن من فتح قرطاجنة . وفر معظم من كان بها من الروم في مراكبهم إلى صقلية والأندلس . ثم أتبع حسان دخول قرطاجنة بتعقب الروم والموالين لهم من البربر ، فزحف إلى أماكن تجمعاتهم في صطفورة ، واشتبك معهم في قتال عنيف . وهرب من بقي من الروم فالتجأوا إلى مدينة باجة ، فتحصنوا بها ، كما هرب البربر إلى بونة (عنابة)[٧٤] واكتفى حسان بانهزام أعدائه ، ولم ير ضرورة لإنهاك كل قواه في فتح باجة وبونة ، وعاد – بعد ذلك – إلى القيروان ، لتضميد جراح الناس ، وإصلاح شئونه .

أقام حسان بالقيروان بعض الوقت حتى برئت جراح أصحابه وبدأ الاستعداد لمواجهة بربر البتر ، فقد تمثلت المقاومة البربرية في ذلك الوقت في تحالف قبائل جبل أوراس تحت قيادة امرأة عرفت باسم الكاهنة[٧٥] . ونجحت المرأة بما أوتيت من دهاء ومعرفة بفنون السحر والكهانة ، في أن تبسط سلطانها على بربر البتر مدة تقرب من خمسة وثلاثين عاما[٧٦] ، حتى سماها ابن عبد الحكم[٧٧] « ملكة البربر » ، وحتى قال مستشارو حسان : « إن قتلتها دان لك المغرب كله »[٧٨] .

خرج حسان ورجاله لملاقاة حشود الكاهنة ، عند وادي مسكيانة ، والتقى الجيشان على الأرجح سنة ٧٥ هـ (٦٩٤ م) فاقتتلوا قتالا شديدا ، فعظم البلاء بينهم ، وظن المسلمون أنه الفناء ، وانهزم حسان بعد بلاء عظيم[٧٩] ، ولم يفلت إلّا بعد أن ترك في أرض المعركة عددا كبيرا من زهرة شباب العرب المسلمين ، حتى أطلق على مكان المعركة اسم وادي العذارى[٨٠] . ووقع في أسر الكاهنة حوالي ثمانين رجلا من وجوه أصحاب حسان ، وقد أطلقت سراحهم باستثناء واحد منهم هو خالد بن يزيد العبسي الذي تبنته الكاهنة ، وجعلته كأحد أبنائها[٨١] .

وتراجعت فلول جيش حسان ، واتبعتها حشود الكاهنة حتى خرج من حدود قابس ، منسحبا إلى برقة حيث نزل في موضع لا يزال يعرف باسم قصور حسان ، بعد أن استخلف على إفريقية واحدا من رجاله اسمه أبو صالح[٨٢] .

أما الكاهنة فقد تملكتها فكرة القضاء على مظاهر العمران وتخريب البلاد حتى ييأس العرب من الإقامة في البلاد اعتقادا منها بأن العرب إنما يسعون وراء العمران حيث الذهب والفضة وأشاعت في قومها « أن العرب ، إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي ، فلا نرى لكم إلّا خراب إفريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر »[٨٣] . وانطلق أتباعها إلى كل ناحية من نواحي إفريقية والمغرب ، يقطعون الشجر ويهدمون الحصون ، ويخربون القرى « وبعد أن كانت إفريقية ظلا واحدا من أطرابلس إلى طنجة قرى متصلة ومدائن منتظمة خربت الكاهنة ذلك كله »[٨٤] .

وأحدث هذا التخريب آثارا مدمرة في عمارة البلاد ، وانعكست آثاره على السكان ولاسيما سكان المدن الذين سئموا سياسة الكاهنة التخريبية مما دفعهم للاستنجاد بحسان ابن النعمان لتخليصهم من الكاهنة .

وكان البيزنطيون يتحينون الفرصة لاستعادة قرطاجنة من أيدي المسلمين فاستثمروا انتصار الكاهنة وأعدوا حملة بحرية بقيادة البطريق يوحنا أغارت على المدينة سنة ٧٨ هـ (٦٩٧ م) ، وقتل البيزنطيون من بها من المسلمين ، وسلبوا ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم[٨٥] .

وكان حسان يتابع ما كان يجري في المغرب بينما كان في معسكره بأحواز أطرابلس انتظارا لمدد عبد الملك بن مروان استعدادا لجولة جديدة لاسترداد إفريقية وكان على علم بما يدور في المغرب يأتيه بخبر ذلك السرايا التي كان يبعث بها إلى إفريقية ، أو يأتيه به العرب المسلمون الذين مازالوا يقيمون في إفريقية ، وكان خالد بن يزيد العبسي – الذي تبنته الكاهنة – يكتب سرا إلى حسان ويزوده بأخبارها وخططها .

وأقام حسان نحو خمس سنوات في أحواز برقة ، حتى أمده عبد الملك بالرجال والأموال ، وأمره بالمسير إلى إفريقية . ثم خرج حسان في اتجاه إفريقية سنة ٧٨ هـ (٦٩٧ م) ، وقد زاد جيشه بمن انضم إليه من البربر وبدا تعاطف سكان المدن وتأييدهم المادي والمعنوي للمسلمين وموقفهم العدائي من الكاهنة ، ومما ذكره ابن الأثير ، بأنه

عندما اقترب حسان من البلاد : « لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون إليه منها ، فسره ذلك . وسار إلى قابس ، فلقيه أهلها بالأموال والطاعة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء ، وجعل فيها عاملا . وسار إلى قفصة ليتقرب الطريق فأطاعه من بها ، واستولى عليها ، وعلى قسطيلية ونفزاوة »[٨٦] . ويعني هذا أن أهل البلاد لم يكتفوا بالاستنجاد بحسان ثم الترحيب به ، لكنهم أيضا قدموا لجيش المسلمين معونة من الأموال والرجال ، يبدو ذلك واضحا من رواية ابن عبد الحكم ، إذ يقول : « كان مع حسان جماعة من البربر من البتر »[٨٧] .

لم تكد الكاهنة تعلم بقرب وصول جيش حسان إلى إفريقية ، حتى رحلت عن جبل أوراس – بعد أن أوصت خالد بن يزيد العبسي – الذي تبنته لمثل هذا اليوم – كما يقول ابن عبد الحكم – بأن يصحب ولديها ويستأمن لهما عند حسان ، فأمنهما . أما هي ، فقد قررت أن تقاتل حتى الموت ، وهكذا تم اللقاء بين حسان وبين الكاهنة – قرب قابس ، فانهزمت إلى جبل أوراس ، ولم يزل حسان يطاردها وحشودها حتى التقى بهم سنة ٨٢ هـ (٧٠١ م) فأوقع بهم المسلمون هزيمة ساحقة ، وقتلت الكاهنة عند موضع عرف باسم : « بئر الكاهنة »[٨٨] .

ويذكر ابن الأثير : « أن البربر استأمنوا إلى حسان (بعد هزيمتهم) فأمنهم وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين ، عدتهم اثني عشر ألفا يجاهدون العدو ، فأجابوه إلى ذلك ، فجعل على هذا العسكر ابني الكاهنة ، ثم فشا الإسلام في البربر ... »[٨٩] .

وبذا قضى حسان على كل أثر للمقاومة في المغرب الأدنى ، واستقامت له البلاد ، فاتجه إلى قرطاجنة للمرة الثانية ، لتطهيرها من الروم البيزنطيين وقد هرب هؤلاء بحرا ، واسترد حسان المدينة .

واستقام الأمر للمسلمين في إفريقية ، بالقضاء على مقاومة الروم والبربر واستقرار الفتح عسكريا ، فاتجه حسان إلى تثبيت الفتح الإسلامي في بلاد المغرب ، وإقامة الكيان الإداري للمسلمين في هذه البلاد وإذا كان عقبة بن نافع قد فكر في تمصير القيروان لتكون

قاعدة عسكرية برية للمسلمين في المغرب . فقد شرع حسان في إقامة قاعدة عسكرية بحرية لهم هنالك . فأمر حسان بتعمير موضع ترشيش – على بعد اثني عشر ميلا من قرطاجنة لتصبح ميناءا عربيا إسلاميا – أطلق عليه اسم مدينة تونس ، فتحل محل قرطاجنة الميناء الإفريقي القديم الذي بدت تسويته بالأرض ، حتى لا يفاجأ المسلمون بعودة للروم من جديد كما فعلوا من قبل . وكان مقصد حسان من إنشاء مدينة تونس ، أن تقوم للمسلمين مقام قرطاجنة للروم ، عينا تحرس الشواطئ ، ودارا للصناعة تبنى فيها السفن ، وميناء تجاريا يصل بين الساحل والداخل[٩٠] .

كذلك اهتم حسان بعمران مدينة القيروان ، فأمر بتجديد المسجد الجامع وزاد فيه . ثم أخذ حسان يوجه عنايته لتنظيم البلاد إداريا ، على نحو ما فعله المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس ، فدوّن الدواوين ونظّم الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية ، وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[٩١] .

كما عمد حسان إلى إشراك البربر في جيش المسلمين ، وكانت الخدمة فيه تعني دخولهم في الإسلام ، كما تعني المساواة بالعرب المسلمين في الحقوق والواجبات ، حتى أصبح أكثر الجيش الإسلامي من البربر . ووزعت بينهم الخطط ، على نحو ما كان يفعله قواد الفتوحات الإسلامية في مصر بالنسبة للفاتحين العرب المسلمين : فمن ذلك صارت الخطط للبربر في إفريقية ، فكان يقسم الفيء بينهم والأرض ...[٩٢] كما وزعت مسئولية الحكم على القبائل المختلفة ، فاختصت كل قبيلة بناحية كما يتفق وطبيعة البلاد .

وكان لهذه السياسة أثرها الواضح في نفوس البربر ، وعلاقاتهم بالمسلمين العرب ، فقد ازداد البربر معرفة بالمسلمين العرب وبالدين الجديد الذي حمله الفاتحون معهم ودعوا إليه في كل بقعة يحلّون فيها . وأخذ المغرب يدخل في دور يمكن أن يطلق عليه دور الاطمئنان إلى جانب المسلمين العرب ، باعتبارهم دعاة إلى الإسلام ، لا غزاة مستبدين ، وأقبل البربر على الإسلام في حماس منقطع النظير ، وحسن إسلامهم»[٩٣] .

جهود موسى بن نصير : ٨٦ – ٩٦ هـ / ٧٠٥ – ٧١٤ م :

ترك حسان بن النعمان ولاية المغرب وقفل إلى دمشق ، وآل أمر إفريقية إلى موسى ابن نصير من قبل الوليد بن عبد الملك الذي خلف أباه على عرش بني أمية

٨٦ – ٩٦ هـ/ ٧٠٥ – ٧١٤ م ، وما أن وطئت قدما موسى القيروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) ، حتى أعلن في خطبة له عن سياسته التي سينتهجها في فتح بقية أقاليم المغرب ، ومنها قوله : « إن كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدوا منه أدنى ، فينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عونا عليه عند النكبة . وايم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ، ويذلّ أمنعها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها ، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين »(٩٤) .

وإذا كان حسان بن النعمان ، قد مهد إفريقية (المغرب الأدنى) والمغرب الأوسط – كما سبق القول – فإن المغرب الأقصى لم يكن قد تمهد أمام المسلمين بعد ، وهذا ما وقع على كاهل موسى بن نصير(٩٥) . فمن خطبته التي ألقاها ، تتضح السياسة التي سوف ينتهجها في إتمام الفتح ، وهي سياسة تنطوي علي الحزم والقوة ، والبدء بالعدو القريب قبل البعيد ، وإخضاع قبائل البربر التي خرجت على الطاعة بعد مسير حسان إلى المشرق ، وكذلك التي لم تكن قد خضعت بعد للمسلمين ، مثل قبيلة صنهاجة ، وكتامة ، وهوارة . وتطبيقا لهذه السياسة بدأ بفتح قلعة زغوان ، في منطقة جبلية على مسيرة يوم من القيروان ، كما أرسل أبناءه على رأس مجموعات من الجند لإخضاع المناطق المحيطة بالقيروان .

حتى إذا اطمأن إلى استقرار الأوضاع العسكرية في جميع أقاليم المغرب الأوسط ، خرج موسى لإخضاع المغرب الأقصى ، وتفرقت القبائل أمامه فتتبعها موسى عبر السوس الأدنى حتى بلاد سجلماسة ووادي درعة . واتسع نطاق العمليات العسكرية في المغرب الأقصى ، فاستأمن إليه البربر من المصامدة وكتامة وهوارة وزناتة ، وأعلنوا خضوعهم ، والدخول في الطاعة واعتناق الإسلام ، وقدموا الرهائن للتدليل على صدق نواياهم وولى عليهم عمالا منهم .

وكان آخر أعمال موسى الحربية في ميدان المغرب الأقصى ، الاستيلاء على طنجة فولى عليها مولاه طارق بن زياد ، وبذا كان موسى ، أول من نزلها ، واختط فيها للمسلمين(٩٦) . ووضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط تتكون من ألف

وسبعمائة رجل تحت قيادة ابنه مروان ، ثم انتقلت القيادة إلى طارق بن زياد . وقد أقبل البربر على الرباط على ساحل طنجة بحماس شديد ، و لم تلبث قوات طارق أن بلغت اثني عشر ألف رجل ، مع سبعة عشر رجلا من فقهاء المسلمين يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام(٩٧) وتم إسلام أهل المغرب وتفقيههم في الدين على أيدي أولئك الدعاة .

وتعتبر ولاية طارق بن زياد على طنجة ، واستقلاله بقيادة الجيش الإسلامي في المغرب الأقصى أبرز نتائج التطور الطبيعي لعلاقة العرب بالبربر علاقة المؤاخاة والحلف ، وفي نطاق هذه السياسة كسب العرب المسلمون إلى جانبهم أهل البلاد من البربر ، فاشتد حماسهم – في تلك الفترة الوجيزة للإسلام والجهاد في سبيله ، فكانوا دعامة جيوش الإسلام التي نالت شرف فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد .

هكذا نجح موسى بن نصير في إخضاع بلاد المغرب كلها للإسلام ، و لم يبق سوى مدينة سبتة – التي كان يحكمها يوليان من قبل قوط الأندلس – وقد جاء دخولها في طاعة المسلمين مع دخولهم الأندلس فاتحين .

طابع الدعوة الإسلامية ومراحلها :

على الرغم من أن أمر المغرب لم يستقم للعرب المسلمين إلّا بعد نحو سبعين عاما من الجهاد (٢١ – ٩٠ هـ / ٦٤١ – ٧٠٩ م) ، فإن الإسلام في هذه البلاد كان أسرع انتشارا فيها من غيرها من البلاد المفتوحة ، كان أسرع من انتشاره في مصر على الرغم من سهولة فتحها ، إذ لم يكد القرن الثاني للهجرة / أوائل التاسع الميلادي يؤذن بالانتهاء حتى عمت دعوة الإسلام بلاد المغرب ، ودخل أغلب البربر في الإسلام ، واندمجوا في الحياة الإسلامية . لكن هل يعني هذا أن الإسلام فرض على البربر فرضا ؟ وكيف كانت طبيعة انتشاره بين أولئك البربر ؟

لم تكن سياسة المسلمين في الفتح تخالف في جوهرها سياستهم في الأقاليم الأخرى : من دعوة إلى الإسلام والعمل على انتشاره . وقد وجدت الدعوة إلى الإسلام في المغرب أنصارها والمؤمنين بها ، منذ وقت مبكر ، واستجاب الناس للإسلام بمثل استجابتهم له في الأقطار الأخرى ، وبأسرع مما فعلوا في الشام ومصر والعراق . ووقائع الفتح نفسها

تؤكد ذلك وتعززه ، فقد استجابت القبائل الضاربة بين برقة وزويلة للدعوة إلى الإسلام ، كما دخل بعضهم في العهد . في أولى مراحل الفتح الإسلامي . يبدو ذلك جليّا مما كتبه عمرو بن العاص في ولايته الأولى إلى الخليفة عمر بن الخطاب . إن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ، ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعا بأن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء ، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل إليه بمصر(٩٨) . ومعنى هذا أن الإسلام كان من سعة الانتشار بحيث أتاح لعمرو أن يذكر الصدقة أو الزكاة التي يؤديها المسلمون .

هذا وقد أيد الفتح الإسلامي منذ البداية فريق كبير من البربر – ولاسيما القبائل البدوية التي كانت تكن للروم وسياستهم عداء واضحا – ومن أبرز هؤلاء لواتة ، ونفزاوة ، ونفوسة ، وقبيلة زناتة(٩٩) . كذلك كان هؤلاء أسرع في الاستجابة للإسلام والدخول فيه . وتتواتر كثرة من الروايات والأخبار عن انتشار الإسلام على يدي عقبة ابن نافع في حملته الأولى سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) وفي حملته الثانية فيذكر ابن الأثير : « فلما استعمله معاوية ، سيّر إليه عشرة آلاف فارس ، فدخل إفريقية ، وانضاف إليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه »(١٠٠) ولم يكن تأييد هذا الفريق من البربر مقصورا على التأييد المعنوي ، بل اعتنقوا الإسلام وأخلصوا له بدليل مشاركتهم في الجهاد إلى جانب العرب المسلمين .

ومما يفسر سرعة انتشار الإسلام ، جهود قادة الفتح الإسلامي للمغرب في الدعوة إلى الإسلام ، ويأتي في مقدمة أولئك القادة الدعاة : عقبة بن نافع الذي تجلت روحه الدينية في نهج قيادته ، فكان يضع الدعوة إلى الإسلام أول أهدافه حين يتقدم بجنده في شق أرجاء المغرب من أدناها أو أقصاها وتتواتر الروايات حول دخول كثير من البربر في الإسلام خلال عمارته للقيروان ، فانتشر الإسلام فيما بين القيروان وقفصة ، حيث كان نشاط عقبة في حملته الأولى(١٠١) .

واصطنع خلفه أبو المهاجر سياسة المصالحة والتودد إلى البربر ، بعد انتصاره على

كسيلة في تلمسان واستطاع أن يتألفه وقبيلته إلى الإسلام . وما من شك في أن إسلام كسيلة أو قبوله محالفة المسلمين – على ما كان منه بعد مع عقبة – كان خطوة كبرى فى انتشار دعوة الإسلام . فقد كان كسيلة يتزعم البربر[١٠٢] .

وفي ولاية عقبة الثانية بلغ فيها المغرب الأقصى حتى المحيط معلنا هدفه : « ألا يعبد إلّا الله وحده » ولقد حرص في حملته هذه ما حرص عليه من قبل من الدعوة إلى الإسلام والعمل على انتشاره ويفهم من رواية ابن عذاري ، أن عمل عقبة في هذه الحملة لم يأت ارتجالا ، وإنما كان ينظمه فيحسن تنظيمه ، ويقصر عليه جهود نفر من أصحابه ، يكل إليهم تعليم الناس الإسلام ، وهدايتهم إليه ، وكان من أولئك شاكر وغيره ، « فأسلم أكثر المصامدة طوعا على يدي عقبة »[١٠٣] .

وإذا كانت ولاية عقبة الثانية قد انتهت بمأساة معركة تهودة وارتداد المسلمين إلى برقة ، وتخليص صاحب قفصة لبعض المسلمين من الأسر وإرسالهم إلى القيروان فإن حوادث هذا الارتداد تدل على ما كان بلغ انتشار الإسلام من قوة ، إذ يغلب أن يكون صاحب قفصة هذا مسلما ، أو أن معظم من بها من البربر كانوا من المسلمين حتى راح صاحبها يخلص أسرى المسلمين ويبعث بهم إلى القيروان حيث كان في انتظارهم غيرهم من المسلمين . وإذا كان كسيلة لم يحاول القضاء على أولئك المسلمين في القيروان فإن ذلك لا يمكن تفسيره برحمة كسيلة وعطفه ، بعد ما كان منه في تهودة ، وإنما الأقرب أن يفسر بانتشار الإسلام بين البربر الذين لم يتقبلوا مأساة تهودة ولم يكن في وسعهم الإغضاء عنها بعد أن تركت في نفوسهم أعمق الأثر ، « فانقلبت إفريقية نارا » ، على قول المالكي[١٠٤] .

ولم يكن ارتداد المسلمين في هذه الحروب ارتدادا للإسلام ، فقد كانت كل معركة أو غزاة – نصرا أو هزيمة – تدفع بالموجة الإسلامية خطوة إلى الأمام ، وإذا ما قدر لها أن تتراجع مرة ، فإنها كانت لا تلبث أن تمتد فيما بعد إلى أبعد مما كانت امتدت إليه فيما سبق[١٠٥] . وتجلّى ذلك في اشتراك البربر في الجهاد إلى جانب إخوانهم المسلمين العرب . فيذكر المالكي عن حملة زهير بن قيس البلوي ، « إن جيش زهير كان أربعة

آلاف ، وأنه ضم إليه نفرا كبيرا من البربر تبلغ عدتهم ألفين » . ومعنى هذا أن البربر أخذوا يشاركون الجيوش الإسلامية حملاتها ، وأن كثرة من الجيش كانت تتألف منهم ، وأن هؤلاء البربر أسلموا وحسن إسلامهم ، وأنهم أخذوا أنفسهم بقتال الذين لم يؤمنوا من قومهم .

كما يطالعنا وجوه البربر وأعدادهم المتينة في حملات حسان بن النعمان إذ كانوا يشاركون في الجهاد وقد كان على مقدمة جيش حسان بن النعمان فيما بعد في العقد الثامن من القرن الأول محمد بن بكر وهلال بن ثروان اللواتي[١٠٦] . ويعني هذا أن فريقا آخر من البربر تمكن الإسلام من قلوبهم حتى قادوا جيوش المسلمين ، وشاركوا في فتح البلاد .

ويزداد إقبال البربر على الإسلام والانضواء تحت لوائه فيما تطالعنا به الروايات عن اشتراك المزيد من قبائل البربر في الجيش الإسلامي الفاتح ، ففي رواية للمالكي : « أن الروم والبربر كانوا اجتمعوا على قتال حسان فقاتلوه ، فهزمهم الله تعالى ، فخافوه ، فاستأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم حتى أعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألف فارس تكون مع العرب مجاهدين ، فأجابوه (أي البربر) وأسلموا على يديه ، فعقد لولدي الكاهنة — بعد إسلامهما — لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس من البربر وجعله واليا عليهم ، وأخرجهم مع العرب يفتحون إفريقية ، يقتلون الروم ومن كفر من البربر[١٠٧] . والهدف من خطة حسان واضح هو أن يفيد المسلمون من قتال البربر فوق أرضهم ومع قومهم وهم خبراء بذلك من جانب ، وأن يختلطوا بهم ليتقاربوا وتتوثق بينهم الألفة من جانب آخر ، وبهذا يتيسّر السبيل إلى تعميق الإسلام في نفوسهم أو البشارة به بين غيرهم[١٠٨] .

ولعل مما يفسر سرعة انتشار الإسلام في المغرب ، وسرعة تقبل الناس له ، ما جرى عليه المسلمون من منح البربر الذين يعتنقون الإسلام المساواة الكاملة مع المسلمين العرب . فقد سوى حسان بن النعمان بين مسلمي البربر والعرب في قسمة فيء الحرب ومغانمها ، ولم يعتبر العرب حكاما والبربر محكومين ، وإنما ساوى بينهم في الحقوق

والواجبات بل مضى حسان قدما في سياسة التهدئة ، فاعتبر أن أرض المغرب لم تفتح عنوة ، بل « أسلم عليها أهلها » فأقرهم على ما بأيديهم من الأرض ، فأصبحت كما يقول المالكي : « ... فمن ذلك صارت الخطط للبربر بإفريقية ، فكان يقسم الفيء بينهم والأرض ... »(١٠٩) .

ولكن سائر أهل المغرب من غير البربر من الروم والأفارقة ، قد عوملوا على أساس أن أرضهم فتحت عنوة وهكذا وجد البربر أنفسهم – وقد استبد بهم من قبل الحكم البيزنطي – أرفع شأنا من سادة الأمس (الأفارقة والروم) وكانت النتيجة المحققة لتلك السياسة اختفاء العنصر الرومي اللاتيني شيئا فشيئا حتى انعدمت آثارهم تقريبا ، واختفت تبعا لذلك اللغات اليونانية واللاتينية والفينيقية التي كان يستعملها أولئك الروم والأفارقة . وأدت هذه السياسة إلى النهوض بالشعب المغربي وأخذه بأسباب الحضارة الإسلامية(١١٠) .

وامتدت سياسة التهدئة هذه من المغرب الأدنى والمغرب الأوسط (تونس والجزائر) إلى المغرب الأقصى على يد موسى بن نصير الذي تابع سياسة حسان في المغرب الأقصى ، فلم يكن قائدا فحسب ، بل كان مصلحا وسياسيا في نفس الوقت ، قرّب إليه البربر وحببهم في الحكم الجديد فولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب في إدارة البلاد ، فبدأوا يقبلون على الإسلام إقبالا عظيما . وكان نشر الإسلام يسير مع الفتح جنبا لجنب ، لأن موسى أحب ألا يكون إسلام البربر خوفا أو رهبة ، بل اقتناعا وحبا ، فأخذ يفقههم في الدين(١١١) ، وينشىء المساجد في البلاد التي فتحها ، منها المسجد الذي أنشأه في أغمات هيلانة بالمغرب الأقصى(١١٢) .

وكان من جهود قادة الفتح الإسلامي – باعتبارهم دعاة إلى الإسلام في الوقت نفسه – جهود الذين شاركوا في أعمال الفتح من الصحابة والتابعين فنهضوا بتفقيه البربر في الدين خلال ولاية عقبة وحسان وموسى كما سلفت الإشارة وقد رسخت قواعد الإسلام وتوطدت أركانه في عهدهم . ومن هؤلاء الولاة الدعاة إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، الذي ولّاه الخليفة عمر بن عبد العزيز ولاية إفريقية سنة ١٠٠ هـ (٧١٨ م)

فكان خير أمير وخير وال ، وما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه في دولة عمر بن عبد العزيز وهو الذي علّم أهل إفريقية الحلال والحرام[١١٣] .

ثم إن الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث مع واليه على المغرب إسماعيل بن عبد الله ، عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل ، فانتشروا بين البربر ، وأخذوا يعلمونهم الإسلام ويبصّرونهم بقواعده وأصوله ، ويفقهونهم في أمور الحلال والحرام . وتبرز سير أولئك الدعاة وجهودهم ودورهم الجليل في نشر تعاليم الإسلام بين البربر ومن هؤلاء العشرة : سعد بن مسعود التجيبي (أبو مسعود) ، وعبد الله بن يزيد المعافري (أبو عبد الرحمن) ، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري ، وعبد الرحمن بن رافع (أبو الجهم) التنوخي ، وحيان بن أبي جيلة القرشي ، وبكر بن سوادة الجذامي (أبو ثمامة) وجعثل ابن عاهان بن عمير (أبو سعيد) ، وطلق بن جابان[١١٤] .

لقد أقام هؤلاء الدعاة الفقهاء المساجد ، وجعلوها مدارس للإسلام يقصدها البربر من كافة أقاليمهم وقد أخذ عن هؤلاء التابعين كثيرون من أهل البلاد ، فكان الفريق من البربر إذا قطع شوطا مناسبا في تعلم الإسلام والدراسة في القيروان، عادوا إلى بلادهم لنشر ما تعلموه ويتولون وظائف الإمامة والقضاء ويعملون بدورهم على نشر الإسلام وثقافته[١١٥] .

الهـــوامـــش

(١) يقسم النسابة قبائل البربر إلى قسمين كبيرين . أولهما : البرانس ومن قبائلهم المشهورة عشر منها : « أزواجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريغة » .. وثانيهما البتر ، ومن قبائلهم المشهورة أربع : إداسة ونفوسة وصريسة وبنو لوا الأكبر (ابن خلدون) ، العبر ، جـ ١ ص ٨٩ - ٩٠ . ويجعل ابن خلدون معظم البرانس أهل المدر الذين يعيشون عيشة استقرار في السهول والجبال الحصبة ، ويمارسون الزراعة ، على حين أن البتر أهل وبر – أي يعيشون عيشة تنقل في الجبال والمناطق الصحراوية حيث يشتغلون بالرعي . ولكن هذا التقسيم لم يكن متحققا في الواقع طبعا على إطلاقه ، فالحضارة والبداوة متبادلة بين كل من الجماعتين ، وبعض قبائل البرانس مثل صنهاجة الصحراء ولمتونة ومسوفة تعيش أنقى صور البداوة (سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي جـ ١ ص ٨٨ - ٨٩ إسكندرية ١٩٧٩) .

(٢) الطاهر أحمد الزواوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ٢٧ ، دار التراث العربي ، ليبيا ، الطبعة الثالثة .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، مرجع سابق ص ١٠٦ .

(٤) كانت هذه المدن تضم بين جنباتها الكثير من المنشئات المدنية والدينية كالمعابد والساحات والملاعب وغيرها (رشيد الناضوري : المغرب الكبير ، العصور القديمة ص ٣٣) .

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، العصر الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨١ ، جـ ٢ ص ٣٦ .

(٦) حسين مؤنس ، مرجع سابق ، ص ٢٦ ، مصر ١٩٤٧ م .

(٧) شكري فيصل ، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ نقلا عن مؤنس فتح العرب للمغرب ص ٢٢ .

(٨) السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق جـ ٢ ص ٨٠ .

(٩) ابن خلدون ، العبر جـ ٦ ص ١٠٦ .

(١٠) ومن القبائل التي تفشت فيها المجوسية المصامدة وبلاد السوس ، وقبائل بني بازغة ، وبني برعش وزناتة الحبابية ومغراوة وبني يفرن الزناتي ولا يمكن تحديد المقصود بالضبط من « المجوسية » التي كانت دين البربر « شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب » – على حد قول ابن خلدون .

(١١) ومن القبائل التي اعتنقت اليهودية قبيلة جراوة ، أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة ، وقبائل نفوسة في إفريقية (تونس) ، وقبائل فندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازان في المغرب الأقصى (ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ١٠٧) .

(١٢) سعد زغلول عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .

(١٣) ابن عذاري ، مصدر سابق ، جـ ١ ص ٦ ، بيروت .

(١٤) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٢٩ ، وقارن (البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٦٤) وفيه « يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه .. » على أنه لا يفهم من بيع الأبناء والبنات في الجزية أنه كان أمرا ملزما للواتيين ، بل هم الذين اقترحوا ذلك مبالغة منهم في إظهار حسن نواياهم . وقد كان بيع الذراري والأبناء للوفاء بالجزية أمرا شائعا مألوفا عند البربر في ذلك الحين . (السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ١٤٣ حاشية ١ ، حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٥٦) .

(١٥) سعد زغلول عبد الحميد : مرجع سابق ، جـ ١ ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(١٦ - ١٧) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(١٨) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٣٠ .
(١٩) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٦٤ .
(٢٠) المصدر نفسه .
(٢١) مدينة « وشرت » بضم الشين ، مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن ، وتبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو أربعة كيلومترات ، وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو ٥٥٤ كيلومتر ، وكانت محاطة بسور من التراب وهي غير سرت المعروفة الآن ، لأن سرت هذه أنشئت في العهد التركي سنة ١٣٠٣ هـ ، وتسمى الآن قرارة الأقواس (الطاهر أحمد الزواوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ٤٨ ، ٤٩) .
(٢٢) لبدة : مدينة بين برقة وإفريقية ، تقع على بعد ٩٠ كيلومتر شرقي طرابلس أسسها الفينيقيون في القرن العاشر قبل الميلاد ، ثم توالى على حكمها النوميديون ثم الرومان والوندال والبيزنطيون وأقام بها البيزنطيون الآثار الكثيرة ، غير أنها تأثرت بالاضطرابات العنيفة التي سادت هذه البلاد على أثر ثورة قبائل لواتة (الطاهر أحمد الزواوي ، نفس المرجع ، ص ٥٠ – ٥٦) .
(٢٣) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٣٠ .
(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣١ . ويضيف البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٦٦ ، تفصيلات عن مغانم عمرو فيقول : « وأصاب بها أحمال « بزيون » كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين » ، ولعل « بزبون » هذه أحمال الزيتون التي كان الروم قد أعدوها لتحملها مراكبهم التي اضطرت للفرار . (سعد رغلول : مرجع سابق ص ١٣٩ وحواشيها) .
(٢٥) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٣١ .
(٢٦) المصدر نفسه ص ٢٦٢ .
(٢٧) المصدر نفسه ص ٢٣٢ .
(٢٨) سعد زغلول عبد الحميد : مرجع سابق ص ١٤٣ .
(٢٩) ابس عبد الحكم ، مصدر سابق ، ص ٢٣٢ .
(٣٠) السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق (العصر الإسلامي) ص ١٥٢ .
(٣١) البلاذري : مصدر سابق ص ٢٦٧ .
(٣٢) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٤٦ .
(٣٣) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه .
(٣٤) الطاهر أحمد الزواوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٨٣ ، ويضيف : « وارتد من كان أسلم منهم » .
(٣٥) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .
(٣٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٣ ص ٩٠ ، بتحقيق . طبع بيروت ١٩٦٥ م .
(٣٧) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٤٦ .
(٣٨) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٣ ص ٢١٢ ، ابن عذاري ، مصدر سابق ، جـ ١ ص ١٥ ، ابن تغري بردي : مصدر سابق ، جـ ١ ص ١٢٤ .
(٣٩) ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٩٢ .
(٤٠) يذكر ابن عبد الحكم (مصدر سابق ص ٢٦٠ – ٢٦١) « غزا معاوية بن حديج إفريقية ثلاث غزوات ، أما الأولى فسنة أربع وثلاثين قبل قتل عثمان . وأعطى عثمان مروان الخمس في تلك الغزوة ، وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس والثانية سنة أربعين والثالثة سنة خمسين ... » . والواضح أن حرب المغرب في تلك المرحلة =

= كانت أشبه ما تكون بالغزوات السوية المعروفة بالصوائف ، وهى حرب الثغور مما يخشى معه أن تكون أحداث الحملات المختلفة قد اختلطت وتداخل بعضها في بعض (سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ١٩٦٧ م) .

(٤١) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ١٦ .

(٤٢) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٦١ .

(٤٣) البكري : مصدر سابق ، ص ٥٨ .

(٤٤) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٧٨ .

(٤٥) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ١٦٢ .

(٤٦) اختلف المؤرخون في التأريخ لهذه الحملة ، فجعلها ابن عبد الحكم سنة ٤٦ هـ ، بينا جعلها ابن الأثير سنة ٥٠ هـ فيقول : « والذي ذكره أهل التاريخ من المعاربة أن ولاية عقبة بن نافع إفريقية كانت هذه السنة (٥٠ هـ) ، وبنى القيروان ثم بقي إلى سنة ٥٥ هـ ، ووليها مسلمة بن مخلد » وهم أخبر ببلادهم وأنا أذكر ما أثبتوه في كتبهم . والراجح أن الحملة التي أشار إليها ابن عبد الحكم سنة ٤٦ هـ ، كانت إحدى الصوائف التي يقوم بها عقبة لإخضاع البربر وردهم إلى الطاعة ، لأنهم كما يقول : « كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام ، فإذا عاد الأمير عنهم ، نكثوا وارتد من أسلم » . (ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٦٥) .

(٤٧) ابن عذاري : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٠ .

(٤٨) سعد زغلول عبد الحميد : مرجع سابق ، ص ١٨٣ ، نقلا عن النويري نهاية الأرب مخطوط ورقة ١٦٨ .

(٤٩) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٦٤ .

(٥٠) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ١٩ .

(٥١) ابن الأثير : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٦٥ – ٤٦٦ .

(٥٢) سعد زعلول عبد الحميد : مرحع سابق ص ١٨٦ .

(٥٣) الدباغ : مرجع سابق ، جـ ١ ص ٧ .

(٥٤) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٣ ص ٤٦٦ .

(٥٥) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .

(٥٦) سعد زغلول عبد الحميد : مرجع سابق ، ص ١٩٠ – ١٩١ .

(٥٧) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٢٨ – ٢٩ ، وتاريخ خليفة بن خياط جـ ١ ص ٣٤٥ ، سعد زغلول : مرجع سابق ، ص ١٩١ وما بها من حواش .

(٥٨) ابن عذاري : المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٣ .

(٥٩) ابن عذاري : المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٤ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(٦١) المالكي : مصدر سابق ، تحقيق مؤنس جـ ١ ص ٢٥ .

(٦٢) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٢٧ .

(٦٣) يعرف الموضع الدي نزل فيه التابعي شاكر – في منتصف المسافة بين موضع مدينة مراكش ، وبين موحادور – عند الكتاب ، باسم « رباط شاكر » ، وهو حاليا يعرف بسيدي شيكر (حسب النطق الدارج هناك) ، انظر (سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص ٢٠٢) .

(٦٤) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٢٩ .

(٦٥) المالكي : مصدر سابق ، ص ٢٧ .
(٦٦) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٣١ .
(٦٧) المالكي : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٢٩ .
(٦٨) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ١٧٢ .
(٦٩) المالكي : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٣٧ .
(٧٠) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٣٤ .
(٧١) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٤ ص ٣٦٩ .
(٧٢) حسن علي حسن : مرجع سابق ، (عصر الولاة) ص ٥٠ .
(٧٣) سعد زغلول عبد الحميد : مرجع سابق ، ص ٢١٥ .
(٧٤) بونة ، هي عنابة الحالية في شرق الجزائر على حدود تونس (سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب ص ٢١٦) .
(٧٥) امرأة بربرية من قبيلة حراوة ، وهي قبيلة من مجموعة قبائل البتر (البدو) التي سكنت جبال أوراس ، وليس من المعروف إذا كانت المرأة استمدت قوتها من البربر فقط ، أو من علاقة كانت بينها وبين الروم أيضا . فقد كان من بين أولادها ابن يوناني ، مما يحتمل أن يكون الروم قد أعانوها على تثبيت مركزها أو أن بعضهم ربط مصيره بمصيرها .
(٧٦) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٣٥ .
(٧٧) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٧٠ .
(٧٨) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٣٥ .
(٧٩) الدباغ : مرجع سابق ، جـ ١ ص ٦١ - ٦٢ .
(٨٠) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ص ٣٦ ، وسماه ابن عبد الحكم (فتوح مصر والمغرب ص ٢٧٠) « نهر البلاء » .
(٨١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٧٠ ، ويسميه ابن الأثير : (الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٣٧٠) « خالد بن يزيد القيسي » .
(٨٢) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٧٠ ، ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ٣٧٠ - ٣٧٢ .
(٨٣) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٣٦ ، قارن ابن الأثير ، الكامل جـ ٤ ، ص ٣٧١ .
(٨٤) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٣٦ .
(٨٥) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٢٤٥ ، نقلا عن البكري : المغرب في ذكرى بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٨ .
(٨٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٣٧١ .
(٨٧) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٧١ .
(٨٨) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .
(٨٩) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٤ ص ٣٧٢ .
(٩٠) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، مرجع سابق ص ١٧٧ .
(٩١) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٣٨ .
(٩٢) المالكي : مصدر سابق ، ص ٣٦ .

(٩٣) ابن عذاري : مصدر سابق ، حـ ١ ص ٢٩ « وأسلموا ، أي البربر ، على يديه - أي حسان - وانصرف حسان إلى مدينة القيروان بعدما حسن إسلام البربر وطاعتهم ... » .
(٩٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة طبع الحلبي ، حـ ٢ ص ٥١ .
(٩٥) سعد زغلول عبد الحميد : مرجع سابق ، ص ٢٤٠ .
(٩٦) البلاذري : مصدر سابق ، حـ ١ ص ٢٧٢ .
(٩٧) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٤٣ .
(٩٨) البلادري : مصدر سابق .
(٩٩) مؤنس : مرجع سابق ، ص ٢٨٤ .
(١٠٠) ابن الأثير : مصدر سابق ، حـ ٣ ص ٤٦٥ ، حوادث سنة ٥٠ هـ .
(١٠١) راجع ما سبق في المغرب الأدنى .
(١٠٢) راجع ما سبق ، وانظر شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، مرجع سابق .
(١٠٣) ابن عذاري : مصدر سابق ، حـ ١ ، ص ٣٧ .
(١٠٤) المالكي : مصدر سابق ، ص ٨ .
(١٠٥) شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، مرجع سابق ، ص ١٧٨ .
(١٠٦) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ٢٧٠ .
(١٠٧) مصدر سابق ، ص ٣٩ .
(١٠٨) راجع شكري فيصل ، مرجع سابق .
(١٠٩) المالكي : مصدر سابق ، ص ٣٦ .
(١١٠) حسين مؤنس : مرجع سابق ، ص ٢٧٨ .
(١١١) « وأمر موسى بن نصير العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين » (ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ، ص ٤٢)» .. وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلا من العرب ، يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام (البيان ، نفس الصفحة) .
(١١٢) « وفي هذا التاريخ (٩٣ هـ) تم إسلام أهل المغرب الأقصى ، وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات وفيها صنع مسجد أغمات هيلانة .. » (ابن عداري : مصدر سابق ، حـ ١ ص ٤٣) .
(١١٣) ابن عداري : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٤٨ .
(١١٤) انظر المالكي : مصدر سابق ، ص ٦٦ - ٩٦ .
(١١٥) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ، ص ١٤٩ .

انتشار الإسلام في غربي إفريقية

خضع تاريخ غربي إفريقية حتى القرن الثالث عشر للهجرة (١٩ م) لظاهرتين عميقتي الأثر تتمثل أولاهما في الاتصالات المستمرة لقبائل البربر بأوطان السودان في الجنوب وتتمثل الظاهرة الثانية في اتصال أولئك السودانيين في غربي إفريقية بقبائل البربر الوافدين واختلافهم وتأثرهم بهم ، واقتباسهم الكثير من نظمهم الحربية وحياتهم الاجتماعية والدينية والثقافية فكان هؤلاء حلقة الاتصال بين المغرب وشعوبه وحضارته وبين المحيط السوداني في الجنوب ، وكانوا أول من اضطلع بنشر الإسلام في أقاليم غربي إفريقية .

وفريق البربر الذي قام بدور الوسيط بين المغرب وشعوبه وحضارته وثقافته وبين المحيط السوداني في الجنوب هو فريق الطوارق أو الملثمين . وتمتد أوطانهم من غدامس في جنوبي طرابلس في الشرق إلى المحيط الأطلنطي في الغرب . ومن جنوبي جبال درن (أطلس) في الشمال إلى مصب السنغال ومنحنى النيجر في الجنوب . ومن قبائل الملثمين : لمطة وجزولة ولمتونة ، وجدالة ، ومسوفة ، يقابل هؤلاء من شعوب السودانين الغربي والأوسط : شعب التكرور ، أو التكلور ، Tucolor والسرير Serer والولوف Woloff وهؤلاء ينزلون على طول ضفتي السنغال ، كما يعيش شعب السنغي على الضفة اليسرى لنهر النيجر ، وبينهما تقع ديار المتكلمين بلغة الماندى ، أى الماندنجو ، وتشمل المانكة ، والسوننكة والبيبارا . وإلى الجنوب منهم تعيش الجماعات التي تتحدث لغة الجور ، وأهمها شعب الموسي Mossi وإلى الشرق من الماندنجو نجد شعب الهوسا في شمالي نيجيريا ، وهؤلاء تنتشر لغتهم من تشاد إلى أعالي الفولتا ، وإلى الشرق في إقليم بحيرة تشاد تسكن شعوب عديدة اختلطت بشعوب الصحراء المعروفة باسم التبو أو تدا ، ومن هؤلاء شعب الكانوري في برنو ، وشعب الباجرمي في حوض نهر شاري ، وقد خضع هؤلاء للمؤثرات البشرية والحضارية القادمة من ناحية الشرق – من ناحية جنوبي الجزيرة العربية عن طريق سودان وادي النيل . وفي غربي إفريقية تنتشر قبائل الفلان (البول – البوهل – الغلبي) ويقال إنهم من أصل مصري أو نوبي جاءوا إلى السنغال عن طريق

شمالي إفريقية واختلطوا بالزنوج ، فاكتسبوا بعض صفاتهم الجسمية وأخذوا عنهم اللغات السودانية ، وانتشر الفلان من أقصى الغرب حتى إقليم تشاد في الشرق تاركين على طول الطريق – الذي سلكوه – جماعات استقرت بين الزنوج وبين الهوسا .

وفي ضوء هاتين الظاهرتين يمكن تتبع مراحل امتداد الإسلام إلى غربي إفريقية وانتشاره فيها .

فقد مرت حركة الدعوة إلى الإسلام في هذه الأقاليم الإفريقية بثلاث مراحل متميزة وهى :

المرحلة الأولى : وتبدأ في القرن الأول الهجري ، وشهدت هذه المرحلة امتداد الإسلام إلى غربي إفريقيا امتدادا بطيئا عن طريق التسرب السلمي ثم الهجرة والاستيطان منذ القرن الثالث الهجري (٩م) وكانت طلائع هذه الهجرات الاستيطانية من قبائل الملثمين خاصة .

المرحلة الثانية : وتبدأ بالقرن السابع الهجري (١٣م) وقد شهدت تطورا واسعا في حركة انتشار الإسلام في أقاليم غربي إفريقية . غير أن موجهي هذه الحركة الجديدة لم يصبحوا من البربر ، كما كان الحال في المرحلة الأولى ، بل من أهل البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام ، ونالوا نصيبا من الثقافة الإسلامية ، سواء أكانوا من السودان الخلص ، أم السودان الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر ، وأفادوا من خبراتهم السابقة في ميادين السياسة والحرب ، فأسسوا إمبراطوريات إسلامية واسعة مثل : مالي ، وصنغي ، وبرنو ، والكانم ، وممالك الهوسا (الحوصا) .

المرحلة الثالثة : في القرن الثالث عشر الهجري (١٩م) وهي تمثل عصر الإصلاح الإسلامي ، وفيه تظهر حركات تهدف إلى إصلاح أحوال المسلمين والنهوض بالإسلام ، بعد أن تعرض المجتمع الإسلامي في غربي إفريقية لموجة من الانحلال والضعف في نواحي الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (١٧ – ١٨م) .

وقد اعتمد امتداد الإسلام إلى غربي إفريقية من بلاد المغرب وانتشاره فيها على عاملين هامين :

أولهما : اعتناق البربر للإسلام ، ولاسيما الطوارق أو الملثمين ، وحملهم للدعوة الإسلامية .

وثانيهما : ضعف مقاومة مملكة غانة الوثنية لدعوة الإسلام ، ومن ثم انفتح الطريق أمام التيار الإسلامي فتدفق إلى غربي إفريقية .

جهود ولاة المغرب في نشر الإسلام في غربي إفريقية ولاسيما بين الملثمين :

بدأت المحاولات الأولى لنشر الإسلام بين قبائل الملثمين - كما سبقت الإشارة - في ولاية عقبة بن نافع الفهري الثانية أثناء محاولته بسط النفوذ الإسلامي على بلاد المغرب الأقصى . والمعروف أن عقبة استطاع إخضاع المغرب الأوسط ، لكن قبائل البرانس لم تذعن للحكم العربي الإسلامي - في أول الأمر - بل لجأت إلى جبال المغرب الأقصى للاعتصام بها ومقاومة الزحف العربي ، فتتبعها عقبة حتى جاوز تلمسان إلى المغرب الأقصى ، ووصل إقليم السوس الأدنى ، واستعان بقبائل زناتة على مواجهة قبيلة مصمودة ، ثم واصل زحفه غربا حتى بلغ مدينة ماسة في السوس الأقصى ، حيث تقع مدينة أغمات . وتذكر بعض الروايات أن عقبة توغل جنوبا في غربي إفريقية حتى بلغ بلاد التكرور وغانة حيث بنى بعض المساجد ، كما تشير هذه الروايات إلى وجود جالية إسلامية بها منذ سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م) . لكن هذه الرواية لا تخلو من مبالغة ، والراجح أن حدود غانة القديمة كانت تمتد شمالا حتى بلغت حدود المغرب الأقصى حيث وصل عقبة وقد نجح عقبة في الوصول إلى أقصى الجنوب من بلاد المغرب الأقصى ، ومهّد الطريق أمام التجار المسلمين الذين بدأت طلائعهم تفد إلى هذه البلاد ، وقد اتخذوا من بلدة أزقي مركزا يخترقون منه الصحراء للوصول إلى بلدة أودغست عاصمة قبائل مسوفة من الملثمين . لكن الجهود التي بذلها عقبة أصابتها نكسة بانقضاض البربر عليه وقتله وهو في طريق العودة إلى إفريقية (تونس) .

ولقد تجنب حسان بن النعمان سياسة عقبة ، واتبع سياسة تقوم بصفة أساسية على تحبيب البربر في الإسلام ، والتقريب بينهم وبين العرب ، ونهج موسى بن نصير نهج سلفه حسان بعد أن بلغ ساحل المحيط ، فرد البربر إلى الإسلام . ووجد البربر أن انضمامهم

للمسلمين يمنحهم مكاسب كثيرة فأقبلوا على الإسلام عن اقتناع وميل إليه بعد انتشار الدعوة إليه وتعلم مبادئه وأحكامه وقد أنشأ موسى المساجد في البلاد التي أعاد فتحها . ولما بلغ ديار الملثمين في المغرب الأقصى ردّهم إلى الإسلام متوسلابالسياسة التي انتهجها مع سائر البربر ، وأنشأ مسجدا في بلدة أغمات ، وهى المدينة التي سوف تصبح من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في المغرب الأقصى . ومن مظاهر نجاح سياسة موسى اشتراك فرق البربر مع العرب في فتح الأندلس ، وهو الذي كان من عوامل مسارعة البربر إلى الإسلام والتحمس للمشاركة في الجهود العملية لنصرته وزاد اهتمام الدولة الإسلامية بأمور المغرب وشئونه في عهد الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز . فقد عمل على إرسال التابعين للانتشار بين البربر لتثبيت العقيدة في نفوس المسلمين وتعليمهم ونشر دعوة الإسلام بين الناس أجمعين .

و لم يكد ينتصف القرن الثاني للهجرة حتى أضحت بلاد المغرب قطرًا إسلاميا يتأثر بما يجري في بقية أرجاء العالم الإسلامي من أفكار ، وما يعتمل فيه من حركات دينية وسياسية . وهكذا شهدت أراضي المغرب نشوب ثورات للخوارج والشيعة ، و لم تكن حركات هؤلاء أو أولئك خروجا على الإسلام وإنما كانت ثورة على السلطان واحتجاجا على مظالم عانى منها أهل البلاد . وكان دعاة الفرق الإسلامية عاملا هاما في نشر الإسلام بين أهل البلاد . وشارك الملثمون في هذه الحركات الثورية ، لكنهم استكانوا حين هدأت أحوال المغرب . وبذلك نال أهل المغرب الأقصى مزيدا من الحرية في شئونهم الداخلية ، ثم توالى ظهور الإمارات الإسلامية المستقلة في أرجائه ومنها إمارة سجلماسة وإمارة طنجة اللتان ظفرتا بتأييد الملثمين .

وقد سعى ولاة القيروان إلى إحكام العلاقة بين المغرب الأقصى وبين ديار الملثمين وبلاد السودان كذلك ، فعملوا على حفر الآبار على طول الطريق الموصل بين واحات المغرب وبين مدينة أودغست بصحراء المغرب العربي ، مما سهّل انتقال التجار العرب إلى أقاصي ديار الملثمين وبلاد السودان ، ونشرهم الإسلام في هذه الديار .

الدويلات الإسلامية المستقلة في المغرب

أوطان الملثمين جزء من دولة الأدارسة :

قامت في بلاد المغرب دويلات إسلامية مستقلة بسطت نفوذها على أقاليم معينة ، وقد كان لها دور بارز في نشر الإسلام وحضارته في أرجاء المغرب والأندلس والسودان الغربي .

فقد نجح الأدارسة في إقامة دولة مستقلة في بلاد المغرب الأقصى (١٧٢ – ٣١٢ هـ / ٧٨٨ – ٩٢٢ م) اشترك فيها العرب والبربر ، وقامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى بنفس الدور الذي قامت به دولة الأغالبة في تونس (١٨٤ – ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ – ٩٠٩ م) بتوحيد القبائل المتنافرة ، ونشر الأمن عقب انتهاء حركات الخوارج . واستطاع الأدارسة – بفضل هذه الوحدة الجديدة – أن يكرسوا جهودهم للقيام بحركة جهاد لإزالة العقبات التي عرقلت مسيرة الإسلام والعمل على تعميم نشره ، فردّوا المصامدة إلى الإسلام ، وتجاوز نشاطهم إقليم المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى ، فانتشر في إقليم الواحات ، ودخل الملثمون في طاعتهم ، فأخضع عبد الله بن إدريس قبيلة لمطة على ساحل المحيط ، وتولى على أغمات والسوس الأقصى وبلاد نفيس وصنهاجة الرمال(٩) (اللثام) . ومن ثم غدت أوطان الملثمين جزءا من دولة الأدارسة ، وانتشر الإسلام بين صنهاجة اللثام(١٠) . واضطلعت مدينة فاس التي أسسها الأدارسة بدور كبير في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية في المغرب الأقصى ، ووصلت إشعاعاتها الثقافية إلى مواطن الملثمين(١١) .

مملكة صنهاجة الجنوب :

الملثمون يواجهون مملكة غانة الوثنية :

يعد اعتناق الملثمين الإسلام نقلة تحوّل هامة في تاريخ المغرب وبلاد غربي إفريقية ، فقد أدى إسلامهم إلى قيام حلف قوي ضم قبائل الملثمين جميعا بزعامة قبيلة « لمتونة » ، بجهود الزعيم اللمتوني تبولان بن تبكلان الذي أسلم وحسن إسلامه ، وساق هذا التحالف في ظل الإسلام إلى موجة من التوسع جنوبا لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية

الوثنية . وهكذا صار على الملثمين أن يواجهوا مملكة غانة الوثنية[١٢] .

رأى زعماء الملثمين أن يسدّدوا إلى تلك المملكة الوثنية ضربتهم الأولى ، حتى إذا استولوا عليها أصبح الطريق ممهدا أمامهم لفتح الممالك السودانية الأخرى ونشر الإسلام بين قبائلها . فأغار الملثمون المسلمون على مملكة غانة الوثنية وأوغلوا في تقدمهم نحو الجنوب ، ودخلوا مدينة أودغست واتخذوها عاصمة ملكهم ، ثم مضوا في توسعهم جنوبا حتى أصبحوا على مسيرة أيام من منحنى النيجر ، حيث أخذوا ينشرون الإسلام في الأقاليم الواقعة شمالي النيجر ، كما عمل زعماء الخلف من صنهاجة على تنشيط حركة التجارة بين بلاد السودان وشمالي إفريقية ، وكانت أهم السلع المطلوبة ، الملح . يقول ابن حوقل : « وحاجة ملوك السودان إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام ، فإنه لا قوام لهم إلّا به »[١٣] .

وإذا كان النصر الذي أحرزه الملثمون لم يدم طويلا لانفراط عقد حلفهم[١٤] واستيلاء مملكة غانة الوثنية على مدينة أودغست في أوائل القرن الرابع (٣٠٦ هـ / ٩١٨ م) فإن الاتصال المستمر – عن طريق التجارة والحرب كذلك – أدى إلى دخول الإسلام إلى مملكة غانة الوثنية . يبدو ذلك من وصف أبي عبيد البكري[١٥] ، لبلدة غانة (كومبي) عاصمة مملكة غانة . فيذكر أن جالية إسلامية تسكن حيّا به ، اثنا عشر مسجدا – أحدها يجمعون فيه – أى يقيمون فيه صلاة الجمعة ، ولها الأئمة والمؤذنون كما يسكن ذلك الحي عدد من الفقراء وأهل العلم ، ويسكن الملك الوثني حيّا آخر أنشيء به مسجد ليؤدي فيه زوار الملك من المسلمين الصلاة .

واعتمدت مسيرة دعوة الإسلام في أراضي غربي إفريقية على مدى نجاح الملثمين في إعادة وحدتهم واستئناف حركة الجهاد من جهة ، ومدى مقاومة مملكة غانة الوثنية للتيار الإسلامي الزاحف من الشمال من جهة أخرى . ويبدو أن الملثمين أدركوا قيمة الوحدة في تحقيق سياسة التوسع نحو الجنوب ورفع الحواجز من طريق دعوة الإسلام . وشهد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) محاولات لتحقيق وحدة الملثمين ومحاربة مملكة غانة . فتذكر الروايات التاريخية أن قبيلة لمتونة استطاعت – بزعامة الأمير بروتان ابن

ويستو الليمتوني – أن تلم شعث الملثمين مرة أخرى وأن تسترد مدينة أودغست وتعيدها عاصمة لمملكة الملثمين (صنهاجة) سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، ودان لها – على قول أبي عبيد البكري – أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان ، كلها تؤدي الجزية . ويعني هذا أن مملكة أودغست الإسلامية (مملكة صنهاجة) قد أسهمت بنصيب في نشر الإسلام والتعريف به في بلاد السودان[١٦] .

على أن الصراع بين الملثمين وبين مملكة غانة لم ينته أو يهدأ أواره ، و لم تلبث مملكة غانة الوثنية أن اغتصبت مدينة أودغست مرة أخرى وتفرق حلف الملثمين .

دولة المرابطين :

انتقلت زعامة حلف الملثمين من قبيلة لمتونة إلى قبيلة جدالة ، ورأى زعماء جدالة أن سر الفشل مرجعه عدم عمق الشعور بالوحدة ، وسرعة تفرق الجماعة ، وأن خير وسيلة لتحقيق النجاح ، خلق وحدة جديدة أطول عمرا ، وأبقى أثرا تعتمد على دعوة دينية تذكي في نفوسهم الحماس للدين والرغبة في الجهاد لحمايته ورفع كلمته ، مما حدا بزعيم قبيلة جدالة : يحيى بن إبراهيم الجدالي ، استدعاء فقيه مالكي من المغرب الأقصى اسمه عبد الله بن ياسين الجزولي ، ليمكن للإسلام الصحيح في نفوس الملثمين ، ويدعوهم إلى الوحدة على أسس سليمة . فرحل عبد الله بن ياسين إلى ديار الملثمين وأخذ يدعو الناس إلى التمسك بأسباب الدين ، ويمهد للوحدة السياسية ، ولما لم ينجح مسعاه لاصطدامه بأهل الانحراف ، نهج نهجًا آخر بالهجرة مع فريق من أصحابه جنوبا إلى جزيرة نائية عند مصب نهر السنغال ، وهناك اتخذ رباطا عاش فيه وأصحابه معيشة تقشف وتعبد ، ولما تسامع الناس بأخباره شدّوا إليه الرحال ، وانضموا إلى رباطه ، ومن هنا عرف أتباعه باسم « المرابطين » .

في هذه الجزيرة البعيدة ، عمل عبد الله بن ياسين على تنشئة جيل جديد من المسلمين عن طريق التمكين للإسلام الصحيح في نفوسهم وإحياء السنة وممارسة الرياضة الروحية والبدنية وتحقيق وحدة الملثمين على أسس دينية وإعداد القبائل لنصرة دعوة الإسلام والجهاد ضد عدوان المعتدين . ولما زاد عدد أنصار ابن ياسين ، خرج من رباطه لتحقيق

سياسته وإنفاذ خططه . فبدأ بالجهاد في غربي إفريقية ، فسار إلى الشرق من منحنى النيجر واستعاد مدينة أودغست من ملوك غانة سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٥ م) وأدى هذا النجاح إلى انضمام قبيلة لمتونة ثانية تحت رايته . وتوحيد قبائل الملثمين بزعامتها . وفي الوقت الذي قام فيه المرابطون بالجهاد في بلاد المغرب الأقصى والأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين (٤٨٠ – ٥٠٠ هـ / ١٠٨٧ – ١١٠٦ م) كان فريق آخر من المرابطين يشق طريقه في قلب مملكة غانة بقيادة أبي بكر ابن عمر اللمتوني . وبعد جهاد استمر خمسة عشر عاما انتهى الأمر باضمحلال مملكة غانة الوثنية واستقلال أجزاء منها . ودخول البقية الباقية في الإسلام ، مما أدى إلى انثيال الإسلام إلى أراضي غربي إفريقية وزوال أهم عقبة كانت تحول دون انتشاره جنوبا . واستطاع دعاة المرابطين أن ينشروا الإسلام على ضفاف السنغال وفي الأقاليم الواقعة بين السنغال والنيجر ، كما دخل شعب التكرور في الإسلام ، وعمل هذا الشعب على متابعة نشر الدعوة الإسلامية .

مملكة غانـــة الإســـلامية :

لم يكن الجهاد ضد القوى المعادية للإسلام والمعترضة طريق دعوته في غربي إفريقية هو الأسلوب الوحيد للعمل على انتشاره ، وإنما كانت هناك وسائل أخرى لها أهميتها وخطورتها في حركة انتشار الإسلام في تلك الأقاليم ، ومن هذه الوسائل الهامة : التجارة وما اقترن بها من نشاط في حمل دعوة الإسلام مع انتقال السلع ، وكانت تلك وسيلة سلمية خالصة ، فالتاجر سواء أكان من العرب أو البربر وغيرهم قد جمع بين ترويج دعوته وتجارته ، ومن شأن التجارة أن تهيىء لصاحبها اتصالا وثيقا ومباشرا بأولئك الذين يريد دعوتهم إلى الإسلام . فكثيرا ما كان التاجر يدخل قرية وثنية أو غير مسلمة ليتصل بالزنوج عن طريق التجارة ، وكثيرا ما يؤدي تأثير شخصيته وسلوكه فضلا عن حديثه عن الإسلام إلى تحوّل القوم إليه ودخولهم فيه . وحينما يستقر بالتجار المقام ينشئون المدارس والمساجد لتعليم أبناء المسلمين والوثنيين ، يعلمونهم القرآن ، بينما يمارسون نشاطهم الاقتصادي في نفس الوقت .

والمتتبع لحركة التجارة بين غربي إفريقية وبين مدن المغرب ، يلحظ انتظام سير

التجارة بين الإقليمين منذ أقدم العصور . ولما ظهر الإسلام لم تنقطع هذه الصلات التجارية ، بل زادها الإسلام نموا وازدهارا ، وكانت الإبل وسيلة النقل الأساسية في الحركة التجارية .

وقد اشتهرت أربعة طرق تجارية بين شمالي القارة وغربيها ووسطها وهي : (١) من تونس وليبيا إلى منطقة بحيرة تشاد (٢) من تونس إلى بلاد الهوسا (٣) من الجزائر إلى أواسط نهر النيجر (٤) ومن المغرب إلى أعالي نهر النيجر وحوض نهر السنغال .

وكان قوام هذه التجارة مقايضة الملح بالذهب الذي يكثر وجوده بين نهري النيجر والسنغال وتتواتر لدينا الروايات التاريخية عن ازدهار تجارة غانة مع بلدان المغرب ، فيذكر ابن الوردي : « وهي (غانة) ، أكبر بلاد السودان وأوسعها متجرا ، وهم في سعة من المال ، ويقصدها التجار من سائر البلاد ... »[١٧] ، كما تتواتر لدينا الروايات عن وجود أعداد كبيرة من المسلمين مقيمين في غانة في العهد الوثني قبل أيام المرابطين ، وأن هؤلاء المسلمين ، كانوا موضع احترام ملوك غانة وتقديرهم . فيذكر البكري[١٨] سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م) « أن ملك غانة تنكامينين كان محمود السيرة محبا للعدل مريدا (مكرما) للمسلمين » . ومما يعزز القول بكثرة عدد المسلمين وأهميتهم وثقافتهم ونشاطهم سواء أكانوا من السوننك الوطنيين أم من المستوطنين من العرب والبربر ، وأثرهم في الحركة الإسلامية ما ذكره البكري عن مدينة أوكار العاصمة التي انتقل إليها ملك غانة ، بعد استيلاء الملثمين على أودغست ، فيقول : « ومدينة غانة : مدينتان سهليتان ، إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون ، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا ، أحدهـا يجمعون فيه ، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون ، وفيها فقهاء وحملة علم .. ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى الغابة والمساكن بينهما متصلة ... »[١٩] .

ولا أدل على احترام الملك للمسلمين من ابتنائه مسجدا في مدينته ليصلي فيه المسلمون الذين يفدون عليه . وفي ذلك يقول البكري : « وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك »[٢٠] .

ولا يدع تصوير البكري للحياة الاجتماعية في غانة مجالا للشك في أن الإسلام قد انتشر في ربوع غانة بين أهلها ووصل المسلمون إلى مراكز هامة في دوائر الحكم قبل أن يصل الإسلام إلى الحكام أنفسهم وفي ذلك يقول البكري « وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه » كما يصوّر البكري الميزة التي يتمتع بها المسلمون دون الوثنيين في التقاليد المرعية للسلام على الملك ، إذ يقول : « فإذا دنا أهل دينه (أي الوثنيون) جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم له ، وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيق باليدين ... »[٢١] وأغلب الظن أن أولئك المسلمين قد اعتنقوا الإسلام على أيدي دعاة الملثمين خلال جهودهم الدائبة في القرن الثالث الهجري[٢٢] .

والواضح أن الكثير من سكان مملكة غانة ، قد اعتنقوا الإسلام قبل القرن الخامس الهجري (١١م) ومنذ فتح المرابطين لعاصمة غانة ، ازداد عدد الداخلين في الإسلام ، كما اعتنق ملوكها الإسلام ، فأصبحت الحكومة إسلامية منذ ذلك الوقت ، فيقال أن الملك تنكينين السوننكي كان يحكم غانة عند فتح المرابطين لها ، وأنه قبل اعتناق الإسلام ، والخضوع لسلطان المرابطين . على أن سيادة المرابطين في غانة أو تبعية غانة للمرابطين ، لم تستمر طويلا بعد وفاة أبي بكر بن عمر اللمتوني أمير المرابطين سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧م) وتفرق كلمتهم من بعده ، لكن حركة المرابطين كانت بعيدة الأثر في ازدياد انتشار الإسلام ، وتقوية العقيدة الإسلامية في السودان الغربي عامة ، ثم نهوض أهل غانة بأمانة الدعوة إليه ، فاشتهر الغانيّون وأغلبهم من « السوننك » بحماستهم في الدعوة إلى الإسلام ، وكان لعقيدته أثر عميق في حياتهم الاجتماعية ، حتى ارتبطت بعض العشائر السوننكية بالعمل لدعوة الإسلام بل غدا لفظ « سوننك » في أعالي نهر غمبيا يستخدمه الماندنقا الوثنيون مرادفا لكلمة « داعية » ، مما يدل على الدور الكبير الذي نهض به السوننك في نشر الإسلام[٢٣] .

تزايد عدد معتنقي الإسلام الجدد في ظل الحكومة الإسلامية ، واشتهرت كثير من المدن الغانية – غير العاصمة – بكثرة من فيها من المسلمين منها : غيارو Ghiarou ،

بالقرب من أعالي نهر النيجر ، وكذلك مدينة برسني غربي غيارو في قول البكري[٢٤] .

ويصف الغرناطي إسلام أهل غانة ومدى محافظتهم على أداء فروض الدين بقوله : « وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صورا ، سبط الشعور ، لهم عقول وفهم ، ويحجون إلى مكة »[٢٥] .

ومع انتشار الإسلام دخلت الثقافة الإسلامية إلى غربي إفريقية من مدارس المغرب والأندلس . فقد وحّد المرابطون ، غربي إفريقية والمغرب والأندلس في دولة واحدة ، وتم في عهدهم إنشاء مدينة تنبكت (تمبكتو) في القرن الخامس الهجري (١١م) على ضفاف النيجر ، وغدت هذه المدينة مقصد التجار ، ومأوى العلماء من المغرب والأندلس ومصر ، حتى صارت حاضرة للعلوم الإسلامية والعربية في ذلك الإقليم . وقد أجمل السعدي وصفها بقوله : « مادنستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن ، مأوى العلماء العابدين ، ومألف الأولياء والصالحين .. »[٢٦] كما امتد الإسلام في القرن السادس الهجري (١٢م) إلى مدينة جني . وغدت هاتان المدينتان – تنبكت وجني – أعظم مركزين للثقافة الإسلامية وعلومها ، ومن الأسواق الهامة للتجارة السودانية على ضفاف النيجر . فقد أدى استقرار الأمن في عهد المرابطين إلى رواج التجارة بين المغرب وبلاد غانة ، واقتفى العلماء أثر التجار ، ووصلوا من الأندلس والمغرب إلى غربي إفريقية ، بل ومن مصر كذلك . وأصبحت اللغة العربية – لغة القرآن الكريم – لغة العبادة والثقافة الوحيدة في البلاد ، هذا بجانب كونها لغة التجارة المستعملة في التبادل التجاري وبين الذين يقتنون الكتب ويتاجرون فيها . ولقد أقبل المسلمون في غربي إفريقية على مناهل العلوم الإسلامية ينهلون منها بشغف وجدّ تجتذبهم فضائل الإسلام وسماحته وسجايا العرب والبربر المسلمين الذين استقروا في غانة وغيرها من المناطق المجاورة وخبراتهم الاقتصادية والإدارية ، فضلا عن ثقافتهم ، إذ كان المسلمون يمثلون حضارة رفيعة سامية ، تمثلها المسلمون في مظهرهم ومخبرهم وسلوكهم ، مما يبعث الاحترام ويدعو إلى المحاكاة ، وبذلك تمكن الإسلام والمسلمون في البلاد ، وكان للمسلمين تأثيرهم في المجتمع إذ تولّوا المناصب الرئيسية من خازن بيت المال والتراجمة والوزراء والقائمين على النشاط الاقتصادي كذلك[٢٧] .

ويبدو أثر الإسلام في غانة الإسلامية ، وإضفاء طابعه على أهلها وأخذهم بتعاليمه فيما يتصل بتوريث ابن الأخت أو ابن البنت ، ولو أنه لم يقض على هذه الظاهرة في بعض الممالك الإسلامية الأخرى التي ظهرت بعد غانة مثل دولة مالي الإسلامية .

كما تأثر البناء الاجتماعي في غانة بتعاليم الإسلام ، إذ أدى قيام حكومة إسلامية إلى إضعاف العصبية القبلية وما يسودها من تناحر ، فاتصل الغانيون بأرقى الحضارات الإنسانية المعاصرة ، وهي الحضارة الإسلامية(٢٨) .

وقد قضى الإسلام على التقاليد والطقوس الوثنية التي كانت تسود غانة من قبل ، ومنها عادة دفن الملك ومعه خدمه المقربون فضلا عن طعامه وشرابه وحليّه(٢٩) . فعندما صارت الحكومة الغانية إسلامية منذ نهاية القرن الخامس الهجري (١١م) اختفت هذه التقاليد ، وحلّت محلها العادات الإسلامية(٣٠) .

كذلك شهدت غانة الإسلامية نمو المدينة الإسلامية بمظاهرها المعروفة المميزة لطابعها التاريخي من قيام المساجد والمدارس ، وبروز الفقهاء والدعاة . وأوضح ما كان هذا النمو في العاصمة كومبي صالح إلى جانب تنبكت ، وجني ، وولاتة ، ونيمة ، وأودغست . وقد كانت هذه المدن مراكز للثقافة العربية الإسلامية ولنشر الدعوة الإسلامية .

وازدادت علاقات غانة الإسلامية مع بلاد العالم الإسلامي في المشرق فقد اتصل ملوك غانة الإسلامية بالخلافة العباسية في بغداد وربطوا أنفسهم بها ، واعتبروا أنفسهم في بلادهم ممثلين للخليفة العباسي . وانتشرت التقاليد الشرقية في غانة ، ومنها لبس العمامة ، وانتسب ملوك غانة المسلمون إلى النسب العلوي . يقول الإدريسي(٣١) : « .. وأهلها – أي غانة – مسلمون ، وملكها ، فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وهو يخطب لنفسه ، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي » .

ولم تنقطع صلة مصر بمملكة غانة الإسلامية وغيرها من بلاد السودانين الغربي والأوسط ، فمصر تقع على طريق الحاج ، وحتى بعد نهاية مملكة غانة في القرن السابع

الهجري (١٣م) ، ظل حجاجها يمرون بالقاهرة . وقد التقى ابن خلدون بحجاج غانة في القاهرة سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦٠ م) ، وهم في طريقهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج .

على أن الضعف كان قد أخذ يسري في مملكة غانة منذ هزيمتها على أيدي المرابطين وفقدها مدينة أودغست التي تمر بها صادرات السودان الغربي : من ذهب ورقيق وقطن وجلود وصمغ وعاج وعسل وذرة[٣٢] . إلى أقطار شمال إفريقية . وهكذا فقدت غانة أكبر مورد من مواردها . وبتضاؤل اقتصاديات الدولة أخذ الضعف يدب فيها شيئا فشيئا حتى سقطت في عام ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) على يد ملك صوصو الذي أغار عليها عدة مرات وأخيرا استولى جيشه على العاصمة أوكار . ومع أن ملك صوصو لم يستطع أن ينشىء مملكة كبيرة بتحطيم مملكة غانة ، فإنه مهد الطريق لقيام دولة مالي التي قامت بدور كبير في نشر الإسلام في السودان الغربي[٣٣] .

السلطنات والممالك الإسلامية في غربي إفريقية :

تتميز هذه المرحلة الثانية من مراحل انتشار الإسلام في غربي إفريقية – كما سبقت الإشارة – بطابع خاص يختلف عن الطابع الذي عرفناه في المرحلة الأولى . إذ أخذ النفوذ والسلطان ينتقل من أيدي البربر الملثمين إلى أيدي أهل البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام ونالوا نصيبا من الثقافة الإسلامية سواء أكان هؤلاء من الزنوج الخلص أم من الزنوج الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر ، وأفادوا من خبراتهم وتجاربهم السابقة ، فأسسوا سلطنات وممالك إسلامية واسعة ، كان لها آثارها في حركة الدعوة إلى الإسلام في غربي إفريقية .

وقد دأبت هذه الدولة الإسلامية في غربي إفريقية على التواصل مع الدول الإسلامية المعاصرة والاقتباس من مجالات الحضارة ونظم الحكم من الدول راسخة القدم في هذا المضمار ، واتخاذ اللغة العربية أداة للمراسلات الرسمية ، وإحاطة البلاط بأهل العلم والفقه والفتيا ، وإنشاء المساجد ، وتشجيع الحركة العلمية ، وإيفاد الطلاب لمراكز الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي – في المغرب ومصر والحجاز – كذلك كان ملوك تلك الدول الإسلامية الإفريقية يخرجون في مواكب ضخمة للحج إلى بيت الله الحرام .

سلطنة مالي الإسلامية :

كان من نتيجة انتشار الإسلام في غربي إفريقية ، وتفكك مملكة غانا الوثنية أن قامت عدة دول أو دويلات إسلامية في غربي إفريقية في العصور الوسطى ، وقد تعاصرت تلك الدول تقريبا ، لكن تبادلت أكبرها الشهرة والعظمة والسيادة واحدة بعد أخرى .

كانت أقدمها مملكة غانة ، وبظهور مالي اختفت غانة ، كما اختفت مملكة الصوصو ، وقامت مملكة التكاررة في حوض السنغال الأدنى في القرن الخامس الهجري (١١م) ، كما قامت دولة صنغاي في أواسط النيجر ، وعندما ضعفت مالي برزت قوى صنغاي . وفي الوقت نفسه كانت دولة الكانم والبرنو تنمو حول بحيرة تشاد ، كما أقام الفولانيون أكثر من دولة وتعددت الدول التي أسسها الهوسا واشتهرت في التاريخ باسم دول الهوسا السبع ، وذلك فيما يعرف حاليا باسم نيجيريا الشمالية .

وتعد دولة مالي أقوى الدول الإفريقية التي ظهرت في السودان الغربي وأغناها، ويميّزها عن غيرها ذلك الدور الكبير الذي نهضت به من أجل توحيد القبائل الزنجية ، وكذلك دورها البارز في نشر الإسلام والدعوة له في جميع بلاد غربي إفريقية .

وقد قام بتأسيس دولة مالي الإسلامية شعب زنجي أصيل(٣٤) هو شعب الماندنجو Mandingo(٣٥) فاسم السلطنة « ملّي » تحريف لكلمة ماندنجو ومعناها المتكلمين بلغة الماندي ، ومن ثم كانت كلمة ماندي مصطلحا لغويا أكثر من كونه مصطلحا عرقيا سلاليا ، ويراد به مجموعة القبائل المتكلمة بلغة الماندي(٣٦) والتي تنتشر حاليا في أعالي نهر السنغال ووادي غمبيا الأدنى كما تنتشر شمالا حتى الصحراء .

وقد أشار المؤلفون العرب من المؤرخين والجغرافيين إلى دولة مالي باسم مل أو مالي أو ملي ونحوها ، ومن هؤلاء المؤلفين : البكري (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٧ م) ، وأبو حامد الغرناطي ، والإدريسي (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) ، وابن سعيد (ت ٦٧٣ هـ /١٢٥٧ م) ، وأبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) والعمري (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م) ، وابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٨ م) ، وابن خلدون (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) ، والقلقشندي (ت ٨٢٩ هـ / ١٤١٨ م) ،

والحسن بن محمد الوزان ، وابن إياس (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) والسعدي وغيرهم . فإذا أطلقت كلمة مالي فإنها تعني العاصمة ، كما تعني الدولة .

اشتهرت دولة مالي باسم بلاد التكرور ، واشتهر ملكها باسم ملك التكرور أو سلطان التكرور ، غير أن تكرور هي إحدى المدن أو الممالك أو الأقاليم التي خضعت لسيادة مالي ، وفي ذلك يقول العمري : « ويغلب على سلطان مالي عند أهل مصر سلطان التكرور ، ولو سمع هذا أنف منه ، لأن التكرور إقليم من أقاليم مملكته ، والأحب إليه أن يقال صاحب مالي ، لأنه – أي إقليم مالي – الإقليم الأكبر ، والتكرور مدينة من مدنها »[٣٧] .

والخلاصة أن دولة مالي اشتهرت بأكثر من اسم فهي تارة دولة الماندنجو وأخرى دولة مالي ، ثم هي – كذلك – مملكة التكرور .

اعتنق شعب الماندنجو الإسلام في أواخر القرن الخامس الهجري (١١م) أثناء حركة الجهاد الكبرى التي صحبت قيام دولة المرابطين لنشر الإسلام ومواجهة أعدائه المعترضين طريقه . وكانت مالي قد عرفت الإسلام كغيرها من بلاد غربي إفريقية قبل حركة المرابطين ، ولكن ازداد عدد الداخلين في الإسلام بفضل جهاد المرابطين ، ولعل من أبرز خصائص انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي أنه ابتدأ بالطبقات العليا والأسر الحاكمة ، ثم انتشر بعد ذلك بين الأهلين ، ولعل ذلك يرجع إلى ما كانت عليه القبائل الزنجية وقتذاك وما كان من فارق حضاري كبير بينها وبين المسلمين[٣٨] .

وتؤكد ذلك قصة إسلام أول ملوك مالي وقد روتها مصادر عربية مثل البكري ، ونقلها عنه بعض كتاب الغرب يقول البكري[٣٩] : « عرف ملك مالي بالمسلماني ، لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام ، فاستسقوا بقرابينهم من البقر ، حتى كادوا يفنونها . وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرئ القرآن ويعلم السنة فشكا إليه الملك مادهمهم من ذلك ، فقال له : أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها ، لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحلّ بك ، وأن تعمّ الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك

وناوأك » . فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته ، وأقرأه من كتاب الله ما تيسّر عليه وعلّمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله . ثم أمهله إلى ليلة جمعة فأمره فتطهّر فيها طهرا سابغا ، وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده وبرزا إلى ربوة من الأرض ، فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتم به ، فصليا من الليل ما شاء الله ، والمسلم يدعو والملك يؤمن . فما انفرج الصباح إلّا والله قد أعمهم بالسقي ، فأمر الملك بكسر الدكاكير – أي الأصنام – وأخرج السحرة من بلاده ، وصحّ إسلامه وإسلام عقبه وخاصته ، فوسم منذ ذلك الوقت بالمسلماني » .

ولم يذكر البكري اسم الملك الذي أورد قصة إسلامه ، وإن كان أوضح أنه كان يوجد ببلاده أحد علماء المسلمين الذين نهضوا بالدعوة إلى الإسلام وتعليمه ، وأن الإسلام كان قد امتد إلى مالي قبل إسلام هذا الملك . وأشار المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) والقلقشندي إلى اسم أول من أسلم من ملوك مالي ألا وهو الملك « برمندانة » ولكن ابن خلدون يقول : إن برمندانة كان أول من حج من ملوك مالي[٤٠] .

ويعتبر المؤسس الحقيقي لدولة مالي هو سندياتا أوماري جاطة (٦٢٩ – ٦٥٣ هـ / ١٢٣٠ – ١٢٥٥ م) أي الأمير الأسد ، وهناك من يقول : إن كلمة ماري تحريف كلمة محمد أو أي محمد ، بينما يرى ابن خلدون أنها تعني كلمة الوزير . وترجع شهرة سندياتا إلى الدور الذي قام به في تأسيس دولة مالي ، ذلك أنه ولي العرش في ظروف صعبة ، فيقال : إن ملك الصوصو الوثنيين تمكن من شن حرب على دولة الماندنجو وأباد الكثير من سكانها ، كما قتل ملكهم ، وفي أقل من سنة واحدة قتل ملك الصوصو أحد عشر ملكا تولوا الحكم تباعا وكانوا جميعا أبناء للملك السابق ناري فامغان ، ويحتمل أنه ترك ابنه الثاني عشر سندياتا لصغره أو لضعفه ومرضه أو أن هذا الصبي تمكن من الهرب إلى الجنوب[٤١] .

وأيا كان مدى صحة هذه الرواية فقد تولى سندياتا (ماري جاطة) الحكم في وقت كادت تذهب فيه دولته أمام هجمات الصوصو ، ولاشك أنه هرب إلى الجنوب حيث

جمع حوله القبائل الصديقة ، وتمكن من إخضاع القبائل المنشقة ، وبدأ يستعد للزحف شمالا لتحرير أراضي الماندنجو ، والقضاء على حكم الصوصو ، وتمكن سندياتا من دعم نفوذه بين قومه ، واستعان بطائفة من أبناء قبيلته في حفظ الأمن والنظام في الداخل ، كما مد نفوذه على القبائل المجاورة ، وعندما أكمل استعداداته الحربية اتجه شمالا حيث نشبت معركة فاصلة بينه وبين ملك الصوصو عند كرينا Kirina سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) انتصر فيها سندياتا وقتل ملك الصوصو[٤٢] .

وبعد هذا الانتصار تمزقت مملكة الصوصو ، واستولى سندياتا على أراضيها ، فامتدت دولة مالي إلى مسافات بعيدة في الصحراء ، إذ تابع سندياتا انتصاراته . لكنه أحجم عن التقدم إلى مدينة ولاتة رعاية لحق من لجأ إليها من المسلمين الذين هربوا أمام خطر الصوصو ، وكان بين هؤلاء المسلمين عدد كبير من العلماء والتجار . بينما استولى سندياتا على مدينة جني Jenne الإسلامية على نهر النيجر ، كما دمّر ما بقي من مدينة كومبي صالح عاصمة مملكة غانا القديمة .

وبلغت سلطنة مالي أقصى توسعها في عهد السلطان سندياتا وانتشرت حاميات جيشه من المحيط الأطلنطي في الغرب إلى كانو وكتسينا وزاريا في الشرق وإلى قلب الأدغال في الجنوب ، وأوغلت في قلب الصحراء الكبرى في الشمال . وغدت مالي أقوى دولة في السودان الغربي ، ومن أبرز مظاهر ظهور هذه الدولة السودانية في سماء الحياة السياسية اتخاذها عاصمة جديدة للدولة ولقوتها المطردة النامية . ففي سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) نقل الملك سندياتا مقر حكومته من بلدة جارب في كانجابا Kangaba إلى بلدة تتوسط دولته ، أطلق عليها اسم « نياني » " Niani " أو مالي وهذه البلدة هي التي اشتهرت باسم مالي أو ملي أو مل والتي غدا اسمها علما على دولة الماندنجو[٤٣] . ولم تلبث العاصمة الجديدة أن اجتذبت إليها تجار المغرب فنشطت تجارتهم فيها واحتلت مكانة عاصمة غانة القديمة ، كما احتلت دولة مالي مكانة غانا كأعظم دولة قامت في السودان الغربي ، وبدأ التجار من شمالي إفريقية يفدون إليها بكثرة ويستقرون في عاصمتها .

وخلال السنين الخمس عشرة الأخيرة من حكم سندياتا لم تتوقف الفتوح الخارجية

حتى امتدت دولته عند وفاته من بلاد الولوف Woloff غربا على المحيط الأطلنطي إلى أواسط النيجر شرقا ، ومن فوتاجالون جنوبا إلى كومبي صالح شمالا .

وهكذا استرد ماري جاطة جميع الأقاليم الشمالية التي كان الصوصو قد استولوا عليها وأضاف إليها المزيد ويرجع إليه الفضل في تحويل دولة الماندنجو الصغيرة في كانجابا إلى سلطنة مالي العظيمة(٤٤) .

وعندما توفي ماري جاطة سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) تولى ابنه منساولي أو منسا علي الذي عرف بالتقوى والصلاح ومر بمصر في طريقه إلى الحج سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م زمن السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٩ – ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ – ١٢٧٧ م)(٤٥) .

وتمكن منسا علي من بسط نفوذ مالي على دويلة صنغاي الناشئة في حوض النيجر الأوسط لكن امتنعت عاصمتها جاو Gao فلم يذعن لسلطان مالي ، وصنغاي هذه هي التي صارت سلطنة عظيمة فيما بعد فاقت مساحتها مساحة مالي(٤٦) .

كذلك استطاع الماندنجو – خلال أواخر حكم ماري جاطة وفي عهد منسا علي أن يبسطوا نفوذهم على حقول الذهب في ونقارة ، وهذه المنطقة لم تخضع من قبل لحكم غانة أو لحكم الصوصو . ولعل استيلاء إمبراطورية مالي على هذه المنطقة هو السبب في شهرتها حتى غدت ثروتها مضرب الأمثال . واعتمد سادة مالي على الرعايا الوثنيين في أعمال المناجم والحفر لاستخراج الذهب لمهارتهم في ذلك العمل . غير أن محاولة حكام مالي المستمرة لنشر الإسلام بين أولئك الرعايا الوثنيين ، أدت أحيانا إلى توقف هؤلاء العمال عن العمل في المناجم ، ومن ثم تسامح سادة مالي حتى يضمنوا استغلال مناجم الذهب وهي المصدر الرئيسي لثروتهم ويبدو أن الوثنيين الذين قاوموا الإسلام أشاعوا أن ندرة الذهب جاءت نتيجة انتشار الإسلام . وعلى كل حال ليس هناك ما يمنع من قبول ما روي من تسامح ملك مالي مع الوثنيين(٤٧) .

وبعد وفاة منسا علي سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) تعرضت مالي لفترة اضطرابات استمرت حتى نهاية القرن السابع الهجري (١٣م) ففي هذه الفترة تولى ما لا يقل عن سبعة ملوك كان آخرهم سيكرة أو ساكورة (٦٨٤ – ٧٠٠ هـ) (١٢٨٥ – ١٣٠٠ م)

الذي اغتصب العرش من حفيد ماري جاطة ، وحاول أن يظهر بمظهر الحاكم القوي الذي يعيد إلى مالي هيبتها بعد أن سادتها الفتن والاضطرابات وحرص سيكرة على تقوية الدولة ومد نفوذها ، وبدأ ذلك بإخضاع صنغاي التي خرجت على سيادة مالي ، واستولى على عاصمتها جاو التي امتنعت على أسلافه . وعمّ الرخاء البلاد وشملها الهدوء ، واجتذبت كثيرا من تجار المغرب وإفريقية ، فاستقرت أحوالها . وهكذا رغب سيكرة في الحياة الإسلامية الهادئة فقام بأداء فريضة الحج سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) وزار مصر في طريقه وذلك في عهد سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية مُتخذًا طريق القوافل الشرقي عبر النيجر إلى تبستي ثم إلى واحات مصر لكنه لقي مصرعه في طريق عودته إلى مالي .

وبعد وفاة سيكرة عاد العرش إلى أحفاد ماري جاطة . فقد تولى الملك ثلاثة من أبنائه ، منهم : ابنه قو ، ثم مامادو (محمد) ابن قو ، ثم انتقل الملك من ولد ماري جاطة إلى ابن أخيه أبي بكر ثم إلى أبناء أبي بكر وأولهم : موسى بن أبي بكر (٧١٢ – ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ – ١٣٣٧ م) . واتخذ سلاطين مالي لقب منسا ويعتبر منسا موسى أعظم سلاطين مالي على الإطلاق[٤٩] ، وترجع شهرته إلى ما بلغته مالي في عهده من عظمة وقوة واتساع ، إذ تابع خطة سلفه في توسيع رقعة بلاده ، ولم تشهد البلاد ملكا يدانيه في العظمة وعلو الهمة ، فقد طبقت شهرته الآفاق بعد جهاد مضن لإصلاح أحوال بلاده والنهوض بها . ومنسا موسى في نظر القلقشندي كان رجلا صالحا وملكا عظيما ، له أخبار في العدل تؤثر عنه ، وعظمت مملكته في أيامه إلى الغاية ، وافتتح الكثير من بلاد السودان ذوات أعمال وقرى وضياع[٥٠] وقد استولت جيوشه على « والاتا » ودخلت تنبكت ومنطقة جاو في إقليم النيجر الأوسط ، وامتدت إمبراطورية مالي في أواخر عهد منسا موسى من بلاد التكرور في الغرب إلى دندي في الشرق ، ومن والاتا وأروان وتادمكة (Tadmekket) في قلب الصحراء في الشمال إلى فوتاجالون في الجنوب . ويعني هذا أن سلاطين مالي استطاعوا أن يسيطروا على أقاليم السافانا الممتدة من إقليم السنغال في الغرب إلى إقليم تشاد في الشرق ، بعد امتلاكهم أعنة الخيل والإبل . ولقد أدى هذا التوسع الكبير إلى تمتع إمبراطورية مالي بثراء عريض ، نتيجة لتدفق أموال الجزية

على خزائنها واحتكار سلع الملح والذهب وغيره من المعادن وسيطرتها على التجارة العالمية الرائجة بين مدن السودان ومدن المغرب ومصر .

وليس أدل على ثراء دولة مالي في ذلك العصر من الموكب الفخم الذي سافر فيه السلطان منسا موسى لأداء فريضة الحج سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) فقد بهر ذلك الموكب مصر والحجاز والعالم الأوربي ، فيقال : إنه خرج ومعه ستون ألف جندي ، وبصحبته ٥٠٠ عبد بيد كل منهم عصا من ذهب ، وأعد لنفقته مائة حمل في هذا الموكب أو تقدير كميات الذهب المحمولة لتغطية نفقات الحج ، فإنها تلقي ضوءا على مدى ثراء تلك الدولة وحكامها .

وقد لقى منسا موسى في القاهرة الكثير من مظاهر الاحترام والتقدير ، وخلال إقامته بالقاهرة باع كثير من التجار المصريين سلعهم إلى أتباعه ، وفي الحجاز أفاض إحسانه على الحجيج وأهل الحرمين خلال تأدية فريضة الحج وطاب له المقام بالحجاز فبقي نحو ثلاثة شهور بعد انتهاء الموسم .

وفي طريق العودة ابتعد عن ركبه وعن المحمل المصري فضل الطريق حتى نفد زاده ، وما أن وصل إلى مصر حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من تجار مصر ، كما أقرضه أيضا أمراء مصر ، وقدم له سلطان مصر الكثير من المساعدات .

وكان مرور منسا موسى بمصر في طريقه إلى الحجاز ثم في طريق عودته إلى بلاده بعد أداء فريضة الحج حدثا بارزا في تاريخ دولة مالي وفي تطورها الداخلي والخارجي ، فقد أفاضت المراجع العربية والأوربية في وصف ركب منسا موسى للحج وإقامته بمصر ، كما أسهبت في النتائج الهامة لهذه الزيارة وفي دلالتها ، ليس بالنسبة لمالي فحسب ، بل لإفريقية بعامة ، إذ أتاح قدوم هذا الوفد الضخم من حجيج مالي للمسلمين في مصر والحجاز وبلاد المغرب التعرف على الكثير من أحوال تلك البلاد . وقد استمد ابن فضل الله العمري معظم معلوماته في كتابه : مسالك الأبصار وكتابه : التعريف بالمصطلح الشريف عن الأمير أبي العباس أحمد بن الحاكي المهمندار الذي ندبه السلطان الناصر محمد ابن قلاوون (٦٩٢ – ٦٩٣ ، ٦٩٨ – ٧٠٨ / ١٢٩٣ – ١٢٩٤ ، ١٢٩٨ –

١٣٠٨ ، ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م) للإشراف على ضيافة السلطان منسا موسى . وذكر العمري أن الملك ابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل مملكته طرفا من مناهل العلوم الإسلامية ، وتوافد التجار المصريون على مالي ، ومنهم سراج الدين ابن الكويك التاجر الإسكندري وأسرته ، كما رحل تجار التكارنة إلى القاهرة ، بل استقرت طوائف في مصر تشتغل بالتجارة أو العلم[٥٥] ولما عاد منسا موسى إلى مالي اصطحب معه عددا من مشاهير العلماء من بينهم أبو إسحاق الساحلي من علماء غرناطة الذي يرجع إليه الفضل في إدخال فنون العمارة الإسلامية السائدة في مصر والأندلس إلى مالي ، فقد بنى مسجدا في جوا وآخر في تنبكت ، كما ابتنى قصرا فخما للسلطان منسا موسى .

مات منسا موسى سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) بعد حكم دام خمسا وعشرين سنة تاركا إمبراطورية واسعة ويمكننا القول : إن منسا موسى يعتبر رائد فكرة إنشاء اتحاد إفريقية الغربية فقد كان المالي في أيامه لا يشعر بالغربة سواء أقام فيما يعرف اليوم بغامبيا أو سيراليون أو غانة أو ساحل العاج ، وإنما يشعر أنه يعيش في وطن مالي الكبير . لكن هذا الاتحاد لم يكتب له أن يعيش طويلا ، فبعد وفاة منسا موسى عادت القبائل إلى نظمها وأساليبها وفرقتها القديمة وأدى ذلك طبعا إلى الصراع والتمزق .

ففي عهد منسا مغا أو مغان الأول (٧٣٨ - ٧٤١ هـ) (١٣٣٧ - ١٣٤١ م) لم تكف قبائل موسى Mossi المقيمة في ياتنجا Yatenga بأعالي الفلتا عن مهاجمة مالي والقيام بأعمال السلب والنهب كذلك قام مغان الأول بعمل دل على قصر نظره ، فقد أطلق سراح الرهائن من أمراء صنغاي ، وكان هذا العمل بعيد الأثر في دولة مالي ، فقد تمكن أميران من أمراء صنغاي الذين أطلق سراحهم ، من انتزاع جاو نهائيا كما أخذا يتحينان الفرص لانتزاع بقية بلادهما من دولة مالي[٥٦] .

وخلف مغان عمه سليما (٧٤٢ - ٧٦٢ هـ / ١٣٤١ - ١٣٦٠ م) وقد استطاع استرجاع بعض البلاد التي فقدت وانصرف إلى الإصلاح الداخلي ، وعني بتشييد المساجد والمدارس ونشر شعائر الإسلام . يقول القلقشندي : « وبنى المساجد والجوامع والمنارات وأقام الجمع والجماعات والأذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام

مالك »[٥٧] . ولكن منسا سليمان لم يستطع الاحتفاظ بمدينة « والاتا » التي أفلتت منه مع بعض الأطراف الشمالية من مملكته ، كما استطاع التكرور أن يستعيدوا بعض الأراضي التي فقدوها[٥٨] .

وفي عهد منسا سليمان وصل إلى مالي ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٨ م) رسولا من قبل سلطان بني مرين في مراكش وذلك لدراسة الطرق التجارية والوقوف على مدى حجم التجارة في الذهب . وقد عرض ابن بطوطة لمظاهر الحضارة والحياة الإسلامية المزدهرة في البلاد بفضل الجهود التي يبذلها سلاطين مالي في سبيل الإسلام والثقافة الإسلامية ولأجل خير رعاياهم في مختلف جوانب الحياة .

أخذت دولة مالي في التدهور منذ وفاة منسا موسى ، فتناقصت مساحتها وكثرت الفتن الداخلية ، كما بدأت بوادر الخطر الخارجي مع بدء حركة الكشوف الجغرافية ممثلة في جهود البرتغاليين .

طابع الدعوة الإسلامية في مالي ومظاهرها :

امتد الإسلام إلى مملكة مالي قبل حركة المرابطين ، وازدادت الدعوة إلى الإسلام قوة خلال حركتهم وبعدها . وتتمثل علامات استقرار الوجود الإسلامي في وجود الدعاة والفقهاء والتجار المسلمين ومنهم من نشطوا في بث الدعوة الإسلامية في غربي إفريقية منذ وقت مبكر . ولعل هذا الوجود الإسلامي الكبير يفسّر لنا قصة إسلام أول ملك من ملوك مالي الذي عرف باسم المسلماني[٥٩] . وإذا كان أبو عبيد البكري الذي أورد قصة إسلام هذا الملك لم يذكر اسمه ، فمما لاشك فيه ، أنه كان يوجد في بلاد مالي بعض علماء مسلمون قاموا بالدعوة إلى الإسلام ، وأن الإسلام لم يكن غريبا في مالي عندما أسلم هذا الملك ويدل وجود نحو ٤٢٠٠ عالم مسلم في القرن السادس الهجري (١٢ م) في مدينة جني – التي كان يحكمها ملك من الماندنجو – على نشاط الدعوة الإسلامية في بلاد مالي وغيرها ، ومهما يكن الرأي في مدى صحة هذا الرقم وما قد يكون فيه من مبالغة أو عدم دقة – إلا أنه هو على كل حال – يلقى ضوءا على مدى تقدم دعوة الإسلام وعلومه ومدى ما حظي به دعاته وعلماؤه من مكان في تلك البلاد[٦١] .

ولقد كان الماندنجو من أكثر شعوب غربي إفريقية تمسكا بالإسلام وتحمسا له ، وازداد

انتشاره بينهم ، وأصبح دين الدولة الرسمي ، وكان المذهب السني المالكي هو المذهب الذي ساد دولة مالي كما ساد أغلب الدول الإسلامية في غربي إفريقية .

على أن دولة مالي لم تكتف بالدخول في الإسلام ، والحرص على نظمه وعلومه وأحكامه ، وإنما نشطت في الدعوة له بين الوثنيين ، حتى كان الدور الذي قامت به في نشر الإسلام يعد من أهم مراحل انتشار الإسلام في إفريقية جنوبي الصحراء[٦٢] . واقترنت حملاتها الحربية بالدعوة إلى الإسلام والجهاد ضد أعدائه ، يقول العمري[٦٣] : « وملك مالي في جهاد مستمر دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان » . واشتهر بالدعوة الإسلامية – من الماندنجو – فرعان من فروعهم ، هما : الديولا والسوننك حتى أن كلمة سوننك صارت مرادفة لكلمة « داعية » .

ومن الركائز التي اعتمدت عليها دعوة الإسلام في مالي – شأنها في ذلك شأن أى بلد إسلامي آخر – المسجد . وقد عنى سلاطين مالي بإنشاء المساجد حتى انتشرت في جميع أنحاء مالي . وأصبح لكل مدينة أو بلدة مسجدها أو مساجدها ، ولها أئمتها ، ووعاظها ، ولهؤلاء رواتب شهرية ثابتة وفي المدن الرئيسية مثل مالي العاصمة ، وجاو ، وتنبكت ، كان يوجد مسجد كبير جامع هو المسجد الرئيسي بالمدينة . وقد أضفى المسجد على الدولة طابعا حضاريا عمرانيا ، وأكثر بعض السلاطين من بناء المساجد حتى أن السلطان منسا موسى (٧١٢ – ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ – ١٣٣٧ م) ، « كان يبني مسجدا في كل مدينة تدركه صلاة الجمعة فيها »[٦٤] . ومن المساجد التي أقامها مسجد مدينة جاو وآخر في مدينة تنبكت (تمبكتو) ، وذلك على إثر عودته من الحج سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) . وقد أشرف على بنائهما أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الشاعر المهندس الغرناطي – بناهما بالآجر الذي استخدم لأول مرة في بلاد السودان[٦٥] . كما أقيمت مئذنة لجامع سنكري في تنبكت ، وهو ينسب إلى سيدة ثرية تعرف باسم « سنكري » اضطلعت ببنائه . وقد غدا جامع سنكري من أشهر مراكز الثقافة الإسلامية في غربي إفريقية .

كذلك عرف منسا سليمان بن موسى (ت ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م) باهتمامه وحرصه على انتشار الإسلام ومؤسساته ، « فبنى المساجد والمنارات ، وأقام الجمع والجماعات

والأذان ، وجلب إلى البلاد الفقهاء من مذهب الإمام مالك »[٦٦] .

ولقد عرف عن المسلمين في سلطنة مالي شدة محافظتهم على صلاة الجماعة في أوقاتها . وقد شهد ابن بطوطة[٦٧] ، صلاة الجمعة في مسجد مالي واسترعى انتباهه مدى ازدحامه بالمصلين ، فقال : « ومنها – أى أفعالهم الحسنة – مواظبتهم للصلوات ، والتزامهم لها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ، و لم يبكر الإنسان إلى المسجد ، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ، ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها في موضع يستحقه ، حتى يذهب إلى المسجد وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ، ولا ثمر له ، ومنها لباسهم البيض الحسان يوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظّفه وشهد به الجمعة » .

كما عمرت سلطنة مالي ، بالعلماء من أهلها وممن يستوفدهم السلاطين ، فازدهرت بهم الحركة العلمية في مالي . والمعروف أن منسا موسى ، ومنسا سليمان قد استقدما الكثير من العلماء الذين انتشروا في المدن الرئيسية في مالي ، وتنبكت ، وجني ، وجاو . وقد التقى ابن بطوطة أثناء رحلته في مالي – بعدد من أولئك العلماء ، سواء من أهل البلاد – من الماندنجو – أو من المغرب ومصر كذلك[٦٨] .

وانتشرت المدارس الكثيرة في جميع المدن المشهورة ملحقة بالمساجد ، ومستقلة عنها ، وانتشرت بانتشارها لغة القرآن وعلوم الإسلام وعنى طلاب العلم بحفظ القرآن ودراسته ، وانصب الاهتمام في مناهج التعليم في مالي وغيرها من بلاد السودان على حفظ القرآن أولا ، حتى كان أهل مالي يجعلون القيود لأولادهم ولا يطلقونهم إلا بعد حفظ القرآن الكريم . ويصف ابن بطوطة[٦٩] هذه الظاهرة بقوله : « ومنها – أى أفعالهم الحسنة – عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، ويجعلون لأولادهم القيود ، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه » .

وفي مجال ضمان العدل ورفع الظلم ، وإقرار الأمن والطمأنينة في نفوس الناس ورواج التجارة ، وانتشار الرخاء وجهود ملوك مالي في هذه السبل يذكر ابن بطوطة[٧٠] : « فمن أفعالهم الحسنة ، قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء

منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان ، ولو كان القناطير المقنطرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه » .

هذا و لم تقتصر جهود سلاطين مالي على نشر الإسلام في كل مجال في حدود مملكتهم وتوفير الدعاة والفقهاء والمساجد والمدارس والكتب بل قاموا بالدعوة إلى الإسلام في أراض لم تخضع لنفوذهم السياسي ومنها ممالك الهوسا (الجوصا) ، فتشير « أخبار كانو »(٧١) بأنه في حوالي منتصف القرن الثامن الهجري (١٤م) وفي عهد ملك كانو « ساركين ياجي تسامبا » (٧٥٠ – ٧٨٧ هـ) (١٣٤٩ – ١٣٨٥ م) ، وصل إلى مالي وفد من أربعين عالما من علماء المسلمين من الماندنجو المعروفين في بلاد الهوسا باسم ونقاره Wangara برياسة العالم عبد الرحمن زيتي ، وذلك للتعريف بالإسلام في بلاد الهوسا . وعرض الوفد على أمير كانو اعتناق الإسلام ، وطالبوه بالمحافظة على أوقات الصلاة . فرحب بهم الملك وأكرمهم ، ولكي يبرهن على صدق إيمانه بما دعوه إليه ، ولّى رئيس الوفد عبد الرحمن بن زيتي القضاء ، كما ولى واحدا منهم وهو « غردامس » الإمامة ، وابتنى أول مسجد في كانو .

كذلك شارك سلاطين مالي في الحياة الإسلامية العامة واتصلوا بالدول الإسلامية المعاصرة التي قطعت شوطا في مجال الحضارة الإسلامية وحرصوا على تعزيز الأخوة الإسلامية . وضح هذا من اتجاه سلاطين مالي إلى الحج إلى بيت الله الحرام في مواكب ضخمة ، وزيارة بعض الدول الإسلامية في طريقهم إلى الحجازمثل مصر – مقر الخلافة الإسلامية وقتذاك – فضلا عن صلاتهم بملوك المغرب .

فقد وفد المغاربة على مالي وجميع بلاد السودان الغربي والأوسط بأعداد ضخمة ، تجارا وعلماء ، كما أوفد سلاطين مالي سفارات لتدعيم العلاقات بينها وبين ممالك المغرب . ومنها سفارة أوفدها منسا موسى سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م إلى سلطان بني مرين في مراكش (٥٩١ – ٨٧٥ هـ/ ١١٩٥ – ١٤٧٠ م) للتهنئة بفتح مدينة تلمسان ، كما قدمت سفارة من مالي في عهد منسامغا ابن منسا موسى للرد على التهنئة السابقة . ثم قدم

ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٨ م) إلى مالي في عهد منسا سليمان سفيرا من قبل سلطان مراكش .

وقامت علاقات تجارية وثقافية بين مصر وغربي إفريقية ، فقد كان حجاج مالي وغيرها من الملوك والرعايا المسلمين يمرّون بمصر في طريق سفرهم وعودتهم من الحج ، وكانوا يلقون الترحيب والعون من جانب أولي الأمر فيها . وبين هؤلاء من ملوك مالي من سبقت الإشارة إليهم : برمندانه وابنه منسا ولي الأول ، وساكوره ، ثم منسا موسى ومن بعده منسا سليمان . وأقام في مالي كثير من التجار والفقهاء والعلماء والتقى ببعضهم ابن بطوطة ، أثناء رحلته في مالي . وكان من بينهم الطبيب الذي عالجه من مرض ألم به .

ونظرا للعلاقات الوثيقة بين مالي ومصر في عصر المماليك ، أصبح من الضروري وجود صيغة في ديوان الإنشاء تعبر عن حقيقة وضع مالي باعتبارها دولة إسلامية ، وهي صيغة خاصة بمخاطبة ملوك مالي تصدر بها المكاتبات الرسمية من ديوان الإنشاء بمصر ، ومنها : « أدام الله نصر المقر العالي السلطان الجليل الكبير ، العالم العادل ، المجاهد المؤيد ، الأوحد ، عز الإسلام ، شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، سيف الخلافة ، ظهير الإمامة ، عضد أمير المؤمنين ، الملك ... »(٧٢) .

سلطنة صنغاى الإسلامية :

قدر لشعب آخر هو شعب الصنغاى (سنغي) أن يؤدى نفس الدور الذي أداه شعب الماندنجو وأن يؤسس دولة تشبه الدولة السابقة ، في كثير من مظاهر قيامها وتوسعها ، ثم اضمحلالها ، كما تشبهها في الدور الذي اضطلعت به في ميدان الحياة الإسلامية .

وتشبه بداية سلطنة صنغاى بداية مملكة غانة ، فقد انثالت هجرة من بربر لمطة إلى إقليم النيجر في القرن الأول الهجري (٧م) ، وبسطت نفوذها على الفلاحين والصيادين من أهل صنغاى المنتشرين على ضفة النيجر الأوسط(٧٣) . واستطاع أولئك البربر من الملثمين الذين اختلطت دماؤهم بدماء الزنوج ، أن يؤسسوا أسرة حاكمة ، تسمى أسرة

« زا أو ديا » Dia التي تدّعي أصلا يمنيا[٧٤] ، وظلت هذه الأسرة تحكم هذا الإقليم حتى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) .

وأول من اعتنق الإسلام من ملوك هذه الأسرة هو زاكسي وذلك سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م[٧٥] وقد نمت العلاقات التجارية بين هذه البلاد وغانة وتونس وبرقة ومصر بواسطة طريق القوافل العام الذي يمرّ بمدينة تادمكة . وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر هام في اعتناق ملوك تلك الأسرة الإسلام في القرن الخامس الهجري (١١ م) ، كما أسلم بعض رعاياهم أثناء حركة نشر الإسلام التي اضطلع بها المرابطون في ذلك الوقت . ولو أن غالبية رعايا أسرة أوديا كانوا – وقتذاك – على الوثنية . وفي القرن الخامس الهجري انتقل مركز الحكم والإدارة إلى مدينة جاو التي اتخذوهاعاصمة لهم . ومن ثم غدت جاو من أهم مراكز التجارة في السودان الغربي[٧٦] .

لم تستطع هذه المملكة الناشئة أن تصمد في وجه الحركة التوسعية التي اشتدت في عهد منسا موسى سلطان مالي ، فدخلت في طاعته سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وظلت مملكة صنغاى جزءا من سلطنة مالي ، حتى بدأت عوامل الاضمحلال تعمل عملها في سلطنة مالي[٧٧] . فاستردت مملكة صنغاى استقلالها سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) ، وذلك حين هرب علي كولن وأخوه سليمان نار من سلطنة مالي ، وعادا إلى مملكة صنغاى وأعلنا استقلالها عن سلطنة مالي ، ووضع علي كولن أساس أسرة حاكمة ثانية ، اتخذ ملوكها لقب « سني »[٧٨] وكانت بلادهم حتى ذلك الوقت لا تتجاوز وادي النيجر جنوبي مدينة « جاو » ، فقد انتهج علي كولن وأخوه سليمان – الذي ولّى السلطنة من بعده – سياسة تنطوي على شيء من الحذر ، حتى لا تتعرض مملكتهم الناشئة لخطر مالي التي لم تزل قوية على الرغم من تفككها ، وذلك فضلا عن خطر الطوارق الذين كانوا انتزعوا تنبكت من سلطنة مالي[٧٩] .

ولم يتح لسلطنة صنغاى التوسع إلا بعد مضي قرن كامل على استقلالها ، وذلك حين اشتد الصراع الداخلي بين الطوارق في تنبكت ، وصادف ذلك جلوس واحد من أقوى ملوك صنغاى على العرش ، وهو سني على الثاني (٨٦٩ – ٨٩٨ هـ/ ١٤٦٤ –

١٤٩٢ م) ، فقد بدأت سلطنة صنغاى باندفاعة توسعية لا تقل عن اندفاعة سلطنة مالي من قبل . فقد هيأ سني على للدولة جيشا غير نظامي مكنه من الاستيلاء على تنبكت من حكامها من الطوارق سنة ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م ، ثم استولى على مدينة جني بعد حصار استمر سبع سنين ، ثم شن على قبائل الموسى ''Mossi'' الوثنيين حربا لا هوادة فيها وأرغمهم على التراجع عن مالي ، وكان من نتائج النصر الذي أحرزه سني علي الثاني على الموسى ، استيلاء صنغاى على جميع أراضي مالي[٨٠] .

وعلى الرغم من الدور البارز الذي قام به سني على الثاني في توسيع رقعة دولة صنغاى ، فإنه كان مكروها من شعبه ، فقد وصف بالقسوة والغلظة والجهل بقواعد الإسلام وممارسة العادات الوثنية ، وخاصة بعد التنكيل بعلماء تنبكت على أثر استيلائه عليها وهرب الكثيرين منهم إلى والاتة . وقد وصفه السعدي مؤرخ صنغاى بقوله : كان فاسقا متعديا متسلطا سفاكا للدماء ، قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى ، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإذلال[٨١] .

ولما توفى سنى على الثاني سنة ٨٩٨ هـ (١٤٩٢ م) ، خلفه على عرش صنغاى ابنه الأكبر أبو بكر داعو ، غير أنه لم يبق في الحكم طويلا ، فقد انتزع منه الحكم محمد توري أحد قواد الجيش ، وتلقب بلقب أسكيا وبرزت أسرة جديدة هي أسرة الأسكيين (الأساكي) التي حكمت سلطنة صنغاى نحو قرن من الزمان ٩٠٠ – ١٠٠٠ هـ (١٤٩٤ – ١٥٩١ م) .

يعتبر أسكينا محمد بن أبي بكر (٨٩٩ – ٩٣٥ هـ/ ١٤٩٣ – ١٥٢٨ م) من أعظم ملوك صنغاى ، وكان أول أهدافه ، كسب تأييد الخاصة وتعاونهم فأحسن إلى العلماء وأكرمهم . واستشارهم في كل ما له صلة بالدين ، ليبرهن لهم على أنه نقيض سلفه ، أما العامة فقد اكتسبهم إلى جانبه باتخاذ جيش نظامي ، بعد أن كان الجميع جنودا في جيش سلفه . وفي عهد أسكيا محمد وضحت الحركة التوسعية لصنغاى التي اتخذت مظهرا إسلاميا ورغبة في الجهاد ضد أعداء الإسلام ، وذلك بعد أن استكملت الدولة استعداداتها العسكرية . وقد بدأ السلطان جهاده ضد قبائل الموسى الوثنيين مطالبا ملوكهم بالدخول في الإسلام أو دفع الجزية ، ولما رفضوا الإسلام أو الجزية ، أعلن عليهم

حربا شعواء ، وأوقع بهم هزيمة ساحقة فقتل رجالهم وخرّب بيوتهم وسبى ذراريهم[٨٢] . ثم أخذت جيوشه تنساح في سهول السافانا ، وأخضع مالي مرة أخرى بعد مقاومة عنيدة . كما استولت جيوشه على بعض ممالك الهوسا : كشن (كتسنا) ، وغوبر ،وكانو ، وزنفره ، وزاريا ، وتم إخضاعها سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) . وكان خضوع بلاد الهوسا بداية لظهور الثقافة الإسلامية في شمالي نيجيريا ، وغدت مدن كانو وكشنه مركزين هامين من مراكز الثقافة الإسلامية التي يؤمها العلماء والفقهاء .

ومما أكسب هذه الفتوحات القوة والدوام ، أن أسكيا محمد وضع نظما إدارية تمكنه من السيطرة على هذه الأقاليم الواسعة ، فأنشأ نيابة للملك جعل مقرها في وسط البلاد في « تنديرما » وأسندها إلى أحد إخوته المعروفين بالإخلاص ، وحسن التبصر بالأمور ، وهو عمر كمزاغ ، كما عمل على تنظيم البلاد على المستوى الإقليمي . فألغى الطريقة القديمة في توكيل رؤساء القبائل مقابل الاحتفاظ بأولادهم كرهائن . وقسم السلطنة إلى خمس ولايات وعهد بكل ولاية إلى وال معتمد من العاصمة مباشرة ، وقد اختار الولاة من بين أقربائه وعبيده المخلصين له ، واستمر هذا الوضع طيلة عهود خلفائه من بعده .

كذلك ركز الأسكيا محمد جهوده في إيجاد وظائف للمراقبين والمفتشين تتعهد شئون : الضرائب والشئون القبلية ، والغابات ، ووظيفة المحتسب[٨٣] .

ولقد خطا التعليم خطا واسعة في جامعة سنكوري في تنبكت وأصبحت قبلة للطلاب في السودان الغربي وتناولت الدراسة فيها جميع العلوم العربية والإسلامية .

وما أن اطمأن الأسكيا محمد إلى جهوده في توحيد حكمه حتى قرر السفر إلى المشرق لتأدية فريضة الحج والاطلاع على أحوال ممالك المشرق ونظم إدارتها ، والالتقاء بالخليفة العباسي في القاهرة في طريق عودته من الحجاز ، فطلب منه الاعتراف به أميرا للمؤمنين بالسودان الغربي من قبله .

وقد حرص الأسكيا محمد أن يصحب معه إلى الحج جمعا كبيرا من العلماء والأعيان ، ليبدو في نظر عامة المسلمين بمظهر الملك الصالح القوي ، وقد أنفق أموالا طائلة في رحلته للحج أغدق بسخاء على كل بلد يمر به في طريقه ، فضلا عن الصدقات لفقراء مكة

والمدينة ، كما اشترى قطعة أرض ومبنى لايواء حجاج بيت الله الحرام من السودان الغربي . وقد استقبل في القاهرة استقبالا رسميا حافلا ، أما في مكة فقد قلده شريفها بردة وعمامة وسيفا ، وأقام له احتفالا خاصا تسلم خلاله من الخليفة العباسي لقب « الخليفة الأول على بلاد السودان »[٨٤] واتصل السلطان أثناء مروره بالقاهرة بعلمائها البارزين ومنهم : جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) وغيره أدت استنارته بعلمهم إلى تطوير التعليم الإسلامي في السودان الغربي[٨٥] .

كان للإصلاحات الكبيرة التي قام بها أسكيا محمد الأول في بناء دولة إسلامية قوية ، وجهاده وجهوده في سبيل دعوة الإسلام بين أهالي غربي إفريقية أن استحق ثناء علماء عصره والإشادة به ، فيقول محمود كعت[٨٦] : « .. وله من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية ، والتلطف بالمساكين ما لا يحصى ، ولا يوجد له مثل ، لا قبله ولا بعده ، في حب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وأداء الفرائض والنوافل والتواضع للعلماء – وإن كان من عقلاء الناس ودهاتهم ، وبذل النفوس والأموال لهم ، مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته . وأبطل جميع ما عليه شيء من البدع والمناكر والظلم وسفك الدماء ، وأقام الدين أتم قيام ، وأطلق كل من ادعى الحرية من استرقاقهم ، ورد كل مال غصبه شيء إلى مواليهم ، وجدد الدين ، وأقام القضاة والأئمة ، جازاه الله عن الإسلام خيرا ، ونصب في تنبكت قاضيا ، وفي بلدة جني قاضيا ، وفي كل بلد يستحق القاضي من بلاده قاضيا ... » .

وأثبت أسكيا محمد الأول جدارته بحكم دولة إسلامية مترامية الأطراف قام على رأسها حاكما قويا قديرا كما كان ومجاهدا في سبيل الله داعية إلى الإسلام بين الوثنيين من أهل السودان والطوارق ، فبلغت سلطنة صنغاى ، أقصى توسعها في عهده ، إذ توصلت إلى بلاد الموسى والهوسا في الجنوب ، ومواطن الطوارق في الشمال ، كما انبسط سلطانها غربا إلى بلاد الماندنجو والفلان ، وبذلك أصبحت أكبر دولة في غرب إفريقية على الإطلاق ، سواء من حيث المساحة أو السكان ، أو من حيث التنظيم والحضارة . فاستحق أسكيا محمد ما وصفه به محمود كعت : بقوله « إن أسكيا محمد يصلح حتى لحكم دولة بني العباس ، ولكل دولة أخرى غيرها »[٨٧] .

ومنذ سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) كان أسكيا محمد الأول قد كبرت سنه وفقد بصره ، وبدأ أولاده يتنافسون على الوصول إلى عرش صنغاى ، و لم يشأ السلطان أن يعهد لأحد من أبنائه إلّا بعد أن يختبره ويأنس فيه الحنكة والمقدرة . ولما توفى أخوه ونائبه – عمر كمزاع – سنة ٩٢٥ هـ (١٥١٩ م) . عهد بالولاية لأخيه الأصغر يحيى ، وقد أثار هذا الإجراء حفيظة ابنه موسى الذي كان يطمع في أن يخلف أباه ومنذ ذلك الوقت أخذ موسى يدبر لاحتلال مكانة أبيه بالقوة ، وقد وجد من يتآمر معه ، ويساعده في تنفيذ خطته ، وتمكن سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) من أن يقتحم قصر أبيه بالقوة ، ويرغمه على التنازل عن السلطنة له[٨٨] .

وبتولي الأسكيا موسى الحكم (٩٣٥ – ٩٣٨ هـ/ ١٥٢٨ – ١٥٣١ م) بدأت مرحلة النزاع بين الإخوة والأعمام من أسرة الأسكيين على كرسي السلطنة في صنغاى ، وبدأت الفوضى والمؤامرات ، حتى أن الأسكيا موسى قضى سنوات حكمه في نزاع مستمر مع أفراد عائلته من ناحية ، وأنصار أبيه من ناحية أخرى ، و لم ينجز شيئا يستحق الذكر لصالح السلطنة . و لم يلبث أن قتل على يد أخيه علي ، غير أن الجيش بايع أخاه الأسكيا محمد الثاني – (٩٣٨ – ٩٤٤ هـ/ ١٥٣١ – ١٥٣٧ م) ، ورفض علي – قاتل أخيه موسى – الخضوع للملك الجديد ، واعتبر نفسه أحق بالعرش ، وعلى الرغم من ذلك استطاع الملك الجديد أن يقضي مدة حكمه في هدوء بالرغم مما أثاره أخوه من فتن.

وليس من بين سلاطين صنغاى الخمسة الباقين من يستحق الاهتمام سوى أسكيا داود (٩٥٥ – ٩٩٠ هـ / ١٥٤٨ – ١٥٨٢ م) الذي يرهن على جدارته بعرش آبائه ، واستطاع أن يحافظ على كيان السلطنة بفضل حزمه وحنكته السياسية[٨٩] . فعلى الرغم من أنه لم يتوقف عن الحرب والجهاد سنة واحدة من سني حكمه البالغة ثلاثا وثلاثين سنة ، فإنه كان لا يقدم على الدخول في حرب دون أن يكون جيشه مهيأً لخوض المعارك بنجاح ، وإذا أحس غير ذلك كان يجنح إلى السلم . ويعتبر الأسكيا داود أول من اتخذ مدينة تندبي مقرا لإقامته ، وهى تبعد عن العاصمة بحوالي خمسين كيلومترا وقصد أن يتقي خطر المؤامرات من جانب بعض أفراد الجيش وكبار موظفيه في العاصمة جاو .

واقترنت نهاية عهد داود بحادثتين كان كل منهما دليلا على ما آلت إليه السلطنة بعهده من ضعف أولهما : الوباء الذي اجتاح البلاد سنة ٩٩٠ هـ (١٥٨٢ م) وأهلك ما يقرب من ثلث سكانها ، وثانيهما تجرؤ قبائل الموهل (الفلان) على اجتياح بلاد صنغاى لأول مرة منذ قيامها ، وعلى الرغم من أن جيش صنغاى استطاع مهاجمة بلاد ماسينا حيث تتركز هذه القبائل بصفة رئيسية ، فإن سلطنة صنغاى لم تجن شيئا يذكر من هذه الحروب سوى كثرة النفقات التي نالت منها وأضعفت من شأنها[٩٠] .

ولعل من أهم إنجازات أسكيا داود إبرامه اتفاقا مع الطوارق الذين يقطنون مشارف الصحراء وشمالي تنبكت بهدف تجنيب البلاد إغارات أولئك الطوارق المفاجئة على مدن صنغاى وقراها ، وإيقاف أعمال السلب والنهب[٩١] .

و لم يكد أسكيا إسحاق الثاني يتبوأ عرش صنغاى ٩٩٧ هـ (١٥٨٨ م) حتى أخذت بوادر الخطر الخارجي تحدق بسلطنة صنغاى وتنذر بنهايتها . فقد كان ملوك المغرب الأقصى يتطلعون إلى السيطرة على مناجم الملح في واحة تغزة وعلى مناجم الذهب في ونجاره . وظل سلاطين صنغاى يدافعون سلاطين مراكش عن بلادهم مدة . وقد سبق أن استغل المنصور الذهبي المريني (٩٥٦ – ٩٨٥ هـ/ ١٥٥٨ – ١٥٨٦ م) سلطان مراكش ضعف سلطنة صنغاي بسبب المنافسة على العرش وتجدد النزاع في سنة ٩٩٩ هـ (١٥٩٠ م) وأعلن سلطان المغرب تهديداته بشأن واحة تغزة ، ولكن كان رد أسكيا إسحق على هذه التهديدات عنيفا . فجرد المنصور على سلطنة صنغاى جيشا من ٣٠,٠٠٠ رجل من بينهم عدد كبير من الأسرى الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام ، واختار أحدهم وهو جودار باشا لقيادة الحملة ، فشقت طريقها عبر الصحراء إلى منحنى النيجر ، وبعد معركة استبسل فيها الجانبان ، انتصر الجيش المراكشي لتفوق أسلحتهم ، فدخلوا العاصمة جاو سنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ م)[٩٢] .

وكانت السيطرة على مناجم الذهب في غربي إفريقية هي شغل المراكشيين الشاغل ودافعهم الأكبر لمحاربة سلطنة صنغاى وكان ثراؤها العريض نتيجة سيطرتها على تجارته مع مواطن إنتاجه يثير حسد القوى المجاورة . ولكن لم يستطع المراكشيون تحقيق غرضهم

في ذلك لأن مثل تلك التجارة لا تزدهر إلّا في ظل السلام والأمن وقد نجح سلاطين صنغاى في توطيدهما في غربي إفريقية ، في حين قضى سلاطين مراكش على هذا الأمن ، فبارت التجارة ، وساءت الأحوال ، ولم يستطع المراكشيون أن يمدوا نفوذهم إلى أبعد من المدن الرئيسية تنبكت ، وجاو ، وجني .

وبانهيار سلطنة صنغاى ، انهارت الحضارة الإسلامية والثقافة العربية في حوض النيجر ، وساد الظلام المنطقة من جراء أعمال القمع والإرهاب اللذين لجأ إليهما الجيش المراكشي لإخضاع هذا الشعب ، وكان من آثاره أن هرب معظم علماء تنبكت إلى نيجيريا ، واستقروا في مدينة كشنة (كتسنا) ليؤدوا دورا آخر ويسهموا في تطور الحضارة الإسلامية في ممالك الهوسا(٩٣) .

وقد فقد الجيش المراكشي في صنغاى قوته وسيطرته على البلاد ، بسبب انقطاع الإمدادات والمؤن وتركت قواته تواجه مصيرها بنفسها . فنشأت طبقة حاكمة من باشوات تنبكت تدعى الرماة ، تدين بالتبعية الاسمية لسلطان مراكش ، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد . لكن سلطان أولئك الباشوات ضعف تدريجيا إذ كان يعتمد على الجيش الذي كان يعزلهم متى شاء حتى بلغ عدد من تولى منهم بين ١٠٠٠ – ١١٩٤ هـ (١٥٩١ – ١٧٥٠ م) نحو مائة وثمانية وعشرين من الباشوات . وفي سنة ١١٩٥ هـ (١٧٨٠ م) خضع باشوات تنبكت للفلبي ، ثم خضعوا لحكم التكارير في (سيجو (سغو) وكارتا)(٩٤) .

طابع الدعوة والحياة الإسلامية في سلطنة صنغاى :

سبق الحديث عن دور المغرب في امتداد الإسلام وانتشاره في بلاد السودان الغربي منذ القرن الثالث الهجري ، وما اضطلع به التجار والدعاة والمجاهدون في هذا السبيل وقيام دول إسلامية سودانية تولّت أمور الدعوة إلى الإسلام ورعايتها في عصر ملوك غانة وسلاطين مالي . وقد ورثت سلطنة صنغاى شقيقتها سلطنة مالي في رعاية حركة الإسلام في غربي إفريقية ، فظلت منذ أسلم أول ملوكها زاكسي حوالي سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) حادبة على نشر الإسلام بين الوثنيين كما كان الشأن بالنسبة لسلطنة مالي . وفي زمن

أسرة سني علي (ت ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ م) ازداد انتشار الإسلام حتى وصل فروع النيجر الشرقية ، كما أن أسرة الأسكي التي استهلت بأسكيا محمد الأول (ت ٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩ م) ، قامت بأعظم دور في نشر الإسلام وبلغت سلطنة صنغاى الإسلامية — زمن الأسكيا محمد الكبير — أقصى اتساعها وعظمتها ، حتى لقّب بالإمام وبأمير المؤمنين . ولم يكن نشاط هذه الأسرة مقصورا على الدعوة إلى الإسلام بين الوثنيين بل وجهت جهودها أيضا نحو تنقية العقيدة الإسلامية من البدع ، مثال ذلك أن الأسكيا محمد الأول لم يقف مكتوف اليدين أمام متنبئ فولاني ظهر في عهده ، هو تلنيصن ملك فوتا ، ويعرف باسم (فوط كنك) ، بل أعلن عليه الحرب في عام ٩١٧ هـ (١٥١١ م) ، وقتله[٩٥] .

ونظرا للدور البارز الذي يقوم به الفقهاء والعلماء في الدعوة إلى الإسلام وتطبيق الشريعة الإسلامية فقد حظى هؤلاء بمكانة كبيرة في مجتمع صنغاى ، كما حظوا بتقدير السلاطين واحترامهم وقد كان للفقهاء المغاربة والسودانيين وهم مالكيون آثار واضحة في طبع الحياة السودانية بطابع المذهب المالكي ، الذي ساد الفقه والتعليم والتأليف . وتأثرت شعوب غربي إفريقية بهؤلاء الفقهاء حتى كادت مدارس الثقافة الإسلامية في غربي إفريقية — في ظل سلاطين صنغاى — أن تكون مدارس مغربية في رسالتها التعليمية والتربوية ، حتى بالنسبة لطريقة الكتابة نفسها التي تأثرت بالطابع المغربي . فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي[٩٦] ، والمناهج والكتب المتداولة مغربية : وموطأ مالك ، والمدونة ، وكتب عياض ، وكتب سحنون ، وشرح ابن القاسم ومتن خليل وكتب المغيلي ، وكتب الونشريشي ، والخزرجية ، وتحفة الحكام والعباد[٩٧] .

على أن الثقافة الإسلامية في السودان الغربي على الرغم من تأثرها بثقافة المغرب لم تكن أقل غزارة وعمقا ومن ذلك أن مؤلفات الفقيه السوداني أحمد بابا التنبكتي مثلا قد بلغت نيفا وثلاثين من بينها : « نيل الابتهاج بالذيل على الديباج » ، وهو ذيل لكتاب ابن فرحون ، عرض فيه لتراجم من أغفلهم ابن فرحون ويلقى ضوءا على تاريخ الحركة الفكرية ، ليس في تنبكت فحسب بل في السودان الغربي كله ، ومنها كذلك كتاب

« كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج » .

وكان محمود كعت التنبكتي صاحب كتاب « الفتاش » ، من فقهاء تنبكت قد صحب أسكيا محمد الكبير وألف كتابه بنفس الأسلوب المغربي المألوف ، وكذلك المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان من علماء القرن الحادي عشر الهجري (١٧م) .

وكانت جميع العلوم والمعارف تدرّس باللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، وقد كانت هي اللغة الرسمية في الدواوين ، ولغة الثقافة والتأليف . ولو أنه ليس من المعروف تماما مدى انتشار الثقافة العربية بين عامة الناس في ذلك العصر ، وإن كنا نلاحظ أن مكاتب تحفيظ القرآن قد انتشرت في كل مكان دخله الإسلام ، كما نلحظ من روايات المؤرخين والرحالة المسلمين حرص أهل السودان عموما على حفظ القرآن وتشددهم في ذلك[٩٨] . لكنهم كانوا لا يحبذون استعمال اللغة العربية في حياتهم الخاصة وآثروا استخدام لغاتهم الأصلية ، بينما كانوا يصطنعون العربية في ثقافتهم فضلا عن صلاتهم بطبيعة الحال[٩٩] . وكانت خطبة الجمعة تلقى باللغة العربية . ثم تعقبها ترجمة باللغة المحلية يلقيها مساعد الإمام . ولاحظ ابن بطوطة في مالي رجلا في المصلى بيده رمح ، يقف ويبيّن للناس بلسانهم كلام الخطيب[١٠٠] . واضطلع التجار بدور رئيسي في الدعوة إلى الإسلام في صنغاى – شأنهم شأن زملائهم قبل قيام سلطنة مالي الإسلامية وبعدها كما سبقت الإشارة . كذلك كان للتجار في سلطنة صنغاى دورهم في نشر اللغة العربية . فقد كانوا يستعملونها في معاملاتهم مع الأهالي إلى جانب استعمالها في النواحي الدينية والتعليمية ، فانتقلت نتيجة لذلك أسماء الأوزان والمقاييس والمكاييل والمصطلحات في مجال التجارة عموما بأسمائها العربية إلى اللغات المحلية[١٠١] .

أما عن مراكز الثقافة الإسلامية في سلطنة صنغاى ودورها في إثراء الحياة العلمية وخدمة الحركة الإسلامية ، فيمكن تتبعها من دراسة الحياة العلمية الإسلامية في مدن تنبكت وجني وجاو : ومن ثمّ يمكن التعرف على مؤسساتها التربوية وعلمائها وطلابها ، وآثار ذلك كله في ازدهار الحياة الإسلامية وتقدم الدعوة إلى الإسلام في سلطنة صنغاى .

وقد ارتبط تاريخ الثقافة الإسلامية في غربي إفريقية بتاريخ مدينة تنبكت إذ ظهرت مع مولد تلك المدينة واشتد ساعدها باتساع أفق المدينة وتطورها . ويشير محمود كعت التنبكتي إلى ازدهار التعليم في مدينة تنبكت بقوله : « وفيها مدارس معلم الصبيان الذين يقرأون القرآن ،ماية وخمسين وثمانيه مكتبا على ما ذكره الشيخ محمد بن أحمد »[١٠٢] .

وقد وفد إلى مدينة تنبكت مركز الحياة الثقافية ، وقلب الحركة الفكرية النابض العلماء والفقهاء من شتى بقاع العالم الإسلامي : من المغرب والأندلس ، وفي مصر والحجاز ، كما وفد إليها طلاب العلم من كافة بقاع السودان الغربي والأوسط : من السنغال ، والنيجر ، ومن إمارات الهوسا ، وبرنو وأقامت جميع هذه الطوائف في تنبكت تتلقى العلم في جامع سنكري – الذي يشبه الجامع الأزهر – على أيدي صفوة من العلماء والفقهاء الذين بلغوا مرتبة الإمامة ، أشار إليهم السعدي في كتابه تاريخ السودان ، منهم : الحاج جد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر الذي تولى القضاء في أواخر دولة مالي ثم عمر الساكن تنديغ ، الذي تولى القضاء في عهد أسكيا محمد الكبير ، وأبو عبد الله أندغمحمد ابن عثمان ،وأبو جعفر عمر بن محمد أقيت الذي ترك أكثر من سبعمائة مجلد ، ومخلوف ابن علي بن صالح[١٠٣] .

كان الطلاب يفدون إلى مدينة تنبكت بعد أن يكونوا قد حفظوا أجزاء من القرآن في مدارسهم المحلية ، فإذا أتموا هذه الدراسة الابتدائية شدوا الرحال إلى تنبكت ، وأقاموا بها حتى يتموا تعليمهم وكان يرعى هؤلاء الطلاب في إسكانهم ومعيشتهم سراة المدينة وتجارها ووجهاؤها فضلا عمّا كان مرتبا لهم من أوقاف مسجد سنكري التي تنفق على الطلاب المنقطعين للعلم[١٠٤] .

وكانت الدراسة في جامعة سنكري تتركز بصفة أساسية حول علوم القرآن ، وعلوم الحديث والفقه ، والسير والمنطق ، والنحو ، وعلوم اللغة ، ويشير السعدي إلى نماذج من الكتب التي كانت تدرس في جامعة سنكري ، منها : الشفاء للقاضي عياض ، والصحيحين ، والمدونة ، والرسالة ، ومختصر خليل ، والألفية ، وموطأ مالك ، ورجز

المغيلي في المنطق ، والخزرجية في العروض ، وشرح الشريف السبتي وتحفة الحكام ، لابن عاصم ، وكتاب المعيار للونشريشي(١٠٥) .

وإذا أتم الطالب هذه الدراسة المتنوعة ، حصل على الإجازة المطلوبة ، ورحل من المدينة إلى حيث يشتغل بالإقراء ، أو الخطابة ، أو الإمامة والقضاء(١٠٦) .

ولم تنقطع صلات جامعة تنبكت بمراكز الثقافة الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي فتوطدت العلاقات الثقافية بين تنبكت ومدارس مصر والحجاز . وقد رحل محمد بن أحمد التازختي إلى مصر واتصل بشيخ الإسلام زكريا ، والبرهانين ، والقلقشندي ، وابن أبي شريف ، وعبد الحق السنباطي ، وحضر دروس الأخوين اللقانيين ثم رحل إلى الحجاز ، وعاد إلى تنبكت ينشر ما حصله من علم ومعرفة(١٠٧) . كما اتصلت علاقات جامعة تنبكت بجامعات المغرب الإسلامي في تونس ، الجزائر.وغدامس وطرابلس ، فكان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تنبكت ، وكثيرا ما كان علماء تنبكت يقيمون في فاس أو مراكش يعلمون ويتعلمون(١٠٨) .

وتمتع العلماء في البلاد بمكانة مرموقة ، فقد درج السلاطين على إصدار مراسيم تجعل شخص العالم وولده وماله حراما ، وامتدت هبات السلاطين إلى المهاجرين من علماء المسلمين من الشمال أو من الشرق ، وقد ظلت أسراتهم محتفظة بها مئات السنين .

وكانت الكتب تعدّ أنفس شيء في أسواق مدينة تنبكت . ويشير الحسن بن محمد الوزان – الذي زار بلاد السودان في عهد أسكيا محمد الكبير – إلى طوائف العلماء والفقهاء والقضاة وغيرهم من طلاب العلم الذين تزخر بهم مدينة تمبكتو (تنبكت) ، وكان هؤلاء جميعا موضع رعاية الملوك وتشجيعهم . وقد عمل سلاطين سنغي (صنغاى) الذين كانوا يرعون الحركة العلمية في تمبكتو على استيراد المخطوطات المتنوعة من بلاد المغرب حيث كانت تدفع مقابلها من الأموال ما يفوق ما يدفع مقابل أى سلعة أخرى ، ومن ثم كانت لا تخلو قافلة مسافرة من المغرب إلى تمبكتو من وجود هذه المخطوطات(١٠٩) .

وكانت تلي مدينة تنبكت في الأهمية بين مراكز الدراسات الإسلامية – مدينة جني . وقد تأسست هذه المدينة قبل مدينة تنبكت بوقت غير طويل ، ولم تلبث أن أصبحت

مركزا تجاريا هاما على طرق القوافل المؤدية إلى شمالي إفريقية . ودخلت مدينة جني في دائرة النفوذ الإسلامي في القرن الخامس الهجري (١١م) في إبان حركة الجهاد التي اضطلع بها المرابطون في مملكة غانة . وينسب إلى أميرها كثيرو أنه اعتنق الإسلام في القرن السادس الهجري (١٢م) .

وقد وصف السعدي مدينة جني بقوله[١١٠] : « هي مدينة عظيمة مباركة ذات سعة وبركة ابتدأت في الذكر في أواسط القرن الثانية (كذا) من الهجرة ... ثم أسلموا عند تمام القرن السادس والسلطان كمبر هو الذي أسلم ، وأسلم أهلها بإسلامه . ولما عزم على الدخول في الإسلام ، أمر بحصر جميع العلماءالذين كانوا في أرض المدينة فحصر منهم أربعة آلاف ومائتى عالم ، فأسلم على أيديهم » . ومن الواضح أن الإسلام كان قد امتد إلى هذه المدينة من قبل إسلام الأمير كمبر بزمن ليس بالقصير فإن ضخامة عدد علماء المدينة – على الرغم مما قد يكون فيه من مبالغة – يدل على أن المدينة كانت تعج بالعلماء والدعاة الذين لا يستبعد أن تكون غالبيتهم من التجار المسلمين – كما سبق الذكر[١١١] . ويقال أن الأمير عندما اعتزم اعتناق الإسلام ، طلب من علماء المدينة أن يدعوا الله تعالى أن ينصر مدينته ثم هدم قصره وبنى مكانه مسجدا عظيما ليؤدي رسالته في خدمة الدعوة إلى الإسلام ، وجعل قصره ومساكن أسرته وحاشيته بجوار الجامع .

وكان أسكيا محمد الأول (٨٩٩ – ٩٣٥ هـ/ ١٤٩٤ – ١٥٢٩ م) أول من عين القضاة بمدينة جني ، للفصل بين الناس طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية[١١٢] ، ثم تتابعت وثبات المدينة في مجال الثقافة الإسلامية إذ أشار السعدي إلى من زخرت بهم مدينة جني – من العلماء والفقهاء والقضاة الذين أقاموا بها ونشروا العلم فقال : « وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكانا من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، منهم : مورمغ كنكي رحل إلى كانو لأخذ العلم ثم رحل إلى جني في أواسط القرن التاسع . كان فقيها عالما صالحا عابدا جليل القدر ، فأسرع إليه الطلبة لاقتباس فوائده وفي نصف ليل يخرج من داره إلى جامع لنشر العلم ، فيجلس الطلبة حوله يأخذون العلم إلى الإقامة لصلاة الصبح »[١١٣]. ويعني هذا أن الدراسة لم تكن تتم أثناء النهار فحسب ، بل كانت تعقد حلقات الدرس – التي يقدم عليها الطلاب دون كلل أو

ملل – بعد منتصف الليل حتى صلاة الصبح[١١٤] .

ومن العلماء المشهورين – في أيام سلطنة صنغاى – « الفقيه موري ماجا ، الذي كان يمارس التعليم بمساجدها في القرن التاسع الهجري (١٥م) ، وقد أشار السعدي إلى تمكنه في العلم وبراعته في التدريس »[١١٥] .

ومن العلماء الذين تولوا القضاء في جني في النصف الأول من القرن التاسع الهجري كذلك : « القاضي أحمد طورفو ، الذي ولد بالمدينة ، وتولى بها القضاء فبرع فيه » – على قول السعدي[١١٦] .

كان المركز الثقافي الثالث بسلطنة صنغاى – بعد تنبكت وجني – في مدينة جاوا (غاؤ) عاصمة السلطنة ومقر حكومتها . ولم تبرز في المجال الثقافي بل في مجال التجارة الدولية ، ولذا سماها الحسن الوزان باسم « المدينة العظيمة » على حين أنه لم ينعت تنبكت بهذه الصفة ، فقد وصفها بالمدينة فقط وقامت في جاو قصور السلطان وكبار رجال دولته ، كما كان يسكنها التجار المياسير في حين أن سكانها من العلماء والطلاب كانوا أقل مما كانت عليه كلّ من تنبكت ، وجني . ويذكر الحسن الوزان أن السلطان هو الذي كان يتولى بنفسه أمور القضاء في المدينة ويعاونه في ذلك عدد من الفقهاء والمستشارين الذين يحيطون بمجلسه أثناء نظر القضايا[١١٧] . ولعل ممن استعان بهم أسكيا محمد الأول في شئون القضاء وغيره من الأمور التي تتعلق بنظام الحكم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي[١١٨] .

سلطنة كانم – برنو الإسلامية :

استمرت موجة الإسلام تتدفق تجاه الشرق ، إذ وصلت طلائعه إلى إقليم تشاد ، حيث نشأت سلطنات إسلامية ، مثل كانم ، وبرنو .وهي تشبه في كثير من ظروف نشأتها ، ممالك السودان الغربي (غربي إفريقية) مثل مالي ، وصنغاى ، ولقد حظي إقليم تشاد بإمكانات بشرية وحضارية جعلته ذا مكانة خاصة في قارة إفريقية ، منها : موقعه عند ملتقى عدة طرق تجارية وتأثره بحضارات وادي النيل وهجرات أهله من دولتي كوش ومروي بعد سقوطهما ، فضلا عن هجرات شعب الزغاوة . وحتى أواخر القرن الثاني كوش

الهجري (٨٠٠م) لم تكن سلطنة كانم قد ظهرت إلى الوجود ، ولكن كان يعيش في هذا الإقليم (إقليم تشاد) شعب وثني هو شعب « ساو » (صو) الذي كان يعيش حياة قبلية .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت تنثال إلى ذلك الإقليم هجرات من الشرق ومن الشمال . فمن الشرق هاجر إليه « الزغاوة » وهو شعب اجتمعت في صفاته الخصائص الزنجية والخصائص الحامية واحتل منطقة تمتد من دارفور في الشرق إلى بحيرة تشاد في الغرب وظل الزغاوة على الوثنية حتى القرن السادس الهجري (١٢م) ، وهو القرن الذي شهد هجرة جماعات الطوارق من التبو أو التدا ، وظهر من بين التبو أسرة حاكمة فرضت سلطانها على الزغاوة ، وأسست سلطنة « كانم » واتخذت الأسرة الحاكمة نسبا يمنيا ينتهي إلى سيف بن ذي يزن . وارتبط امتداد الإسلام إلى إقليم تشاد بظهور تلك السلطنة وعلى رأسها تلك الأسرة الحاكمة في أواخر القرن الخامس الهجري (١١م) . ويبدو أن المؤثر الهام الذي جاء من نتائجه المباشرة قيام دولة الكانم كان هو المد العربي الإسلامي إلى شمالي إفريقية ، إذ كان وصول عقبة بن نافع إلى كوار سنة ٤٦ هـ (٦٦٦م) دافعا لبعض قبائل البربر إلى الهجرة جنوبا ، وبلغ تقدمها ونفوذها إلى إقليم تشاد .

ومن أقدم من عرف من العرب المسلمين الذين يحتمل أن لهم دورا في امتداد الإسلام إلى كانم جماعة من الأمويين يقال إنهم هاجروا إلى كانم حوالي سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) هربا من مطاردة العباسيين وقد قدموا إلى كانم من مصر بطريق فزان . كذلك روي أنه سبقت هجرة هؤلاء هجرة أخرى لأربعة من قواد جيش الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ، بين عامي ٩٩ ، ١٠٢ هـ (٧١٧ – ٧٢٠ م) . ويقول البكري : « بين زويلة وبلد كانم أربعون مرحلة ، وهم وراء صحراء بلاد زويلة ، لا يكاد أحد يصل إليهم ، وهم سودان مشركون ، يزعمون أن هناك قوما من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم بالعباسيين ، وهم على زي العرب وأحوالها »[١١٩] .

والواقع أن الهجرات العربية إلى إفريقية قديمة ، وترجع إلى ما قبل ظهور الإسلام وقد زادت في قوتها وحجمها بعد ظهور الإسلام ، والمعروف أن هذه الهجرات لم تكن لتتم

في سنة بعينها أو سنوات محددة ، بل إنها كانت حركة مستمرة استغرقت وقتا طويلا . وكانت الموجات من هذه القبائل العربية المهاجرة تصل مصر ، ثم تتجه في أفواج منها نحو الجنوب متفرقة في مناطق عديدة حتى استطاع بعضها الوصول إلى كانم وبرنو . ونجح العرب المسلمون في القيام بدور سياسي في دولة الكانم ، بل إنهم استطاعوا عن طريق وراثة الأم أن يصلوا إلى مناصب هامة ذات أثر بارز في الدولة .

حمل المهاجرون العرب الإسلام إلى كانم ، سواء من هاجر منهم عن طريق مصر وشمالي إفريقية غربا ثم إلى منطقة كانم جنوبي فزان (ليبيا) جنوبا ، وتشير بعض الروايات التاريخية التي ترجع إلى القرن الثامن الهجري (١٤م) إلى انتشار الإسلام في كانم ، وتمكنه من النفوس بين أهل البلاد ، ولو أنه لم يذكر على وجه التحديد الوقت الذي أسلم فيه ملوكها . يقول العمري : « وأول من بعث الإسلام فيها الهادي العثماني ... ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه وملكها ثم صارت بعده للمزنيين في بني يزن »[١٢٠] .

ويذكر أحد المصادر المحلية[١٢١] أن أول من اعتنق الإسلام من ملوك كانم هو أومي جلمي أو حمي جلمي (٤٧٩ – ٤٩١ هـ/ ١٠٨٦ – ١٠٩٨ م) ومهما كان من أمر في اختلاف المصادر حول أول ملك أسلم من هذه الأسرة فالمتفق عليه أن أهل كانم قد اعتنقوا الإسلام باختيارهم دون ضغط أو إكراه وبنفس الأسلوب الذي سار فيه غيرهم من مسلمي غربي إفريقية . وذكرت هذه الأسرة الإسلامية أنها ترجع إلى سلالة تبدأ – بـ« حمي » – (أومي) وتنتمي إلى سيف بن ذي يزن الحميري من جنوب الجزيرة العربية في اليمن .

والواقع أن الأسرة الكانمية السيفية ادعت لنفسها نسبا عربيا حتى تزداد رفعة وشرفا ، وحتى يتدعم نفوذها .

عرف سلاطين كانم منذ القدم بلقب « ماي » وأول المايات المسلمين هو الماي أومي جلمي ، ويكفيه شرفا أن الإسلام انتشر في كانم في عهده وعلى يديه ، وأقام دعائم دولته على أسس جديدة ، ووقعت على كاهله مهام فترة الانتقال من الوثنية إلى الإسلام .

خرج ماي أومي جلمي للحج ولكن وافته المنية في الطريق سنة ٤٩١ هـ فخلفه ابنه « ماي دونمة الأول » الذي حكم ٥٣ عاما (٤٩١ – ٥٤٥ هـ/ ١٠٩٨ – ١١٥٠ م) ، وفي عهده بلغ جيش كانم مائة وعشرين ألف جندي منهم مائة ألف فارس ما عدا المرتزقة ، وبدأ بحركة جهاد قوية وامتدت سلطنة كانم امتدادا واسعًا من حدود مصر شرقا إلى النيجر غربا ، ومن فزان شمالا إلى نهر البينوي جنوبا ، ومن ثم يعتبر ماي دونمة الأول المؤسس الحقيقي لدولة كانم الإسلامية ، إذ دعم سلطانها ، وهيأ لها الاستقرار ، وأخذت قوتها تتضح في عهده تدريجيا . واتسع نفوذها[١٢٢] . ويذكر الإمام أحمد أن ماي دونمة الأول أدى فريضة الحج ثلاث مرات ، وفي طريق عودته للمرة الأخيرة غرقت سفينته في البحر الأحمر[١٢٣] .

ثم خلفه في عرش السلطنة ابنه ماي بيري الأول (٥٤٥ – ٥٧٢ ه / ١١٥٠ – ١١٧٦ م) ، ويقال أنه كان فقيها عالما ذائع الصيت ، كما وصفه الإمام أحمد بن فرطو المؤرخ في أواخر القرن العاشر الهجري (١٦ م) « بالفقيه التقي »[١٢٤] .

ثم خلفه عبد الله المعروف باسم بيكورو بن بيري الذي حكم سبع عشرة سنة (٥٧٣ – ٥٩٠ هـ/ ١١٧٧ – ١١٩٣ م) وأعقبه ماي عبد الجليل بن بيكورو (٥٩١ – ٦١٨ هـ/ ١١٩٤ – ١٢٢١ م)الملقب باسم سلما ،ومعناه في لغة الكانوري « أسود » إذ كان أول سلطان أسود من سلاطين كانم ، فقد كان أسلافه جميعا من البيض[١٢٥] ، ويقال أنه اكتسب البشرة السوداء من قبائل الكانوري . وفي عهده تجددت الحروب فغزا إقليم فزان مما يدل على اتساع دولته وامتداد رقعة الإسلام . وقد بلغ الإسلام في عهده شأوا عظيما ، ولا غرو فقد كان عبد الجليل من « أعلم سلاطين كانم » ويقال أنه بعث بكسوة إلى الكعبة المشرفة .

أما أعظم ملوك كانم قاطبة فقد كان الماي دونمة أحمد الثاني المعروف بالسلطان أحمد (٦١٨ – ٦٥٨ هـ/ ١٢٢١ – ١٢٥٩ م) ، وكان سلطانا حازما مثل جده ، مهتما بالفتوحات وتوسيع رقعة دولته ، وقضى عدة سنوات في إخضاع قبائل التبو ، ويعتقد أنه أول سلطان بسط نفوذ سلطنة كانم الإسلامية على منطقة فزان في الشمال ، كما بلغت

سلطنة كانم – في عهده – الشواطئ الجنوبية لبحيرة تشاد ، وامتدت من وادي النيل شرقا إلى النيجر غربا ، وفي عهده أصبحت برنو جزءا من دولة كانم . وقد عمل السلطان دونمة الثاني علي تنقية المجتمع الإسلامي في السلطنة من البدع والتقاليد القديمة والخرافات .

وبعد وفاته بدأ يدبّ الضعف والانحلال في السلطنة ، فقد كانت بعض القبائل التي تضمها الدولة مثل الصو ، وبعض عرب الشوا وغيرهم غير خاضعين لنفوذ الدولة تماما ، وسنحت لهم فرصة فتمردوا على سلطان الدولة وحاولوا الخروج عن دائرة نفوذها ، كذلك فإن بعض الوثنيين ساءهم القضاء على ديانتهم وأخذوا يتحيّنون الفرص للانقضاض على الدولة الإسلامية ، يضاف إلى هذا نشوب الفتن والتنافس بين أفراد الأسرة الحاكمة ، والصراع ضد قبائل الصو الثائرة ، والتي طال تمردها أكثر من قرنين وذلك في الوقت الذي توالى على عرش السلطنة سلاطين ضعاف ، لم يقدروا على مواجهة هذه الاضطرابات الداخلية المتضافرة . ففي الفترة من (٧٤٧ – ٧٥٣ هـ/ ١٣٤٦ – ١٣٥٢ م) سقط أربعة من سلاطين كانم قتلى في ميدان القتال ضد قبائل الصو ، ولم تلبث قبائل البلالة المقيمة بمقاطعة كانم ولاسيما شماليها أن انضمت إلى قبائل الصو وضيّقت الخناق على السلطان داود حتى طردته من العاصمة واشتعلت عدة حروب أهلية راح ضحيتها عدة سلاطين وقد تعاقب عشرون سلطانا على عرش كانم في مدة تقل عن مائة سنة واضطرت الأسرة المالكة أن تلجأ إلى مقاطعة برنو شمال غربي بحيرة تشاد حيث أنشأ السلطان علي دونمة (٨٧٧ – ٩١٠ هـ/ ١٥٠٤ م) مدينة برني غسركمو ، واتخذها عاصمة للدولة بعد أن اتخذ أسلافه عدة مدن أخرى قبلها عواصم مؤقتة[١٢٦] .

وتمثل مدة حكم السلطان علي بن دونمة ، مرحلة ازدهار واستقرار في سلطنة برنو إذ يمثل عهده نهاية للحروب والانقسامات بين أفراد الأسرة الحاكمة . وقد استهل حكمه بالقضاء على نفوذ الحكام الإقليميين وأخضع البلاد لنظام إداري مركزي هيّأ لها الهدوء والاستقرار ، في كافة ربوعها باستثناء مقاطعة كانم التي كانت تخضع لقبائل البلالة ، وإن كانت تعد جزءا من سلطنة برنو . كما جدّ السلطان علي دونمة في نشر

الإسلام ، وتعميق مفاهيمه في نفوس أهل البلاد وإقامة العدل طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية .

تولى عرش سلطنة كانم بعد وفاة السلطان علي دونمة ابنه السلطان إدريس بن علي الذي أهتم اهتماما خاصا بتقوية الجيش مستهدفا تحقيق حلم أسلافه في استعادة مقاطعة الكانم من أيدي البلالة ، و لم يكد يحل عام ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) حتى أصبح ذلك الحلم حقيقة واقعة بانتصاره على أمير قبائل البلالة دونمة بن عبد الجليل واستيلائه على كانم ودخول مدينة نجيمي ، بعد مرور مائة واثنتين وعشرين سنة من طرد السلطان داود منها(١٢٧) . وعلى الرغم من استرجاع مدينة نجيمي – العاصمة السابقة لسلطنة كانم – فقد ظلت برني غسركمو عاصمة الدولة ، لأن مدينة نجيمي أصبحت شبه مهجورة طول هذه المدة من جهة ، ولأن شوكة قبائل البلالة لم تكسر بصورة نهائية من جهة أخرى . ومن ذلك التاريخ أصبحت كانم مقاطعة في سلطنة برنو ، بعد أن كانت مقاطعة برنو جزءا في سلطنة كانم .

وفي عهد السلطان إدريس زاد اتساع مدينة برني ، وعظمت شهرتها ، وغدت مركزا هاما للتجارة في السودان الأوسط . وقد أدى السلطان إدريس فريضة الحج إلى بيت الله الحرام . كذلك نهض ذلك السلطان للجهاد في سبيل الله ومحاربة الكفار ، وقد حارب الصو الوثنيين لكثرة اعتداءاتهم على بلاد المسلمين(١٢٨) .

آلت أمور برنو بعد ذلك إلى السلطان إدريس ألوما (٩٧٨ – ١٠١٢ هـ/ ١٥٧٠ – ١٦٠٣ م) ويعتبر بحق أعظم ملوك الأسرة السيفية، فقد شب على حب الجندية والشجاعة . وقد قام بعدة غزوات بدأها بإخضاع قبائل الصو، ثم غزا قبائل البربر النازلة بمنطقة أهير وتغلب عليها واستولى على أراضيها ، وعلى الأقاليم الواقعة إلى الشمال من أراضي قبائل التبو ، وبذلك تمكن السلطان إدريس ألوما من فتح الطريق بين برنو وطرابلس . ثم غزا قبائل المنداراس باغرم (بجرم) وانتصر عليها ، كما تصدى لإخضاع قبائل البلالة في خمس حملات خلال عهده(١٢٩) . ثم اتجه إلى بلاد الهوسا ، ونجحت الحملات التي جردها عليها في الاستيلاء على المنطقة الواقعة غربي برنو كلها حتى مدينة كانو . وقد

اضطربت سلطنة صنغاى لهذه الانتصارات ، ولو لم تسقط تحت ضربات الجيش المراكشي في عام ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ م) لكانت المواجهة العنيفة بين السلطنتين الإسلاميتين قدرا محتوما وتوسعت كلاهما للسيطرة على بلاد الهوسا .

كان السلطان إدريس رجلا قويا متدينا وبرزت جهوده في دعم الإسلام وتعميقه في نفوس رعيته . كما حارب البدع والخرافات المترسبة من عصور الوثنية ، كما أعان أهل السلطنة على أداء فريضة الحج ببناء منازل لإيوائهم في مكة والمدينة ، ودعا السلطان العلماء من بلاد المشرق والشمال الإفريقي وعمل على إحلال النظم الإسلامية في البلاد محلّ التقاليد الموروثة .

وبوفاة السلطان إدريس ألوما (١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م) ، أخذت سلطنة برنو في الاضمحلال والتدهور وقد يكون من بين العوامل التي أدت إلى ذلك أن خلفاءه لم يكونوا من طرازه – قوة وكفاءة وحزما – فكثرت الانقسامات الداخلية ، ثم تعرضت البلاد لسلسلة متوالية من المجاعات اختل بسببها الأمن في الداخل كما واجهت خطر الغزو من الخارج.

ففي عهود المايات (السلاطين) التسعة الذين خلفوا إدريس ألوما مباشرة وحتى سنة ١١٦٤ هـ (١٧٥٠ م) وقعت خمس مجاعات ، كان معظمها شديد الوطأة بالغ الأثر واستمرت إحداها سبع سنوات متتالية زمن الماي دونمة بن علي (ت ١١٣٠ هـ/ ١٧١٧ م) ويدل وقوع هذه المجاعات العنيفة وتكرارها ، على ما أصاب البلاد من تدهور شامل مطرد ، تمثل في نقص المحصول ، وإهمال الزراعة ، وتعطيل وسائل الإنتاج ، وكان للفتن والاضطرابات أثرها الخطير في هذا كله .

ومن الأخطار التي تعرضت لها سلطنة برنو – في ذلك العصر – ظهور قوة قبائل « كوارارافا » Kwararafa الوتنيين من الجنوب ، والطوارق من الشمال . وقد حاصر الفريقان العاصمة ، زمن السلطان علي بن عمر (١٠٥٥ – ١٠٩٦ هـ/ ١٦٤٥ – ١٦٨٤ م)، « ولم ينقذه منهما سوى الإيقاع بينهما ، فتقاتلا حتى تحطما فكفاه الله شرّهما »[١٣٠] . على أن بعض روايات برنو تصف السلطان علي ، بأنه قاتل أولئك

الأعداء ، وقتل منهم نحو ألف ، وجرح نحو ألف ، وأسر نحو ألف ، كما تشيد بعض الأناشيد بلقب « أمير المؤمنين » ودعت له بحسن الجزاء لما قدمه من خدمات للإسلام[١٣١] . وقد حج السلطان علي بن عمر ثلاث مرات ، وفي طريق عودته من الحجة الأخيرة سنة ١٠٧٨ هـ (١٦٦٧ م) ، استقبلته ثورة ضده في العاصمة تمكن من قمعها دون عناء ، ثم جرّد عدة حملات تأديبية على ملك أهير ، غير أنه لم يتمكن من التغلب عليه .

ولا يبقى من بين سلاطين برنو السبعة الذين حكموا ، إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجريّ (١٩م) من يستحق الذكر سوى اثنين : أولهما علي بن دونمة (١١٦٩ - ١٢٠٨ هـ/ ١٧٥٥ - ١٧٩٣ م) ، وهو الذي ذاعت شهرته بإنجاب الأولاد الذكور . فتذكر الروايات أنه أنجب ما لا يقل عن ثلاثمائة منهم ، عدا الإناث ، أما الثاني فهو ابنه أحمد (١٢٠٨ - ١٢٢٥ هـ/ ١٧٩٣ - ١٨١٠ م) ، الذي عرف بالميل إلى العلم وحب العلماء ، وبالإحسان إلى الفقراء والمحتاجين . ويقال إنه وقع في عهده وباء ، مات فيه كثير من الناس . وعلى الرغم مما وصف به هذا السلطان من الصلاح والتقوى وحب الخير ، فإنه أهمل أمور الدولة ، مما أتاح للأعداء الفرص لغارات متعددة على البلاد ، ولقطاع الطرق واللصوص أن يعيثوا فسادا في أرجائها ، ومن ثم أهمل سكان البلاد فلاحة الأرض وتفشت فيهم المجاعة وفتكت بهم الأمراض فتكا ذريعا .

ولقد تعرضت سلطنة برنو - في عهد السلطان أحمد بن علي - لغزو الفلان (الفولانيين) والهوسا ، زمن الشيخ عثمان بن فودي . ولقي البرنويون عدة هزائم على أيديهم حتى دخل الغزاة العاصمة ، واضطر السلطان إلى الهرب واستدعاء الشيخ محمد الأمين الكانمي وطلب معونته في مواجهة الغزاة من الفلان ، وقد استجاب الشيخ الكانمي لنداء السلطان ، لكن ما لبث أن انتقل النفوذ والسلطان الفعلي خلال تلك الأحداث من الأسرة السيفية إلى الشيخ الكانمي ، فصار بيده تولية « مايات » برنو وعزلهم ، وتمتع بنفوذ روحي كبير بين المسلمين في برنو . وقد عاصره أربعة من سلاطين برنو الذين حكموا بالاسم ، واتخذ مدينة « كوكوا » مقرا له . وبعد وفاته فى سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) خلفه ابنه الشيخ عمر في النفوذ الفعلي ، وقد تولى عرش برنو بعد وفاة آخر

مايات الأسرة السيفية سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) ، وتلقب هو وخلفاؤه من بعده بلقب « الشيخ » . وتعرضت برنو ، زمن السلطان « الشيخ هاشم » ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) لغارات رابح الزبير ، بعد طرده من إقليم واداي ، فاستولى على بلاد « باجرمي » وغزا برنو واستولى على عاصمتها . وظل يحكم برنو ست سنوات ، حتى طرده الفرنسيون منها سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) .

الدعوة إلى الإسلام وطابع الحياة الإسلامية في سلطنة كانم – برنو :

كان لسلطنة كانم – برنو – حكومة وشعبا – دورها البارز في خدمة الإسلام في ذلك الجزء من إفريقية وكان الإسلام قد امتد إلى إقليم كانم على أيدي المهاجرين العرب والبربر الذين اختلطوا بأهل البلاد الأصليين ، منذ القرن الأول الهجري (٧م) .

وبرز من حكام كانم الماي المسلم نرم بن عبد الجليل بن بيكورو وهو الثاني عشر من سلسلة سلاطينهم[١٣٢] .

وقد أصدر السلطان (الماي) مرسوما (محرما) موجها إلى أبنائه وخلفائه من بعده في شأن الداعية المسلم الفقيه محمد بن ماني . ويتضمن (المحرم) بعد البسملة : « أن الداعية المعلم محمد بن ماني كان معمرا ، فقد عاش ١٢٠ سنة ، وعاصر خمسة من مايات برنو (كانم) ، أولهم « الماي بولو » ، الذي كان يحكم حوالي ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) وآخرهم الملك أوم الذي كتب هذا المحرم ، وأن محمد بن ماني قرأ مع المايات الأربعة السابقين بعض أجزاء من القرآن الكريم ، وأنهم منحوه منحا سخية . أما الملك أوم ، فقد قرأ معه القرآن كله ، من سورة البقرة إلى سورة الناس ، وقرأ معه كذلك سيرة النبي ﷺ ، وأمر بمنحه منحا سخية » . وجاء في هذا المحرم كذلك ، أن الماي أوم قام بنشر الإسلام مع محمد بن ماني ، وأنه « استحرمه » كما استحرم عددا من القبائل والأسر – أى قرّر حرمة أموالهم ودمائهم – ودعا على من يعتدي عليهم بالحرق في نار جهنم وأنهى الماي المحرم بعبارة « والسلام علينا وعليكم ... »[١٣٣] .

ويبدو من نص هذا المحرم أن « الملك أوم » لم يكن أول من اعتنق الإسلام من مايات برنو في عصر سيادة كانم ، بل سبقه مايات آخرون من الأسرة السيفية ، وهم الذين قرأ

معهم محمد بن ماني بعض أجزاء من القرآن الكريم ، وذلك فضلا عن أن الإسلام كان قد انتشر بين كثير من أبناء قومه وقبائل كانم والراجح أن « الماي أوم » كان أول ملك معروف قام بدور كبير في نشر الإسلام .

ويبدو كذلك أن محمد بن ماني لم يكن أول داعية إلى الإسلام في كانم ، بل سبقه كذلك دعاة آخرون ، فقد تضافرت روايات تاريخية عن قدوم دعاة مسلمين فرادى أو جماعات إلى إقليم كانم منذ القرن الأول الهجري (٧م) . وثمة رواية متداولة عند الهوسا ، تشير إلى أن «أبا يزيد الفزاري » دعا إلى الإسلام في كانم وبرنو في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري (٧ – ٨م) ، وقد ارتبط اسمه في برنو بوفود أعداد كبيرة من أفراد الهوسا إلى برنو ، في القرنين الثامن والتاسع للهجرة (١٤ – ١٥م) ، ويقال إنها جاءت من إقليم فزان أو من وادي النيل . وينسب إلى هذه الأسر عدد كبير من العلماء المسلمين والوزراء في برنو ، ويطلق على أفرادها اسم « مسبعرمة » ، وهو لقب في برنو معناه « الوزراء الوراثيون »[١٣٤] . وقد سبقت الإشارة إلى الرواية عن هجرة أفراد من بني أمية في القرن الثاني للهجرة عند محنتهم بقيام بني العباس وهجرة وفود من المسلمين وقبائل التبو أوالتدا في القرن الثالث الهجري (٩م) ، ويرتبط بمقدمهم قيام الأسرة السيفية المسلمة في حكم كانم . والواضح أن القسم الشرقي من السلطنة « كانم » قد اعتنق الإسلام قبل القسم الغربي « برنو » .

ازداد انتشار الإسلام في سلطنة كانم – برنو – وتمسك المايات (السلاطين) به وحرصوا على شعائره وعنوا بالدعوة إليه . ففي زمن الماي دونمة بن أوم (٤٩١ – ٥٤٥ هـ/ ١٠٩٨ – ١١٥٠ م) ازداد عدد الداخلين في الإسلام ، وأعلن الماي الجهاد ضد الأعداء الوثنيين ، كما أدى فريضة الحج أكثر من مرة ولعل أول مسجد معروف وصلتنا أخباره ، بني في عهد ماي دونمة في مدينة « بالاك » شرقي كانم .

واستمرت موجة الإسلام متدفقة ، فتزايد معتنقوه باطراد ، وازداد بناء المساجد زمن الماي سالما (٥٩١ – ٦١٧ هـ / ١١٩٤ – ١٢٢٠ م) الذي عرف عنه تقديره واحترامه للعلماء ودعاة الإسلام ، وقد نصّ المحرم (المرسوم) الذي أصدره هذا السلطان ، على

الإشادة بجهد الإمام أبي عبد الله دبلي بن بدر الكامبو في خدمة الإسلام ، ومكافأته بتعيينه إماما للمسجد الذي بناه ، بعد قراءته نحو ١٥٠ كتابا في العلوم الإسلامية .

وقد ساء بعض سلاطين كانم بقاء بعض المعابد الوثنية في البلاد مع انتشار الإسلام فقام الماي السابع عشر في سلسلة مايات برنو وهو الماي أحمد دونمة (٦١٨ - ٦٥٧ هـ/ ١٢٢١ - ١٢٥٩ م) ، بتحطيم المعبد الوثني الضخم المعروف باسم « ميون » ، وكانت عبادته لا تزال قائمة في بعض أجزاء كانم وتبستي ويذكر الإمام أحمد بن فرطوا مؤرخ برنو : أن أحدا من الكفار لم يستطع أن يقف في وجه مايات بني سيف ... ولم يجرؤ أحد من المايات السابقين على الاقتراب من هذا المعبد الوثني(١٣٥) .

هذا وقد حرص سلاطين كانم - برنو - على أن يظهروا بمظهر حماة الإسلام العاملين على نصرته ، فاتخذوا لقب « خليفة » و « أمير المؤمنين » ، وكان أول من اتخذ هذا اللقب من مايات كانم هو الماي أحمد دونمة ، ذلك تأسيا بمعاصره السلطان الحفصي المنتصر (٦٤٧ - ٦٧٦ هـ/ ١٢٤٩ - ١٢٧٧ م) .

كما حفل عهد السلطان عثمان أوبيري بن زينب (٦٧٨ - ٧٠٠ هـ/ ١٢٧٩ - ١٣٠٠ م) بنشاط في الدعوة الإسلامية ، وقد قدم إلى برنو اثنان من علماء الفلان المسلمين من سلطنة مالي ، ودخلا في طاعته فشجعهما على نشر الدعوة الإسلامية في البلاد .

وقد حرص سلاطين كانم - برنو - على انتشار الإسلام في بلادهم وفتح الطريق أمام دعوته بين الوثنيين والتغلب على من يعرقل مسيرته ، وأعلن السلطان إدريس ألوما الجهاد ضد قبائل الصوا الوثنية وتغلب على مقاومتهم العنيدة باستخدام الأسلحة النارية . كما عنى ذلك السلطان بإقامة حكم الشرع وتطبيق الشريعة الإسلامية ، ووكل إلى القضاة المسلمين حراسة العقيدة ، وتطبيق الأحكام ، كما أكثر من بناء المساجد ، لتؤدي رسالتها في نشر تعاليم الإسلام .

كذلك عني مايات كانم - برنو - بأداء فريضة الحج ، وتيسير أداء هذه الفريضة لعامة المسلمين في بلادهم . وأول من حج من مايات كانم المعروفين : الماي أوم ، الدي

مات في طريق العودة ودفن في مصر . ولقد كثرت وفود حجاج كانم – برنو – إلى مصر في طريقهم إلى الحج – حتى احتاجت هذه الوفود إلى مكان ينزلون فيه خلال رحلتهم ، وابتنوا مدرسة في مدينة الفسطاط ، عرفت باسم مدرسة ابن رشيق استخدمت في تعليم المذهب المالكي ، فضلا عن استخدامها نزلا للوافدين(١٣٦) كذلك بنيت فنادق في مكة لنزول حجاج برنو وبرزت جهود الماي إدريس ألوما في هذا المجال ، كما عرف عنه الإكثار من بناء المساجد .

ويغلب في سلطنة كانم – برنو – مذهب الإمام مالك ، ويليه مذهب الشافعي ، وقد ذكر القلقشندي عن الكانم : « وسلطان كانم من بيت قديم في الإسلام ، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن ، وتمذهب بمذهب الإمام الشافعي » . وذكر في موضع آخر : « والعدل قائم في بلادهم ، ويتمذهبون بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه ، وهم يابسون في الدين ... »(١٣٧) .

ونظرا للدور البارز الذي اضطلع به العلماء والفقهاء في الدعوة إلى الإسلام وتطبيق الشريعة الإسلامية في سلطنة كانم – برنو – فقد حظي هؤلاء أيضا كما حظي زملاؤهم في سلطنتي مالي وصنغاى بمكانة كبيرة في مجتمعهم ، وبتقدير السلاطين واحترامهم . وتشهد على عناية مايات (سلاطين) برنو بالعلم والعلماء ، مراسيمهم (المحارم) التي أصدروها تكريما لكبار العلماء وأسرهم المعاصرين لهم – وقد سبقت الإشارة إليها .

ومن أبرز العلماء الذين تزخر بأخبارهم حوليات برنو ، وتبرز دورهم في الدعوة إلى الإسلام وجهودهم في تعليم علوم الدين فاللغة العربية ، وفي وظائف الإمامة والقضاء : محمد بن ماني سالف الذكر وهو الذي نهض بتعليم عدد من المايات القرآن الكريم ، وبعض العلوم الإسلامية والعربية في القرن الخامس الهجري (١١م) ، والأديب الشاعر إسحاق بن إبراهيم(١٣٨) ، مؤسس أسرة مسبعرمة المعروفة بمآثرها العلمية وقد أبرز المحرم الذي أصدره الماي الحاج علي بن الحاج عمر سنة ١٠٦٩ هـ (١٦٥٨ م) لهذا العالم الفقيه ، غزارة علمه وتبحره في العلوم العربية والشرعية ، وتنقله بين مصر والحجاز والعراق للدراسة في الأزهر الشريف والالتقاء بعلماء المدينة وبغداد ، ثم العودة إلى برنو لنشر العلم .

ومن أولئك العلماء عبد اللاه ديلي بن بكر الذي قرأ على الأمير سالم بن الماي دالابكر (عبد الله بكر) من بيري (٥٧٣ – ٦١٨ هـ/ ١١٧٧ – ١٢٢١ م) ١٥٠ كتابا ، في علوم الدين ، وصار إماما للمسجد الكبير في نجيمي[١٣٩] .

وتلقى المحارم التي منحها سلاطين كانم – برنو – لأولئك العلماء الضوء على حياتهم وثقافاتهم وجهودهم في خدمة الدعوة إلى الإسلام وتعليمه .

وارتبط القضاء في سلطنة كانم – برنو – ارتباطا وثيقا بنشر الإسلام وتعميق مفاهيمه في نفوس الناس إلى جانب تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية والقضاء على بقايا التقاليد الوثنية . وتطور القضاء في سلطنة كانم – برنو – وارتقى شأنه ، بعد نشأة المدن التجارية وكثرة المعاملات بين الأفراد ، وازدياد عدد الداخلين في الإسلام ، وبناء المساجد ، ووفود أعداد كبيرة من العلماء والفقهاء الذين أتموا دراساتهم في مدارس مصر وطرابلس وتونس وفزان ، وعمل فريق منهم في وظائف القضاء والإمامة ، وكان يتوافر فيهم التمكن من العلم والتحلي بالنزاهة والورع . وفي عهد الماي إدريس ألوما (٩٧١ – ٩٧٨ هـ/ ١٥٦٣ – ١٥٧٠ م) ، انتقلت سلطة القضاء في الأقاليم من زعماء القبائل إلى القاضي الذي اضطلع بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، على مختلف جوانب حياة الناس وعلاقاتهم ومعاملاتهم . أما في العاصمة ، فكان بها داران للقضاء إحداهما يتولاها السلطان ومجلس شورى من الفقهاء ، أما الأخرى فيرأسها القاضي الأكبر ، ولعله بمثابة قاضي القضاة .

وليس أدل على الحرص على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في برنو ، من أن أحد سلاطين كانم وهو الماي بيري بن دونمة (٤٩٢ – ٥٤٦ هـ/ ١٠٩٨ – ١١٥١ م) سجنته أمه لمدة سنة كاملة حين بلغها أن لصا قتل في المملكة ، فحملته مسئولية ذلك[١٤٠] وقالت : أما قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[١٤١] .

واتصلت علاقات سلطنة كانم – برنو – بالدول الإسلامية المعاصرة وحرصت السلطنة على المشاركة في الحياة الإسلامية العامة ، والتمسك بالأخوة الإسلامية . واهتم

سلاطين كانم – برنو – ورعاياهم بالحج إلى بيت الله الحرام وزيارة بعض الدول الإسلامية في طريقهم إلى الحجاز مثل مصر . كما توثقت الصلات بملوك المغرب فضلا عما كان من نشاط تجاري واسع بين سلطنة كانم – برنو – وتلك البلاد الإسلامية . ولم يكن دور التجار مقصورًا على تنشيط حركة التجارة فحسب ، بل امتد نشاطهم إلى خدمة حركة الإسلام في بلادهم .

ومنذ اعتناق ملوك كانم – برنو – الإسلام في القرن الخامس الهجري (١١م) ، بدأت علاقات مباشرة وقوية لسلطنة كانم – برنو – مع مصر ومع دول شمالي إفريقية ، غير أن العلاقة مع مصر كانت أقوى من غيرها من الدول الإسلامية لوقوع مصر في طريق الحج ، وما عرف عن حكوماتها في مختلف العهود بتيسير أداء الفريضة للحجاج الخارجين منها والمارين بها فضلا عن استمرار التبادل التجاري والثقافي منذ أزمان بعيدة .

ومن شواهد قوة الاتصال بين سلطنة كانم – برنو – وبين مصر الإسلامية ما ورد في تاريخ برنو من أن الماي دونمة بن أوم (٤٩١ – ٥٤٩ هـ/ ١٠٩٨ – ١١٥٠ م) قد ترك في مصر خلال رحلتي حجه الأولى والثانية نحو ستمائة من الرقيق ، وأنه في عودته من رحلته الثالثة توفي ودفن في مصر . ونظرا لمكانة مصر المرموقة في العالم الإسلامي المعاصر في زمن سلطنة كانم – برنو – توجه ماي برنو إلى سلطان مصر برقوق (٧٨٤ – ٧٩١ هـ/ ١٣٨٢ – ١٣٨٨ م) للشكاية إليه من العرب المقيمين في برنو ، وطلب العون منه للضغط عليهم للتوقف عن خطف الرقيق من برنو وبيعهم في مصر والشام[١٤٢] .

وحفظ ديوان الإنشاء بمصر صورا لمكاتبات رسمية إلى سلاطين كانم – برنو – إذ وردت نماذج لمكاتباتهم في « التعريف بالمصطلح الشريف » ، وفي « صبح الأعشى » كانت تلك المكاتبات تستهل عادة بإبراز مكانة سلاطين هذه البلاد وجهودهم في خدمة الإسلام ، وقوة روابط الدول الإسلامية بعضها مع بعض[١٤٣] .

كما يلاحظ في تلك النماذج أنها اشتملت على الدعاء لأولئك الملوك بتواصل قدوم حجاجهم ، وهي تبرز مبلغ عناية الدولة المملوكية بالتعرف على أحوال تلك البلاد ، كما

يبدو من الدعاء لسلطان البرنو بالنصر « على أعدائه المجاورين من الهمج المعروفين بالدمادم »[١٤٤] .

وقد كانت التجارة بين سلطنة كانم – برنو – وبين مصر وعالم البحر المتوسط ، وجزيرة العرب وجنوبي آسيا تقوم على محاصيل إفريقية الوسطى والسودان الأوسط ، وفي مقدمتها العاج أهم صادرات تلك الجهات إلى مصر . وعرف التجار الذين مارسوا تجارته وغيرها من محاصيل السودان باسم الكارم – أو تجار الكارمية – نسبة إلى سلطنة كانمْ . وقد عرفوا بذلك الاسم ، منذ العهد الأيوبي ، كما كان هؤلاء التجار يشتغلون أيضا بجلب الرقيق الأسود إلى مصر . ولعل تسمية ساحل مصر باسم بولاق الدكرور (التكرور) ما يؤيد نسبة الكارمية إلى بلاد الكانم فعلا . ولم تكن تجارة تلك الطائفة من التجار مقصورة على محاصيل بلادها فحسب ، بل امتدت إلى تجارة البهار المستورد من اليمن والهند والصين . إذ أنه يبدو أن اسم الكارمية لم يكن مقصورا على تجار بلاد الكانم ، بل شمل كل تاجر من الكانم ومن غيرها ممن يشتغلون بتجارة البهار والفلفل والقرنفل . وتركّزت طائفة الكارمية في مصر بمدينة قوص التي كانت سوقا حافلا بمنتجات إفريقية الوسطى والمغرب واليمن والهند والحبشة وغيرها . وكوّن هؤلاء لهم نقابة قوية هيمنت على التجارة واحتكرتها أحيانا، وكان رئيس الكارمية معترفا به من قبل الحكومة[١٤٥] .

ولقد سبق الحديث عن جهود تجار إفريقية الغربية بوجه عام في خدمة الإسلام والدعوة إليه بين الشعوب الوثنية ، والنهوض بعلوم الدين ومن أمثلة التجار الذين نالوا رزقا وافرا في تجارتهم مع بلاد التكرور (كانم) ناصر الدين محمد بن مسلم التاجر الكارمي ، وكان يصطفى بعض الرقيق من بلاد السودان ويبعثه في شئون تجارته إلى تلك البلاد[١٤٦] . وأورد ابن حجر العسقلاني ترجمة لصبح بن عبد الله التكروري ، الذي اشتراه سيده عقب مجيئه من بلاده ، ولشغفه بالعلم أقبل مع ولدي سيده على دروس النجيب وشمس الدين وغيرهما من علماء تلك الأيام ، ثم اشتغل بصناعة الكلوتات ، حتى عرف باسم الكلوتاتي ، واستطاع أن يدخر من هذه الحرفة خمسمائة درهم اشترى بها

حريته من سيده ، وبرع في العلم حتى اشتغل بعلم الحديث وتعليمه في دمشق حتى سنة ٧٢١ هـ (١٢٢٠ م) .

كذلك التجأ بعض الوافدين على مصر من التكاررة إلى الانقطاع للعبادة(١٤٧) . ومن هؤلاء على سبيل المثال : فتح ابن عثمان الأسمر التكروري الذي قدم مصر في أواخر القرن الثامن الهجري (١٤ م) ، وكان زاهدا ناسكا ، يسقي الماء في أسواق دمياط احتسابا ، وقد عرف بالحرص على ملازمة الصلاة في المسجد جماعة وبكثرة الخلوة والاعتكاف حتى كان لا يرى إلّا وقت الصلاة(١٤٨) .

وقد استقرت طوائف من بلاد الكانم – برنو – في مصر لتشهد حلقات العلم في الجامع الأزهر ، ولتستمع إلى شيوخه المبرزين ، أمثال : ابن الجوزي وابن حيان وابن الرفعة وغيرهم(١٤٩). وقد أنشيء في الأزهر « رواق البرنوية » لينزل به طلاب العلم من الكانوري والهوسا(١٥٠) ، كما ابتنى تجار التكاررة (الكانم) بمصر مدرسة للمالكية ، عرفت بمدرسة ابن رشيق ، وأشرف على بنائها علم الدين ابن رشيق سنة بضع وأربعين وستمائة ، وكان أول من اضطلع بالتعليم فيها . وموقع هذه المدرسة بخط حمام الريش بمدينة مصر ، وقد غدت مثابة لطلاب العلم من بلاد التكرور (كانم – برنو) وحظيت بشهرة عظيمة هناك ، دفعت أهل الخير مس تلك البلاد إلى أن يبعثوا إليها بالمال في أغلب السنين(١٥١) .

كما واصلت سلطنة برنو الإسلامية علاقاتها التجارية والثقافية والاجتماعية بالدول الإسلامية في المغرب وهى علاقات ترجع جذورها إلى أقدم العصور التاريخية ، وزادها الإسلام توطدا . فقد شهدت بلاد السودانين الغربي والأوسط هجرات بشرية واسعة من شمالي إفريقية ، واختلط المهاجرون من البربر بأهل البلاد الأصليين ، حتى أن الكثير من الأسر الحاكمة تجري في عروقهم دماء الطوارق (الملثمين) ، وتوطدت العلاقات بين هذه الأقاليم مع ازدياد انتشار الإسلام في بلاد غربي إفريقية ، ونشأت بين بني حفص في تونس (٦٢٥ – ٩٤١ هـ/ ١٢٢٨ – ١٥٣٤ م) وبين سلاطين برنو علاقات وطيدة ، فقدّم الأولون مساعدات حربية لتوطيد نفوذ سلاطين برنو في الداخل . وتشير

المراجع إلى مساعدة السلطان الحفصي أبي عبد الله المنتصر (٦٤٧ - ٦٧٦ هـ/ ١٢٤٩ - ١٢٧٧ م) للماى دونمة بن دابالا الذي أرسل سفارة سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) للسلطان الحفصي تحمل إليه بعض الهدايا والرسائل الودية .

وقد تكرّر تبادل السفارات بين الدولتين الإسلاميتين - تونس وبرنو - وتشير المراجع أيضا إلى سفارة الماى عبد الله بن كادي (ت ٧٤٣ هـ/ ١٣٤٢ م) وتدل هذه على ما كان يسود هذه الدول من مشاركة في الحياة الإسلامية وعلاقات حسن الجوار والتعاون لأجل صالح الإسلام والمسلمين .

وكان للدعاة دورهم في نشر الإسلام في إفريقيا ولاسيما في سلطنتي كانم وبرنو حيث نجحوا في اجتذاب « المايات » والحكام . ولم يقتصر جهدهم على هؤلاء وحدهم بل تعداه إلى الوثنيين الذين ارتضوا الإسلام دينا . وقد انطلق أولئك الدعاة من مراكز دينية كتلك التي أنشئت في برنو ووادای ومناطق الهوسا في بث دعوتهم .

ومن أشهر أولئك الدعاة الشيخ أحمد بن محمد المختار (١١٥٠ - ١٢٣١ هـ/ ١٧٣٧ - ١٨١٥ م)[١٥٢] والعباس ابن عروس (ت ٨٦٥ هـ/ ١٤٦٠ م)[١٥٣] ومحمد ابن علي السنوسي (١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ م)[١٥٤] . وكان الأخير قد اتخذ من واحة الجغبوب مركزا رئيسا له ثم عمل تلاميذه على إنشاء مراكز فرعية بلغ عددها ١٢١ مركزا موزعة على شمال إفريقيا والمغرب الأقصى وواحات الصحراء الكبرى والسودان .

وكان منهج السنوسي يقوم على تدريب مائة من الدعاة كل عام في المركز الرئيسي (واحة جغبوب) وتأهيلهم للاضطلاع بنشر الدعوة الإسلامية في إفريقيا . وهكذا نجح الداعية السنوسي في اجتذاب كثير من التلاميذ الذين انضووا تحت رايته . وكانت دعوته بالأساس دعوة إصلاحية تهدف إلى التمكين للإسلام بين ضعاف النفوس من أهله إلّا أنها ما لبثت أن جمعت إلى ذلك الدعوة إلى الإسلام بين الشعوب الوثنية .

وما من شك أن تلك الدعوة قد أصابت نجاحا واضحا لاسيما بين القبائل الوثنية التي دانت بالإسلام كقبيلة بيلي " Baele " الوثنية التي كانت تستوطن إقليم عنيدي في بلاد

برنو . ويبدو ذلك النجاح أكثر وضوحا فيما بذله أولئك الدعاة من جهود نحو نشر الإسلام بين جماعات « التبو » في أقليم تبتي ، جنوبي فزان . كما لجأ أولئك الدعاة إلى أساليب مبتكرة في عملهم ومنها جلب الرقيق من إقليم واداى إلى واحة جغبوب التي فتحوا فيها مدارس لتعليمهم وتلقينهم مبادىء الإسلام ثم إعادتهم إلى أوطانهم لنشر الدين بين أهليهم(١٥٥) .

الهـــوامش

(1) Fage, J.D. An Introduction to the History of West Africa , (Cambridge 7 1959 , p. 15 .

(2) Fage , J . D . op . cit. p. 18 .

(3) Sir Al , an Burrs : History of Nigeria , London 1955 , p. 45 .

(٥) يذكر البكري « وبلاد غانة قوم يسمون الهنيهيين من ذرية الحيش الدي كان بنو أمية أنفدوه إلى غانة في صدر الإسلام ، وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون في السودان ، ولا ينكحونهم فهم بيص الألوان ، حسان الوحوه » (البكري ، مصدر سابق ، ص ١٧٩) .

(٦) ليس لهذه المدينة القديمة وجود في الوقت الحاضر ، ويوحد موقعها في جمهورية موريتانيا الإسلامية الآن .

(٧) راجع ما سبق عن الفتح الإسلامي للمغرب .

(٨) تأسست دولة الأدارسة بالمعرب الأقصى على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي الدي كان قد هرب من موقعة فخ قرب مكة والتي هزم فيها العلويون بزعامة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن الحسن بن علي سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٦ م وقصد إدريس إلى مصر والمغرب حيث استطاع استمالة البربر وإقامة دولته .

(٩) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٧١ .

(١٠) ابن خلدون ، العبر ، مصدر سابق ، جـ ٦ ، ص ١٨٢ .

(١١) حسن محمود ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

(١٢) قامت هذه المملكة السودانية القديمة في حوالي القرن الرابع الميلادي ، في مكان لا يبعد كثيرًا عن موقع جمهورية غانة الحالية وهي الجمهورية التي أخذت اسمها من أقدم مملكة سودانية . قامت مملكة غانة القديمة في الإقليم الواقع بين نهري السنغال والنيجر ، أي أنها كانت تحتل منطقة من جمهوريتي مالي والسنغال الحاليتين . وليس من المعروف تماما من هم مؤسسو مملكة غانة . ولكن الثابت أنهم ليسوا من الماندنجو أهل البلاد الأصليين في ذلك الوقت ، بل يرجع تأسيسها إلى جهود مهاجرين وافدين من الخارج . ويرى الرحالة بارت أنهم من الفولبي «ويقال إنهم تسربوا من شمالي إفريقية تسربا سلميا منذ القرن الثاني للميلاد واستقروا بين الزنوج من الماندنجو ولاسيما شعبة السوننكي . واستطاع أولئك المهاجرون أن يؤسسوا أسرة حاكمة فرضت نفوذها على الزنوج من الماندنجو وأقامت مملكة عرفت باسم مملكة غانة ، وهو الاسم الذي عرف به ملوك غانة كذلك» .

حكم مملكة غانة من هذه الأسرة الأولى حوالى ٤٤ ملكا كان أولهم يدعى كارا " Kara " واتخذوا بلدة أوكار (موضع بلدة كومبي صالح الحالية وتبعد حوالي ٥٠٠ كيلومتر عن مدينة تمبكتو) قرب منحنى النيجر عاصمة للمملكة . سقطت هذه الأسرة الحاكمة سنة ٧٧٠ م ، وانتقل زمام الحكم في البلاد إلى أيدي طبقة حديدة من الزنوج الذين يعرفون باسم السوننكي ، وهم شعبة من الماندنجو أخذت عن سادة الأمس نظمهم وتجاربهم ، واستغلتها في فرض نفوذها وسيطرتها على مملكة غانة . والواضح أن هذه الطبقة الحاكمة الجديدة أمدت المملكة بدماء فتية قوية استطاعت أن تزيد في مساحة البلاد وامتدادها . وبلغت ذروة التوسع في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) . إذ وصلت حدودها شرقا إلى قرب موضع تبكت الحالية ، وإلى أعالي النيجر في الجنوب الشرقي وأعالي السنغال في الجنوب والجنوب الغربي وإلى بلاد التكرور في العرب ، ووادي السوس والصحراء الموريتانية شمالا . وترجع شهرة غانة إلى اشتغال أهلها بالزراعة في وديان النيجر والسنغال ، ووفرة معدن الذهب في مناجمها وموقعها الذي هيأ لأهلها الاشتغال بالتجارة مع شعوب الشمال ، وتمتعت غانة بحكومة مستقرة وأمن مستتب مدة قرنين ازدهرت خلالهما تجارتها واجتذبت إليها الكثير =

= من مسلمي إفريقية الشمالية فاستقروا فيها واشتغلوا بالتجارة وتولوا الوظائف وسكنوا أحد القسمين اللذين تتألف منهما مدينة كومبي العاصمة .

Fage , J. D. cit. p. 18 - 21 .

– كعت (القاضي محمود كعت التنبكتي) ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، نشر هوداس ، دلافوس ، باريس ١٩١٣ ، ص ٤١ – ٤٢ .

(١٣) ابن حوقل ، مصدر سابق ، ص ٢١٠ .

البكري ، مصدر سابق ، ص ١٦٩ .

(١٤) ابن خلدون ، العبر ، مصدر سابق ، جـ ٦ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(١٥) البكري ، مصدر سابق ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ . وانظر :

Bovill , E. W.: The Golden Trade of the Moors , (London) , 1958 , pp. 81 - 82 .

(١٦) البكري ، مصدر سابق ، ص ١٥٩ .

(١٧) تاريخ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، نشر هيلاندر ، لندن ١٨٢٣ ، ص ١٥٨ .

(١٨) البكري ، مصدر سابق ، ص ١٧٥ .

(١٩) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

(٢٠) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

(٢١) البكري ، المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

(٢٢) على أبو بكر ، الثقافة العربية في نيجيريا ، طبعة أولى ١٩٧٢ م ، ص ٢٩ .

(٢٣) إبراهيم طرخان ، إمبراطورية غانة الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٤٧ – ٤٨ .

(٢٤) وفيها (أى غيارو) كثير من المسلمين .. ويسكنها (برسي) المسلمون وما حولها متركون .. المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٧٧ .

(٢٥) الغرناطي (أبو حامد الأندلسي) : تحفة الألباب ، نشر فرار ، باريس ١٩٢٥ م .

(٢٦) السعدي (عبد الرحمن) تاريخ السودان ، ص ٤٢ ، حققه هوداس وبنوا باريس ١٨٩٨ م ، ص ٢١ .

(٢٧) راجع ما سبق .

(٢٨) ابن بطوطة ، مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ٤٤٧ .

(٢٩) البكري ، مصدر سابق ، ص ٧٦ .

(٣٠) إبراهيم طرخان ، إمبراطورية غانة الإسلامية ص ٨١ .

(٣١) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مرجع سابق ، مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ليدن ١٨٦٦ ، ص ٦ ، والانتساب للبيت العلوي ، أمر مألوف مشهور عند كثير من ملوك السودان ، فقد ادعاها ملك مالي وارث غانة ، كما ادعى ملوك برنو الانتساب إلى سيف بن ذي يزن . وعلى الرغم من أن هذه الدعاوى هي مجرد أساطير فإنها تلقي ضوءا على أهمية علاقة الشرق الإسلامي بالممالك الإسلامية في غربي إفريقية (إبراهيم طرخان ، إمبراطورية غانة ، ص ٦) .

(٣٢) البكري ، مرجع سابق ، ص ٦ .

(٣٣) علي أبو بكر : مرجع سابق ، ص ٣٢ .

(٣٤) عبد الرحمن السعدي ، مصدر سابق ، ص ٩ .

(35) Fage , J. D. op. cit. p. 24 .

(٣٦) يطلق الفولانيون عليهم اسم مالي ، والبربر اسم مل أو مليت ، والمؤرخون العرب يطلقون عليهم لقب مليل ، على حين نجد الهوسا يسمونهم الونجارة . وقد قام عدد من الباحثين بمحاولة لتفسير كلمة ماندي ، فهي تعني في رأى بعضهم : عند السيد ، أو مركز إقامة السيد ، أو الحاكم ، وبمعنى آخر العاصمة ، ولذلك أطلقت على جميع العواصم التي عرفت في سلطنة مالي أو ملي . وهناك رأى آخر يفسر كلمة الماندي بأنها تعني (ابن الأم) ، وفي هذا ما يدل على أهمية النسب إلى الأم أو النساء عامة ، وهو أمر مألوف عند الماندنجو ، وكذلك عند غيرهم من قبائل غربي إفريقية .

Labouret . H.: Encyclopaedia of Islam Art. Meli . Montiel , ch .: Le Empire du Mali , Paris 1923 , p. 7.

(٣٧) ابن فضل الله العمري ، مصدر سابق ، (مخطوطة) جـ ٢ ، قسم ٣ ص ٤٩٤ .

(٣٨) إبراهيم طرخان : دولة مالي الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٥٠ .

(٣٩) البكري ، مصدر سابق ، ص ١٧٨ .

(٤٠) ابن خلدون ، العبر جـ ٥ ، ص ٤٣٣ ، القلقشندي ، مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ١٩٣ .

(41) Bovill , E. W.: The Golden Trade of the Moors , London 1958 . p. 86 .

(42) Fage , J . D .: op. cit . p. 24 .

(43) Bovill , E . W .: op. cit. p. 87 .

Fage , J. D.: op. cit. p. 24 .

(44) Bovill , E . W . The Golden Trade of the Moors , p. 87 .

(٤٥) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٢٩٣ .

(٤٦) إبراهيم طرخان : دولة مالي الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(٤٧) القلقشندي : مصدر سابق ، حـ ٥ ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

(٤٨) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٢٩٤ .

(٤٩) ابن فضل الله العمري : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٥٠٣ .

القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٢٩٤ .

(٥٠) المصدر نفسه وانظر :

Fage , L. D.: op. cit. p. 26 .

(٥١) المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، نشر الشيال ، مصر ١٩٥٥ ، ص ١١٢ .

(٥٢) ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٤٢٤ .

(٥٣) المقريزي : الذهب المسوك ، مصدر سابق ، ص ١١٢ .

(٥٤) ابن فضل الله العمري ، مصدر سابق ، ص ٥٠٥ .

(٥٥) انظر تفاصيل هذه العلاقات في : المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٥ ، ٤٠١ ، ابن حجر : مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ٢٠٥ ، السخاوي : مصدر سابق ، جـ ٧ ، ص ٢ .

(56) Bovill , E . W .: op. cit. p. 93 .

(٥٧) القلقشندي ، مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٢٩٧ .

(58) Bovill , E . W .: op. cit. p. 93 .

(٥٩) راجع ما سبق .

(٦٠) عبد الرحمن السعدي : مصدر سابق ، ص ١٢ – ١٣ .
(٦١) إبراهيم طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .
(٦٢) المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٦٣) ابن فضل الله العمري ، مصدر سابق ، جـ ٢ ، قسم ٢ ، ص ٥٠٧ .
(٦٤) عبد الرحمن السعدي ، مرجع سابق ، ص ١٧ .
(65) Bovill , E . W .: op. cit. p. 89 .
(٦٦) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٢٩٧ .
(٦٧) ابن بطوطة ، تحفة النظار ، مصدر سابق ، ١٩٦٤ م ، ص ٦٩٠ .
(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٦٨٠ .
(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٦٩٠ – ٦٩١ .
(٧٠) المصدر السابق ، ص ٦٩ .
(71) The Kano Chronicles , Palmer : Sudanese Memoirs , vol . III . op. 104 - 105 .
نقلا عن أبي بكر : مرجع سابق ، ص ٨٣ .
(٧٢) ابن فضل الله العمري : مصدر سابق ص ٢٨ .
(73) Fage , J . D .: op. cit. p. 27 .
(٧٤) علي أبو بكر : مرجع سابق ، ص ٤١ .
(٧٥) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
(76) Bovill , E . W . op. cit. p. 101 .
(77) Bovill , E . W .: op. cit. p . 101 .
(٧٨) كان علي كلن وأخوه سليمان نار في خدمة سلطان مالي على عادة ملوك السودان في أن يأخذوا أبناء حكام الولايات التي في مملكتهم فيربوهم تربية تضمن ولاءهم وطاعتهم إذا كبروا وبلغوا مبلغ الرجال (علي أبو بكر : الثقافة العربية في نيجيريا ، ص ٤١) .
(٧٩) علي أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .
(٨٠) المرجع نفسه ، ص ٤٣ .
(٨١) عبد الرحمن السعدي : مرجع سابق ، ص ٦٤ .
(٨٢) عبد الرحمن السعدي : مرجع سابق ، ص ٧٤ .
(٨٣) علي أبو بكر : مرجع سابق ، ص ٤٥ – ٤٦ .
(٨٤) عبد الرحمن السعدي : مرجع سابق ، ص ٧٣ .
(٨٥) المصدر نفسه .
(٨٦) تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، ص ٥٩ .
(٨٧) المرجع السابق ، ص ٢٢ .
(٨٨) عبد القادر زبادية ، مرجع سابق ، ص ٥٠ .
(٨٩) علي أبو بكر : مرجع سابق ، ص ٤٩ .
(٩٠) عبد القادر زبادية ، مرجع سابق ، ص ٥١ .
(٩١) الشيخ الأمين عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين ، مالي وسنغي ، جدة ١٣٩٩ هـ ، ص ٧٥ .

(٩٢) علي أبو بكر : مرجع سابق ، ص ٥٠ .
(٩٣) علي أبو بكر : المرجع نفسه ، ص ٥٠ – ٥١ .
(94) Fage , J . D .: op. cit. p. 30 - 32 .
(٩٥) محمود كعت : مرجع سابق ، ص ٧٦ .
(٩٦) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، القاهرة ١٩٥٨ م ، جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٩٧) عبد الرحمن السعدي ، مصدر سابق ، ص ٢٩ – ٤٦ .
(٩٨) راجع ما سبق .
(٩٩) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .
(١٠٠) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٨٦ .
(١٠١) الشيخ الأمين عوض الله : مرجع سابق ، ص ١٨٢ .
(١٠٢) الفتاش ، مرجع سابق ، ص ١٨٠ .
(١٠٣) عبد الرحمن السعدي : مصدر سابق ، صفحات ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ .
(١٠٤) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ، ص ٢٤٦ .
(١٠٥) عبد الرحمن السعدي ، مصدر سابق ، صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ .
(١٠٦) حسن أحمد محمود ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧ .
(١٠٧) عبد الرحمن السعدي ، مصدر سابق ، ص ١ ، ١٢ ، ٥٧ .
(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٦١ .
(١٠٩) مصطفى مسعد : الحسن بن محمد الوزان – ليو الإفريقي – أضواء على رحلته ببلاد السودان ومصر ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، العدد الأول ١٩٧٠ م ، ص ٥٢ ، ٥٣ .
(١١٠) عبد الرحمن السعدي ، مصدر سابق ، ص ١٢ .
(١١١) راجع ما سبق .
(١١٢) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ، ص ٢٤٩ .
(١١٣) عبد الرحمن السعدي : مصدر سابق ، ص ١٢ .
(١١٤) الشيخ الأمين عوض الله : مرجع سابق ، ص ٢١٧ .
(١١٥) عبد الرحمن السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٨ .
(١١٦) المصدر نفسه ، ص ١١ – ١٣ .
(١١٧) مصطفى مسعد : الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .
(١١٨) المغيلي من علماء تلمسان النابغين ، وذاعت شهرته لقيامه بالدعوة للإسلام بين البربر وله جهود مبرزة في مجال الدعوة في السودان الغربي ، وقام بعدة رحلات زار خلالها جاو وكانو وكتسنا ، وكتب عدة رسائل وجهها إلى الملوك والسلاطين ينصحهم فيها ويوضح لهم واجبات الأمير وما ينبغي أن يتحقق فيه .
وقد جرى سلاطين وأمراء السودان العربي على استشارته من وقت لآخر ، فوجه إليه أسكيا محمد وسلطان صنغاي أسئلة عديدة ، وأجابه برسالة قيمة أوضح له فيها فتواه في المسائل التي أثارها ، وهي تلقي ضوءا على المشكلات التي كانت تواجه حكام المسلمين في السودان الغربي وقتذاك ، كما تعطي صورة واضحة لأثر المغرب الأقصى في الفكر السياسي والثقافي في السودان (الشيخ الأمين . عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ، ص ١٨٥) .
(١١٩) البكري ، مصدر سابق ، ص ١١ .

(١٢٠) ابن فصل الله العمري ، مصدر سابق ، القسم الثالث من الجزء الثاني ص ١٤٩ .

(121) Thoman Hadgkim : Nigerian Perspectives , p. 68 .

نقلا عن : علي أبي بكر : مرجع سابق ، ص ٥١ – ٥٣ .

(١٢٢) علي أبو بكر : مرجع سابق ، ص ٥٤ .

(١٢٣) أحمد بن فرطوا : تاريخ بن إدريس ألوما (نيجيريا ١٩٣٠ م) ص ١٣١ .

(١٢٤) المصدر السابق .

(١٢٥) علي أبو بكر : مرجع سابق ، ص ٥٥ .

(١٢٦) علي أبو بكر : مرجع سابق ، ص ٥٦ .

(127) Barth, H.: Travels and Discoveries in North and Centeral Africa in the Years 1809 - 1855 , London , 1858 , p. 645 .

(١٢٨) أحمد بن فرطوا : مصدر سابق ، ص ٥٠ .

(١٢٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

(١٣٠) علي أبو بكر : مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(131) Hogbrn : The Mohamedan Emirates p. 35 .

(١٣٢) محمد بن ماني هو الجد الأكبر للإمام أحمد بن فرطوا الذي كتب تاريخ السلطان إدريس ألوما أواخر القرن العاشر الهجري (١٦م) وقد عاصر الجد خمسة من ملوك برنو أيام سيادة كانم قبل انتقال العاصمة من كانم إلى برنو ويرمي المحرم لإظهار فضل برنو على كانم نفسها ، وقد استبدل باسم الهادي العثماني – أن صح أنه هو أول من نشر الإسلام في كانم ، كما ذكر ابن فضل الله العمري – باسم محمد بن ماني باعتباره رائدا في نشر الإسلام بتلك المنطقة ودعوة حكامها إليه وتعليمهم القرآن .

(١٣٣) أورد بأمر في كتابيه ترجمة لمخطوطة عربية تتضمن هذه الرسالة أو المرسوم (محرم) .

Palmer , H. R.: The Bornu Sahara and Sudan , London , 1936 , pp. 14 - 15 .

نقلا عن إبراهيم طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٥ م ، ص ٦٧ – ٦٨ .

(134) Palmer , H. R.: Bornu , op. cit. p. 39 .

نقلا عن طرخان ، مرجع سابق ، ص ٦٦ .

(١٣٥) اقترن عهد الماي عثمان أوبيري بنشاط الدعوة إلى الإسلام في كانم حتى قيل أن هذا الماي هو المقصود بالشخصية المعروفة في الكتب العربية باسم « الهادي العثماني » كما ذكر ابن فضل الله العمري ، إذ يقول : « أول من بثّ الإسلام فيهم – أي أهل كانم – الهادي العثماني ، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان ، وصارت – أي الدعوة الإسلامية – بعد ذلك لليزنيين من ولد سيف بني ذي يزن » (مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ورقة ٤٩٢) .

(١٣٦) انظر ما يلي هنا .

(١٣٧) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٢٨١ .

(١٣٨) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٨١ .

(١٣٩) راجع ما سبق .

(١٤٠) أحمد بن فرطوا : مرجع سابق ، ص ٢٠ نقلا عن علي أبي بكر ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

(١٤١) سورة المائدة : آية ٣٨ .

(١٤٢) ومما جاء في شكواه « أن الأعراب الذين يسمون جداما وغيرهم ، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعفاء الرجال ... فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان ، فإنهم قد اتخذوا متجرا . فتبعث الرسل إلى جميع أرضكم ، وأمرائكم ووزرائكم ، وقضاتكم ، وحكامكم ، وعلمائكم ، وصواحب أسواقكم ، فينظرون ويبحثون ويكشفون ، فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم ... » (القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ١١٦) .

(١٤٣) ومن هذه الصيغ « أعز الله الجناب الكريم العالي ، الجليل ، العالم العادل العاري ، المجاهد الهمام الأوحد المظفر المنصور .. عز الإسلام شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين » (القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ٧) .

(١٤٤) كما جاء في صدر مكاتبة صاحب برنو : « لازالت همم سلطانه غير مقصرة ، ووفود حمده غير محصرة ، وسيفه في سواد من جاوره من أعدائه الكفار » . (القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٨ ، ص ٧) .

(١٤٥) حامد عمار : العلاقات بين الدولة المملوكية وبين الدول الإفريقية في العصور الوسطى (رسالة لم تنشر ، ص ٥٨ – ٥٩) .

(١٤٦) المقريزي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٤٠١ .

(١٤٧) العمري : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٩٢٢ ، (السخاوي : مصدر سابق ، جـ ١٠ ، ص ١٥٤) .

(١٤٨) ابن إياس : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(١٤٩) السخاوي : مصدر سابق .

(150) Dumingham , J. S., op. cit. p. 65 .

(١٥١) المقريزي ، مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٥ .

(١٥٢) المصدر نفسه ص ٣٦٥ .

(١٥٣) دبشان : الديانات في إفريقيا السوداء ، ترجمة أحمد صادق ، مصر ١٩٥٦ م ، ص ١٣٥ ، ١٥٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ .

(154) Trimingham J. S., Islam in West Africa p. 100 - 101 .

(155) Ibid., p. 101 .

(١٥٦) سير توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ٣٧٠ – ٣٧٢ .

انتشار الإسلام في شرقي إفريقية

يكاد الإقليم الذي يضم بلاد إرتريا والحبشة[١] (أثيوبيا) والصومال وساحل كينيا وجزيرة زنجبار وساحل تنزانيا (تنجانيقا) ، أن يؤلف عالما ذا خصائص جغرافية خاصة ، جعلته يتجه – منذ فجر التاريخ – نحو الشرق ، نحو عالم الجزيرة العربية ، وعالم المحيط الهندي ، أكثر من اتجاهه نحو قلب القارة الإفريقية . ويمثل هذا الإقليم الفرع الغربي من الأخدود الإفريقي الكبير ، وتنتشر فيه سلسلة من المرتفعات والهضاب ، من أهمها : هضبة الحبشة وهضبة البحيرات الكبرى . وتمتد بين هذه المرتفعات وبين ساحل البحر الأحمر ثم ساحل المحيط الهندي ، سهول فسيحة تغلب عليها الطبيعة الصحراوية وبذا يمكن القول ، إن تاريخ شرقي إفريقية يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الجزيرة العربية ، أكثر من ارتباطه بتاريخ القارة الإفريقية نفسها[٢] .

وتتمثل أقدم السلالات العرقية التي استوطنت إقليم شرقي إفريقية في الحاميين ومنهم البجة (البجاة) والأجاو والساهو والسيداما والعفر والجلا والصومال . وإلى الجنوب من هؤلاء وأولئك ، نزلت شعوب البانتو[٣] . وقد اختلطت السلالات العرقية الحامية بسلالات سامية قديمة (عربية) أمدته – فضلا عن الدماء السامية – ببعض مظاهر الثقافة وبخاصة في مجالات اللغة والدين والفن[٤] .

العلاقات بين الجزيرة العربية وشرقي إفريقية قبل الإسلام :

وقد ربط بين الجزيرة العربية وبين إقليم شرقي إفريقية طريقان : أحدهما بري عبر سيناء وبرزخ السويس إلى مصر والصحراء الشرقية حتى الهضبة الحبشية ، والطريق الآخر بحري عبر البحر الأحمر ومضيق باب المندب . وهذان الطريقان ، هما اللذان سلكتهما مختلف السلالات إلى القارة الإفريقية منذ عشرات الآلاف من السنين[٥] .

ولعل التجارة ، كانت أهم وسيلة لهذا الاتصال ، إذ نشطت حركة تجارة العاج والصمغ

واللبان والذهب بين الجزيرة العربية من ناحية ، وبين موانى مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى . واتخذ التجار العرب مراكز لهم على الساحل الإفريقي يوغلون منها بسلعهم في القارة الإفريقية . وخلال الأعوام الألف السابقة على الميلاد هاجرت جماعات عربية من جنوبي الجزيرة العربية إلى الحبشة ، وبلغت هذه الهجرات أقصاها بين عامي ١٥٠٠ ق . م . — ٣٠٠ ق . م . ، في عهد دولتي معين وسبأ . وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة في البحر الأحمر ، ونشطت حركة التجار العرب ، خاصة زمن البطالمة والرومان . ولا شك أن عددا غير قليل من هؤلاء قد استقروا في أجزاء مختلفة من حوض النيل ، ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم(٦) .

ومن القبائل العربية التي انتقلت من جنوبي الجزيرة العربية إلى الحبشة ، قبيلة سهرت (سحرت) وقبيلة حبشت التي استقرت في الجانب الشمالي من الحبشة .وقد غدا اسم هذه القبيلة — حبشت — علما على البلاد كلها ، فعرفت باسمها « الحبشة » .

ومن القبائل السامية ذات الأثر البارز في تاريخ الحبشة ، قبيلة الجعز أو الأجاعز وهي صاحبة اللغة التي سادت بلاد الحبشة فيما بعد ، وقد اشتقت منها لغة التيجري بعد أن تغلبت عليها اللغة الأمهرية ، منذ القرن السابع للهجرة (١٣ م) .

وإذا كان ثمة نزاع نشب — أول الأمر — بين المهاجرين الطارئين وبين الطبقة الحاكمة من أهل البلاد الأصليين ، فإن المهاجرين الساميين لم يلبثوا أن تفوقوا عليهم بتفوق حضارتهم ، واتسع نفوذهم بقيادة الأجاعز ، بعد أن أصهروا إلى أهل البلاد ، الذين امتزجوا بهم واقتبسوا الكثير من عناصر حضارتهم ، في مجال الإدارة والزراعة والتجارة . ونتج عن هذا الامتزاج ، ظهور نواة مملكة أكسوم الحبشية الوثنية في القرن السابع قبل الميلاد(٧) .

وتسربت إلى مملكة أكسوم ، آثار ثقافة يهودية ، نتيجة لهجرة جماعة من اليهود إلى أكسوم في القرن السادس قبل الميلاد . ويعرف يهود الحبشة باسم الفلاشة ومن الآثار اليهودية في الأفكار السياسية والدينية ، أسطورة تسلسل ملوك الأحباش من سلالة سليمان بن داود عليه السلام وملكة سبأ ، التي يطلق عليها الأحباش اسم « ماقدة »

Makida ، وهم يزعمون أنها كانت ملكة أكسوم أيضا .

وشهد العصر البطلمي في مصر (من القرن الرابع إلى القرن الأول قبل الميلاد) هجرة جماعات عربية ، من قبيلة بلي إلى أوطان البجة (البجاة) . وقد ترجع مطالع هذه الهجرة العربية إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، حين بدأ اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر ، وإنشاؤهم الموانى على طول ساحله الإفريقي ، مثل برنيس وبطليموس تيرون (موضع عقيق الحالية) ، وميناء عدول « Adulis » الحبشية وغيرها للحصول على السلع الإفريقية الضرورية كالبخور وسن الفيل وأصداف السلاحف والفيلة والرقيق ومن هنا بدت حاجة البطالمة إلى الاستعانة بقبائل بلي العربية ، للقيام بعمليات النقل البري ، والمحافظة على خطوط المواصلات بين النيل والبحر الأحمر[٨] .

وعلى الرغم مما عرف عن أولئك البجة من النفور من كل غريب يطأ بلادهم ، فقد أتيح للجماعات العربية من بلي ، أن تختلط بقبائل البجة عن طريق المصاهرة ، وقد غدت قبائل البجة التي اختلطت بها بلى ، تعرف عند اليونان والرومان باسم البليميين « Blemmyes » وهؤلاء هم الذين عرفوا زمن كل من الإدريسي وابن الوردي ، أي في القرنين السادس والثامن للهجرة على التوالي/ ١٢ ، ١٤ م باسم « البليين » ، ثم أسسوا نواة مملكة « البلو » الإسلامية في شمالي الحبشة كما سيأتي ذكره بعد[٩] .

وفي العصر الروماني في مصر ، ازداد الاهتمام بتجارة الشرق والوصول إلى قلب إفريقية ، وسعى الرومان إلى توثيق علاقاتهم بدولة أكسوم . وتم أول اتصال لهذا الغرض عام ٢٧٥ م ، على عهد الإمبراطور أورليان Aurelian (٢٧٠ –٢٧٥ م) واستمر اتصال التجار الرومان بدولة أكسوم ، حيث يوجد ميناء عدول « Adulis » أعظم سوق لتجارة الرقيق ومنتجات شرقي إفريقية ووسطها وكان من بين أولئك التجار : فرومنتيوس « Frumentius » الصوري ، الذي أوفده الإمبراطور قسطنطين الأكبر (٣٠٦ – ٣٣٧ م) لعقد معاهدة تجارية مع عيزانا ملك أكسوم ، وقد اعتنق النصرانية على يد فرومنتيوس حوالي سنة ٣٤٠ م . ومنذ ذلك الحين ، أخذت النصرانية في الانتشار في

بلاد أكسوم ، بعد أن مهد لها التجار اليونانيون ، الذين وفدوا إلى تلك الديار من قبل ، وقد نصب فرومنتيوس بطريق الكنيسة المصرية (كنيسة الإسكندرية) أسقفا لأكسوم(١٠) .

وغدت النصرانية الدين الرسمي لمملكة أكسوم تمثلها الكنيسة الحبشية التي تتبع الكنيسة المصرية ، ونصّب بطارقة مصر المطارنة الذين يرأسون الكنيسة الحبشية واحدا بعد الآخر(١١) .

وأخذت الحبشة منذ اعتناق ملكها عيزانا النصرانية ، في التوسع وبسط نفوذها على البلاد المجاورة ، ولعل هذا قد حدث بإيعاز من الرومان الذين كانوا يعملون للقضاء على نفوذ الحميريين التجاري في البحر الأحمر . ولم تقف مهمة فرومنتيوس عند التبشير بالنصرانية في بلاد أكسوم ، بل أغرى الملك عيزانا بتجريد حملته المشهورة على مملكة مروي ، وقبائل البجة ، واحتلال بلاد اليمن حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي . فقد خلف عيزانا نقشا تخليدا لانتصاره على مملكة مروي سنة ٣٥٦ م ، أورد فيه أسماء الشعوب التي انتصر عليها الملك ، وقبض على ملوكها الستة . كما اشتمل نقش آخر لهذا الملك على الألقاب التي حملها وهي : ملك أكسوم وحمير وسيمايو والبجة وكاسو ، ملك الملوك(١٢) .

ولما امتدت النصرانية إلى اليمن ، اعتبر البيزنطيون أنفسهم مسئولين عن حماية معتنقيها . وقد استغل الإمبراطور جستين الأول Justin I (٥١٨ – ٥٢٧ م) حادثة نجران على يد ذي نواس ملك حمير اليهودي ، فاستثار حميّة ملك أكسوم لحرب اليمن سنة ٥٢٣ م ، واستعان في ذلك بالبطرك تيموتاوس لتنفيذ مشروع الحملة . وكان ذو نواس الحميري اليهودي فيما يروى قد حاصر جماعة من نصارى نجران ، ولما رفضوا الارتداد عن النصرانية خدّ لهم أخدودا وقتلهم في ليلة واحدة(١٣) . وانتهت تلك الأحداث باحتلال الأحباش لبلاد اليمن .

وقد أشارت روايات تاريخية لقائدين حبشيين ، هما : أرياط وأبرهة ، نشبت بينهما منافسة انتهت بقتل أرياط وتولية أبرهة (الأشرم) الذي حكم

بلاد اليمن منفردا سنة ٥٣١ م . ولعل من أبرز أحداث هذه المرحلة من مراحل الوجود الحبشي باليمن بناء كنيسة القليس لتحويل حجاج بيت الله الحرام بمكة إلى صنعاء . ويروى أنه لما تسامع العرب بذلك ، قام رجل من كنانة وتمكن من دخول القليس والعبث بمحتوياتها ، مما أدى إلى شدة غضب أبرهة ، وتصميمه على هدم الكعبة . وسيّر جيشا استخدم فيه الفيلة لحصار مكة ، ولكن حفظ الله سبحانه بيته العتيق ، ودحر جيش أبـرهة سنة ٥٧١ م وهي السنة التي ولد فيها الرسول ﷺ . وقد ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن الكريم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾[١٤]

ولما توفي أبرهة خلفه ولداه يكسوم ثم مسروق . وفي عهد مسروق نشبت ثورة وطنية في اليمن ، بزعامة سيف بن ذي يزن الحميري وأخيه معد يكرب . وقد انتهت هذه الثورة بطرد الأحباش من اليمن بمعاونة الفرس ، الذين حلّوا محلّ الأولين في السيطرة على اليمن . وظلّت اليمن خاضعة للنفوذ الفارسي من سنة ٥٧٠ م حتى دخلها المسلمون سنة ١٣هـ/ ٦٣٤ م وبظهور الإسلام في مطلع القرن السابع الميلادي ، بدأت مرحلة جديدة ، شهدت انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية ووصوله إلى شرقي إفريقية .

علاقات الجزيرة العربية بالساحل الجنوبي الشرقي لإفريقية قبل الإسلام :

يمتد الساحل الجنوبي بشرق إفريقية من خليج عدن إلى مدار الجدي ، أي من رأس غردفوي في الشمال إلى خليج دلجادو في الجنوب . وعلاقات ذلك الساحل بجزيرة العرب قديمة موغلة في القدم . وكان روادها من العرب ، هم الذين مهدوا الطريق – بعد ظهور الإسلام – إلى تأسيس مراكز تجارية إسلامية ، وإمارات عربية إسلامية ، نهضت بنشر الإسلام على طول الساحل الجنوبي لإقليم شرقي إفريقية ، حتى جاءت سلطنة زنجبار العربية ، فقامت بتوحيد الكيانات العربية المفككة تحت لوائها عقب الغزو البرتغالي الصليبي ، مما مكن المسلمين – تجارا ودعاة – من التوغل في داخل القارة إلى مسافات بعيدة ، والاستقرار في عدة أماكن كأوغندة ومنطقة البحيرات الاستوائية ، والإسهام بنصيب وافر في نشر الإسلام بين القبائل الإفريقية الخالصة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة (١٩ – ٢٠ م) .

لقد فرضت الطبيعة على هذه المناطق الإفريقية ، أن تتجه وجهة شرقية – كما سبق القول – نحو عالم الجزيرة العربية والمحيط الهندي ، وذلك عن طريق البحر عبر مضيق باب المندب ، أو عن طريق المسالك الملاحية في المحيط الهندي . وكان التجار العرب من جنوبي الجزيرة العربية ، أقدم من وطئ الساحل الشرقي لإفريقية ، وكان قدومهم إلى هذه المناطق للتجارة حينا ، والاستيطان حينا آخر ، وأقاموا عدة مراكز تجارية على طول الساحل ، للاشتغال بتجارة الذهب والعاج والرقيق . وظل هذا الاتصال التجاري ينمو ويتسع قبل الإسلام بين الجزيرة العربية ومراكز التجارة على الساحل الشرقي لإفريقية ، بفضل نظام الرياح الموسمية التي أعانت السفن الشراعية من القيام برحلتين منظمتين في السنة . وفي خلال دورة الرياح هذه جرى التعامل بين جنوبي الجزيرة العربية وخليج عمان ، وبين الساحل الشرقي لإفريقية وسواحل الهند . وقد استفاد الهنود كذلك من تلك الرياح ، حيث تبين اتصالهم بالساحل الشرقي لإفريقية منذ القرن السادس قبل الميلاد . واستقرت جاليات منهم على الساحل ، حيث نقلوا إليه بعض أنواع المزروعات ، ولاسيما زراعة البلوط(١٥) .

وعلى الرغم من تعدد السلالات الوافدة من شعوب جنوبي آسيا ، سواء من الهند والصين أو جنوبي الجزيرة العربية والخليج العربي ، ونمو مزيج مركب من الثقافة واللغة السواحلية فإن القبائل الإفريقية لم تتمكن من أن تستوعب أو تذيب الوافدين إليها من العرب ، لتتابع الموجات الواردة إلى تلك الجهات حتى لا تكاد تنقطع ، ومن ثمّ احتفظ أولئك الوافدون بسماتهم العربية إلى حد كبير ، وهكذا كان للعرب قبل الإسلام بعض التأثير في ساحل شرقي إفريقية ، حتى أطلق الإغريق والرومان عليه اسم عزانيا **Azania** نسبة إلى إحدى الممالك العربية القديمة ، وهي مملكة عزان التي ظهرت في منطقة غير معروفة تماما في جنوبي الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام . وانتقل بعض سكانها إلى منطقة في شرقي إفريقية ، عرفت باسمهم .

وفي الفترة السابقة على ظهور الإسلام ، اكتفى العرب بالاستقرار المؤقت على

الساحل ، و لم يحاولوا التوغل في الداخل ، مكتفين بإنشاء المراكز التجارية لتصدير تراب الذهب والعاج والرقيق الذي كانت تقبل على طلبه دولتا الفرس والروم . وشهدت الجزيرة العربية رقيقا كثيرا مجلوبا من شرقي إفريقية ، استخدموهم في حراسة قوافلهم وتزوج العرب منهم وتناسلوا ، ونشأ من هذا الخليط نسل عرف بشجاعته وسواد بشرته .

وهكذا لم تنقطع الصلات بين الجزيرة العربية وبين شرقي إفريقية قبل الإسلام ، على التبادل التجاري ، وما يستتبعه من استقرار مؤقت أحيانا في المراكز التي أقامها العرب لأغراض ذلك التبادل لكن الأمور تغيرت تغيرا كبيرا بظهور الإسلام ، فقد ظهر عامل آخر غير العامل التجاري الخالص أدى إلى محاولة العرب المسلمين الاستقرار الدائم ، وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية . وبذا بدأت صفحة جديدة من العلاقات ، اقترنت بنشر الإسلام والدعوة إليه في شرقي إفريقية على نحو ما يأتي من بعد[١٦] .

اتصال العرب المسلمين بالساحل الشمالي الشرقي الإفريقي :

يتاخم الساحل الشمالي الشرقي لإفريقية ، بلاد إرتريا والحبشة والصومال الشمالي ، وقد أدّى اتصال الجماعات العربية بذلك الساحل عقب ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية ، وهجرتهم إليه فرادى أو جماعات ، تجارا أو دعاة ، واختلاطهم بأهل البلاد الأصليين ، أدى ذلك إلى نشأة كيانات سياسية إسلامية في هذه البلاد ، واعتناق السكان الأصليين للإسلام وقيامهم بالدعوة إليه ، حتى غلب الإسلام على معظم شعوبها .

هجرة المسلمين إلى الحبشة في حياة الرسول ﷺ وصلاتهم المبكرة بها :

ولعل أول اتصال بين هذا الإقليم وبين الجزيرة العربية عقب ظهور الإسلام كان حين اشتد أذى قريش لأصحاب رسول الله ﷺ ، بعد الجهر بالدعوة . « وقد كانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، ويجدون فيها رفاهة من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا[١٧] . ولما رأى – عليه الصلاة والسلام – ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ثم من عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم أحد عنده وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » . فخرج عند ذلك المسلمون

من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام . وبلغ عدد الذين لحقوا بأرض الحبشة وهاجروا إليها من المسلمين – سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا وولدوا بها – اثنين وثمانين رجلا[١٨] .

والراجح بعد دراسة الروايات المختلفة حول هذه الهجرة ، أن المهاجرين لم يرحلوا جمعا واحدا إلى الحبشة ، بل هاجروا على دفعات . وليس من المعروف على وجه اليقين متى بدأت كل دفعة منها بالهجرة ، ولا متى قدموا من الحبشة ، فإن قدومهم قد حدث – غالبا – على دفعات كذلك . ولعل آخر قدمة لهم كانت عام خيبر ، في السنة السابعة للهجرة (٦٢٨ م)[١٩] .

وقد أجمع المؤرخون المسلمون ، على أن النجاشيNegus الذي كان على عرش الحبشة وقتذاك أكرم وفادة أولئك المهاجرين ، وأنهم أمنوا في جواره . ولم يطب لقريش أن ترى أصحاب رسول الله ﷺ يفلتون من أيديهم ، ويلجأون إلى سند قوي يظاهرهم فتآمرت قريش فيما بينها على الكيد بمن ضوى إلى الحبشة من المسلمين ، وقر رأيها على إيفاد وفد إلى نجاشي الحبشة ، جعلت على رأسه رجلين جليلين ، هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي ، مع هدايا كثيرة أهدوها إليه وإلى بطارقته . وطلب الوفد من الملك عودة المهاجرين إلى مكة . ولما استدعى النجاشي المهاجرين وسألهم عن الدين الذي فارقوا به قومهم دون أن يدخلوا في دينه ولا غيره من الملل ، تقدم جعفر بن أبي طالب وتحدث عن المهاجرين ، واستطاع أن يفند ماوجه إلى قومه من التهم ، ويجيب على ما خوطب فيه من الأسئلة بوضوح وجرأة ، مما حمل النجاشي أن يحكم لهم بقوله : أبشروا ولا تخافوا ، فإنه لارهبوت اليوم على حزب إبراهيم[٢٠] .

وتذكر الرواية العربية ، أن الرسول ﷺ أرسل في السنة السادسة للهجرة (٦٢٧ م) عمرو بن أمية الضمري بكتاب إلى النجاشي أرماح (أصحمة) ، يدعوه فيه إلى الإسلام ، وأن النجاشي حين قرأ الكتاب كتب إلى النبي أنه اعتنق الإسلام ، وفي السنة السابعة للهجرة (٦٢٨م) بعث النبي عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي

بكتاب ، يطلب إليه فيه أن يخطب له السيدة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان وكان زوجها عبد الله بن جحش قد تنصر في الحبشة ومات بينما ثبتت هي على الإسلام . وتذكر الرواية العربية ردّ النجاشي على النبي بأنه زوّجه إيّاها ، وبعث إليه أم حبيبة محملة بالهدايا[٢١] .

وإذا كان من المحقق أن النجاشي أبدى اقتناعه بما ذكره المهاجرون من عقيدة الإسلام وبسط حمايته عليهم في بلاده ، فإنه لا يمكن التحقق من أنه اعتنق الإسلام فعلا وترك النصرانية ، وقد كان بلاطه يعج بالأساقفة ، وليس هناك محل للقول بأن النجاشي تظاهر بقبول الإسلام خشية تعريض بلاده للغزو من جانب المسلمين في عهد الرسول ﷺ[٢٢] . وقد كانوا وقتذاك ضعفاء حتى اضطروا إلى الهجرة والاغتراب ولعل المرجح أن النجاشي ، إن لم يكن قد اعتنق الإسلام ، فإنه على الأقل ، قد أبدى تقديره للإسلام والمسلمين . وما كانت العلاقات بينهما لتصل إلى حالة الحرب فيما بعد نتيجة للصلات الطيبة التي كانت ماثلة في الأذهان ، بدليل قول رسول الله ﷺ : « اتركوا الأحباش ماتركوكم »[٢٣].

ولعل أول احتكاك عدائي بين الدولة الإسلامية والأحباش كان سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) ، إذ تطرقت الحبشة في رواية للطبري طرفا من أطراف الإسلام ، فبعث الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – علقمة بن مجزّز العلقمي إلى الحبشة في البحر[٢٤] . غير أن الحملة لم توفّق في مهمتها ، فآلى الخليفة عمر على نفسه ألا يحمل في البحر أحدا أبدا . كما روي ان الخليفة عمر – رضي الله عنه – قضى بألا تعتبر أرض الحبشة أرض جهاد . والواضح أن هذه السرية أرسلت لرد عادية بعض قرصان البحر من الأحباش الذين لم يلبثوا أن عاودوا الإغارة على ثغر جدة سنة ٨٣ هـ (٧٠٣م) في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ/ ٦٨٥ – ٧٠٥ م) ويعني هذا ، أن سواحل الجزيرة العربية والتجارة العربية الإسلامية ، باتت مهددة من هجمات القراصنة الأحباش . إذ لم يكتف الأحباش بالسطو على ميناء جدة ، بل استباحوا الميناء في ذلك العام ، مما أدخل الرعب والفزع في قلوب سكان مكة ، ومن ثم اضطر الخليفة الأموي إلى العمل على تأديبهم أولا ، ثم فتح مجموعة جزر دهلك ، تجاه ميناء مصوع ، واتخاذها قاعدة قريبة من الشاطئ الإفريقي[٢٥] .

ويبدو أن هذه الجزر ظلت خاضعة للدولة الإسلامية حتى أواخر القرن الثالث

الهجري/ التاسع الميلادي على الأقل ، حيث رابطت فيها حامية من أهل البلاد المسلمين ، وهكذا كانت جزر دهلك ، أول قاعدة أقامها المسلمون على الساحل الشرقي لإفريقية ، ويبدو أن تلك المحاولة كانت آخر تدخل رسمي في شرقي إفريقية ، من جانب الدولة الإسلامية[٢٦] . فقد أخذ الإسلام ودعوته ينتشران في هذا الإقليم على نحو سلمي وبخطى بطيئة في ركاب المهاجرين المسلمين ، من التجار والمغامرين عبر المسالك البرية والبحرية المعروفة .

اتصال العرب المسلمين بشرقي إفريقية عبر الطريق البري المار بسيناء وأوطان البجة :

سلكت الطريق البري المار بسيناء وأوطان البجة في الصحراء الشرقية الهجرات من مختلف السلالات إلى القارة الإفريقية منذ فجر التاريخ . ولم يتوقف ذلك الطريق عن أداء هذا الدور بعد ظهور الإسلام ، بل زادت أهميته وقيمته بالنسبة لحركة الإسلام المتقدمة من الجزيرة العربية عبر سيناء إلى مصر فبلاد النوبة ، وإلى إرتريا والحبشة بعد ذلك . وكما عبرت تلك الطريق الجماعات العربية – مثل بلي وغيرها – إلى أوطان البجة قبل الإسلام ، تتابع عليه أيضا الكثير من الجماعات العربية الإسلامية طوال عهود الإسلام . وهكذا كان لتلك الطريق دور خطير في تغذية أوطان البجاة بالدماء العربية والثقافة العربية الإسلامية .

لقد عرف العرب القبائل الحامية التي تسكن الصحراء الشرقية جنوبي مصر ، باسم البجة[٢٧] وتمتد الأوطان الحالية لقبائل البجة ، من محافظة أسوان في الشمال إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة في الجنوب ، ومن البحر الأحمر في الشرق إلى النيل الأعظم ونهر عطبرة في الغرب . وتمثل هذه الأراضي الوطن الأصلي لقبائل البجة من أقدم العصور . وحدد المؤلفون العرب أوطان البجة تحديدا واضحا فقرّر الإدريسي مثلا[٢٨] « وتجاور أرض الحبشة من جهة الشمال أرض البجة وهي بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد » .

ويكتنف الغموض تاريخ قبائل البجة في العهود الإسلامية إذ لم تهتم هذه القبائل البدوية بتدوين تاريخها ، كما لم يعرض المؤلفون العرب لذكره . ومعظم ما وصل إلينا من معلومات عن هذه القبائل ، لا يعدو نتفا قليلة وردت عرضا في كتب المؤلفين العرب ، بالقدر الذي يحتاجونه لبيان علاقة هذه القبائل بالدولة الإسلامية بعامة ، وبمصر بصفة خاصة .

فلم يرد نص عن هذه القبائل في عهد الصلح ، الذي عقده عبد الله بن سعد للنوبيين سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م) . وربما كان مرجع ذلك - على قول ابن عبد الحكم - « عدم اكتراث عبد الله بن سعد بهم »[٢٩] . أو ربما كان مرجعه ما قرّ في نفوس العرب في المرحلة الأولى للتوسع الإسلامي ، من أن ديار البجة ليست بدار حرب[٣٠] ، شأنها في ذلك شأن بلاد الحبشة المتاخمة لبلادهم من ناحية الجنوب ، لأن الحبشة آوت الطليعة الأولى من المسلمين الذين هاجروا إليها زمن الرسول ﷺ .وكيفما كان الأمر ، فإن البجة لم يلبثوا أن أغاروا على صعيد مصر حوالي سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠ م فصالحهم عبيد الله بن الحبحاب على أن يجتازوا ريف مصر للتجارة دون الإقامة فيه ، وألا يقتلوا مسلما أو ذميا ، وألا يؤووا عبيد المسلمين ، وأن يـردوا آبقيهم إذا وقعوا في أيديهم ، ويظل وكيلهم في ريف مصر رهينة في أيدي المسلمين ، لضمان وفائهم بالتزاماتهم للدولة الإسلامية[٣١] .

غير أنه لم يكد يمضي نحو قرن على هذه المعاهدة ، حتى عاد البجة إلى شن الإغارات من جديد في جهة أسوان ، وكثر إيذاؤهم للمسلمين . فرفع ولاة الأمور في أسوان ، خبرهم إلى الخليفة المأمون سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م ، فجرد عليهم حملة بقيادة عبد الله ابن الجهم ، جرت لها معهم وقائع ، وانتهت بموادعتهم وعقد صلح جديد مع ملكهم كنون بن عبد العزيز وكان من شروطه[٣٢] : أن تكون بلاد البجة ومن فيها من أسوان إلى تخوم باضع ومصوع ملكا لأمير المؤمنين ، وأن يكون كنون بن عبد العزيز نائبا عنه في حكم هذه البلاد ، وأن تقدم البجة مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار لبيت مال المسلمين ، وألا يعترض البجة المسلمين الذين يسافرون أو يستقرون في بلادهم بأي أذى ، وألا يهدموا المساجد التي بناها المسلمون في صيحة وهجر ، وأن يسمحوا لعمال بيت المال المسلمين بجمع صدقات من أسلم من البجة . وأكدت المعاهدات السماح لتجار البجة بدخول مصر .

وهكذا أضحت بلاد البجة من حد أسـوان إلى مصوع طبقا لشروط ذلك الصلح جزءا من الدولة الإسلامية ، بدليل فرض الخراج عليها . كذلك التـزام

البجة في عقد الصلح بعدم التعرض للمسلمين الذين يجتازون بلادهم للحج أو للتجارة أو الإقامة بأذى ، وبحفظ المساجد القائمة فعلا في بلاد البجة ، كما تعهدوا بجمع صدقات من أسلم من البجة[٣٣] . ويعني ذلك امتداد الإسلام إلى تلك الأقاليم وإقامة المسلمين بها فكيف شق الإسلام إذن طريقه إلى هذه الأوطان ؟

يبدو أن جماعات عربية ، ولا سيما من بلي وجهينة ، نزحت إلى أوطان البجة للتجارة ، عقب الفتح العربي الإسلامي لمصر . وليس من المستبعد أن ينشر أفرادها الإسلام في نطاق ضيق ، حتى وصل إلى جماعات قليلة من البجة ، في منتصف القرن الأول الهجري (٧ م) . ففي رواية لابن حوقل ، أن أفرادا من البجة ، « أسلموا إسلام تكليف ، وضبطوا بعض شرائط الإسلام ، وظاهروا بالشهادتين ، ودانوا ببعض الفرائض » وقد سامحهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، و لم يحاربهم بعد عودته من حملته على دنقلة سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م)[٣٤] .

الهجرات العربية إلى أوطان البجة :

وفي نهاية القرن الأول الهجري (٧ م) ، عبرت جماعات من عرب هوازن البحر الأحمر واستقرت في أرض البجة ، حيث عرفوا باسم الحالنقا ، ثم انتقل هؤلاء إلى منطقة تاكة . ويرى بول Paul أن الحالنقا، كانوا أول من استقر من العرب المسلمين في الوطن البجاوي[٣٥] .

وقد تأثرت هجرة الجماعات العربية المختلفة إلى أوطان البجة إلى حد كبير ، بأحوال العالم الإسلامي السياسية والاجتماعية والحربية . فقد أدى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ مثلا ، إلى هجرة جماعات من بني أمية ومواليهم إلى أوطان البجة . فيذكر المسعودي ، أنه بعد قتل مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية ، تفرقت بنو أمية في البلاد هربا من مذابح العباسيين ، وكان من بين الهاربيين أبناء عبد الله وعبيد الله ، وكانا وليي عهده . فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصهما من العرب ومن انحاز اليهم من أهل خراسان من شيعة بني أمية ، فساروا إلى أسوان ، ومنها ساروا على شاطئ النيل حتى بلاد النوبة ، ثم توسطوا أرض البجة ميممين باضع ،

إحدى مواني البجة على البحر الأحمر . وكانت لهم مع من مرّوا بهم من النوبيين والبجة وقائع وحروب ونالهم جهد شديد وضرّ عظيم . فهلك عبيد الله بن مروان في عدة ممن كان معهم قتلا وعطشا وضرا . وشاهد من بقى منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب . ووقع عبد الله في عدة ممن نجا معه إلى باضع من ساحل المعدن وأرض البجة » . وإذا كان قد أتيح لعبد الله التسلل إلى مكة بعد ذلك حيث قبض عليه ، فإنه من غير المستبعد أن يكون خلّف وراءه بعض الأمويين ومواليهم ومن تبعهم من العرب والموالي ببلاد النوبة – وأوطان البجاة وبلاد الحبشة[٣٧] . ويذكر بلوس Bloss ، أنه عثر على مقابر أولئك الأمويين على طول الطريق الذي سلكوه من بلاد النوبة حتى ميناء باضع . كما أثبتت الأبحاث الأركيولوجية ، وجود جاليات إسلامية في منطقة خور نبت الواقعة على بعد ٧٠ ميلا غربي سواكن ، إذ عثر على شواهد قبور عربية ، يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثاني الهجري ١٤٣ هـ (٧٦٠ م) . ويتفق ذلك التاريخ مع هجرة الأمويين إلى أوطان البجاة ، مما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذه القبور تنسب إلى أولئك الأمويين الهاربين إلى هذه الأوطان . كذلك دلّ البحث الأثري في منطقة سنكات ، على وجود مسجد في تلك المنطقة ، يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م)[٣٩] .

كذلك فإنه لا يستبعد أن تكون جماعات من قيس عيلان قد استقرت في العلاقي حيث توجد آثارها . فيقول ابن حوقل : « أن بعض الذين اشتركوا في حملة ابن الجهم على البجة آثروا البقاء في العلاقي ، ولم يعودوا صحبة الجيوش العربية إلى أسوان ، بعد أن عاينوا التبر وآثار العمل فيه للروم »[٤٠] . ووافقت حملة ابن الجهم على أوطان البجة واستقرار كثير ممن اشتركوا في هذه الأوطان ، هجوما قامت به جماعات عربية « بقيادة محمد بن يوسف الجسني على اليمامة ، وانقشاع أهلها من جوره وعسفه إلى مصر » . ثم « تكامل بالعلاقي قبائل ربيعة ومضر ، وهم جميع أهل اليمامة في سنة ثمان وثلاثين ومائتين »[٤١] . ويبدو أن الدافع لهؤلاء على الهجرة إلى وادي العلاقي كان ما ترامى إليه من أنباء الثروة المعدنية الكامنة في أرض ذلك الوادي ، ولا سيما بعد أن بات العرب متمتعين بحماية الدولة الإسلامية لهم في أوطان البجة .

وأثرت تلك الجماعات العربية المختلفة فيمن اختلطت بهم من البجة ، ومنهم من تعلم اللغة التبداوية للتعامل مع البجة . والتفاعل معهم ويذكر أن زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة ، وعبد الله بن إسماعيل القرشي ، قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبداوية[٤٢] .

وقد أتاحت الحملات الحربية التي وجهها ولاة مصر ضد قبائل البجة لبعض الجماعات العربية المشتركة فيها ، التعرف على خصائص البيئة البجاوية ، فاستقرت فيها واختلطت بسكانها ، وقد أعان على ذلك ما انتهى إليه وضع تلك الأقاليم من الناحية الرسمية تحت النفوذ الإسلامي على أن الروايات العربية تذكر أن البجة عادوا الى الفتنة[٤٣] . إذ يروي البلاذري خبر إغارتهم على صعيد مصر ، وامتناعهم عن دفع الخراج وقتلهم كثيرا من المسلمين بمناجم الذهب بالعلاقي[٤٤] . فكتب عامل البريد في مصر إلى الخليفة المتوكل العباسي ٢٣٢ – ٢٤٧ هـ /(٨٤٦ – ٨٦١ م) بخبرهم فأنفذ الخليفة في سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) ، رجلا من ولد أبي موسى الأشعري يعرف بمحمد القمي وكان القمي هذا في الحبس مطالبا بدم لاولي له ، وكتب الخليفة إلى واليه على مصر عنبسة بن إسحاق الضبي ، بأن يمده بالرجال والعتاد[٤٥] .فسأل القمي أن يختار من الرجال من أحب ، ولم يرغب هذا في الكثرة لصعوبة المسالك فجهزه بما طلب من الرجال والسلاح[٤٦] . وخرج القمي من مصر في عدة قوية ورجال منتخبة من عشرين ألفا من الجند والمتطوعة[٤٧] . وسار إلى أسوان وأتى العلاقي ، فأخذ من ربيعة ومضر واليمن ثلاثة آلاف رجل ، من كل بطن ألف رجل[٤٨] . ولما حلت بالبجة الهزيمة ، طلب ملكهم علي بابا الصلح ، على أن يدفع الخراج لما سلف ولما يأتي ، وألا يمنعوا المسلمين من العمل في المعدن[٤٩] ، فصالحهم القمي ، على أن يطأ علي بابا بساط الخليفة بسر من رأى[٥٠] . ثم عاد القمي إلى أسوان بصحبة ملك البجة وعدد كبير من السبي والغنائم[٥١] . وقد باع القمي السبي والغنائم بما قيمته خمسين ألف أوقية ذهبا[٥٢] ، وترك في خزائن أسوان ما كان معه من السلاح ، ليستعين بها غيره من الولاة على هذا الإقليم في ضبط أطرافه[٥٣] .

وفي سامرا ، أعلن علي بابا الولاء والطاعة للخليفة المتوكل ، ثم عاد إلى أسوان ، بعد تأكيد ما سبق الاتفاق عليه بينه وبين القمي من شروط ، كان من بينها - فضلاً عمّا سبقت الإشارة إليه - تعيين وال عربي من قبل الخليفة العباسي على أوطار البجة . وكان أول وال هو القمي نفسه واختار القمي نائبا عنه في حكم بلاد البجة ، رجلا من بني حنيفة يعرف بأشهب ربيعة من بني عبيد بن ثعلبة(٥٤) .

ارتبط انتشار الإسلام بين قبائل البجة منذئذ ارتباطا وثيقا بازدياد تيار الهجرات العربية إلى أوطانهم ، ولا سيما منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) واختلاط العرب بالبجة عن طريق المصاهرة . وأدى وجود معدني الذهب والزمرد في أوطان البجة ، ولا سيما في وادي العلاقي ، إلى اجتذاب كثير من القبائل العربية المختلفة إلى هذه الأوطان ، للعمل فيها واستغلال مناجمها ، ذلك أن هذه المناجم اجتذبت إليها جماعات عربية ، قامت باستخراج معادنها والاتجار فيها . واحتكر العرب ذلك إذ لم يهتم البجة كثيرا - فيما يبدو - باستغلال تلك المناجم(٥٥) ويظهر أن البجة ، اطمأنوا إلى العرب الذين عاشوا إلى جوارهم ، واختلطوا بهم ، فقل اعتداؤهم على المسلمين ، مما أدى إلى هجرة جماعات كثيرة منهم إلى تلك الأراضي ، بعد كشف الكثير من مناجمها(٥٦) . وأورد اليعقوبي (ت ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م) أسماء كثير من الجماعات العربية التي وفدت إليها لهذا الغرض ، ومنها قوله : « ويزخر بقوم من بلي وجهينة وغيرهم من أخلاط الناس ، الذين يقصدون للتجارات »ووادي العلاقي كالمدينة العظيمة ، به خلق من الناس ، وأخلاط من العرب والعجم وأصحاب المطالب ، وبها أسواق وتجارات . « وأكثر من بالعلاقي قوم من ربيعة من بني حنيفة من أهل اليمامة ، انتقلوا اليها بالعيالات والذرية » ووادي العلاقي وما حواليه معادن للتبر ، وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس .. « ... وبه قوم من أهل اليمامة من ربيعة .. » ، « وميزاب تنزله بلي وجهينة »(٥٧) .

وأتاحت الحملات الحربية التي وجهها ولاة مصر إلى أوطان البجة الفرصة لكثير من الجماعات العربية المشتركة فيها كي تخلف بهذه الأوطان وتستقر فيها ، للمشاركة في خيراتها ، بعد أن راجت سوقها .

كذلك أدى إلى ازدياد هجرات القبائل العربية إلى أوطان البجة وغيرها من أقاليم السودان ، ازدياد نفوذ الأتراك في الدولة الإسلامية على حساب العرب ، منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢ م) فقد استكثر من الجند الأتراك وأثبتهم في الديوان ، ثم أمر بإسقاط من في ديوان مصر من العرب[٥٨] .

كان لهذا الضغط السياسي والاقتصادي ، أسوأ الأثر في نفوس العرب ، فبدأت جماعات كثيرة منهم تسعى للرحيل والهجرة ، ولم يكن أمامهم سوى الانسياب جنوبا وغربا بعيدا عن ضغط الأتراك في مصر .

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل انتشار الثقافة الإسلامية إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية ، كان روادها من الساخطين على الحكم التركي في مصر .

استقر كثير من عرب ربيعة وجهينة وغيرهم في أرض المعادن ، غير أن الشقاق لم يلبث أن دب في صفوفهم ، وبدأ صراع عنيف بينها جميعا بعد موت القمي على امتلاك المعادن بالعلاقي . وقد أشار اليعقوبي المؤرخ المعاصر لمعظم هذه الأحداث الذي أنهى مؤلفه في التاريخ العام بأحداث سنة ٢٥٨ هـ/ ٨٧٢ م ، إلى وجود الجاليات العربية المسلمة بالعلاقي وأوطان البجة[٥٩] ، وإن لم يشر إلى أثر هذه الجاليات العربية الإسلامية في نشر الثقافة الإسلامية في قبائل البجة ، وعددها خمس وهي : - الأولى مملكة نقيس : وتمتد من حد أسوان شمالا إلى حد بركات (خور بكة) جنوبا ، والعاصمة هجر . وينقسم سكان هذه المملكة البجاوية إلى قبائل وبطون منها : الحدرات (الحدارب) ، حبحاب (كذا) ، وعجات ، والعماعر (الأمرأر) ، كوبر (كادين) ، ومناسة ، ورسفة ، وعربريعة ، والزنافج . وهؤلاء جميعا علاقتهم حسنة بالمسلمين الذين يعملون في مناجم الذهب والزمرد في بلادهم .

- المملكة الثانية : مملكة بقلين[٦٠] .

- المملكة الثالثة : مملكة بازين[٦١] .

- المملكة الرابعة : مملكة جارين[٦٢] .

- المملكة الخامسة : مملكة قطعة[٦٣] .

وأشار ابن حوقل[٦٤] الذي وضع كتابه المشهور : « صورة الأرض » بين سنتي (٣٦٦ - ٣٦٧ هـ/ ٩٧٦ - ٩٧٧ م) ، إلى أن البجة ينقسمون إلى قبائل وبطون كثيرة ، منها : بطون كديم المعروفة بعجات ، وهؤلاء يسكنون وادي بركة ، يليهم شرقا إلى ساحل البحر الأحمر ، قبائل الجاسة (الخاسة) . وبين وادي بركة ، ووادي دكن (القاش) ، قبائل بازين وبارية ، وتعيش بالقرب من سواكن ، بطون تعرف برقابات وحنديبا ، وهم خفراء على الحدربية (الحداربة) . وتتصل بلادهم ببلاد النوبة والحبشة ، وهم مفترقون مجتمعون إلى أن يحاذوا عدن .. ويتكلم الحداربة لغة البجة ، ولبعضهم لغة خاصة ينفردون بها « . أما دينهم فقد ذكر ابن حوقل أنهم مسلمون بالاسم » .

وفي وسط وادي دجن (الجاش) ، كان يقع إقليم بقلين الذي ينتجعه البجة للرعي في فصل المطر ، وعليهم ملك مسلم يتكلم العربية ، وهو تابع لملك علوة . وفي إقليم بقلين مسلمون كثيرون يشتغلون بالتجارة ، ويسافرون إلى مكة وغيرها .

وأضاف ابن سليم الأسواني[٦٥] ، إلى ماذكره ابن حوقل عن البجة : أن منهم من يتمسك بعاداتهم الوثنية رغم إسلامهم[٦٦] .

وذكر المسعودي : « فأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر . وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة ، فيغزون ويسبون . وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة ، إلى أن قوي الإسلام وظهر . وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي والعيذاب . وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة ابن نزارين معد بن عدنان ، فاشتدت شوكتهم . وتزوجوا من البجة فقويت البجة ثم صاهرها قوم من ربيعة ، فقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم ، ممن سكن تلك الديار . وصاحب المعدن في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (٩٤٤ م) ، بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة ، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مصر واليمن ، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة في الجحف البجاوية ، وهم المسلمون من بين سائر البجة . والداخلة من البجة كفار يعبدون صنما لهم »[٦٧] .

ولا نعرف شيئا عن بني ربيعة في العلاقي (بنو بشر) ، منذ انتقال مقر إمارة ربيعة إلى أسوان ، في حوالي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) . والواضح ، أن هؤلاء كانوا قد اختلطوا أيضا بالبجة ، وأنهم أخذوا عنهم اللغة التبداوية ، بعد أن طعموها بكثير من الألفاظ العربية ، وأنهم أعطوهم الدين الإسلامي .

دور الموانى على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر :

كان للمواني على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر ، أثرها في اجتذاب الذين نشطوا من العرب للعمل في التجارة وقد امتدت صلات عرب جنوبي الجزيرة العربية بالجانب الإفريقي المواجه لأوطانهم إلى ما قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة . ودفعت هؤلاء حاجتهم للحصول على المنتجات الإفريقية التقليدية إلى الانتقال إلى الساحل الإفريقي للبحر الأحمر ، والاشتغال بالوساطة التجارية ، وهو نشاط لم يكن يهتم به كثيرا أو قليلا سكان البلاد الأصليون من البجة ، ومن ثم تولى هذا العمل غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية . ولما ظهر الإسلام وقامت دولته ، ازداد نشاط العرب المسلمين في البحر الأحمر ، وازدادت بالتالي هجراتهم إلى الساحل الإفريقي لهذا البحر ، لإحساسهم بقوة الدولة الإسلامية وحمايتها لهم ، وإن قامت سياسة الدولة الإسلامية أوّل الأمر على اعتبار أوطان البجة دار سلام لا دار حرب[٦٨] . ولم تشأ الدولة الإسلامية أن تشرف من جانبها على هذا النشاط التجاري أو تتدخل لتنظيمه في البداية لكنها لم تلبث أن تدخلت لحماية العرب المسلمين وغيرها بأوطان البجة ، بعد أن خضعت تلك الأراضي – فيما بين أسوان شمالا ودهلك وباضع جنوبا للدولة الإسلامية منذ زمن الخليفة المأمون العباسي ، كما سبقت الإشارة .

ولعل باضع ، أقدم مركز مارس العرب فيه نشاطهم التجاري . ونشأة هـذا الميناء غير معروفة تماما . وقد وردت أول إشارة إليها في المصادر العربية في صدد الحديث عن التجاء فلول الأمويين اليها حوالي منتصف القرن الثاني الهجري (٨ م) . والراجح ، أن باضع أنشئت بأيد عربية ، وأنها كانت بمثابة نقطة ارتكاز مكنت الجماعات العربية الإسلامية من تثبيت أقدامها في الوطن البجاوي الجديد . ولما تخربت ميناء

باضع في القرن الخامس الهجري (١١ م) على الأرجح ، انتقل سكانها العرب المسلمون إلى مواقع أخرى على ساحل البحر الأحمر ، واتخذوها مراكز جديدة لنشاطهم التجاري في هذا البحر وما يليه غربا في وادي النيل . ومن هذه المراكز التجارية الجديدة : ميناء سواكن ، وميناء عيذاب[٦٩] .

وكانت عيذاب تقع في منطقة حلايب الحالية ، ويرتبط قيامها وشهرتها إلى حد كبير ، بنشاط الجماعات العربية الإسلامية التي انتقلت إليها من مصر . ونجد الإشارة الأولى لها في المراجع العربية في كتاب فتوح البلدان للبلاذري (ت : ٢٧٩ هـ ، ٨٩٢ م) ، وذلك عند حديثه عن الحملة التي قادها محمد بن عبد الله القمّي سنة (٢٤١ هـ/ ٨٥٤ م) ضد قبائل البجة . وقد ذكر البلاذري ، أن القمي استعان بالميرة التي حملتها المراكب من القلزم إلى عيذاب في التغلب على ملك البجة : (علي بابا)[٧٠] . و لم تلبث عيذاب أن أصبحت مركزا هاما لخدمة احتياجات القبائل العربية التي انثالت على وادي العلاقي في قلب صحراء العتباي ، للعمل في مناجم الذهب التي تحويها تربة هذا الوادي . ثم أضحت عيذاب منفذا رئيسا لتجميع معدن الذهب المستخرج من وادي العلاقي وتسويقه . وبذا صارت عيذاب بحق - كما وصفها ابن حوقل « ميناء للذهب » . وظلت عيذاب هكذا طوال القرنين الثالث والرابع وأوائل القرن الخامس للهجرة . ولما نضب معين مناجم الذهب في العلاقي وانصرف العرب عن استخراجه والاتجار فيه ، لم تفقد عيذاب أهميتها ، بل تألق نجمها وذاعت شهرتها منذ القرن السادس الهجري ، نتيجة لتحول قوافل الحجاج من مصر وبلاد المغرب عن طريق سيناء إلى طريق الصعيد الأعلى (قوص) فعيذاب ، بسبب الحملات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين ، وقيام الإمارات الصليبية بها . وبلغت عيذاب ذروة مجدها وشهرتها ، حينما وصلتها سفن اليمن حاملة الأخشاب والتوابل . وغدت عيذاب ميناء مصر الرئيسي على البحر الأحمر ، منذ أواخر الدولة الفاطمية (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ/ ٩٠٩ - ١١٧١ م) ، إلى أوائل دولة المماليك الثانية[٧١] . (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ/ ١٣٨٢ - ١٥١٧ م) .

لفتت شهرة عيذاب أنظار الصليبيين ، فحاولوا توجيه الضربات إليها ، لقطع الطريق

على الحجاج المسلمين والقضاء على مركزها التجاري . وعلى الرغم من فشل الحملة الصليبية بقيادة أرناط أمير حصن الكرك ضد الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ، فإن سفن هذه الحملة قد تمكنت من تحطيم ست عشرة سفينة للمسلمين في عيذاب[٧٢] .

لكن هذا الهجوم الصليبي ، لفت الأنظار مرة أخرى إلى أهمية عيذاب ، فازداد اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك بها كلما ازدادت التجارة المصرية في البحر الأحمر . كذلك أصبحت صحراء عيذاب « عامرة بمايصدر أو يرد من قوافل الحجاج والتجار »[٧٣] . وقد أشار الرحالة المشهور ابن جبير (ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م) إلى ازدياد نشاط التجارة وقوافل الحجاج التي تزخر بها عيذاب والطرق الموصلة إليها ، فقال « ورمنا في هذا الطريق (طريق قوص – عيذاب) إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة بسلع الهند ، الواصلة إلى اليمن ، ثم من اليمن إلى عيذاب . وأكثر ما شاهدناه من ذلك ، أحمال الفلفل . فلقد خيل إلينا لكثرته ، أنه يوازي التراب قيمة ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء ، أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذه السبيل ، إمّا لإعياء الإبل الحاملة لها ، أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس »[٧٤] .

وكانت قد اضطلعت سلطة ثنائية بحكم عيذاب ، تتمثل في وال من قبل سلطان مصر ، ووال من قبل ملك البجة . وجرى اتفاق الطرفين على أن يقسم ما يجبى من ضرائب ومكوس على التجارة نصفين . وذكر ابن الوردي أنه كان على « عامل مصر القيام بطلب الأرزاق وعلى عامل البجة حمايتها من الحبشة »[٧٥] واعتاد ملك البجة الحضور إلى عيذاب من حين إلى آخر لمقابلة الوالي المصري إظهارا لطاعته لسلطان مصر ، فضلا عن مقابلته لنائبه في عيذاب . وكانت القوافل بين عيذاب والنيل ، تسلك إحدى طرق ثلاث إلى أسوان أو قوص . وكان القائمون على أعمال النقل في طريق عيذاب ، وأصحاب القوافل بها من عرب بلي ، كما كانوا هم الضامنين لها[٧٦] . وعلى الرغم من عودة قوافل

الحجاج إلى طريق سيناء وتوقفها عن المرور بعيذاب فإن عيذاب ظلّت تقوم بدورها في خدمة التجارة بين الشرق والغرب حتى خربها السلطان برسباي سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م)[٧٧] .

أما سواكن ، فإنها من أقدم موانى الساحل الإفريقي للبحر الأحمر . غير أن المصادر العربية لم تشر إليها إلا في منتصف القرن الثاني الهجري (٨ م) ، حين مرّ بها فلول الأمويين الهاربين من مذابح العباسيين وذكر المقريزي أنه كان هناك طريق ربطت بين سواكن وباضع وجزر دهلك من ناحية ، وبين النيل من ناحية أخرى ، ولعله الطريق الحالي المعروف باسم طريق سواكن – بربر[٧٨] . وسكان سواكن من الخاسة ، وكانوا هم الطبقة الدنيا في المجتمع البجاوي الإقطاعي ، الذي فرضه الحداربة على سكان هذا الإقليم . وذكر الدمشقي ، أن الخاسة هؤلاء ، منهم طائفة تدعى الخاسة السفلى كفار . ، بينما كان الخاسة العليا مسلمين[٧٩] .

وقد عنيت مصر بتجارة البحر الأحمر وساحله الإفريقي ، وتشهد بذلك علاقات الدولة المملوكية بميناء سواكن المطل على ممالك النوبة النصرانية . ففي سنة (٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤ م) ، احتج السلطان بيبرس إلى كل من صاحب سواكن وصاحب جزر دهلك لتعرضهما لأموال المتوفين من التجار المصريين . والراجح أن متملك سواكن ، لم يستجب للاحتجاج المملوكي ، ولم يكد يمضي عام وبعض عام ، حتى أرسل والي قوص بأمر السلطان بيبرس (٦٦٠ –٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠ –١٢٧٧ م) حملة حربية لتأديب صاحب سواكن سنة (٦٦٤ هـ/ ١٢٦٦ م) . وكان من نتائج هذه الحملة ، انهيار نفوذ صاحب سواكن وفراره واستقرار حامية مملوكية بسواكن نفسها ، فضلا عن فرض أموال الزكاة على سكانها لحساب الدولة المملوكية[٨٠] ، وقد أشرف على جبايتها ، والي عيذاب وقاضيها .

تأثير الإسلام والعرب في البجة :

ظل معظم قبائل البجة محتفظا بطابعه القديم في العهد الإسلامي ، وكان هؤلاء يعيشون في الجبال الوعرة والجهات النائية ، التي لم يكن النفوذ الإسلامي فيها قويا ومن ثم لم يتيسر لهم فيها الاختلاط بالعرب اختلاطا واسعا . ومع هذا ، فإن رؤساء هذه

القبائل ، وكثيرا من عامتهم كذلك ، قد اتصلوا بالعرب المسلمين ، وشاركوهم في النشاط التجاري ، ولا سيما في المواني والأقاليم المتصلة بها ، مثل مناجم الذهب والزمرد في العتباي وغيرها .

وكان للهجرات العربية التي انثالت على أوطان البجة بعد الفتح الإسلامي لمصر ، تأثيرها فى بعض قبائل البجة ، وهي تلك القبائل التي اتصلت بالعرب المسلمين وصاهرتهم . وقد تسنى لأولئك العرب المسلمين أن ينشروا الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بين أفراد قبائل البجة بنسب مختلفة يتفاوت مدى عمقها من إقليم إلى آخر ،حسبما تمليه ظروف هذا الاختلاط .

وقد وصف ابن جبير في القرن ٦ هـ/ ١٢ م بعض أولئك البجة الذين لم يتأثروا بالإسلام والعرب المسلمين إلّا تأثرا سطحيا باهتا فقال : « وهذه الفرقة من السودان المذكورين (البجة) ، فرقة أضل من الأنعام سبيلا – وأقل عقولا ، لادين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها ، إظهارا للإسلام . ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضي ولا يحل . ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة ، إلا خرقا يسترون بها عوراتهم ، وأكثرهم لا يستترون[٨١] .

لكن أحوال جميع قبائل البجة تغيرت تماما في القرنين الثامن والتاسع للهجرة (١٤ – ١٥ م) ، فاعتنق جميعهم الإسلام ، وتأثروا بوجه عام بالثقافة العربية الإسلامية ، وإن بقيت فيهم بعض العادات والتقاليد القديمة التي لم يتخلوا عنها حتى الوقت الحاضر ، وهي ظاهرة يشاركهم فيها كثير من الشعوب التي تدين بالإسلام أو النصرانية في أقطار أخرى[٨٢] .

ويرجع انتشار الإسلام والثقافة العربية بين قبائل البجة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة إلى انثيال الهجرات العربية على نطاق واسع إلى السودان عبر أوطان البجة منذ القرن السابع الهجري (١٣ م) ، بسبب الأحداث التي طرأت على العالم الإسلامي في ذلك القرن وما بعده . فقد أثار سقوط بغداد في أيدي المغول ، وقتل الخليفة العباسي المستعصم وكثير من آل بيته سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م موجة من الرعب والفزع ، دفعت بكثير من القبائل العربية للهجرة إلى أوطان البجة وغيرها من الأقطار .

ومن جانب آخر جاء قيام السلطنة المملوكية في مصر في منتصف القرن السابع

الهجري (١٣ م) ، وسقوط مملكة مقرة النصرانية في النوبة في أيدي العرب المسلمين في أوائل القرن الثامن الهجري (١٤ م) ، عاملا مشجعا لجموع العرب المهاجرين من مصر كي يتجهوا إلى أوطان البجة وغيرها . وكان مما دفع العرب إلى الهجرة جنوبا إلى تلك الجهات رغبتهم في الحياة الطلقة التي تعودوها في بيئتهم الأصلية ، والمراعي الواسعة التي تلائم حياة الإبل والأغنام والتي عهدوها في الجزيرة العربية ، ولا يتوافر وجودها في مصر ، في حين وجدوا ما يشابهها في بعض أوطان البجة ، هذا فضلا عن رغبة أولئك العرب في الحصول على الرقيق[٨٣] . ولم تعترض السلطنة المملوكية سعي أولئك العرب الراغبين في الرحيل من مصر ، ولكن يبدو أنها عانت منهم أحيانا بعد ذلك . فقد أشار النويري (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) في كتابه « نهاية الأرب » ، إلى حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٢ – ٦٩٣ ، ٧٠٨ – ، ٧١٠ –٧٤١ هـ/ ١٢٩٣ – ١٢٩٤ ، ١٢٩٨ –١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣٤٠م) سنة ٧١٦ هـ (١٣١٦ م) ضد العرب الساكنين حول عيذاب ، لاعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلى السلطان المملوكي . وأوغلت هذه الحملة جنوبا حتى سواكن ، واتجهت غربا إلى التاكة ، وإلى جهة الأبواب ، ثم عادت إلى مصر عن طريق دنقلة[٨٤] .

وقد أدى سقوط مملكة مقرة النصرانية أوائل القرن الثامن الهجري (١٤ م) إلى ازدياد موجات الهجرات العربية بشكل واضح ، ولا سيما بعد أن بات السابقون من العرب في شغل بمنازعتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد . وربما كان أشد هذه الهجرات العربية عنفا ، هجرة جهينة التي أشار إليها ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) فذكر : « وانتشروا (أي جهينة) مابين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا هناك سائر الأمم ، وحاربوا الحبشة ، فأرهقوهم إلى هذا العهد »[٨٥] . لكن الطابع العام لهجرات العرب المسلمين كان سلميا . فقد نجحوا في الاستقرار في تلك الجهات التي هاجروا إليها بالاختلاط بالبجة وغيرهم ، لا بحدّ السيف .

وقد كان يثور النزاع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر فتضطرب أحوال أوطان البجة حتى حدود الحبشة ، وتشير بعض الروايات التاريخية ، إلى وجود مثل هذا النزاع بين قبيلتي جهينة ورفاعة أواخر القرن (٧ هـ) الثالث عشر الميلادي قرب عيذاب[٨٦] .

واشتملت الجماعات العربية التي هاجرت إلى السودان عبر أوطان البجة ، على

قبائل عدنانية وقحطانية . فمن العدنانيين الكواهلة وبعض القبائل الصغيرة الأخرى مثل الرشايدة ومن القحطانيين : قبيلة جهينة وبطونها المختلفة ووردت أول إشارة إلى بني كاهل في رحلة ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن في منتصف القرن الثامن الهجري (٧٥٤ هـ/ ١٣٥٣ م) ، إذ ذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن – وهم مختلطون بالبجة ، عارفون بلسانهم . وليس من المعروف تماما ، متى استقر أبناء كاهل بين البجة . والراجح ، أن هجرتهم إلى هذه الأقاليم كانت سابقة على التاريخ المذكور .

أما جهينة ، فإن جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية التي عاشت حول ينبع من حوالي ١٣٠٠ سنة . ومن هذا المركز ، توالت هجراتها إلى مصر ثم توالت هجرتها إلى السودان عن طريق بلاد النوبة وأوطان البجة ، منذ منتصف القرن الثالث الهجري (٩ م) . وانتشرت جماعات جهينة في أوطان البجة ، حتى وصلت إلى سواكن في أواخر القرن السابع الهجري (١٣ م) ، بدليل ما أشار إليه المقريزي من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) قرب سواكن(٨٨) . ثم انتشرت جهينة جنوبا إلى بلاد الحبشة ، ولا بد أنها كانت من القوة ، حتى قال عنها ابن خلدون : « إنها حاربت الحبشة وأرهقتها حتى هذا الحين » أي أواخر القرن التاسع الهجري (١٥ م) .

ويبدو أن كثيرا من القبائل العربية من غير جهينة ، شاركت في مواطنها الجديدة بأوطان البجة ، فنشأت في هذه الأوطان عدة إمارات عربية مستقلة . وذكر القلقشندي أن بين الإمارات التي نشأت في أوطان البجة حتى الحدود الحبشية وبلاد النوبة ثماني إمارات ، كان لأمرائها مع السلطنة المملوكية في مصر ،مراسلات في القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) ، وهؤلاء الأمراء هم سمرة بن كامل العامري ، وعباد بن قاسم ، وكمال بن سوار ، وجنيد شيخ الجوابرة من البهكارية بأبواب النوبة أيضا ، وعلى شيخ دغيم ، وزامل الثاني ، وأبو مهنا العميراني(٨٩) . وإذا كان من غير الميسور الآن تحقيق مواطن هذه الإمارات العربية والتعرف على أصولها ، فمن الجليّ أن بعضها يقع في بلاد النوبة ، والبعض الآخر في أوطان البجة حتى حدود الحبشة وربما كان الأمير سمرة بن كامل العامري ، هو سمرة بن ملك شيخ الحدارية ، أو من سلالته الذي أشار العمري (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م) في كتابه « التعريف

بالمصطلح الشريف » إلى علاقته بالسلطنة المملوكية[٩٠] .

ومن الجماعات العربية التي هاجرت إلى أوطان البجة واختلطت بهم عن طريق المصاهرة الأشراف ، وهؤلاء ظهروا لأول مرة في سواكن حوالي سنة ٧٥١ هـ/ ١٣٥٠ م[٩١] ، ويبدو أن أولئك الأشراف خضعوا للسلطنة المملوكية . فيقول العمري : « أما سواكن ، ففيها الشريف زيد بن أبي نمي الإدريسي الحسني (وهو) في طاعة صاحب مصر »[٩٢] .

وإذا كانت الجماعات العربية التي هاجرت إلى أوطان البجة بعد الفتح العربي الإسلامي لمصر ، قد استطاعت تعريب بعض قبائل البجة تعريبا جزئيا واعتناق بعضها الإسلام اعتناقا ضعيفا ، فإن الهجرات العربية الإسلامية المتأخرة نسبيا (أي منذ القرن السابع الهجري (١٣ م) قد حققت نجاحا أكبر في نشر الإسلام والثقافة العربية بين عامة البجة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة (١٤ – ١٥ م) ، بحيث اعتنقت جميع قبائل البجة الإسلام وعرف الكثير منهم اللغة العربية ، مع تمسكهم بلغتهم التبداوية ، وهي اللغة التي تسرب إليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما تأثرت ببعض الصيغ النحوية في اللغة العربية[٩٣] .

وقد كان لتلك المرحلة من مراحل الهجرات العربية إلى السودان عبر أوطان البجة ، أثر سلالي واضح في تكوين المجموعات البجاوية كما نعرفها اليوم ، وهي : البشاريون والأمرار ، والهدندوة وبني عامر . وينتسب البشاريون والأمرار وبني عامر إلى بني كاهل . وهكذا طغى الإسلام والنسب العربي الجديد على النسب الحامي القديم . وإذا كان ثمة شك في صحة هذه النسبة العربية ، فإن ما لا يعتوره أي شك هو سريان قدر من الدماء العربية – شمالية وجنوبية على السواء – في عروق الجماعات البجاوية ، طوال العهود الإسلامية[٩٤] .

وتكاد تجمع روايات البشاريين وقصصهم ، على أن أجدادهم كانوا يعيشون في جبل علبة بالقرب من عيذاب ، وأنهم ينتسبون إلى كاهل . وليس بمستبعد أن يكون لهذه الدعوى في الانتساب إلى كاهل أساس تاريخي ، فابن بطوطة أشار إلى اختلاط بني كاهل بالبجة ، من عيذاب إلى سواكن . ومن اليسير أن نتصور ، أن بعض الأمراء من بني

كاهل أصهر إلى البجة ، ثم ورّثهم الإمارة والرئاسة . وربما كان أولئك البجة ممن اختلطوا ببني بشر بن مروان من ربيعة في القرن الرابع الهجري (١٠ م) ، ولعل هؤلاء كانوا من سكان مملكة نقيس ، إحدى الممالك البجاوية ، التي أشار اليها اليعقوبي .

وحول منتصف القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) ، استطاع البشاريون في إقليم جبل علبة على البحر الأحمر أن يمدوا نفوذهم على إقليم العتباي . وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، انتهز زعيم البشاريين فرصة النزاع بين بعض قبائل البجة وبين عرب البطاحين ، وغزا الأراضي الواقعة غربي نهر عطبرة وضمها إلى أملاك البشاريين(٩٥) .

واقترن ظهور البشاريين وتوسعهم باختفاء جماعة أخرى من البجة وهم المعروفون بالحداربة . وهؤلاء هم بقية الحدارب الذين تحدث عنهم المؤلفون العرب في العصور الإسلامية الأولى . والراجح ، أن أولئك الحداربة من أصل عربي ، قدموا من حضرموت إلى السودان عبر البحر الأحمر قبل الإسلام ، واختلطوا بقبائل البجة الشماليين ، فورّثوهم الملك والزعامة وقد ساعد اختلاطهم بعرب ربيعة في العلاقي ، منذ القرن الرابع الهجري (١٠ م) ، على استمرار انتقال الدماء العربية إليهم . وحتى القرن الثامن الهجري (١٤ م) ، كان أولئك الحداربة يعتبرون في سجلات الدولة المملوكية عربا ، وكانوا وقتذاك أكبر قوة حربية في الأقاليم التي يحتلها البشاريون اليوم . فقد ذكر العمري عن الحداربة « .. وشيخ الحداربة بن مالك ، وهو ذو عدد جم وشوك مكينة ، يغزو الحبشة وأمم السودان ، ويأتي بالنهاب والسبايا ، وله أثر محمود وفعل مأثور . ووفد على السلطان وأكرم مثواه وعقد له لواء ، وشرف بالتشريف وقلد . وكتب السلطان إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم وسائر العربان ، بمساعدته ومعاضدته ، والركوب للغزو معه متى أراد . وكتب له منشورا بما يفتح من البلاد ، وتقليدا بإمرة العربان القبلية مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته . وتركز رايته . أما رسم المكاتبة إليه ، فيشبه رسم المكاتبة إلى بقية أمراء العربان في مصر وغيرها(٩٦) .

ولقد أدى نضوب مناجم الذهب والزمرد بالعلاقي، وتخريب ميناء عيذاب حول منتصف القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر الميلادي، إلى ضعف شوكة أولئك الحداربة واضمحلال

نفوذهم[٩٧] ، فهاجر كثير منهم جنوبا إلى إقليم سواكن .

ومن القبائل البجاوية الصميمة التي تحمست للانتساب إلى العرب – ولا سيما إلى بني كاهل – قبيلة الأمرار ، وذلك على الرغم من أنهم يمثلون عنصرا حاميا أصيلا . ولعلهم العماعر ، الذين أشار إليهم اليعقوبي في القرن التاسع الميلادي . ويزعم الأمرار أنهم ينحدرون من « أمر » أحد أبناء وأحفاد كاهل .

وعلى الرغم من أن الهدندوة من صميم البجة ، فإنهم جاروا جيرانهم من العناصر البجاوية الأخرى ، مثل الأمرار والبشاريين ، في الانتماء إلى أصول عربية . ولا بد أن لهذه النسبة العربية أساسا تاريخيا ، فالمعروف أن الإقليم الذي نشأت فيه هذه القبيلة ، كان يقع بالقرب من سواكن ، وظل هذا الإقليم مركزا من مراكز النشاط التجاري الذي حمل لواءه العرب منذ القرن الثاني الهجري على الأقل . غير أن أثر الجماعات العربية التي هاجرت إلى هذا الإقليم – قبل القرن الثالث عشر الميلادي/ ٧ هـ فيمن اختلطت بهم من البجة كان ضئيلا ، بالقياس إلى أثر الجماعات العربية التي وفدت إلى هذا الإقليم منذ ذلك القرن فصاعدا . ويبدو أثر تلك الهجرات العربية المتأخرة في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في هذا الإقليم مما يرويه الهدندوة أنفسهم من الانتهاء بنسبهم إلى جماعة الأشراف العربية ، التي ذكر العمري أنها كانت تقطن جزيرة سواكن[٩٨] .

وشهد القرن العاشر الهجري (١٦م) ، صراعا عنيفا بين قبائل البجة نفسها من ناحية ، أو بينها وبين مملكة الفونج لوقف امتداد نفوذهم إلى أوطانهم من ناحية أخرى . ففي أوائل القرن الحادي عشر الهجري (١٧ م) ، استطاعت جماعة الهدندوة أن تطرد بقايا البلوما هو يعرف في الوقت الحاضر باسم إقليم (أركويت وسنكات)[٩٩] ، وأن تدفعهم نحو الجنوب . واستطاعت شعبة أخرى أن تزيح البشاريين نحو الغرب .

وتقع ديار بني عامر في أقصى الجنوب الشرقي من أوطان البجة ، وهي موزعة بين السودان وإرتريا . ويعرضها ذلك الموقع لمؤثرات مختلفة مصدرها الهضبة الحبشية وسواحل بلاد العرب المقابلة ، لكن هذه المؤثرات كانت مقصورة غالبا على النواحي الثقافية والاجتماعية . فقد كان بنو عامر من سلالة البجة القدماء ، الذين احتفظوا بكثير من الخصائص الحامية ، على حين أنهم – كغيرهم من قبائل البجة الأخرى – قد انتهوا بنسبهم إلى أصول عربية . فتذكر روايات بني عامر أنهم ينتسبون إلى عامر من بني كاهل . وليس في هذه

النسبة ما يدعو إلى نفيها أو استبعادها . ذلك أن الإقليم الذي يحتله بنو عامر في الوقت الحاضر ، كان مجالا لنشاط عربي واسع قبل الإسلام وبعده . فاللغة التي يتحدث بها معظم بني عامر في الجنوب – وهي لغة تجرة – مشتقة من لغة الجعز القديمة ، وهي اللغة التي تشبه اللغة الحميرية اليمنية . أما بقية بني عامر – ولا سيما في الشمال – فإنهم يتكلمون اللغة التبداوية(١٠٠) . ويشهد ازدياد نشاط العرب التجاري في أوطان بني عامر بعد الإسلام ، قيام ميناء باضع ، وهو الميناء الذي ظل مركزا من مراكز النشاط التجاري العربي الإسلامي مدة خمسة قرون على الأقل(١٠١) . ويبدو أن أوطان بني عامر كانت تقع في مملكة بقلين أو قريبا منها ، وهي إحدى الممالك البجاوية الخمس التي ذكرها اليعقوبي في القرن الثالث الهجري ، ولا بد أن سكان مملكة بقلين من سلف بني عامر قد تأثروا إلى حد كبير بنشاط الجماعات العربية الإسلامية فيها ، وقد ذكر ابن حوقل ، أن مملكة بقلين – كانت تحت حكم ملك مسلم يتكلم العربية ، وبها « مسلمون كثيرون يشتغلون بالتجارة ويسافرون إلى مكة وغيرها »(١٠٢) .

وقد قامت في الإقليم الذي يحتله بنو عامر في الوقت الحاضر – كما سبقت الإشارة – دولة لم تكن تعرف بدولةبني عامر ، بل دولة البلو ، ولعل أولئك البلو كانوا من بقايا البليين ، الذين أشار إليهم كل من الإدريسي وابن الوردي وصاراسم أولئك البليين أو البلو ، علما على العناصر العربية في الأقاليم الجنوبية من أوطان البجة ، منذ القرن الخامس عشر الميلادي على الأقل (٩هـ)(١٠٣) .. ويبدو أن أولئك البلو من بقايا البليين والحداربة ، كانوا لا يزالون يتصفون بصفات خاصة تميزهم عن سائر الجماعات التي خضعت فيما بعد لسلطانهم . ولابد أنهم أحسوا بضرورة المحافظة على كيانهم ووحدتهم ، ومن ثم أخذوا يحتلون البلاد المجاورة ، حتى بسطوا نفوذهم على جميع الأقاليم التي امتدت على طول ساحل البحر الأحمر من جنوبي مصوع إلى شمالي سواكن ، وامتدت غربا إلى المجرى الأوسط لخور الجاش . وقد ظل أولئك البلو طبقة أرستقراطية حاكمة لم تختلط بعامة البجة الذين صاروا يمثلون طبقة الموالي أو العبيد . ولعل أهم أثر لجماعات البلو ، هو نشر الإسلام بين مواليهم من البجة .

عاشت دولة البلو بنظامها الطبقي الإقطاعي وملكها الوراثي ما يقرب من ثلاثة قرون ، أي من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر للهجرة (١٥ - ١٧ م) . ثم أخذت عوامل الاضمحلال والتدهور تدب في أوصالها منذ القرن العاشر الهجري (١٦ م) فقد أدى احتلال الأتراك العثمانيين لسواكن سنة ٩٢٨ هـ/ ١٥٢٠ م إلى الضغط على مملكة البلو الإسلامية من ناحية الشرق ، ومشاطرتها في جباية رسوم السفن المارة بسواكن ، فضلا عن مشاركتها في الإتاوات المفروضة على القوافل الصاعدة إليها ، والمنحدرة منها إلى داخل البلاد . أما في المغرب ، فقد ظهرت قوة الفونج وحلفائهم العبد اللاب ، وهؤلاء حاولوا مد نفوذهم شرقا على قبائل البجة . وإذا كانت محاولاتهم في هذا الاتجاه لم يقدر لها النجاح تماما ، بسبب المقاومة العنيدة من جانب البشاريين والهدندوة وغيرهم من البجة ، إلّا أن استمرار ضغطهم على مملكة البلو ، أدى إلى انتزاع بعض أقاليمها ، وإن لم يؤد إلى زوالها[١٠٤] .

وفي أوائل القرن الحادي عشر الهجري (١٧م) وقع تحول خطير في هذه الدولة أدى إلى زوال اسم البلو الذي عرفت به الدولة ، واختفاء الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من البلو وحل محلها طبقة أرستقراطية حاكمة جديدة تعرف باسم النبتاب ، ورثت عن البلو نظامهم الطبقي المعروف . وليس من المعروف تماما كيف حدث هذا الانقلاب الفجائي .

وهكذا كانت أوطان البجة دائما مسرحا لنشاط الجماعات العربية قبل الإسلام وبعده . وإذا كان العرب الذين وفدوا إلى هذه الأوطان ، قد اختلطوا بالبجة وتزوجوا منهم وتعلموا لغتهم ، فقد كان الاختلاط فيما يبدو ، مقصورا في الغالب على الأسر الحاكمة ، وذلك لانتفاع العرب بنظام وراثة الأم السائد عند قبائل البجة ، والسيطرة عليهم عن هذا الطريق ، وحال نفور البجة من كل غريب يطأ بلادهم وصعوبة البيئة البجاوية على بقاء عامة البجة على وثنيتهم خلال القرون الهجرية الأولى ، حتى إذا كان القرن الثامن ثم القرن التاسع للهجرة (١٤ - ١٥ م) اعتنق هؤلاء جميعا الإسلام ، وكان بنو كاهل غالبا أصحاب الفضل فيما طرأ على المجتمع البجاوي من تحول إلى الإسلام خلال هذين القرنين . ومن هنا يؤثر معظم قبائل البجة - ولا سيما البشاريون والأمرار وبنو عامر -

الانتساب إلى الكواهلة دون سائر العرب ، الذين وفدوا إلى ديارهم بعد الفتح الإسلامي لمصر .

الطريق البحري بين الجزيرة العربية والشاطئ الإفريقي عبر البحر الأحمر (باب المندب) :

كان الطريق الثاني بين الجزيرة العربية وبين الشاطئ الإفريقي عبر البحر الأحمر ، وقد استمر يؤدي دوره في خدمة التجارة الدولية بعد انتصار الإسلام وقيام دولته في الجزيرة العربية ، وامتداده خارجها مع حركة الفتوح الإسلامية الكبرى . و لم تتوقف الحركة التجارية النشطة التي حمل لواءها العرب قبل الإسلام ، بل زادها الإسلام قوة . وسيطر العرب المسلمون على طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ، كما أسهموا بنصيب موفور في حركة التجارة الشرقية بين مصر والهند ، عن طريق البحر الأحمر . وعلى الرغم مما تعرضت له الحبشة من متاعب داخلية أدت إلى عزلتها عن جيرانها منذ النصف الثاني من القرن السابع الميلادي (القرن الأول الهجري) ، فقد أتيح للإسلام أن ينتشر انتشارا هادئا خلال الفترة بين القرنين الأول والثالث للهجرة (٧ – ٩ م) ، وهى الفترة التي شهدت انتقال مجموعات محدودة – أول الأمر – من التجار العرب المسلمين إلى الساحل الغربي للبحر الأحمر وتأسيسهم بالتدريج مراكز لاستقرارهم ، لاسيما بعد حماية الدولة الإسلامية لهم باحتلال جزيرة دهلك ، وسيطرة التجار المسلمين على ميناء عدول " Adulis " .

وفي هذه المرحلة ، لم يتوقف التجار المسلمون عن الانتقال إلى الساحل الإفريقي ، وإنشاء بعض المراكز التجارية عليه . حتى إذا تخلصت الحبشة من عزلتها ومتاعبها الداخلية – فى أواخر القرن الثالث الهجري (٩ الميلادي) ، عادت إلى سابق نشاطها في عالم التجارة ، وتوطيد صلتها بالأسواق التجارية القديمة في الجزيرة العربية ومصر ، فضلًا عما شهده القرن الثالث الهجري (٩م) من اتفاق بين قبائل البجة و بين الدولة الإسلامية ، لمواصلة التجارة مع الحبشة . وبعودة النشاط إلى العلاقات التجارية ، ازدهرت تجارة الرقيق بسبب إقبال بعض أمراء الدول الإسلامية على الاستعانة بالجنود

السودانيين والأحباش ، في خدمة الجيوش الإسلامية ، عوضا عن جنود المسلمين الذين تفرقوا في الأمصار الإسلامية . والمعروف أن أولئك الجنود من السودانيين والأحباش كانوا ينشّأون تنشئة إسلامية ، ويعيشون في وسط إسلامي ، وقد أدى الإقبال على التجارة الحبشية ولاسيما الرقيق ، إلى كثرة الوافدين على شرقي إفريقية من التجار المسلمين . وشهد القرن الرابع الهجري (١٠م) ، نمو المدن الساحلية المزدهرة بأولئك الوافدين . فظهرت جاليات إسلامية قوية في كل من جزر دهلك ، وموانى سواكن ، وباضع وزيلع وبربرة ، مما عرض له المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون واهتموا بوصف تلك المدن الحبشية والصومالية ، وما فيها من حياة إسلامية مزدهرة .

وكانت تلك المدن الساحلية بمثابة أسواق ضخمة ، يختلف إليها أبناء البلاد الأصليون ، من الصوماليين أو الدناقل أو البجة ، لبيع حاصلاتهم وشراء ما يحتاجونه أو سعيا للإقامة والتماس فرص العمل فيها . وأتاح لهم اختلافهم إلى هذه المدن الساحلية ، الاتصال القريب بالمسلمين ، والتعرف على دينهم ، ودفعهم هذا مع الزمن إلى اعتناق الإسلام ونشره بين ذويهم ، إذا عادوا إلى بلادهم(١٠٥) .

وقد تجاوز نفوذ التجار المسلمين المناطق الساحلية ، وامتد إلى الداخل ، إذ كانوا يرحلون إلى المناطق الداخلية (الظهير) ويقيمون بها بعض الوقت للتجارة وسعى التجار إلى مخالطة أهل البلاد والإقامة بين ظهرانيهم ونشر الإسلام بينهم ووطدوا صلاتهم بأمراء البلاد وحكامها ، وساقت تلك الصداقات– أحيانا– إلى الدعوة إلى الإسلام ، وكثيرا ما نجحت هذه الصداقات في اعتناق الأمير الإسلام ، فتتبعه الحاشية ثم الرعية .

الإمارات الإسلامية في أراضي الحبشة :

ونفذت الدعوة إلى الإسلام فيما يبدو إلى داخل الهضبة الحبشية نفسها في وقت مبكر ، يرجع– في الغالب– إلى القرن الثالث الهجري (٩م) ، حين وصلت منطقة شوا حيث قامت سلطنة إسلامية ، عملت على توطيد عقيدة الإسلام في جنوب شرقي الحبشة . وقد تبين من إحدى الوثائق التي عثر عليها في هذه المنطقة أن تلك السلطنة الإسلامية أسستها في سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م أسرة عربية من بني مخزوم القرشية ، الذين

ينتمي إليهم خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ويقال إن أسلاف هذه الأسرة القرشية ، هاجروا إلى منطقة شوا في قلب الهضبة الحبشية في وقت مبكر ، قد يرجع إلى القرن الأول الهجري / السابع الميلادي . وليس من المستبعد أن يكونوا قد نزلوا في ضيافة إمارة محلية ، ثم اختلطوا بأمرائها عن طريق المصاهرة ، حتى آل الملك إليهم آخر الأمر(١٠٦) .

كما قامت إمارات إسلامية أخرى في تلك المنطقة وما يليها شرقا في عدل Adal ومورا Mora وهوبات Hobat وجيدايا Jidaya ، لكن هذه الإمارات جميعا لم تعمر طويلا بسبب الخلاف والتنافس فيما بينها ، فضلا عن أن اهتمامها الأساسي كان مركزا بصورة خاصة في شئون التجارة ، ولاسيما تجارة الرقيق . وقد انضوت هذه الإمارات تحت لواء أقوى الإمارات الإسلامية بالوطن الحبشي وهى إمارة أوفات الإسلامية ، وكان ذلك خلال القرن السابع الهجري (١٣م)(١٠٧) .

وقد شهدت المدة من القرن الرابع إلى منتصف القرن السابع الهجري (١٠– ١٣ م) توطن النفوذ الإسلامي في السهل الساحلي ، وظهور مدن إسلامية ، تنتشر على طول الساحل من الجنوب والشرق . وقد تحولت هذه المدن إلى إمارات إسلامية ، عرفت عند المؤرخين المسلمين باسم منطقة « الطراز » ، لأنها على جانب البحر كالطراز له(١٠٨) . وتنقسم منطقة الطراز إلى سبع ممالك إسلامية ، على كل منها ملك أو أمير ، وهى : وفات أو أوفات ، دوارو ، أرابيني « هدية » شرخا ، بالي ، ودارة .

أما مملكة أوفات ، فتقع شرقي « شوا » ومن مضافاتها « زيلع »– وهى فرضة من فرض هذه البلاد– وكانت تلك أقوى مملكة إسلامية ظهرت بالحبشة (في الصومال الشمالي) . ويقال إن مؤسسي هذه السلطنة قوم من قريش من بني عبد الدار ، أو من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب ، قدم أولهم من الحجاز ، ونزلوا أرض جبرة التي تعرف اليوم بـ« جبرت » وهى من أراضي الزيلع . وقد عرف جماعة منهم بالخير والصلاح ، وظهر من بينهم عمر المشهور باسم « ولشمع » وقد ولّاه الحطي (ملك الحبشة) مملكة أوفات ، فاستقرت في ذريته ويتكلم أهل أوفات الحبشية والعربية كذلك(١٠٨) .

وتتحكم مملكة بالي في وادي الصومال ، وذلك بحكم موقعها الجغرافي وغالب سكانها من عنصر السيداما ، وفي جنوبهم يسكن عنصر الجالا ، ولم يستقر الملك بتلك المملكة خلافا لما حدث في الإمارات الإسلامية الأخرى بل انتقل الحكم في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بمعاونة ملك الحبشة إلى رجل لا ينتسب إلى تلك الأسرة(١٠٩) .

وتقع مملكة هدية إلى الغرب من الممالك الإسلامية الأخرى ، وتشتمل على ثماني مقاطعات ، وكانت دون سلطنة أوفات مساحة ، لكنها كانت أقوى الممالك السبع وأكثرها خيلا ورجالا . وكانت الطبقة الحاكمة فيها مسلمة بينما بقى أغلب رعاياها على الوثنية ، وقد اشتهرت تلك المملكة بتجارة الرقيق بعامة والخصيان بصورة خاصة الذين عرفوا في مصر باسم الطواشية(١١٠) .

وكانت مملكة دارة وبقية ممالك الطراز الإسلامي : « دوارو » و« أرابيني » ، و « شرخا » ممالك صغيرة ، غير ذات أهمية كبيرة وإن استطاعت إعداد قوات عسكرية ، تقرب من قوة سلطنة أوفات فرسانا ورجالة(١١١) .

واتسم قيام هذه الممالك الإسلامية ، بطابع سلمي تجاري ، إذ استطاع التجار المسلمون أن يمتلكوا ناصية التجارة الداخلية والخارجية معا ، وتوثقت روابط هذه الممالك بالعالم الإسلامي الخارجي عن طريق الحج والتجارة . هذا إلى جانب انتقال طلاب العلم للدراسة في المدينة المنورة ودمشق والقاهرة ، حيث صار لهم أروقة خاصة فكان هناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموي بدمشق(١١٢) ، كما قام رواق الجبرتية بالجامع الأزهر(١١٣) .

وقد عمل على التعريف بهذه الممالك سالفة الذكر كل من ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م) في « مسالك الأبصار » ، والمقريزي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م) في كتابه : « الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام » حيث تناولا أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وعلاقاتها الداخلية بملوك الحبشة من النصارى وبجيرانها المسلمين في الجزيرة العربية ومصر .

وينقل ابن فضل الله العمري عن الشيخ عبد المؤمن الزيلعي الفقيه « أنه على الرغم

مما تتصف به هذه الممالك الإسلامية من بساطة بيوتها المصنوعة من الطين والأحجار والخشب ، وأنها ليست بذوات أسوار ، ولا لها فخامة بناء ، فإن بها « الجوامع والمساجد » وتقام بها الخطب والجمع والجماعات ، وعند أهلها محافظة على الدين ، إلا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاة ولا رباط ولا زاوية ... وفيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء ، ويتمذهبون بمذهب أبي حنيفة ، خلا أوفات ، فإن ملكها وغالب أهلها شافعية »[١١٤] .

كما نقل عن الشيخ الزيلعي نفسه ، أنه على الرغم من أن هذه الممالك الإسلامية ، تجمعها وحدة العقيدة والتمسك بأهداف الدين ، فإن كلمتهم متفرقة ، وذات بينهم فاسدة ولو اتفق ملوكها السبعة واجتمعت ذات بينهم ، قدروا على المدافعة أو التماسك ... ولكنهم مع ماهم عليه من الضعف وافتراق الكلمة ، بينهم تنافس ... »[١١٥] .

ولعل وضع هذه الممالك الإسلامية وعلاقاتها بملك الحبشة النصراني ، هو الذي أدى إلى السيطرة الحبشية على هذه الممالك الإسلامية . وقد ذكر العمري ، أنه على الرغم من أن الملك في هذه الممالك الإسلامية وراثي ، محصور في أسر معينة ، فإن أمراءها لا يتولون حكم بلادهم إلا بأمر من الحطي (ملك الحبشة) وموافقته ، فإذا مات أحدهم ، وكان من أهل بيته رجال يصلحون للحكم ، قصدوا جميعهم سلطان أمحرا (ملك الحبشة) ، وتقربوا إليه جهد الطاقة ، فيختار منهم رجلا يوليه ، فإذا ولاه ، سمع البقية له وأطاعوا ... »[١١٦] وذكر المقريزي : « ... وجميع ملوك هذه الممالك إنما هم نواب عن الحطي لا يقيمهم إلّا هو ... »[١١٧] وقد تسلط الحطي على هذا النحو ، مع ما بينهم من عداوة الدين ، ومباينة ما بين النصارى والمسلمين ... »[١١٨] ولو أنهم- أى الملوك المسلمين- متفقون على تعظيم صاحب أوفات ، منقادون إليه »[١١٩] .

الجزء الجنوبي الشرقي من إفريقية المطلّ على المحيط الهندي :

ارتبط قيام الكيانات الإسلامية على طول سواحل الجزء الجنوبي الشرقي المطل على المحيط الهندي ، والممتد من خليج عدن جنوبا حتى سوفالا ارتباطا وثيقا بهجرة الجماعات

العربية الإسلامية ، واستقرارها فيه ، إذ لم تعد الهجرات العربية الإسلامية إلى شرقي إفريقية مقصورة على الاستقرار المؤقت في المراكز التجارية التي أقامها أسلافهم العرب قبل الإسلام بقصد التجارة وحسب ، فقد تجاوزت ذلك الدور وتطورت إلى هجرات متواصلة مصدرها – في الغالب – جنوبي الجزيرة العربية من عمان والخليج العربي ، وهدفها الاستقرار الدائم وإنشاء المستوطنات التي لم تلبث أن تحولت إلى مدن أو إمارات (مشيخات) عربية إسلامية .

وقد تأثر إقليم شرقي إفريقية وغيره من الأقاليم الإفريقية بازدياد موجات الهجرة العربية الإسلامية إليها بسبب الأحداث الجسام التي أصابت العالم الإسلامي منذ القرن الأول الهجري فصاعدا ، ووقوع الفتن والمحن المتعاقبة في العهدين الأموي والعباسي ، ومنها سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين في حركة داخلية ثم سقوط الدولة العباسية في أيدي المغول الذين غزوها من الخارج ، وغزو تيمورلنك لفارس .

فأخذت طوائف كثيرة من المهاجرين العرب أو الفرس تشد الرحال إلى هذا الإقليم من إفريقية ، فرارا من ضغط سياسي أو مذهبي ، أو تفريجا لأزمة اقتصادية أو التماسا لمهجر جديد يطيب فيه المقام وتستقيم الحياة . وكانت هذه الجماعات المهاجرة من سواحل الجزيرة العربية من الأحساء والبحرين وعمان وحضرموت واليمن ، تحمل معها – فضلا عن مظاهر الحضارة العربية الإسلامية – الدعوة إلى الله بين أهل البلاد الأصليين من الصوماليين والبانتو وغيرهم .

ولعل أول هجرة عربية إسلامية شهدها شرقي إفريقية (ساحل الزنج) كانت حوالي سنة ٧٦ هـ (٦٩٥ م) ، وذلك في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥–٨٦ هـ/ ٦٨٥– ٧٠٥ م) وقام بهذه الهجرة العربية فريق من أهل الشام والعراق والجزيرة العربية سخطوا على سياسة الحجاج بن يوسف الثقفي وكانت قد نشبت في ذلك الوقت ثلاث حركات تمرّد تناهض الخلافة الأموية في دمشق وهي حركة عبد الله بن الزبير ، وحركة الخوارج ، وحركة عبد الله بن الأشعث ، ويبدو أن الأمويين جابهوا هذه الحركات في شيء من العنف والشدة مما أرغم القائمين على هذه الحركات الثورية على

الهجرة إلى الساحل الجنوبي الشرقي لإفريقية ، في أعداد يبدو أنها كانت كبيرة ، بدليل أنهم تمكنوا من إخضاع السكان الأصليين والاستقرار في ميناء ويوني الحصين[١٢٠] .

وحول ذلك الوقت أيضا (٧٥ – ٨٥ هـ/ ٦٩٥ – ٧٠٤ م) قام العمانيون بثورة ضد الخليفة عبد الملك بن مروان بزعامة اثنين من قبيلة الأزد ، هما : سليمان وسعيد ابنا عباد الجلندي بسبب موقف الخليفة عبد الملك من الصراع القبلي بين اليمانية والمضرية . وقد اضطرت بعض القبائل المهزومة ومن بينها فريق من الخوارج من أزد عمان ، للهجرة إلى بلاد الزنج . وإذا كان من غير المعروف تماما المكان الذي نزل فيه المهاجرون بقيادة الأخوين الجلنديين ، فالراجح – في قول بعض الباحثين اعتمادا على ما ذكره صاحب خبر لامو – أنهم نزلوا مدينة لامو شمال ممبسة ، حيث بويع أحد أحفادهم ويدعى الحاج سعيد بالإمارة في مطلع القرن الثاني للهجرة (٨م) ، واضعا بذلك أساس أول إمارة عربية إسلامية في لامو[١٢١] .

وتعاقبت هجرات العرب المسلمين ففي سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) وفدت من الجزيرة العربية هجرة زيدية على أثر انقسام مذهبي وقع في صفوفهم لجأ بسببه فريق منهم إلى شرقي إفريقية ، هربا من اضطهاد الأمويين . واستقر المهاجرون بالقرب من موضع يعرف باسمهم شنجايا Shangaya[١٢٢] في ساحل بنادر بالصومال الجنوبي بالقرب من موقع مقديشيو .

الإخوة السبعة :

وكانت كل هجرة من هذه الهجرات مقدمة لظهور مدينة جديدة ، ونشوء إمارة إسلامية جديدة .

ففي مطلع القرن الرابع (١٠ م) ، حوالي سنة (٣٠١ هـ/ ٩١٣ م) خرج سبعة أخوة من الأحساء ، خلال الصراع الدموي الذي اشتد أواره بين الخلافة العباسية ، وبين القرامطة ، والأخوة السبعة هؤلاء من قبيلة الحارث ، جاءوا في ثلاث سفن محملة بالرجال والعتاد ، ونزلوا ساحل بنادر بالصومال الجنوبي . ويبدو أن هذه الجماعة قد نجحت في دعم سيطرتها على الإقليم ، وتمكنت من تأسيس عدة مدن في شرقي إفريقية ،

مثل : مقديشيو وبراوة[١٢٣] .

وهكذا لم تمض فترة طويلة حتى غدا جميع أهل ساحل بنادر من أهل السنّة على المذهب الشافعي ، بعد اصطدام الأخوة السبعة بالزيديين الذين أبوا الخضوع لهم بسبب اختلاف المذهب . ولما عجز الزيديون عن مقاومة خصومهم تركوا المدينة ، وتوغلوا من الساحل إلى الداخل ، فخلا الجو للمذهب الشافعي للانتشار على ساحل بنادر ، حيث استقر الأخوة السبعة من أهل السنة . بينما اختلط الزيديون بالقبائل الإفريقية الخالصة عن طريق الزواج ، فامتزجت الدماء ، وتكون من هذا المزيج جماعة عرقية انتشر بينها الإسلام وهي خليط من العرب والزنوج وغلب عليهم اسم « أموزيدج »[١٢٤] .

وحكم الأخوة السبعة ساحل شرقي إفريقية مدة لا تقل عن سبعين عاما ، وإلى هؤلاء المهاجرين يرجع الفضل في إنشاء مدينة « مقديشيو » التي ظلت مدة طويلة تتزعم حركة الإسلام على ساحل الصومال . وأصبحت مقديشيو أول مشيخة إسلامية تحاول بسط نفوذها التجاري على طول الساحل جنوبا حتى سوفالا .

وبعد أن تغلب الأخوة السبعة على الكثير من المتاعب التي واجهتهم – في بداية الأمر – شرعوا يضعون الأسس التنظيمية التي تكفل لهم الاستيطان الدائم ، فألفوا مجلس شورى يرأسه الأمير أو الشيخ . وحول سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) ، انتخب أبو بكر فخر الدين من سلالة الأخوة السبعة سلطانا (شيخا) على البلاد ، وجاء إعلان سلطنته الوراثية نهاية لعهد الإدارة الاتحادية . وسيطرت مقديشيو على معظم مدن الساحل الجنوبية ، وهي المدن التي أنشأها الأخوة السبعة مثل « مركة » ، و « براوة » .

الإمارة النبهانية في مقديشيو وبات :

وفي القرن السابع الهجري/ ١٣ م قدمت أسرة المظفر من بني نبهان العربية الذين كانوا يحكمون في عمان ، بعد أن استبد بها الضعف والانحلال ، وتمكن سليمان النبهاني من تأسيس إمارة عربية في بات Pate سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) وتمكنت هذه الإمارة النبهانية من بسط نفوذها على مقديشيو حوالي سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ – ١٣٤٠ م) وخلفت أسرة فخر الدين في حكمها . وكان آخر سلاطين هذه الأسرة النبهانية التي

حكمت مقديشيو وبات ، الشيخ فخر الدين المظفر حول نهاية القرن الثامن الهجري (١٤ م) . وفي أثناء حكم الشيخ أبي بكر بن الشيخ عمر المظفر ، زار مقديشيو الرحالة العربي ابن بطوطة وذلك في عام ٧٣١ هـ (١٣٣١ م) . وقدم ابن بطوطة وصفا شاملا لأحوال مشيخة مقديشيو السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، حيث كانت هذه المشيخة الإسلامية قد بلغت ذروة مجدها في نهاية القرن الثامن الهجري (١٤ م)(١٢٥) .

الحسن بن علي الشيرازي يؤسس سلطنة كلوة :

وتتواتر الروايات التاريخية عن هجرة فارسة شيرازيةقدمت إلى ساحل شرق إفريقية حول النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (١٠م) من شيراز على الجانب الفارسي للخليج العربي . وكانت هذه الهجرة الفارسية فيما يرجح سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، بقيادة الحسن بن علي الشيرازي أحد أبناء والي مدينة شيراز ، وصحبه أبناؤه الستة وعدد كبير من أتباعهم . وليس من المعروف ، تماما ، الدافع إلى هذه الهجرة(١٢٦) . وقد قدم أولئك الفرس المهاجرون من شيراز في سبع سفن فيما يروى ، ونزلوا في عدة أماكن على الشاطئ الشرقي ، واحدة منها في « ممبسة » وثانية في « بمبا » ، وثالثة في « كلوة » وهي التي كان عليها الحسن بن علي الشيرازي نفسه ، ورابعة في « جوهابا » في جزر « القُمر » . ونجح الحسن بن علي في تأسيس دولة الزنج « سلطنة كلوة » الإسلامية ، التي امتد عمرها منذ قيامها سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) إلى سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) حين وصل البرتغاليون إلى ساحل شرق إفريقية . وتعاقب على هذه السلطنة ، خلال هذه المدة خلفاء الحسن ابن علي الشيرازي(١٢٧) .

وهكذا نجح الشيرازيون الفرس في بسط نفوذهم على ساحل شرقي إفريقية ،من « بمبا » في الشمال إلى ميناء سوفالا (سفالية) في الجنوب ، وامتد الإسلام امتدادا هادئا إلى هذه المنطقة من الساحل الشرقي لإفريقية . وأخذ أهل البلاد الأصليون ، الذين اختلطوا بأولئك المهاجرين ، يدخلون تدريجيا في الإسلام . وعلى الرغم مما هو معروف من أن المهاجرين الشيرازيين في سلطنة كلوة الإسلامية كانوا من غلاة

الشيعة ، لكن ليس من المعروف بحال متى وكيف صار جميع سكان هذه السلطنة أهل سنة يتبعون المذهب الشافعي .

وقد كان تأثير الشيرازيين الفرس ، بارزا على الساحل الشرقي لإفريقية في عهد دولة الزنج في كثير من النواحي ولا سيما في مجال الفن المعماري والأدب السواحيلي وفي طرق الملبس والمأكل ، وكثير من مظاهر الحضارة الفارسية . ومع هذا كانت الغلبة للمؤثرات العربية ، إذ كان العرب المسلمون أسبق من الفرس المسلمين في الاستقرار بساحل شرقي إفريقية . و لم يكد ينقضي القرن الرابع الهجري (١٠ م) حتى كانت المدن التي انضوت تحت لواء دولة الزنج قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية الإسلامية وقد أعانت الهجرات العربية الإسلامية المتوالية تدريجيا على بروز طابعها العربي الإسلامي الخالص ، وكانت هذه المدن من الشمال إلى الجنوب : مقديشيو ، براوة ، سيبو ، بات ، لامو ، ماليندي ، زنجبار ، كيليغي ، منبسة ، فومبا ، بمبا ، مافيا ، كلوة ، موزمبيق ، وسوفالا (سفالية) آخرها . وفي خلال القرن – الرابع الهجري/ ١٠ م – وما يليه كان الإسلام قد انتشر في تلك المراكز ، وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص بها . وقد آثر العرب المسلمون الاستقرار في الجزر لسهولة الدفاع عنها ، وبعد مواقعها عن اعتداء الأهالي الساكنين في البر الإفريقي[١٢٨] .

ويرجع تأسيس إمارة بات الإسلامية إحدى الإمارات التي أقامها العرب المسلمون في شرقي إفريقية إلى القرن الأول الهجري ، في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، وذلك على أيدي المهاجرين العرب المسلمين من الشام والجزيرة العربية سنة ٧٧ هـ (٦٩٦ م) وخطط المهاجرون مدينة بات على نهج المدن العربية الإسلامية ، وقد وصلها سليمان وسعيد الجلنديان سنة ٨١ هـ (٧٠٠ م) – كما سبقت الإشارة – ثم خضعت بات للأخوة السبعة الذين استطاعوا تحويل عشرة آلاف وثني إلى الإسلام على المذهب الشافعي . ثم تمكن الحسن بن علي الشيرازي مؤسس سلطنة الزنج في كلوة من إخضاع إمارة بات ، وغدت منذ سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) إمارة تابعة لسلطنة كلوة . غير أنها تمتعت في بعض مراحل تاريخها بالاستقلال في حقيقة الأمر مع دفع الجزية لسلطان كلوة .

ولما حكم بنو نبهان الوافدون من عمان إمارة بات سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) ، وكان أولهم الأمير سليمان بن سليمان النبهاني (٦٠١ - ٦٣٦ هـ/ ١٢٠٤ - ١٢٣٨ م) ، نشطوا في نشر الإسلام واللغة العربية في تلك الجهات وإذ كانت تبعيتهم لسلاطين كلوة اسمية فإنها لم تعقهم عن بسط نفوذهم على جهات كثيرة من الساحل فخضعت لهم مدن : « قسمايو » ، « براوة » ، و « مقديشيو » في عهد السلطان محمد شانجا ، كما امتد ذلك النفوذ في عهد أبنائه إلى « مالتيدة » ، و « كلوة » ، و « منبسة » . وهكذا استطاعت هذه الأسرة النبهانية أن تخضع معظم الساحل لسطانها[١٢٩] .

وعلى الرغم مما تحقق للسلطنات الإسلامية في الساحل الجنوبي الشرقي لإفريقية من ازدهار بلغ الذروة في القرنين السابع والثامن للهجرة (١٣ - ١٤ م) بازدياد ثرواتها وازدياد الإسلام رسوخا بين أهلها ، فإنها لم تلبث أن أصابها التمزق والانحلال ، لأسباب واضحة كان من أهمها أن المستوطنين العرب أو الفرس في المراكز الإسلامية المختلفة ، قد حملوا معهم خلافاتهم ومنازعاتهم التي كانت بينهم في الوطن الأم . فسفر الخلاف بين هذه المدن ، حتى أصبح من العسير قيام وحدة تجمع بينها طواعية . وإنما كانت تقوم وحدة سياسية بين حين وآخر مستندة إلى تفوق إحدى هذه المدن وتوسعها على حساب غيرها كما فعلت مدينة « منبسة » في نجاحها في السيطرة على مدن الساحل خلال بضع سنوات من القرن السادس الهجري (١٢ م) ، أو كما فعلت مدينة « بات » في سيطرتها على معظم مدن الساحل من مدينة « مالنيدي » شمالا إلى مدينة « كلوة » جنوبا - فيما عدا جزيرة « زنجبار » - حوالي عام ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) كذلك تمكنت مشيخة « مقديشيو » ومدن « بمبا » و « زنجبار » في أوقات متفرقة من أن تفرض قيام وحدات من هذا النوع . ونجحت سلطنة الزنج (سلطنة كلوة) في توحيد معظم المراكز الإسلامية في ساحل شرقي إفريقية ، وبلغت ذروة قوتها في عهد السلطان سليمان بن علي ثاني حكامها ، فتمكنت من ضم جزيرتي زنجبار وبمبا كما نجحت في نشر الإسلام في جزر « الكومور » وبين قبيلة أنتيمرون بجزيرة « مدغشقر » لكن لم ينقطع الصراع بين

الحكومة المركزية في كلوة وحكام المدن الخاضعة لها سعيا منهم في الاستقلال عنها ، فضلا عن الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة الشيرازية نفسها في فترات متقطعة ، مما هيأ للبرتغاليين الفرصة لغزو هذه السلطنات الإسلامية[١٣٠] وإعلان حرب صليبية عليها .

فلم تكد هذه السلطنات الإسلامية يقوى عودها حتى خاضت غمار حرب صليبية شديدة الوطأة استنزفت مواردها ، وقللت من نشاطها الثقافي ، وشغلت كل وقتها وطاقتها واعتمد انتشار الإسلام في شرقي إفريقية ، بل بقاء الإسلام في هذا الإقليم – شماليه وجنوبيه – على نتيجة ذلك الصراع الدموي المتواصل وعلى مدى استطاعة هذه السلطنات حماية المسلمين وصيانة تراث الإسلام و لم تنج سلطنة أو إمارة إسلامية من أوار هذه الحرب ، سواء السلطنات الواقعة إلى الشمال من مقديشيو ، والتي اشتبكت في حرب صليبية ضد الأحباش ، أو السلطنات الجنوبية التي اشتركت في مكافحة الغزو البرتغالي المندفع من الجنوب[١٣١] .

الصراع بين ممالك الطراز الإسلامي والحبشة :

واجهت ممالك الطراز الإسلامية بالحبشة صراعا مريرا مع مملكة الحبشة النصرانية في القرن السابع الهجري (١٣ م) . وقد استمر طيلة ثلاثة قرون تواصل فيها الجهاد الإسلامي ضد الصليبية الحبشية . وتبادل الطرفان النصر والهزيمة ، لكن الإسلام خرج من هذا الجهاد في آخر الأمر منتصرا وكانت القبائل البدوية الصومالية – من الصوماليين والأعفار (الدناكل) في القرن العاشر الهجري (١٦ م) ثم قبائل الجلا في القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) – عاملا حاسما في تحقيق انتصار الإسلام في النهاية ، بحيث غدا معظم سكان بلاد الحبشة من المسلمين وكانوا يمثلون في منتصف القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م) حوالي ثلثي سكان هذه البلاد .

وقد شهد القرن السابع الهجري (١٣ م) تحولا واضحا في وضع هذه الممالك الإسلامية الداخلي من ناحية ، ووضع المملكة الحبشية النصرانية من ناحية أخرى .

فقد اتسع نفوذ هذه الممالك الإسلامية ، واستطاعت مملكة أوفات ، التي كانت

تعرف أيضا باسم : « جبرة » أو « جبرت » ، أن تمد نفوذها إلى منطقة شوة بعد أن ورثت ملك بني مخزوم ، وأن تبسط نفوذها كذلك على بقية الإمارات الأخرى في الطراز الإسلامي ، ودان لها الأعفار (الدناكل) بالولاء والطاعة . وهكذا برز حلف إسلامي قوي . تزعمته مملكة أوفات الإسلامية ، امتد نفوذه إلى جزء كبير من جنوبي شرقي الحبشة ، وساحل البحر الأحمر ، وأوغل في بلاد الصومال ، حتى غدت مساحة أراضيه – في قول بعض المؤرخين –تفوق مساحة مملكة الحبشة النصرانية نفسها[١٣٢] .

وعلى جانب الحبشة النصرانية تولت عرش الحبشة سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠ م الأسرة السليمانية التي تدعي نسبا إلى سليمان بن داود عليه السلام وبعد أن استطاعت التغلب على بعض الصعاب الداخلية قامت بجهود واسعة لصبغ البلاد بالصبغة النصرانية ونشر النصرانية بين السكان الوثنيين من أهل البلاد .

وتطلعت تلك الأسرة السليمانية الحاكمة في الحبشة النصرانية إلى ما بأيدي المسلمين من إمكانات اقتصادية ، وسيطرة شبه كاملة على الحركة التجارية بين موانى البحر الأحمر وبين داخل البلاد ، فضلا عن التجارة الخارجية ، بحيث أصبحت موارد الأراضي الحبشية كلها من إسلامية ونصرانية وعلاقاتها الخارجية في قبضة المسلمين . وكان على حكام الحبشة النصرانية من البيت السليماني أن يواجهوا الأوضاع السياسية والاقتصادية ، التي صاحبت النفوذ الإسلامي في تلك البلاد .

يضاف إلى تلك العوامل السياسية والاقتصادية ذلك التعصب الديني الذي واكب الحركة الصليبية العامة . فقد نفذت إلى الحبشة أفكار صليبية تهدف إلى التعاون بين الحبشة وبين القوى الصليبية في أوربا ، للإطباق على القوى الإسلامية في مصر والأراضي المقدسة في الحجاز ، والقضاء على المسلمين بالحبشة . فقد كان الأحباش على اتصال بالحركة الصليبية الدائرة الرحى في بلاد الشام ، وتتبعوا أخبارها ، إذ كان للأحباش دير لإقامة حجاجهم في بيت المقدس ، وقد شمل السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ – ٥٨٩ هـ/ ١١٦٩ – ١١٩٣ م) ، ذلك الدير الحبشي بسماحته ورعايته[١٣٣] . و لم تكد

الحبشة النصرانية تفيق من متاعبها الداخلية حتى كان سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام بأيدي المسلمين سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ومع ذلك ما فتئت تراود القائمين على المشروعات الصليبية أحلام الرجعة إلى بيت المقدس والوصول إلى مملكة القديس يوحنا الأسطورية الموعودة التى تشغل أذهان المغامرين ، واستهدف الجميع الإطباق على المقاومة الإسلامية من الشمال والجنوب للقضاء عليها تماما . وهكذا تشبعت الحبشة بالفكرة الصليبية ، وتحيّنت الفرص للاشتراك الفعلي في حملات الصليبيين ضد المسلمين لكن حال دون ذلك بعد الشقة ، فأخذت تنتظر فرصة سانحة تمكنها من التعبير عن حقدها الصليبي بصورة مناسبة لظروفها وإمكاناتها .

وقد اجتاز ذلك الجهاد الطويل الذي خاضت غماره الممالك الإسلامية بالحبشة لأجل حماية الإسلام ومدافعة الصليبية الحبشية بثلاثة أدوار : دور أوفات ، ودور عدل ثم دور هرر – وهو الدور المعروف بالجهاد الإسلامي الأعظم .

دور سلطنة أوفات :

بدأ دور أوفات في مهاجمة عدوان مملكة الحبشة على المسلمين من منتصف القرن السابع الهجري (١٣ م) على إثر قيام قوات ملك الحبشة – يكونو أملاك (٦٦٩ – ٦٨٤ هـ/ ١٢٧٠ – ١٢٨٥ م) – بمهاجمة جيرانه العرب المسلمين في الطراز ، لكن المسلمين كبّدوه خسائر فادحة وخرّبوا جهات كثيرة من بلاده[١٣٤] .

وفي الوقت الذي أرسل فيه هذا الملك رسالة يستعطف فيها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (٦٥٩ – ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) لينصّب مطرانا لبلاده ، كان يضطهد مسلمي الطراز ويشن الحرب عليهم . ولعل السلطان بيبرس ، كان يدرك تماما ما انطوى عليه هذا الملك من بغض شديد لمسلمي الطراز ، وأعماله العدوانية ضدهم ، ومن ثم لم ينصّب لبلاده مطرانا[١٣٥] .

وفي عهد الملك الحبشي التالي ، ياجبعا صيون (٦٨٤ – ٦٩٤ هـ/ ١٢٨٥ – ١٢٩٤ م) ، شن الأحباش هجوما على إمارة عدل التابعة لسلطنة أوفات ، وانتهى الأمر إلى عقد هدنة بين الجانبين ، أعيد بعدها فتح بلاد الحبشة للتجار المسلمين .

وكان من أثر مهاجمة ملوك الحبشة للمسلمين ، والإغارة على بلادهم ، أن انبعث شعور الحماس الديني في جيرانهم المسلمين ، وعدّوا محاربة هؤلاء الأحباش المعتدين جهادا في سبيل الله . ففي سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) تمكن أحد المجاهدين الدعاة هو الشيخ محمد أبو عبد الله أن يشق طريقه في قلب الهضبة الحبشية مبلّغا دعوة الإسلام إلى مائتي ألف من الجلا والصومال ، وقد قام بإعداد من لبّى دعوته للجهاد واشتبك هؤلاء مع ملك أمهرة (الحبشة) في عدة معارك انتهت بتنازل ملك الحبشة للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود[١٣٦] .

وحين تبيّنت سلطنة أوفات ضعف ملوك الحبشة وعجزهم عن المقاومة ، وأنهم - بسبب متاعب داخلية - إلى الهدنة أميل وجد الملوك المسلمون بزعامة سلطنة أوفات الفرصة سانحة للتخلص من السيادة الاسمية التي فرضها ملوك الحبشة النصارى على الممالك الإسلامية . ومن ثمّ تحوّل السلطان حقّ الدين من الإغارة غير المنظمة إلى توجيه هجوم سافر منظم ، فغزا أطراف الحبشة وأحرق بعض الكنائس ، وحمل بعض الأحباش على اعتناق الإسلام . ولما علم بذلك ملك الحبشة - وقتذاك - عمد صيون (٧١٤ - ٧٤٥ هـ/١٣١٤ - ١٣٤٤ م) ، ثارت ثائرته وخرج بنفسه على رأس جيش لغزو سلطنة أوفات سنة ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٨ م ، وتمكن من اختراق خطوط الدفاع وأسر السلطان حق الدين ، واستولى على مملكة « أوفات » وضم إليها مملكة إسلامية أخرى هي مملكة « فاتاجار » ، وجعل منهما ولاية واحدة ، نصّب عليها صبر الدين أخا حق الدين حاكما ، على أن يظل تابعا لملك الحبشة[١٣٧] .

لكن السلطان صبر الدين لم يقبل ما فرضه ملك الحبشة على المسلمين من الاستسلام والتبعية له ، وكون حلفا إسلاميا من إمارتي هدية ودوارو ، كما استعان بجماعات « الأجاو » المعادين لنصارى الحبشة ، وبدأ هجوما كاسحا على الأحباش ، استولى فيه على الكثير من الغنائم ، وقتل وأسر خلقا كثيرا ، وخرب الكنائس أينما ذهب . وأعلن أنه سيجبر الحطي الملكة جان منجشة ، زوجة عمد صون على أن تطحن له حبا وتصنع له منه خبزا يريد بذلك إذلالها وإهانتها . فلما سمع عمد صيون بهذه التهديدات خرج على رأس جيش هاجم به إمارة هدية ، وحاصر السلطان

صبر الدين الذي يروى أنه اضطر إلى الاستسلام وانتهى أمره بالقتل . وهكذا انتهى استقلال الممالك الإسلامية في أوفات وهدية وفاتاجار ودوارو ، التي دخلت في طاعة النجاشي سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٨ م) وأسند الحكم فيها إلى جلال الدين أخي السلطان السابق صبر الدين الذي قبل أن يكون تابعا للحبشة ، وأن يدفع لملكها الجزية . وهكذا اتسعت مملكة الحبشة ، وضعف أمر المسلمين ، ولا سيما بين « السيداما »حديثي العهد بالإسلام[١٣٨] .

لكن هذه الحروب ، قد جعلت مسلمي الطراز يفزعون إلى السلطنة المملوكية في مصر للتدخل لحماية المسلمين ومصالحهم الحبشية ، فسعى الفقيه عبد الله الزيلعي لدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٢ - ٦٩٣ - ٧٠٨ ، ٧٠٩ - ٧٤١ هـ/ ١٢٩٣ - ٤ ، ١٢٩٨ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣٤٠ م) لكي يستكتب البطريق المصري رسالة إلى الحطي (ملك الحبشة) يطلب منه أن يكف أذيته عمن في بلاده من المسلمين ، وعن أخذ حريمهم . وصدرت المراسيم السلطانية للبطريق بكتابة ذلك . فكتب إليه كتابا بليغا شافيا ، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال ، وأنه حرم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها[١٣٩] .

لكن الملك عمد صيون لم يكف عن قتال المسلمين بالحبشة، وهؤلاء لم يلقوا بدورهم السلاح بل واصلوا الجهاد ، وتكوّن حلف إسلامي جمع غالبية المسلمين بالحبشة من إمارتي : « عدل » و « مورا » ، وبعض القبائل البدوية من « الأعفار» (الدناقل) : « طيقو » و « باجوما » و « لباكالا » ، و « ورجار » ، و « جبالا » . بيد أن هذا الحلف الإسلامي لم يتمكن من وقف الزحف الحبشي على البلاد الإسلامية . كما قضى الأحباش على محاولة ثانية ، قادها الإمام صالح أحد أبناء شرفاء مكة المكرمة الذين أووا إلى مدينة هرر الإسلامية من وقت غير بعيد . وانتهت هاتان المحاولتان من جانب القوى الإسلامية بتغلب ملك الحبشة في هذا الدور من أدوار الكفاح بين الطرفين .

لكن هذا لم يكن يعني انهيار روح المقاومة والجهاد لدى المسلمين أو فتورها بل ظلت جذوة المقاومة متقدة فما كادت سلطنة أوفات الإسلامية تتخلص من بعض متاعبها

الداخلية وتولّى حق الدين الثاني حكمها ، حتى أعلنت استقلالها عن مملكة الحبشة ، وأوقعت بجيوش ملك الحبشة وخليفتيه – الملك « ودم » ، والملك « داود » – هزائم متوالية بلغت عشرين واقعة على مدى تسع سنوات ، كان آخرها سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) في أرض شوة حيث استشهد السلطان حق الدين الثاني(١٤٠) .

وانتقلت زعامة الحلف الإسلامي بعد السلطان حق الدين الثاني إلى أخيه السلطان سعد الدين الثاني ، والتف المسلمون حوله وأعلنوا الجهاد في سبيل الله ، فكثرت – على قول المقريزي(١٤١) – عساكره وتعددت غاراته ، واتسعت مملكته ، وأحرزت جيوشه انتصارات متوالية على جيوش الملك « داود » الأول ، وكثرت الغنائم والأسرى في أيدي رجاله . وتوغل السلطان سعد الدين الثاني في أرض أمهرة ، لكن فقد المسلمون أميرا منهم ، هو الأمير محمد ، ومن معه من المسلمين . ثم جرد النجاشي جيشا بقيادة أمير حبشي اسمه « باروا » ، « فلقيه السلطان سعد الدين الثاني بنفسه ، ومعه الفقهاء والدعاة والفلاحون ، وجميع أهل البلاد ، وقد تحالفوا جميعا على الموت ، فكانت بينهما وقعة شنيعة ، استشهد فيها من المشايخ الصلحاء : أربعمائة شيخ . واضطر السلطان سعد الدين الثاني للالتجاء إلى زيلع حيث قبض عليه ، وقتل . وهكذا انتهى الدور الأول من أدوار الجهاد الذي تزعمته سلطنة أوفات ، ليبدأ الدور الثاني الذي اضطلع به سلاطين عدل خلفاء سلاطين أوفات .

دور سلطنة عــدل :

يستهل دور سلاطين عدل الإسلامية بالتجاء أبناء سعد الدين الثاني العشرة إلى اليمن ، حيث أجارهم سلطان بني رسول ، أحمد بن الأشرف إسماعيل الرسولي ، وجهزهم بالسلاح والعتاد ، وأعانهم على العودة واستئناف الجهاد ، فنزلوا موضعا بعيدا عن متناول الأحباش(١٤٢) ، حيث انضم إليهم من تبقى من جنود أبيهم ، وقدّموا عليهم أخاهم صبر الدين الثاني . وأصبح أولئك الأمراء من بني ولشمع ، يعرفون باسم جديد هو « ملوك عدل » ، كما أصبحت مملكة أوفات تعرف باسم « بر سعد الدين » ، واختاروا عاصمة لهم هي بلدة « داكار » .

استأنف سلاطين عدل الجهاد مرة أخرى ابتداء من سنة ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٣ م في عهد السلطان صبر الدين الثاني ، وواصل الجهاد خلفاؤه من أبناء سعد الدين : السلطان منصور (٨٢٧ هـ/١٤٢٤ م) والسلطان جمال الدين (٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣ م) ، والسلطان بدلاي (٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥ م) ، ضد معاصريهم من ملوك الحبشة – وقتذاك – وهم : يسحاق وزرء يعقوب ، وبئيد مريم ، وعمد صيون الثاني ، وناؤود (٩٠٠ – ٩٠١ هـ/ ١٤٩٤ م) . وعلى الرغم من أن أحد المعسكرين المتصارعين لم يحرز نصرا حاسما – يقضي به على مقاومة عدوه نهائيا فقد كان الطابع العام – لهذه المرحلة من مراحل الصراع بين القوى الإسلامية في الصومال الشمالي وبين ملوك الحبشة – طابعا غلبت فيه الروح الصليبية ، وتبادل الجانبان القتل والأسر والتخريب ، وإحراق المساجد والكنائس . وتجلّت ظاهرة مميزة لهذه المرحلة من مراحل القتال في القرن التاسع الهجري (١٥ م) التي اضطلع فيها بالجهاد ملوك عدل : هى محاولة ملوك الحبشة إحياء المشروعات الصليبية لمناهضة الإمارات الإسلامية في الحبشة ، وعزلها عن العالم الإسلامي الخارجي ، والتحالف ضد المسلمين بوجه عام إذ أن مسلمي عدل هم جزء منهم . وأجرت مملكة الحبشة في عهد كل من يسحاق ، وزرء يعقوب اتصالات لهذا الغرض مع بقايا القوى الصليبية في أوربا : ملوك الفرنجة وصاحب أرغونة (Aragon) وبابا روما .

وأمعن ملوك الحبشة في اضطهاد المسلمين بالإمارات الإسلامية التي أحكموا عليها قبضتهم في أوفات فاناجار ودوارو وبالي وهدية وبعض ممالك سدامة ، وامتد ذلك الاضطهاد إلى بعض القبائل البدوية المسلمة من التجراي والبجة في منطقة الساحل وخور بركة . ولقد فرض أولئك الملوك على أمير هدية جزية من نوع غريب هى تقديم فتاة عذراء مسلمة إلى ملك الحبشة في كل سنة يقوم الحطي (ملك الحبشة) بتنصيرها بنفسه . ويقول أهل هدية : « وحكم علينا .. ونطيعه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا ، وإذا أرسل إلينا الذي يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على السرير ، ونغسلها ، ونكفنها بثوب ، ونصلى عليها ، ونحسب أنها ميتة ، ونعطيها له ... »[١٤٣] .

وعلى الرغم مما آل إليه مصير جهاد القوى الإسلامية ، في هذه المرحلة في القرن التاسع الهجري (١٥ م) ، وعجزها عن تحقيق نصر حربي وسياسي ضد الصليبية الحبشية – وقتذاك – فإن الإسلام كان يتقدم تقدما ملحوظا ، ويحقق نجاحا ملموسا ، لم يكن يتوقعه الطرف الآخر من أطراف الصراع . فقد أتيح له – خلال المعارك الرهيبة بين الفريقين – أن ينفذ إلى قلوب المحاربين الأحباش واعتنقه كثيرون منهم حين تفهموا مبادئه وتعاليمه وأخلصوا له وأصبحوا عدته في الجهاد ضد بني جلدتهم من نصارى الحبشة . وروى أن قرابة ثلاثمائة ألف أسير من الأحباش وقعوا في أيدي المسلمين أثناء تقدمهم في صميم أراضي الحبشة بقيادة السلطان منصور بن سعد الدين حول سنة ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٣ م ، فخيرهم السلطان بين الإسلام أو العودة إلى قومهم ، فأسلم منهم نحو عشرة آلاف وعاد الباقون[١٤٤] .

وقد شهدت هذه المرحلة أيضا قدوم « الأمير حرب جوشن » أحد قواد النجاشي إلى معسكر عدل الإسلامي ، فاعتنق الإسلام وصار من أكابر قواد المسلمين . وقد استعان به السلطان جمال الدين في قتال النجاشي ، واستعادة بعض الإمارات الإسلامية وتوطيد نفوذ السلطان فيها مثل : « بالي » ، و « دوارو » ، وقد أبلى هذا القائد الحبشي المسلم بلاء حسنا ، وهكذا اكتسب ملوك الطراز – بإسلام هذا القائد وأتباعه – فوائد جمة ، ودخلت بفضل جهوده المخلصة للإسلام – جماعات من عمال الحطي وولاة أعماله في الطاعة[١٤٥] .

وقد اقترن جهاد هذا القائد بوقوع عدد كبير من الأسرى والرقيق في أيدي المسلمين ، « حتى امتلأت بلاد الهند ، وهرمز ، واليمن ، والحجاز ، ومصر ، والشام ، وبلاد سلاجقة الروم ، والعراق ، وفارس من رقيق الحبشة ، وبلغ من كثرة الرقيق ، أن بيع الرأس من الرقيق ، بربطة ورق وبخاتم واحد »[١٤٦] .

دور سلطنة هرر أو الجهاد الأعظم :

منذ بداية القرن العاشر الهجري (١٦ م) بدأ دور جديد من أدوار الجهاد الذي اضطلع به ملوك الطراز الإسلامي ضد ملوك الحبشة ، وهو الدور المعروف باسم : دور هرر ، أو : « الجهاد الأعظم » .

ويتميز هذا الدور بظواهر ثلاث ، أولاها : انتقال قيادة المجاهدين المسلمين من أيدي ملوك عدل من بيت آل سعد الدين – الذين ملّوا القتال وفترت فيهم روح الجهاد – إلى طائفة جديدة من الأمراء الذين أشربت نفوسهم حب الجهاد في سبيل الله – واتخذوا لقب : الإمام وقد شاركت في الجهاد والدعوة إلى الإسلام والتبصير بتعاليمه طوائف كبيرة من العلماء والفقهاء وتلك هى الظاهرة الثانية – وكانت الظاهرة الثالثة هى مشاركة الشعوب البدوية في الجهاد ، بعد أن تم إسلامها حول منتصف القرن العاشر الهجري (١٦ م) – بإسلام الأعفار (الدناكل) ، والصوماليين .

فأدت هذه الظواهر الثلاث إلى الدفع بالمجاهدين المسلمين إلى قلب الهضبة الحبشية معقل مقاومة الملوك الأحباش ، وتحقيق النصر عليهم ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية في الحبشة ، حتى غدت تشغل نحو ثلاثة أرباع مساحة مملكة الحبشة .

ولعل أهم مصدر لتاريخ هذه المرحلة من مراحل الجهاد ، هو : كتاب « فتوح الحبشة » لشهاب الدين أحمد بن عبد القادر ، المؤرخ العربي المسلم المعروف باسم « عرب فقيه » وقد ذكر أن الإمام الذي رشحته الأحداث لتزعم حركة الجهاد الإسلامي في « الدور الهرري » هو الإمام أحمد بن إبراهيم القرين .

نزح الإمام أحمد بن إبراهيم إلى مسقط رأسه « هيبوت » ، واتخذ منها قاعدة للإعداد معلنا عزمه على الجهاد وفتح الحبشة . وفي هذه القاعدة عمل الإمام على تأليف جبهة إسلامية متحدة وإعداد المجاهدين للجهاد . ورأى الإمام أن يضع حدا لأي تحرك من جانب سلاطين عدل ويوطد حكمه في الصومال لحماية ظهره ، ثم عمد إلى تنظيم صفوف القبائل التي أعلنت انضمامها إليه في مهارة فائقة ، وجعل منهم قوة ضاربة ذات بأس شديد فلما تم له ذلك بدأ الجهاد[١٤٧] .

واستهل الإمام جهاده ، بأن أعلن امتناعه – بادىء ذي بدء – عن دفع الجزية التي كان يدفعها ملوك عدل – من قبل – لملك الحبشة ، وعندئذ ، أصبح نشوب الحرب بينهما أمرا لا مفر منه . فقد تحركت الحبشة لقتال المسلمين سنة ٩٢٤ هـ (١٥١٨ م) ، واستهدف الأحباش اجتياح سلطنة عدل الإسلامية ، التي اعتقدوا ، عدم قدرتها على

المقاومة لكن تصدى لهم الإمام أحمد بن إبراهيم ، وأوقع بهم هزيمة منكرة في أول لقاء خلال جهاده . وتجاوز الإمام أحمد نطاق القتال التقليدي القديم ، فلم يكتف بالإغارة الخاطفة على الحدود ثم العودة ، إنما استهدف – هذه المرة – النفاذ إلى قلب الهضبة الحبشية نفسها ، والقضاء على مقاومة الأحباش العنيدة .

وأبدى بعض المسلمين في بلدة أماجة الحبشية – تخوفهم من التورط في حرب الأحباش والنفاذ إلى عقر دارهم ، ومما قالوه للإمام في هذا الصدد : « إن ملك الحبشة معه قوة عظيمة، وخيله لا تحسب ، وعدة من الدروع والخوذ والرجال والدرق لا يحصيهم إلّا الله تعالى ، وآباؤك وأجدادك ، والأمير علي ، والأمير محفوظ صهرك ، والجراد إبراهيم ، والسلاطين المتقدمة ممن ملك بر سعد الدين لم يكن أحد منهم يقصد ملك الحبشة إلى بلده ومسكنه ولكن يغزون إلى أطراف البلاد ويغنمون ويرجعون ، وإذا تبعهم أحد من الكفرة قاتلوا عما في أيديهم وأنت تريد تقصد ملك الحبشة إلى وطنه ، والآن لا تهلك المسلمين ! فقال الإمام : « الجهاد الجهاد في سبيل الله ، ما هو بتعب على المسلمين » . فقالوا : « نحن ما مرادنا إلّا الجهاد ، ومن قتل منّا صار إلى الجنة ، ومن عاش منا عاش سعيدا ، ونحن نعرف أن ملك النصرانية في قوة وكثرة ، ولكن نحن ما نقاتلهم لا بكثرة ولا بقوة ، وما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ... »[١٤٨] .

وتمكنت جيوش الإمام أحمد بن إبراهيم من إحراز نصرٍ حاسمٍ على الأحباش سنة (٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩ م) في موقعة شنبركوري . ثم بدأت زحفا عاما على بلاد الحبشة وتوالت انتصاراتها فاستعاد المسلمون إمارات : « بالي » و« هدية » و« سدامة » ولم تكد تستهل سنة ٩٤٢ هـ (١٥٣٥ م) ، حتى كان الإمام أحمد قد سيطر على جنوبي الحبشة ووسطها ، وبدأ في غزو مقاطعة تيجراي في قلب الحبشة وتم له إخضاعها بعد مقاومة عنيفة . وتقدم المسلمون في جميع الاتجاهات : في إقليم الساحل ، والسهول ، وفي الشمال الغربي حيث إمارات : « مزجة » و« ولقة » ، وهى إمارات نوبية يحكمها البجة[١٤٩] . وأمام هذه الانتصارات المتلاحقة للقوى الإسلامية بقيادة الإمام أحمد ، غدا الملك الحبشي لبنادنجل طريدا ، والتمس سبل الهرب من جبل إلى آخر[١٥٠] ،

واضطر أثناء فراره أمام قوات الإمام أحمد ، إلى طلب النجدة من ملك البرتغال ، وهو ما كانت تلحّ فيه أمه الملكة هيلينا قبل وفاتها سنة ٩٤٧ هـ/ ١٥٤٠ م .

ملك البرتغال يؤازر ملك الحبشة ضد المسلمين :

استجاب ملك البرتغال للدعوة ، وحين وصلت النجدة كان الملك الحبشي لبنادنجل قد توفي ، فخلفه ابنه الملك جلاوديوس (٩٤٧ – ٩٦٨ هـ/ ١٥٤٠ – ١٥٥٩ م) وكان الإمام أحمد قبل أن تستجيب البرتغال لنجدة الأحباش يحكم قبضته على بلاد الحبشة ، بعد أن اجتاحت جيوشه جميع أقاليمها إسلامية ونصرانية ، وانتهت آخر مظاهر المقاومة الحبشية في الشمال بين أعوام (٩٤٥ – ٩٤٧ هـ/ ١٥٣٨ – ١٥٤٠ م)[١٥١] .

وهكذا تحقق على أيدي المجاهدين المسلمين بقيادة الإمام أحمد بن إبراهيم ، ما كان قد أشار إليه الفقيه عبد الله الزيلعي قبل نهوض ملوك الطراز الإسلامي بحركة الجهاد : « لو اتفق ملوكها السبعة (ملوك الطراز الإسلامي) ، واجتمعت ذات بينهم قدروا على المدافعة أو التماسك ... »[١٥٢] .

وفي هذه المرحلة من مراحل الصراع الإسلامي الحبشي في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للهجرة (١٥ – ١٦ م) ، ظهر الجناح الآخر من الخطر الصليبي المهدد للمسلمين في ساحل جنوبي شرقي إفريقية متقدما من الجنوب فقد وضع البرتغاليون أقدامهم في المحيط الهندي وبدأوا يتطلعون إلى البحر الأحمر ، فاستولوا على جزيرة سوقطرة ، ودخلوا ميناء زيلع وأحرقوها سنة (٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م) . وظهرت في نفس الوقت قوة إسلامية فتية ، هي قوة الأتراك العثمانيين ، الذين استطاعوا الاستيلاء على الشام ومصر والبحر الأحمر . وأخذت كل قوة من هاتين القوتين – البرتغاليين والعثمانيين – تناصر الفريق الذي التمس منه العون . فقد سبق أن استنجد الأحباش بالبرتغاليين سنة (٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ م) – كما سبقت الإشارة – ومن ثم وصلت نجدة برتغالية سنة (٩٤٨ هـ/ ١٥٤١ م) إلى بلاد الحبشة وكان قوامها أربعمائة وخمسين من المحاربين المسلحين بالأسلحة والمدفعية الجديدة . والتقى المجاهدون بزعامة الإمام أحمد بالبرتغاليين

في سنة ٩٤٩ هـ/ ١٥٤٢ م في المنطقة الواقعة بين أميا ألاجي وبين بحيرة الشانجي . وأصيب الإمام بجراح لكنه نجا من الأسر ، فآوى إلى جبل زبول المطل على وادي الدناكل لجمع قواته وتنظيم صفوفه ، واستنجد الإمام بالباشا العثماني المقيم في زبيد باليمن ، كما استنجد بشريف مكة ، فأرسلوا إلى الإمام قوة مؤلفة من تسعمائة فارس ، وعشرة مدافع . وشن الإمام هجوما على القوات البرتغالية والحبشية واستطاع الانتصار عليهما معا ، وقبض على القائد البرتغالي كيرستوفر دي جاما ، وقتله . وفي هذه الموقعة فقد البرتغاليون نصف قوتهم وكمية كبيرة من الأسلحة[١٥٣] .

ويبدو أن الإمام اعتقد – خطأ – أن الأمر قد استتب له تماما ، ومن ثم لم يجد في بقاء القوة العثمانية العربية ضرورة حربية ، بعد أن بلغت قواته بحيرة تانا ، فأعاد القوتين إلى قاعدتيهما في الجزيرة العربية . لكن ما لبث الملك الحبشي وحلفاؤه البرتغاليون أن اشتبكوا مع قوات الإمام في معركة عند بحيرة تانا ، انتهت باستشهاد الإمام وتفرق جيوشه في أكتوبر سنة (٩٤٩ هـ/ ١٥٤٢ م)[١٥٤] .

إذا كانت حركة الجهاد التي تزعمها الإمام أحمد بن إبراهيم – والمعروفة بالفتح الأعظم – لم تحقق بعض أهدافها بالقضاء على مملكة الحبشة نهائيا ، فإنها قد أثبتت أنه يمكن أن تواجه الدولة الحبشية بنظمها الإقطاعية والسياسية والإدارية وعميق تعصبها ضد الإسلام ، وأن القبائل البدوية وسكان السهول إذا اتحدت صفوفهم ، وألفت بين قلوبهم غاية سامية عملوا لأجلها وجاهدوا في سبيلها ، ويستطيع هؤلاء أن يقضوا على مقاومة تلك الدولة للتيار الإسلامي الجارف ، وكما سبق أن أشار الفقيه عبد الله الزيلعي ، وتحقق خلال خمسة عشر عاما من الجهاد الإسلامي الذي قاده الإمام أحمد بن إبراهيم القرين .

لقد أتيح للإسلام أن ينتشر على نطاق واسع في ركاب ذلك الفتح فيذكر عرب فقيه أن غالبية سكان الهضبة الحبشية اعتنقوا الإسلام : « وقد أسلم أكثر الحبشة والمسلمون متفرقون فيها » . وأشار في موضع آخر إلى من دخل في الإسلام عن يقين وسلامة اعتقاد من قواد ملك الحبشة وبطارقته : « ... وأما أهل « جان زلق » ، فإنهم ما أسلموا وكانوا مختفين في الدسوت ، وسار الإمام إلى « جان زلق » ، وأرسل إلى خالد الورادي ،

والجراد عثمان بن جوهر، وقال لهما : سيرا إلى « قوت » وادعياهم إلى الإسلام ، فسارا ووصلا إلى البلد ، ودخل إليهما أهل « جان زلق » وأهل « قوت » بالأجمع ، ورجعا إلى عند الإمام وهو في أرض « جان زلق » ، وهم مسلمون . وكان من أسلم من البطارقة « حيزوا » ، وكذلك بطريق « دلو » ، وبطريق « دبلّي » وهم ثلاثة ، فأسلموا وحسن إسلامهم ، شهدوا المشاهد التي كانت بعد ، وأمّر على أهل « قوت » خالد الورادي ، فسار معهم إلى بلادهم ، وأسلم نساؤهم وأولادهم وحسن إسلامهم »[١٥٥] .

كما عاد إلى الإسلام ، وإعلان التوبة ، جميع الذين كان ملك الحبشة أرغمهم من قبل على الارتداد عن الإسلام ، كما فعل أحد القواد ومعه عشرون ألف مقاتل ، إذ كتب إلى الإمام أحمد يقول : « أنا – من أول – مسلم بن مسلم ، وأسروني المشركون ، ونصّروني . وإن قلبي مطمئن بالإيمان ، والآن أنا جار الله ، وجار رسوله ، وجارك – أن تقبل توبتي ، ولا تؤاخذني بما عملت ، فأنا تائب إلى الله ، وهذه جيوش الملك الذين هم معي أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا ... »[١٥٦] .

ويقال إنه لم يحتفظ بدينه – النصراني – من الأحباش بعد جهاد الإمام أحمد بن إبراهيم ، أكثر من فرد واحد من كل عشرة . فمن استسلم وأراد الاحتفاظ بدينه النصراني ، فرضت عليه الجزية ، ومن اختار المقاومة قوتل . وكان الفقهاء يسيرون في ركاب الفتح ، يحرّضون على الجهاد ، ويفقهون الناس في الدين[١٥٧] .

ولم تمت بموت الإمام أحمد تلك الدفعة الإسلامية القوية التي اقترنت بالجهاد الإسلامي ، بالرغم من الخسائر الكبيرة في الأرواح بين المجاهدين المسلمين في قوات الإمام أحمد ، من قبائل الأعفار والصوماليين بخاصة . فقد استمرت هذه الدفعة الإسلامية من بعده فترة طويلة . ونهض الوزير عباس ، لتكوين دولة إسلامية من مقاطعات « دوارو » ، « فاتاجار » و« بالي » ، غير أن جهوده في هذا المجال لم يقدر لها النجاح ، إذ قضى ملك الحبشة جلاوديوس على هذه المحاولات ، وقام باحتلال تلك المقاطعات . بيد أنه كان احتلالا سريع الزوال ، حيث وصلت طلائع قبائل الجالا ، إلى مقاطعة بالي ، وجعلوا منها مركزا لموجات الهجرة التي أخذت تتواصل منها فيما بعد .

وانتفضت مقاطعة هرر مرة أخرى ، والتف الناس حول أرملة الإمام أحمد بن إبراهيم وقاموا بمحاولتين كان نصيب أولاهما الفشل . لكن المحاولة الثانية التي قادها نور بن مجاهد أحد أقارب الإمام قد واجهت مملكة الحبشة النصرانية وقد ساء موقفها إذ أصبحت مهددة من جانب هجرات قبائل الجالا في الجنوب ، وبالوجود العثماني في الشمال .

وكان قد طرأ على موقف الأتراك العثمانيين في منطقة البحر الأحمر بعض التحسن – باستيلائهم على ميناء مصوع وحرقيقو ، وتوغلهم في داخل منطقة إرتريا ، وبناء قلعة بداباروا '' Dabarwa '' ثم استقرارهم في سواكن ومصوع وحرقيقو بعد مناوشات مع الأحباش انتهت بمقتل قائد الحامية العثمانية ، وعقد اتفاقية بين الطرفين سنة ٩٩٩ هـ (١٥٨٩ م) .

وانتهت انتفاضة هرر بقيادة المجاهد نور بن مجاهد بقتل ملك الحبشة كلوديوس في معركة نشبت بين المجاهدين المسلمين وبين الحبشة ، وعرف نور بن مجاهد باسم صاحب الفتح الثاني ، وتوفي ودفن في هرر سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م) .

وإذا كان الجهاد الذي اضطلع به مسلمو الطراز الإسلامي في الصومال الشمالي ضد الصليبية الحبشية طوال أربعة قرون ، لم يؤد إلى القضاء على مقاومة ملوك الحبشة وكنيستها لحركة الإسلام وتقدمه وانتهى إلى ما انتهى إليه من ضعف القوة السياسية للمسلمين وتفككها ، فليس يعني هذا ضياع مكانة العقيدة الإسلامية نفسها في هذه البلاد . فمن المحقق أن الإسلام ظل يشق طريقه في قلب الهضبة الحبشية طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (١٧ – ١٨ م) بوسائل أخرى . واستطاع أن يقلب الهزيمة العسكرية إلى انتصار من ناحية دعوته ، وحقق في ذلك من النجاح ما لم تحققه المعارك الدامية التي خاضها المسلمون خلال تلك الفترة المتطاولة .

وكان للجناح الثاني للحركة الصليبية في المنطقة الجنوبية من ساحل شرقي إفريقية ممثلا في البرتغاليين خططه الخاصة في هذا الإقليم في العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي (٩ هـ) وكانت لهم مشروعاتهم الصليبية التي حاولوا تحقيقها في عالم المحيط الهندي . وكان من بين هذه المشروعات الصليبية – بعد المشاركة في حركة الكشوف

الجغرافية للوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح – العمل على بسط سيادتهم على ساحل شرقي إفريقية ، واتخاذ قواعد ومستعمرات على امتداده ، واحتكار تجارة الذهب والعاج والرقيق ، والقضاء على المسلمين وانتزاع تجارة المحيط الهندي من أيديهم . وقد تطلب تأمين الطريق إلى الهند ، الاستيلاء على بعض المواقع الإستراتيجية ، في ماقا وعدن وهرمز ، لأنها مفاتيح الطريق إلى البحر الأحمر والخليج وجزر الهند الشرقية[١٥٨] .

واستغل البرتغاليون ما كانت عليه الإمارات والسلطنات في جنوبي شرقي إفريقية من تفكك وصراع سياسي واقتصادي ، وتمكنوا من تثبيت أقدامهم على ساحل شرقي إفريقية ما يقرب من مائتي عام (٩٠٤ – ١١١٠ هـ/ ١٤٩٨ – ١٦٩٨ م) ، آلت إليهم تجارته وموارده واستفادوا من مصادر الذهب والعاج والرقيق[١٥٩] .

وقد عمد البرتغاليون إلى اغتيال المدن والسلطنات الإسلامية في جنوبي شرقي إفريقية واحدة بعد الأخرى . ففي أقل من عشر سنوات خضعت للبرتغاليين معظم مدن الساحل ، إما بقبولها السيادة البرتغالية ودفع الجزية ، وإما بالقضاء عليها[١٦٠] . فخضعت لهم سلطنتا كلوا وزنجبار ، وإمارات لامو ، وأوجا ، وبراوة . ولم تنج واحدة من هذه المدن المزدهرة من عبث أولئك الغزاة ، فقد أحرقت مدينة ممبسة خمس مرات ، كما دمرت مساجد لامو وبات ، ولم ينج من هذه الضربات القاسية سوى مدينة مالندي حليفة البرتغاليين[١٦١] . وحاول شيخ ممبسة التعاون مع شيخ مالندي ضد البرتغاليين ، غير أن الأخير لم يقبل هذا التعاون ، بسبب ما تغلغل في قلوب أهل مالندي من عداوة شديدة نحو ممبسة[١٦٢] . ولم يبق لإتمام سيادة البرتغال على ساحل شرقي إفريقية سوى مشيخة مقديشو وجزيرة مدغشقر اللتين ظل البرتغاليون يتطلعون لاحتلالهما لولا انشغالهم بمشروعاتهم في الخليج العربي ، وكانوا قد قاموا بنهب مسقط وهرمز واستطاعوا هزيمة الأسطول المصري المملوكي في موقعة ديو البحرية سنة (٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م) . وهكذا فقد المسلمون سيطرتهم على ساحل شرقي إفريقية والمحيط الهندي ، وانتقلت السيطرة إلى البرتغاليين[١٦٣] .

ومع أن حركات الجهاد ضد الصليبية الحبشية ، قد انتهت إلى ما انتهت إليه من سيطرة الأحباش ، وانتهت في الجنوب إلى فرض النفوذ البرتغالي ، فإن القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد (١١ – ١٢ هـ) قد شهدا انبعاث التيار الإسلامي قويا وتمكن الإسلام من التغلب على هذه المصائب التي ابتلي بها المسلمون وكان مسرحها شرقي إفريقية – الجنوب منه والشمال .

ففي الجنوب استجدت ظروف مكنت الإمارات الإسلامية من أن تنفض عنها ربقة الاحتلال البرتغالي في شرقي إفريقية والمحيط الهندي ، وأن تسترجع ما انتقص من سيادتها ، وهكذا عادت للإسلام قوته ، بل أتيحت له – وعلى نطاق واسع – أن يتوغل في منطقة البحيرات – في كينيا ، وأوغندة ، وملاوي – لأول مرة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد (١٣ – ١٤ هـ) .

وقد طرأت ظروف جديدة على عالم المحيط الهندي في عصر النفوذ البرتغالي في شرقي إفريقية والخليج العربي ، وجنوبي شرقي آسيا ، إذ ظهرت قوى استعمارية جديدة – إنجليزية ، هولندية ، فرنسية بعد أقل من نصف قرن من كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند . وشرعت هذه القوى الاستعمارية الجديدة تنافس البرتغال في مجال الكشف والاستعمار والاستغلال الاقتصادي في الهند وجزر الهند الشرقية . وأخذت كل قوة ترسل سفنها التجارية المسلحة للانتشار في أقاليم الهند والشرق الأقصى حتى الفلبين ، وأدت هذه التطورات الجديدة إلى تقلص سيادة البرتغاليين في المحيط الهندي والشرق الأقصى ولم يبق بأيديهم سوى ميناء جوا على الساحل الغربي للهند[١٦٤] .

وفي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد (١٠ – ١١ هـ) ، وهي المدة التي فرض فيها البرتغاليون سيادتهم على الإمارات الإسلامية في جنوبي شرقي إفريقية لم تتوقف هذه الإمارات – باستثناء مالندي – عن مقاومة التسلط البرتغالي ، وفي مقدمتها مدينة ممبسة . واقترنت ثورة الإمارات الإسلامية بظاهرتين ، أولاهما : اضمحلال النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي ، وثانيتهما : ظهور قوة الأتراك العثمانيين في البحر الأحمر والخليج العربي .

وكان ظهور الأسطول العثماني في مياه هذين البحرين – البحر الأحمر والمحيط الهندي – عاملا قويا شدّ من عزائم المناضلين المسلمين واستقبلت السفن العثمانية بحماسة شديدة في كل مدينة زارتها ، وأعلنت كل من مقديشو ، وبراوة ، وقسمايو ، وفازا ، وبات ، ولامو ولاءها للسلطان العثماني ، وكانت مشيخة ممبسة أسبق الإمارات الإسلامية إلى الرغبة في بناء قلعة حربية تحميها بحامية عثمانية(١٦٥) . وليس من المعروف تماما إلى أى مدى توغل الأسطول العثماني في مياه ساحل شرقي إفريقية ، ولكن المعروف أنه رحل سنة (٩٥٥ هـ) ١٥٨٦ م إلى قواعده في البحر الأحمر محملا بمجموعة من الغنائم ، وعدد كبير من الأسرى البرتغاليين . وتبع رحيل الأسطول العثماني ، تقدم أسطول برتغالي من ميناء جوا ، تلبية لطلب شيخ مالندي في عام (٩٩٧ هـ) ١٥٨٧ م وقام البرتغاليون بحملة تأديب عنيفة ضد الإمارات الإسلامية التي أعلنت ولاءها للعثمانيين ، صمدت لها مدينة مقديشو لمناعة أسوارها وبسالة المدافعين عنها . ولم يجد البرتغاليون ، في ممبسة ما يسلبونه بعد رحيل أصحابها عنها . واستجاب العثمانيون لدعوة الإمارات الإسلامية للمرة الثانية ، لتخليصها من التسلط البرتغالي . وظهر أسطولهم مرة أخرى فى مياه ساحل شرقي إفريقية ، واستقبل من سكان الساحل بحماسة شديدة ، كما فعلوا من قبل – باستثناء مالندي – التي كانت لا تزال على موقفها العدائي ، وبعث شيخها يستنجد بالبرتغاليين من جوا للمرة الثانية سنة (٩٩٧ هـ) ١٥٨٧ م ، وتمكن البرتعاليون – هذه المرة – من الإيقاع بالأسطول العثماني وأسر قائده – وإرغام أهالي المدن الإسلامية على الإذعان لطاعتهم من جديد . واستتبع ذلك ، إحكام قبضة البرتغاليين على ممبسة ببناء قلعة ، عرفت باسم قلعة المسيح ، لاتخاذها نقطة ارتكاز لإحكام السيطرة على الإمارات الشمالية في ممبسة وكلوة وغيرها .

انتزع البرتغاليون حكم سلطنة ممبسة من الأسرة الحاكمة فيها وولّوها شيخ مالندي الحسن بن أحمد ، فانتقل إليها وجعلها مقرا لحكمه . غير أنه لم يلبث أن اختلف مع البرتغاليين فقتلوه ، وجيء بولده – يوسف الذي كان لا يزال صغيرا – إلى جوا بالهند وعهد بتربيته إلى رهبان كاثوليك لتنصيره . وتظاهر الأمير يوسف بالنصرانية ليجيد خطة

دبرها لخداع البرتغاليين والتخلص من طغيانهم . ولما عاد يوسف إلى إمارته في ممبسة دبر مؤامرة محكمة للتخلص من حاكم ممبسة البرتغالي الذي اشتهر بغطرسته وظلمه ، وقاد الأمير يوسف بنفسه – بمناسبة احتفالاتهم في شهر أغسطس سنة ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م – ثلاثمائة من أتباعه المخلصين انقضّ بهم على حصن الحاكم البرتغالي ، وقضى عليه وعلى أفراد أسرته والقس المقيم بكنيسة المدينة ثم أضرم النار في الحي الذي كان قد سكنه البرتغاليون فيها . وبعد أن انتهى الأمير يوسف بن الحسن من القضاء على هذا الحي من المدينة ، أرسل إلى الزعماء والأمراء في البلاد المجاورة للاقتداء به في التخلص من ظلم البرتغاليين ، وسرعان ما نشبت نيران الثورة في جميع أنحاء الساحل(١٦٦) .

كانت مدينة بمبا في طليعة الإمارات الإسلامية الثائرة ، وفشلت حملتان برتغاليتان – جردهما حاكم جوا البرتغالي – في اقتحام مدينة ممبسة وإخضاع المدن الثائرة . ويستفاد من نقوش مكتوبة على باب حصن ممبسة أن البرتغاليين تمكنوا من دخول المدينة (١٠٤٩ هـ) ١٦٣٩ م بقيادة فرنسسكو دي سكساس كابريرا "Francisco Seixas Carbeira" وأخضعوها وفرضوا الجزية على عدة مشيخات وعاقبوا سكانها ، وهدموا أسوارها ، وقتلوا حكامها وزعماء الثورة فيها(١٦٧) .

أما الأمير يوسف – آخر سلاطين ممبسة – فقد حاول البرتغاليون القبض عليه والانتقام منه ، ولكن يبدو أنه قتل سنة (١٠٤٧ هـ) ١٦٣٧ م بأيدي بعض معارضيه من العرب في البحر الأحمر(١٦٨) .

عـــرب عمـــــــان :

ولم يكن معنى ذلك خضوع ساحل شرقي إفريقية تماما للبرتغاليين فقد ظهر على مسرح الأحداث في المحيط الهندي ، عدو نشط جديد للبرتغاليين هم عرب عمان الذين استجابوا لنجدة إخوانهم مسلمي ساحل شرقي إفريقية ، وتمكنوا من الإجهاز على النفوذ البرتغالي المتداعي في شرقي إفريقية وعمان والخليج العربي . ولقد اقترن نجاح عرب عمان في إنهاء السيطرة البرتغالية ، بما سبقت الإشارة إليه من اضمحلال الإمبراطورية البرتغالية في بحار الشرق ، ومنافسة القوى العالمية الجديدة لها – هولندة وإنجلترا وفرنسا – مما

شجع القوى الإسلامية في المحيط الهندي والخليج العربي على التخلص من السيادة البرتغالية .

وأوقع الفرس في سنة (١٠٣٣ هـ) ١٦٢٢ م هزيمة ساحقة بالحامية البرتغالية في هرمز مفتاح الخليج ، كما هبّ العمانيون في وجه البرتغاليين ، وتمكنوا بقيادة الإمام سلطان بن سيف من طردهم سنة ١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٨ م من مدينة مسقط وتطهير أراضيهم من التسلط البرتغالي[١٦٩] .

وشجع هذا الانتصار مسلمي شرقي إفريقية أن يطلبوا مساعدة إخوانهم العمانيين لتخليصهم من الحكم البرتغالي . واستجاب العمانيون بقيادة الإمام سلطان بن سيف لمطلبهم ، وأرسل سفنه إلى ممبسة لحصارها ، غير أنه لم يوفق في إخراج البرتغاليين من الحصن إلا بعد جهودٍ مضنية استمرت خمس سنوات . ولم يستطع الإمام سلطان بعد استيلائه على الحصن من الاحتفاظ به طويلا ، ذلك أن البرتغاليين ، لم يلبثوا أن جمعوا فلولهم وتمكنوا من التغلب على الحامية العربية التي أبقاها الإمام سلطان بن سيف في الحصن . وعاود البرتغاليون السيطرة من جديد على الحصن والمناطق المجاورة له ، وساروا في الناس بالشدة والبطش .

وتوالت العمليات العسكرية في عهد خلفاء سلطان بن سيف ، وخليفته سيف بن سلطان . وتخللت حرب العمانيين والبرتغاليين روح صليبية . وفي عهد الإمام سيف بن سلطان ، وقع حصن ممبسة المعروف بقلعة المسيح – في قبضة العمانيين في ٢٤ ديسمبر سنة (١١١٠ هـ) ١٦٩٨ م ، وتبع ذلك طرد البرتغاليين من كلوة ، وبمبا ، والتمهيد لنشر النفوذ العماني في شرقي إفريقية .

وهكذا شهدت الفترة بين (١٠٦٩ – ١١١٠ هـ) ١٦٥٨ – ١٦٩٨ م ، مراحل متتالية من تحطيم العمانيين للسيطرة البرتغالية في الموانيء والمراكز الإسلامية شمالي خليج دلجادو . ولم تستقر الأمور في شرقي إفريقية بصورة كاملة إلا سنة (١١٥٤ هـ) ١٧٤١ م . فقد عاد البرتغاليون لاحتلال ممبسة ، وذلك بسبب النزاع بين سلطنتي ممبسة وزنجبار ، ونشوب الفتن الداخلية في سلطنة عمان نفسها وتهديد الإيرانيين لها . ومنذ سنة

(١١٥٣ هـ) ١٧٤٠ م استطاع الإمام أحمد بن سعيد – مؤسس أسرة بو سعيد – أن يخلف أسرة اليعاربة في الحكم ، وأن يعيد لبلاده وحدتها ، ويقضي على الخطر الإيراني ، ويتحرر من أى نفوذ أجنبي[١٧٠] .

ولم يؤد تدخل عرب عمان إلى استئصال السيطرة البرتغالية في شرقي إفريقية فحسب ، بل أدى هذا التدخل من جانب القوة العمانية الإسلامية الفتيّة ، إلى تهيئة المناخ الصالح لانتشار الإسلام ، والدعوة إليه ، دون عقبات،وكان البرتغاليون قد أفسحوا كل مجال للتبشير الكاثوليكي في شرقي إفريقية . ولذا تعد سنة (١١١٠ هـ) ١٦٩٨ م علامة بارزة هامة في تاريخ الدعوة إلى الإسلام في شرقي إفريقية ، إذ أتيحت للإسلام الفرص لمواصلة انتشاره دون عراقيل[١٧١] .

وإذا كانت بعض الإمارات الإسلامية في شرقي إفريقية لم تشأ الاعتراف بامتداد النفوذ العماني إليها وحاولت الانفصال كما فعل أمراء ممبسةالمزروعيون – وأمراء باتالنبهانيون وغيرهم ، فقد وقع على كاهل سلطنة عمان القضاء على الأسرة العربية الحاكمة في ممبسة ، وإعادة بقية المدن الإسلامية بالساحل إلى الطاعة ، وتبع ذلك انتقال مركز الحكم من مسقط إلى زنجبار سنة ١٢٥٦ هـ/ ١٨٤٠ م ، وانتقال السلطان السيد سعيد بن سلطان إلى جزيرة زنجبار ليتخذها مقاما دائما له[١٧٢] .

النشاط التجاري في زنجبار وأثره في انتشار الإسلام :

كان للخطوة الجريئة التي أقدم عليها السلطان السيد سعيد بن سلطان ، آثارها العميقة ، في تاريخ سلطنة زنجبار والشرق الإفريقي بصفة عامة ، وتاريخ الدعوة الإسلامية بشرق إفريقية بصفة خاصة . فقد وفد مع السلطان عند انتقاله إلى زنجبار جماعات كبيرة من عرب عمان وجنوب الجزيرة العربية ، ولاسيما من حضرموت ، فازدهرت بمقدمهم التجارة وانتعشت انتعاشا كبيرا إلى درجة لم تكن معهودة من قبل . كما ازداد عدد الهنود الوافدين إلى الشرق الإفريقي ، وبينما كان نشاط الهنود على الساحل مقصورا على المعاملات التجارية وأعمال النقل البحري ، توغل التجار العرب في المناطق الداخلية التي لم يرتدها أحد من قبل . ذلك أن سلطنة زنجبار لم تتوقف في بسط نفوذها ومشروعاتها

الاقتصادية عند الساحل فحسب ، بل عملت على توطيد سلطانها في الداخل كذلك . ولم يأت توغل سلطنة زنجبار الإسلامية بهدف السيطرة وبسط النفوذ السياسي ، وإنما كان بقصد تنشيط الحركة الاقتصادية في مجالي التجارة والزراعة . فتطورت زنجبار في عهد السلطان سعيد وأصبحت ميناء هاما به سوق كبرى وتجارة رائجة للعاج والصمغ والقرنفل،واستتبع هذا النشاط الاقتصادي نمو حركة الإسلام وتقدمها تقدما حقيقيا إلى المناطق الداخلية من إقليم شرقي إفريقية . وقد تعمق المسلمون في توغلهم إلى الداخل ، فنفذوا إلى هضبة البحيرات ، ودخل تجار زنجبار إلى قلب منطقة تنزانيا (تنجانيقا) ، وملاوي (نياسالاند) وأوغندة .

وعمل العرب الذين تبعوا السلطان السيد سعيد إلى زنجبار – على السيطرة على الطرق التجارية عبر القارة . وعلى طول طرق القوافل هذه ، كانت تؤسس منازل عربية تعتبر في نفس الوقت بمثابة مراكز ثقافية لنشر الإسلام ، وإمداد المناطق الداخلية بحضارة الإسلام وثقافته القادمتين من زنجبار . ومن أشهر تلك المراكز الداخلية : « كازخ » Kazch « طابورة الآن » ، وتقع على الطريق المؤدي من الساحل إلى مدينة « موانزا » Mwanza على بحيرة فيكتوريا ، ومدينة « أوجيجي » Ujije على بحيرة تنجانيقا ، وذلك فضلا عن المراكز الواقعة على الطريق المؤدي من مدينة كلوة إلى بحيرة نياسا(١٧٣) . وكانت القوافل التجارية المارة خلال تلك الجهات في طريقها من الداخل إلى الساحل والعكس تعمل على تقوية الروابط بين تلك المراكز ، ووصلها بعاصمة السلطنة . وقد ترتب على هذا الاتصال وجود أقليات عربية كثيرة العدد في تنزانيا (تنجانيقا) وملاوي (نياسالاند) ، وكينيا ، وأوغندة ، والكنغو . وأدى استقرار الأمور في سلطنة زنجبار وسيطرتها على الساحل ، ونجاح المشروعات الزراعية الكبيرة في اجتذاب العمالة الإفريقية من الداخل للعمل في هذه المزارع إلى استقرار الأوضاع بين القبائل المجاورة ، من تانجا (تنجانيقا) حتى الجنوب .

ومن ثم بدأ الإسلام يشق طريقه نحو الداخل ، فاعتنقته قبائل الديجو Digo والزرامو ، والقبائل التي تقيم حول نهر روفيجي Rufiji،وأسلمت قبائل كانت تشغل

مساحات واسعة من الأرض ، فزاد نفوذ زعمائها بتعاونهم مع السلطات العربية الإسلامية في زنجبار في تعزيز الدعوة إلى الإسلام وإقامة شعائره ، فأنشئت المساجد في القرى الواقعة على طول الطرق التجارية المؤدية إلى بحيرات نياسا وتنجانيقا وفيكتوريا . واستجابت للدعوة إلى الإسلام قبائل « أوزامبارا » Usambara في القرى الواقعة على طول نهر « بانجاني » Pangani وعمل زعماؤها على الاستعانة ببعض المدرسين الزنجباريين لتعليم أفراد قبائلهم اللغة العربية وتعاليم الإسلام(١٧٤) .

وهكذا حمل التجار العرب المسلمون إلى الأقاليم الداخلية في ملاوي (نياسالاند) إلى جانب سلعهم الدعوة إلى الإسلام بين القبائل التي نشأت بينهم وبينها علاقات تجارية . وكان الكثيرون من قبائل « النياموزيزي » ، وقبائل « الياو » Yao قد التمسوا سبل العمل في التجارة العربية وما تتطلبه من أعمال تتصل بها من نقل وحراسة وغيرهما وأدى اتصال هؤلاء بالتجار المسلمين عن قرب إلى اعتناقهم الإسلام .

كما شهد منتصف القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م) ، امتداد الإسلام إلى منطقة أوغندة وحول بحيرة فيكتوريا ، نتيجة لجهود مصدرها تياران رئيسيان على الأقل : أولهما التيار القادم من الشرق على أيدي التجار الزنجباريين ، عبر الطرق الموصلة بين بحيرة فيكتوريا من ناحية وجزيرة زنجبار والمدن الساحلية المواجهة لها ومدينة ممبسة من ناحية أخرى . أما التيار الثاني فمصدره التجار السودانيون والفصائل العسكرية التي قدمت من مصر والسودان للإقامة بإقليم خط الإستواء .

ومن أبرز الدعاة من التجار المسلمين الأوائل الذين أتوا من زنجبار في الشرق وتركوا أثرا بعيد المدى في مجال الدعوة الإسلامية في أوغندا الشيخ أحمد بن إبراهيم العامري ، إذ يعتبر وصول هذا التاجر وغيره من تجار زنجبار – لأول مرة – سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤ م) إلى بلاط الكباكا (الملك « سنا » Suna) في مملكة بوغندا ، نقطة تحول في تاريخ المملكة وبداية لدخول الإسلام إلى أوغندا . ويعد الشيخ أحمد بن إبراهيم نموذجا لعمل الطلائع من الدعاة المسلمين في ربوع القارة الإفريقية الذين جمعوا بين ممارسة التجارة والدعوة إلى الإسلام وتعليم الناس وتفقيههم في أمور دينهم ، وقد وهبوا أنفسهم

للعمل في سبيل الله احتسابا ، وقد استطاع الملك المذكور أن يستبين كما يروي هو ومن حوله من رجال الحاشية وغيرهم شيئا فشيئا ضلال الوثنية ، وما يملأ حياة المسلمين من نور الهداية والوحدانية[١٧٥] . وانتهى الأمر بأن أعلن الكباكا اعتناقه الإسلام ، وطلب من الشيخ أحمد أن يعلمه مبادئ الدين الذي لا مكان فيه للشرك وعبادة البشر وتقديسهم . ويروى أن الشيخ أحمد علّم الملك أربعة أجزاء من القرآن الكريم قبل وفاته عام ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م) . وبذا انفتح الباب – بعد هذه الخطوة الممهدة على مصراعيه لانتشار الإسلام في أوغندة .

وإذا كانت العلاقات الاقتصادية بين سلطنة زنجبار ومملكة بوغندة التي حرص الطرفان على ازدهارها ، قد جاءت في خدمة الإسلام وكانت وسيلة لوصول دعوته إلى قبائل بوغندة فإن الإسلام بعقيدته السمحة التي تأخذ طريقها إلى القلوب والعقول وفضائله ومثله العليا التي تفتقدها المعتقدات الإفريقية الغارقة في الوثنية كانت له جاذبيته وتأثيره الفعال في أهالي شرقي إفريقية . وقد وضع الشيخ أحمد بن إبراهيم وغيره من التجار الزنجباريين والسواحليين قاعدة راسخة للإسلام في عهد الكباكا (الملك) موتيسا الأول (١٢٧٣ – ١٣٢٠ هـ/ ١٨٥٦ – ١٩٠٢ م) وأبدى موتيسا حماسا شديدا لنشر الإسلام ، و لم تكن جهوده في هذا المجال مقصورة على مملكة بوجندة فحسب ، بل شملت جميع الممالك الأوغندية المجاورة . فقد كتب إلى « كباريجا » Kabarega « ملك إقليم بنيورو » Bonyore يدعوه وشعبه للدخول في الإسلام . كما أصدر أوامره إلى جميع أقاليم مملكته باعتناق الدين الجديد وإقامة شعائره ، وتشييد المساجد . واتضحت معالم النفوذ الإسلامي المتزايد القادم من زنجبار عندما قرر الملك موتيسا منح السواحليين والزنجباريين مشيخات وولايات ليقوموا بإدارتها وتصريف شئونها[١٧٦] ، كما أعطى للزنجباريين حق الإقامة الدائمة والاستيطان في بلاده باعتبارهم تجارا وعلماء وفقهاء . وقد حذا حذو الملك زعماء القبائل في دعوة تجار العرب الزنجباريين المسلمين إلى ارتياد المناطق المجاورة لمراكز سكناهم لما لمسوه على أيديهم من خير وفير لبلادهم[١٧٧] .

التيار السوداني وأثره في انتشار الإسلام :

وجاء التيار القادم من مصر والسودان في الشمال معززا لانتشار الإسلام في شرقي

إفريقية وقد تمثّل في الفصائل السودانية بالجيش المصري التي شرعت بدورها في خدمة الدعوة إلى الإسلام في أوغندة حين أبدى الكباكا موتيسا الأول سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤ م رغبته في عقد أواصر الصداقة مع حكومة مصر . وكانت القوات المصرية والسودانية التي وصلت إلى بحيرة فيكتوريا بقيادة أمين باشا هى وسلالتها إضافة لمسلمي أوغندة .

وقد سعى الخديوي إسماعيل (١٢٨٠ - ١٢٩٧ هـ/ ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) لاكتشاف منابع النيل ، وفتح الأقاليم الإستوائية للتجارة . وفي سنة ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤ م استقبلت البعثة المصرية إلى بوغندة بالتكريم من جانب موتيسا وكباريجا أشهر ملكين في أوغندة ، وأعلن موتيسا على لسان رسله إلى قائد البعثة المصرية عن رغبته في توثيق العلاقات مع مصر كما سبقت الإشارة ، وطلب إيفاد بعض العلماء لتفقيهه وشعبه في الإسلام . واعتمد الخديوي إسماعيل على الأجانب في تحقيق سياسته في الكشف الجغرافي وفتح الأقاليم الإستوائية للتجارة - من أمثال غوردون وصمويل بيكر - وعمل هؤلاء في حقيقة أمرهم لتحقيق التوسع الاستعماري الأوربي في هذه الأقاليم . وجاءت زيارة الرحالة إستانلي لبلاد موتيسا سنة ١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٦ م تأكيدا للخطة الاستعمارية الأوربية التي تسعى للتمهيد لبسط نفوذها عن طريق البعثات التنصرية - كاثوليكية وبروتستانتية ، فتوافدت هذه على البلاد بعد تزويدها بالإمكانات التي تكفل لها استمالة شعوب تلك الأقاليم للنصرانية ، ووقف المد الإسلامي فيها . ومع هذا كله كان للقوات المصرية والسودانية في مديرية خط الإستواء والتي بقي أغلب السودانيين فيها حيث كانوا يقيمون على الرغم من الأمر بسحب القوات بعد استيلاء المهديين على الخرطوم سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) ، أكبر الأثر في انتشار الإسلام في أوغندة ، فقد استقر أولئك الجنود وأسرهم وأتباعهم في المراكز الإدارية والنقاط العسكرية مثل وادلاي ، فاتيكو ، الدفلاي ، فويرا ، وقد امتدت تلك المراكز والنقاط جنوبا حتى منطقة أشولي وبنيورو (الأوغندية) وهناك أقام أولئك الجنود السودانيون وخالطوا السكان وامتزجوا بهم عن طريق الزواج والمصاهرة ، وصارت مراكز تلك الحاميات العسكرية

بمثابة مراكز اشعاع إسلامي حيث قام كل من المسجد والمدرسة والفقيه بدور في نشر الإسلام ، وتعليم اللغة العربية وتعاليم الإسلام لأبناء رجال الحاميات ، وأبناء أهل هذه المراكز وغيرها من القوى[١٧٨] .

ظل الإسلام ينتشر في أوغندة على الرغم من وقوعها في قبضة الاستعمار البريطاني وتغلغل البعثات التبشيرية ، فتمسك كثير من المسلمين وزعماؤهم بعقيدتهم ، واستمر الإسلام في الانتشار بجهود التجار والعمال من الزنجباريين والهنود ، فضلا عن جهود التجار العرب وبقايا الحاميات السودانية بالجيش المصري ، لكن انتشار الإسلام لم يبلغ بطبيعة الحال مداه في ظل الاستعمار . وقد اعتنق الإسلام عدد كبير من سكان إقليم « بوسوجا » Bosga في شمالي أوغندة أوائل القرن الرابع عشر الهجري[١٠٣] .

استمرار انتشار الإسلام في الحبشة وإرتريا والصومال :

ولم تتوقف حركة الإسلام في الجزء الشمالي من إقليم شرقي إفريقية – في الحبشة وإرتريا ، والصومال بعد انتهاء حركة الجهاد وضعف القوة السياسية للمسلمين ، بل ظل الإسلام يشق طريقه – على ما سبقت الإشارة إليه – في قلب الهضبة الحبشية طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (١٨١٧ م) ، وحقق من النجاح ما لم تحققه المعارك التي خاضها المسلمون ضد الصليبية الحبشية طوال أربعة قرون ، وقلب الإسلام الهزيمة العسكرية – كما ذكرنا – إلى انتصار سلمي لدعوته .

ولعل من بين عوامل نجاح الدعوة الإسلامية ، اتصال المسلمين بنصارى الحبشة بطرق متعددة إبان توغل جيوش الإمام أحمد بن إبراهيم في قلب الهضبة الحبشية خلال خمسة عشر عاما ، (٩٣٤ – ٩٤٩ هـ/ ١٥٢٧ – ١٥٤٢ م) . فقد كان لهذا الاتصال من التأثير ، ما رأينا بعض صوره من إعلان المرتدين عن الإسلام تحت وطأة الاضطهاد الحبشي عودتهم إليه وتأكيد توبتهم ، فضلا عن اعتناق كثير من الوثنيين ونصارى الحبشة وقادتهم للإسلام .

وأعان على تقدم حركة الإسلام ، وانتشار الإسلام انتشارا واسعا في قلب الهضبة الحبشية ، اضطراب العلاقات السياسية والدينية بين الحبشة النصرانية وكنيستها اليعقوبية

من جهة ، وبين البرتغاليين وكنيستهم الكاثوليكية من جهة أخرى . فقد دفعت الحبشة ثمن تحالفها الصليبي ضد القوى الإسلامية داخل الحبشة وخارجها غاليا . إذ عمل البرتغاليون على استغلال النصر الذي أحرزوه بالتدخل في الشؤون الدينية والسياسية للحبشه وأخذوا – عن طريق الجالية البرتغالية وجماعات الجزويت الذين استقروا فى الحبشة – فى إحلال المذهب الكاثوليكي محل المذهب اليعقوبي الأرثوذكسي التابع لكنيسة الإسكندرية الذي يعتبره نصارى الحبشة مذهب كنيستهم الوطنية . وقد استثارت نصارى الحبشة محاولة فرض التعاليم الكاثوليكية وما صاحبها من إجراءات على الشعب داخل الكنائس وخارجها ، مما أدى إلى نشوب ثورة شاملة بين نصارى الحبشة على اختلاف طبقاتهم ونادى بعض أمرائهم أن الخضوع لحاكم مسلم أفضل من الوقوع في قبضة البرتغاليين(١٨٠) .

وازداد نصارى الحبشة انفعالا وبلغوا من السخط غايته في عهد ملك الحبشة فاسيلاداس Fasiladas(١٠٤٣ – ١٠٧٨ هـ/ ١٦٣٢ – ١٦٦٧ م) فقرر طرد جماعات الجزويت الكاثوليك من البلاد ، وإعلان التمسك بالمذهب الأرثوذكسي اليعقوبي . وهكذا كان رد الفعل الحبشي عنيفا ضد حلفاء الأمس البرتغاليين . وبدأ الأحباش يتجهون إلى التعاون مع القوى الإسلامية في المنطقة ، ضد القوى الأوربية الكاثوليكية .

عمل الملك فاسيلاداس بعد طرد القسس البرتغاليين على منع غيرهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية من البرتغاليين وغيرهم من دخول البلاد . وقد سعى للتحالف مع القوى الإسلامية لدفع الخطر البرتغالي . فأرسل الملك فاسيلاداس مبعوثا خاصا إلى إمام اليمن المؤيد بالله سنة ١٠٥٦ هـ/ ١٦٤٦ م ، يطلب التعاون لدفع الخطر البرتغالي ، وأكّد أنّه سيقتل من يحاول دخول الحبشة من البرتغاليين من ناحيته . كما عاود الاتصال بخليفته الإمام المتوكل على الله سنة ١٠٥٧ هـ/ ١٦٤٧ م لنفس الغرض ، بل أشاع اليسوعيون أن الملك فاسيلاداس مال إلى الإسلام ، وأنه أرسل إلى إمام اليمن يطلب إرسال بعثة من العلماء لتفقيهه فيه . ويبدو أنه كان لما شاع نصيب من الصحة ، إذ بعث إمام اليمن نخبة

من العلماء صحبة الحسن بن أحمد الحيمي لدعوة ملك الحبشة إلى الإسلام . وإذا كانت هذه البعثة اليمنية قد قضت في الحبشة نحو عامين التقت خلالها بملك الحبشة ، فإن أخبارها لا تفيد أكثر من حسن استقبال البعثة وعودتها إلى اليمن محملة بالهدايا(١٨١) . وعلى كل حال ، فقد أتيح للإسلام أن ينتشر انتشارا سلميا واسعا في ظل سياسة التودد الحبشي إلى القوى الإسلامية ، سواء في داخل البلاد أم في خارجها .

وقد خلّف انسحاب البرتغاليين من الحبشة ، موجة من المناقشات والتفسيرات المختلفة حول الأديان والمذاهب . وبدا الوثنيون وبعض النصارى الأحباش يقارنون بين النصرانية المتهدمة الغارقة في خضم الخلافات المذهبية ، وبين وضوح عقيدة الإسلام ويسر أحكامها وسماحتها وأخذ الكثير من الوثنيين من قبائل الأجاوا الكارهين للقبائل الأمهرية المتعجرفة يميلون إلى جانب الإسلام ، دين المساواة ، الذي لا مجال فيه للعنصرية والعصبية على اختلاف منازعها وحواجز الجنس واللون(١٨٢) . وبلغ من تقدم الإسلام وسعة انتشاره وانكماش حدود المملكة النصرانية ، ما ذكره الرحالة البرتغالي مانويل دالميدا Manoel D,almeida الذي عاش في الحبشة من سنة ١٠٣٥ - ١٠٤٤ هـ/ ١٦٢٤ - ١٦٣٣ م : أنه أثناء وجوده بالحبشة كان المسلمون منتشرين في جميع أنحاء البلاد وكانوا يؤلفون نحو ثلث سكان الحبشة(١٨٣) .

وهال نصارى الحبشة نمو حركة الإسلام ، وبدأوا يستشعرون خطرها عليهم ، ومن ثم حاولوا وقف تيارها الزاحف . ولم يكد الملك يوحنا (١٠٧٨ - ١٠٩٣ هـ/ ١٦٦٧ - ١٦٨٢ م) يعتلي عرش الحبشة ، حتى دعا إلى عقد مجلس في جوندار العاصمة ، واستصدر قرارا يقضي بالتفريق بين نصارى الحبشة وبين مخالفيهم في الدين أو المذهب ، وتخصيص قرى مستقلة للمسلمين وأحياء خاصة لهم في المدن ، وحرمانهم من تملك الأراضي الزراعية . وبدلا من أن يؤدي هذا القرار إلى انزواء المسلمين وعزلهم والتضييق عليهم ، جاء بنتائج عكسية إذ اتجه المسلمون إلى الاشتغال بالتجارة وغيرها من الحرف التي غدت مقصورة عليهم ، فملكوا عن طريقها كثيرا من أزمة الأمور في البلاد فقد أدى احتراف المسلمين التجارة على هذا النحو إلى ازدياد تنقلهم في جميع أقاليم الحبشة والتردد على أسواقها والاتصال بمختلف القبائل ، فاتسع نطاق تأثيرهم

وزادت رقعة المواطن الإسلامية بالحبشة بازدياد عدد المسلمين الجدد .

هجرات قبائل الجالا :

كذلك نفذ الإسلام إلى قلب الهضبة الحبشية عن طريق هجرات قبائل الجالا[١٨٤] . وكانت هذه القبائل قد أخذت تتدفق على الأقاليم الخصبة في قلب الحبشة ، ولم يستطع الأحباش لها دفعا ، حتى تمكنت من احتلال ثلث مملكة الحبشة . ثم بدأت جماعات منهم تتسرب إلى النظام الحبشي نفسه حتى تغلغلت في الحرس الملكي وصارت لها اليد الطولى فيه . وأمعن الجالا في الحصول على المزيد من النفوذ والثروة ، فازدادت قوتهم ونفوذهم وبلغ من ارتفاع شأنهم أن صاهرهم ملك الحبشة إياسو الأول إذ تزوج من ابنة أحد زعماء الجالا الأقوياء ، وتبوّأ الجالا المناصب الكبرى التي كانت وقفا على أمراء البيت المالك ، وعيّن اثنان منهم محافظين لاثنتين من المقاطعات الحبشية[١٨٥] .

بدأ الجالا منذ القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) يدخلون في الإسلام أفواجا وكانت طلائع من الجالا والصوماليين والأعفار قد سبقت إلى اعتناق الإسلام منذ القرن التاسع الهجري (١٥ م) على أيدي الدعاة الذين وفدوا إلى مواطنهم الأصلية في الصومال فتتواتر روايات تاريخية عن وصول جماعة من عرب حضرموت تتألف من أربعة وأربعين رجلا من دعاة الإسلام ، نزلوا ميناء بربرة على البحر الأحمر ، ومن هناك تفرقوا في بلاد الصومال للدعوة . ويقال إن بعضهم – ومنهم الشيخ إبراهيم أبو زرباي – عرّج على مقاطعة هرر حوالي سنة ٨٣٤ هـ (١٤٣٠ م) ، وظفروا من أهالي هرر بعدد كبير من الداخلين في الإسلام . ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على نشر الإسلام بين جماعات الجالا ، قيام التجار المسلمين بالدعوة إليه . وكانوا يقابلون بترحاب كبير من جانب أمراء الجالا ، فأقاموا لهم الأسواق ، وجلبوا لهم ما يحتاجون من سلع ، واستقر بعضهم في البلاد واتخذوا زوجات من الجالا ، فنشأت بينهم وبين زعماء الجالا علاقات اجتماعية واقتصادية . فاعتنق أولئك الزعماء الإسلام في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م) وتبعهم عامة شعب الجالا[١٨٦] ، ومن بينهم قبائل : « الواللو » Wallo « والياجو » Yajjo « والرايا » Raya . أما قبائل الجالا الذين استقروا في ممالك سيداما

في جنوبي غربي الحبشة ، فإنهم بعد نحو قرنين من المقاومة الحبشية امتزجوا بعناصر السيداما واعتنق الجميع الإسلام وتألفت منهم خمس ممالك إسلامية هي : جيما Gimma وجيرا Girra وجوما Guma وليما إنيارو Lima Enyara وجيوما Gomma[١٨٧] .

و لم يأت اعتناق هذه الممالك للإسلام نتيجة لنفوذ قبائل الجالا وحده ، بل كان من العوامل الفعّالة في ذلك النشاط للتجار المسلمين وتقدير شعوب هذه الممالك لهم لما كانوا يجلبون للبلاد من خير ورواج وما تحلّوا به من أمانة وخلق . ولقد عاش هؤلاء التجار بينهم وامتزجوا بهم وصاهروهم ، وما كانوا يتركون أوطانهم الجديدة سوى مرة واحدة فحسب في كل عام ، ذاهبين إلى السودان أو إلى الشاطئ الشرقي لإفريقية أو مصر أو الجزيرة العربية . وهكذا نشط أولئك التجار في الدعوة إلى الإسلام ، فما أن حل منتصف القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م) ، حتى كان ملوك هذه الممالك الخمس والغالبية الكبرى من شعوبهم – من الجالا والسيداما – قد اعتنقوا الإسلام وأقاموا فرائضه .

كذلك تمكنت مدينة هرر – في نفس ذلك الوقت – أي منتصف القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م) – من أن تعاود نشاطها القديم كمركز للإشعاع الإسلامي في أنحاء المقاطعة ، ولا سيما بين قبائل الجالا الذين استقروا في مناطق جنوبي مدينة هرر وغربيها . أما منطقة العروسي فلم ينتشر فيها الإسلام إلا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م) .

ووصل الإسلام إلى زعماء قبائل الجالا في قلب الهضبة الحبشية – كما سبق القول ، وظهر من بينهم كثير من الأمراء الأقوياء الذين حجبوا سلطة ملك الحبشة الاسمية في جوندار وأصبح منصب الإمارة في بعض تلك الإمارات الحبشية وراثيا بين زعماء بعض المقاطعات مثل مقاطعة بيجمدير ، وهكذا أتيح لأولئك الأمراء من الجالا بلوغ أرفع المناصب في الدولة ، وقد اتخذوا من مناصبهم الرفيعة وسيلة لدفع حركة الإسلام قدما . وكان من هؤلاء الزعماء الرأس على ، الذي كانت له السيادة على المناطق الوسطى والشمالية الغربية من بلاد الحبشة ، وقد استغل هذا النفوذ الواسع للعمل لأجل الإسلام والمسلمين ، حتى بلغ عدد المسلمين – حسب تقدير الكاردينال .

نحو ثلث سكان البلاد النصرانية التي كان يتولى حكمها ، مما يدل على انتشار الإسلام بين الممالك النصرانية بشكل لم يكن متوقعا من جانب الدوائر النصرانية في الحبشة ، وقتذاك .

الإسلام في الحبشة خلال القرن الثالث عشر الهجري/ ١٩ م :

وخلال فترة الاضطراب التي شملت الحبشة في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م) - أتيح للإسلام أن ينتشر على نطاق واسع بين القبائل النصرانية من التيجري التي تسكن شمالي الحبشة وبعض جهات إرتريا بفضل نشاط التجار المسلمين ، فضلا عن جهود الدعاة أمثال : السيد أحمد بن إدريس الفاسي . وامتد تأثير أولئك الدعاة إلى جميع القبائل التي تتحدث لغة التيجري السامية ، مثل قبيلة بني عامر وبقية بطون قبائل البجاة التي سبقتهم إلى اعتناق الإسلام على ما سبقت الإشارة إليه . كما كان لسلطنة الفونج الإسلامية دورٌ بارز في تعزيز الدعوة الإسلامية في تلك الجهات ، وبلغ نشاط الدعاة إلى الإسلام ذروته حين تولى رعايتها السيد محمد عثمان الميرغني الذي أوفده السيد أحمد بن إدريس إلى هذه المناطق في عام ١٢٣٤ هـ/ ١٨١٨ م للدعوة إلى الإسلام ونجحت دعوته بتمام إسلامها جميعا .

وكانت التجارة وسيلة قوية للدعوة إلى الإسلام في سائر أقاليم القارة الإفريقية بما في ذلك الحبشة النصرانية . فقد كان الحبشي النصراني لا يعني بحرفة التجارة ولا يحترمها ويعتبر نفسه محاربا أو راعيا فحسب ، ومن ثم سيطر المسلمون على مقاليد التجارة الداخلية والخارجية ، مما أكسبهم المقدرة على الحركة و السفر والاتصال بجميع عناصر المجتمع الحبشي وفئاته ، واجتذاب كثير منهم إلى الإسلام ، بفضل ما كانوا عليه من خلق إسلامي قويم وسلوك حميد . ولقد بلغ من قوة نفوذ التجار المسلمين ونجاحهم في دفع حركة الإسلام في جميع أقاليم الحبشة دفعا قويا ما شهد به مسايا - الذي قضى نحو خمس وثلاثين سنة يعمل في التبشير للنصرانية في الحبشة إذ قال : « إن نفوذ الإسلام ، في ختام هذا العهد - القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر للهجرة) قد بلغ الحد الذي لو أتيح معه وجود إمام آخر مثل الإمام أحمد بن إبراهيم القرين يرفع راية الإسلام ،

لتحولت بلاد الحبشة جميعا إلى الإسلام[١٨٨] .

وقد نشب خلاف بين مملكة الحبشة النصرانية والحكومة المصرية تطور هذا إلى نشوب حرب بينهما بين عامي ١٢٩٢ ، ١٣٠٠ هـ (١٨٧٥ ، ١٨٨٢ م) مما أدى إلى اتساع الهوة بن الحبشة وبين المسلمين . وكان المصريون قد احتلوا قبل نشوب تلك الحرب بثلاثين عاما بعض المقاطعات الواقعة بشمالي الحبشة مثل هالنجة والغيدن وسبدرات وغيرها من المقاطعات النصرانية في منطقة إرتريا ، ونشروا الإسلام في تلك البقاع ، وحصلوا على ميناء مصوع من الأتراك العثمانيين ، واستولوا على مدينة هرر وبعض المناطق من جنوبي الحبشة وغربيها . وقد أخفقت بعض الحملات المصرية على الحبشة ، واعتبر الأحباش الغزو المصري للحبشة ذا هدف ديني مع أنه ما كان كذلك أبدا في حقيقة الأمر ، وبدت كراهية الأحباش لخصمهم المسلم مصر ، في تعاملها مع المسلمين الأحباش .

ففي سنة (١٢٩٥ هـ/ ١٨٧٨ م) عقد الملك يوحنس (١٢٨٥ – ١٣٠٧ هـ/ ١٨٦٨ – ١٨٨٩ م) مجمعا ضم رجال الكنيسة الحبشية وقرروا أن الملك هو الحكم الأعلى في المسائل الدينية ووجوب أن يكون الدين واحدا في كافة أنحاء البلاد ، ومنح النصارى غير اليعاقبة – مهلة سنتين ليتبعوا كنيسة البلاد . أما المسلمون الأحباش ، فقد ألزموا بالاستسلام للسلطة الحاكمة مدى ثلاث سنوات ، كما ألزم الوثنيون بالاستسلام في مدى خمس سنوات . وبعد أيام ، أذاع الملك يوحنس مرسوما أنذر فيه جميع الموظفين من المسلمين بالتخلي عن مناصبهم إذا لم يقبلوا التعميد في مدى ثلاثة أشهر . وكان مثل هذا التعميد الإجباري – الذي كان مقصورا على طقوس العماد ودفع العشور للكنيسة – عديم الأثر ، بطبيعة الحال . ففي الوقت الذي تظاهر فيه المسلمون بالقبول والإذعان ، كانوا في الخفاء يكتمون ولاءهم للإسلام ، وقد شاهد الكردينال مسايا ، بعض الموظفين من الأحباش المسلمين – على إثر صدور هذا المرسوم يخرجون من الكنيسة التي كانوا يعمّدون فيها قاصدين المسجد يلتمسون فيه التوبة ومحو ما لحقهم من التعميد الذي أرغموا عليه[١٨٩] . على أن هذا المرسوم لم يشر إلى تعميد النساء بحال ، وإنما ذكر الرجال وحدهم ، مما جعل ما صنعه الملك يوحنس في هذا السبيل أضعف أثرا

وأقل قيمة إذ قام النساء المسلمات بدور كبير في نشر الإسلام في بلاد الحبشة[١٩٠] .

وأرغم الملك يوحنس في سنة ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٠ م ما يقرب من خمسين ألفا من المسلمين على التعميد ، كما أجبر عشرين ألفا من إحدى القبائل الوثنية ، ونصف مليون من الجالا على الدخول في النصرانية – . ولما كان هذا التنصير الحبشي لم يتجاوز طقوس التعميد ودفع العشور للكنيسة كما سلفت الإشارة ، فلا عجب إذا لم تؤد هذه الوسائل التي قامت على العنف والإرهاب إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين جميعا نحو النصارى منهم .

وقد اغتنم ملك « كافا » Kaffa فرصة اضطراب أمور الملك يوحنس الذي هدده الإيطاليون من ناحية ، وأتباع المهدي في السودان من ناحية أخرى في وقت واحد ، فأعلن ذلك الملك استقلاله واعتنق الإسلام و صمد للهجوم الحبشي على بلاده (الواقعة في جنوبي غربي الحبشة) حتى سنة (١٣١٥ هـ) ١٨٩٧ م ، إذ غزا بلاده الملك منليك الذي خلف الملك يوحنس على عرش الحبشة سنة (١٣٠٧ هـ) ١٨٨٩ م . وعلى الرغم من عودة النصرانية ديانة رسمية لولاية كافا ، فان التدابير الصارمة التي اتخذت لصالحها ، قد أخفقت جميعها في وقف نمو حركة الإسلام في إرتريا بين قبائل كانت نصرانية وأكدت أسماؤها نصرانيتها منها : تكالية Takles(أي نبات يسوع) ، وهبتية Haptes (أي عطية يسوع) ، وتيمارايام TImaryam (أي عطية مريم) وكذلك قبيلتا منساع Mansa وذلك حول منتصف القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م) ، ثم دان السواد الأعظم منها للإسلام في مستهل القرن الرابع عشر الهجري (٢٠ م) .

الملك ليج إياسو :

ظل الإسلام يكسب أنصارا من الأحباش كلما تقدمت الأيام ، ولقي الإسلام نصيرا قويا عندما خلف الملك منليك على عرش الحبشة حفيده الملك ليج إياسو Lijj Iyasu (١٣٣٣ – ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٣ – ١٩١٦ م) .

كان ليج إياسو أثناء ولايته – قد بدأ يعلن عن حقيقة عقيدته ، ويأتي من التصرفات ما يعبر عن ميله للإسلام . وما أن تولى عرش الحبشة ، حتى أعلن إسلامه وأنكر النصرانية

والانتساب إلى الأسرة السليمانية ، وأخذ يعمل على اصطناع نسب إلى النبي محمد ﷺ . وتزوج ليج إياسو من نساء مسلمات ، وانتظم في سلك العبادة في مساجد هرر ، وصدم ذلك بطبيعة الحال رجال الكنيسة وبعض القبائل النصرانية واشتد قلقهم على ما كان قد تقرر في أيام يوحنس ومنليك لإحكام أمر النصرانية في دولة الحبشة . ولعل من أشد أسباب قلقهم سهولة تحول البلاد إلى الإسلام ولا سيما أن غالبيتها كانت تدين أصلا بالإسلام الذي كان عقيدة ثلاثة أرباع مملكة الحبشة تقريبا وقتذاك (أوائل القرن الرابع عشر الهجري/ أواخر ١٩ م) .

ومضى الملك ليج إياسو في وجهته لا يتراجع فيعزّز جانب الإسلام والمسلمين ، ويبني المساجد (في ديرداو ، وجيج جيجا ..) واتخذ للبلاد علما جديدا ، كتب عليه بالحروف الحبشية (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وأرسل منه هدايا إلى حكام المسلمين في بلاده ، طالبا منهم الاستعداد للجهاد – الذي ينوي الاضطلاع به – لنصرة الإسلام والمسلمين[١٩١] .

غير أن الدول الكبرى وقتذاك – إنجلترا وفرنسا وإيطاليا – التي اقتسمت منطقة الصومال فيما بينها – أوعزت إلى بطريرك الكنيسة القبطية أن يقرر عزل الملك ليج إياسو وحرمانه . وهكذا طلب رجال الكنيسة وأمراء المقاطعات عزل الملك ليج إياسو ومن ذلك الطلب الذي تقدم به أمراء مقاطعة شوا وقالوا فيه : « نلتمس إحلالنا من قسم ولائنا للإمبراطور ، لأننا سوف لا نخضع للإسلام ، ولن نسمح بأن يستولي الأجانب على بلادنا عن طريق خيانة ليج إياسو ، الذي يقود مملكتنا إلى الخراب ، ولن نسمح للملك الذي ترك ديننا أن يحكمنا ... » وأضافوا : « وسوف تصبح راوديتو ابنة منليك ملكة علينا ، والرأس تفارى وليا للعهد » . وتم عزل الملك ليج إياسو في ٢٧ سبتمبر سنة (١٣٣٦ هـ) ١٩١٧ م .

ولا شك أن حركة الملك المسلم ليج إياسو ، قد جعلت كثيرين من الأحباش الذين يكتمون إسلامهم يعلنون الحقيقة .

وساعدت على انتشار الإسلام بين الكثير من شعوب الحبشة وقبائلها الوثنية

والنصرانية وقتذاك[١٩٢] . لكن تفارى الذي أقيم على عرش الحبشة(هيلاسلاسي فيما بعد) بعد عزل ليج إياسو عمد بكل سبيل إلى تعزيز جانب النصارى في البلاد على حساب المسلمين .

الهـــوامـــش

(١) استعمل لفظ « حبشة كمرادف للفظ » « أثيوبيا » الذي أطلقه الأحباش على بلادهم حديثا وهى عبر « أثيوبيا » التي استخدمها اليونان والرومان من قبل ، فقد كانت تشمل بلاد ذوي البشرة السوداء أو المحترقة في جنوبي مصر ، وتمتد من إفريقية غربا إلى جنوبي غربي آسيا والهند كذلك ، في حين أن مدلول الحبشة – موضع الحديث هنا – يشمل أراضي تدخل حاليا في السودان والحبشة وإرتريا والصومال . انظر (إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ، ١٩٥٩ ، ص ٥ ، ٦) .

(٢) ترمنجهام : الإسلام في شرق إفريقيا (مترجم) ، ص ٣٣ .

(3) Trimingham , J . S ., Islam in Ethiobia . pp. 38 - 40 .

(٤) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ١٠ ، ١١ .

(٥) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ١٠٧ .

(6) Hamilton . J . A ., The Anglo Egyptian Sudan from within , p . 42 .

(٧) إبراهيم طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى ، مرجع سابق ص ٧ ، ٨ .
وانظر : عبد المجيد عابدين ، ص ١٣ – ١٥ .

(8) C/F ., Pliny , Natural History , II , p. 463 .

(٩) راجع مصطفى مسعد : البجة والعرب في العصور الوسطى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ٢١ ، العدد الثاني ديسمبر ١٩٥٩ ، ص ٧ ، ١٠ ، ١٣ – ١٤ .

(10) Paul , A., A History of the Beja Tribes of the Sudan , p. 47 .

(11) Trimingham , J. S., op. cit., p. 49 .

(١١) حامد عمار : علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ص ١٥ .

(12) Paul , A., op. cit., pp. 44 - 45 .
Arkell, A. J., A History of the Sudan , p. 172 .

(13) Bury , J. B., History of the Later Roman Empire , Vol., London , 1889 , p. 324 .

(١٤) سورة : الفيل .

(15) Coupland , R., East Africa and its Invaders Oxford , 1956 , pp. 15 - 16 .
وانظر : جمال زكريا قاسم ، استقرار العرب في شرق إفريقيا ، مجلة كلية الآداب – جامعة عين شمس ، المجلد العاشر ، سنة ١٩٦٧ ، ص ٢٧٨ – ٢٨١ .

(١٦) المرجع نفسه ، ص ٢٨٠ – ٢٨٤ .

(١٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ٢ : ١١٨٣ – ١١٨٤ .

(١٨) نفسه : ص١١٨٣ .

(١٩) ابن القيم : زاد المعاد في هدي خير العباد ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، جـ ٣ ، ص ٢٤ – ٢٧ .

(٢٠) محمد الحفني القناني : الجواهر الحسان بما جاء عن الله والرسول وعلماء التاريخ في الحبشان ، بولاق ، ١٣٢٠ هـ ، ص ٢٠٦ – ٢١٠ .

(٢١) الطبري : مرجع سابق ، ١ : ١٥٦٩ – ١٥٧٠ .

(22) Budge , E. A. W., A History of Ethiopia . Nubia and Abyssinia , p. 273 .

(٢٣) السيرة الحلبية ٣ ، ص ١٢٩٤ ذكر السيوطي في الجامع الصغير أن الحديث أورده أبو داود في سننه والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ولم يرمز له السيوطي بشيء من رموزه التي يستعملها لدرجات الحديث .

(٢٤) الطبري : مصدر سابق ١ : ٢٥٩٥ .

(٢٥) محمد حفني القناني : المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢٦) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص ٣٩١ .

(٢٧) يعرفون في الوقت الحاضر باسم البجة بكسر الباء .

(٢٨) الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، نشر دي خويه ، ص ٢٦ .

(٢٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، نشر توري ، ص ١٨٩ .

(٣٠) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، نشر كرامرز ، ص ٩ .

(٣١) ابن عبد الحكم : مصدر سابق ، ص ١٨٩ .

(٣٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق جـ ١ ، ص ١٩٥ .

(٣٣) ابن حوقل : مصدر سابق ، ص ٥٠ – ٥١ .

(٣٤) راجع حملة عبد الله بن سعد على النوبة في : المقريزي : المواعظ والاعتبار جـ ١ ، ص ١٩٩ .

(35) Paul , A. op. cit., p. 73 .

(٣٦) المسعودي : كتاب التنبيه والإشراف ، نشر دي خويه ، ص ٣٠ .

(٣٧) ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ١٣٢ ، انظر المقريزي : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٩١ .

(38) Bloss J. F. E.: " The Story of Suakin " S. N. R. XIX, part II , 1936 , p. 279 .

(39) Crawford , O. G. S. " The Stone Tombs of The N. E. Sudan , Kush , No. 2. 1954 , p. 86.

(٤٠) ابن حوقل ، مصدر سابق ، ص ٥٣ .

(٤١) نفسه .

(٤٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٩٦ .

(٤٣) البلاذري : فتوح البلدان ، نشر دي خويه ، ص ٢٣٩ .

(٤٤) ابن حوقل : مصدر سابق ، ص ٥٣ .

(٤٥) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٣٩ .

(٤٦) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٩٦ .

(٤٧) ابن حوقل : مصدر سابق ، ص ٥٣ .

(٤٨) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، ص ١٩٦ .

(٤٩) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٣٩ .

(٥٠) ابن حوقل : مصدر سابق ، ص ٥٣ .

(٥١) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٣٩ .

(٥٢) ابن حوقل : مصدر سابق ، ص ٥٤ .

(٥٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، ص ١٩٦ .

(٥٤) ابن حوقل : مصدر سابق ، ص ٥٤ .
(٥٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، حـ ١ ، ص ١٩٤ .
(٥٦) المصدر نفسه : ص ١٩٦ .
(٥٧) اليعقوبي : مصدر سابق ، ص ١٢١ – ١٢٤ .
(٥٨) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٩٤ .
(٥٩) اليعقوبي : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٢١٧ – ٢١٨ .
(٦٠) المصدر نفسه .
(٦١) المصدر نفسه .
(٦٢) المصدر نفسه .
(٦٣) المصدر نفسه .

C/F. Crawford , O. G. S., op. cit. pp. 99 - 108 .

(٦٤) ابن حوقل : مصدر سابق ص ٥٥ – ٥٦ .
(٦٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٩٤ .
(٦٦) المصدر نفسه .
(٦٧) المسعودي : مروج الذهب ، نشر دي منارودي كورتل جـ ٣ ، ص ٣٢ – ٣٤ .
(٦٨) ابن حوقل : مصدر سابق .
(٦٩) صلاح الدين الشامي : الموانى السودانية ، رسالة ماجستير غير منشورة .
(٧٠) البلاذري : مصدر سابق ، ص ٢٣٩ .
(٧١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

(72) Newbold , D.: The Crusaders in the Red Sea and the Sudan , S. N. R., XXVIII , part 1 pp. 220 - 226 .

(٧٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .
(٧٤) ابن حبير : رحلة ابن جبير ، نشر Wright ، ص ٦٥ .
(٧٥) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، دار هيلاند ، لندن ، ١٨٢٣ م ، ص ١٧٠ .
(٧٦) ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٦٣ .

(77) Browne : The History and Description of Africa by Leo Africanus , done into English by John Pory 1600 . Hakuyt Society , Vol. III. p. 837 .

(٧٨) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .
(٧٩) الدمشقي : نخبة الدهر ، في عجائب البر والبحر ، ص ٣٦٩ .
(٨٠) المقريزي : السلوك ، مصدر سابق ، حـ ١ ، قسم ٢ ، ص ٥٥٨ .
(٨١) ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٦٩ .
(٨٢) محمد عوض محمد : مرجع سابق ، ص ٣٥ – ٣٦ .

(83) Hamilton , ed., op. cit. pp. 47 - 50 .

C/F. Reid , J. A., " Some Notes on the Tribes of the White and Blue Nile Provinces " . S. N. R. XIII , part II , 1930 , p. 51 .

(٨٤) النويري : نهاية الأرب ، مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ٩٦ – ٩٧ .

(٨٥) ابن خلدون : العبر ، مصدر سابق ، ص ٢٤٧ .

(٨٦) المقريزي : السلوك ، مصدر سابق ، جـ ١ ، قسم ٣ ، ص ٧٠٠ .

(٨٧) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٥٤ .

(٨٨) المقريزي : السلوك ، مصدر سابق ، جـ ١ ، قسم ٣ ، ص ٧٠٠ .

(٨٩) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٨ ، ص ٥ - ٦ .

(٩٠) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، مصدر سابق ، ص ٧٧ .

(91) Paul , A.: op. cit. p. 75 .

(٩٢) العمري : مسالك الأبصار ، مخطوطة ، مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٢

(93) C/F. Newbold , D. The Anglo Egyptian Sudan from Within , ed . Hamilton .

(94) Paul , A.: op. cit. pp. 79 .

(95) Ibid., p. 96 .

(٩٦) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، مصدر سابق ، ص ٧٧ .

(97) Paul , A., op. cit., p. 76 .

(٩٨) العمري : مسالك الأبصار ، مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٢ .

(99) Paul , A.: op. cit. pp. 77 - 78 .

(١٠٠) محمد عوض محمد : مرجع سابق ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(101) C/F. Crawford , O G. S.: The Fung Kingdom of Sannar , pp. 99 - 108 .

(١٠٢) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(103) C/F . Crawford , O. G. S.: op. cit. pp. 111 - 112 .

(١٠٤) من أولئك المؤرخين والجعرافيين والرحالة المسلمين : المسعودي (ت ٣٤٥ هـ/ ٩٥٩ م) في كتابيه : مروج الذهب والتنبيه والإشراف ، وابن حوقل (حوالي ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م) في كتابه التقاسيم لمعرفة دول الأقاليم ، وابن جبير (ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م) ، وابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٨ م) في رحلتيهما ، والإدريسي (ت ٦٤٩ هـ/ ١٢٥١ م) في : نزهة المشتاق ، وياقوت (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م) في معجمه . وحسن محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٤ .

(105) Trimingham ,J. S., op. Cit . p 16 - 62 .

(106) Ibid , p. 58 .

وانظر : حسن محمود : مرجع سابق ، ص ٣٩٤ .

(١٠٧) إبراهيم طرخان : مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(١٠٨) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤ .

(١٠٩) إبراهيم طرخان : مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(١١٠) المقريزي : الإلمام ، مصدر سابق ، ص ٧ .

(١١١) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٩ .

(١١٢) يقول ابن بطوطة : « وفي شرقي المسجد (الأموى) مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء ، وهى لطائفة الزيالعة السودان » (الرحلة ، ص ٩٠) ، طبع بيروت .

(١١٣) إبراهيم طرخان : مرجع سابق ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(١١٤) نقلا عن القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤ .

(١١٥) المصدر نفسه ، ٣٣٢/٥ .
(١١٦) المقريزي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٣٣٢ .
(١١٧) المقريزي : مصدر سابق ، ص ٨ .
(١١٨) القلقشندي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٢٣٢ .
(١١٩) المصدر نفسه .
(١٢٠) شيبو فرج بن حمد الباقري : « خبر لامو » قام بنشر النص السواحلي وترجمته الأستاذ
Hichens , W., Chronicle of Lamu , Bantu Studies , 1938 , pp. 1 - 38 .
(121) Hichens , W., Islam in East Africa , p. 110 , Coupland , R., East Africa and its Invaders , p. 20 .
(122) Coupland op. cit., p. 22 .
(123) Ibid , p. 23 .
(١٢٤) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا (مترجم) ، ص ٨٥ .
(١٢٥) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٢٥٢ – ٢٥٨ .
(١٢٦) يعلل الأستاذ كوبلاند – نقلا عن صاحب كتاب « السلوى في تاريخ كلوة » ، سبب هجرة الحسن ابن علي الشيرازي ، بأن الحسن هذا كان أحد سبعة أبناء لأمير شيراز من أم حبشية . ولما عيّره إخوته بأصله ، عزم الحسن على مغادرة شيراز والهجرة إلى بلاد جديدة يطيب له فيها العيش ، فكانت هذه الهجرة .
Coupland , R., op. cit. p. 22 .
على حين يرى الأستاذ هتشنز – وربما كان رأيه أرجح – أن الحسن بن علي وأولاده ومن تبعهما من الفرس كانوا من غلاة الشيعة ، وأنهم فروا من وجه طغرلبك السلجوقي الذي استولى على شيراز سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ومعنى ذلك تأخير تاريخ تلك الهجرة ثمانية عشر عاما تقريبا .
(Hichens , op. cit . p. 117) .
(127) Zoe March , East Africa through Contemporary Records , p. 3 .
(١٢٨) جمال زكريا قاسم ، مرجع سابق ، ٢٨٩ – ٢٩١ .
Coupland , R., op. cit. p. 25 .
(129) Werner , A., A History of Pate, Journal of African Society , 1914 - 1915 . pp. 148 . 278 , 392 .
Hichens , W., Chronicle of Lamu , Bantu Studies , 1938 , pp. 1 - 38 .
Coupland , R., op. cit . pp. 23 - 28 .
وانظر جمال زكريا قاسم مرجع سابق ، ص ٣١١ – ٣١٥ .
(١٣٠) المرجع نفسه ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .
(١٣١) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ، ٤٠١ – ٤٠٢ .
(132) Trimingham , J. S., op. cit. p. 67 .
(١٣٣) حامد عمار : مرجع سابق ، ص ١١٣ .
(134) Budge , E. A. W., op. cit. p. 285 .
(١٣٥) انظر : نص رسالة ملك الحبشة ورد السلطان المملوكي عليها في (القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ٣٩) .
(136) Trimingham , J. S., op. cit. p. 10 .
(137) Ibid . p. 71 .

(١٣٨) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ١٧٦ ، إبراهيم طرخان : مرجع سابق ذكره ، ص ٥٣ ، عبد الرحمن زكي ، الإسلام والمسلمون في شرقي إفريقية ، ص ٤٤ - ٤٥ .
(١٣٩) القلقشندي : صبح الأعشى ، مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٣٣٣ .
(١٤٠) المقريزي : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، مصدر سابق ، ص ١١ .
(١٤١) المصدر نفسه .
(١٤٢) يقع هذا المكان الجديد قرب « فطحار » ، « شوة » ، ويمتد جنوبا حتى رأس غردفوي في الصومال الشمالي .
(١٤٣) شهاب الدين أحمد بن عبد القادر (عرب فقيه) : تحفة الزمان أو فتوح الحبشة ، تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(١٤٤) المقريزي : الإلمام ، مصدر سابق ، ص ١٥ .
(١٤٥) المصدر نفسه : ص ١٨ .
(١٤٦) المصدر نفسه : ص ١٧ .
(١٤٧) عرب فقيه : فتوح الحبشة ، ص ٤٧ - ٤٨ .
(١٤٨) المصدر نفسه : ص ٢٢١ - ٣٢٤ .
(١٤٩) المصدر نفسه : ص ٢٢١ ، ٣٢٤ .
(١٥٠) المصدر نفسه : ص ٤ - ١٧ .
(151) Trimingham , J. S., op. cit. p. 88 .
(١٥٢) القلقشندي : مصدر سابق ، حـ ٥ ، ص ٣٣٢ ، راجع ما سبق هنا .
(153) Budge , op. cit. 572 - 574 .
(١٥٤) عرب فقيه : مصدر سابق ، ص ١٨٧ .
(١٥٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .
(١٥٦) المصدر نفسه : ص ١٩٢ .
(١٥٧) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ، ص ٤٢٧ .
(158) Coupland , R., op. cit. p. 43 .
(١٥٩) جيان : مصدر سابق ، ص ٢٠٧ - ٢١٠ .
(160) Coupland , R., op. cit. p. 47 .
(١٦١) حسن إبراهيم حسن : مصدر سابق ، ص ١٧٨ .
(162) Coupland , R., op. cit. p. 48 .
(163) Ibid ., pp. 47 - 48 .
(١٦٤) حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق ، ص ١٧٩ .
(165) Coupland , R., op. cit. p. 58 .
(166) Coupland , R., op. cit. pp. 62 - 64 .
وانظر : عبد الرحمن زكي ، المرجع نفسه ، ص ٨٧ .
(167) Coupland , R., op. cit. p. 65 .
(168) Ibid . pp. 65 .
(١٦٩) عبد الرحمن زكي : المرجع نفسه ، ص ٨٨ ، ٩٠ .

(١٧٠) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٨٣ ، وانظر : جمال زكريا ، مرجع سابق ، ٣٣٠ - ٣٣١ .

Coupland , R., op. cit. pp. 65 - 69 .

(١٧١) لوثروب ستودارد (شكيب أرسلان) ، حاضر العالم الإسلامي جـ ١ ، ص ٢٥٦ ، نقلا عن جمال زكريا ، مرجع سابق ، ص ٣٣١ .

(١٧٢) جمال زكريا : المرجع نفسه ، ص ٣٣٣ – ٣٣٤ ، وانظر :

- Coupland , R. op. cit. pp. 69 , 292 - 296 .

(١٧٣) سبنسر ترمنجهام : الإسلام في شرق إفريقيا ، ص ٦٠ (مترجم) .

(١٧٤) المرجع نفسه : ص ٦٢ .

(١٧٥) راجع تفاصيل هذا الموضوع في مقال : (إبراهيم صغيرون ، لمحات تاريخية عن انتشار الإسلام في أوغندة ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، العدد السادس ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ١٩ – ٣٩) .

(١٧٦) إبراهيم الزين صغيرون : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(١٧٧) عبد الرحمن زكي : الإسلام والمسلمون في شرق إفريقيا ، ص ٩٦ – ٩٧ .

(١٧٨) إبراهيم الزين صغيرون : مرجع سابق ، ص ٢٦ – ٣٢ .

(١٧٩) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٨١ . راجع (إبراهيم صغيرون ، مرجع سابق ، ص ٣٧ – ٣٨) والأثر السوداني في أوغندا .

(180) Trimingham , J. S., op. cit. p. 99 . pp. 101 - 102 .

(١٨١) عبد المجيد عابدين : مرجع سابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(١٨٢) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ، ص ٤٤٠ .

Trimingham , J. S., op. cit. pp. 101 - 102 .

(183) C/F. Ibid. p. 101 .

(١٨٤) يمثل الجالا أحد الفروع الكبيرة للمجموعة الحامية التي تضم – فضلا عن الجالا – قبائل عفر وساهو والصومال ، وموطنهم الأصلي بلاد الصومال بين نهر ويبي وخليج عدن . وقد انتشرت قبائل عفر وساهو شمالا إلى سهل الدناكل والمناطق المساحلة للبحر الأحمر ، ولحق الصوماليون بحركة الجهاد الإسلامي بقيادة الإمام أحمد بن إبراهيم ، وشاركوا فيها ، واستقروا في مواضع هامة من الهضبة الحبشية ، وكان هؤلاء أول من اعتنق الإسلام منذ وصلتهم دعوته في القرن الثالث الهجري (٩م) . ومنذ القرن العاشر الهجري (١٦ م) أخذت أفواج من قبائل الجالا تنثال على الحبشة وانتشروا حتى الأقاليم الخصبة بأعالي الهضبة ، فعمروا مقاطعات : واللو، شوا جيما وهرر ، واحترفوا الزراعة وتعلموا استخدام الخيل ، بعد اتصالهم بأبناء عمومتهم الصوماليين في منطقة هرر . وما أن قارب القرن العاشر الهجري (١٦م) نهايته ، حتى كانت قبائل الجالا قد توغلت في بلاد الحبشة ، وأخضعت لسلطانها جميع الأراضي الخصبة في شرقي الهضبة ، ونفذت إلى مقاطعات أمحرة ، وبيجمدير وغيرها من المقاطعات التي تكون قلب مملكة الحبشة . ثم بدأ زحف جانب آخر من الجالا إلى الأقاليم الغربية والجنوبية ، واستولوا على واللاجا Wallaga وسيداما Sidama وشوا، وما أن بدأ القرن الحادي عشر الهجري (١٧م) حتى كانت قبائل الجالا تحتل نحو ثلث مملكة الحبشة (Trimingham . op. cit. pp. 93 - 94 .) وتمكنت من الانتشار والتوغل في صميم الهضبة ، فتمكنوا من تكوين مجموعات قوية من قبائلهم مثل : « الواللو » Wallo « الياجو » Yajjo « الرايا » Raya وعندما اتجهت قبائل الجالا إلى الاستقرار أخذت تهجر طبيعتها البدوية واشتغل أفرادها =

= بالزراعة والرعي ، وحافظت هذه المجموعات القبلية على شخصيتها وتميزها باعتناقها الإسلام

Trimingham , J. S : op. cit. pp 106 - 107

(185) Trimingham , J. S., op. cit. p. 105 .

(١٨٦) حسن أحمد محمود ، مرجع سابق ، ص ٤٤٢ .

(187) Trimingham , J. S., op. cit. p. 109 .

(١٨٨) نقلا عن : توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ١٤١ .

C/F Trimingham , J. S., op. cit. p. 114 .

(١٨٩) توماس أرنولد : المرجع نفسه ، ص ١٤٢ . عبد المجيد عابدين جـ : بين الحبشة والعرب ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ . قارن : Ibid ; Trimingham , J. S.: op. cit. pp. 122 - 123 .

(١٩٠) المراجع السابقة : نفس الصفحات .

(١٩١) انظر : عبد المجيد عابدين ، مرجع سابق ، ص ٢١٣ . . C/F Trimingham , J. S. op. cit. p. 131

(١٩٢) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

انتشار الإسلام في قارة أوربا

انتشار الإسلام

في شرقي أوربا ووسطها

فيما بين القرنين الثامن والحادي عشر

الهجريين ١٤، ١٧م

للدكتور محمد عبد اللطيف هريدي

انتشار الإسلام في شرقي أوربا ووسطها فيما بين القرنين الثامن والحادي عشر الهجريين / ١٤ ، ١٧ م

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ ﴾ . [الصف] .

تنطبق هذه الحقيقة القرآنية على تاريخ انتشار الإسلام في أوربا إذ لم يكد يخرج المسلمون من غربي أوربا أى الأندلس ، حتى دخلوها من الشرق أى من البلقان . وبينما كانت دولتهم العربية في الأندلس إلى أفول ، كانت دولتهم التركية في آسيا الصغرى تجتاح أقاليم أوربا الشرقية لتخضعها لحكم إسلامي استمر قرابة ستة قرون وقد عرفت هذه الدولة التركية في التاريخ باسم « الدولة العثمانية » .

ولكن ألم يسبق العثمانيين إلى أوربا الشرقية أتراك آخرون ؟

ألم تكن فتوحاتهم امتدادا لجهود أخرى سبقتهم ؟

وهل كان في مكنتهم العبور إلى الضفة الأوروبية لو لم تكن لهم قاعدة صلبة على ضفة آسيا الصغرى ؟

تلكم هى التساؤلات التي تفرض نفسها علينا إذ نتعرض لدور الأتراك العثمانيين في نشر الإسلام في أوربا .

ومن ثم وجب علينا الإشارة إلى نقطتين هامتين :

١ - دور الإمارات التركية الإسلامية في الأناضول .

٢ - نشأة الدولة العثمانية كدولة إسلامية في الأناضول أيضا .

دور الإمارات التركية في الأناضول :

كان اجتياح المغول لآسيا الصغرى وهزيمة دولة سلاجقة الأناضول (بدأت

٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م وحكم المتأخرون منهم تحت سيطرة المغول بعد غزوهم إلى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م) أمام جحافلهم (٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م) ، إيذانا بأفول دولة السلاجقة لتقوم على أنقاضها إمارات تركية متناثرة في كل أرجاء الأناضول تقريبا[١] .

واستطاع بعض القادة والأمراء في دولة السلاجقة الاستفادة من الدولة ، فكونوا كيانات سياسية ، ظهرت على ساحة التاريخ اعتبارا من أوائل القرن الثامن الهجري / ١٤ م . وكانت أدوارها التاريخية تطول أو تقصر ، وتعظم أو تطوّل ، حسب مواقعها الجغرافية من ناحية ، وحسب قدرة حكامها من ناحية أخرى[٢] .

ولكن مهما بلغ حجم هذا الدور ، فقد كان له أثره في زيادة كثافة العنصر التركي المسلم من ناحية ، وفي إنهاك الحكم البيزنطي في غربي الأناضول والبلقان من ناحية أخرى وفي وضع رؤوس جسور عبر من خلالها العثمانيون إلى أوربا من ناحية ثالثة .

وقد ساعدتهم عدة عوامل على أداء هذا الدور منها :

* تغيير سياسة بيزنطة في عهد ميخائيل باليولوجس ٦٦٠ - ٦٨١ هـ/ ١٢٦١ - ١٢٨٢ م تجاه آسيا الصغرى بانهيار دولة السلاجقة الروم ، إذ انتقل اهتمامه إلى الجبهة الغربية حيث تجدد الصراع من القوات المناوئة في البلقان الذي فرض عليه حشد قواته هناك .

* تداعي النظم الاقتصادية والحربية لدولة بيزنطة ، مما أدى إلى قلة مواردها الاقتصادية وضعف قدرتها العسكرية .

* زيادة الهجرات التركية من الشرق أمام الزحف المغولي من أواسط آسيا إلى غربيها .

الإمارات التركية الإسلامية على الحدود البيزنطية والساحل الغربي للأناضول :

ساعدت العوامل سالفة الذكر على تطور الإمارات التركية الإسلامية ، وبخاصة ما كان منها على الحدود البيزنطية والساحل الغربي ، ولم تكن الدولة العثمانية سوى واحدة من هذه الإمارات ، بل كانت أصغرها وأقلها شأنا .

ولا يتسع المجال للحديث عن هذه الإمارات التي بلغت ست عشرة إمارة ، ونكتفي هنا بذكر الإمارات ذات العلاقة بالبلقان .

١ - بنو آيدين (٧٠٠ - ٨٠٥ هـ / ١٣٠٠ - ١٤٠٣ م) :

كانت بلادهم تضم أزمير وآياتلوغ (سلجوق حاليا) وآيدين وكوز لحصار وآلاشهر وبركي وصارت . وكان آيدين يشغل منصب أمير السواحل في دولة السلاجقة أثناء الاحتلال المغولي ، ولكنه ثار على المغول وجمع العشائر التركمانية ليكون إمارة ويعلن استقلاله في ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) وتداول أبناؤه الحكم من بعده ، واشتهر من بينهم أمور بك الذي نجح في تكوين أسطول قوي اقتحم به البلقان مرات كثيرة . وعلى الرغم من تحالف أساطيل الفرنجة عليه وإحراقهم سفنه واستيلائهم على أزمير عام ٧٤٥ هـ ، فإن أمور بك لم يكفّ عن إزعاج الفرنجة من قلاع إسلامية بناها في أزمير . وتولى من بعده أخوه عيسى ، الذي سلّم بلاده لبايزيد الصاعقة حاكم العثمانيين فكافأه بايزيد بترك أزمير وملحقاتها له . وبعد وفاة عيسى في ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م ، ألحقت أزمير ببلاد العثمانيين ، ولكن تيمور أعاد آيدين وملحقاتها إلى أصحابها عند إغارته على الأناضول في ٨١٤ هـ/ ١٤٠٢ م ، ثم عادت إلى العثمانيين بعد انسحاب تيمور في ٨٠٨ هـ[٣] / ١٤١٤ م .

٢ - بنو منتشا (٦٦٠ - ٨٢٩ هـ/ ١٣٠٠ - ١٤٢٥ م) :

تقع بلادهم في ولاية موغلا (الحالية) ، أى أنها كانت تشرف على ساحلي بحر إيجه والبحر المتوسط ، مما ساعد صاحبها أمير السواحل منتشا بك أن يبنى أسطولا قويا ، تمكن به من القيام بالعديد من الغزوات البحرية ضد السفن البيزنطية . ثم واصل ابنه مسعود تطوير هذا الأسطول حتى وصل إلى القوة ، التى مكنته من أن يصد هجمات البيزنطيين البحرية ويمنعهم من التسرب إلى اليابسة . ثم هاجم به رودس عام ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م ، واستولى عليها من الروم ، ولم يخرجه منها إلا تحالف البابا كليمان الخامس (١٣٠٥ - ١٣٠٩ م) وفيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) وفرسان القديس يوحنا بعد عشر سنوات من هذا الاستيلاء .

خلف مسعود ابنه شجاع الدين أورخان ، الذي التقى به ابن بطوطة (ت ٧٧٨ هـ/ ١٣٧٨ م) في رحلته بالأناضول فامتدحه قائلا « هو من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة.. جلساؤه من الفقهاء وهم معظّمون لديه وحاضرة بلاده عامرة بالمساجد»[٤].

وقد هاجم أورخان جزيرة رودس لاستردادها من الصليبيين عام ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠ م . وعلى الرغم من ضعف الإمارة وانقسامها بعد وفاته ، فقد أجاب أبناؤه على استنجاد مماليك مصر عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م ، باستعدادهم للمساعدة في تحرير الإسكندرية من الفرنجة[٥] .

٣ – بنو صاروخان : (٧٥٠ – ١٨١٣ هـ/ ١٣٠٥ – ١٤١٠ م) :

كان مؤسسها أحد أمراء الحدود في دولة السلاجقة ، ثم أعلن استقلاله واستقر بعشائر التركمان على ساحل بحر إيجه وكانت بلاده تضم : مغنيسيا (مانيسا) ومنمن وكوردس وكوردك ومرمره وآق حصار ونيف وآتالا وقاياجق وطورغوتلو وفوجه ، « كانت بلاده تضم خمس عشرة مدينة . وله من القلاع عشرون ولأخيه (صاحب) أكثر من ثماني مدن وثلاثين قلعة . جيشه قوي يضم مشاة مهرة في الرماية بالسهم وبه ثمانية آلاف فارس عدا أسطول كبير من السفن »[٦] .

وبهذه القوة استطاعت إمارة بني صاروخان أن تستولي علي بلدة مغنيسيا ، التي كانت خاضعة للأسكاريس (إمبراطور أزنيق – ١٢٢٢ م) وهي من المراكز الاستراتيجية آنذاك ، كما خاض صاروخان معارك ناجحة ضد دوقية نافسوس وبنادقة جزيرة ساقز وفوجه وضد أسرة غاتيلوزيو الجنوبية التي كانت تحكم جزيرة مديللي ، بل كان يجبي الجزية من بعضهم[٧] .

٤ – بنو قراسي : حكموا حتى (٧٦٣ هـ /١٣٦١ م) .

واستطاعوا تثبيت أقدامهم في منطقة ميديا القديمة والتي تقع في ولاية قراسي (الحالية) كان مؤسسها قره عيسى أحد قادة السلطان مسعود الثاني السلجوقي (تولى مرتين : ٦٨٢ – ٦٩٨ ه و ٧٠٢ – ٧٠٨ هـ) ، واستطاع الاستيلاء على بلاد كثيرة في الداخل وعلى الساحل ، وقد ضمت بلادهم مراكز كبيرة ذات أهمية استراتيجية منها : باليكسير وبرغاما في الداخل وجناق القلعة المطلة على المضيق ذي الأهمية الاستراتيجية والمعروف بنفس الاسم[٨] .

وقد استفاد خلفاء قره عيسى من وجودهم على الساحل، فبنوا أسطولا قويا استطاعوا

به الدخول إلى البلقان غير مرة ولاشك أن استنجاد القائد البيزنطي فاتاس صهر الإمبراطور قانتاقوزين Johnvy Contacuzenus ومعارضه - بهذا الأسطول ضد الإمبراطور يدل أيضا على قوته[٩] .

تلك كانت الإمارات التركية التي آل إليها إرث السلاجقة في الأناضول والتي لم تكتف بحدود هذا الإرث ، بل زادت من اتساعها على حساب المدن والقلاع البيزنطية بحيث سيطرت على الساحل الغربي للأناضول ، وأصبحت تمثّل خطرا على القوى البحرية الصليبية في البحر المتوسط وبحر إيجه ، وكان دورهم الأكثر أهمية في زيادة كثافة العنصر التركي المسلم على هذا الساحل ، إذ لجأ إليهم من أراد الفرار من ظلم الإيلخانيين ، كما وجدت العشائر التركمانية المهاجرة من آسيا الوسطى دارا للجهاد في سبيل الله ، فانتقلت تنظيمات المجاهدين التي عرفت باسم « الآخيين » أو « الفتوة » إلى غرب الأناضول ، ومنهم تكونت طلائع الفتح التي قادها العثمانيون إلى البلقان[١٠] .

دور الإمارات التركية في انتشار الإسلام :

أما عن دور تلك الإمارات في انتشار الإسلام ، فيمكن استنتاجه مما كتبه عنهم ابن بطوطة في رحلته السالفة الذكر .

يتحدث ابن بطوطة عن أهل هذه الأمصار بصفة عامة فيقول : « هم مقيمون على السنة لا قدري فيهم ولا رافضي ولا معتزلي ولا خارجي ولا مبتدع »[١١] . ويصف حكامهم بالتقوى والتواضع والكرم ، فها هو « سلطان قسطمونية يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ، ويؤتى بالطعام فتفتح الأبواب ، ولا يمنع أحد من حضري أو بدوي أو غريب أو مسافر من الأكل » . ولا تخلو البلاد التي زارها ابن بطوطة - كبرت أم صغرت - من المساجد ، حيث يلتقي بالعلماء والفقهاء الذين حصلوا علومهم في مراكز الثقافة الإسلامية آنذاك . ومما يسترعي الانتباه في حديث ابن بطوطة ، انتشار المؤسسات الاجتماعية الإسلامية ، التي تتمثل في الزوايا والتكايا الخاصة بطوائف الفتيان الذين يصفهم قائلا « لا يوجد في الدنيا مثلهم أحد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج »[١٤] . فكانت هذه المؤسسات بمثابة دور للضيافة من ناحية ، ومراكز للدعوة إلى الإسلام من ناحية أخرى[١٥] .

كل ذلك يصل بنا إلى النتيجة التالية : لقد كانت للإمارات التركية الإسلامية الواقعة على ساحل غربي الأناضول من القوة المادية والمعنوية ما يمكنها من نشر الإسلام في الجزر الواقعة بالقرب من الساحل على الأقل ، بدليل وجود الأسر التركية المسلمة في هذه الجزر والتي خرج منها مجاهدو البحر المسلمون(١٦) .

قيام الدولة العثمانية ودورها في نشر الإسلام :

ظلت إمارة آل عثمان تابعة – اسميا – لدولة السلاجقة ثم الإيلخانيين من بعدهم طوال عهد عثمان الأول (٦٩٩ – ٧٢٦ هـ/ ١٢٩٩ – ١٣٢٥ م) وفترة غير قصيرة من حكم خلفه أورخان (٧٢٦ – ٧٦١ هـ/ ١٣٢٥ – ١٣٥٩ م) . ونظرا لموقع هذه الإمارة المتاخم للحدود البيزنطية ، فقد استطاعت توسيع أراضيها على حساب الأراضي البيزنطية بحيث استطاعت في فترة وجيزة أن تصبح أقوى الإمارات التركية ، وأن تستولى على أهم معاقل بيزنطة . وقد ساعد على ذلك عوامل عدة : بعضها يتصل ببيزنطة ذاتها ، وقد أشرنا إليها من قبل ، والبعض الآخر وهو ما يهمنا يتعلق بالنهج الإسلامي الذي انتهجته الدولة العثمانية . ويمكن إيجازه فيما يلي :

* اعتمد عثمان على الطوائف الإسلامية من آخية وفيان .

* حين ضرب أورخان أول سكة في الدولة العثمانية في مدينة بورصة التي فتحها في ٧٢٥ هـ وجعلها عاصمة بلاده ، وحرص على أن تكون إعلانا رسميا عن إسلامية دولته . فقد كتب على أحد وجهيها لا إله إلا الله محاطة بأسماء الخلفاء الراشدين وعلى الوجه الآخر اسم أورخان وتاريخ ضربها(١٧) .

* وحرص أورخان على أن يكون مستشاروه ووزراؤه من بين علماء الدين .

* حرص أورخان على ألا يكون جيشه أداة حرب فحسب ، بل وأداة حكم وتوطين أيضا . فقد كان يسير في ركاب هذا الجيش كوكبة من العلماء والمفتين ، وما انفك العثمانيون عن هذه العادة طوال فتوحاتهم . وكان أورخان يُقْطع جنوده الأراضي المفتوحة ، ليسكنوا فيها عائلاتهم مما جعلهم يستميتون في الدفاع عنها أيضا(١٨) .

* الالتزام بالمبدأ الإسلامي ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ فكان للتسامح الديني الذي نفذه

العثمانيون ومن قبلهم السلاجقة ، ولتخلقهم بالأخلاق الإسلامية ، أبعد الأثر في اكتساب الأعداء قبل الأصدقاء . وقد استرعت هذه الظاهرة انتباه المستشرق جيبونز Gibbons فيقول في معرض حديثه عن عثمان الأول :

« سرعان ما يتحول أعداؤه إلى أصدقاء يخدمونه ويستمرئون خدمته ، وقد اعتنق آل ميخائيل وآل ماركوز الإسلام بعد صداقتهم لعثمان ، وكانوا يأتمرون بأمر قادته وهم أصحاب الأمجاد العسكرية التي تفوق ما لعثمان نفسه » . وربما أوجز جيبونز مانريد الوصول إليه بقوله في عثمان « لقد كان متدينا غيورا على دينه »[١٩] .

ونرى في قصة إسلام ميخائيل خير شاهد على ما حققه العثمانيون ، نتيجة لتحليهم بالأخلاق الإسلامية .

وقد عرف ميخائيل في المصادر العثمانية بكوسة ميخال ، وقع أسيرا في يد عثمان ، فأكرمه في أسره وتوطدت بينهما أواصر الصداقة ، وما أن افتدى وأعتق ، حتى أعلن إسلامه وسلّم ما كان تحت إمرته من قلاع في : « ليفكه » و « فكه جه » و « آق حصار » و « لبلبيجي » إلى العثمانيين « ويرجع إليه الفضل في إحكام حصار العثمانيين على بورصة وإنقاذ عثمان من مؤامرة دبرها الإمبراطور أندرونيكوس Andronicus لاغتياله[٢٠] .

وقد اقتفى أبناء عثمان نهج أبيهم في هذه السياسة . فها هو أورخان يستولي على بورصة في ٧٢٦ هـ ، ويسمح لأهلها بالخروج بأمتعتهم ، بل ويبعث بمن يقوم على حراستهم حتى يصلوا إلى أول ميناء . ومن ثم أعلن أوفرنوز حاكم بورصة إسلامه ، وصار أوفرنوز بك . ثم توافد حكام القلاع والمدن البيزنطية وأهلوها على العثمانيين ، فجاء أهل ميناء أزميت الواقعة على بحر إيجة ، وسلموا المدينة وقلاعها إلى سليمان باشا بن أورخان[٢١] .

وهكذا نشأت الدولة العثمانية ، وهي تحمل الخصائص التالية :

* دولة إسلامية تحمل لواء الإسلام متاخمة لدار الحرب ، فتبنت مبدأ الجهاد في سبيل الله .

* ذات مراكز حصينة واستراتيجية وتجارية في الأناضول أهمها ، بورصة التي تشرف على طريق الحرير العظيم .

* ذات موانئ ملائمة لإنشاء الأساطيل والمرافئ .
* كان الضعف يغلب على معظم الإمارات الإسلامية المجاورة .

وقد أفادت الدولة العثمانية من كل هذه الخصائص في غزوها البلدان الأوربية كما أفادت من جهود من سبقها كما أشرنا من قبل .

العثمانيون في البلقان :

واتت العثمانيين الفرصة للعبور إلى البلقان حيث بعث الإمبراطور كونتاكوزين Contacuzenus إمبراطور بيزنطة مستنجدا بجيش أورخان لصد هجمات دوشان (تولى في ١٣٣١ م) ملك الصرب الذي كان زاحفا على القسطنطينية . فلبّى أورخان النجدة وأرسل جيشا يقدر بثلاثين ألفا بقيادة ابنه سليمان باشا(٢٢) . عبر مضيق الدردنيل وعسكر في البلقان . ولكن الملك دوشان مات قبل أن يصل إلى القسطنطينية ، ومن ثم لم يعد الإمبراطور الجديد باليولوج Michael VIII Paleologas الذي أحرز السيطرة على القسطنطينية سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م في حاجة للجيش العثماني فطلب منه العودة ، بيد أن الجيش العثماني استولى – في عودته – على شبه جزيرة كليبولي (٧٥٧ هـ) ذات الأهمية الاستراتيجية وعلى الرغم من محاولات إمبراطور بيزنطة العديدة لاستعادة شبه الجزيرة(٢٣) لم يتخلّ عنها العثمانيون . ولاشك أن العثمانيين حققوا فوائد جمة من هذه الفرصة من أهمها :

* تأمين رأس جسر للعبور إلى البلقان .
* التعرف على مواطن الضعف في شبه جزيرة البلقان .
* التأكد من عجز بيزنطة عن الدفاع عن أراضيها .

جعل العثمانيون أوربا دار جهاد منذ هذه الرحلة واستمرت حروبهم في سبيل الفتح قرابة مائتي عام . ومن الطبيعي أن تتخللها انتكاسات كالتي حدثت إثر الضربة التي وجهها تيمورلنك (٧٧٠ – ٨٠٨ هـ/ ١٣٦٨ – ١٤٠٥ م) للدولة العثمانية ومن الطبيعي أيضا أن يقاوم الأوربيون ، فتارة يستردون ما أخذ منهم وتارة أخرى يمتنعون عن دفع الجزية . وقد حدث أيضا خلال مرحلة الفتح هذه أن أوقفت الدولة العثمانية

فتوحاتها في أوربا غير مرة لتحارب على جبهات أخرى ، كتلك التي كانت مع الصفويين في إيران (٩٠٧ - ١١٤٩ هـ/ ١٥٠١ - ١٧٣٦ م) أو المماليك في مصر والشام (هزم المماليك بمرج دابق شمالي حلب ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م ، وقرب القاهرة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م .

وقد اتخذت الفتوحات الإسلامية لدول شرقي أوربا ووسطها ثلاث وثبات أو مراحل :

* الأولى : قبل فتح القسطنطينية .
* الثانية : في فتح القسطنطينية وما تلاه مباشرة من فتوحات .
* الثالثة : فتوحات سليمان القانوني وخلفائه .

مرحلة ما قبل فتح القسطنطينية ٨٩٨ هـ / ١٤٥٣ م :

كانت الأوضاع في البلقان من التردي بحيث سهلت فتوح العثمانيين الأولى .

وإذا كنا قد تعرّفنا على مواضع القوة عند العثمانيين فلنتلمس بصورة عامة مواطن الضعف في البلقان .

حين شرع العثمانيون يفتحون البلقان أو ما عرف عندهم بالروميلي (بلاد الروم) كانت القوى السياسية الموجودة وقتذاك تتمثل في :

الدولة البيزنطية : وتحكم تراقيا الشرقية وما حول مدينة سالونيك وإقليم المورة وجنوب إيبر فيما عدا بعض المناطق الساحلية ، وقد كانت هذه الدولة تعاني من أسباب الضعف والانهيار حتى بات حكمها اسميا في بعض هذه المناطق ، إذ أنهكها الصراع بين حكامها وقواد جيشها على العرش من ناحية والصراع مع القوى الخارجية الطامعة في أراضيها مثل مملكة الصرب وجمهورية البنادقة من ناحية أخرى .

أما شمالي البلقان وشماله الشرقي فقد كان خاضعا لدولتين ناشئتين وهما الصرب والبلغار وقد أنهكهما الصراع مع بيزنطة من ناحية والحروب الأهلية من ناحية أخرى . فانقسمت دولة الصرب إلى إمارات متناحرة أيضا بعد موت حاكمها القوي استيفان دوشان Stephan- Uros IV Dusa وفي أقصى الغرب كانت توجد مملكة المجر وقد اعتنق ملكها

لودفيج الكبير (١٣٤٢ – ١٣٨٢ م) المذهب الكاثوليكي فكان يغير على بلاد البلقان من حين لآخر لنشر مذهبه بالقوة وكان يقتل كل من لا يقبل الدخول في المذهب الذي يدعو إليه .

وفي أقصى الشمال الغربي توجد إمارة البوسنة المستقلة .

وكانت هناك فيما عدا ذلك مناطق نفوذ موزعة على القوى البحرية الإيطالية (نابولي وجنوا والبندقية) : مثل ألبانيا (الأرناؤوط) وبعض أحياء من القسطنطينية وبعض الجزر في البحر الأيوني وبحري مرمره وإيجه .. إلخ . فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما كان من الصراع التقليدي بين الكنيستين الشرقية والغربية وما ترتب عليه من صراع بين القوى التابعة لكل منهما أدركنا على أي أرض هشة كانت تقف القوى المناوئة للعثمانيين في البلقان .

قد أدرك العثمانيون أهمية مدينة أدرنة واستراتيجية موقعها إذ كانت تقع على ملتقى ثلاثة أنهر وتشرف على وسط شبه جزيرة البلقان وكانت أقرب المدن إلى القاعدة العثمانية في الأناضول ومن ثم وقع اختيارهم عليها . فجهّز السلطان مراد الأول (٧٦١ – ٧٩٢ هـ/ ١٣٥٩ – ١٣٩٠ م) جيشا وسيّره إليها ، ولم يستمر حصارها طويلا إذ هرب حاكم المدينة وتركها للعثمانيين فدخلوها في ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) . ولكي تتحقق الفائدة الكاملة من موقع أدرنة استولى العثمانيون على (فيلبه) أيضا التي تقع على امتدادها ليصبح لديهم خط يقطع أي إمداد يمكن أن يصل إلى بيزنطة من وسط أوربا .

أدرك الأوربيون الخطر العثماني الذي بات يهدد القسطنطينية ومن ثم بدأت الأحلاف الصليبية .

فحاول الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوج الاتفاق مع البنادقة لتطويق العثمانيين ولكن سوء النوايا أفشل هذا الاتفاق مما اضطر الإمبراطور معه أن يوقع معاهدة عدم اعتداء مع العثمانيين تقضي بألا يحاول البيزنطيون أو الصربيون استرداد ما استولى عليه العثمانيون وكانت تلك المعاهدة أول انتصار للعثمانيين في البلقان .

ولم تهدأ ثائرة البابا أوربان الخامس (١٣١٠ – ١٣٧٠ م) فقام بتحريض ملك المجر

ودعاه للتحالف مع الصرب والبلغار لطرد العثمانيين من أدرنة وبالفعل « ساروا في جيش جرار يقدر بـ ٦٠ ألف جندي وأوقعوا الهزيمة بالجيش العثماني في البداية وباتوا يرقصون ويعبّون الخمر احتفالا بالنصر فخرج عليهم الترك في جنح الظلام وانقضوا عليهم فتفرق جمعهم وتحول نصرهم إلى هزيمة بحيث استطاع ملك المجر أن ينجو بنفسه بصعوبة »[٢٤] . وعرفت هذه الموقعة باسم صرب صنديغي (٧٦٦ هـ/ ١٣٦٤ م) .

وقد نقل السلطان مراد حاضرة بلاده بعد تلك الموقعة من بورصة إلى أدرنة (٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م) ونتيجة لاستيلاء العثمانيين على كثير من المدن الصغيرة والقلاع مثل (واردار) و (كَوملنجه) .. إلخ أصبحت القسطنطينية محاصرة بالجيوش العثمانية جنوبا وغربا ، وصارت للجيش العثماني رهبة في قلوب الأوربيين . « فأرسلت جمهورية راجوزه[٢٥] Ragusa في عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م وفدا إلى السلطان مراد لتوقيع معاهدة ودية وتجارية تعهدت فيها بدفع جزية سنوية مقدارها ٥٠٠ دوكا ذهب وكانت أول معاهدة أمضيت بين العثمانيين والدول المسيحية »[٢٦] . وتوالت بعد ذلك الاتفاقات إذ وقّع شيشمان أمير البلغار ولازار ملك الصرب اتفاقا مع العثمانيين تعهد فيه بدفع جزية سنوية مقابل عدم الاعتداء وكان ذلك في (٧٨١ هـ/ ١٣٧٩ م) . ولكن توانى أمير البلغار عن دفع الجزية في عام (٧٨٣ هـ/ ١٣٨١ م) جعل العثمانيين يواصلون مسيرة الفتح مرة أخرى فاستولى الجيش العثماني على العديد من المدن الحصينة في البلقان مثل « مناستر » و« بريه » و« استيب » . ثم حاصر العثمانيون مدينة (صوفيا) عاصمة البلغار وسقطت في أيديهم بعد حصار دام ثلاث سنوات ثم استولوا على مدينة سالونيك في مقدونيا .

وهكذا كانت الفتوحات العثمانية في عهد مراد الأول على ثلاثة محاور : مقدونيا والصرب وبلغاريا . وكانت آخر انتصاراته على الجيوش الصليبية المتحالفة في موقعة (قوص أوه) (عام ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩ م) التي استشهد فيها .

كان على السلطان بايزيد الأول (٧٩١ - ٨٠٤ هـ/ ١٣٨٩ - ١٤٠١ م) أن يؤمن ظهره في الأناضول قبل أن يفكر في فتوحات جديدة في أوربا ، فقد كثرت الفتن والقلاقل التي كانت تثيرها الإمارات التركية المحيطة بالدولة العثمانية ، كما لاح في الأفق خطر جديد

يهدد الأناضول بأسره وهو ظهور المغول بقيادة تيمورلنك (٧٧٠ – ٨٠٨ هـ/ ١٣٦٨ – ١٤٠٥ م) ولم يكن بايزيد يأمن في الوقت نفسه شر انقلاب حكام البلقان عليه لاسيما أن الاتصالات كانت على قدم وساق بين إمبراطور بيزنطة والقرمانيين (إحدى الإمارات التركية القوية) من ناحية وبيزنطة وتيمورلنك من ناحية أخرى . كل ذلك جعل بايزيد في حركة دائبة وهجوم على الجبهتين : ينقض على جبهة البلقان تارة ثم يعود ليؤدب جيرانه الترك في الأناضول تارة أخرى ، ولسرعة تحركاته فإنه لقّب بالصاعقة (بيلديرم) .

وأهم المعارك التي خاضها بايزيد الأول في أوربا معركتان :

الأولى : ضد إمبراطور بيزنطة عمانويل باليولوج (١٣٩١ – ١٤٢٥ م) ، وفيها ضيّق العثمانيون الحصار على القسطنطينية حتى كادوا أن يفتحوها ولكن اكتفى بايزيد بإبرام الصلح في عام ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٢ م بشرط مضاعفة الجزية وبناء مسجد جامع في القسطنطينية لإقامة الشعائر الإسلامية وإقامة محكمة شرعية للنظر في قضايا المسلمين المستوطنين بها[٢٧] . ويبدو أن الترك قد أحسوا بنذر تحالف صليبي جديد فبادر بايزيد بالهجوم على البلغار وأعلنها ولاية عثمانية في عام ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) ، ثم واجه الحلف الصليبي الجديد الذي كان يضم عدا ملك المجر فرسان القديس يوحنا والبنادقة وجيوشا من فرنسا وألمانيا والدنمرك .

وتعد موقعة نيكوبولي Nicopolis في ٧٩٨ هـ/ ١٣٩٦ م من أهم المواقع التي خاضها بايزيد الأول ، ففي هذه المعركة قاتل الصربيون ببسالة في جانب العثمانيين وكان يقودهم أسطفان بن أمير الصرب السابق . وليس ذلك بغريب فقد أثر عن نصارى البلقان قولهم آنذاك « إنهم يفضلون عمامة السلطان العثماني ولا يطيقون رؤية قبعة مندوب البابا في بلادهم وكان هذا الرأى يعبر عن شعور عام تملك سكان البلقان »[٣٠] . كما تحقق في هذه المعركة ضرب المجر قلب البلقان وأقوى معاقل المقاومة فيه .

وبعد أن ثبت بايزيد الأول أقدامه في البلقان على هذا النحو « أرسل إلى الخليفة العباسي بالقاهرة يطلب منه أن يخلع عليه لقب سلطان الروم »[٣١] واستعد لحصار القسطنطينية

مرة أخرى . ولكن لاحت نذر الخطر القادم من الشرق وتمثل هذا الخطر في الموجة المغولية الثالثة على العالم الإسلامي[٣٢] .

أجهض الغزو المغولي للأناضول خطط بايزيد الأول وأحدث انتكاسة في الفتوحات العثمانية الإسلامية في البلقان . بل قضى على وحدة الدولة العثمانية ذاتها . فقد هزم العثمانيون أمام المغول في موقعة أنقرة عام ٨٠٤ هـ (١٤٠٢ م) ووقع بايزيد أسيرا في يد تيمورلنك ، ومات في أسره . وأصبح أبناؤه الأربعة حكام أقاليم يأتمرون بأمر المغول الذين أعادوا إلى ملوك الطوائف من الترك إماراتهم ، واسترد إمبراطور بيزنطة وحكام البلقان ما كان قد أخذه منهم العثمانيون . بل أصبح أبناء بايزيد يستنجدون أحيانا بإمبراطور بيزنطة ضد بعضهم البعض كما فعل الأمير سليمان الذي لجأ إلى بيزنطة آنذاك .

ولئن كانت ضربة تيمورلنك للعثمانيين قد أحدثت انتكاسة للفتوحات العثمانية في البلقان إذ أعادت إلى النصارى ممتلكاتهم ، فقد أفادت انتشار الإسلام في أوربا بطريق غير مباشر ، « إذ أن الأسر التركية هربت من أمام جيوش تيمور إلى المناطق الأوربية . وقد استفادت جنوا من تقديم الخدمات لهم . وقد ذكر المؤرخ دوكاس أنه كان في أوربا أتراك أكثر مما كانوا في الأناضول »[٣٣] .

كذلك ساق تيمور للعثمانيين منفعة أخرى وهي فتح مدينة أزمير ، إذ كانت منيعة عليهم وعلى الرغم من حصارهم لها عدة مرات لم يتمكنوا من فتحها .

وانقشعت سحابة المغول عن الأناضول بعد مضي قرابة عشر سنوات فجأة كما جاءت فجأة ، واستطاع محمد جلبي أحد أبناء بايزيد الأربعة أن ينتصر على إخوته ويعيد للدولة وحدتها . وأمضى فترة حكمه الثانية (٨١٦ – ٨٢٤ هـ/ ١٤١٣ – ١٤٢١ م) في إعادة الأوضاع داخل الدولة إلى ما كانت عليه ، ومن ثم لم يتمكن من القيام بأية فتوحات في الخارج .

وتحقق ذلك على يد خلفه مراد الثاني (تولى فترتين : ٨٢٤ – ٨٤٨ و٨٤٨ – ٨٥٥ هـ)[٣٤] الذي أعاد إلى الأذهان صورة الفتوحات العثمانية الأولى ، فنشطت حركة الفتح لتشمل كل الجبهات على شكل مروحة غطّت كل شبه جزيرة البلقان

ومقدونيا والمورة والأفلاق وبلغاريا والصرب والمجر وألبانيا . وكان العثمانيون يحاربون تلك القوى ويواجهونها على انفراد ، وأحيانا مجتمعين . وكانوا يتبادلون معهم النصر والهزيمة ويعقدون الاتفاق تلو الآخر . وعلى الرغم من انتصار العثمانيين في معركة قوص اووه الثانية (عام ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م) ضد تحالف صليبي ضمّ كل أوربا لم يحسم الأمر تماما لصالح العثمانيين .

ولكن يمكن القول بأن مراد الثاني استطاع أن يعيد للعثمانيين هيبتهم في أوربا وأن يسترد كل ممتلكاتهم في الأناضول وأن يخضع المورة ويجبر ملك الروم عمانويل الثاني على استئناف دفع الجزية كذلك إبرام مراد الثاني اتفاق صلح مع ملك المجر الذي لم ينفك على الرغم من هذا الاتفاق مع حاكم ألبانيا إسكندر بك على مقاومة العثمانيين ، وكان على محمد الثاني (الفاتح) (٨٥٥ – ٨٨٦ هـ/ ١٤٥١ – ١٤٨١ م) أن يقضي على هذه المقاومة قبل إقدامه على فتح القسطنطينية المبين .

انتشار الإسلام في عهد محمد الفاتح (٨٥٥ – ٨٨٦ هـ/ ١٤٥١ – ١٤٨١ م) :

تطلعت أنظار المسلمين إلى القسطنطينية منذ فجر الإسلام – جاءت أولى محاولاتهم في النصف الأول من القرن الأول الهجري / أوائل القرن السابع الميلادي واستشهد في سبيل فتحها الصحابة ومن بينهم أبو أيوب الأنصاري . ورويت أحاديث شريفة حول فتحها وفاتحها . وسواء صحّت هذه الأحاديث أم لم تصح فهي تدل على أهمية هذه المدينة في نظر المسلمين ، وربما كانت أهميتها ترجع إلى كونها معقلا من معاقل النصرانية من ناحية ولموقعها الجغرافي من ناحية أخرى ، فهي تشرف على مضيقين يصلا أربعة بحار (الأسود والمتوسط وإيجه ومرمرة) وهي تصل ما بين قارتين . وقيّض للعثمانيين أن ينالوا شرف فتح المدينة والتي بفتحها فتحت كل أبواب أوربا الشرقية أمام المسلمين فما هي العوامل التي أدت إلى نجاح العثمانيين في فتح القسطنطينية ؟

كانت العوامل الخارجية التي ساعدت على غزو العثمانيين للبلقان في وثبتهم الأولى هي نفس العوامل التي ساعدتهم على فتح القسطنطينية تقريبا ، إذ لم يطرأ أي تحسن على الأوضاع في البلقان بل يمكن القول بأنها زادت سوءا للأسباب التالية :

* آقدمت بيزنطة على الاستعانة بمرتزقة من جنود ألمانيا وهم عصبة القطلانيين . وقد بلغ عددهم ثمانية آلاف وكانوا على جانب كبير من الميل إلى التخريب والخروج على النظام وكانوا معول هدم أكثر منهم أداة تدعيم[٣٦] ، كما استعانت بقراصنة البحر الأسبان وأصبح حي غلطة ملكا للجنويين .

* أصبح معظم البلقان خاضعا للدولة العثمانية .

* لم تكن هناك دولة أوربية في قوة تمكنها من مساندة إمبراطور بيزنطة . ففي غربي أوربا خرجت كل من إنجلترا وفرنسا منهكتين من حرب المائة عام (٧٣٩ – ٨٥٧ هـ/ ١٣٣٨ – ١٤٥٣ م) وقتئذ ، وفي أسبانيا وقتذاك ممالك صغيرة للبرتغال Portugal والأراغون Aragon وقشتالة Castile ونافار Navar . وفي الشمال انفصلت مملكتا السويد والدنمارك مما أدى إلى ضعفهما . وفي الجنوب كان هناك تنافس لا يهدأ بين جمهوريتي جنوا Genoa والبندقية Venice على المصالح التجارية في البحر المتوسط وما فتيء البابا في روما يلحّ على المطالبة بانضمام الكنيسة الشرقية إليه لتلبية أى طلب للمعونة من قبل الإمبراطور البيزنطي . وكانت المجر هي القوة الوحيدة التي يحسب حسابها في أوربا فعقد محمد الفاتح صلحا طويلِ الأجل مع ملكها هوتياد ، وربما كان هذا الصلح سببا في تردد ملك المجر حين استنجد به الإمبراطور البيزنطي أثناء الحصار .

كان على السلطان محمد الفاتح أن يؤمن ظهره أيضا أي يطمئن إلى جبهة العالم الإسلامي فحارب القرامانيين – الإمارة التركية الوحيدة الباقية في الأناضول عام ٨٥٥ هـ/ ١٤٥٢ م وأسكتهم إلى حين وكان على علاقة طيبة بالمماليك في مصر والشام ، أما العراق فكان مقسما بين دولة الشاة البيضاء (٨٠٦ – ٨١٤ هـ/ ١٤٠٣ – ١٥٠٩ م) والشاة السوداء (٧٨٢ – ٨٧٤ هـ/ ١٣٨٠ – ١٤٦٩ م) وهما في صراع دائم[٣٧] .

فتح القسطنطينية ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٣ م :

لم يبق أمام الفاتح إلا اتخاذ خطوة فعلية تجاه القسطنطينية وقد خطاها حين بنى حصنا على قيد خمسة أميال من سور القسطنطينية وفي مواجهة الحصن الذي بناه بايزيد الصاعقة

على ضفة الأناضول وهكذا أصبح الفاتح يتحكم في مضيق البوسفور . وقد أدى بناء الحصن وقيام الجنود الأتراك بالاستيلاء على بعض ضياع اليونان القريبة منه توتر العلاقات بين الفاتح وآخر أباطرة البيزنطيين الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨ - ١٤٥٣ م) الذي أغلق أبواب مدينته واستغاث بالبابا وملوك أوربا وكان موقفهم كما ذكرنا من قبل .

لم يكن فتح القسطنطينية بالأمر اليسير فالمدينة تحتل مثلثا هائلا من المرتفعات الصخرية تشرف قاعدته على بحر مرمرة ويمتد ضلعه الأيمن على خليج القرن الذهبي ويحمي هذين الجانبين سور واحد عززه البيزنطيون بإغلاق خليج القرن الذهبي بسلسلة حديدية تصل بين شاطئيه . وتولى الجنويون حراسته بمراكبهم الراسية على الشاطئ تأكيدا لحمايته أما الضلع الثالث فهو الجانب المتصل بأرض القارة الأوربية يحميه خط مزدوج من الأبراج الحصينة وخندق عميق مزدوج أيضا .

بدأ العثمانيون حصارهم للمدينة في ١٢ من ربيع الأول ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) بعد أن أخذوا أهبة الاستعداد لحصار طويل الأمد ونقلوا معهم المدفع الشهير الذي صنعه المهندس المجري أوربان[٣٨] وظل الجند العثمانيون يقصفون أسوار المدينة من ناحية البر فلم يجد هذا القصف - مع مناعة الأسوار - فتيلا ، وحاولوا الدخول عن طريق البحر فأغرق البيزنطيون والجنويون سفنهم . وأدرك الفاتح صعوبة الأمر فاستعان عليه بشيئين تعبئة جنوده معنويا وقد طال بهم الحصار وأصابتهم الملالة وكانت وسيلته إلى ذلك كوكبة من العلماء يعظون بالجنود ويذكرونهم فضائل الجهاد ، ثم الخدعة إذ نقل سفنه إلى ما وراء السلسلة الحديدية التي كانت تقفل خليج القرن الذهبي وكان ذلك بأن أزلقت السفن ليلا على ألواح خشبية مدهونة بالدهن والشحم وقطعت مسافة ستة أميال ليفاجأ بها البيزنطيون في الصباح وقد فتحت أشرعتها . كذلك استعان الفاتح بعربات خشبية محصنة بالجلود المبللة بالماء لإبطال مفعول النار اليونانية التي كان البيزنطيون يتقنون استعمالها . وبعد مضي ثلاثة وخمسين يوما من الحصار استطاع الأتراك المسلمون أن يحققوا أمل أسلافهم الذي مضى عليه ثمانية قرون وكان دخولهم القسطنطينية في جمادى الأولى ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م)[٣٩] .

إنجـــازات الفاتح :

و لم يكن فتح القسطنطينية الإنجاز الحربي الوحيد للسلطان محمد الفاتح ، إذ توجه إلى شبه جزيرة المورة في جنوب البلقان وأرغمها على قبول دفع الجزية (١٤٥٨ م) وحارب الصرب والأفلاق فضمهما نهائيا إلى الدولة العثمانية .

وحارب المجر فهزمهم وكسر شوكتهم في البلقان ، وحاصر بلغراد التابعة لهم آنذاك ولكن لم يستطع دخولها .

كذلك أجبر البنادقة وإسكندر بك زعيم الأرناؤوط على توقيع اتفاقات سلام .

واستولى على بعض الجزر القريبة من سواحل الدولة العثمانية وأهمها مديللي التي كانت تابعة للجنويين آنذاك وكان حاكموها قد قبلوا دفع الجزية منذ عهد مراد الثاني ولكن تراخيهم في تأديتها من ناحية ولجوء القراصنة القطلانيين إليها من ناحية أخرى جعل الفاتح يسارع بحصارها والاستيلاء عليها في ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ م)[٤٠] .

لم تنحصر إنجازات الفاتح العسكرية في الجانب الأوربي بل اتجه إلى الأناضول فقضى على البقعة النصرانية الوحيدة الباقية وهي مملكة طرابزون[٤١] كذلك قضى على دولة الشاة البيضاء وكانت دائمة التآمر مع البيزنطيين ضد الدولة العثمانية .

بيد أن هذه الانتصارات لم تكن لتؤتي ثمارها لو لم تصاحبها تدابير سياسية واجتماعية وربما كانت هذه التدابير أبعد أثرا في انتشار الإسلام من الانتصارات العسكرية .

فحين دخل الفاتح القسطنطينية منع جنوده من السلب والنهب فورا وأعلن حرية ممارسة الشعائر الدينية وحرية التملك وضمان حقوق الملكية فعاد إلى المدينة من هجرها هربا من ظلم الأباطرة . ثم استدعى الفاتح رجال الدين النصراني وأمرهم بانتخاب رئيس لهم يتولى شئونهم الدينية فانتخبوا جناديوس[٤٢] بطريركا لهم ، وبهذه الخطوة كفل للكنيسة الشرقية استقلالها عن البابا في روما وقضى على آمال البابا في ضم الكنيستين .

وكان لسياسة التسامح الديني هذه أثرها في الترغيب في الإسلام فقد شهدت السنوات التالية لفتح القسطنطينية تحوّلا إجماعيا للإسلام حين جاء أهالي البوسنة أفواجا إلى محمد الفاتح ليلعنوا إسلامهم ورغبتهم في العمل بخدمة الدولة فسر السلطان بذلك وألحقهم

بخدمة الجيش العثماني ، وقد ظل البوسنويون على ولائهم للدولة العثمانية إلى النهاية(٤٣) .

واتبع السلطان محمد الفاتح سياسة أسلافه الخاصة بالتهجير والتوطين فأرسل إلى ولاته بالأناضول ليشجعوا من يرغب من المسلمين في الهجرة إلى إستانبول ، فلم يجد منهم إقبالا في أول الأمر ففرضها على الحرفيين وأصحاب الصناعات بصفة خاصة ، فتم تهجير المئات منهم بأسرهم وكان النصيب الأوفر للمدن ذات الكثافة السكانية العالية والعصبيات الإقليمية القديمة مثل قرمان وقونيه . كذلك تم تهجير أسر من الصرب والمورة والبوسنة إلى إستانبول(٤٤) .

وتم تنفيذ نفس السياسة عند فتح جزيرة مديللي « فقد قسم أهالي الجزيرة إلى ثلاثة أقسام : أحدهما تم تهجيره إلى إستانبول ، والثاني وهم أصحاب الصناعات والمزارعون فرض عليهم البقاء في الجزيرة مقابل دفع الجزية ، أما الثالث وهم الشباب فقد أخذوا كأسرى حرب لضمهم إلى معسكرات الإنكشارية حيث يتم تربيتهم تربية إسلامية »(٤٥) .

* ولاشك أن سياسة التهجير والتوطين هذه قد حققت أهدافا كثيرة منها:
* تطعيم الأمصار المفتوحة بالعناصر الإسلامية.
* نقل العناصر النصرانية من الأماكن ذات الكثافة مما يقلل من خطورتهم .
* القضاء على العصبيات الأسرية والإقليمية .

توفى السلطان محمد الفاتح في ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) عن دولة قوية تضاعفت مكانتها الدينية في قلوب المسلمين بعد هذه الانتصارات ، فأرسل مسلمو الأندلس يستنجدون بالفاتح(٤٦) . وكان المسلمون يهللون فرحا عقب كل انتصار للدولة العثمانية .

تطور الأحداث بعد محمد الفاتح حتى سليمان القانوني : ٨٨٦ – ٩٢٦ هـ/ ١٤٨١ – ١٥٢٠ م :

لكن حركة الفتوحات العثمانية في أوربا أصيبت بحالة من الركود إبان عهد بايزيد الثاني (٨٨٦ – ٩١٨هـ/ ١٤٨١ – ١٥١٤م) . ويمكن اعتبارها فترة استرخاء لتعيد الدولة

ترتيب أمورها الداخلية . والواقع أن عهد بايزيد الثاني شهد صراعات حادة على العرش كادت أن تودي بالدولة ذاتها ، من أهمها الصراع الذي نشب حين تولى بايزيد السلطة إذ طالب أخوه الأمير جم بالعرش ولجأ إلى المماليك بل إلى فرسان القديس يوحنا طلبا للعون وانتهى به الأمر إلى شارل الثامن ملك فرنسا (١٤٨٣ – ١٤٩٨ م) والبابا أنوسان الثامن (١٤٨٤ – ١٤٩٢ م) اللذين احتفظا به كرهينة لإجبار بايزيد على قبول شروطهم و لم ينقذ بايزيد من هذه الفتنة إلا وفاة الأمير جم في ٩٠٠ هـ (١٤٩٤ م) . وكان لجوء الأمير جم إلى المماليك سببا في توتر العلاقات بينهم وبين العثمانيين ثم اندلاع حرب بين الدولتين استمرت من ٨٩٠ – ٨٩٥ هـ/ ١٤٨٥ – ١٤٩٠ م . وإذا كان هذا الصراع قد كشف عن خطر المماليك على الدولة العثمانية فإن تمرد أبناء بايزيد عليه في آخر أيامه كشف عن خطر أشد وهو خطر الزحف الشيعي على الأناضول بتخطيط من الدولة الصفوية ٩٠٧ – ١١٤٩ هـ/ ١٧٣٦ م التي ظهرت كدولة حدودية تثير القلاقل في شرق الأناضول وتحرض الأمراء العثمانيين حكام الأقاليم هناك للتمرد على أبيهم(٤٨) وتطمع في قيادة العالم الإسلامي .

ربما كانت هذه الأخطار المحدقة بالدولة من الشرق هي التي جعلت السلطان بايزيد الثاني يجنح إلى السلم مع الغرب . ولذلك تميز عهده ببدء العلاقات الدبلوماسية مع أوربا وبخاصة أن نظرة الأوربيين للأتراك قد تغيرت « فلم يعودوا يرون فيهم البرابرة غير المتفاهمين، بل أصبحوا ينظرون إليهم نظرة احترام ويدعونهم إلى أراضيهم ويرحبون بهم بعد أن وجدوا عندهم من القيم الإنسانية والحضارية ما يماثل تلك التي كانت عند الإغريق والسلاف والألبانيين والرومان بل تميز الأتراك على هؤلاء بالقوة والنشاط ووحدة الصف أضف إلى ذلك تواضع السلاطين الأوائل »(٤٩) .

ومن أهم الخطوات التي خطتها الدولة العثمانية على الصعيد الدبلوماسي اعتماد سفير البابا في إستانبول ، وسفير روسيا وتوقيع معاهدة تجارية معها ثم عقد معاهدة صداقة مع مملكة بولونيا (لهستان في المصادر العثمانية) .

وعلى الرغم من الركود العسكري اضطر العثمانيون لمهاجمة البنادقة واستولوا منهم على

بعض الموانيء والجزر الواقعة في البحر المتوسط مثل : ليبانت ومودون ونافارين وميناء رودستو على البحر الأدرياتيك وبدأ الأسطول العثماني في ذلك العهد الاستفادة من الأساطيل الصغيرة التي كان يمتلكها مجاهدو البحر المسلمون في البحر المتوسط ، ففي عام ٩٠٠ هـ (١٤٩٤ م) استدعى بايزيد الثاني الرئيس كمال وكان من أشهر رجال البحر الأتراك آنذاك . وألحقه بالخدمة في أسطول الدولة ليحمي سواحل الأناضول من قرصنة البنادقة(٥٠) .

وكان من نتيجة تعاظم الخطرين الصفوي والمملوكي بل وتحالفهما تحول النشاط العسكري للدولة العثمانية إلى الشرق في عهد السلطان سليم الأول (٩١٨ – ٩٢٦ هـ) ولاشك أن الصراع في الشرق لم يكن مقطوع الصلة بما كان يجري في الغرب بل كان امتدادا له في حقيقة الأمر لسببين رئيسيين :

* تسرب الأسطول البرتغالي إلى مياه البحر الأحمر والخليج العربي وعدم قدرة أسطول المماليك على الوقوف أمامه .

* تآمر الشاه إسماعيل الصفوي ٩٠٧ – ٩٣١ هـ/ ١٥٠١ – ١٥٢٤ م مع البنادقة ضد العثمانيين فقد أرسل الشاه إسماعيل سفيره إلى البنادقة في شوال ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) محرضا إيّاهم ضد العثمانيين ونظرا لحصول هذا السفير على الإذن من المماليك للمرور عبر أراضيهم في سوريا أرسل السلطان سليم احتجاجا شديد اللهجة للمماليك(٥١) . وهكذا أصبح لزاما على الدولة العثمانية ضرب هذا التحالف الثلاثي قبل أن تواصل مسيرة فتوحاتها في أوربا .

خاض العثمانيون معركتين هامتين على صعيد البلاد الإسلامية أوقفوا في أولاهما وهي جالديران ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) خطر الزحف الشيعي بانتصارهم على الصفويين واستطاعوا في الثانية وهي مرج دابق ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ضم مصر والشام والحجاز إلى الدولة وذلك بانتصارهم على المماليك .

وقد حقق العثمانيون بانتصارهم على المماليك مكاسب كثيرة كان لها أثرها في التوسع على الساحة الأوربية فيما بعد – على يد سليمان القانوني (٩٢٦ – ٩٤٧ هـ/ ١٥٢٠ – ١٥٤٠ م) ومن أهمها :

* أضيف إلى ألقاب السلطان العثماني لقب « خادم الحرمين الشريفين » ثم خليفة المسلمين وبهذا تحقق للعثمانيين الزعامة الدينية والرئاسة السياسية في العالم الإسلامي .

* تحقيق أهداف اقتصادية واستراتيجية عظيمة الأهمية فإلى جانب زيادة الموارد الاقتصادية للدولة والاستفادة من الخبرات الفنية الموجودة في كل من مصر والشام ، استطاعت الدولة أن تقف حائلا دون توغل البرتغاليين في المياه العربية وأن تحيط بسواحل البحر المتوسط الشرقية وتسيطر على معظم سواحل البحر الأحمر وعلى ميناء السويس ، مدخله الشمالي .

وهكذا تزودت الدولة العثمانية من هذه المكاسب فكانت خير معين لها في تحقيق وثبة الفتوحات الثالثة في أوربا وألقت عليها مسئولية كبرى كان عليها أن تحملها مادام سلطانها يحمل لقب خليفة المسلمين .

الفتوحات الإسلامية في عهد سليمان القانوني ٩٢٦ - ٩٤٧ هـ/ ١٥٢٠ - ١٥٤٠ م :

ليس من المبالغة في شيء أن يوصف عهد سليمان القانوني بالعهد الذهبي للدولة العثمانية وأن يعرف سليمان في أوربا بسليمان (العظيم) The Magnificent فقد بلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها ، كذلك نهضت الحياة في المجتمع الإسلامي على اختلاف وجوهها على الرغم مما كان يواجه من تحديات ومهام جسيمة تمثلت في :

* مواجهة الفتن الداخلية .
* الاحتفاظ بمقام الزعامة في العالم الإسلامي .
* الاحتفاظ بالمكاسب الإسلامية في أوربا ومواصلتها .

وبالفعل تمكن سليمان القانوني من إخماد الفتن الداخلية في مصر والشام والأناضول .

ثم قام بحملتين على الصفويين في إيران ضم خلالهما العراق الشمال الشرقي من الجزيرة العربية وهكذا بسط السيادة العثمانية على مياه الخليج العربي .

كذلك قام السلطان بفتح اليمن ليسيطر على مدخل البحر الأحمر من الجنوب واستطاع تطهير سواحل شمالي إفريقية من الأسبان وغيرهم من القوى الصليبية .

وهكذا تبوأت الدولة العثمانية مقام الصدارة في العالم الإسلامي بلا منازع وفرضت سيطرتها على المياه العربية لتحول دون تسرب البرتغاليين إليها(٥٣) .

أما على الساحة الأوربية فقد ظهرت عوامل جديدة صعّدت من حدة الصراع مع القوى الصليبية وزادت من قوة تحديها وكان أهمها :

* فتح ميادين جديدة بالتفاف البرتغاليين حول الدولة العثمانية نتيجة وجودهم في المحيط الهندي والخليج العربي .

* دخول قوى سياسية فتية ساحة الصراع مثل أسرة هابسبورج في المجر والنمسا التي كانت تحلم بإمبراطورية كبرى في شمال الدانوب(٥٤) وشارلكان في أسبانيا وهولندا (١٥١٥ – ١٥٥٦ م) وكان يحلم بجعل البحر المتوسط بحيرة إسبانية .

* الصراع بين فرانسوا الأول (١٥١٥ – ١٥٤٧ م) وشارلكان حول جنوبي إيطاليا .

وقد فرض العاملان الأول والثاني على الدولة العثمانية أن تنازل القوى الصليبية في ميادين ثلاثة الخليج العربي والبحر الأحمر ، شرقي أوربا ووسطها ، البحر المتوسط .

أما العامل الثالث فقد فرض عليها تحالفا مع ملك فرنسا لم تستفد منه كثيرا في وقتها وأضرها كثيرا في المستقبل .

ومهما يكن من أمر فقد فرضت هذه العوامل مجتمعة على الدولة العثمانية أن يكون لديها قوة بحرية تمكنها من الانتصار في الميادين التي ذكرنا ومن ثم يجدر بنا أن نلقي بنظرة عجلى على تطور هذه القوة ودورها في نشر الإسلام في عهد القانوني .

البحرية العثمانية والفتوحات الإسلامية :

بدأ نشاط العثمانيين البحري حين أطلت دولتهم على سواحل بحري إيجه ومرمرة وأقيمت أول ترسانة لبناء السفن في كليبولي في عهد بايزيد الصاعقة (٧٩١ – ٨٠٤ هـ/ ١٣٨٩ – ١٤٠١ م) واستطاع العثمانيون بناء أسطول صغير تمكنوا به من الاستيلاء على بعض الجزر القريبة من الساحل الغربي للأناضول . ولم يكن في مكنة هذا الأسطول منازلة الأساطيل الكبرى العريقة في البحر مثل أسطول جنوا والبندقية ، فحرص على

تحاشيها ولكن هذا الحرص لم ينقذه من هجوم أسطول البنادقة عليه وتحطيمه في عام ٨١٩ هـ/ ١٤٢٦ م في عهد السلطان محمد جلبي .

ويبدو أن نجاح العثمانيين في المعارك البحرية صرف اهتمامهم عن بناء قوتهم البحرية بعد ذلك ، إذ لم تقم عندهم صناعة بناء السفن على الرغم من إرثهم للترسانة البيزنطية الكبيرة بعد فتح إستانبول ، بل أهملوا هذه الترسانة حتى تحولت إلى خرائب[٥٦] ونتيجة لهذا الإهمال ظلت قوة العثمانيين البحرية غير متكافئة مع قوتهم البرية وعلى الرغم من ذلك استطاع محمد الفاتح (٨٥٥ - ٨٨٦ هـ/ ١٤٥١ - ١٤٨١ م) بهذا الأسطول الصغير وبعض السفن المستأجرة أن يستولي على عدد من الموانئ الهامة في بلاد المورة وأن يطرد الجنويين من قواعدهم في شمال الأناضول ويستولي على ثغر (كافه) في شبه جزيرة القرم ثم استولى على كثير من الجزر في بحر إيجه وهاجم البنادقة في قواعدهم حتى حاصر أونزانت في جنوب إيطاليا[٥٧] . وجاء سليم الأول (٩١٨ - ٩٢٦ هـ/ ١٥١٢ - ١٥١٩ م) فأدرك فائدة الأسطول في المعارك البرية أيضا حين استفاد من السفن الحربية في الإمداد والتموين أثناء حربه مع الصفويين في إيران[٥٨] .

كما استفاد العثمانيون من ترسانة السويس ، وكان اصطحاب السلطان سليم الأول للرئيس سليمان قائد الأسطول المملوكي إلى إستانبول بداية لمرحلة جديدة في بناء البحرية العثمانية ، كما استفادوا أيضا من التحاق مجاهدي البحر المسلمين بسفنهم بالأسطول العثماني ، وكان في مقدمتهم أروج بك وأخوته الذين بفضلهم استطاعت الدولة العثمانية أن تطرد الأسبان وفرسان رودس والبرتغال من تونس والجزائر وأن تحافظ على عروبة شمالي إفريقية . وفي عهد سليمان القانوني عيّن خير الدين برباروس (٨٨٨ - ٩٥٣ هـ/ ١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) أحد هؤلاء الأخوة قائدا للأسطول العثماني اعترافا من الدولة بفضله .

فتح بلغراد :

كانت من ممتلكات مملكة الصرب ولكن الصربيين سلّموها للمجر خوفا من وقوعها في يد العثمانيين وقد حاصرها العثمانيون مرتين ولكنها امتنعت عليهم فظلت درعا واقيا يحتمي خلفه المجريون . ولذلك كان فتحها يعني : حرمان المجر من هذا الدرع من ناحية

ووجود قاعدة للانطلاق إلى وسط أوربا من ناحية أخرى . وقد بدأت الأحداث بأن أوفد العثمانيون سفيرا لطلب الجزية من ملك المجر فقتله الأخير وزحف الجيش العثماني وحاصر بلغراد في عام ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) وقد تميز هذا الحصار بميزتين لهما دلالتهما :

* استخدام القوارب في الحصار من جهة نهر الدانوب مما يدل على استفادة العثمانيين من قوتهم البحرية المتطورة .

* انضمام طلبة المعاهد الدينية في أدرنة وفيلية وصوفيا إلى صفوف المقاتلين طلبا للجهاد ، وفي هذا دلالة على مدى انتشار الإسلام وقراره في قلوب المسلمين في أوربا ، واستمر حصار بلغراد شهرا كاملا استطاع العثمانيون في نهايته إقامة شعائر الصلاة في أكبر كنائس بلغراد بعد تحويلها إلى مسجد كدأبهم دائما ، وأمر سليمان القانوني بتنفيذ سياسة التهجير والتوطين كما جرت العادة أيضا .

فتح جزيرة رودس :

اتخذ فرسان القديس يوحنا من رودس قاعدة بحرية لمهاجمة السفن الإسلامية في البحر المتوسط(٦٢) فظلوا شوكة في جنب البحرية الإسلامية ردحا من الزمن فإذا أضفنا إلى ذلك مساعدتهم للمماليك في مصر ولجان بردي الغزالي في الشام في تمردهم على السلطان سليمان القانوني(٦٣) . أدركنا أهمية فتحها بالنسبة للعثمانيين آنذاك . ولعل العثمانيين لم يتوقعوا صعوبة فتحها لذلك سيّر إليها الصدر الأعظم على رأس الجيش لكن مضت ستة شهور دون أن يستطيع اقتحامها مما اضطر السلطان سليمان القانوني أن يتوجه بنفسه لفتحها وتمكن العثمانيون من إخلاء الفرسان منها في صفر من عام ٩٢٩ هـ (١٥٢٣ م) .

اجتياح المجر وحصار فيينا :

ظلّت المجر عدوا تقليديا للعثمانيين منذ أن وطئوا أرض البلقان بأقدامهم فهي إما خصم مباشر أو حليفة لخصم و لم تبرح موقفها هذا طيلة قرن ونصف . ثم كان فتح بلغراد مما أصاب المجر فيكبريائها فعقد ملكها العزم على طرد العثمانيين منها . فعمل على عقد تحالف صليبي جديد وأعد جيشا جرارا بادر العثمانيون بلقائه في وادي موهاج (موهاكس)

في جنوبي المجر في ذي القعدة من عام ٩٣٢ هـ (١٥٢٦ م) . وكان ملك المجر يعتمد على قوة حليفه فرديناند ملك النمسا وهولندا معا ، وعلى قوة فرسانه الذين عرفوا بالبسالة والإقدام والحنكة في القتال . وقد لجأ العثمانيون إلى سلاح الحيلة في قتالهم : « فقد عرف عن فرسان المجر أنهم كانوا يتراصون جنبا إلى جنب وتربط ما بين خيولهم سلسلة واحدة بحيث يكتسحون من يقف أمامهم ، فألقى العثمانيون بنفر من الإقينجي (الغزاة) ليناوشوهم ويأتوهم من الخلف وروعي في تشكيل الجيش العثماني أن تتركز قوته في جناحيه بينما يكون فيلق الوسط ضعيفا للتمويه على العدو وأسندت قيادة فيلق الوسط للسلطان سليمان ذاته . وبالفعل توهم المجريون أن قوة الجيش العثماني في قلبه فهجموا عليه هجمة رجل واحد بخيولهم المتراصة وبعد أن امتص قلب الجيش العثماني هذا الهجوم تحول إلى جناحين التفا حول جحافل الجيوش المجرية . وعلى هذا النحو انتصر الجيش العثماني في هذه الموقعة التي قتل فيها ملك المجر وزحف الجيش إلى العاصمة (بود Bud) فاستولى عليها وقامت المساجد بها ثم بدأت سياسة التوطين والتهجير . ونظرا لكثرة يهود المجر كان لإستانبول وسالونيك نصيب وافر منهم[٦٥]. وأصبح المجر تحت نفوذ العثمانيين فأجلسوا جان زابولي على عرشها .

ولكن فرديناند ملك النمسا كان يرى أنه أحق بحكم المجر لأنه سليل أسرة هابسبورج التي ينتمي إليها ملك المجر القتيل ولذا لم يكد يمضي عامان على موقعة موهاج حتى اجتاح المجر بجيوشه وطرد الحامية العثمانية ودخل العاصمة فخلع جان زابولي . فتوجه السلطان سليمان على رأس الجيش العثماني قاصدا المجر فوصلها في ٩٣٦ هـ (١٥٢٩ م) ولم يلبث فرديناند أن فرّ هاربا من حيث أتى وأغلق عليه أبواب فيينا . فلم يكن من الجيش العثماني إلا أن تعقبه إليها عاقدا العزم هذه المرة على فتح فيينا فأحكم حصاره عليها وظل يقصف أسوارها طوال ستة أشهر ، إلا أن الجيش العثماني عاد أدراجه دون أن يتمكن من فتحها لعدة أسباب من أهمها عودة الخطر الشيعي مرة أخرى مهددا أقاليم الأناضول الشرقية[٦٦] .

وعلى الرغم من استمرار القتال والاشتباكات الحدودية بين العثمانيين والنمسا وهزيمة

النمساويين في هذه الاشتباكات لم يحقق أي من الطرفين نتائج حاسمة إذ كانت الاتفاقيات تبرم بين الجانبين عقب كل قتال ، وفيها تقبل النمسا دفع الجزية السنوية للدولة العثمانية وكان آخرها ما أبرم في عام ٩٧٠ هـ (١٥٦٢ م) . وظل الحال على هذا المنوال حتى جرى توقيع معاهدة قارلوفجه ١١١١ هـ (١٦٩٩ م) وبمقتضاها سلّمت الدولة العثمانية ما بحوزتها من ولايات مجرية ومدينة بلغراد وتخلت عن استحقاق الجزية من بولونيا والنمسا .

التحالف الفرنسي العثماني في حوض البحر المتوسط :

استغاث فرانسوا الأول بالسلطان سليمان القانوني في حربه ضد الإمبراطور شارل الأول (شارلكان) ، فاستجاب لندائه وأنفذ حملة لتخفيف الضغط على القوات الفرنسية وتصدى الأسطول العثماني بقيادة خير الدين برباروس للأسطول الإسباني بحرا فأوقع به . وبفضل هذه الخدمة التي أسداها سليمان للفرنسيين تحولت هزيمتهم إلى نصر وعقدت الهدنة بين الطرفين . ولكن فرنسا كانت تطمع في الجزء الشمالي الغربي من إيطاليا ومن ثم أبرم اتفاق تحالف – وهو الأول من نوعه – بين فرانسوا الأول والسلطان سليمان القانوني في ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) ، ومن موقع القوة منحت الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية للرعايا الفرنسيين التي ظلت سيفا مسلطا على رقبتها في حالة ضعفها ، ولكن الاتفاق في حد ذاته حقق للعثمانيين بعض الأهداف منه إذ تحولت الموانئ الفرنسية في البحر المتوسط إلى قواعد بحرية عثمانية . ولكن لم يتحقق الهدف الأكبر الذي كان ينشده سليمان من هذا الاتفاق : وهو الاستيلاء على كل ممتلكات البنادقة والجنويين في إيطاليا وإخضاع البابوية في روما لسلطة العثمانيين ، وكان الاتفاق يقضي بأن تدخل جيوش فرنسا إيطاليا من جهة إقليم بيمونتي في الشمال الغربي منها بينما تغزوها الجيوش العثمانية من جهة نابولي . وبالفعل هاجم الأسطول العثماني السواحل الجنوبية لشبه جزيرة إيطاليا وأنزلت القوات العثمانية على مقربة من ميناء أوترانت ودارت في أوربا الشائعات بعزم سليمان القانوني علي الزحف إلى مقر البابوية فعقد تحالف صليبي جديد وهاجم أسطول التحالف الصليبي الأسطول العثماني في ميناء بريفيزا جنوبي جزيرة كورفو ولكن الأسطول

العثماني أوقع به . وعقد صلح في عام ١٥٣٩ م . وممّا يذكر أن وحدات الأُسطول الفرنسي لم تشترك على الإطلاق في العمليات الحربية إذ أن فرانسوا الأُول لم يف بوعوده خوفا من الرأي العام النصراني الذي أطلق على التحالف العثماني الفرنسي « التحالف الدنس »[٦٩] . ولكن تخلي القوات الفرنسية عن الاشتراك في ضرب قوات التحالف الصليبي لم يمنع الأسطول العثماني من مواصلة ضرب قواعد شارلكان في ميلانو بإيطاليا في (١٥٤٣ م) والاستيلاء على ثغر رجيو في جزيرة صقلية في نفس السنة والاستيلاء على ثغر نيس في أغسطس من نفس العام وذلك بالاشتراك مع الأسطول الفرنسي وبعد أن تجدد الاتفاق العثماني الفرنسي بين السلطان سليمان القانوني وهنري الثاني بن فرانسوا الأول في ٩٦١ هـ (١٥٥٣ م) ، اشترك الأسطولان في ضرب سواحل إيطاليا وجزيرتي صقلية وكورسيكا . ولعل من أهم النتائج الإيجابية لهذا التحالف « أن أصبحت طولون قاعدة حربية إسلامية عثمانية برضاء وموافقة السلطات الفرنسية »[٧١] .

فتح ساقيز :

وكانت آخر فتوحات سليمان القانوني الاستيلاء على جزيرة ساقيز في البحر المتوسط ولهذه الجزيرة أهمية استراتيجية لوقوعها قرب سواحل الأناضول ، وكانت تابعة لجمهورية جنوا ويحكمها مجلس انتخابي يتم اختياره من أهل الجزيرة . وعلى الرغم من أهمية موقعها لم تفكر الدولة العثمانية في احتلالها من قبل ، نظرا لأنها لم تبدر عنها بادرة إخلال بالاتفاقيات المبرمة وكانت تدفع الجزية المفروضة عليها بانتظام ، فلما بدأت تتأخر في دفع الجزية في الآونة الأخيرة قبيل الفتح وقدمت المساعدات لفرسان القديس يوحنا أثناء حصار الأسطول العثماني لهم في جزيرة مالطة في أوائل عام (١٥٦٥ م) وقد كلّف بهذه المهمة أمير أمراء الجزائر (بكلوسكي) وخليفة خير الدين برباروس في إمارة الأسطول العثماني في البحر المتوسط بياله باشا وقد تم له ذلك دون عناء يذكر في رمضان عام ٩٧٣ هـ (١٥٦٦ م)[٧٢] .

وهكذا توفي السلطان سليمان القانوني عن دولة إسلامية مترامية الأطراف خضع لحكمها الإسلامي معظم أقاليم أوربا وجعلت من البحر المتوسط بحيرة إسلامية .

آخر الفتوحات العثمانية :

واعتلى سليم الثاني (٩٧٤ – ٩٨٢ هـ/ ١٥٦٦ – ١٥٧٤ م) العرش العثماني خلفا لأبيه وكانت أعراض التفكك والضعف قد بدأت تظهر على الدولة وعلى الرغم من ذلك استطاع العثمانيون الإمساك بزمام الأمور إلى حين . وربما يرجع ذلك إلى حكمة وتدبير بعض الوزراء مثل الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا (توفي ٩٨٧ هـ/ ١٥٧٩ م) وكان من الطبيعي أن تهدأ حركة الفتوح لتقف تماما بعد ذلك ولكن قبل أن يتم ذلك التوقف قيض للدولة أن تقوم بفتح جزيرة قبرص .

فتح جزيرة قبرص :

على الرغم من حرص البنادقة على دفع الجزية السنوية عن جزيرة قبرص للدولة العثمانية بانتظام فقد كانوا مبعث قلق ومتاعب للبحرية الإسلامية في عهد سليم الثاني . ونلمس ذلك من رسالته إلى مسلمي الأندلس ردا على استنجادهم به ، ففيها يعرب عن أسفه لعدم استطاعته تلبية استغاثتهم به « نظرا لأن القراصنة يستغلون جزيرة قبرص للهجوم على طريق الحج ومن ثم بات تطهير هذا الطريق من أهم وألزم واجباتي » وأشارت نفس الرسالة إلى خيانة البنادقة بتآمرهم مع الأسبان وإلى اتصالهم بنصارى البلقان وتحريضهم على الإضرار بمصالح المسلمين . وقد عهد إلى بياله باشا بفتح الجزيرة في ٩٧٧ هـ/ ١٥٧٠ م . وبعد حصار طويل قطعه حلول فصل الشتاء سلمت الجزيرة في ٩٧٨ هـ/ ١٥٧١ م .

ولتشجيع المسلمين على استيطان الجزيرة « نقل إليها المهاجرون من أقضية وسناجق قونية وقرمان وينكره وقيصرى وإنطاكية وأعلن أنهم معفون من الضرائب لمدة ثلاث سنوات ، كما نقل من الجزيرة – لأسباب أمنية – ثلاثمائة شخص أسكنوا إيطاليا . وظلت عملية التهجير إلى جزيرة قبرص قائمة على قدم وساق حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري أواخر ١٦م وكان آخرها تهجير عشائر تركمانية من حدود الأناضول الشرقية إلى الجزيرة[٧٥] . وعلى الرغم من هزيمة الأسطول العثماني أمام تحالف البنادقة والأسبان في موقعة ليبانه (اينه بختي) عام ٩٧٩ هـ/ ١٥٧٢ م واصل السلاطين العثمانيون غزواتهم

الإسلامية ولكنها كانت فتوحات جزئية الهدف منها شغل جنود الإنكشارية عن التمرد من ناحية وإيهام الرأي العام العالمي بأن الدولة مازالت قادرة على الانتصار بينما هي في حقيقة الأمر كانت قد بدأت مرحلة الدفاع عن نفسها فحسب .

ومهما يكن من أمر فقد تمكن بعض السلاطين من تحقيق الانتصارات التالية :

* فرض السيادة على إقليم بولونيا (الهستان) وتعهد الباب العالي بحمايتها في ٩٨٥ هـ/ ١٥٧٧ م .

* فتح قلعة آرلوقرب بلغراد في ١٠٠٥ هـ/ ١٥٩٦ م وكانت في يد النمساويين وقد امتنعت على السلطان سليمان القانوني من قبل[٧٦] .

* وفي عهد السلطان إبراهيم الأول ١٠٤٩ – ١٠٥٨ هـ فتحت جزيرة كريت عام ١٠٥٥ هـ/ ١٦٤٥ م وكانت تابعة للبنادقة آنذاك .

* ثم فتحت قلعة نوهزل القريبة من فيينا في عام ١٠٧٤ هـ/ ١٦٦٣ م في عهد محمد الرابع ١٠٥٨ – ١٠٩٩ هـ/ ١٦٤٨ – ١٦٨٧ م وربما كانت هذه القلعة هي آخر عهد العثمانيين بالفتح ، إذ كانت الدولة قد بدأت مرحلة الدفاع عن نفسها فحسب كما أشرنا من قبل .

العوامل الحضارية في انتشار الإسلام :

لا يمكن أن يعزى انتشار الإسلام في أوربا إلى التوسع الإقليمي فقط لاسيما وأن الدولة العثمانية شأنها شأن غيرها من الدول الإسلامية لم تفرض الإسلام ، إذ ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ بل لم تفرض اللغة التركية على أي شعب من الشعوب التي حكمتها ، ولكن ثمة عوامل أخرى تتصل بالحضارة الإسلامية من قريب أو بعيد كان لها أثرها في انتشار الإسلام على أيدي العثمانيين في أوربا ونشير فيما يلي إلى أهم هذه العوامل .

أ – مبادئ الإسلام :

* حين شرع السلاطين العثمانيون يرسون دعائم دولتهم كانت مبادئ الإسلام في الحكم ديدنهم وشريعته نبراسهم وقد كان التسامح والعفو عند المقدرة ، من أهم تعاليم

الإسلام التي كانت نصب أعين العثمانيين وقد يسّرت مهمتهم في نشر الإسلام حتى اعتنقت الإسلام أسر حاكمة نصرانية كما سبقت الإشارة وأخلصت العمل تحت لوائه مثل آل ميخائيل وآل افرنوز ولكي تكتمل ملامح النهج الذي انتهجه آل عثمان في هذا الشأن نسوق نماذج أخرى من مختلف مراحل حياة الدولة :

في عهد بايزيد الأول قتل أمير البلغار فعين ابنه واليا على سامسون بعد أن اعتنق الإسلام[٧٨] ، وفي عهد محمد الفاتح عين مثقفو المدن اليونانية في وظائف الدولة وتدرجوا إلى أن تقلدوا المناصب الاستشارية للسلطان[٧٩] مما أدى إلى تخفيف حدة المعارضة للحكم الإسلامي .

وخلال القرن الحادي عشر الهجري / ١٦م تبوأت أسرة (كوبريلي) الألبانية الأصل منصب الصدارة على مدى عدة أجيال من أبنائها وكان لحكمتهم في تدبير الأمور أثر في تأخير انهيار الدولة العثمانية .

وبقدر ما كانت استمالة هذه العناصر كسبا للإسلام ، كانت سببا في إضعاف الجبهة الأخرى فقد أدت سياسة التسامح الديني إلى ترك النصارى لخلافاتهم المذهبية وبخاصة تلك التي اشتعل أوارها بين أنصار الكنيسة الكاثوليكية وأنصار المذاهب النصرانية الأخرى التي انبثقت عن حركة مارتن لوثر في ألمانيا . وقد فضل الكثير من البروتستانت في ترانسلفانيا والمجر أن يعيشوا في ظل الحكم العثماني على أن يقعوا في قبضة الجزويت[٨٠] .

* حرص العثمانيون على إقامة حكومة عادلة في الأمصار المفتوحة ولذا استحدثت وظيفة (قاضي عسكر) وكانت مهمته الفصل في قضايا الناس في البلقان .

* كما حرصت على توفير الأمن والأمان للرعايا ولذا كان سكان المدن والقلاع يبادرون بتسليمها للعثمانيين ، وأمثلة ذلك كثيرة من أهمها مدينة « يانيا » التي جاء أهلها بمفاتيحها إلى السلطان مراد الثاني عام ٨٣٣ هـ[٨١] بعد أن سئموا كثرة النزاع وعانوا من حياة ملؤها الخوف والقلق . ولنفس السبب « اعتنق الألبانيون الإسلام بشكل واسع إبان القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / ١٦م، ١٧م خاصة بعد وفاة زعيمهم إسكندر بك[٨٢] .

ب – النظم الإدارية والعسكرية :

أعتق الأسرى وجنّدوا بالجيش العثماني بعد اعتناق الإسلام وهكذا تكوّن ما عرف باليكنجرية (الإنكشارية) « وقد بدأ هذا النظام في عهد السلطان مراد الأول حين أشار عليه وزيره بأن تستفيد الدولة من نصيبها من الأسرى (نصيب بيت المال وهو الخمس) فيعرض عليهم الإسلام مقابل العتق والعمل في الجيش[٨٣] . وكانت فيالق الإنكشارية عماد الجيش العثماني في كل الفتوحات والحروب التي خاضها وظلت قوامه إلى أن ألغيت في عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ – ١٢٥٥ هـ) بعد أن ساءت أحوالهم وتدهورت أنظمتهم .

* ويعد نظام ضريبة الغلمان(الدوشيرمه) تطويرا لتجنيد الأسرى وكان يقضي بأن تدفع بعض الولايات البلقانية – مثل ألبانيا والبلغار والبوسنة – ما يفرض عليهم من الخراج غلمانا من أبنائها ممن تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسابعة ويعمل هؤلاء الغلمان للمسلمين من أصحاب الإقطاعات الحربية في الأناضول كما يكونون بعيدين عن ذويهم وبعد قضاء فترة تتراوح من خمس إلى سبع سنوات في خدمة المزارع تتسلمهم الدولة مرة أخرى بعد أن يكونوا قد تعلموا اللغة التركية وعرفوا تعاليم الدين وكانت الدولة تتقاضى أجرا من صاحب الإقطاع لقاء خدمة الصبي في إقطاعه .

ثم تقسم هؤلاء الصبية قسمين : أحدهما يلتحق بمعسكر الإعداد (عجمي أوغلان) في الإنكشارية ليخدم في الجيش ، والآخر يلتحق بخدمة القصر مما يتيح له فرصة التدرج في المناصب الإدارية بالدولة وكان من بين هؤلاء من تسنم مناصب الصدارة والولاية مثل إسحق باشا ومحمود باشا وخادم سنان باشا[٨٤] .

* كان نظام الإقطاعات الحربية في البلقان يقضي بأن يوفر صاحب الإقطاع (التيمار ، الزعامت) للدولة ما تحتاجه من فرسان بخيولهم وعتادهم أثناء الحرب مقابل منحه هذا الإقطاع . وكانت هناك فروق جوهرية بين هذا النظام ونظام الإقطاع الذي كان سائدا في أوربا من قبل إذ لم يكن لصاحب الإقطاع حق توريثه كما لم يكن العاملون به عبيدا له بل أحرار . ولاشك أن هذا الاختلاف الجوهري جعل فلاحي الأناضول

يلمسون المبادئ الإنسانية عند المسلمين ، « فسارعوا إلى خدمة أصحاب الإقطاعات وإلى اعتناق الإسلام »[٨٥] ونرى شاهدا آخر لهذا النظام في قبرص : « فقد كان فتح العثمانيين لها بداية حياة جديدة من كل الوجوه : إذ تم إلغاء النظام الإقطاعي و لم يعد هناك سادة فلا تمييز بين الطبقات الاجتماعية بين الأهالي اليونانيين و لم تسمح الإدارة الجديدة بوجود أرستقراطية محلية أو طبقات مميزة »[٨٦] .

* ورث العثمانيون بدورهم من أتراك الأناضول سياسة التهجير والتوطين المنظم عن السلاجقة وربما كانت هذه السياسة من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في أوربا أيضا .

وقد حرص أصحاب الإمارات التركية على توزيع الأراضي البيزنطية المفتوحة على المجاهدين الذين عرفوا في المصادر العثمانية باسم « غازيان روم » أو « آلب أرنلر » في شكل إقطاعات واستمرت هذه السياسة عندما فتح العثمانيون البلقان ولكنهم أضافوا إليها أنواعا أخرى من الهجرات ومن ثم يمكن تقسيم عملية التهجير قسمين :

الأول : تهجير العشائر التركية المشاكسة والعناصر المحلية الأخرى من الروم ذات الصبغة العسكرية والهدف من ذلك – كما أورده عاشق باشا في تاريخه المعروف باسمه – « درء أسباب الفتنة والفساد »[٨٧] ، ووقعت بيزنطة في شراكه القوية فاعتقدت أن هذا التهجير أمر مؤقت .

الثاني : هجرة المجاهدين بأسرهم طلبا للجهاد في سبيل الله من ناحية وسعيا وراء الغنائم من ناحية أخرى . ويصف نثري في تاريخه انثيالهم إلى البلقان بقوله : « ما انفك مجاهدو الأناضول يتدفقون على الروميلي (ديار الروم) » وتثبت دفاتر الأوقاف الموروثة عن القرن الثامن الهجري / ١٤ م أن الحكومة العثمانية كانت تقيم الزوايا والتكايا باسم هؤلاء المجاهدين وتقف لها الأوقاف كما كانت تقوم بتعيين عدد كبير منهم محافظين للقلاع المفتوحة[٨٨] .

ومن بين الوثائق التي تدل على نشاط عملية التهجير والتوطين في البلقان أن السلطان مراد الأول دفع ذات مرة ستين ألف قطعة من الذهب لسفن البنادقة مقابل نقل القبائل

المهاجرة[٨٩] . وقد زادت الهجرة إبان الغزو المغولي للأناضول ، وكانت في هذه المرة هجرات جماعية عامة أي غير رسمية وبدون تخطيط فكأنها هروب جماعي من حكم المغول في الأناضول .

وقد أشرنا في مواضع متفرقة من هذه الدراسة إلى عمليات التوطين التي كان يجريها كل سلطان عقب فتح كلّ من الأمصار فاستمرت هذه العمليات من ناحية كما استمرت عمليات النفي من ناحية أخرى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن العناصر المهاجرة سرعان ما كانت تألف الحياة الجديدة وتتجانس مع العناصر المحلية وذلك نظرا لوجود عناصر تركية هاجرت قديما إلى البلقان واتخذت من ضفاف نهر الدانوب في شمالي بلغاريا وحول مدينتي صوفيا ونيش مقاما لها ومن هؤلاء : أتراك القومان والفاردار حتى أن المؤرخ البيزنطي دوكاس كان يرى أن « الأتراك في أوربا أكثر منهم في الأناضول »[٩٠] .

* أجريت مراسم الاحتفال بالمسلمين الجدد وكان يغدق فيها عليهم فكان المسلم الجديد يركب حصانا ويطاف به في شوارع المدينة وكانت تجرى عمليات الختان لأبناء المسلمين أثناء الاحتفال بتختين ولي العهد كما كانت تجرى الأرزاق بسخاء على من يعتنقون الإسلام وكانت تعفى ممتلكاتهم من الضرائب[٩١] .

جـ – المؤسسات الاجتماعية والثقافية :

أولى العثمانيون المؤسسات الاجتماعية الإسلامية اهتماما كبيرا ومازالت الآثار المعمارية التي خلفوها في البلدان التي حكموها والأوقاف التي أوقفوها لها خير شاهد على ذلك فقد ارتفعت المآذن وأقيمت أسبلة المياه والعمارات[٩٢] والزوايا والتكايا والمدارس الدينية ونزل القوافل والحمامات ... إلخ .

ولاشك أن هذه المؤسسات كانت من مظاهر الحضارة الإسلامية الزاهرة التي تقدم الإسلام بصورة عملية جذابة كما كانت وسيلة للخدمة الاجتماعية .

ويأتي المسجد في مقدمة هذه المؤسسات باعتباره مكان عبادة ومصدر إشعاع ثقافي

ومركز دعوة ولا يتسع المجال هنا لذكر وظائف المسجد ومهامه التي اضطلع بها عبر العصور الإسلامية ولكن نشير هنا إلى أن المساجد الكبيرة في العهد العثماني تطورت إلى ما يشبه الأكاديميات في العصر الحديث وكانت هذه المسأجد بحق (جوامع) تجمع أكثر من مؤسسة في مكان واحد فالمسجد هو النواة التي يحيط بها المعهد العلمي والمكتبة العامة ثم العمارة والسبيل والتكية وربما أحيط به سور يضم حوانيت لبيع الكتب أو ما يحتاجه الناس كما هو الحال في جامع الفاتح .

و لم يشيد العثمانيون الكثير من المساجد في البلقان نظرا لتحويل بعض الكنائس إلى مساجد ومع ذلك فقد بنيت كثير من المساجد التي أقاموها خلال حكمهم في أدرنة وسالونيك وايبسالا وصوفيا وبلجراد وبوخارست ودوبريجه . ومن أشهرها المساجد التي عرفت « بالمرادية » نسبة إلى السلطان مراد الثاني و« السليمية » والسليمانية نسبة إلى سليم وسليمان .

فإذا أضفنا إلى هذه المساجد معاهدها العلمية أدركنا كيف قامت حركة علمية نشطة في هذه البقاع كانت العلوم الدينية قوامها . ونتيجة لنشاط الحركة العلمية هذه برز علماء طبّقت شهرتهم آفاق العالم الإسلامي بأسره نذكر منها على سبيل المثال : أحمد طاشكبرى زاده (توفي ٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩ م) وقد عمل في التدريس بجامع مراد الثاني في أدرنة وشملت مصنفاته علوم التفسير والأدب وعلم الكلام وتراجم الأحوال وله ما يربو على خمسمائة مصنف بالعربية . وابن كمال باشا (توفي ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ م) يعد من أشهر علماء الدولة في القرن العاشر الهجري / ١٦م وكان شيخ الإسلام بها . وقد حصّل تعليمه الأولي في مدرسة « علي بك » بأدرنة ثم عمل بها أستاذ صحن ، وخلّف لنا تراثا ضخما بالعربية والتركية في الفقه والتفسير والكلام والأدب كما اضطلع بترجمة الكتب الهامة من العربية إلى التركية ولقّب « بمفتي الثقلين » وصلى المسلمون صلاة الغائب على روحه في كل بقاع العالم الإسلامي وبخاصة في مكة والمدينة .

ودلّت كتب تاريخ الأدب على تغلغل الحضارة الإسلامية في البلقان حيث ظهر أدباء وشعراء أتراك ينتمون إلى أصول نصرانية في البلقان أتقنوا اللغة التركية وتعرفوا على أسرارها كما تمثلوا الحضارة الإسلامية وفنونها ، وتبرز هذه الظاهرة مدى انتشار الثقافة

الإسلامية في البلقان . ونسوق فيما يلي بعض الأسماء على سبيل المثال لا الحصر .

نشأ محمد أمين الكاتب (يازيجي أوغلي) المتوفى في ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٢ م في كليبولي ومن أشهر أعماله نظم السيرة المحمدية في ديوان يربو على عشرة آلاف بيت . كما نشأ نجاتي (المتوفى ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م) وهو ابن جارية نصرانية في بيت قاضي المدينة واسمه الأصلي عيسى بن عبد الله وأطلق عليه الشاعر المهتدي(٩٣) . وكان محمود باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الفاتح ينتمي إلى عائلة صربية وكان شاعرا له ديوان وولد الشاعر كهي (المتوفى ٩٨٥ هـ/ ١٥٧٧ م) في مدينة فاردار (يكيجة) وفيها نشأ ثم عمل بحارا في الأسطول العثماني تحت إمرة بيالة باشا الذي سبق ذكره من قبل . ونذكر أخيرا إسحق جلبي (توفي ٩٤٣ هـ) الذي كانت مدينة إسكوب هي مسقط رأسه ثم حصل تعليمه الأولي في أدرنة ثم عاد إلى اسكوب ليقوم بالتدريس في مدرستها(٩٤) .

وهكذا تضافرت هذه العوامل الحضارية مع السيادة السياسية التي أقامها العثمانيون في شرقي أوربا ووسطها على نشر الإسلام في تلك الأمصار ولا يزال باقيا فيما نراه اليوم من أقليات مسلمة في كل من بلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان ويوغوسلافيا على الرغم من عمليات التصفية التي تعرضوا لها سواء في أواخر العهد العثماني على يد الصليبيين أو في الستينات من القرن ١٤ هـ / الأربعينات من القرن العشرين الميلادي على أيدي الشيوعيين .

الهـــوامش

(١) باستثناء **مملكة طرابزون** على شاطئ البحر الأسود التي كانت تابعة للكنيسة الشرقية – بعد انقسام المملكة الرومانية إلى شرقية وغربية – والتي اجتاحها الإفرنج أثناء الحرب الصليبية(٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) وأقاموا بها حكما مستقلا . وظلت على هذا الحال إلى أن فتحها السلطان محمد الفاتح عام ٩٦٦ هـ . كذلك كانت هناك بعض القلاع البيزنطية الحصينة التي حكمها قواد شبه مستقلين عن دولة بيزنطة .

(٢) د . محمد فؤاد كوبريلي زاده . قيام الدولة العثمانية ترجمة د . أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٦٦ .

(٣) باختصار عن :

Uzunçarşili , Ismail Hakki , Osmanli Tarihi , Ankara , 1972 , C. I, 3. bs., s.

وأحمد السعيد سليمان . تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة القاهرة جـ ٢ ص ٣٩٠ وما بعدها .

(٤) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ابن بطوطة) ، رحلة ابن بطوطة ، بيروت ١٣٧٩ ، ص ٢٩٣ .

(5) Uzunçarşili , a. g. e., S. 55/56 .

(٦) المرجع نفسه ، نقلا عن مسالك الأبصار ، ص ٧٤ .

(٧) نستدل على ذلك من حديث ابن بطوطة عن فوجه :

« وقصدنا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فوجه على مسيرة يوم من مغنيسة وهؤلاء الكفار في بلد حصين وهم يبعثون هدية في كل سنة إلى سلطان مغنيسة فيقنع منهم بها لحصانة بلدهم » (ابن بطوطة ، نفس الرحلة ، ص ٣٠٦) .

(٨) أحمد السعيد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٣٩١ وما بعدها .

(9) Uzunçarşili , a. g. e., S. 80 .

(١٠) عن دور الفتيان والآخية « انظر محمد فؤاد كوبريلي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٧ وما بعدها » .

(١١) ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص ٢٨٣ .

(١٢) المصدر نفسه ص ٣١٧ .

(١٣) منهم تاج الدين السلطانيوكي .. قرأ بالعراقين وتبريز واستوطنها مدة وقرأ بدمشق وجاور بالحرمين قديما (الرحلة السابقة، ص ٣١٦) .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

(١٥) محمد فؤاد كوبريلي ، سبق ذكره ص ١٥٦ .

(١٦) استطاع هؤلاء المجاهدون بأساطيلهم الصغيرة أن يوقعوا بأساطيل الفرنجة في البحر المتوسط . وكان مصدر رزقهم ما يحصلون عليه من غنائم من هذه الأساطيل وعرفتهم المصادر الأوروبية بالقراصنة الأتراك . وبدأت الدولة العثمانية تستفيد منهم في عهد بايزيد الثاني حين استدعى كمال رئيس لحماية سواحل الأناضول من أساطيل البنادقة .

(17) Uzunçarşili , a. g. e., s. 125 .

(١٨) يصف ابن بطوطة أورخان بأنه محارب لا يكف عن الحركة « له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن أياما لإصلاح شئونه وتفقد حاله . ويقال إنه لم يقم شهرا كاملا ببلده إلا ويقاتل الكفار ويحاصرهم » . (عن الرحلة السابق ، ص ٣٠٨) . =

= وعن سياسة أورخان العسكرية ، انظر :

Gibbons , Herbert Adams , The Foundations of Ottomann Empire , 1968 , p. 76 . 1968 , p. 76 .

(١٩) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(20) Uzunçarşili , a. g. e., s. 110 .

(٢١) المرجع نفسه الجزء نفسه ، ص ١٢٣ .

(٢٢) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقي ، بيروت ، ١٩٨١ م ، ص ١٢٥ .

(٢٣) من هده المحاولات : المصاهرة إلى ادرخان الذي تزوج من ابنته وعقد تحالفًا مع الإيلخانيين لضرب العثمانيين ، ثم إثارة الفتن داخل الدولة العثمانية نفسها .

(٢٤) أحمد راسم ، عثمانلي تاريخي ، إستانبول ، ١٣٢٦ ، جـ ١ ، ص ٣١ .

(٢٥) كانت على شاطىء البحر الإدرياتيكي وهي الآن موضع مدينة دوبروفينيك اليوغسلافية .

(٢٦) أحمد راسم ، سبق ذكره ، ص ٣٥ .

ومحمد فريد ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

(٢٧) المرجع نفسه ، ص ١٤٤ .

(٢٨) وهم في الأصل طائفة من الرهبان الذين ذهبوا إلى فلسطين إبان الحروب الصليبية في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وعلى إثر هزيمة الصليبيين أمام صلاح الدين انفصلوا من عكا إلى رودس ليتخذوا منها قاعدة للهجوم على المسلمين في حوض البحر المتوسط ويهاجموا تجارتهم وسفن حجيجهم وظل الحال على هذا المنوال إلى أن طردهم منها سليمان القانوني في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فانتقلوا إلى مالطة وظلوا بها إلى أن أخرجهم منها نابليون أثناء حملته على مصر في أواخر القرن الثاني عشر الهجري / ١٨ م .

(٢٩) محمد فريد ، مرحع سابق ، ص ١٤٤ .

(٣٠) د . عبد العزيز محمد الشناوي ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٦٩ م ، ص ٥٦٩ .

(٣١) المرجع نفسه .

(٣٢) كانت الأولى في العصر العباسي وانتهت بانتصار المماليك عليهم في عين جالوت ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م واجتاحت الثانية الأناضول في عهد السلاجقة وانسحبوا منه دون أن يخرجهم أحد وحدثت الثالثة على الأناضول أيضا في عهد العثمانيين على النحو الذي نشير إليه .

(٣٣) زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي ، غير معروف ، ص ١٧٩ .

(٣٤) السبب في ذلك أن السلطان مراد الثاني تنازل لابنه محمد الثاني (الفاتح) عن العرش في أواخر أيامه ولكنه عاد إليه في نفس العام حين أحس بخطر التحالف الصليبي ضد العثمانيين في البلقان فاشفق على ابنه من هول الخطر .

(٣٥) نسبت بعض الأحاديث للرسول ﷺ عن الترك لم يجزم بصحتها فيمكن اعتبارها تعبيرا صادقا وقع في نفوس العرب والمسلمين من المهابة والإجلال لبطولة الأتراك (زكريا كتابجي ، الترك في مؤلفات الجاحظ ، بيروت ، غير معروف ، ص ٤٦) .

(٣٦) عبد العزيز الشناوي ، سبق ذكره ، ص ٥٦٧ .

(37) Uzunçarşili , a. g. e., C. I, S. 459 .

(٣٨) كان هذا المهندس لاجئا سياسيا لدى العثمانيين قبل فتح القسطنطينية بسنوات وكان ذا خبرة في صب المدافع فصب مدفعا ثقيلا في إدرنة بلغ من فرط ثقله أن اشترك في جره ستون ثورا وأكثر من أربعمائة جندي ، عن :

(المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٤٦٣ ، ٤٦٨) .

(٣٩) لمزيد من التفاصيل عن فتح القسطنطينية راجع :

(40) Uzunçarşili , a. g. e. CII , s. 35/36 .

(٤١) انظر حاشية رقم ١ .

(٤٢) كان موضع احترام النصارى والمسلمين على السواء وقد هرب من الإمبراطور قسطنطين ولاذ بأدرنة متنكرا وظل في مخبئه بها إلى أن استدعاه الفاتح .

(٤٣) المرجع نفسه ، الجزء نفسه ، ص ٨٤/٨٥ .

(٤٤) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(٤٥) المرجع نفسه ، الجزء نفسه ، ص ٣٦ .

(٤٦) انظر . تميمي .

(47) Uzunçarşili , a. c., s.

(٤٨) من بين هؤلاء الأمراء الأمير أحمد والأمير سليم الذي أصبح السلطان سليم الأول فيما بعد وقد حارب أباه أثناء حكمه مطالبا إياه بالتنازل له عن العرش .

(49) Eliot , Charles , Turkey in Europe , London , 1965 , P.54/55 .

(50) Uzunçarşili , a. g. e., s. 203 .

(٥١) نفس المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ١٩٥ .

(٥٢) فتنة جان بردي الغزالي في الشام وأحمد باشا في مصر وعلي بن شاهسوار وجلبي القلندري في الأناضول .

(٥٣) كان الشقاق بين الدولتين الإسلاميتين : العثمانية (٦٩٩ – ١٣٣٧ هـ/ ١٢٩٩ – ١٩١٨ م) والصفوية (٩٠٧ – ١١٤٩ هـ/ ١٥٠١ – ١٧٣٦ م) سببا في إضعاف السيطرة العثمانية على الخليج : للمزيد من التفاصيل أنظر :

د . جمال زكريا قاسم ، النزاع البريطاني العثماني في الخليج العربي .

بحث مقدم للمؤتمر الخامس للجنة العالمية لدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية تونس ١٩٨٢ م ، ص ٣٥٦ وصالح أوزبران : البرتغاليون والعثمانيون في الخليج العربي ، ترجمة عبد الجبار ناجي .

(54) Shaw , Stanford , The History of Ottoman Empire , Cambridge Press , 1979 , V. I, II. ed., P. 87 .

(55) Uzunçarşili , age ., a. c., s. 29 .

(٥٦) نفس المرجع .

(٥٧) لمزيد من التفاصيل : عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ١٩٨٠ م ، جـ ٢ ، ص ٨٨٢ .

(٥٨) المرجع نفسه ، ص ٢٩٨ .

(٥٩) المرجع نفسه ، ص ٢٩٩ .

(٦٠) منشآت فريدون ، غير معروف ، جـ ١ ، ص ٥٠٧ .

(61) Uzunçarşili , a. g. e., a. c., s. 312 .

(٦٢) انظر حاشية رقم ٢٨ .

(63) Uzuncarsili, a. g. e. a. c, op. cit., p. 315 .

(٦٤) تقع مدينة على الضفة المقابلة للدانوب مدينة تسمى (بست) ومن ثم أصبحت العاصمة بعد الاستقلال تسمّى بودابست .

(٦٥) لذلك ظلت ولاية سالونيك بؤرة للفتن ومصدرًا للحركات الانفصالية ومعقلًا للماسونية وفيها نشأت جماعة الاتحاد والترقي التي ساهمت في الإجهاز على الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين .

(٦٦) استطاع الشاه طهماسب أن يحرض حكام بدليس للتمرد على السلطان العثماني .

(٦٧) ظلت النمسا تدفع الجزية للدولة العثمانية منذ أول اتفاق عقد في ٩٥٤ هـ حتى توقيع معاهدة قارلوفجه في (١٦٩٩ م) والتي بمقتضاها أعفيت النمسا من هذه الجزية .

(٦٨) لمعرفة بنود الاتفاق انظر : محمد فريد ، سبق ذكره ص ٢٢٩/٢٢٤ .

(٦٩) د . عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية جـ ٢ ، ص ٨٩٤ .

(٧٠) نص الاتفاق في : محمد فريد ، سبق ذكره ، ص ٢٤٥/٢٤٢ .

(٧١) د . عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ص ٨٩٣ .

(٧٢) المصدر نفسه .

(٧٣) ظل المماليك يجبون هذه الجزية إلى أن استولى سليم الأول على مصر فآلت إليه جباية الجزية و لم يعترض البنادقة على ذلك انظر :

منشآت فريدون ، جـ ١ ، ص ٤٨٩ .

(٧٤) المرجع السابق ، نفس الجزء ص ٤٥٩ .

(75) Uzunçarşili , a. g. e., c. III , s. 15 .

(٧٦) بعث محمد الثالث (١٠٠٣ – ١٠١٢ هـ) ببشرى الفتح إلى إستانبول وكأنه يريد أن يعيد إلى الأذهان أمجاد الفتوح السابقة قد جاء فيها : فبعون الله وبفضل قوتي القاهرة تم فتح وتسخير هذه القلعة ذات الأسوار الثلاثة ... وفي يوم السبت وهو التاسع عشر للحصار فتحت الأبواب ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ عن : منشآت فريدون ، جـ ٢ ، ص ٣ .

(٧٧) محمد فريد ، سبق ذكره ، ص ١٤٠ .

(78) Eliot , ibid , p. 66 .

(٧٩) د . عبد العزيز الشناوي ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، سبق ذكره ، ص ٥٥٨ .

(80) Usunçarşili , a. g. e., c. I, s. 411 .

(81) Eliot , ibid , p. 66 .

(٨٢) أحمد حودت ، تاريخ جودت ، ترتيب جديد ، جـ ١٢ ، ص ٢٠٨ .

(٨٣) باختصار عن :

Pakalin , Mehmat Zaki , Osmanli Tarihi Deyimileri ve Terimleri Sozlugu , Istanbul , 1973 , c. I, s. 444 .

وعن الآراء التي قيلت حول هذا النظام انظر :

د . عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ٤٨٤ – ٤٨٨ .

(٨٤) د . جلال يحيى وآخرون ، مشكلة قبرص ، القاهرة ١٩٨١ م ، ص ٧٥ .

(85) Uzuncarsılı , a. g. e., C. I, s. 179 .

(٨٦) المرجع نفسه ، ص ١٨٠ .

(٨٧) المرجع نفسه ، ص ١٦٦ .

(٨٨) د . زبيدة عطا ، سبق ذكره .

(٨٩) د . عبد العزيز الشناوي ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، سبق ذكره ، ص ٥٥٦/٥٥٧ .

(٩٠) أطلق لفظ العمارة (عمارت) على البناء الذي يقدم فيه الطعام مجانا لطلاب المعاهد الدينية ولعابري السبيل والفقراء .

(91) Banarli , Nihad Sami , Resimli Turk Edebiyati Tarihi , Istanbul , 1971 , s. 468 .

(٩٢) المرجع نفسه ، ص ٤٧١ .

(٩٣) المرجع نفسه ، ص ٥٧٧ .

(٩٤) انظر فهرست المخطوطات العربية والفارسية والتركية مكتبة غازي خسرو باشا - سراييفو ١٩٦٣ م .

انتشار الإسلام في الأندلس

للدكتور حمد بن صالح السحيباني

انتشار الإسلام في الأندلس

مقــدمــــة :

يدرك المتتبع لحركة الفتوح الإسلامية أن فتح المسلمين لبلاد الأندلس ، إنما كان حلقة في سلسلة حركة الجهاد ، التي قام بها المسلمون الأوائل لنشر الدين الإسلامي ، وتوفير حرية الاعتقاد للناس أجمعين .

وقد بدأت أولى حلقات ذلك الجهاد ، في عهد الرسول – ﷺ – ثم توالت بعد ذلك في عصر الخلفاء الراشدين ، ثم في عصر الدولة الأموية ، حيث كانت تلك الحركة لا تعرف حدودا سكانية ، كما أنها لم تقتصر على أجناس بشرية ، بل هي للناس كافة ، كما بينها الله في قوله : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] ، وكذلك بينها الرسول – ﷺ – حينما قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله »[2]. رواه البخاري .

وقد تأصل هذا المبدأ ، في نفوس قادة حركة الجهاد الإسلامي الأوائل ، حيث وضح ذلك ربعي بن عامر – أحد قادة فتح بلاد فارس – حينما وقف أمام رستم عشية معركة القادسية ، حيث قال : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه »[3] .

كما بين هذا المبدأ القائد الإسلامي عقبة بن نافع ، حينما فرغ من فتح بلاد المغرب ، ووقف على ساحل البحر المحيط حيث قال : « يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك ، مقاتلا من كفر بك »[4] .

كان هذا هو الدافع الحقيقي الذي دفع المسلمين لمواصلة الفتوح الإسلامية في مشارق الأرض

ومغاربها ، فلم يكونوا يسعون من أجل المكاسب المادية ، أو المصالح السياسية . وبهذا يبدو ليس مقبولا ما يقول به أحد الكتاب المحدثين ، من أن الذي دفع القادة المسلمين إلى دخول بلاد الأندلس هو رغبتهم في إشغال الجند ، وللحصول على ما بها من ثروة تطلعت إليها أنظار أولئك المقاتلين[٥] .

ولكن على الرغم من سمو الهدف الذي تحلى به أولئك الفاتحون ، فإنهم لم يغفلوا عن الأخذ بالأسباب المادية ، والإفادة من الفرص المتاحة لهم ، لتحقيق غاياتهم النبيلة في هذا الميدان .

مقدمـــات الفتـــح :

على الرغم من بعد الشقة بين مركز الخلافة الإسلامية بالمشرق ، وبين شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) ، فإن المسلمين قد فكروا في فتحها ونشر الدعوة الإسلامية فيها منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان – رضي الله عنه – (٢٣ – ٣٥ هـ / ٦٥٣ – ٦٥٥ م) حيث حاول المسلمون دخولها سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م[٦] ، كما يذكر المؤرخون أن المسلمين تمكنوا في سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م من دخول جزيرتين من الجزر الشرقية (البليار)[٧] ، ولكن هذه المحاولات لم تؤد إلى دخول المسلمين لتلك الديار ، وتثبيت أقدامهم فيها .

ولما تمكن المسلمون من إحكام قبضتهم على جميع بلاد المغرب ، جدوا في محاولاتهم لفتح تلك البلاد ، لنشر الدعوة الإسلامية فيها ، وتوفير حرية الاعتقاد لسكانها ، حيث استأذن موسى بن نصير من الخليفة الوليد بن عبد الملك فيما بين عامي (٨٦ – ٩٦ هـ / ٧٠٥ – ٧١٤ م) في فتحها ، وقد تردد الخليفة الأموي في بادئ الأمر في الإقدام على هذا المشروع خوفا على جند المسلمين من المخاطر ، أو إيقاعهم في المهالك ، لكن موسى ابن نصير أقنع الخليفة بأهمية ذلك ، فأذن له ، حيث تم الاتفاق بينهما على البدء بالسرايا والحملات الاستطلاعية قبل إرسال جيش كبير لفتحها[٨] ، وذلك حتى تختبر قوة أهلها ، ولكي لا يغرر بالمسلمين[٩] .

وفي شهر رمضان سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م توجهت أول فرقة استطلاعية إلى شبه جزيرة أيبيريا ، وكانت بقيادة طريف بن مالك[١٠]، حيث نزل بجنده في جنوب الأندلس بجزيرة عرفت باسمه بعد ذلك ، حيث أطلق عليها جزيرة طريف بن مالك[١١] .

أقام طريف مع جيشه بتلك الجزيرة عدة أيام ، أغار خلالها على الأقاليم المجاورة لها ، حيث تبين للمسلمين بعد تلك الغارات ، ضعف المقاومة القوطية النصرانية ، وقلة إمكانات النصارى المادية والمعنوية[١٢] . فلما تعرف موسى بن نصير على ذلك الواقع ، أخذ يعد العدة لدخول تلك الديار ، لنشر الدعوة الإسلامية بين أهلها ، فجهز جيشا

قوامه سبعة آلاف جندي جلهم من البربر الذين حسن إسلامهم ، حيث عين على قيادتهم مولاه طارق بن زياد[١٣] والي مدينة طنجة[١٤] .

وفي شهر شعبان سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م توجه الجيش الإسلامي بقيادة طارق بن زياد نحو أسبانيا[١٥] ، وبالرغم من سوء الوضع الذي يعيشه أهل تلك الديار ، فقد حاولوا التصدي للجيش الإسلامي ، ومنعه من الوصول إلى شواطئ بلادهم . وقد وصف لنا ابن الكردبوس تلك المحاولة بقوله : « ووجد بعض الروم وقوفا في موضع وطي ، كان قد عزم على النزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه فعدل عنه ليلا إلى موضع وعر ، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ونزل منه في البر وهم لا يعلمون »[١٦] .

وهكذا استقر جيش المسلمين بقيادة طارق بن زياد في جبل الفتح على الساحل الجنوبي لأسبانيا[١٧] . ومن ذلك المكان انطلق الجيش الإسلامي لنشر الدعوة الإسلامية ، وتبليغها لسكان تلك الديار ، حيث استولوا على مدينة قرطاجنة[١٨] المجاورة لجبل الفتح ، ثم على الجزيرة الخضراء[١٩] ، وبهذا استطاع المسلمون إقامة حزام أمان ، يضمن لهم عدم مهاجمتهم من الخلف[٢٠] ، كما يضمن سيطرتهم على مضيق جبل طارق[٢١] .

وقد حاول القوط التصدي لذلك المد الإسلامي ومقاومته ، حتى لا يهدد دولتهم بالزوال ، حيث أرسل لذريق عددًا من الجيوش لإيقاف زحف جيش المسلمين . ولكن المسلمين تمكنوا من هزيمتها جميعا ، وهذا مما قوى من معنويات أفراد الجيش الإسلامي ودفعهم إلى ركوب الخيل والانتشار بنواحي المدن التي استولوا عليها ، كما يقول ابن عذاري[٢٢] .

ولما رأى لذريق ما حل بجيوشه التي أرسلها لمقاومة المسلمين توجه بنفسه من شمال بلاده على رأس جيش كبير يبلغ تعداده مائة ألف رجل[٢٣] للتصدي للخطر الإسلامي ضده ، فلما علم طارق بن زياد بتحرك لذريق إزاءه ، كتب إلى موسى بن نصير يخبره بأن لذريق قد زحف إليه بجيش لا طاقة له به.فأمده موسى بجيش قوامه خمسة آلاف رجل من المسلمين ، ومعهم جوليان (Julian) صاحب سبتة ، يدلهم على العورات

ويتجسس لهم الأخبار ، وبهذا المدد أصبح عدد جيش المسلمين اثني عشر ألف رجل[٢٤] .

هكذا استعد الطرفان للقاء والمنازلة ، حيث توجه لذريق بجيشه الجرار نحو المسلمين حتى وصل إلى مدينة شذونة فضرب معسكره بالقرب منها ، أما طارق بن زياد فلم تخفه كثرة جيش عدوه ، ولا وفرة عتاده ، لأنه كان يقود جيشا يتمتع كل أفراده بقوة عقيدتهم ، وبروحهم المعنوية العالية ، وهذا ما جعل جيشه متماسكا قوي البناء ، مستعدا للتضحية والاستشهاد في سبيل الله ، يسترخص الحياة من أجل العقيدة ، متعاليا على كل روابط الأرض ودوافع الدنيا[٢٥] . ولعل بسالة أفراد جيشه في المعركة التالية تجسد كل تلك الصفات إلى واقع مدرك ملموس . إذ يذكر المؤرخون[٢٦] أن طارق بن زياد قام بإحراق سفنه التي عبر عليها جيشه من المغرب ، وذلك لكي يدفع جنده إلى التضحية والصمود أمام العدو ، وحتى يقطع عليهم خط الرجعة فيما لو فكروا بالتخاذل والارتداد[٢٧] . كما يذكر المؤرخون[٢٨] أن طارق بن زياد لما علم باقتراب العدو نحوه توجه بجيشه نحو الشمال الغربي من الجزيرة الخضراء حتى استقر به المقام حول بحيرة لافاندا بالقرب من نهر البرباط ، وهناك بدأ يستعد للقاء العدو إذ قام خطيبا[٢٩] بين يدي جنده حاثًا لهم على الجهاد مرغبًا لهم في الشهادة ، ومما جاء في خطبته : « أيها الناس أين المفر ؟ ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ... وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، و لم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم ... »[٣٠] .

وفي يوم الأحد ٢٨ رمضان من سنة ٩٢ هـ/ ١٩ يوليو ٧١١ م بدأ الاحتكاك الحربي بين الجيشين ، وكان ذلك في كورة شذونة[٣١] جنوب غرب أسبانيا ، وفي اليوم الثاني حمي وطيس المعركة[٣٢] . وكانت الروح المعنوية لأفراد الجيشين متباينة فبينما كان المسلمون متحمسين للجهاد يدفعهم إيمانهم إلى التضحية والفداء ، كان أفراد الجيش القوطي تسود بينهم العداوة والبغضاء ، والحقد والكراهية ، وعدم الاتفاق على الهدف ،

بسبب التنافس ، وعوامل الاختلاف المذهبي والسياسي التي كانت تسيطر على دولة القوط[٣٣] .

ومما لاشك فيه ، أن هذا التباين جعل النصر حليف المسلمين ، حينما التقى الطرفان في معركة طويلة وقاسية استمرت ثمانية أيام فقد القوط خلالها ملكهم لذريق[٣٤] ، وقد وصف ابن الكردبوس تلك المعركة بقوله : « وصدق المسلمون القتال ، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله ، وزلزل أقدامهم ، وتبعهم المسلمون بالقتل ، والأسر ، ولم يعرف لملكهم لذريق خبر ، ولا بان له أثر ، فقيل أنه ترجل وأراد أن يستتر في شاطئ الوادي فصادف غديرًا فغرق به فمات ... »[٣٥] .

هكذا تمكن المسلمون من الانتصار على عدوهم ، وقد كان لهذا النصر آثارا طيبة على انتشار الإسلام بالأندلس ، حيث قويت الروح المعنوية للمسلمين بعد ذلك ، كما أن جيشهم تقوى بما غنموه من عدة وعتاد العدو ، حيث لم يبق أحد من أفراد جيش المسلمين بعد ذلك دون فرس ، بل أصبح أفراد ذلك الجيش كلهم من الخيالة[٣٦] .

ومن آثار ذلك النصر انهيار الروح المعنوية للنصارى في بلاد الأندلس حيث وقع عليهم خبر ذلك النصر وقع الصاعقة ، وقد صور تلك المعاناة النفسية الرازي حينما قال : « وقذف الله الرعب في قلوب الكفرة ، لما رأوا طارقا يوغل في البلاد ... فسقط في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل ... »[٣٧] . وهذا بلاشك مما دفع المسلمين إلى الجد في مواصلة الفتوح في تلك الديار ، لتوفير حرية الاعتقاد ، ونشر الإسلام بين سكانها .

ولم تكن آثار ذلك النصر مقصورة على بلاد الأندلس ، بل تجاوزتها إلى بلاد المغرب ، حيث أن مسلمي تلك الديار ، لما تسامعوا بخبر ذلك النصر ، سارعوا من كل ناحية لعبور مضيق جبل طارق ، والانضمام إلى الجيش الفاتح ، فلم يمض سوى وقت قليل ، حتى تجمع بين يدي طارق بن زياد عدد كبير من الجند المجاهدين الذين جاءوا من بلاد المغرب[٣٨] . ويبدو أن هذا التداعي من قبل المسلمين على الجهاد ، هو الذي دفع طارق ابن زياد لمواصلة المسير ، لتتبع فلول القوط المنهزمين ، الذين تجمعوا في مدينة أستجة ،

وفي طريقه إليهم ، تمكن من دخول بعض المدن مثل شذونة ، ومورور ، وقرموتة ، وأشبيلية[٣٩] . ولما وصل الجيش الإسلامي إلى أستجة ضرب الحصار عليها . لكن أهلها تصدوا للمسلمين حتى كثر الجراح والقتل بين أفراد الجيش الإسلامي . فصبر المسلمون واحتسبوا وشدوا في القتال ، حتى خضع لهم حاكم المدينة ، وصالحهم على ما أحبوا ، كما التزم لهم بدفع الجزية[٤٠] .

وفي مدينة أستجة وفد على طارق بن زياد جوليان[٤١] ، وقال له : « قد فتحت الأندلس فخذ من أصحابي ، ففرق معهم جيوشك ، وسر أنت إلى مدينة طليطلة »[٤٢] . وقد أخذ طارق بهذه المشورة ، حيث غير خطته الحربية السابقة ، والتي كان من أهم معالمها خضوع جيش المسلمين لقيادة واحدة ، إذ قسم جيشه إلى عدة فرق ، أرسلها إلى عدد من الأماكن . فقد بعث مغيث الرومي – مولى الوليد بن عبد الملك – إلى قرطبة ومعه سبعمائة فارس ، كما بعث جيشا آخر إلى مالقة ، أما هو فتوجه بجيش كبير إلى كورة جيان ، ومنها إلى طليطلة . وقد تمكنت جميع هذه الجيوش من تحقيق غرضها ، حيث استولت على تلك المدن دون مقاومة تذكر من لدى القوط[٤٣] .

وبالرغم من دخول المسلمين لعاصمة القوط ، واتساع الرقعة التي استولوا عليها في تلك الديار ، وبعدهم عن مضيق جبل طارق همزة الوصل بينهم وبين مسلمي بلاد المغرب ، فإن المسلمين واصلوا فتوحاتهم الإسلامية ، كما لم تشغلهم الأموال والغنائم التي استولوا عليها من تلك المدن ، عن هدفهم الأسمى وغايتهم النبيلة ، حيث واصلوا فتوحاتهم شمال طليطلة حتى دخلوا منطقة وادي الحجارة ، واستولوا على مدينة المائدة[٤٤] .

وبعد أن اكتسح المسلمون تلك الأقاليم ، عاد طارق بن زياد بجيشه إلى طليطلة . ولعل السبب في ذلك هو خشيته أن يقطع عليه العدو الطريق ، لاسيما وقد اقترب فصل الشتاء ، وتعب المسلمون من الجهد المتواصل الذي بذلوه في تلك المرحلة[٤٥] .

عبور موسى بن نصير إلى الأندلس :

لم يكن موسى بن نصير والي المسلمين على الشمال الإفريقي ، بمعزل عن أخبار قائده طارق بن زياد ، وجيش المسلمين ، الذي اجتاح كثيرا من أراضي شبه جزيرة أيبيريا في وقت قصير . بل إنه كان يتابع الأخبار ، ويرقب تحركات قائده ، كما كان يسعى لتهيئة عوامل النصر لذلك الجيش ، إذ كان وضع المسلمين في تلك الديار همه الدائم . وقد صور ذلك ابن الكردبوس حينما قال : « وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقا ، مكبا على الدعاء والبكاء ، والتضرع لله تعالى والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين ، وما علم أنه هزم له جيش قط »[٤٦] .

وهكذا يتبين لنا أن موسى بن نصير بالرغم من عدم وجود مشاركة ميدانية له في بادئ الأمر ، فإن جيش المسلمين الذي كان يجوب تلك الديار كان هاجسا دائما له ، حتى كأنه من ضمن أفراد جيش المسلمين الذي دخل الأندلس .

ولما استشهد عدد كبير من جيش طارق بن زياد ، وتفرق الباقون منهم في الأقاليم والمناطق التي فتحوها ، خشي طارق أن يستغل القوط فرصة تفرق جيشه ، فأرسل إلى موسى بن نصير يستنجد به ، ويطلب منه المساعدة . حينئذ وجد موسى أن من المناسب ، أن يتوجه على رأس جيش كبير للانضمام إلى جيش المسلمين لمواصلة المسيرة في فتح تلك الديار[٤٧] ، لاسيما حينما وصلت إليه رسالة طارق والتي خاطبه بها قائلا : إن الأمم تداعت علينا فالغوث الغوث ... »[٤٨] . ويذكر المؤرخون أن موسى بن نصير لما أتاه الكتاب ، نادى في الناس بالمسير إلى الجهاد على وجه السرعة ، كما أمر ابنه مروان بالمسير بالمال لنصرة المسلمين هناك[٤٩] .

كانت هذه هي العوامل والأسباب التي دعت موسى بن نصير إلى التوجه لبلاد الأندلس للمشاركة بالجهاد ، وبهذا يبدو ليس مقبولا ما ذكره بعض المؤرخين[٥٠] ، من أن الذي دفع موسى بن نصير إلى الجواز ، هو أنه لما بلغته أخبار الانتصارات المتتالية التي تحققت للمسلمين في الأندلس على يدي طارق بن زياد ، أخذته الغيرة ، وأكله الحسد ، لما حصل عليه مولاه طارق من شرف الفتح ، ولهذا بادر بالعبور إلى الأندلس ليفتح فتوحا أعظم من فتوحاته[٥١] .

وفي سنة ٩٣ هـ / ٧١٢ م توجه موسى بن نصير إلى الأندلس على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألف رجل ، معظمهم من العرب وعبر مضيق جبل طارق ، واستقر بالقرب من الجزيرة الخضراء حتى توافدت عليه فرق الجيش الإسلامي براياتها ، وفي ذلك المكان أسس موسى بن نصير مسجدا عرف بمسجد الرايات[٥٢] ، حيث كان مقرا لاجتماعات موسى مع أصحاب راياته للتشاور ووضع الخطط العسكرية[٥٣] .

ولما كان طارق بن زياد قد تمكن من فتح وسط بلاد الأندلس ، واستولى على كثير من مدن ذلك الإقليم ، فإن موسى رأى أن يتوجه بجيشه إلى غرب الأندلس وجنوبها الغربي ، وذلك لكي يكمل فتح تلك النواحي[٥٤] ، وقد استعان ببعض الأدلاء من القوط لتحقيق هذا الغرض ، حيث توجه أولا إلى شذونة ففتحها[٥٥] ، ثم سار بعد ذلك إلى قرمونة[٥٦] ، وليس بالأندلس مدينة أحصن ولا أبعد على من يردها بحصار أو قتال مثلها . لكنه تمكن من دخولها بحيلة ، فقد سبقـه إليها بعض أصحاب جوليان حيث تظاهروا بأنهم فلول من الجيش القوطي المنهزم ، فلما ثبتوا أقدامهم فيها ، طرقهم موسى ليلا ففتحوا له الأبواب ، وأوقعوا بالحراس ، وبذلك تمكن من دخول تلك المدينة[٥٧] .

ثم توجه الجيش الإسلامي بعد ذلك إلى إشبيلية المجاورة لقرمونة ، وهي من أعظم مدن الأندلس ، حيث كانت دار الملك في الأندلس قبل القوطيين . وقد امتنعت في وجه المسلمين أشهرا لكن المسلمين تمكنوا من دخولها بعد ذلك[٥٨] ، ومنها سار الجيش الإسلامي إلى ماردة حيث فتح في طريقه إليها عددًا من الحصون والمدن الصغيرة ، مثل لبلة ، وباجة . فلما وصل إلى ماردة ، حاصرها ، لكن أهلها استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم ، إذ قاوموا الجيش الإسلامي حتى استشهد من المسلمين عدد كبير . ثم صالح أهلها موسى على عدة شروط ، منها : أن تكون أموال القتلى والهاربين من النصارى ، وأموال الكنائس للمسلمين ، ثم فتحوا له المدينة يوم عيد الفطر سنة ٩٤ هـ/ ٧١٢ م فملكها المسلمون[٥٩] .

ويذكر ابن حيان أنه بينما كان موسى محاصرا لمدينة ماردة ، انتقض عجم إشبيلية ... على المسلمين ، واجتمعوا من مدينتي باجة ولبلة إليهم ، فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم

نحو ثمانين رجلا ، وأتت فلولهم الأمير موسى وهو بماردة . فلما فتحها وجه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إليهم ففتح إشبيلية وقتل أهلها ، ونهض إلى لبلة ففتحها واستقامت الأمور ، وعلا الإسلام »[٦٠] .

وهكذا تمكن المسلمون من التوغل في الأراضي الأيبرية حيث سيطروا على معظم الشطر الجنوبي لشبه الجزيرة ، في مدة وجيزة ، وبعددٍ قليل من الخسائر المادية والبشرية . ومما لاشك فيه أن من العوامل المباشرة لهذا النصر ما تمتع به أفراد جيش المسلمين من قوة الروح المعنوية ، إلى جانب انعدام الوحدة السياسية والانهزام النفسي والعسكري الذي مني به عدوهم .

وبعد هذه الانتصارات المتتالية التي تحققت للمسلمين على يد موسى بن نصير ومن معه من جند المسلمين ، توجه موسى نحو مدينة طليطلة فاستقبله طارق بن زياد حيث التقيا[٦١] عند طلبيرة ، أو طليطلة ، أو قرطبة على خلاف بين المؤرخين في ذلك[٦٢] .

ومهما كان مكان التقائهما الأول ، فإن ذينك القائدين وصلا معا إلى طليطلة ، في آخر سنة ٩٤ هـ / ٧١٣ م حيث أقاما فيها مع جيشهما حتى انقضى فصل الشتاء. وخلال تلك الفترة اشتركا في وضع خطة حربية للمرحلة القادمة من الجهاد في شمال شبه جزيرة أيبيريا ، كما وضعا بعض التنظيمات الإدارية للبلاد التي فتحاها حيث عين موسى أبه (Oppas) – أحد إخوة غيطشة – أسقفا لمدينة طليطلة مكافأة له على مساعدته للمسلمين حين فتوحاتهم ، كما ضرب سكة إسلامية ليدفع منها رواتب الجند[٦٣] ، حيث استخدم لهذا الغرض دار السكة القوطية في مدينة طليطلة[٦٤] .

وما من شك في أن هذه الترتيبات الإدارية التي عملها المسلمون في تلك الديار ، قد ساعدت على تثبيت أقدامهم فيها لاسيما وأن عمل ذينك القائدين لم يقتصر على تلك الترتيبات.بل إنهما قاما بنشاط آخر ، وهو « إفهام الناس للإسلام ، وشرحه لهم ، ودعوتهم إليه ، بعد أن رآه أهل البلاد عمليا في خلق الفاتحين »[٦٥] .

وبعد أن استراح الجيش الإسلامي في طليطلة ، حتى انقضاء فصل الشتاء توجه المسلمون في سنة ٩٥ هـ / ٧١٤ م نحو الشمال الشرقي لشبه جزيرة أيبيريا ، حيث

منطقة الثغر الأعلى الأندلسي . وقد تمكنوا من دخول مدينة سرقسطة[٦٦] دون عناء[٦٧] ، حيث استقروا بها مدة ينظمون أحوالها ، كما أنشأوا بها مسجدا ليكون منارا يشع منه نور الإسلام ، وليضيء لمن حوله من المدن والأقاليم الأندلسية[٦٨] .

ومن مدينة سرقسطة ، انطلق الجيش الإسلامي ، لفتح بقية مدن وأقاليم الثغر الأعلى ، فقد توجه المسلمون إلى مدينة وشقة[٦٩] ، والتي لم تكن كسابقتها مدينة سرقسطة ، حيث امتنعت في وجه الجيش الإسلامي ، ولم يتمكن المسلمون من دخولها إلا بعد حصار دام سبعة أعوام[٧٠] .

وفي تلك الأثناء تمكن المسلمون من دخول بقية مدن شمال شرق شبه جزيرة أيبيريا حيث دخلوا طركونة ، ولاردة ، وطرطوشة وغيرها[٧١] .

وبعد أن استولى المسلمون على معظم مناطق شمال شرق شبه الجزيرة الأيبيرية رغب موسى بن نصير في متابعة المسير نحو الشمال للاستيلاء على مملكة قشتالة القديمة . وكانت أغلب المناطق التي سار عليها الجيش الإسلامي بعد ذلك مناطق جرداء يتحدث أهلها بلغة لا يفهمها المسلمون ، ولا الأسبان الملازمون لموسى[٧٢] ، ولهذا تردد الجند في التوغل في تلك المناطق مما دفعهم إلى مخاطبة قائدهم بقولهم : « أين تذهب بنا ؟ ... تريد أن تخرج بنا من الدنيا ، أو تلتمس أكثر وأعظم مما آتاك الله عز وجل »[٧٣] .

ولما تعرف موسى بن نصير على رأى أصحابه في مواصلة الفتوح ، وأنهم راغبون في التوقف عن ذلك خشية أن يخرج الأمر من أيديهم ، أو أن يعرضوا أنفسهم للمهالك ، عاد أدراجه ولسان مقاله يقول : « أما والله لو انقادوا لي لقدتهم إلى رومية ، ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله »[٧٤] .

وبالرغم من تلك الرغبة الملحة من لدن أفراد الجيش الإسلامي في العودة ، وعدم التوغل في الأراضي النصرانية والتي تزامنت مع طلب الخليفة الأموي من موسى التوقف عن حركة الفتح والشخوص إليه في دمشق فإن موسى لم يعد بجيشه إلا حينما تمكن من دخول برشلونة ومناطق واسعة من قشتالة ، وجليقية[٧٥] . وبعد إلحاح الخليفة عليه حينما قدم عليه رسول آخر من الخليفة الأموي يستعجله بالعودة إلى بلاد المشرق حيث

لقيه عند مدينة لك بجليقية[٧٦] ، وقد استجاب موسى لأمر الخليفة ، فتوجه إلى بلاد المشرق ومعه قائده طارق بن زياد ، ومن رغب الرجوع من جند المسلمين ، وذلك في سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م[٧٧] .

وكان موسى قبل مغادرته تلك الديار قد استخلف ابنه عبد العزيز عليها ، لسدها وجهاد عدوها ، كما أنزل الرابطة والحامية بثغورها[٧٨]، وكان عبد العزيز بن موسى قد رافق والده في كثير من الحملات العسكرية ، مما أكسبه الشجاعة والدراية الحربية في جهاد النصارى[٧٩] . وقد واصل عبد العزيز بن موسى ، حركة الفتح الإسلامي حيث فتح ما بقى من مدائن الأندلس[٨٠] ، فبدأ أولا بغرب الأندلس ، ثم استولى على يابرة ، وشنتري ، وقلمرية وغيرها من المدن الهامة[٨١] ، وبعد ذلك توجه شمالا فأخضع إلبيرة ، ومرسية وما جاورها[٨٢] ، وهكذا استكمل عبد العزيز بن موسى عملية الفتح الإسلامي للأندلس و لم يبق خارج سيادة المسلمين سوى أقاليم وجيوب ضعيفة كان من الممكن القضاء عليها – بعون الله – لكن وفاة ذلك القائد حالت دون ذلك[٨٣] .

هكذا تمكن المسلمون من فتح بلاد الأندلس ، ونشر الإسلام في شبة جزيرة أيبيريا ، ويدرك المتتبع لحركة الفتح الإسلامي في تلك الديار ، أن دخول المسلمين إليها وانتشار الإسلام فيها اتسم بالعديد من المزايا والسمات ، ولعل من أهمها أنهم تمكنوا من دخولها ، والسيطرة على أقاليمها ومدنها في زمن قصير لا يتجاوز سنوات أربع ، وهى مدة قياسية إذا ما قورنت بغيرها من البلدان التي استغرق فتح المسلمين لها عشرات السنين .

ومن تلك السمات – أيضا – قلة عدد أفراد الجيش الإسلامي الفاتح ، فالبرغم من بعد شبه جزيرة أيبيريا عن مركز الخلافة بالمشرق ، وكونها يفصلها عن بلاد المسلمين حاجز مائي ، وهو أمر لم يألفه المسلمون في كثير من غزواتهم ، وحركات جهادهم ، فإن عدد الجيش الإسلامي الذي توجه لفتحها لاسيما في بادئ الأمر كان قليلا إذا ما قورن بكثرة عدد الجيش القوطي وعتاده .

ومما لاشك فيه أن هذا الفتح ، وتلك المزايا لم تنشأ من فراغ ، ولم تأت مصادفة ،

إنما يعود الفضل في ذلك – بعد نصر الله سبحانه لهم – إلى العديد من العوامل والوسائل ، التي أخذ بها المسلمون الفاتحون لتلك الديار ، مما ساعدهم على قبول الناس لدعوتهم ، وبالتالي إنجاز مهمتهم في زمن قياسي ، وبعدد قليل من جيش المسلمين ، ومن تلك العوامل ، والوسائل ما يلي :–

١ – إخلاص الجند الفاتحين الذين انضووا تحت راية موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، إذ كان هدفهم الأسمى الدعوة إلى الله سبحانه ، وإخراج من شاء من سكان تلك البلاد ، من عبادة العباد ، إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، كما تعلموا ذلك من أسلافهم الفاتحين[٨٤] .

وقد تمثل هذا الإخلاص والتفاني من أجل نشر العقيدة ، في كثير من تصرفاتهم ، وأعمالهم ، ولعل كلمة قائدهم الأول عقبة بن نافع حينما قال بعد أن أتم فتح بلاد المغرب ووقف على شاطئ البحر المحيط : « يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك »[٨٥] لعل هذه الكلمة توضح بجلاء سمو الهدف ، ونبل الغاية عند أولئك الجند ، الذين تخلوا عن ذواتهم ، ونزعاتهم الذاتية ، وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا ، وهذه السمات التي اتسم بها أولئك القوم جعلت العدو يعترف بسمو أخلاقهم ، ونبل غاياتهم ، فقد قال أحد قادة لذريق في رسالة بعث بها إليه ، واصفا جيش المسلمين الأول الذي عبر بقيادة طارق إلى الأندلس : « لقد نزل بأرضنا قوم لا ندري ، أهبطوا من السماء ، أم نبعوا من الأرض »[٨٦] .

ومما لاشك فيه أن هذا الصنف من الجند ، الذين كانوا يرددون دائما قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[٨٧] ، قد بذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل عقيدتهم لرفع شأنها ، ونشرها بين الناس ، فجابوا الديار بسرعة عجيبة دون كلل أو ملل ، حتى بدا لمن يجهل حقيقة هذا الدين ، وما يحدثه في النفوس من تغيير ، أن ما قام به أولئك إنما هو نزهة في رياض الأندلس ، هو في حقيقة الأمر نزهة ، لكنها نزهة لم يألفها غير المسلمين ؛ إنها نزهة إيمانية من أجل إعلاء كلمة الله فأي نصر يحصل عليه

المسلم في هذا الميدان إنما هو مجلبة لراحته ، كما أن أي ضرر يناله فإنه يحتسبه عند الله[٨٨] .

٢ – إن أولئك الفاتحين استشعروا أن مهمتهم ليست مقصورة على الفتح العسكري ، بل هي إلى جانب ذلك فتح حضاري ، وأن مسؤوليتهم لا تنتهي بمجرد هزيمة العدو ، وتثبيت أقدامهم في البلدان ، بل أنها من هنا تتأكد ، حيث وفروا للناس حرية الاعتقاد بقضائهم على أولئك الزعماء الذين حالوا بينهم وبين سماع كلمة الحق . ولتحقيق هذا الغرض اصطحب أولئك الجند معهم حينما عبروا إلى الأندلس عددا من العلماء والدعاة ، وذلك لدعوة الناس إلى الإسلام ، ولبيان حقيقة ما يدعون إليه . فقد ذكر ابن عذاري أن موسى بن نصير بعث مع جيش طارق بن زياد الذي دخل إلى الأندلس سبعة عشر رجلا من العرب ليعلمونهم القرآن والإسلام[٨٩] ، كما ضم ذلك الجيش مجموعة من الجند الفقهاء حيث يذكر المقري أن عددا كبيرا من التابعين الذين دخلوا الأندلس مع طلائع المسلمين ، أصبحوا دعاة إلى دين الله . ومن هؤلاء المغيرة بن أبي بردة الكناني ، الذي دخل مع موسى بن نصير وكان موسى يخرجه على العساكر[٩٠] . ومما لاشك فيه أن هؤلاء الفقهاء قاموا إلى جانب مهمتهم العسكرية بدعوة الناس إلى الإسلام ، كما علموهم القرآن .

وبعد أن ثبت المسلمون أقدامهم في تلك الديار ، لم يغفلوا عن متابعة نشر الإسلام ، ودعم المد الإسلامي هناك ، وكان في مقدمة المهتمين بهذا الأمر عمر بن عبد العزيز ، حيث أرسل عشرة من التابعين إلى إفريقية ليفقهوا أهلها . وقد جاء ثلاثة منهم إلى الأندلس ، لمواصلة المهمة ، حيث جاء كل من أبي عبد الرحمن عبد الله بن زيد المعافري الأنصاري ، وحبان ابن أبي جبلة ، وأبو ثمامة بكر بن سودة الجذامي ، وكان يعد أحد كبار فقهاء التابعين[٩١] .

وبعد ذكر هذه النماذج يتبين لنا أن الجيش الإسلامي الفاتح للأندلس ، كان يضم إضافة إلى الجند والقادة ، أفرادا عرفوا بصفة الدعوة ، وتميزوا بفقههم وعلمهم ، وهذا ما جعلهم يسعون لنشر الإسلام وتعليم المسلمين إلى جانب مهمتهم الحربية ، كما أن بقية

أفراد الجيش كانوا يشاركونهم في تلك المهمة ، حيث كانوا يدعون إلى الإسلام بسلوكهم وأخلاقهم الفاضلة ، مما جعل كافة أفراد جيش المسلمين في مهمة متواصلة ودائمة ، وهي الدعوة إلى الله في الحرب والسلم[٩٢] .

ويبدو أن نجاح المسلمين في نشر الإسلام بتلك الديار ، قد دفعهم إلى الإفادة من هذه التجربة مع البربر في بلاد المغرب . فيذكر السلاوي أن موسى بن نصير لما عبر إلى بلاد الأندلس أجاز معه كثيرا من رجال البربر الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم ، فاستقروا في بلاد الأندلس ، حيث انصهروا في بوتقة المجتمع الإسلامي ، فأذعنوا لحكم المسلمين ، وتناسوا الردة والانتقاض على الحكم الإسلامي[٩٣] .

٣ – ومن العوامل والوسائل التي أعانت المسلمين على نشر الإسلام في تلك الديار اهتمامهم بالمساجد ، والسعي لإنشائها ، منذ أن وطئت أقدامهم الأراضي الأندلسية ، وذلك لإدراكهم بأن المسجد مركز إشعاع ديني وحضاري ، فهو إلى جانب تأدية الصلوات فيه ، فإنه كان يستخدم مدرسة لتعليم الناس ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وهذا ما جعله مكانا للتعليم ، ومنطلقا للجيوش الإسلامية ، ومقرا للقيادتين السياسية والعسكرية .

وقد أولى المسلمون هذا الأمر أهمية خاصة منذ عهد الرسول – ﷺ – فحينما هاجر إلى المدينة كان أول عمل قام به هو إنشاء المسجد . وقد أخذ المسلمون من بعده بهذا النهج ، لاسيما الجند الفاتحون ، وذلك لإدراكهم لأهميته وأثره في توجيه الناس ونشر نور الإسلام بينهم . وممن اهتم بهذا الأمر القائد الإسلامي عقبة بن نافع الذي سعى لنشر المساجد في جميع أنحاء بلاد المغرب إبان فتحه لها[٩٤] .

ولما شرع المسلمون في فتح بلاد الأندلس ، لم يغفلوا عن هذا الأمر ، فموسى بن نصير لما عبر إلى بلاد الأندلس كان أول شيء عمله هو إنشاء مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء حيث يعتبر أول مسجد بني بالأندلس[٩٥] وقد سمي بمسجد الرايات ، لأن رايات المسلمين كانت تجتمع فيه للتشاور فنسب إليها[٩٦] .

وقد ظل لهذا المسجد مكانتة عند المسلمين بعد ذلك ، إذ يذكر الحميري أنه إذا

« قحط أهل الجزيرة استسقوا فيه فسقوا بفضل الله ورحمته »[97] .

ثم توالى بعد ذلك إنشاء المساجد في تلك الديار على يد الجند الفاتحين حيث أسسوا مساجد في كل من قرطبة[98] ، وإلبيرة حينما دخلوها ، فقد قام بتأسيسها وتسديد قبلتها التابعي الجليل حنش[99] بن عبد الله الصنعاني[100] . وبعد أن فتح المسلمون منطقة الثغر الأعلى الأندلسي أسسوا مسجدا بمدينة سرقسطة ، حيث ظل هذا المسجد منارا يشع منه نور الإسلام لمسلمي منطقة الثغر الأعلى قرونا متتالية ولمن حوله من المدن والأقاليم الشمالية[101] .

وهكذا نرى كيف اهتم المسلمون بتشييد المساجد ، وإنشائها في الأندلس ، مثل اهتمامهم بدخول المدن ، والانتصار على العدو ، وذلك إدراكا منهم لأهمية المساجد ، وأثرها في نشر الإسلام ، وتوجيه الناس إذ لم يكن دور المساجد مقصورًا على العبادة فحسب ، بل كانت المساجد إلى جانب ذلك منطلقا للجيوش المجاهدة ، وفيها تعقد اللقاءات ويتلقى الناس العلم ، والفقه بالدين .

٤ – ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام بالأندلس ، وتقبل الناس له ، الواقع السيئ للمجتمع الأسباني في ظل حكم دولة القوط ، فقد كانت شبه الجزيرة الأيبيرية تخضع لحكم القوط الغربيين ، منذ أوائل القرن الخامس الميلادي ، وكان حكما تسيطر فيه أقلية من الأمراء والنبلاء على شعب بأسره ، وتستغله لدرجة الرق والعبودية[102] .

وبالإضافة إلى أولئك المتسلطين ، كان رجال الدين النصارى ، ولاسيما الكاثوليك منهم لهم قوة وسيطرة على ذلك المجتمع ، فسخروها لاضطهاد بعض الفئات في ذلك المجتمع . وقد أدى هذا التسلط إلى ظهور غضب عام عند أفراد ذلك المجتمع ، وبالتالي وجود نوع من الوحشة والعداء ، بين أولئك المتسلطين وبين بقية المجتمع[103] . ومما ساعد على ذلك أن القوط قد انعدمت عندهم كثيرا من الفضائل مما أفسح الطريق إلى الفساد والخلاعة ، وجعل كثيرا من الناس يأنفون من حكم أولئك القوم ، ويبحثون عن بيئة أكثر ملاءمة لحياتهم الدينية والدنيوية[104] .

هكذا كان واقع شبه الجزيرة الأيبيرية إبان الفتح الإسلامي لها فقد كان سكانها مقسمين إلى عدة طبقات متباينة في المنزلة والنفوذ ، فتأتي طبقة النبلاء ومنها الحكام في الصدارة ، ثم تليها طبقة رجال الدين ، ثم طبقة التجار والزراع ، والملاك الصغار ، ثم طبقة عبيد الأرض الذين ينتقلون مع ملكية الأرض من سيد لآخر ، وأخيرا طبقة العبيد الذين يتكونون من أسرى الحرب وهؤلاء لم يكن لهم ولا لعبيد الأرض أى اعتبار في الحقوق(١٠٥) .

كان هذا وصفا لواقع المجتمع الأسباني في ظل حكم القوط له ، وهو بلاشك واقع لا يملك مقومات البقاء ، لما فيه من تناقضات سياسية ودينية واجتماعية سببت كره الناس له(١٠٦) .

ولما جاء المسلمون الفاتحون إلى تلك الديار ، يدعون إلى اعتناق دين جديد ، لا عبودية فيه لغير الله ، ولا مفاضلة بين أفراد مجتمعه إلا بالإيمان والتقوى ، منهجهم في هذا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝١٣ ﴾(١٠٧) ، حيث يدينون بدين شامل لجميع مناحي الحياة ، كما أنه يتناول الإنسان والكون والحياة ، فعقيدته شديدة الوضوح والصفاء ، وشريعته تضمنت العبادات والمعاملات ، ونظام الحكم ، والإدارة والسياسة والحرب ، ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝٨٩ ﴾(١٠٨) .

كما عرف أولئك القوم أن دعوة المسلمين دعوة عالمية ، وأن الدين الإسلامي لم يرتبط بقبيلة أو أناس معينين ، بل هو شامل لجميع الناس ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ ﴾(١٠٩) ، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١١٠) .

ومن خلال احتكاكهم بالمسلمين الفاتحين وتعاملهم معهم ، تبين لهم أن الإسلام دين اليسر والسماحة ، فليس في الإسلام ما يقيد الإنسان ويرهقه ويحرمه من التمتع الإنساني الشريف ، بل إن كل تعاليمه جاءت ملبية لطبيعة الإنسان على وجه معتدل ، ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ... ﴾(١١١) .

وهكذا رأى أولئك القوم الدين الإسلامي واقعا ملموسا يتمثل في سلوك وأخلاق جند المسلمين ، وأنه لم يكن مجرد كلام نظري لا رصيد له من الواقع ، وهذا ما جعلهم يعجبون بذلك الدين الجديد إذ وجدوا فيه ما يشبع خواءهم الروحي ، وينتشلهم من واقعهم السيئ المظلم ، إلى واقع آخر ينظم لهم جميع شؤون حياتهم ، ولهذا دخلوا في دين الله أفواجا ، حيث انصهروا في بوتقته ، ومن بقي منهم على دينه ارتضى حكم المسلمين .

وقد اعترف عدد من الكتاب النصارى بهذه الحقيقة حيث بينوا أن فتح المسلمين لتلك الديار ، لم يكن نوعًا من الغزو أو الاستعمار ، بل إنه كان خلاف ذلك ، فقد ذكر سكوت بأن المسلمين تمكنوا في أقل من أربعة عشر شهرا من القضاء على مملكة القوط إذ أقاموا على أنقاضها دولة إسلامية لها نظامها المستقل الذي كفل لجميع النصارى العيش في ظله بسلام . و لم يكن أحد يتوقع أن يبقى المسلمون في تلك البلاد لولا مقومات البقاء التي اتسموا بها ، و لم يكتف سكوت بهذا القول بل إنه أضاف بأن ما يدعيه الكتاب النصارى من تقول على المسلمين الفاتحين إنما هو محض افتراء ومبالغة(١١٢) .

* * * * *

كان هذا عرضا سريعا لأهم عوامل ووسائل انتشار الإسلام في الأندلس وقد تبين لنا من خلال هذا العرض ، أن تقبل أولئك القوم للدين الإسلامي يفوق الوصف ، فقد أقبل الأسبان على الدخول في دين الله مختارين ، حتى دخلوا فيه أفواجا ، وقد كان ذلك التحول عجيبا غريبا لدرجة أن عمر بن عبد العزيز لم يستوعب قوة ذلك المد الإسلامي ، وبالتالي مستوى القوة الذي وصل إليه المسلمون بالأندلس باعتناق الأسبان للإسلام ، حيث كثر سوادهم، وأصبحوا قوة لا يستهان بها . وقد دفعه هذا القصور في استيعاب وضع الوجود الإسلامي هناك ، إلى التفكير في نقل المسلمين ، وإخراجهم من الأندلس شفقة عليهم . فقد ذكر ابن عذاري أن عمر بن عبد العزيز هم في « نقل المسلمين منها — يعني جزيرة الأندلس — وإخراجهم عنها لانقطاعهم عن المسلمين ، واتصالهم بأعداء الله الكفار فقيل له : إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها فأضرب عن ذلك »(١١٣).

وما من شك في أن هذا التحول لم يكن ليحدث ، لولا فضل الله سبحانه ، ثم ما يتمتع به الإسلام من مزايا وخصائص ذاتية جعلت الناس أجمعين يقبلون عليه برغبة ودافع ذاتي ، ومن ثم فقد ساعدت تلك العوامل في بيانه للناس ، وإتاحة الفرصة لهم لاعتناقه والإذعان لأمر الله سبحانه . وبعد هذا كله يتبين لنا أن من مخالفة الواقع والحقائق التاريخية مخالفة مقصودة أن يقال : إن حركة الفتوح الإسلامية كانت حركة « غزوات » أو من أجل إنشاء إمبراطورية سياسية يحكمها جنس معين . والحق أن يقال : إن حقيقتها هي أنها حركة استيقاظ ، تمتد من شعب لشعب ، كأنها أمواج يدفع بعضها بعضا ، فلا يكاد الإسلام يقبل على بلد حتى يستقيظ أهله ويهبوا ليحملوا رايته بأيديهم(١١٤) . وقد أدرك هذه الحقيقة شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – (ت ٧٢٨ هـ/١٣٢٧ م) ، حينما قال : « إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم ، ولكنهم نقلوا الأمم إلى الإسلام »(١١٥) . وهكذا نرى كيف كانت حركة الفتوح الإسلامية في بلاد الأندلس ، فقد سار الإسلام بنفسه حينما أتيحت له الفرصة ، وجسده أهله ودعائه واقعًا ملموسًا ، ولا غرابة في ذلك فهو شرع الله لخلق الله الملائم لفطرتهم ، والمحقق لسعادتهم في الدارين(١١٦) .

هذا وقد بقي الوجود الإسلامي في الأندلس بعد ذلك الفتح مدة تزيد على ثمانية قرون (٩٢ هـ – ٨٩٧ هـ) تذبذب وضع المسلمين خلالها بين الضعف والقوة ، والنصر والهزيمة . وقد اصطلح الكتاب على تقسيم تلك الفترة إلى عدة عهود كان لكل عهد منها طابع مميز(١١٧) ، وقد جاءت على النحو التالي :

أولا : عهد الفتح الذي استمر ما يقرب من أربع سنوات (٩٢– ٩٥ هـ/ ٧١١ – ٧١٤ م) .

ثانيا : عهد الولاة ٩٥ – ١٣٨هـ (٧١٤ – ٧٥٥ م) وفي هذا العهد لم تتوقف حركة المد الإسلامي ، لكن الأندلس أصبحت تخضع بعد عودة قائدي الفتح لحكم وال تابع للخلافة بالمشرق ، إما مباشرة ، أو بواسطة ولاية الشمال الإفريقي ، والتي كان واليها يرتبط مباشرة بالخلافة ، وقد استمر هذا العهد ما يقرب من ثلاثٍ وأربعين سنة ، حكم الأندلس خلالها حوالي عشرون واليا .

ثالثا : عهد الإمارة ١٣٨ – ٣١٦ هـ (٧٥٥ – ٩٢٩ م) ويبدأ هذا العهد منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية الأموي (الداخل) إلى الأندلس ، وينتهي بإعلان عبد الرحمن الناصر (الثالث) الخلافة في سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) وفي هذا العهد استقلت الأندلس عن تبعيتها للخلافة العباسية ، وقد استمر هذا العهد مئة وثمان وأربعين سنة[١١٨] .

رابعا : عهد الخلافة ٣١٦ – ٤٢٢ هـ (٩٢٩ – ١٠٣٣ م) ، ومن الكتاب من يرى أن هذا العهد ينتهي بوفاة الخليفة الأموي الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م)، لكنه حقيقة لا ينتهي إلا في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٣ م) حينما أُعلن إلغاء الخلافة الأموية بالأندلس ، وعين الناسُ أبو الحزم بن جهور في قرطبة واليا عليهم . ومن أهم سمات هذا العهد أن عبد الرحمن الناصر أعلن في سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) الخلافة الأموية بالأندلس وذلك بعد ضعف الخلافة العباسية بالمشرق ، وحينما شعر الناصر بحاجة دولته إلى ما يعضد وجودها ، ويشد من أزرها ، بعد أن قل اعتبارها في أعين بعض سكان الأندلس[١١٩] .

خامسا : عهد الطوائف : ويبدأ هذا العهد منذ ضعف الدولة الأموية ثم سقوطها وينتهي بدخول الأندلس تحت سلطان المرابطين سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) وقد سمي بعض المؤرخين هذا العهد بعصر الفرق ، أو الفتنة ، وذلك لشدة معاناة المسلمين فيه ، حينما انعدمت الوحدة السياسية في بلادهم ، وعمتهم الفوضى والفتن الداخلية التي صدعت بنيانهم الشامخ ومن أهم سمات هذا العصر :

* زيادة الخطر النصراني ضد المسلمين هناك حيث بدأ النصارى حربهم الصليبية والتي أطلقوا عليها حرب الاسترداد ، وقد تمخض عن ذلك سقوط العديد من القواعد والمدن الإسلامية بأيدي النصارى .

* الضعف السياسي والعسكري الذي مُني به المسلمون هناك ، وقد صور هذا الضعف الشاعر الأندلسي حينما قال :[١٢٠]

مما يزهدني في أرض أندلس   أسماءُ معتمدٍ فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهرِ يحكي انتفاخا صورة الأسد

ولولا أن الله سبحانه وتعالى قيض لمسلمي الأندلس دولة إسلامية قوية هي الدولة المرابطية بالعدوة المغربية والتي هبت لنصرة المسلمين هناك حينما تداعت الأمم النصرانية عليهم ، لكانت الكارثة أكبر ، والخطب أعم[١٢١] .

سادسا : عهد المرابطين والموحدين ، ويبدأ العهد المرابطي منذ سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) وينتهي بضعف دولة المرابطين ثم عجزها عن السيطرة على بلاد الأندلس في حوالي سنة ٥٢٠ هـ (١١٣٤ م) ومن ثم قامت على أنقاضها الدولة الموحدية في بلاد الأندلس وعمرت ما يقرب من قرن كامل ، (٥٢٠ هـ - ٦٢٠ هـ/ ١١٣٤ - ١٢٢٣ م)، وفي ظل هاتين الدولتين استعاد مسلمو الأندلس بعض اعتبارهم بعد النكسات المتتالية التي حلت بهم في عهد ملوك الطوائف فقد توّجت هاماتهم انتصارات كبيرة مثل نصر معركتي الزلاقة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) والأرك ٥٩١ هـ (١١٩٥ م)[١٢٢] .

سابعا : عهد دولة بني الأحمر أو مملكة غرناطة (٦٢٠ - ٩٨٧ هـ/ ١٢٢٣ - ١٤٩٢ م) وفي ظل هذه الدولة بدأ وضع المسلمين بالانحدار ، بعد أن قويت الحملات النصرانية التي تهدف إلى إخراجهم من تلك البلاد ، فانحسر وجودهم في النهاية ليقتصر على مدينة غرناطة وما حولها بعد أن كانوا يحكمون معظم شبة جزيرة أيبيريا . ومع تردي الوضع السياسي والعسكري للمسلمين هناك ازدادت ضغوط النصارى عليهم ، حتى تمكنوا من توقيع معاهدة التسليم بين حاكم المسلمين المتخاذل أبو عبد الله محمد الصغير، وبين ملكي قشتالة في ٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ (٢٥ تشرين ١٤٩١ م)[١٢٣] .

وهكذا فقد المسلمون الأندلس . ومن خلال استقراء تاريخ المسلمين في تلك الديار يتبين لنا أن خروجهم منها لم يأت وليد اليوم والليلة ، كما لم ينشأ من فراغ ، وإنما كان نتيجة طبيعية لعدة أسباب وعوامل ، لعل من أهمها : بُعد كثير من مسلمي الأندلس عن منهج الله سبحانه وتعالى . ويتأكد هذا العامل إذا تذكرنا أن أولئك القوم لم يجوزوا إلى تلك الديار إلا بعد أن انصهروا في بوتقة الإسلام ، وأصبحوا جندا من جنود الله يسعون لنشر دينه في أرضه وتبليغه للناس أجمعين . وقد أدرك النصارى أن هذا التحول عند

مسلمي الأندلس هو السبب في خروجهم من تلك الديار . وأكد كوندي هذه الحقيقة بقوله : « العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها ، وأصبحوا على قلب متقلب ، يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات »[١٢٤] .

ومن العوامل أيضا ما أصاب المسلمين من فوضى سياسية حينما انتابهم التفكك وعمتهم الفرقة ، الأمر الذي دفع النصارى لمواصلة هجماتهم ضدهم ، حتى حاصروهم في غرناطة ثم أخرجوهم من الأندلس بعد التسليم .

الهوامـــش

(١) الأنبياء آية ١٠٧.

(٢) صحيح البخاري جـ ١ ص ٢٦ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل جـ ٣ ص ٥٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٠٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٧ .

(٥) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٢ .

(٦) البكري : جغرافية الأندلس ص ١٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٤ ، الحميري : الروض المعطار ص ٣ .

(٧) الذهبي : العبر جـ ١ ص ١٠٤ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٤٠٢ ، المقري : نفح الطيب حـ ١ ص ٢٧٩.

(٨) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٥ ، الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٤٥ .

(٩) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة ص ٥ — ٦ ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٢ ، الحميري : الروض المعطار ص ٣٩٢ .

(١٠) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٢ ، الحميري : الروض المعطار ص ٣٩٢ .

(١١) الحميري : الروض المعطار ص ٣٩٢ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٠ و٢٥٣ .

(١٢) محمد عبد الحميد عيسي : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١٠٧ ، أحمد العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٥ .

(١٣) طارق بن زياد : هو طارق بن زياد بن عبد الله فارسي الأصل ، وقيل إنه ليس بمولى لموسى بن نصير ، وإنما هو رجل من صدف ، كما قيل بأنه بربري من قبيلة نفزة ، وسبب هذا التباين حول أصله هو أن المؤرخين الأوائل لم يتحدثوا بالتفصيل عن حياته المبكرة ، وقد اشتهر بأنه كان عسكريا ناجحا ، وقائدا مخلصا لدينه ساعيا لنشره في العدوتين المغربية ، والأندلسية (المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٤ ، الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٤٧) .

(١٤) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٥ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣١ .

(١٥) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣١.

(١٦) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٧ .

(١٧) تباينت آراء المؤرخين والكتاب حول ملكية السفن التي استخدمها طارق بن زياد لنقل جيشه عبر مضيق بحر الزقاق ، فمن المؤرخين من يرى أن ملكيتها تعود إلى النصارى ، وأن طارق استعان بها لنقل جيشه إلى البر الأسباني . (ابن عبد الحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٠ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦) .

ومن المؤرخين من يرى أن السفن التي استخدمها المسلمون إنما كانت ملكا لهم ومن أشهر أصحاب هذا الرأي صاحب كتاب ذكر بلاد الأندلس (جـ ١ ص ٩٨) ، حيث ذكر أن طارق بن زياد هو الذي عمل على إنشاء السفن التي جاز بها جيشه ، وقد ذكر ابن الكردبوس ما يعضد هذا الرأى حيث قال : « إن طارقا جاز في مراكبه إلى جبل الفتح »، (تاريخ الأندلس ص ١٢) . =

= وقد مال إلى هذا الرأي عدد كبير من الكتاب المحدثين حيث ذكروا عددا من الأدلة التي تبين أن المسلمين استخدموا سفنا خاصة بهم في تلك العملية . (انظر في تفصيلات ذلك كلا من أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٧ – ١٩ ، محمد عبد الحميد عيسي : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١٠٨ – ١١٠ ، عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٤٧ – ٤٩) ، ونظرا لقوة الأدلة التي ذكرها هؤلاء الكتاب فإني أميل إلى رأيهم .

(١٨) مدينة قرطاجنة : إحدى المدن الأندلسية من أعمال تدمير تعرف بقرطاجنة الخلفاء . (ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ٥٣) .

(١٩) الجزيرة الخضراء كورة صغيرة تشمل عدة مدن تطل على بحر الروم ، وتجاور كورة شذونة من الشرق ، وكورة ريه من الجنوب . (ابن غالب : فرحة الأنفس ص ٢٥ ، المراكشي : المعجب ص ٣٩٣ – ٣٩٥) ومرسى الجزيرة الخضراء مأمون يعد من أيسر المراسي ، وأقربها إلى بر بلاد المغرب حيث يحاذي مرسى سبتة . (الحميري : الروض المعطار ص ٢٢٣) .

(٢٠) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٦٩ ، محمد عبد الحميد عيسى : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١١١ .

(٢١) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٦٩ .

(٢٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨ .

(٢٣) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٧ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣١ .

(٢٤) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣١ – ٢٣٣ .

(٢٥) عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٥٣ .

(٢٦) من هؤلاء المؤرخين : ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٦ – ٤٧ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٨ ، الحميري : الروض المعطار ص ٢٢٤ .

(٢٧) القول بإحراق السفن من قبل طارق بن زياد ، لم يأخذ به كثير من الكتاب المحدثين الذين لهم اهتمامات بتاريخ المسلمين بالأندلس ولهذا تناولوا هذه الرواية بالنقد والتحليل من كافة نواحيها الشرعية والعسكرية ، ومال معظمهم إلى عدم الأخذ بها ، واعتبارها من قصص الفتح الإسلامي الشائعة ، والتي لم تثبت كحقيقة تاريخية ، لاسيما أن المؤرخين المسلمين القدامى الذين أرخوا للفتح الإسلامي للأندلس لم يذكروها .

(انظر في تفصيلات ذلك كلا من محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول القسم الأول ص ٤٨ – ٤٩ ، عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٦٢ ، أحمد العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ – ٢٩ ، عبد الحليم عويس : قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ .

(٢٨) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٨ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٨ – ٢٥٩ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٧٣ – ٨٤ .

(٢٩) شك بعض الكتاب المحدثين في صحة نسبة الخطبة التي تناقلها عدد من المؤرخين ونسبوها إلى طارق ابن زياد ، ذلك لأن معظم المؤرخين المسلمين ، ولاسيما المتقدمين منهم لم يشيروا إليها ، حيث أن أول مؤرخ ذكر هذه الخطبة هو عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ) ثم تبعه بعد ذلك بعض المؤرخين المتأخرين مثل ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) والمقري (ت ١٠٤٢ هـ) ، ومما زاد من شك أولئك الكتاب روعة أسلوب الخطبة وسلامة لغتها مع أن طارق بن زياد بربري الأصل لم يكن عريقا في الإسلام والعروبة ، لكن أولئك الكتاب لا ينكرون أن يكون طارق قد خطب في جنده قبل الموقعة ولكن ليس بهذا الأسلوب البلاغي ، ولهذا يميل بعضهم إلى =

= أن طارق قد خطب في جنده باللغة والأسلوب الذي يفهمونه ثم جاء المؤرخون العرب فعربوا هذه الخطبة وصاغوها تلك الصياغة الرائعة .

(انظر في تفصيلات ذلك كلا من محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام العصر الأول القسم الأول ص ٤٧ – ٤٨ ، أحمد العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧ – ٢٨ ، عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٥٧ – ٦١ ، محمد عبد الحميد عيسى : الفتح الإسلامي الأندلسي ص ١١٨) .

(٣٠) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤١ .

(٣١) أطلق المؤرخون على هذه المعركة عدة أسماء حيث سموها بمعركة البحيرة وادي كله ، والبرباط ، والسواقي ، وشريش . ويعلل الدكتور أحمد العبادي تعدد أسماء تلك الموقعة بسبب كونها واسعة ومتشعبة حيث دارت في أقاليم مختلفة من كورة شذونة فأطلقت تلك التسميات على الأماكن التي دارت فيها . (أحمد العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥) .

(٣٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٨ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٨ – ٢٥٩ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٧٣ – ٨٤ .

(٣٣) محمد عبد الحميد عيسي : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١١٩ .

(٣٤) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨ .

(٣٥) تاريخ الأندلس ص ٤٨ .

(٣٦) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦١ ، الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٦٣ .

(٣٧) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٠ (نقلا عن الرازي) .

(٣٨) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٨ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٩ .

(٣٩) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٠ ، عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٦٣ ، محمد عبد الحميد عيسى : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١٢٢ .

(٤٠) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨ – ٩ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٦٠ .

(٤١) جوليان (JULIAN) اختلف المؤرخون والكتاب حول أصل هذا الرجل ، فمنهم من يرى أنه قوطي ، ومنهم من يرى أنه رومي ، كما يرى البعض بأنه بربري من غمارة ، وكان يتولى حكم مدينة سبتة إبان فتح المسلمين لبلاد الأندلس ، حيث كان حليفا « لغيطشة » أحد زعماء أسبانيا فلما اختلف غيطشة مع لذريق انحاز جوليان إلى حليفه الذي قتله لذريق بعد ذلك ، ولهذا سعى جوليان للقضاء على لذريق حيث أخذ يحرض المسلمين ضده . (انظر في تفصيلات ذلك كلا من مؤلف مجهول : أخبار مجموعة جـ ٤ ، ابن عذاري : البيان المعرب جـ ١ ص ٢١١ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٨٥ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٢ – ٥٧) .

وبالإضافة إلى هذه الروايات فهناك من يرى بأن جوليان هو أحد أبناء غيطشة الملك القوطي الذي قتله لذريق ، ولهذا أخذ ابنه يدعو المسلمين إلى دخول الأندلس انتقاما لأبيه من لذريق .

(محمد عبد الحميد عيسى : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١٠٠ – ١٠٢) .

(٤٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩ .

(٤٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩ – ١١ ، المقري : نفح الطيب ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

(٤٤) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢ .

(٤٥) أحمد العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦ ، محمد عبد الحميد عيسى : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١٢٩ .

(٤٦) تاريخ الأندلس ص ٤٧ .

(٤٧) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٩ .
(٤٨) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٦١ .
(٤٩) المصدر السابق .
(٥٠) من هؤلاء المؤرخين صاحب أخبار مجموعة ص ١٥ ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٩ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١١٧ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩ (نقلا عن ابن حيان) .
(٥١) ويضاف إلى العوامل السابقة أنه ليس للحسد والغيرة في مثل هذا الموضع مكان لأن طارق بن زياد مولى وتابع لموسى بن نصير وباسمه سار ، وبأمره وحسب توجيهه ورغبته توغل في البلاد ، ولهذا فأي شرف يحصل عليه طارق بن زياد إنما يعود الفضل فيه – بعد الله سبحانه – إلى موسى بن نصير لأنه بمثابة القائد العام لذلك الجيش .
(حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٨٥ ، محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب العربي جـ ١ ص ٢٥٢ – ٢٥٣) .
(٥٢) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩ ، عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٧٢ – ٧٣ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٩٠ – ٩١ .
(٥٣) محمد عبد الحميد عيسى : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١٣٢ .
(٥٤) المرجع السابق .
(٥٥) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩ .
(٥٦) فرمونة مدينة أندلسية تقع شرق إشبيلية بينها وبين إستجة خمسة وأربعون ميلا تقع على سفح جبل ، وتمتاز بحصانتها لكثرة أسوارها .
(الحميري : الروض المعطار ص ٤٦١) .
(٥٧) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩ .
(٥٨) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة ص ١٨ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠ – ٢٧١ .
(٥٩) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة ص ١٨ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠ – ٢٧١ .
(٦٠) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧١ (نقلا عن ابن حيان) .
(٦١) ذكر بعض المؤرخين أن موسى بن نصير أساء استقبال طارق بن زياد كما بالغ في إهانته حين لقياه له بعد عبور موسى إلى الأندلس ومن هؤلاء المؤرخين : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢٠٨ ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٩ – ٥٠ ، ابن خلدون : العبر جـ ٢ ص ١١٧ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٦ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ١٧١ .
وقد انبرى لمناقشة هذه المسألة عدد من الباحثين المحدثين بأسلوب علمي تحليلي فأبانوا ضعفها وسقوطها ، وعدم ثباتها أمام النقد التاريخي ومن هؤلاء الباحثين عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٨٨ – ٩٠ ، محمد عبد الحميد عيسى : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١٣٧ – ١٣٩ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ص ٩٨ .
(٦٢) اختلف المؤرخون في تحديد المكان الذي التقى به موسى مع طارق بن زياد . فابن القوطية ، والمقري يريان أن ذلك اللقاء تم بأسترقة ، بينما يرى ابن الكردبوس وابن عذاري في رواية له عن الطبري أن مكان التقائهما الأول هو مدينة قرطبة ، وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرون أن ذلك اللقاء تم عند مدينة طلبيرة ومن قال بهذا ابن عذاري في رواية له عن الرازي ، وصاحب أخبار مجموعة . =

= (ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٦ ، اس الكردبوس : تاريخ الأندلس ص ٤٩ ، مؤلف مجهول : أخبار مجموعة ص ١٨) .

(٦٣) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٠٠ .

(٦٤) محمد عبد الحميد عيسي : الفتح الإسلامي للأندلس ص ١٤٢ .

(٦٥) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٨٥ .

(٦٦) سرقسطة مدينة أندلسية تقع شمال شرق الأندلس ويطلق عليها المدينة البيضاء وهى قاعدة الثغر الأعلى الأندلس ، وتشتهر بطيب أرضها وكثرة ثمارها . (ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٥ ص ٧١ ، الحميري : الروض المعطار ص ٣١٧) .

(٦٧) الضبي : بغية الملتمس ص ٢٦٣ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٠٣ .

(٦٨) الحميري : الروض المعطار ص ٣١٧ ، شكيب أرسلان : الحلل السندسية جـ ٢ ص ١١٦١ – ١١٧٠ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٠٣ .

(٦٩) مدينة وشقة إحدى مدن الثغر الأعلى الأندلسي ، تقع شمال شرق سرقسطة وتمتاز بحصانتها حيث يحيط بها سوران من حجر ، ولهذا لما قدم إليها المسلمون امتنعت في وجه الجيش الإسلامي فحاصرها المسلمون حصارا طويلا استمر سبعة أعوام تمكن المسلمون خلالها من أن يبنوا المساكن ويغرسوا الغروس بينما كان النصارى محصورين في القصبة القديمة فلما طال عليهم الحصار طلبوا من المسلمين الأمان على أنفسهم وذراريهم فوافق لهم المسلمون على ذلك .

(العذري : نصوص عن الأندلس ص ٥٥ – ٥٧ ، الحميري : الروض المعطار ص ٦١٢) .

(٧٠) العذري : نصوص عن الأندلس ص ٥٥ – ٥٧ ، الحميري : الروض المعطار ص ٦١٢ .

(٧١) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٠٣ ، عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٩٢ .

(٧٢) محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب العربي جـ ١ ص ٢٦٦ – ٢٦٧ .

(٧٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٦٦ .

(٧٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٦٦ .

(٧٥) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٦ .

(٧٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٢٨ – ٣٢٩ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٦ .

(٧٧) المقري : نفح الطيب حـ ١ ص ٢٧٦ – ٢٧٨ .

(٧٨) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٥٥ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣٤ .

(٧٩) إبراهيم بيضون : الدولة العربية في أسبانيا ص ٨٩ .

(٨٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ .

(81) LEVL . PROVENCAL . HISTOIRE DELESPAGNE MUSULMANE . T . L . P . 30 .

(82) OP, CIT. P. 30 - 31. .

(٨٣) إبراهيم بيضون . الدولة العربية في أسبانيا ص ٩٠ .

(٨٤) هذه الكلمات قالها ربعي بن عامر أحد جند المسلمين في معركة القادسية وقد قالها لرستم حينما قابله عشية معركة القادسية ، وهى بلاشك تدل دلالة واضحة على سمو الهدف ونبل الغاية عند أفراد جيش المسلمين مهما كان ميدان جهاده .

(الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص ٥٣٠) .

(٨٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٠٦ .

(٨٦) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٧٤ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٥ .
(٨٧) سورة التوبة آية ٥٢ .
(٨٨) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ١٢٥ .
(٨٩) البيان المغرب جـ ١ ص ٤٢ .
(٩٠) نفح الطيب جـ ٢ ص ٢٧٨ .
(٩١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٦ .
(٩٢) عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ص ١٥٦ .
(٩٣) الاستقصا حـ ١ ص ٨٩ .
(٩٤) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ص ٢١ .
(٩٥) الحميري : الروض المعطار ص ٢٢٤ .
(٩٦) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٩١ .
(٩٧) الروض المعطار ص ٢٢٤ .
(٩٨) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٥٦٢ .
(٩٩) حنش بن عبد الله الصنعاني هو أحد التابعين الذين دخلوا الأندلس مع الجيش الإسلامي الفاتح ، وينسب إلى صنعاء دمشق ، وقد عاصر علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – كما شارك في فتح بلاد الأندلس ، وهو أول حاكم مسلم لمدينة سرقسطة ، توفي بها سنة ١٠٠ هـ ، حيث دفن هناك عند محراب المسجد الذي شيده ، وبجوار الصحابي الجليل علي بن رباح اللخمي ، ولما تمكن النصارى من الاستيلاء على سرقسطة هدموا ذلك المسجد ، ولم يبقوا من بنائه إلا القليل ، حيث أقاموا على أنقاضه الكنيسة العظمي سيسو (CSCO) .
(الحميدي : جذوة المقتبس ص ٢٨٧ ، العذري : نصوص عن الأندلس ص ٢٢ ، الحميري : الروض المعطار ص ٣١٧ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٨ ، شكيب أرسلان : الحلل السندسية جـ ٢ ص ١١٦١ – ١١٧٠) .
(١٠٠) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٩٢ ، المقري : جـ ٣ ص ٨ ، الحميري : الروض المعطار ص ٢٨ .
(١٠١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٥٦٢ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٠٣ .
(١٠٢) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام،العصر الأول القسم الأول ص ٦٢ .
(١٠٣) أرنولد توينبي : الدعوة إلى الإسلام ص ١٥٦ .
(١٠٤) المرجع السابق ص ١٥٦ – ١٥٧ .
(١٠٥) عبد الرحمن بن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٢٩ – ٣٠ .
(١٠٦) إبراهيم بيضون : الدولة العربية في أسبانية ص ٦٨ – ٦٩ .
(١٠٧) سورة الحجرات آية ١٣ .
(١٠٨) سورة النحل آية ٨٩ .
(١٠٩) سورة التكوير آية ٢٧ .
(١١٠) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .
(١١١) سورة الأعراف آية ٣١ .

(112) Scott , Moorish Empire . V. L. p. 260 - 264 .

(١١٣) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٦ .
(١١٤) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤١٧ .

(١١٥) علي الطنطاوي : ناجي الطنطاوي : أخبار عمر ص ٧٥ .
(١١٦) عبد الرحمن بن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ص ١٧٣ .
(١١٧) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٣٩ .
(١١٨) المرجع السابق ص ٣٩ – ٤٠ .
(١١٩) انظر في تفصيلات هذا العهد أحمد العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٩ – ٨٦ .
(١٢٠) ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ ٢ ص ١٤٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٤٢٨ .
(١٢١) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٣٢٦ .
(١٢٢) انظر في تفصيلات هاتين الموقعتين كلا من : ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ١٠٠ – ١٠١ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٢٤٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١١٦ .

وعن معركة الأرك انظر : المراكشي : المعجب ص ٣٩٤ – ٣٩٥ .

ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٣ ص ١٩١ – ١٩٢ ، المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٨١ ، الحميري : الروض المعطار ص ١٢ – ١٣ .

(١٢٣) نبذة العصر ص ٣٩ – ٤٣ ، المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٢٥ ، محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ص ٢٤٤ – ٢٦٩ ، عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٥٥٢ – ٥٥٥ .
(١٢٤) شوقي أبو خليل : عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ، ص ١٤٢ ، دار الفكر دمشق .

المصـــادر والمــراجـــع

ا - المصـــــادر :

- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ) .
  الكامل في التاريخ .
  نشر دار صادر بيروت ١٣٨٥ هـ .
- البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) .
  صحيح البخاري .
  نشر دار الطباعة بإسطنبول ١٣١٥ هـ .
- الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) .
  معجم البلدان .
  نشر دار صادر بيروت .
- الحميدي : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (ت ٤٨٨ هـ) .
  جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس .
  تحقيق محمد الطنجي .
  نشر مكتب نشر الثقافة الإسلامية القاهرة ١٣٧٢ هـ .
- الحميري : محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠ هـ) .
  الروض المعطار في خبر الأقطار .
  تحقيق إحسان عباس .
  نشر مكتبة لبنان ببيروت الطبعة الثانية ١٩٨٤ م .
- ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حيان (ت ٤٦٩ هـ) .
  المقتبس في أخبار الأندلس .
  تحقيق عبد الرحمن بن علي الحجي .
  نشر دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ م .

- ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي (ت ٥٢٦ هـ) .
قلائد العقيان في محاسن الأعيان .
تقديم محمد العناني .
نشر المكتبة العتيقية بتونس ١٣٨٢ هـ .
- ابن الخطيب : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ) .
أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، القسم الثاني .
تحقيق ليفي بروفنسال .
نشر دار الكشوف الطبعة الثانية بيروت ١٩٥٦ م .
- ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر .
مطبعة بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ .
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
دار صادر بيروت .
- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عنان (ت ٧٤٨ هـ) .
سير أعلام النبلاء .
نشر جامعة الإمام تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي .
ط أولى ١٤٠٥ هـ .
- العبر في خبر من غبر .
تحقيق فؤاد الرشيد .
نشر دار المطبوعات والنشر بالكويت ١٩٦١ م .
- السلاوي : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥ هـ) .
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .
تحقيق محمد وجعفر السلاوي .
دار الكتاب بالدار البيضاء ١٩٥٦ م .

- الضبي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ) .
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس علمائها وأمرائها وشعرائها وذوي النباهة فيها ممن جاء إليها أو خرج منها .
طبع مجريط سنة ١٨٨٦ م .
- الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .
تاريخ الأمم والملوك .
تحقيق أبو الفضل إبراهيم .
بيروت .
- ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ) .
فتوح أفريقية والأندلس .
تحقيق عبد الله أنيس الطباع .
نشر دار الكتاب اللبناني ١٩٦٤ م بيروت .
- ابن عذاري : أبو عبد الله محمد المراكشي (ت ٧١٢ هـ) .
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب .
تحقيق ومراجعة ج . سي . كولان وأ . ليفي بروفنسال .
دار الثقافة بيروت .
الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م .
- العذري : أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائيّ (ت ٤٧٨ هـ) .
نصوص من الأندلس .
من كتاب الأخبار ، وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك .
تحقيق الدكتور / عبد العزيز الأهواني .
نشر معهد الدراسات الإسلامية في مدريد سنة ١٩٦٥ م .
- العماد الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن محمد العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ) .
خريدة القصر وجريدة العصر .
القسم الرابع جـ ٢ .

تحقيق عمر الدسوقي ، وعلي عبد العظيم .
دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .
- ابن غالب : محمد أيوب (ت ق ٦ هـ) .
فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس .
نشر قطعة منه وحققها لطفي عبد البديع .
نشر ط مطبعة مصر ١٩٥٦ م .
- الغريري : ميخائيل (ت ١٢٠٩ هـ) .
(جامع ومحقق) .
مجموعة المخطوطات المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٤٨٨ .
- ابن الفرضي : أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت ٤٠٣ هـ) .
تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس .
عني بنشره وتصحيحه السيد عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٣٧٣ هـ .
- ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) .
الإمامة والسياسة .
تحقيق طه محمد الزيني .
نشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع .
- ابن القوطية : أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧ هـ) .
تاريخ افتتاح الأندلس .
تحقيق إبراهيم الإبياري ط أولى ١٤٠٢ هـ .
دار الكتب الإسلامية .
- ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري (ت بعد ٥٧٣ هـ) .
تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط .
تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي .
نشر معهد الدراسات الإسلامية مدريد ١٩٧١ م .
- مؤلف مجهول . (ت ق ٨ هـ) .

- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها .
تحقيق إبراهيم الأبياري طـ أولى ١٤٠١ هـ .
دار الكتب الإسلامية .
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية .
تحقيق : سهيل زكار ، وعبد القادر زمامة .
نشر دار الرشاد الحديثة بالدار البيضاء طـ أولى (١٣٩٩ هـ) .
- المراكشي : محيي الدين عبد الواحد بن علي (٦٤٧ هـ) .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب .
تحقيق محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي .
طـ السابعة ١٩٧٨ م ، دار الكتاب بالدار البيضاء .
- المقري : أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب .
تحقيق الدكتور إحسان عباس .
دار صادر بيروت ١٣٨٨ هـ .

ب - المـراجـــع :

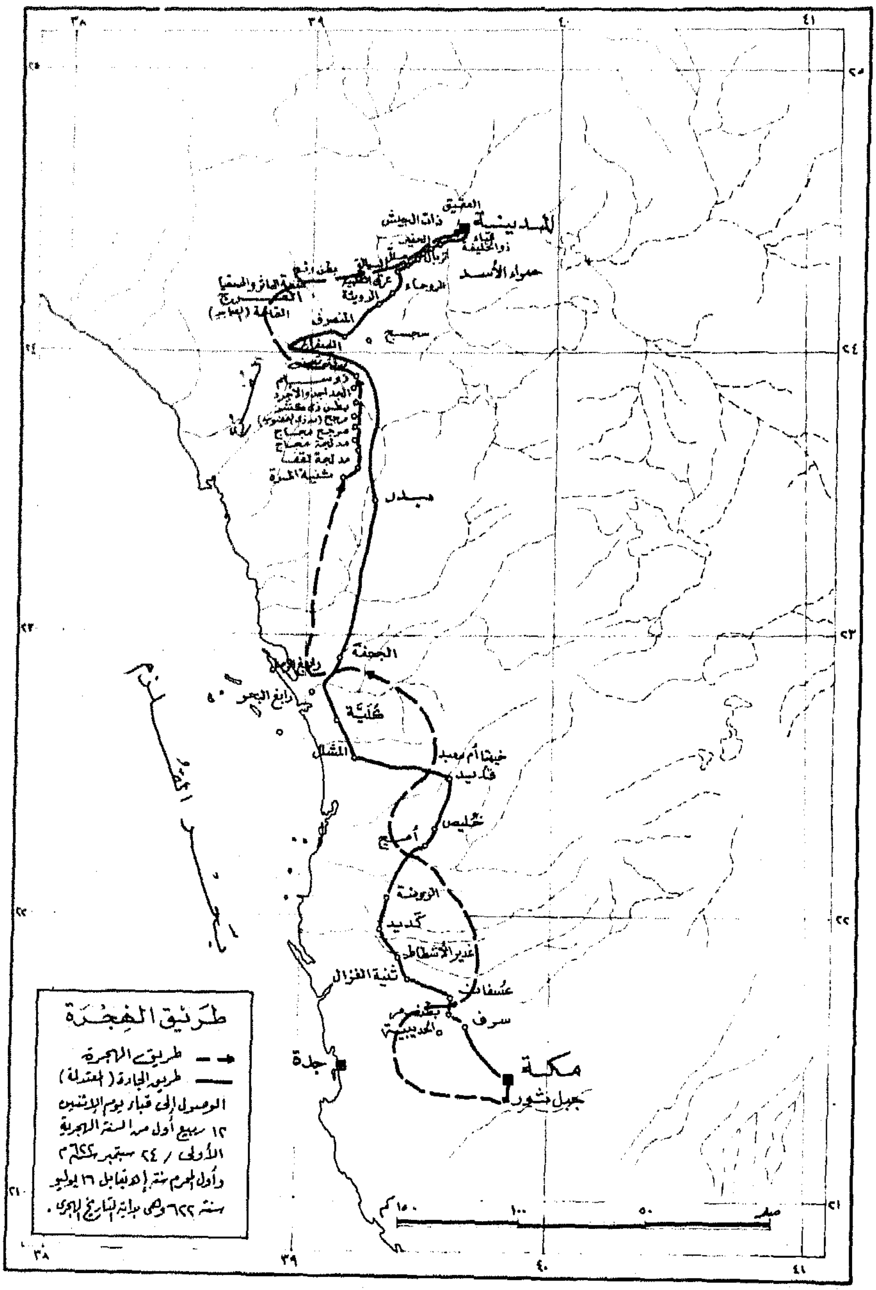
- أرسلان : شكيب .
الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية .
نشر دار مكتبة الحياة ببيروت .
- أشباخ : يوسف .
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين .
ترجمة محمد عبد الله عنان .
الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٧ هـ .

- بيضون : إبراهيم .
الدولة العربية في أسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة (٩٢– ٤٢٢ هـ) .
الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ .
دار النهضة العربية .
- التواتي : عبد الكريم .
مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس .
نشر وتوزيع مكتبة الرشاد بالدار البيضاء .
الطبعة الأولى ١٩٦٧ م .
- الحجي : عبد الرحمن بن علي .
التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧ هـ .
نشر دار القلم دمشق وبيروت الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ .
- خطاب : محمود شيت .
قادة فتح المغرب العربي .
الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ دار الفكر .
- السامرائي : خليل إبراهيم صالح .
الثغر الأعلى الأندلسي دراسة في أحواله السياسية (٩٥ – ٣١٦ هـ) .
ساعدت جامعة بغداد على طبعه .
بغداد مطبعة أسعد ١٩٧٦ م .
- سالم : السيد عبد العزيز .
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة) .
دار النهضة العربية ١٩٨١ م بيروت .
- سير توماس أرنولد .
الدعوة إلى الإسلام .
ترجمة حسن إبراهيم ، وآخرين .
نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م .

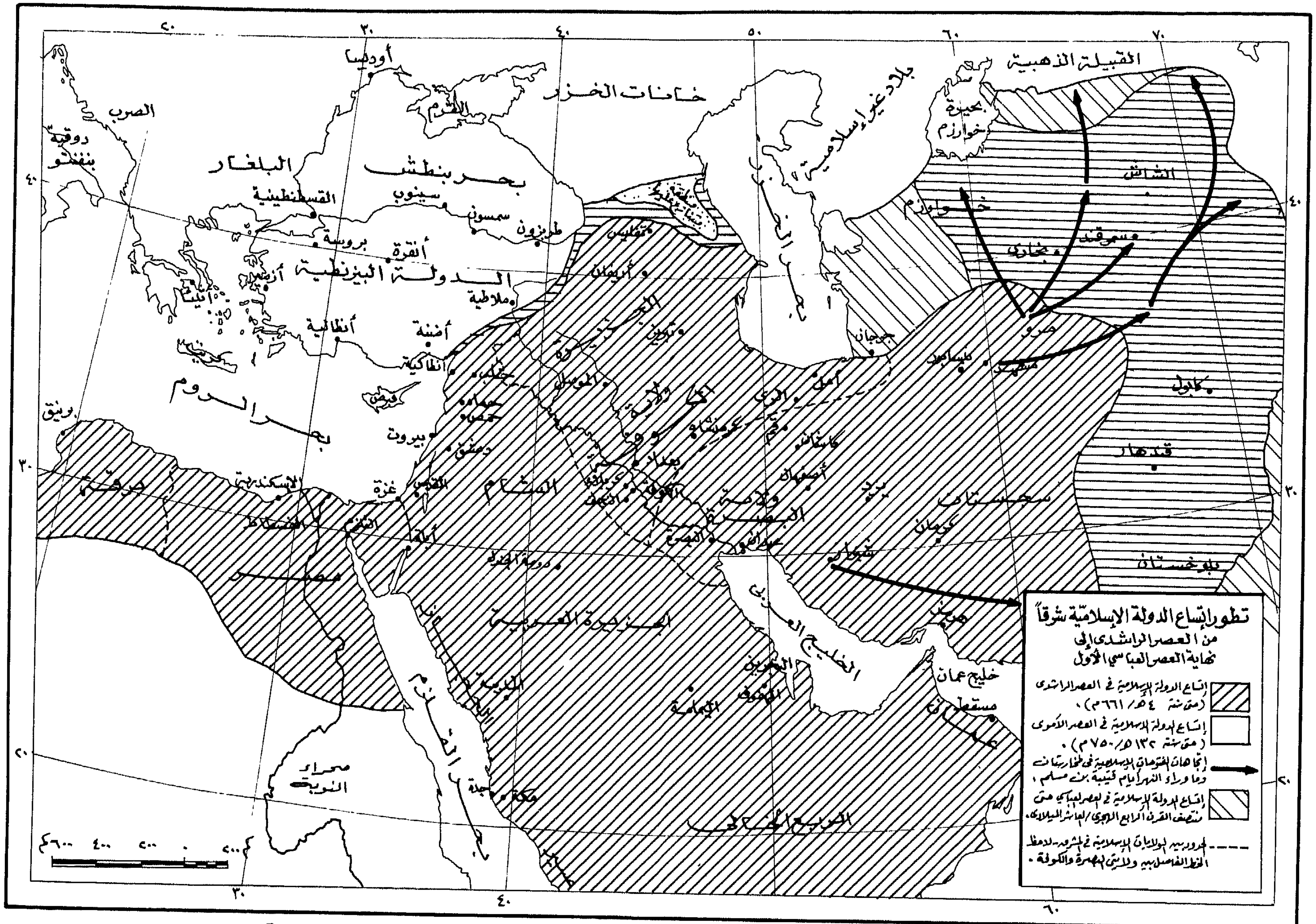
- الشرقاوي : محمد بن عبد الله (دارس ومحقق) .
رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها .
نشر دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة ١٤٠٦ هـ .
- عاشور : سعيد عبد الفتاح .
أوربا العصور الوسطى الجزء الأول ، التاريخ السياسي .
نشر مكتبة الأنجلو المصرية .
الطبعة التاسعة ١٩٨٣ م .
- العبادي : أحمد مختار .
دراسات في تاريخ المغرب والأندلس .
مؤسسة شباب الجامعة للطباعة بالإسكندرية ١٩٨٢ م .
- عنان : محمد عبد الله .
الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال .
مؤسسة الخانجي بالقاهرة .
الطبعة الثانية ١٣٨١ هـ .
- دولة الإسلام ، العصر الأول ، القسم الأول .
مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- عويس : عبد الحليم عبد الفتاح .
قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ .
دار الصحوة للنشر الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .
- عيسى : محمد عبد الحميد .
الفتح الإسلامي للأندلس .
مكتبة سعيد رأفت ١٩٨٥ م .
- الطنطاوي : على وناجي .
أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر .

الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .
المكتب الإسلامي بيروت .
— مؤنس : حسين .
السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين .
مقال منشور في المجلة التاريخية المصرية .
المجلد الثالث ، العدد الأول ١٩٥٠ م .

الخرائط

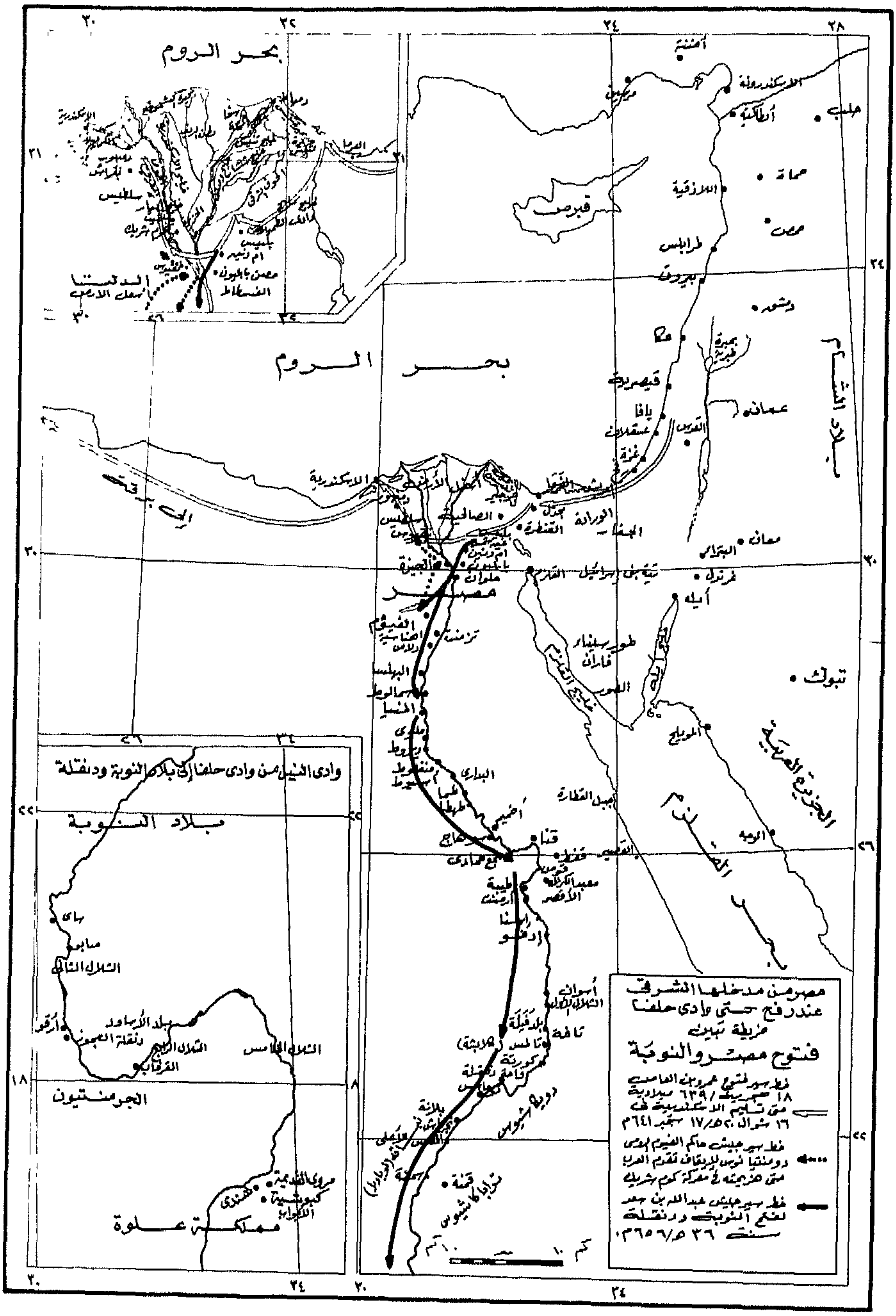


المصدر : د. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٧م ، ص ٦٣

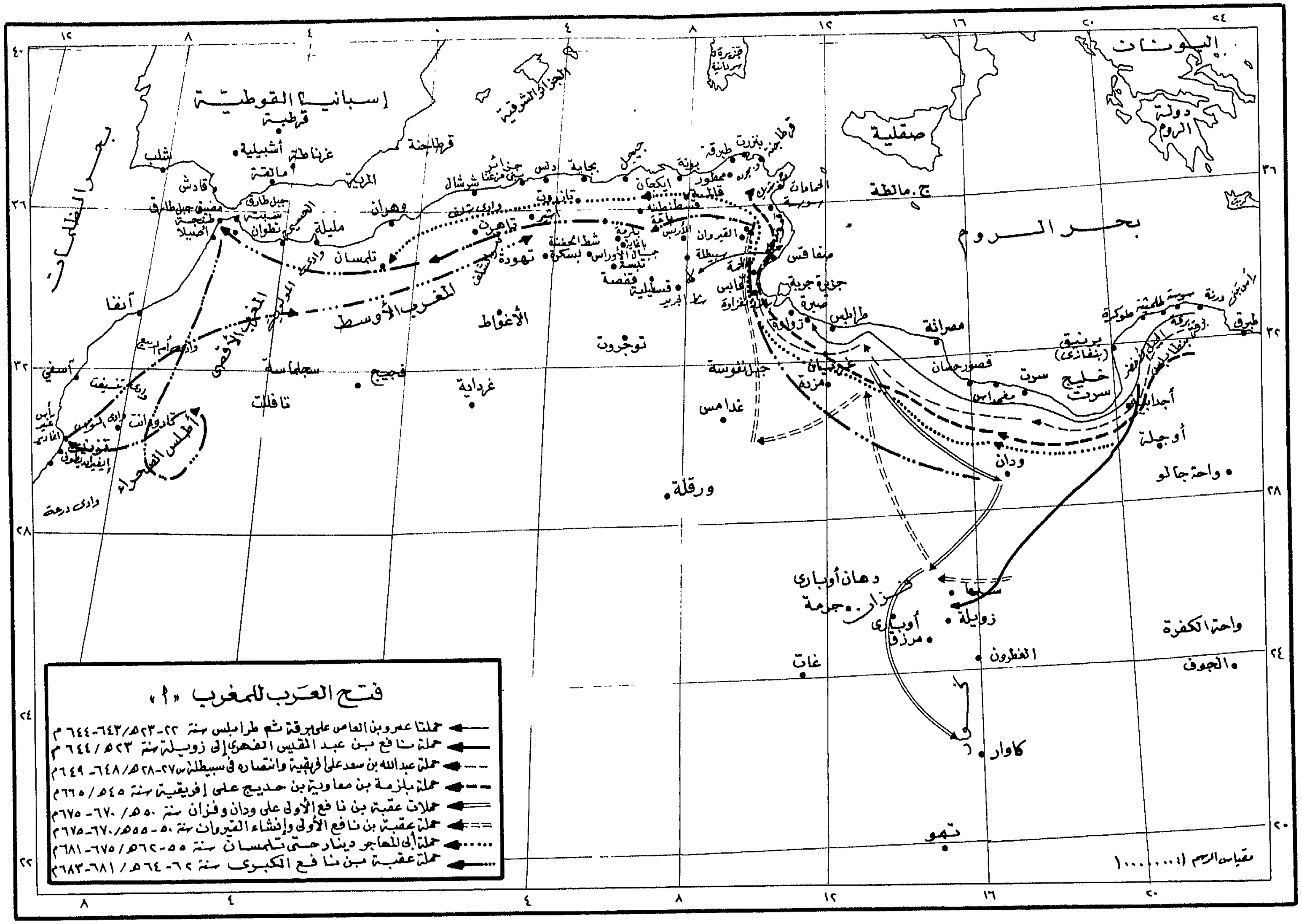


٣

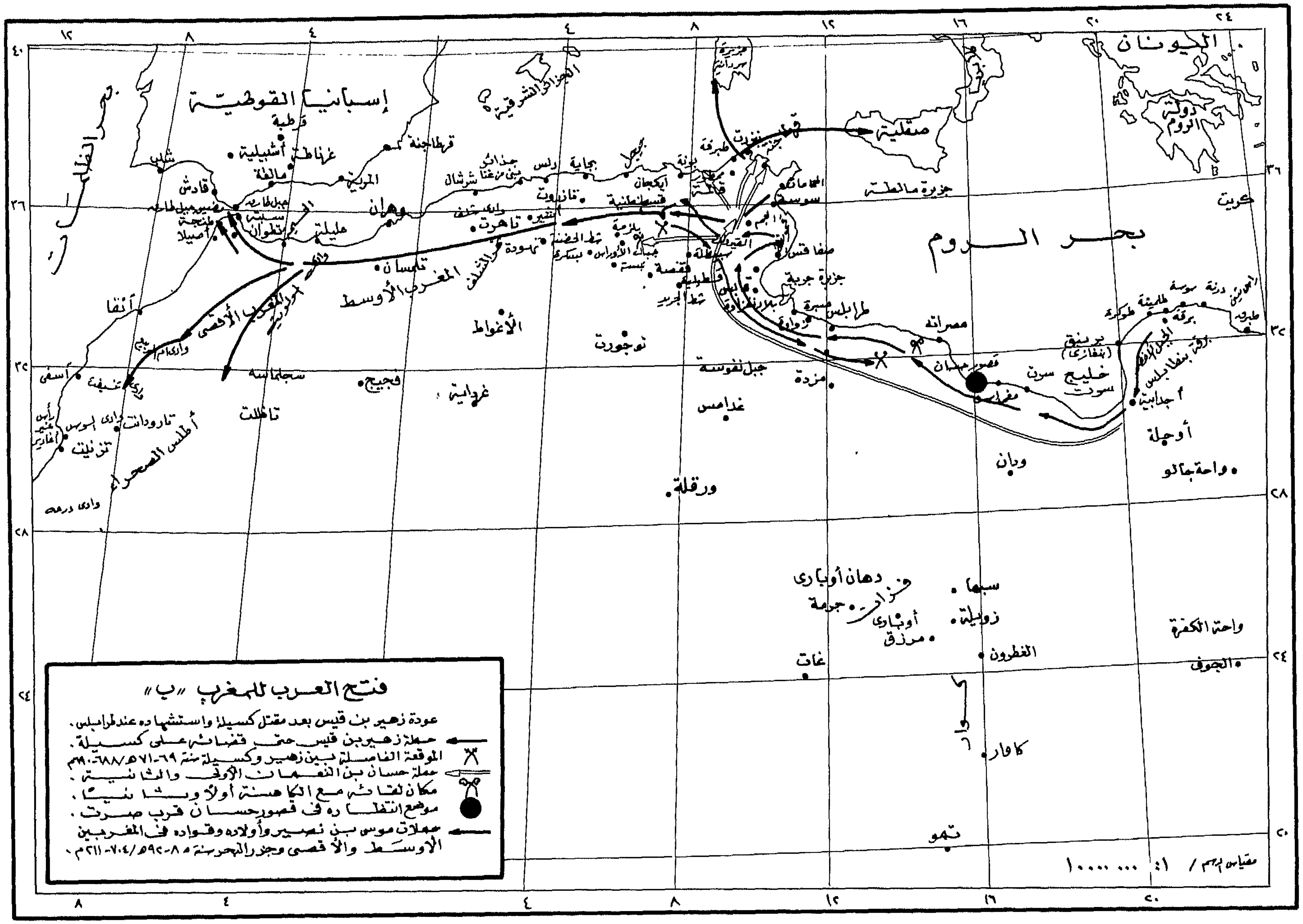
المصدر : د. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة - الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٧م، ص ١٤٦ .



المصدر : د. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام. القاهرة. الزهراء للإعلام العربي. ١٩٨٧م. ص ١١٩

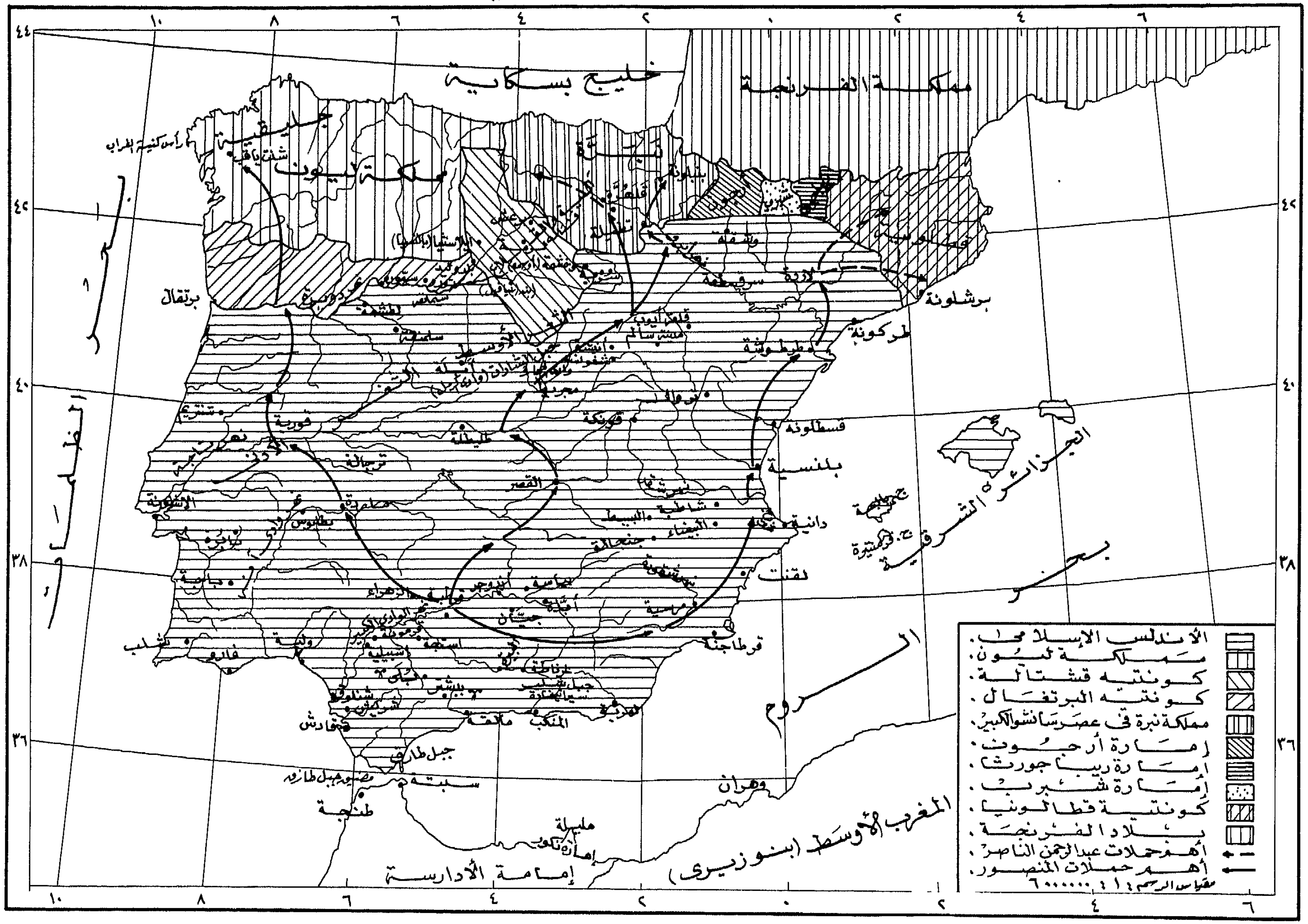


المصدر: د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧م، ص ١٢٠.



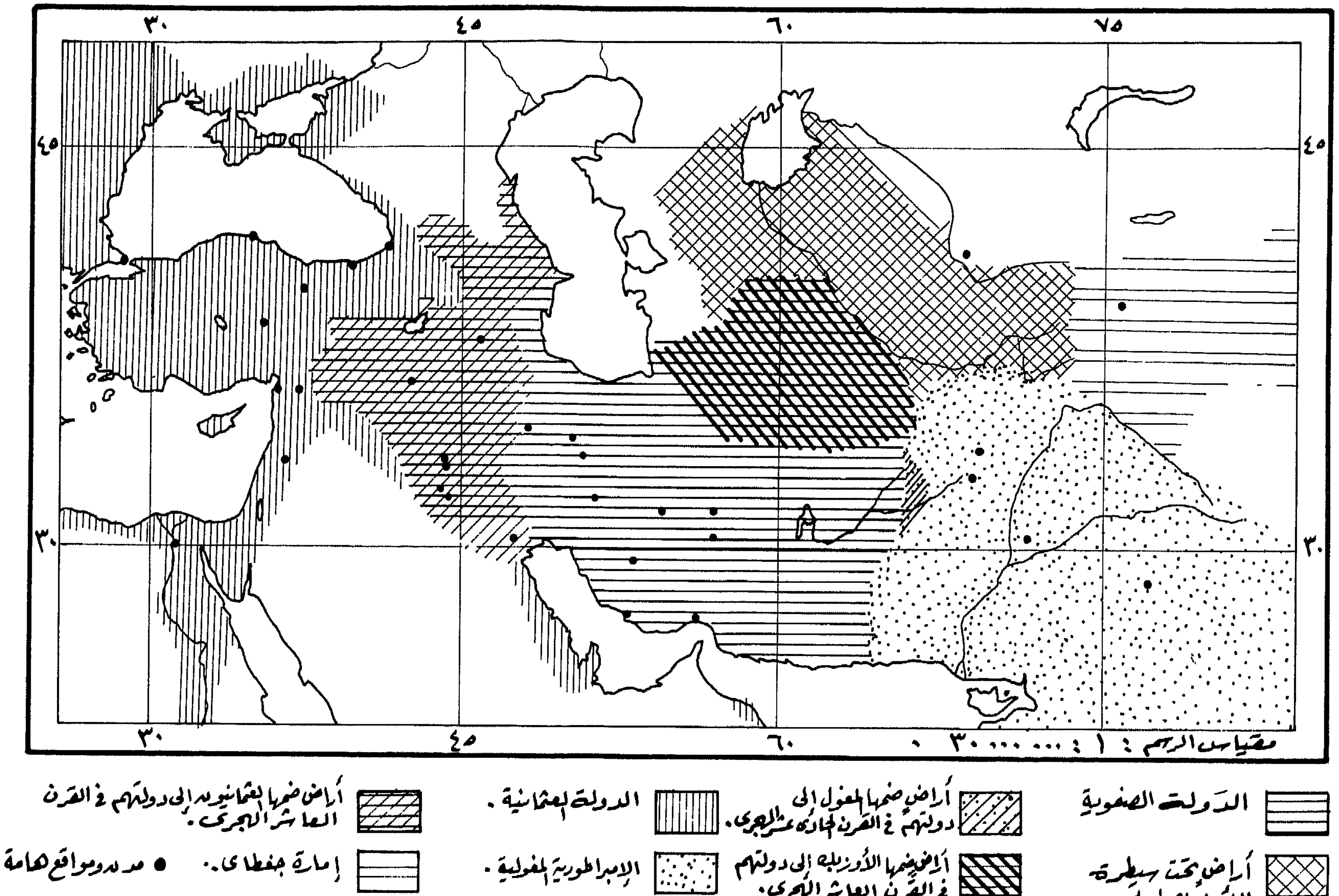
المصدر: د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام. القاهرة. الزهراء للإعلام العربي. ١٩٨٧م. ص ١٢١.

الأندلس في عصره الذهبي



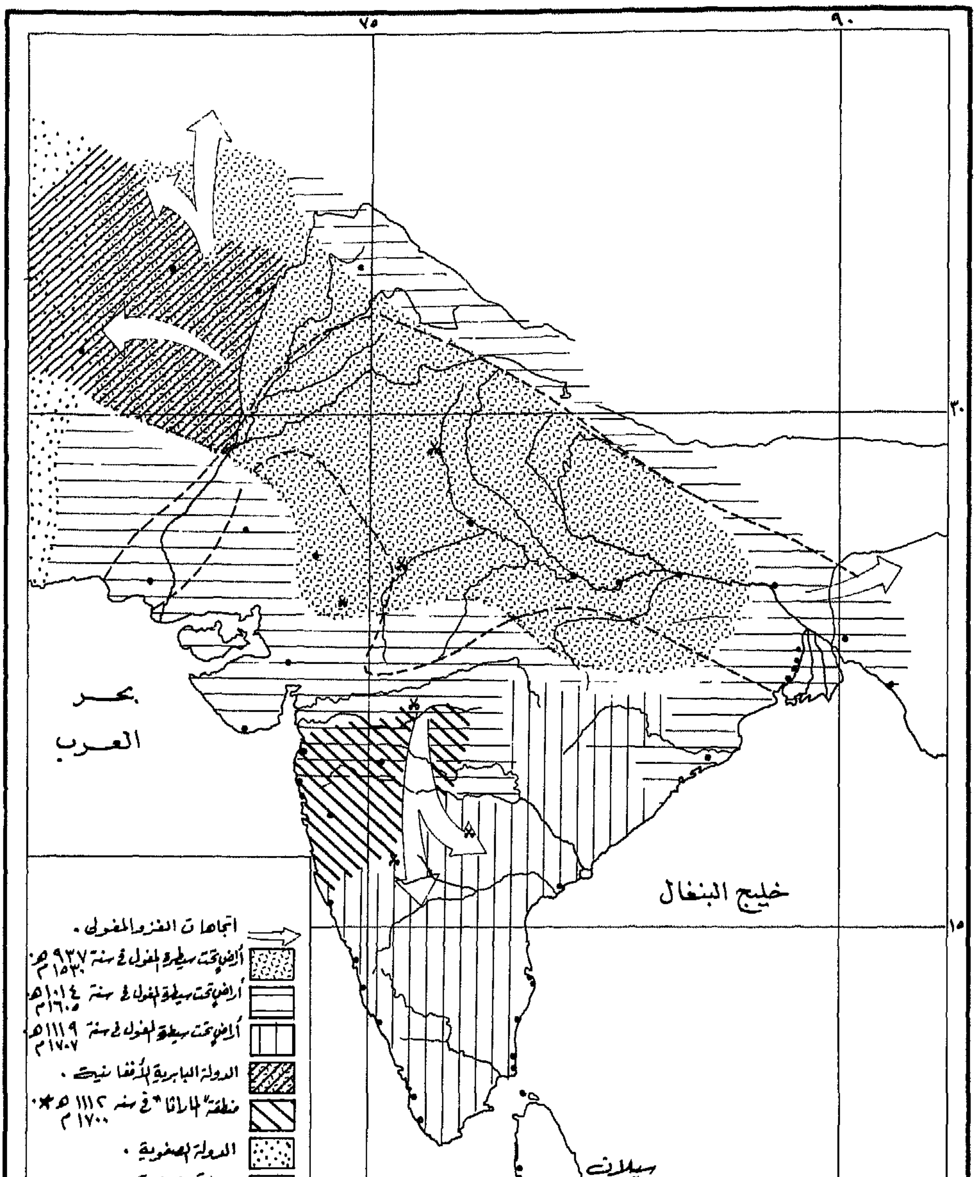
المصدر : د. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧م، ص ١٧٢.

الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى والغربية خلال القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين .



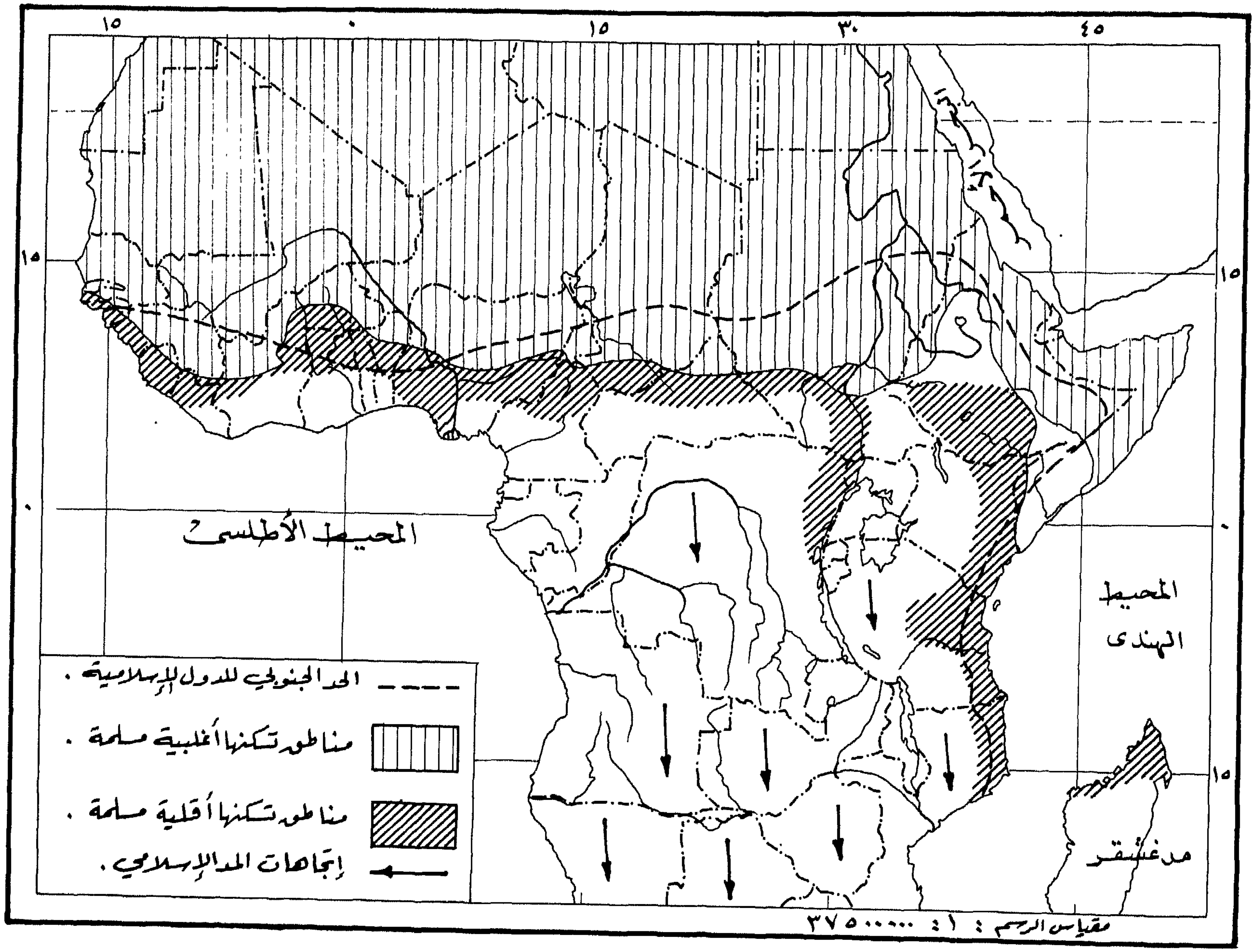
المصدر : Robinson, Francis: Atlas of the Islamic world since 1500. Phaidon press Oxford 1982 p. 45

الدول الإسلامية في شبه القارة الهندية خلال القرون - العاشر والحادى عشر والثانى عشر الهجرية .

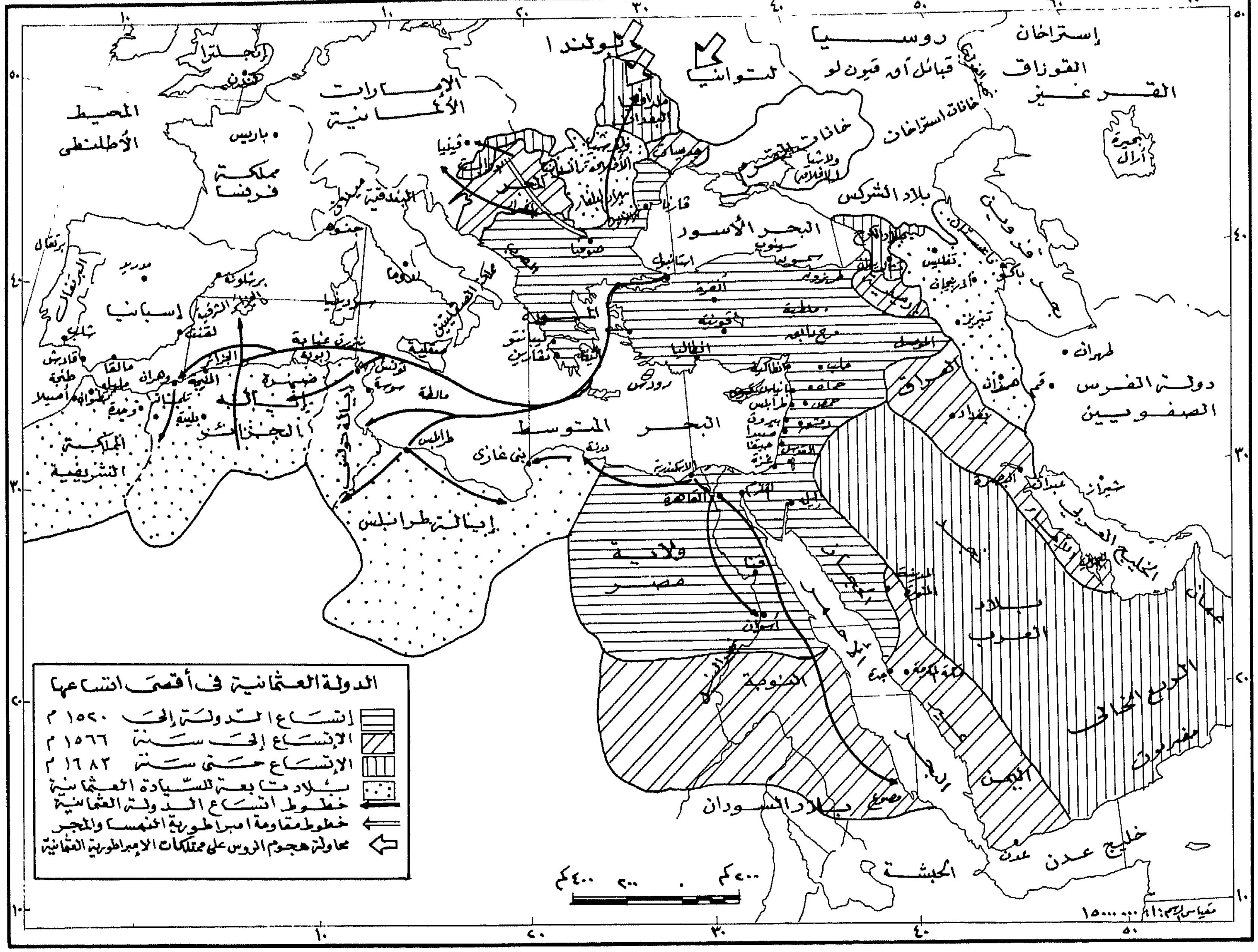


Robinson, Francis: Atlas of the Islamic world since 1500. Phaidon press Oxford 1982 p.59 :المصدر

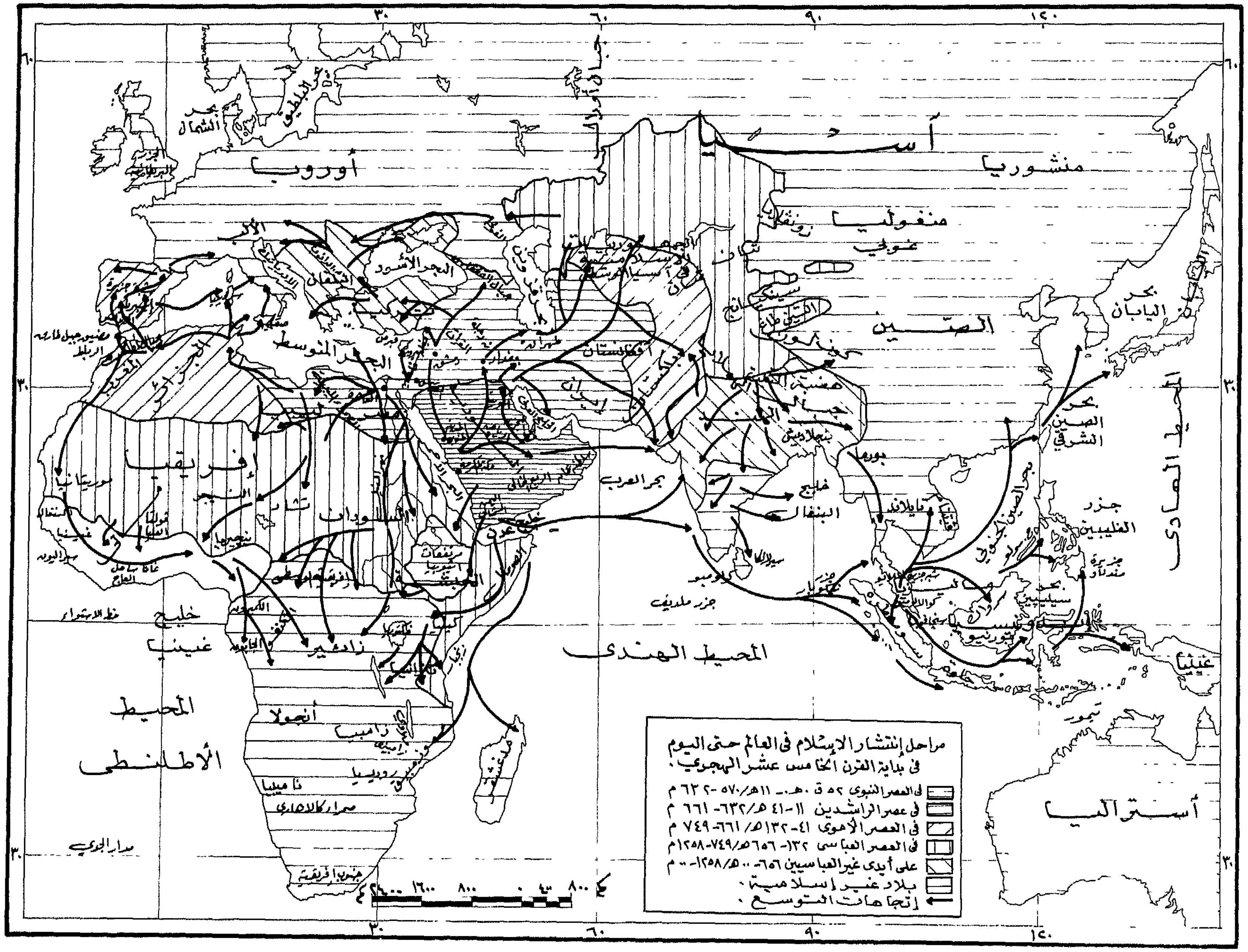
تقدم الإسلام جنوبي الصحراء الكبرى منذ القرن الثاني عشر الهجري وحتى الوقت الحاضر



المصدر : Robinson, Francis: Atlas of the Islamic world since 1500. Phaidon press Oxford 1982 p.155



المصدر: د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام. القاهرة. الزهراء للإعلام العربي. ١٩٨٧م. ص ٣٤٦، ٣٤٧.



المصدر: د. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة . الزهراء للإعلام العربي . ١٩٨٧م ، ص ٣١ .

رقم الإيداع ٤٣٠٤/١٩٩٢ م
I.S.B.N :977 - 256 - 076 - 3

هجر
للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان
المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة
☎ ٣٤٥٢٥٧٩ - فاكس ٣٤٥١٧٥٦
المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل
أرض اللواء - ☎ ٣٤٥٢٩٦٣
ص . ب ٦٣ إمبابة

The National Library : 4034/ 1992
I.S.B.N : 977 - 256 - 076 - 3

Hajar

For Print., Publish., Dist. & Adv.
Office: 4 Teraat El Zomor St., Mohandiseen, Giza.
Tel : 3452579, Fax. : 3451756
Press : 2,6 Abdel Fattah El Tawil St., Ard El Lewa,
Tel. : 3452963. P.O.Box : 63 Embaba

Editorial Board

Forward all Correspondence to :

The Deanery of Academic Research .
P . o . Box 18011
Riyadh 11415 .
Fax. (01) 2590261.
Kingdom of Saudi Arabia .

Advisory Board

Contents

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
AL - IMAM MUHAMMAD IBN SAUD
ISLAMIC UNIVERSITY

١٤١٩هـ ١٣١٩هـ
المملكة العربية السعودية
K.S.A. 100 YEARS
توحيد وبناء

The Geographical Encyclopedia of the Muslim World

Volume 1

SPREAD OF ISLAM

PRINTING IS FINANCED
BY
SHEIKH SULAIMAN BIN ABDULAZIZ AL - RAJHI

The Geographical Encyclopedia
of the Islamic World